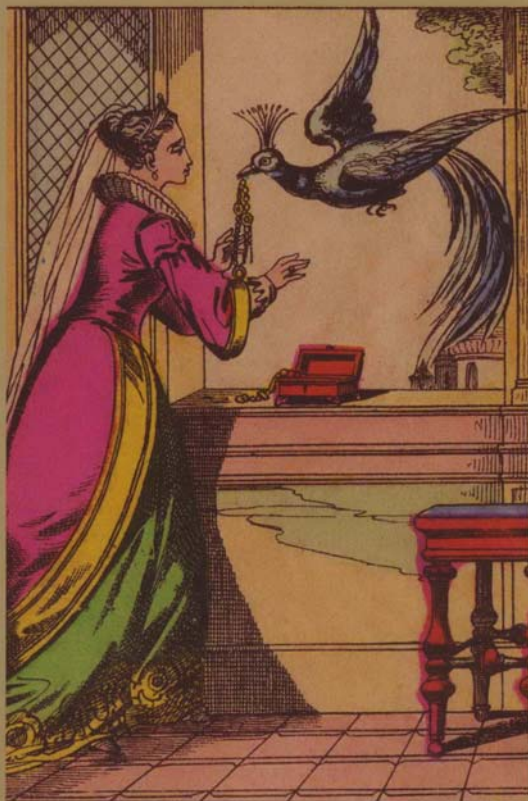




ماري-كاترين دونوا

5.9.2015

# «العصفور الأزرق» وحكايات أخرى



ترجمتها عن الفرنسية

ماري طوق

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

ماري-كاترين دونوا

# «العصفور الأزرق» وحكايات أخرى

ترجمتها عن الفرنسية  
ماري طوق

مراجعة  
كاظم جهاد

«العصفور الأزرق»  
وحكايات أخرى

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2013 م  
حقوق الطبع محفوظة  
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PZ24.A855 O4712 2013

D'Aulnoy, Marie-Catherine, 1651-1705

[*L'Oiseau bleu et autres contes*]

«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى / ماري-كاترين دُونُوا ؛ ترجمة ماري طوق. مراجعة  
كاظم جهاد. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.  
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسي.  
712 ص. ؛ 20×13 سم.  
ترجمة كتاب : *L'Oiseau bleu et autres contes*  
تدمك: 0-200-17-9948-978  
أ- طوق، ماري. ب- جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لنصوص الكاتبة الفرنسية ماري-كاترين دُونُوا  
«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى  
Marie-Catherine D'Aulnoy, *L'Oiseau bleu et autres contes*

لوحة الغلاف لرسام مجهول من القرن التاسع عشر  
الرّسوم الداخليّة مُشار إلى أصحابها في موضعها

  
كلمة  
KALIMA  
[www.kalima.ae](http://www.kalima.ae)

ص.ب: 2380 أبوظبي. الإمارات العربية المتحدة. هاتف: 971 2 6215 300 فاكس: 971 2 6433 127



ص.ب: 440050. الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة. هاتف: 042206117

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

# المحتوى

|     |  |
|-----|--|
| 7   | هذه السلسلة .....                      |
| 9   | مقدمة المترجمة .....                   |
| 13  | مقدمة المراجع .....                    |
| 27  | غراسيوزا وبرسينه .....                 |
| 59  | الجميلة بشعرها الذهبي .....            |
| 79  | العصفور الأزرق .....                   |
| 129 | الأمير عفريت .....                     |
| 179 | الأميرة روزيت .....                    |
| 201 | الغصن الذهبي .....                     |
| 247 | الفأرة الصغيرة الطيبة .....            |
| 267 | الحروف .....                           |
| 289 | رهيفة أو فتاة الرماد .....             |
| 317 | سعدى .....                             |
| 333 | لُعْبَة .....                          |
| 369 | القزم الأصفر .....                     |
| 401 | الصفدعة الخيرة .....                   |
| 433 | ظبية الغابة .....                      |
| 483 | القطة البيضاء .....                    |
| 531 | القُمريّ واليمامة .....                |
| 593 | الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز ..... |
| 663 | الأمير ذيب .....                       |



## هذه السلسلة

يشكل أدب الناشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للناشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثامنة عشرة، فهو يتممّ أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قراءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّة للسرد وعذوبة للغة وانتشارٍ باذخ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيغته الشّفويّة، فجرّ جميع الثقافات. واعتباراً من القرن السابع عشر حوّلته لفيّف من الكتاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب رواده الكبار، وبخاصّة شارل بيرو وماري-كاترين دونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للناشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب الناشئة محبوساً في إطار السّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنّيات، بل صار يخترق كلاً من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيتها. هكذا مارس هذا الجنس الأدبيّ أساطين في فنون السرد من بينهم رائد الرواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للناشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف الناشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتعجيب القصصي، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضرار في كلّ النماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السلسلة، المخصصة لترجمة مجموعة من المؤلفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد الناشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتاب العربيّة في شتى ممارساتهم ومشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السلسلة، من حيث صياغة النصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للغة، اللذين غالباً ما يُفرضان على هذا النمط من الحكايات، بتعلّة توجيهها للناشئة. بلا تعبير للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّور والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسّ على هذا القارئ أو ذلك معنى مفردة ما أو صيغة ما، فلا أسهلّ من أن يستعين بالمعاجم أو يسأل الكبار حولّه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاورٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد



## مقدمة المترجمة

ولدت ماري-كاترين دونوا Marie-Catherine d'Aulnoy عام 1651 في بارنفيل في النورماندي بفرنسا، وتوفيت في باريس عام 1705. وهي ابنة كلود لو جوميل دو بارنفيل Claude Le Jumel de Barneville الذي كان ينتمي إلى طبقة النبلاء. زوجتها عائلتها فرنسوا دو لاموت François de La Motte، بارون دونوا، وهي ما تزال في سن السادسة عشرة، وصارت تحمل لقب «البارونة». وعندما بلغت الثامنة عشرة، هربت من فرنسا على أثر ملابسات قضائية لم تكن في صالحها، وأمضت عشرين سنة في الترحال من بلد أوروبي إلى آخر، لتعود بعدها إلى باريس وتفتح صالوناً أدبياً ارتادته شهيرات ذلك الزمان. ومن البديهي أن سنوات الترحال والاعتراب تلك هي التي تقف وراء تحوّلها الفكري وتفتح مواهبها ككاتبة. ونلاحظ في الكثير من قصصها إدانة واضحة للزيجات المدبرة، وهذا بالتأكيد صدى لما عانته في حياتها الشخصية؛ نذكر على سبيل المثال «القطّة البيضاء»، و«ظبية الغابة»، و«العصفور الأزرق»، و«الجميلة بشعرها الذهبي». لا شك أن «حكايا الجنّيات» لاقت رواجاً وانتشاراً واسعاً في نهاية القرن السابع عشر، وهي تستلهم التراث الشفوي والأساطير الشعبية والتراث المشرقي والأدب القروسطي وبعض نصوص عصر النهضة الإيطالية. لكن يعود لماري-كاترين دونوا الفضل في أنّها، قبل الأديب المعروف شارل بيرو، أول من استخدم عبارة «حكايا الجنّيات» *contes de fées* ونشرت في فرنسا قصة تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي، عنوانها «جزيرة السعادة» *L'île de la félicité*.

وذلك ضمن الرواية التي أصدرتها عام 1690 بعنوان حكاية هيبوليت، الكونت دو دوغلا *L'Histoire d'Hippolyte comte de Douglas*. وفيما بعد استكرّ السّبعة وتنشر في العامين 1697 و1698 أربعاً وعشرين حكاية نالت شهرة كبيرة، تتضمن الترجمة الحالية ثمان عشرة منها، هي أهمّ حكاياتها وأكثرها انتشاراً. وللكاتبة مؤلفات أخرى عديدة في مجاليّ الرواية العاطفيّة والمذكرات.

تعدّ هذه الحكايات من أجمل القصص الخرافيّة، وهي حافلة بالمغامرات والتحوّلات والخيال الجامح، إلى جانب السّخرية وحسّ الدعابة الذي تميّزت به الكاتبة الأنيقة والشقيّة في آن. استطاعت ماري-كاترين دونوا من خلال هذا الجنس الأدبيّ الذي يشرع الحرّيّة للخيال أن تهزّ القيم والمعايير المكرّسة في مجتمع مأزوم، كما تُظهر قصصها اهتماماً شغوفاً بالحبّ بصفته مصدراً للسّعادة وأساساً لخلق مجتمع متوازن. هذا الشّغف بالحبّ يحدوه، بين دوافع أخرى، الحنين لعصر الفروسيّة حين كان الرجال يُجلّون النساء ويفعلون المستحيل ليفوزوا بحبّهنّ ويخلصواهنّ الودّ (الأمير فتان في حكاية «العصفور الأزرق» يفضّل أن يتحوّل إلى عصفور أزرق لسبع سنوات على أن يخون الأميرة التي يحبّها). كما يتحدّث العشاق في حكاياتها بلغة عاطفيّة منمّقة ومتحدّقة تعكس تأثر الكاتبة بأسلوب الأنسة مادلين دو سكوديري *Madeleine de Scudéry* وجغرافية الحبّ الرمزيّة التي ابتدعتها والتي تُعرف بـ «خارطة الرقّة» *La carte de Tendre*. كلّ ما يقوم به الرّجل ينمّ عن احترام مفرط للمرأة وتغدو هي الشاهدة الوحيدة على ما يحقّقه من مآثر. إلى ذلك، يُعالج الحبّ في هذه الحكايات من الناحية النفسيّة عبر دراسة الانفعالات والمشاعر التي يثيرها كالغيرة والرقّة والتقدير، أو الوله والهيام وتصويره على أنّه

«مرض» محتم.

لا تهدف حكايا الجنّيات التي ألفتها ماري-كاترين دونوا بفانتازيا وخيال مدهشّين إلى التسلية والترفيه فحسب، بل تبدو أيضاً وكأنّها وسيلة للاعتراض على الظروف التي تحدّ من حرية النساء في التعبير عن المواضيع التي تمسهنّ في الصّميم، ولرفض المبتذل وإعادة تحديد العلاقات بين الرّجال والنساء على أساس التكافؤ المتبادل والحبّ والاحترام. كما تتضمّن احتجاجاً مضمراً على السياسة القمعيّة التي ميّزت أواخر القرن السّابع عشر. وقد جرت دوماً المقارنة بينها وبين جان لافوتين Jean de La Fontaine صاحب الأمثال الشعريّة لجهة انتقادهما المضمّر لوجوه البلاط والمجتمع الفرنسيّين.

قصص الجنّيات كنز ثمين يؤكّد حضوره بفاعليّة في الوعي البشريّ والفكريّ ويحمل القارئ إلى عوالم تجاور فيها الحقيقةُ الخيال. وكما كتب برونو بتلهائم Bruno Bettelheim، في كتابه الشّهير في التحليل النفسيّ لحكايا الجنّيات<sup>(1)</sup>: «تستجيب قصص الجنّيات لمخاوف الطّفّل والمراهق وتمارس عليهما قدرة إشفائيّة موحية بالتجارب التي يجب خوضها والجهود التي يجب بذلها لمواجهة الواقع. وهي تساعد الأطفال على إضفاء معنى على حياتهم...».

ماري طوق

(1) Bruno Bettelheim, *The Uses of Enchantment: The Meaning and Importance of Fairy Tales*, 1976.



## مقدّمة المُراجِع

تستنطق حكايا الجنّيات Contes de fées المكتوبة بالفرنسيّة، شأنها شأن حكايات ألف ليلة وليلة ومجمل القصص الخرافيّة، كامل الوجود الإنسانيّ. تتوسّل بالأخيلة والأمثال والرّموز، بيد أنّ مدار انعقادها هو حياة الإنسان نفسه. يقرؤها الصّغار والكبار، ولا تختصّ بها ثقافة دون سواها، ولا عصرٌ دون غيره. ومن علامات خصبها وقوّتها أنّها سرعان ما انتصرت على أفكارٍ مناوئةٍ نعتتها، لدى ولادتها في أواخر القرن السابع عشر، بالسّذاجة وتوخيّ الإمتاع الفنيّ بوسائل يسيرة. وتشكّل حكايات ماري-كاترين دونوا Marie-Catherine D'Aulnoy أحد الأعمال المؤسّسة لهذا الجنس الأدبيّ، وفي الأوان ذاته أحد التجلّيات الأولى للكتابة النسويّة في فرنسا. ونظراً لسعة عالم الكاتبة الخياليّ ولتنوّع إجراءاتها السّردية ارتأينا أن نمهد لقراءتها بهذه الإضاءات التاريخيّة والتّقديّة.

### نسيج الحكايات

ساهمت ماري-كاترين دونوا في إرساء قواعد هذا الجنس الأدبيّ إلى جانب شارل بيرو Charles Perrault (1703-1628) وعدد من الكاتبات والكتّاب الفرنسيّين. نشرت حكايتها الأولى «جزيرة السّعادة» *L'île de la félicité* ضمنَ روايتها حكاية هيبوليت، الكونت دو دوغلا *L'Histoire d'Hippolyte comte de Douglas* في 1690، أي قبل أن يبدأ شارل بيرو، الرّائد الآخر لهذا الجنس الأدبيّ<sup>(1)</sup>،

(1) يجد القارئ في هذه السّلسلة ترجمة لحكاياته تحت عنوان حكايات أمي الإوزة، ترجمة ياسر عبد اللّطيف، مراجعة كاتب هذه السّطور.

نشرَ حكاياته الشهيرة بسنة واحدة. ثم أظهرت في العامين 1697 و1698 جميع حكاياتها الباقية التي ستصنع إلى اليوم شهرتها ككاتبة. أما وقد قلنا هذا، فينبغي الانتباه إلى أن هذا الجنس الأدبي الذي تأسس ككتابة بمبادرة من هذين الرّائدين ومُجاليهما كان بطبيعة الحال مسبقاً بتراثٍ شفاهيٍّ ضخم. كما أن تراثاً إنسانياً واسعاً من الحكايات الأسطورية والدينيّة والخياليّة شكّل لهؤلاء الكتاب خزاناً واسعاً راحوا ينهلون منه عناصر أو «موتيفات» سرديّة يمارسون عليها تحويلات معتبرة ويُخضعها كلٌّ منهم لمتطلّبات عمله الحكائيّ ولإلزامات خياله الخلاق.

على هذا التحو، تستعير ماري-كاترين دونوا في حكاياتها التّالية عناصر وإجراءات سرديّة آتية من نصوص أبوليوس Apuleius صاحب الحمار الذهبيّ أو التحوّلات (القرن الميلاديّ الثّاني) ومن التحوّلات لأوفيدوس Ovidius (بدايات القرن الميلاديّ الأوّل) ومن حكايات الإيطاليّين سترابارولا Straparola (حوالي 1480-1558) وبازيله Basile (حوالي 1566-1632)، ومن الحكايات الخرافيّة الشعريّة لمُعاصرها الشّهير لافونتين (1621 - 1695) La Fontaine، وكذلك ممّا كان معروفاً يومذاك في أوروبا من عناصر الأدب الشّرقيّ. تتركّز عمليّة الاستعارة أو التناصّ هذه على إجراءات معيّنة نجدها في مختلف حكايات هذا الجنس الأدبيّ، تؤلّف بينها الكاتبة وتضيف إليها وتدمغها بميسم لغتها الخاصّة. على رأسها يقف:

- موضوع الغراميات المعوقة أو المحول بينها وبين التحقّق؛
- الحيوانات الخدوم أو المُسعفة التي تكافئ البطل على إنقاذه لها في الماضي فتساعده في العثور على ضالّته؛
- المسخ أو التحوّل المؤقت إلى حيوان أو إلى طائر أو نبات أو

جماد. يدوم ذلك ريثما يتوصّل البطل أو أيّ «مُساعد» أو «حليف» آخر إلى إبطال السّحر المسلّط على الحبيبة (أو العكس، إذ يحدث أن تُبطل الحبيبة هي نفسها عملَ السّحر المُصاب به المعشوق)؛

- الجماد النّاطق والنّبات الذي يُصبح حسّاساً؛

- الجنّيات المُحسّنت والأخريات الخبيثات؛

- سلسلة من الاختبارات التّعجيزيّة المفروضة على بطلة الحكاية من لدن منافسة حاقدة أو جنّية خبيثة، منها، مثلاً، حلّ شلّة ضخمة من الخيوط، أو تفريق رياش عائدة إلى طيور مختلفة صير إلى تكديسها كيفما اتّفق في برمبل ضخّم، وسواها من أنماط السّخرة والتّدجين، يساعد البطل حبيته في اجتيازها دوماً؛

- سلسلة من العقوبات تتعرّض لها البطلة أو البطل على يد امرأة منافسة أو خصم كاره، تساعدُها جنّية خبيثة، عقوبات تذهب من الجُلْد إلى الاعتقال في قصر موصدة أبوابه أو في مكان مسحور أو في قاع قنينة ضخمة؛

- الأشياء المزوّدة بمفعولٍ خارق للعادة، كالعصا السّحرية والتّفاحة التي تجدد الجمال وينبوع الشّباب والطّائر الأخضر الذي ينطق بكلّ الأسرار، إلخ.

هذه الإجراءات وسواها، وهو كثير<sup>(1)</sup>، تضيف إليها الكاتبة إجراءات أخرى وافرة هي بنات خيالها المحض. لا بل تجد في آثارها حكايات كـ «الفأرة الصّغيرة الطّيبة» و«سعدى» و«لُعبة»

(1) تقدّم نادين جاسمان في نشرتها الشّاملة المحقّقة لحكايات ماري-كاترين دونوا عرضاً نقدياً تفصيلياً لما تقوم به الكاتبة من استعارات وإضافات في كلّ واحدة من حكاياتها، وندين لعمل هذه الشّارحة بعدد من المعلومات حول مصادر إلهام الكاتبة؛ انظر:

Madame D'Aulnoy, *Contes des Fées, suivis des Contes nouveaux ou Les Fées à la Mode*, édition critique établie par Nadine Jasmin, Honoré Champion éditeur, coll. Bibliothèque des Génies et des Fées, Paris, 2004.

و«الضفدعة الخيرة» لا تستند إلى أي نماذج سابقة، وإن كانت تشترك معها في بعض «الموتيفات» العامة كالبحث عن الزوج المفقود أو اكتشاف الهوية الشخصية بعد تمويه ممارس عليها أو تكبد الامتساخ. وتقوم الكاتبة بالجمع بين هذه العناصر والإجراءات فتفرض عليها صيرورات مختلفة وتتمايز عن الكتاب الآخرين بما تمارسه من تعداد أو تنضيد للحكايات. فإذا كان بيرو مثلاً يُمسك بخيط أساسي ويُقيم عليه حكاية واحدة يضيئها من كل جوانبها عاملاً بالتكثيف والاقتصاد السردي واللغوي في آنٍ معاً، فإن دونواتعمل بالعكس على الجمع بين حكايات عديدة تجعلها تنمو بصورة متوازية أو متزامنة. ودائماً يكون بين الحكايات عنصر مشترك يؤمن في نهاية المطاف وحدة مختلف الحكبات ويصهرها في بوتقة حبكة كبرى متماسكة. ولأن من شأن القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه، فلن نضرب هنا إلا مثلاً واحداً. ففي حكاية «الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز» تتنامى ألغاز عديدة تظل في تناوبها وتقاطعها تشوق القارئ وتوجه مجرى الحكاية حتى يعثر البطل على الطائر الصغير الأخضر الناطق بكل الأسرار، الذي يكشف عن الألغاز تلك ويمنح جميع عناصر الحكاية في نهايتها وضوحاً باهراً وتلاحماً لا انفصام فيه.

### عمل التناص

على أن الكاتبة تمارس أحياناً نوعاً من التناص الصريح والمقصود لذاته. ففي حكايتها «رهيفة أو فتاة الرماد» تجمع بين حكايتين معروفتين لشارل بيرو هما «سندريلاً والخف البلوري الصغير» و«أصبيع»، وتجعل الفتاة رهيفة تضطلع بكلتا التجربتين اللتين يُعيرهما بيرو لبطله الاثنين. وإلى ما في صنعها من إعلاء



لقوة الأنوثة وذكائها، وهو أمر متواتر في كتاباتها، تُضيف دونوا تعقيدات إضافية ومنعطفات جمّة. لقد نشرت هي حكايتها المعنّية في 1697، أي في العام نفسه الذي سبقها فيه بيرو إلى نشر حكايته المذكورتين. وقبل ذلك بعامين، أي في 1695، كانت الأنسة ليريتيه (1734-1664) Mademoiselle L'Héritier قد نشرت حكاية مشابهة بعنوان «مغامرات رهيفة». هذه الكاتبة كانت تخوض مع شارل بيرو (وكان عمّها أو خالها) نوعاً من المنافسة الودّية والتعاون الأدبي، ولطالما عالجا تجارب سردية متقاربة. وعلى النحو ذاته ينبغي أن نفهم ما قامت به دونوا من تطوير لحكايتي «رهيفة» و«أصيص». وهذا التنافس والممارسة المعمّمة للتناصّ شاعا في الحقيقة بين أغلب كتّاب هذا الجيل، لا بين أغلب كتّاب هذا الجنس الأدبي، وهو ما يذكّر باشتغال قدامى الشعراء العرب على عدد من الأواليات الشعرية كالوقوف على الأطلال وسواه يسكب عليها كل منهم نبره الخاص.

### ميسم الشرق

أما بالنسبة للتأثير الشرقي، وخصوصاً المؤثرات العربية، فينبغي التذكير بأنّ عناصر من المخيال الشرقي كانت دائمة الحضور في الأدب الغربيّ قبل نشأة حكايا الجنيات بقرون. وكما تذكّر به ريموند روبر<sup>(1)</sup>، فإنّ عهد لويس الرابع عشر الذي عاشت ماري-كاترين دونوا إبانها قد حفل بالعلاقات الدبلوماسية والتجارية بين فرنسا

(1) انظر تقديم ريموند روبر لنشرة نادين جاسمان الآنفه الذكر لحكايات ماري-كاترين دونوا، بعنوان «قرن من الحكايا العجائبية»، وندين لهذا البحث ببعض المعلومات التاريخية الواردة في فقرتنا التالية.

Raymonde Robert, « Un siècle de contes merveilleux », in Madame D'Aulnoy, *Contes des Fées...*, op. cit., p. 15 sq.

والشرق وامتاز بافتتاح المعهد الملكي لتعليم اللغات الشرقية، بما فيها العربية، وبكثرة البعثات المرسلة إلى الامبراطورية العثمانية. وقد ساهم المستعرب الشهير أنطوان غالان Antoine Galland في بعض هذه البعثات، كما بدأ ينشر أجزاء ترجمته لحكايات ألف ليلة وليلة في 1704، أي بعيد انطلاق موجة حكايا الجنيات في فرنسا بست سنوات. هذه المسافة الزمنية الضئيلة تدفع إلى التساؤل عما إذا لم تكن عناصر جزئية من الليالي قد سبقت إلى الشيوخ في فرنسا أو أوروبا، بصورة شفوية على الأقل، وذلك لا سيما وأن حكايا الجنيات نفسها كانت تُسمع في الصالونات والبيوت، كما يحدث حتى الآن في بعض المقاهي الشرقية، أكثر مما كانت تُقرأ في الكتب. بعد صدور ترجمة ألف ليلة وليلة على يد غالان سينشأ في الحكايات الخرافية الفرنسية تيارٌ كامل يُسمى تيار الحكاية الشرقية الإلهام *la veine orientale* تمتد سني ازدهاره أو عصره الذهبي بين 1704 و1789، ومن أهم أعمدته غالان نفسه والأب بينون L'abbé Bignon وبيتيس دو لا كروا Pétis de La Croix وغوليت Gueulette وكازوت Cazotte.

بيد أن حكايات دونوا نفسها لا تبدو خلواً من التأثير الشرقي. هكذا يشير الباحثون مثلاً إلى تقارب واضح بين حكايتها «القُمريّ واليامة» و«حكاية نعم ونعمة» في ألف ليلة وليلة، قد يكون نتيجة تأثر مباشر أو غير مباشر بالنص العربي<sup>(1)</sup>. فكلتا الحكايتين تقومان على أسر الحبيبة أو اختطافها وترحيلها إلى بلاد أخرى، وعلى اندفاع العاشق في بحثٍ مضمّن عنها يمرّ بمنعطفات ومفاجآت عديدة. وكالعادة تبرع دونوا في تعقيد الحكاية وإثرائها بحكايات عديدة

(1) انظر حواشي نادين جاسمان في نشرتها السالفة الذكر لحكايات دونوا، ص 1149 وما يليها.

يتوالد بعضها من بعض على خلفيّة تلاحم نهائيّ. على أنّ الباحثين لم ينتبهوا إلى ما وجدناه من شبه بين مطلع الحكاية العربيّة المذكورة والحبكة الأساسيّة لحكاية أخرى لدونوا عنوانها «الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز» (وهي مترجمة في هذا الكتاب). ففي حكاية ألف ليلة وليلة، يُغرَم نعمة بنعم ولكنه كان يتصوّر أنّها أخته، حتّى يكشف له أبوه عن كونها في الحقيقة طفلة غريبة ربيت معه في كنف عائلته، فيتزوّجها. ونجمة الجمال وعزيز في نصّ دونوا نشأ هما أيضاً في ظروفٍ تجعلهما يحسبان أنّهما شقيقان، ولكنّها يُفاجآن بحبّ جارف يجتاحهما ولا يقدران لا على الانقياد إليه ولا على صدّه، حتّى يكشف لهما الطائر الأخضر الناطق بكلّ الأسرار أنّ نجمة الجمال هي في الحقيقة ابنة خالة عزيز، وأنّهما كانا قد أبعدا عن عائلتيهما بصحبة شقيقيّ الفتاة على يد خالة أخرى غيور وحاقدة. هنا أيضاً تُختتم تجربة المنفى والحبّ الغامض اللهب بقران فرح واكتشافٍ ظافرٍ للهويّة أو لتاريخ الشخوص الذي كان متستراً عليه في صنيع لؤم.

### حدّاتة دونوا

إلى عمل الاستلهام والتّطوير والإضافة والابتكار هذا، تخرج الكاتبة بين مختلف مستويات الكلام والسرد فتجمع بين الخرافيّ والعجائبيّ والتاريخيّ والواقعيّ، إلخ. وبهذا كلّ قرّبت الحكاية الخرافيّة من القصّة الطويلة أو من الرواية القصيرة فكانت من الممهّدين لكتابة الحدّاتة.

ومن سمات حدّاتة حكايات دونوا توفّرها على عمل واضح للدّعاية تارةً وللسّخرية طوراً. فغالباً ما نراها وهي تبالغ في وصف قبح بعض الشخوص أو جمال بعضها الآخر، كما تتسلّى أحياناً

بوصفٍ سذاجة بعض العشاق أو الأبطال. فكأنّ هذا الجنس الأدبيّ قد بلغ لديها فور ولادته طوراً من التّضحج يسمح لها بأن تُلقني على بعض عناصره نظرةً لاعبةً أو حتى متهكّمة تستهدف بعض العناصر الشائعة في حكايات الفروسية والعشق. ولا شكّ أنّ القارئ لا يقدر إلاّ أن يتتبعه إلى الانتصار الدائم لديها للأنوثة المعتقّلة وللمرأة المهمّشة، وهو صديّ واضح لمأساتها هي نفسها في حياتها كامرأة.

تّما يميّز عمل الكاتبة أيضاً خروجها مراراً عديدة على بعض قواعد هذا الجنس الأدبيّ، وخصوصاً عدم التزامها بالنهاية السعيدة لجميع الحكايات. هكذا نجد لديها نهاياتٍ غير مألوفة ولا متوقّعة وكذلك نهايات مأساوية. فبطلة «الغصن الذهبيّ» تفضّل أن توهب الحكمة على أن توهب الجمال، وفي النهاية تظفر بهما كليهما. وبطلا «القمرّي واليامة» يفضّلان في خاتمة الحكاية البقاء طائرين، أي أن يستمرّ تحوّلها، حتّى بعدما تعرض عليهما إحدى الجنّيات المحسّينات إمكان استعادتها هيتّهما البشرية. وبطلا «القرم الأصفر» و«الخروف» ينتهيان نهاية فاجعة. وفي هذا الخرق لمبدأ النهاية السعيدة التي يفرضها الكتاب على أغلب حكايا الجنّ وقصص الناشئة، تُقرّب الكاتبة الأدب من الواقع ولا تتخفّى برياءٍ على ما في التجربة الملموسة أحياناً من مأس ومصاعب وخسارات.

على أنّ أحد جوانب حكايات دونوا هذه يظّل عرضةً للنقد أو يدعو إلى قراءته بشيء من التحوّط. يتعلّق الأمر بشيء من روح المحافظة أو الامتاليّة والمراتيبة التي تبرز عبر الإعلاء من أهميّة عالم التّبلاء والتّشبّث بالقيم الأرستقراطية والأهميّة المعقودة للولادة والمختد والأصل، وكذلك الولع بعناصر البذخ والتّرف المادي والثراء. هذا كلّه لصيقٌ بروح العصر وبالأجواء التي نشأت فيها

الكاتبة، ويمكن أن يفطن إليه القارئ بسهولة ويتخطاه إلى لبّ الحكايات وجوهرها الأدبي والإنساني الذي يتجاوز الفوارق الطبقيّة والاجتماعيّة، لا بل حتى فوارق الأزمنة والثّقافات.

### ترجمة أسماء الأعلام

معروف أنّ أسماء الأعلام، اسم زيد أو عمرو أو كاترين أو جاكوي أو سواه، ليس تقبل الترجمة، سواءً أكانت أسماء أشخاص فعليّين أم أسماء شخوص قصصيّة. يشدّ عن هذه القاعدة، كما هو معروف أيضاً، استثناء أساسيّ يشمل الأسماء المحمّلة بدلالات تكثّف طبيعة الشّخصيّة الحاملة لها، أي تلك الأسماء التي هي في الأوان ذاته نعوتٌ أو صفات. هكذا نقول «ريتشارد قلب الأسد» و«أحدب نوتردام» و«ذات القلنسوة الحمراء» و«أصيب» بدل أن ننطق هذه الأسماء-النعوت بلسانها الأصليّ نفسه. الأمر نفسه بالنسبة إلى شخوص حكايات هذا الكتاب. فمن الواضح أنّ أغلب أسماء الشّخوص تستدعي ترجمتها إلى العربيّة، لما لهذه الأسماء من قدرة على تلخيص طبيعة الشّخصيّة القصصيّة على النحو الذي وصفناه أعلاه. وقد أبدعت مترجمة الكتاب ماري طوق في اختيار مقابلات عربيّة لأسماء الشّخوص هذه، وسيرى القارئ بنفسه كم أنّ هذه الأسماء العربيّة تساهم في إنعاش القراءة وإضاءة علاقة المتلقّي بمختلف الشّخوص. وذلك لا سيّما وأنّ مؤلّفه الحكايات نفسها أعربت في الفرنسيّة عن قدرة عالية على ابتكار الأسماء وعلى شحّنها بوهج تعبيريّ وكثافة عالية. ليس اعتباطاً أن تحمل شخوصٌ جميلة وطبيّة أسماء من أمثال «فتان» و«محبوب» و«عزيز» و«رهيفة» و«سائدة» و«حليمة»، أو أن تحمل جنّيات ونساء خبيثات أسماء من

أمثال «نكد» و«وسواسة»، إلخ. لا بل إن حكاية كاملة هي «القُمريّ واليامة» تجذ دعامتها الأساسيّة في كلمة واحدة هي *constance*، التي تُفيد الثبات والمواظبة، وتشير في سياق الحكاية إلى الثبات على الحبّ والوفاء لميثاق الغرام. وتأتي الحكاية بكاملها لتثبت أنّ مثل هذا الثبات لا يمكن إلاّ أن يلقى في نهاية المطاف مكافأته. على هذا الأساس سمّت الكاتبة البطلَ العاشقَ كونستانسيو، أي الباقي على العهد، ومعشوقته كونستانسيا، أي الباقية على العهد، وقد تحوّل الاسمان في هذه الترجمة إلى «عهد» و«إخلاص».

على أنّ الاشتغال على أسماء الشخوص يصطدم أحياناً بعائق استحالة الترجمة. ولحسن الحظّ لم تصطدم المترجمة بهذا العائق إلاّ في حالات معدودة. هناك أولاً الأسماء التي لا تحمل معنىً أكيداً أو دلالة واضحة، والتي تستمدّ أحياناً بعض دلالةٍ من نبرها أو رنينها الخاصّ. منها مثلاً اسم الفتى الوسيم لياندر *Léandre*، هذا الاسم اليونانيّ الأصل والذي يوحي في موسيقاه بالليونّة والعدوية والانسحاب. أو اسم الجنيّة الخبيثة كانكالين *Canaline*، الذي يذكّر بمحار كنكال، نسبةً إلى بلدة كنكال *Cancale* الفرنسيّة المعروفة بمحارها، والذي يتّصف برنين حديديّ وشظفٍ واضح. وهناك ثانياً وأخيراً الأسماء المبتكرة من لدن المؤلّفة والتي تمارس فيها إدغاماً للكلمات الفرنسيّة لا يمكن العمل به في العربيّة، كما في حكاية «غراسيوزا وبرسينه». فإلن كان اسم البطلة *Gracieuse* قابلاً للترجمة إلى «لطيفة» أو «جميلة» أو «فاتن»، فإنّ اسم البطل *Percinet* هو ثمرة إدغام مفردتين: الأولى هي المفردة الفرنسيّة *prince* (أمير)، التي أخضعت حروفها إلى إعادة توزيع (ما يُعرف بالجناس التصحيفيّ *anagramme*)، والتي تُحيل في هذا السياق على التعبير المكرّس: *le prince charmant*، ومعناه

الحرزفي هو «الأمير الفاتن» وتقبله الصيغة العربية «فارس الأحلام» أو «فتى الأحلام»؛ أمّا المفردة الثانية فهي الفعل percer الذي يُفيد التّفاذ والاختراق، ويُحيل في سياق الحكاية إلى سهام العشق، وتحديدًا إلى صورة كوبيدون رسول العشق الأسطوريّ الذي غالباً ما نراه في الرّسوم حاملاً قوساً ومتأهباً لإطلاق سهمه. ولصعوبة جمع هاتين الدّلاتين في كلمة عربيّة واحدة عمدت المترجمة إلى الاحتفاظ بالاسم برسينه. ولمزيد من الملاءمة، أبقّت على اسم محبوبته مع شيء من الإمالة صوب النطق الإيطاليّ أو الإسبانيّ للاسم بما يزيده تناغماً في العربيّة: غراسيوزا.

على امتداد هذا الكتاب بقيت الترجمة وفيةً لدلالات الأسماء هذه، ولم يحدث تحوير أو تخفيف إلاّ لواحد من الأسماء، ذلكم هو اسم «الأمير ذيب»، بطل الحكاية الأخيرة في الكتاب، الحاملة اسمَه عنواناً. تقوم الحكاية على وصف تحوُّلات رجل تمسخه جنيّة عابثة إلى حيوان في لحظة ولادته، فيُعيد له حبّ امرأةٍ إهابه الآدميّ أو هيئته البشريّة، تماماً كما يحدث في حكاية سترابارولا في اللّيلة الثانية من عمله اللّيليّ الهزليّة (1553-1550) *Le piacevoli notti*، وفي الحكاية الشّهيرة الحسناء والوحش *La Belle et la Bête* للسّيّدة دو فيلنوف Madame de Villeneuve، المنشورة في 1740، أي بعد صدور حكاية دونوا هذه بما يقرب من نصف قرن<sup>(1)</sup>. في التّرجمة المنشورة هنا لهذه الحكاية، أثار المحرّر والمترجمة اختيار اسم حيوانٍ أكثر شيوعاً في البيئَة

(1) الحكاية الأخيرة هي نفسها معروفة أكثر عبر صيغة مختصرة ومُتصرّف بها وضعتها السيّدة لوبرانس دو بومون Madame Leprince de Beaumont في 1756، قبل أن يأتي الشّاعر والفتان الفرنسيّ جان كوكتو Jean Cocteau ليترجمها إلى لغة السّينما في فيلم حمل العنوان نفسه في 1946، وتحذو حذوه شركة والت ديزني فتحوّل الحكاية إلى فيلم للرّسوم المتحرّكة في 1991.

العربية من ذلك الذي اختارته المؤلفة، ويتيح خصوصاً تحويله إلى أحد أسماء الأعلام المتداولة في لغة الضاد (ذئب/ ذيب).  
وتفادياً للبس، لم تعمل هذه الترجمة بإعراب نهايات أسماء الأعلام إلا نادراً. هكذا، وعملاً بالتحديد الذي تمارسه العربية الحديثة على نهايات هذه الأسماء، يقف القارئ، لدى الكلام على الفتى المدعو «عهد» على سبيل التمثيل، على عبارات من قبيل «ترى عهداً في كل يوم» بدلاً من «ترى عهداً في كل يوم».

### مَوَاعِظٌ وَعِبْرٌ

كان من السهل أن نلخص على غرار أغلب شراح هذه الحكايات عبرها أو دروسها، كأن نشير إلى أن عبرة «غراسيوزا وبرسينه» هي أن الفضيلة وروح الإحسان تلقيان ثوابها العادل دوماً، أو أن عبرة «الأميرة روزيت» هي أن البراءة تنتصر دائماً في نهاية المطاف، أو أن عبرة «رهيفة أو فتاة الرماد» هي أن العفو هو أكبر انتقام ممكن، إلخ. بيد أننا فضلنا أن ندع القارئ يستخلص العبرة بنفسه، من فهمه لأجواء الحكاية وبالاستعانة بالأبيات الشعرية التي تحتتم بها الكاتبة أغلب الحكايات. ثم إن العديد من حكايات دونوا تتمتع أحياناً بأكثر من عبرة. كما أن بعض الحكايات لا تستهدف تقديم درس أو موعظة (وهو ما يشكل قاسماً مشتركاً لمجمل الحكايات الخرافية، بما هي أدب أمثال كما في كليله ودمنه) بل تصف مشاهد وتجارب حياتية أو عشقية موصوفة لجملها الخاص.

### عن الحواشي والرّسوم وتسلسل الحكايات

تضمّنت ترجمة هذا الكتاب حواشي معدودة تعرّف بأسماء



الأعلام وبعناصر أسطورية أو تاريخية وبعرض الرقصات والفنون. وقد تعاون في وضعها كل من مترجمة الكتاب ومحرره، ويتعلق الأمر بإضاءات وجيزة آتية من بطون المعاجم والموسوعات.

كما حظيت حكايات الكاتبة، شأنها شأن أغلب روائع الأدب الفرنسي، برسوم مصممة بطريقة النقش الغائر أو الحفر على الخشب أو على الحجر، وبلوحات زيتية وتجويرات قام بها بعض كبار الرسامين لمرافقة مختلف طبعاتها على امتداد القرون. وقد انتخبنا هنا بعضاً منها، وحرصنا على أن تعكس الرسوم، بتعدد أصحابها، تنوع الأساليب في الأعمال الفنية التي رافقت هذه النصوص.

أما تسلسل الحكايات فقد اتبعنا فيه الترتيب التحقيقي، ذلك الذي يمضي متصاعداً بحسب تواريخ ظهورها إلى التور.

كاظم جهاد



«غراسیوزا و برسینه»، نقش غائر لکلیمان-بیار ماریلیه

Clément-Pierre Marillier 1785

## غراسيوزا وبزسينه

كان يا ما كان، كان هناك ملك ومملكة ليس لديهما إلا ابنة وحيدة. وكان جمالها ما بعده جمال، ناهيك عن لطافتها ونباهتها. سمّوها غراسيوزا<sup>(1)</sup> فكانت اسماً على مسمى. كانت بهجة أمها. لا يمرّ صباح إلا ويُقدّم لها ثوب جميل، تارةً من الحرير المقصب وطوراً من المخمل أو الساتان. وكانت تتزيّن بأبهى الحليّ دون أن يجعلها ذلك أكثر فخراً أو تباهاً. كانت تقضي صبيحتها برفقة علماء يلقنونها شتى أصناف العلوم. وفي فترة بعد العشاء، كانت تعمل بقرب الملكة. وعندما يحين وقت تناول العصرونيّات، تُقدّم لها كاسات من حبات الملبّس وأكثر من عشرين مزطباناً<sup>(2)</sup> من المرّبي: وهكذا شاع في كلّ مكان أنّها أسعد أميرة في العالم.

وكان في البلاط نفسه عانسٌ وافرة الثراء تُدعى الدوقة نكد، سمّيت هكذا لكدرها الدائم وولعها بالدمدمة والهمهمة والتذمّر والشكوى. كانت مرعبة على كلّ الأصعدة: كان شعرها أصهب بلون النار؛ وكان وجهها منتفخاً ومليئاً بالبثور. ومن العينين اللتين كانتا لها سابقاً، لم يتبقّ إلا واحدة، دائمة الامتلاء بالرّمص والوسخ. كان فمها كبيراً لدرجة تحال معها أنّها ستلتهم الجميع؛ ولكن بما أنّها كانت درداء، فإنّ ذلك كان يحول دون خوف الآخرين منها. كانت حذباءً من الأمام ومن الخلف وتعرّج على الجانين. إنّ أمثال هؤلاء

(1) يعني اسم «غراسيوزا» اللطيفة والظريفة والحسنة. واسم «برسينه» يوحي بالتعبير الشائع «فتى الأحلام» وإن لم يكن يدلّ عليه مباشرة. انظر بهذا الصدد الفقرة المخصّصة لترجمة أسماء الأعلام في تمهيد هذا الكتاب.

(2) المزطبان إناء من زجاج أو خزف تُحفظ فيه المرّيات وما إليها.

المسوخ يغارونَ من كلِّ ذي خلقٍ حسنة. كانت تكره غراسيوزا إلى حدِّ لا يوصف، وانسحبت من البلاط كي لا تسمع أحداً يتكلم عنها بالخير. انزوت في قصر تملكه ولم يكن بعيداً. وعندما كان يزورها أحدهم ويروي لها عن روائع الأميرة كانت تهتف غاضبةً:

- أنتم تكذبون، تكذبون، هي ليست ودودة. لديّ من السحر في إصبعي الصغيرة ما لا تستطيع أن تملكه في كلِّ شخصها.

وفي تلك الأثناء مرضت الملكة وتوفيت. أحست الأميرة غراسيوزا أنها ستموت هي أيضاً من الألم على فقدانها أمّاً بهذه الطيبة والحنان. وتحسّر الملك كثيراً على زوجة بهذه الطيبة والحنان. ومكث أكثر من سنة محتبساً في قصره. وأخيراً بعد أن خشي الأطباء على صحّة الملك، أشاروا عليه بأن يتنزّه ويروح عن نفسه. ذهب إلى الصيد. وبما أنّ الحرارة كانت مرتفعة دخل إلى أحد القصور الضخمة التي وجدها على طريقه لكي يرتاح.

وما إن أخبرت الدوقة نكد بمجيء الملك (لأنّ القصر كان قصرها) حتى هُرعت لاستقباله وقالت له إنّ المكان الأكثر برودة في المنزل كان قبواً كبيراً مقوّساً ونظيفاً جداً ورجتُه أن يقصده. نزل الملك إلى القبو معها وإذ رأى مائتي برميل مصطفة أحدها على الآخر، سألها عما إذا كانت قد احتفظت بكلّ هذه المؤونة الضخمة لها وحدها.

قالت:

- نعم يا مؤلاي، لي وخدي. وسأكونُ بغاية السرور أن أذيقك منها؛ تجد فيها مختلف صنوف المشروبات وأشهاها.

وعندئذٍ أمسكت نكد بمطرقة صغيرة وطرقت على أحد البراميل، طق، طق، وخرج من البرميل ألف قطعة نقدٍ ذهبيّة من

فئة «البستول».

قالت مبتسمة:

- ماذا يعني هذا؟

وطرقت البرميل الآخر، طق، طق، وخرج منه صاعٌ من قطع  
«اللويستيات» الذهبية المضاعفة.

قالت أيضاً وهي تبتسم ابتسامة أعرض:

- لا أفهم شيئاً من هذا.

وانتقلت إلى برميل ثالث وطرقته، طق، طق فخرجت منه لآلئ  
والماس غطت الأرض.

هتفت:

- آه! لا أفهم شيئاً يا مولاي، لا بدّ أنّهم سرقوا لي شرابي الطيب  
ووضعوا مكانه هذه التفاهات.

قال الملك مندهشاً تماماً:

- تفاهات! عجباً يا سيّدة نكد، هل تسمين هذه تفاهات؟ هناك  
منها ما يشتري عشر ممالك كبيرة كباريس.

قالت:

- حسناً، اعلم أنّ كلّ هذه البراميل مليئة بالذهب والأحجار  
الكريمة؛ سأجعلك سيّداً عليها شرط أن تتزوّجني.

أجاب الملك الذي كان يحبّ فقط المال:

- لا أطلب ما هو أفضل، منذ الغد إذا شئت.

قالت:

- ولكن ثمة شرط آخر، أريد أن أكون وصيّة على ابنتك كما كانت  
أمّها، وأن تكون تابعة تماماً لي وأن تكون رهنَ إشارتي.

قال الملك:

- ستكونين وصية عليها، كوني متأكدة. هاكِ يدي.  
وضعت نكد يدها في يد الملك. خرّجا سوياً من القبو الثري، الذي  
أعطته مفتاحه. عندئذ عادَ إلى قصره. غراسيوزا، إذ سمعت الملك  
أبأها، هُرعتَ للقائه وقبلته وسألته إذا كانت رحلة الصيد موفقة.  
قال:

- أمسكتُ بحمامة لا تزال حيّة.

قالت الأميرة:

- آه يا مولاي أعطني إياها، سأطعمها.

- هذا غير ممكن. على أية حال سأوضح لك ما قصدته بكلامي:  
التقيتُ بالدوقة نكد واتخذتها زوجة لي.

هفت غراسيوزا وقالت كردة فعل أولى:

- أيتها السماء! أيعقل أن تدعوها حمامة؟ بل قل إنها بومة  
بالأحرى.

قال الملك غاضباً:

- اصمتي، أمرك بأن تحيّيها وتحترميها كما لو كانت أمك: اذهبي  
بسرعة وتزيّني لأنني أريد أن أستقبلها منذ اليوم.

كانت الأميرة مطيعة جداً. دخلت إلى الغرفة لكي ترتدي ثيابها.  
عرفت مربيتها ألمها من عينيها.

سألها:

- ما بالك يا صغيرتي العزيزة؟ هل تبكين؟

أجابت غراسيوزا:

- للأسف يا مربيتي العزيزة. من لا يبكي في مثل حالتي؟  
سيتزوج الملك، ولسوء حظي المنكود ستكون عدوّتي اللدود هي  
زوجة أبي. إنها نكد المزعبة، كيف لي أن أراها في تلك الأسرة التي

طرزتها أمي الطيبة بيديها الاثنتين برهافة وإتقان؟ كيف لي أن أداعب  
قردة تمني أن تتسبب بموتي؟  
أجابتها المريية:

- يا طفلي العزيزة، يجب على روحك أن ترتقي بك بقدر أصلك  
الشريف. الأميرات مثلك عليهن أن يقدمن المثل الصالح أكثر من  
الآخرين. وأي مثل أجمل من إطاعة أبيك وإكراه النفس لإعجابه؟  
عديني إذاً بالأأ تظهرني أمام نكد معاناتك بسببها.

لم يكن باستطاعة الأميرة أن تخضع للأمر، لكن المريية الحكيمة  
ذكرت لها أسباباً كثيرة ما ألزمها في النهاية بأن تستقبلها جيداً وأن  
تحسن معاملتها.

وارتدت على الفور ثوباً أخضر على خلفية ذهبية، تركت شعرها  
الذهبي مسترسلاً على كتفيها و متموجاً مع الريح كما كانت الموضة  
في تلك الأيام، ووضعت على رأسها تاجاً من الورد والياسمين  
وكانت أوراقه كلها من الزمرد. حتى فينوس<sup>(1)</sup> كانت ستبدو أقل  
جمالاً من غراسيوزا. ومع ذلك، فإنّ التعاسة التي لم تكن باستطاعتها  
تجاوزها بانّت على وجهها.

ولكن بالعودة إلى نكد، كانت هذه المخلوقة البشعة منشغلة  
بتزيين نفسها. أمرت بأن يصنعوا لها حذاءً يكون في إحدى القدمين  
أعلى منه في الأخرى بمقدار ذراع لكي تبدو أقلّ عرجاً. ووضعت  
حشوة لكي تخفي بها حذبتها. ووضعت عيناً مزججة من أفضل  
ما صنّع واستطاعت العثور عليه؛ وطلت وجهها بالمساحيق لكي  
تصبح أكثر بياضاً، وصبغت شعرها من الأحمر إلى الأسود ثم ارتدت

(1) فينوس: هي في الميثولوجيا الرومانية إلهة الجمال والجاذبية والحب، تقابلها في الميثولوجيا  
الإغريقية أفروديت.

ثوباً من الساتان بلون القטיפه مبطناً بالأزرق وتثورة صفراء وشرائط بنفسجيتة. أرادت أن تعلن دخولها على صهوة حصان لأنها سمعت أن ملكات إسبانيا يفعلن ذلك.

وفيا كان الملك يوزع أوامره وكانت غراسيوزا تنتظر لحظة الانطلاق لاستقبال نكد، نزلت وحدها إلى الحديقة ومرّت بغاية قائمة مكتظة بالأشجار وهناك جلست على العشب. قالت: «وأخيراً صرت حرة، أستطيع أن أبكي بقدر ما أشاء دون أن يعترض عليّ أحد». وللحال أخذت تنهّد وتبكي ذارفة الدموع مدراراً فبدت عيناها كتبغي مياه متدفقة. وهي على هذه الحال، لم تعد تفكر في العودة إلى القصر عندئذ رأت وصيفاً مرتدياً زياً من الساتان الأخضر المزدان بريش أبيض. كان له أجمل وجه في العالم.

سجد على إحدى ركبتيه وقال:

- يا أميرتي، الملك ينتظرك.

مكثت مندهشة أمام كل هذه المباهج التي يثيرها مرأى الغلام. وبها أنها لا تعرفه ظنت أنه في عداد الموكب الذي ذهب للقاء نكد. قالت له:

- منذ متى وظفك الملك وصيفاً لديه؟

قال:

- سيدتي، لست غلاماً في خدمة الملك، بل أنا غلامك ولا أريد أن أكون إلا في خدمتك.

أجابت مندهشة تماماً:

- في خدمتي؟ لكنني لا أعرفك.

قال:

- آه أيتها الأميرة، لم أجرؤ بعد على التعريف بنفسي لكنّ المآسي



التي تهتدك بسبب زيجة الملك ترغمني على الكلام معك في وقت أبكر مما كنت سأفعل. صممتُ على أن أدعَ للوقتِ ولخدماتي أن تشيَ بشغفي، و...

هتفت الأميرة:

- عجباً! كيف يجرؤ وصيف أن يقول لي إنه يحبني! تلك هي الداهية الكبرى.

قال لها بحنان واحترام:

- لا ترتعبي يا غراسيوزا الجميلة. أنا برسينه، أميرٌ عُرِفَ عني ثرائي وعلمي، وهذا ما يدعوك لأن لا تجدي البتة تفاوتاً بيننا ألهتم إلا مزاياك وجمالك. أحبتك منذ وقتٍ طويل. وحيثما تكوني أكن، من دون أن تريني. إن القدرة على السحر التي ورثتها عند ولادتي كانت لي مصدر معونة كبيراً أمدتني بمتعة أن أراك: سوف أرافقك اليوم إلى كل مكان بهذا الزيِّ وأملُ ألا أكونَ دونَ نفعٍ بالنسبة لك. وكلما تكلمت نظرت إليه الأميرة بدهشةٍ متزايدة.

قالت له:

- هذا أنت، يا برسينه الجميل، هذا أنت الذي أرغب كثيراً في رؤيته والذي يُحكى عنه أشياء مذهلة فعلاً! كم أنا سعيدة بأنك تريد أن تكون من أصدقائي! لم أعد أخشى نكد الشريرة ما دمت تساندي. وتبادلاً أيضاً بعض الكلمات، ومن ثم ذهبت غراسيوزا إلى القصر حيث وجدت حصاناً مُسرجاً كان برسينه أدخله إلى الإسطبل، واعتقدوا أنه لها. صعدت فوقه، وبما أنّ الجواد كان قفازاً، أمسكته الغلامُ من لجامه، واقتاده، ملتفتاً في كل دقيقة إلى الأميرة ليمتّع برؤيتها.

وعندما ظهر الحصان الذي اقتيد إلى نكد قرب حصان غراسيوزا،

بأن كَفَرَسَ بليدٍ صَراحةً، وكان غطاء سرج الحصان الجميل مُرصعاً بالحجارة الكريمة الباهرة وغطاء سرج الحصان الآخر لا يستطيع مجاراته. كان الملك منشغلاً بألف شيء ولم ينتبه للأمر، لكن جميع الأسياد لم يكونوا يزنون إلا إلى الأميرة التي أعجبوا بجمالها وإلى غلامها المرتدي الأخضر الذي كان وحده أجمل من كل غلمان البلاط. والتقوا بنكد أثناء الطريق، في عربة مكشوفة، وكان قبها وسوء خلقتها لا يوصفان. قبلها الملك والأميرة. وقدم لها حصانها لتصعد فوقه. لكنّها إذ رأت حصان غراسيوزا، قالت:

- كيف! هذه المخلوقة حصان أجمل من حصاني! أفضل ألا أصبح ملكة أبداً وأعود إلى قصري الثري على أن أعامل بهذه الطريقة. وعلى الفور أمر الملك الأميرة بأن تترجل، وتوسل إلى نكد أن تشرّفه بصعودها على صهوة حصانها. أطاعت الأميرة دون اعتراض. لم تنظر إليها نكد ولم تشكرها؛ رُفعت على الحصان الجميل: كانت تشبه رزمة غسيل وسخ. كان هناك ثمانية نبلاء من وُصفاء<sup>(1)</sup> الملك يمسكون بها لئلا تقع عن الجواد. لم يكن ذلك يُرضيها. وراحت تُهمهم وتتوعد وهي تركز على أسنانها. سألوها عمّا بها.

قالت:

- أريد، بما أنني السيّدة، أن يمسك الغلام المرتدي الأخضر بلجام حصاني كما كان يفعل حين كانت غراسيوزا تغتليه.

أمر الملك الغلام المرتدي الأخضر بأن يقود حصان الملكة. نظر برسينه إلى الأميرة، وهي أيضاً نظرت إليه دون أن يتفوّها بكلمة واحدة: أطاع واستأنف موكب القصر كلّه المسير. كانت الطبول

(1) كان وُصفاء الملوك أو الأمراء والمشرفون على التشريفات والاستقبال في قصورهم من طبقة النبلاء.

والأبواقُ تصدَحُ بنغماتٍ مُكرَهةٍ وكانت نكدَ مسرورةً. بأنفها الأفتس وفمها المعوج لم تكن لتتمنى أن تكون مكان غراسيوزا. ولكن في اللحظة غير المتوقعة، ها قد بدأ الجواد بالقفز والرّفس والعدو بسرعة قصوى إلى درجة أن أحداً لم يستطع إيقافه. وحمل نكد بعيداً. أمسكت بسرج الجواد ووبره وراحت تزعق بكل قوتها، وأخيراً سقطت وقدمها عالقة بالركاب وجرّرها الجواد بعيداً على الحجارة والأشواك وفي الوحل، حيث بقيت شبه مدفونة هناك وبها أن كل واحد في الموكب تبعها فقد وافاها الجميع في الحال. كانت قد ملأت الخدوش جسدها وأصابت الكسور رأسها في أربعة مواقع أو خمسة، وكذلك ذراعها. لم يحدث أن كان هناك عروس في مثل هذه الحال المريعة.

بدا الملك يائساً. ملّمت عن الأرض كما يُللمم زجاج محطم. كانت قبعتها في جانب وطار حذاؤها إلى جانب آخر. حملت إلى المدينة ومُددت في السرير وجيء إليها بأفضل الجراحين. وعلى الرغم من إصابتها الشديدة، لم تكف عن الشتم والتوعد. كانت تقول:

- تلك خدعة مأكرة أرادت غراسيوزا تدبيرها لي. أنا متأكدة من أنها لم تمتط هذا الحصان الجميل والسرير الآلكي تثير حسدي وتعمد قتلي. إذا لم يوافق الملك على رأيي هذا فسوف أعود إلى قصري الثري ولن أراه ما دُمت حيّة.

وأعلم الملك بغضب نكد. وبما أنه كان عاشقاً لمنفعته، فإن مجرد التفكير بخسارة البراميل الألف من الذهب والألماس جعله يرتعش خوفاً ويبادر لفعل أي شيء للاحتفاظ بها. هرع لدى المريضة الرثة وجثا عند قدميها وأقسم لها بأنها ما عليها إلا أن تملي عليه عقوبة

متناسبةً والذنب الذي اقترفته غراسيوزا وأنه سيرك لها أمر الانتقام منها. فقالت إن ذلك كان يكفيها وإنما ستقوم باستدعائها.

وبالفعل جاؤوا إلى الأميرة يقولون لها إن نكد ترسل في طلبها. أصبحت شاحبة، وراحت ترتجف مذركة تماماً أنها لم تستدعها إطلاقاً لتلاطفها. نظرت من جميع الجهات لترى ما إذا كان برسينه سيظهر؛ لم تره فذهبت باتجاه جناح نكد حزينة. ما كادت تدخل حتى أقفلت الأبواب. ثم انقضت عليها أربع نساء يشبهن جنيات الغضب بأمر من سيدتهن ونزعن عنها ثيابها الجميلة ومزقن قميصها. وعندما بانَّت كتفها، لم تستطع تلك النسوة الشريرات احتمال وهج بياضها. أغمضن أعينهن كما لو أن الثلج يبهرن.

هتفت نكد القاسية القلب من عمق سريرها:

- هيا هيا، تشجعن. اسلخن جلدّها ولا تبقين قطعةً واحدةً صغيرةً من هذه البشرة البيضاء التي تظنها هي في غاية الجمال. لو كانت على غير هذه الحال المريعة لكانت تمت غراسيوزا أن يأتي برسينه الجميل. ولكن إذ رأته نفسها شبه عارية، كانت حيية جداً ولا تزغب بالتالي أن يشهد برسينه على عريها فتحضرت لتتلقى الضربات كنعجة بائسة. كانت جنّيات الغضب الأربع يحملن في أيديهن عصياً مخيفة. وكان لديهن أيضاً مكانس ضخمة لكي يستعصن بها عن العصي مجهزات بذلك على الفتاة دون رحمة. ولدى كل ضربة كانت نكد تقول:

- أقوى، أقوى، لا تراعينها.

لا أحد كان سيصدق أنه بعد كل ذلك الضرب ستخرج الأميرة في صورة أخرى غير صورة امرأة مسلوخة من الرأس حتى القدمين. ولكن مخطئ من يعتبر ذلك، لأن برسينه المتأق بهر أعين أولئك

التسوة: كُنَّ يَعْتَقِدْنَ أَنَّ فِي أَيْدِيهِنَّ عَصِيًّا وَلَكِنَّهَا تَحَوَّلَتْ رِيَاشًا مِنْ كُلِّ  
الألوان. وما إن بدأن بالضرب حتى رأتهن غراسيوزا وأقلعت عن  
شعورها بالخوف وقالت بصوت خافت جداً:

- آه يا برسينه جئت لتنجذني بنخوة ومروءة! ماذا كنت سأفعل  
من دونك؟

وضاربات السوط ظللن حتى كَلَّتْ أَيْدِيهِنَّ ولم يعد باستطاعتِهِنَّ  
أن يُحَرِّكْنَ أَذْرَعَهُنَّ. لَفَفْنَهَا بِثِيَابِهَا وَوَضَعْنَهَا خَارِجاً وَهَنَّ يَطْلِقَنَّ  
عليها ألف شتيمة.

عادت إلى غزفها متظاهرةً بأنها مريضة جداً: خلدت إلى السرير  
وأمرت بالأبقى أحد قربها إلا مريبتها التي روت لها مغامرتها  
كلها. ولشدة ما استرسلت في روايتها، نامت وذهبت المربية. وحين  
استيقظت، رأت في إحدى الزوايا الغلام المُرْتَدِي الأخر الذي لم  
يكن يجزؤ على الاقتراب منها تعبيراً عن احترامه لها. قالت له إنها لن  
تنسى في حياتها الأفضال التي أسداها لها، وتوسلت إليه ألا يتركها  
لقمة سائغة لغضب عدوتها، وأن يفضل بالانسحاب من غرفتها  
لأنها نصحت دوماً بالأبقى وحيدة مع الفتيان. أجابها أن بإمكانها  
أن تلاحظ بأي احترام يعاملها، وأن من صواب الأمور أن يُطيعها  
في كل شيء بما أنها سيدهته وحتى على حساب راحتها الشخصية. وعلى  
هذا غادر الغرفة بعد أن نصحتها بالتظاهر بالمرض إثر المعاملة السيئة  
التي تعرضت لها.

وبلغ السرور من نكد مبلغاً بحيث أنها برئت من جراحتها بنصف  
المدّة اللازمة لعلاجها. وانتهى العرس باحتفال عظيم. لكن الملك  
كان يعرف أن نكد تهوى، أكثر ما تهوى، أن تُمدح لجمالها، فأوعز بأن  
يُرسَم لها بورتريه وأمر بتنظيم مناظرة كلامية، كان يتوجب فيها على

ستة فرسان من أمهر فرسان البلاط أن يدعموا، رغماً عن الجميع، الرأي القائل إن الملكة نكد كانت أجمل أميرة في العالم. وجاء الكثير من الفرسان والغرباء ليدعموا الرأي المعاكس. وكانت هذه المرأة الشنيعة المنظر حاضرة تُراقب كل شيء، متربعة على شرفة كبيرة مكسوة بالبروكار المصّب بالذهب، وكان يطيب لها أن ترى كيف أن براعة فرسانها أكسبتها قضيتها الباطلة. كانت غراسيوزا خلفها تجتذب آلاف الأنظار. ونكد المجنونة المزهوة بنفسها تظن أنها محط أنظار الجميع.

لم يعد هناك من يجرو على الجدال بخصوص جمال نكد حتى مجيء فارس شاب يحمل صورة داخل علبة من الألباس. قال إنه يدعم الرأي القائل إن نكد كانت الأقبح بين كل النساء، وإن تلك التي يوجد رسمها في العلبة كانت الأجل بين كل الفتيات. وفي الوقت نفسه هاجم الفرسان الستة وطرحهم أرضاً. ثم فتح العلبة وقال لهم إنه يريد تعزيتهم ومواساتهم بأن يظهر لهم ذلك البورتريه الجميل. وكل واحد فيهم تعرّف إلى صورة الأميرة غراسيوزا. انحنى الفارس أمامها باحترام كبير وانسحب دون أن يقول اسمه. لكن غراسيوزا لم تشك قط في أنه برسينه.

كادت نكد تحتنق غيظاً: انتفخت أوداجها. لم تعد تستطيع أن تلفظ كلمة واحدة. أخذت تومئ بأنها ناقمة على غراسيوزا. وعندما استطاعت أن تتكلم طففت تظاهراً بأنها في حال ميؤوس منها.  
قالت:

- كيف تجرؤين على أن تنتزعي مني جائزة الجمال! كيف تجرؤين على أن توجهي هذه الإهانة لفرساني! لا، لا هذا لا يُطاق، يجب أن أنتقم لنفسي أو أموت.

قالت الأميرة:

- يا سيدي، أوكد لك أنني لا دخل لي إطلاقاً بها جرى. سأوقع بدمي إن شئت، وأشهدُ على أنك أجملُ امرأةٍ في العالمِ وبأنني مسخٌّ من البشاعة.

أجابت نكد:

- آه! أنتِ تمزحينَ أيتها الظريفة الصّغيرة؛ ولكن سيجيء دورك وأريك ما تستحقينه.

وأعلمَ الملكَ بغضبِ زوجته وغيظها وبأنّ الأميرة تموتُ خوفاً وأنها تتوسّل إليه أن يُشفقَ عليها لأنّها لو تركها للملكة فستنزّلُ بها أمرّ العذابات. لم يفعل الملكُ حِيالَ توسّلاتِ ابنته وأجابَ فقط:  
- سلّمتُ أمرها إلى الملكة وستفعل بها ما يحلو لها.

كانت نكد الشريفة تنتظر مجيء الليل بفارغ الصبر. وما إن هبطَ الليلَ حتّى أمرت بأن توثق الأحصنة إلى عربتها وأرغمت غراسيوزا على الصعود، وبحراسة موكب ضخم، اقتيدت على مسافة مائة ميل من هناك، إلى غابة كبيرة لا يجرؤ أحدٌ على اختراقها لأنّها مليئة بالأسود والدّبة والتمور والذئاب. وعندما بلغ الحرس في توغّلهم وسط الغابة المزعبة، أنزلوها وتركوها هناك رغم كلّ التوسّلات إليهم ليُشفقوا على حالها. قالت لهم: لا أطلب منكم إلا مئة سريعة. اقتلونني لكي تجنّبوني كلّ الآلام التي سأعرض لها. لكنّها كانت كمن يتكلّم مع الطرشان ولم تبدر منهم إجابة واحدة، وابتعدوا عنها بسرعة كبيرة تاركين هذه الفتاة الجميلة التعيسة وحدها في الغابة. مشّت لبعض الوقت دون أن تعرف إلى أين كانت ذاهبة، أحياناً تصطدم بشجرة وأحياناً أخرى تسقط أرضاً أو تعلق في الجنبات الشائكة. وأخيراً، بعد أن شلّ الألم قواها، ارتمت أرضاً دون أن

تقوى على التّهوض. كانت تهتف أحياناً: «برسينه، أين أنت؟ هل يُعقل أن تكونَ قد تخلّيتَ عني»، ولم تكذُ تُنهي هذه الكلمات حتى رأت دفعةً واحدةً أجمل وأروع شيءٍ في الوجود: أضاء المشهد أمامها بإشراقٍ بديعٍ بحيث لم تبقَ شجرة في الغابة لم تعلق إليها ثريات كثيرة ممتلئة شموعاً: وفي آخر الممرِّ لمحت قصرًا منبنيًا كلّه من البلّور يلمع كالشمس. تبادلَ إليها الظنُّ بأن لبرسينه دخلاً في ذلك السحر الجديد. شعرت بفرحةٍ ممزوجةٍ بالخشيّة. قالت في نفسها: «أنا وحدي وهذا الأمير فتنيّ ولطيف وعاشق، أدينُّ له بحياتي. تبا لي! لقد ذهبتُ بعيداً في خيالي! لنبتعد عنه: الموتُ ولا حبه». قالت هذه الكلمات ونهضت بالرّغم من تعبها ووهنها، ومن دون أن تلتفت إلى القصر الجميل، مشّت في الجانب الآخر، مضطربةً ومشوشة الذهن غارقةً في الأفكار المتضاربة التي تعتمَلُ في كيّانها بحيث لم تعرف ماذا كانت تفعل.

وفي تلك اللحظة، سمعت ضجّة خلفها: تولاها الخوف، خالت أنه حيوانٌ مفترس سيلتهمها. التفتت وهي ترتجف، ورأت الأمير برسينه جميلاً بجمالِ رسول الحب كوييدون.

قال لها:

- هل تهربين يا أميرتي؟ تخشين مني فيما أنا أحبك! هل يُعقل أن تكوني على هذا الجهل باحترامي لك وعلى هذا الظنّ بأنني قادرٌ على التقليل منه حيالك؟ تعالي، تعالي، دونَ ذعرٍ إلى قصر السّحر، لن أدخلَ إذا كنتِ ثمانين. هناك ستجدين أمي الملكة وأخواتي اللواتي يَكُننَ لكِ حبًّا جمًّا لما أرويه لهنّ عنك.

ولفرط ما كانت غراسيوزا مسحورة ومنصاعة بالطريقة الجذّابة التي كان عاشقها الفتني يتكلّم بها، لم تستطع أن ترفض الدخول معه على مزجّة ذهبية مزدانة بالرّسوم ويجرّها اثنان من الأيائل بسرعة



كبيرة، ولم يمرّ وقت قليل إلا وجعلها برسینه تزور ألف مكان في تلك الغابة. بدت لها الأمكنة بديعة. كل شيء كان مرتباً بوضوح؛ كان هنالك رعاةٌ ورعايات يرتدون أزياءً أنيقة ويرقصون على وقع الثيات والمزامير. ورأت في أماكنٍ أخرى، على ضفاف الينابيع، قرويين مع عشيقاتهم يأكلون ويُغنون بفرحٍ وسرور.

قالت له:

- كنت أظنّ هذه الغابة غير مسكونة، ولكن كل شيء فيها يبدو لي مأهولاً، وسط جوٍّ من البهجة والفرح.

أجاب برسینه:

- منذُ وجودك هنا يا أميرتي، لم يعد في هذه العزلة القائمة سوى اللذات والتسلّيات الممتعة: أربابُ الحب يرافقونك والأزهارُ تثبتُ عند موطئ قدميك.

لم تجرؤ غراسيوزا على أن تحببته. لم تكن تريد الخوض في حوارات كتلك، ورَجَتِ الأمير أن يصطحبها إلى والدته الملكة.

وللحالِ أمرَ إيّاهِ الاثنين بالذهاب إلى قصر السّحر. سمعت عند وصولها موسيقى رائعة. وجاءت الملكة مع اثنتين من بناتها للقائها، وكنّ فائتات، ثمّ قبلتها واصطحبتهن إلى قاعةٍ كبيرةٍ جدرانها من البلّور الجندليّ: لاحظت على الجدران، وبدهشةٍ كبيرةٍ، أنّ تاريخ حياتها، حتّى ذلك اليوم، كان مدوّناً هناك، بما فيه التزهة التي حظيت بها للتوّ مع الأمير في المزجّة. هذا كلّه كان منجزاً بإتقان يعجز عن مضاهاته كلّ التّحّاتين قاطبة حتّى فيدياس وكلّ من تتباهى بهم اليونان القديمة.

قالت غراسيوزا لبرسینه:

- لديك عمال ماهرّون وسريعون جدّاً. كلّما قمت بعملٍ أو بإيلاءٍ

أراهما منحوتين على الجدار.

قال لها:

- هذا لأنني لا أريدُ أن أخسرَ شيئاً من كلِّ ما يتعلَّق بكِ يا أميرتي.  
للأسف! لست سعيداً ولا مسروراً في أيِّ مكان بعيداً عنك.  
لم تُجبه بشيءٍ وشكرتِ الملكةَ على حفاوتها في استقبالها. أولمت لها  
وليمة كبيرةً فأكلت غراسيوزا بشهيةٍ كبيرةٍ لأنَّها كانت سعيدةً جداً  
بأنَّها وجدَّت برسينه بدلاً من الدبِّبةِ والأسودِ التي كانت هي تحشاها  
في الغابة. ومع أنَّها كانت منهكة، حثَّها برسينه على زيارة دار تلمعُ  
كلَّها بالذهب والرَّسوم حيث تدور أوبرا تتحدَّث عن حبِّ بسيكيه  
وكويدون<sup>(1)</sup>، يرافقها الرِّقص والأغاني الوجيزة. جاء راعٍ صغير  
وغنَّى هذه الكلمات:

أنت محبوبه يا غراسيوزا ورسولُ الحبِّ نفسه  
لم يحبَّ معشوقته بقدرِ ما حبيبك يُحبُّك  
تمثلي على الأقلِّ بالتمورِ والدبِّبةِ  
التي أذعنَّت لأصغرِ آلهةِ الحبِّ.

حتَّى أكثرُ الضَّواري وحشيَّة  
يلينُ أمامَ الملذاتِ التي يَعدُّ الحبُّ بها.

(1) بسيكيه Psyché: هي في الميثولوجيا الرومانية أميرة ألهمت كويدون الحبِّ وبعد مغامراتٍ عدَّة أصبحت زوجته. رُفِّعت إلى مرتبةِ إلهة. وقد وُضعت في غرامهما أعمال أدبية وتصويرية وأوبرالية عديدة، بما فيها رواية عنوانها غراميات بسيكيه وكويدون *Les Amours de Psyché et Cupidon* للشاعر لافونتين La Fontaine صاحب الحكايات الشعرية المعروفة، والذي عاصرته ماري-كاترين دونوا وتعرَّضت لتأثيره كجميع كتاب الحكايات في ذلك العصر.

الجميع يتحدّثون عن الحبّ ويستسلمون لسِحْرِهِ  
إلا أنتِ تتمنّعين وترفضين أن تحبّي.

احمّرت خجلاً أمام الملكة والأميرات من أن توصفَ على هذا  
النحو. قالت لبرسينه أنّه سيشقّ عليها أن يشارك الجميع أسرارهما.  
وأزدفت:

- أتذكّر بهذا الصّدّد حكمة منظومة في أبيات، وهي تعجّبي  
كثيراً:

لا تش بسركِ لأحد  
وكن واثقاً من أنّ للصّمت  
سِحراً أسراً بالنسبة لي:  
للعالم حكّم غريبة،  
أحياناً الملدّات الأكثر براءة  
يخالها البعض آثاماً لا تُعْتَفَر.

سألها المعذرة لأنّه قام بشيء لم يعجبها. انتهت الأوبرا، وأمرت  
الملكة ابتئيتها بأن تصطحبها الأميرة إلى جناحها. لم تر في حياتها شيئاً  
أجمل من الأثاث أو أكثر أناقة من السرير ومن الغرفة التي خصّصت  
لتنام فيها. كان هناك أربع وعشرون فتاة في خدمتها يرزّدين ثياب  
الحوريّات. والأكبر سنّاً بينهنّ كانت في الثامنة عشرة وكلّ واحدة  
تبدو آية في الجمال. وعندما وضعنها في السرير بدأن يعزفن موسيقى  
خلاّبة لتحمّلها على النوم. لكنّها تفاجأت من عدم قدرتها على  
إغماضِ عينيها. قالت:

- كل ما رأيته يسحر اللب. أيعقل أن يثير أميرٌ بهذا اللطفِ والحذاقةِ الخوفَ في نفسي! لا أستطيع الابتعادَ عن هذه الأمكنة سريعاً!

كان ذلك الابتعادُ يؤلمها كثيراً: لا يمكن للمرءِ إلا أن يتردد حين يفكر في مغادرةِ قصرِ هذه الرّوعةِ ليصبحَ في قبضةِ نكدِ البربريةِ. الفرقُ واضح. على أية حال، وجدت برسينه على قدرٍ من الجاذبية لا يخونها البقاء في قصر هو سيّده.

عندما نهضت، قُدمت إليها فساتينٌ من كلِّ الألوان وزينة من الحجارةِ الكريمة من كلِّ الأنواع، من دانتيلاً<sup>(1)</sup> وشرائط وقفازات أكفّ وجوارب حرير؛ وكلّ ذلك بذوق رفيع ليس فيه عيب. وُضعت لها زينة من الذهب المنحوت. لم تكن في حياتها متبرجةً بمثل تلك الزينة ولم تبدُ قطّ بمثل ذلك الجمال. دخل برسينه إلى غرفتها مرتدياً وشاحاً أخضر مذهباً (كان الأخضر لونه المفضل لأنّ غرسيوزا تحبّه). ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع أن يجاري ذلك الأمير الشاب في الفضيلة واللطف. قالت له غراسيوزا إنّها لم تستطع التّوم وإنّ ذكرى مصائبها تعذبها، وإنّها لا تستطيع الامتناع عن التفكير بالعواقب.

قال لها:

- ما الذي يشعرك بالخوف يا سيّدي؟ أنت الملكة هنا. وأنت محبوبة جداً؛ هل تريد أن تتخلى عني لأجلِ عدوّتك القاسية؟  
قالت له:

(1) أي التسيج المخرم، وكان يُعتبر، في فترة كتابة هذه الحكايات بخاصة، عنصر ترفٍ أو ثراء. وقد ارتأينا دعوته على امتداد هذا الكتاب باسمه المستعار من اللغات الأوربية، والذي صار شائعاً في عالم الأرياء: الدانتيل.

- لو كنت سيّدة مصيري لكانَ القرار الذي تتخّذه هو الذي سأقبل به. لكنّي مسؤولة عن كلّ أفعالي تجاه والدي الملك. من الأفضل أن أتعذّب على أن أخلّ بواجبي تجاهه.

قال لها برسينه كلّ ما يستطيع قوله لكي يُقنِعها بالزّواج به. لم تشأ الموافقة على ذلك. وقد أبقاها رغماً عنها ثمانية أيّام تفتنّ خلالها باختراع ألف متعة جديدة لها لتسليتها.

كانت تقول غالباً للأمير:

- أريد فعلاً أن أعرف ما يجري في قصر نكد وكيف تتحدّث عن المؤامرة التي دبّرتها لي.

قال لها برسينه إنّه سيرسل سائسه، وكان رجلاً فطناً، إلى القصر ليستطلع الأمور هناك. أجابت أنّها كانت مقتنعة بأنّه لا يحتاج لإرسال أحد للاستعلام عمّا يحدث وأنّه يستطيع أن يقول لها بنفسه حقيقة ما يجري.

قال لها:

- تعالي معي إذاً إلى البرج الكبير وسرّين ذلك بنفسك.

وعلى هذا، اصطحبها إلى ذروة برج كان عالياً جدّاً وكلّه من البلّور الجنديّ كباقي القصر. قال لها أن تضع قدمها على قدمه وإصبعها الصّغيرة في فمها، ثم أن تنظر ناحية المدينة. فرأت في الحال أنّ الدنيّة نكد كانت برفقة الملك وكانت تقول له:

- تلك الأميرة البائسة سنقت نفسها في القبور. رأيتها للتوّ، منظرها مثيرٌ للرعب ويجب دفنها في الحال ومواساتك على هذه المصيبة الصّغيرة.

وأخذ الملك يبكي وفاة ابنته. ونكد أدارت له ظهرها وانزوت في غرفتها، وأمرت بإحضار حطبة ووضعت لها قبة ولقت جيّداً ثم

وُضِعَتْ دَاخِلَ النَّعْشِ. وَبِأَمْرِ مَنِ الْمَلِكِ أُقِيمَتِ جَنَازَةٌ كَبِيرَةٌ شَارِكُ الْجَمِيعِ فِي تَشْيِيعِهَا وَهَمَّ يَبْكُونَ وَيَلْعَنُونَ الْمَلِكَةَ نَكْدَ مَتَّهَمِينَ إِيَّاهَا بِأَنَّهَا سَبَبُ هَذِهِ الْوَفَاةِ. وَالتَّزَمَ الْجَمِيعُ بِمِرَاسِمِ الْحِدَادِ وَسَمِعْتَهُمْ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى فَقْدَانِهَا وَيَقُولُونَ بِصَوْتٍ خَافَتْ.

- يَا لِلْأَسْفِ، أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَمِيرَةَ الْجَمِيلَةَ الْيَافِعَةَ قَدْ قَضَتْ بِسَبَبِ الْفِظَاعَاتِ الَّتِي تَرْتَكِبُهَا هَذِهِ الْمَخْلُوقَةُ الْخَسِيسَةَ! يَجِبُ تَقْطِيعُهَا إِزْبَابًا!

امْتَنَعَ الْمَلِكُ عَنِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَذَرَفَ كُلَّ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ. وَإِذْ رَأَتْ غِرَاسِيوزَا أَبَاهَا عَلَى هَذَا التَّفَجُّعِ قَالَتْ:

- آه يَا بَرَسِينَهُ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْتَمِلَ لَوْ قَتِ أَطْوَلَ أَنْ يَظُنَّنِي أَبِي مَيِّتَةً. إِذَا كُنْتُ تَحِبُّنِي، أَعِدْنِي إِلَى هُنَاكَ.

كَانَ عَلَيْهِ الْانْصِياعُ لِأَوَامِرِهَا مَهْمًا كَانَتْ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ يَسَبِّبُ لَهُ امْتِعَاضًا كَامِلًا.

قَالَ لَهَا:

- يَا أَمِيرَتِي، سَوْفَ تَتَحَسَّرِينَ كَثِيرًا عَلَى مَغَادِرَتِكَ قِصْرِ السَّحَرِ لِأَنَّني لَا أَجْرؤُ عَلَى الْقَوْلِ إِنَّكَ سَتَتَحَسَّرِينَ عَلَيَّ. أَنْتِ أَقْسَى عَلَيَّ مِمَّا تَقْسُو نَكْدَ عَلَيَّكَ.

عَبثًا حَاولَ إِقْنَاعِهَا، أَصْرَتْ بَعْنَادٍ عَلَى الرَّحِيلِ. اسْتَأذَنْتْ مِنْ وَالِدَةِ الْأَمِيرِ وَأَخْتِيهِ بِالْانْصِرَافِ. صَعَدَتْ مَعَهُ عَلَى الْمَرْزَاجِ وَبَدَأَ الْإِيلَانَ يَعْذُوَانِ. وَعِنْدَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْقِصْرِ، سَمِعَتْ خَلْفَهَا ضَجَّةَ مَرْوَعَةٍ، التَّفَتَّتْ خَلْفَهَا فَرَأَتْ الصَّرْحَ يَنْهَارُ إِلَى أَلْفِ قِطْعَةٍ.

هتفت:

- مَاذَا أَرَى! لَمْ يَعْذُ هُنَاكَ قِصْر!

أَجَابَهَا بَرَسِينَهُ:

- لا. قصري سيكون بين الأموات. ولن تدخلي إليه إلا بعد دفنك.

قالت غراسيوزا وهي تحاول تهدئته:

- أنت غاضب، لكن ألا ترى حقاً أنني أكثر مدعاةً للشفقة منك؟ وعند وصولهما، تصرف بشكل يصعب معه هو والأميرة غير مرتين. صعدت إلى غرفة الملك وأرتمت عند قدميه. وعندما رآها خاف وأراد الهرب معتقداً أنها شبح. أمسكته وقالت له إنها لم تمت وإن نكد هي التي اقتادتها إلى الغابة الموحشة وإنها صعدت إلى أعلى شجرة حيث اقتاتت من الثمار، وإنهم دفنوا حطبة مكانها وإنها تطلب منه رحمةً بها أن يرسلها إلى أحد قصوره لكي لا تكون عرضة لغضب زوجة أبيها.

شك الملك في صحة ما قالته وأرسل حراسه لكي ينش القبر ومكث مندهشاً من مكر نكد. إن أحداً سواه كان سيرسلها إلى المشنقة في الساحة، لكنه كان رجلاً تعيساً ضعيفاً ليس لديه الشجاعة على الغضب فعلاً. داعب طويلاً ابنته واستبقاها لتناول العشاء معه. وعندما ذهب وصيفات نكد وأجيراتهما ليخبرنها بعودة الأميرة وبأنها تتناول العشاء مع الملك، جن جنونها وهرعت إليه لتؤكد له أن هذه الفتاة محتالة وأمرته أن يتخلى عنها ويطردها في الحال وألا تفكر في العودة إلى القصر طيلة حياتها. وأضافت إن الظن بأنها الأميرة غراسيوزا لم يكن إلا افتراضاً، وإنها في الحقيقة تشبهها قليلاً، لكن الأميرة غراسيوزا انتحرت، وإنها رأتها بأمر عينيها تنتحر. إذا كنت تصدق خدع هذه الفتاة فهذا انتقاص من قدرها ومن الوثوق بها. أما الملك، فمن دون أن ينبس بكلمة ترك لنكد أمر التصرف بالأميرة المنكودة الحظ ظاناً أو متظاهراً بالظن أنها ليست ابنته.

مُنْتَشِيَةً مِنَ الْفَرْحِ جَرَّتْهَا نَكَدٌ بِمَعُونَةِ نَسَائِهَا إِلَى مَخْبَأٍ، وَهَنَّاكَ  
جَرَدَتْهَا مِنْ ثِيَابِهَا الْغَالِيَةِ وَكَسَتْهَا بِثَوْبٍ رَثٍّ مِنَ الْخَيْشِ وَالْبَسْتِهَا فِي  
قَدَمَيْهَا قُبْقَاباً وَوَضَعَتْ عَلَى رَأْسِهَا قَلَنْسُوءَةً مِنْ نَسِيجِ الْبَتِّ الْغَلِيظِ.  
وَأَعْطِيَهَا الْقَلِيلَ مِنَ الْقَشِّ سَرِيراً وَالْخُبْزَ الْأَسْمَرَ طَعَاماً.

وَسَطَ هَذِهِ الْخَيْبَةَ، طَفِقَتْ تَبْكِي بِمَرَارَةٍ وَتَتَحَسَّرُ عَلَى مَغَادِرَتِهَا قَصْرَ  
السَّحْرِ. لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَجْرؤُ عَلَى أَنْ تَسْتَدْعِي بِرَسِينِهِ لِيَنْجِدَهَا لظَنِّهَا أَنَّهَا  
اسْتَعَلَّتْ نَخْوَتَهُ كَثِيراً حَيَالِهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَوْمَلَ نَفْسَهَا بِأَنَّهُ كَانَ مَا  
يَزَالُ يَجِبُّهَا بِهَا يَكْفِي لِيَسَاعِدَهَا فِي مَحْتَمَلِهَا. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ أُرْسَلَتْ نَكَدٌ  
الشَّرِيرَةَ فِي طَلَبِ إِحْدَى الْجَنِّيَّاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ أَقْلَ خُبْناً مِنْهَا.  
قَالَتْ لَهَا:

- أَحْتَجِزُ هُنَا فَتَاةٌ مَحْتَالَةٌ أَشْتَكِي مِنْ سُوءِ تَصَرُّفِهَا. أُرِيدُ أَنْ  
أَجْعَلَهَا تَتَعَدَّبُ وَأَرْغَمَهَا عَلَى الْقِيَامِ دَوْماً بِمَهَامٍ شَاقَّةٍ لَا يُمْكِنُهَا  
إِنْجَازُهَا، وَهَذَا لَكِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْهَالَ عَلَيْهَا ضَرْباً دُونَ أَنْ يَكُونَ  
لَدَيْهَا مَا يَعْذِرُهَا. سَاعِدِينِي عَلَى أَنْ أَخْتَلِقَ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْوَانَ عَذَابٍ  
جَدِيدَةٍ.

أَجَابَتِ الْجَنِّيَّةُ بِأَنَّهَا سَتَفَكِّرُ فِي الْمَوْضُوعِ وَسَتَعُودُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ. لَمْ  
تَحَلَّ بِوَعْدِهَا. جَلَبَتْ مَعَهَا شِلَّةً خِيُوطِ ضَخْمَةٍ مِثْلَ أَرْبَعَةِ أَشْخَاصٍ،  
وَالْخِيْطُ فِيهَا رَفِيعٌ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ يَنْقَطِعُ إِذَا نَفَخْتَ فَوْقَهُ، وَمَشْبُوكٌ مِثْلُ  
وَشِيْعَةٍ لَا بَدَايَةَ لَهَا وَلَا نَهَايَةَ. سُرَّتْ نَكَدٌ كَثِيراً لِرُؤْيَيْهَا وَأُرْسَلَتْ فِي  
طَلَبِ سَجِيَّتَيْهَا الْجَمِيلَةِ وَقَالَتْ لَهَا:

- لِكِ هَذِهِ الشِّلَّةُ يَا فَتَاتِي، هَيْتِي يَدِيكَ الْخِرْقَاوِينَ لِتَحُلِّيَ هَذِهِ  
الْخِيُوطِ وَكَوْنِي مَتَأَكَّدَةٌ مِنْ أَنَّكَ لَوْ قَطَعْتَ خِيْطاً وَاحِداً فَسَوْفَ  
تَهْلِكُنِ لِأَنَّي سَأَسْلُخُ جِلْدَكَ بِنَفْسِي. إِبْدِنِي مَتَى تَشَائِنِ، وَلَكِنْ  
عَلَيْكَ أَنْ تَحُلِّيَهَا قَبْلَ مَغِيبِ الشَّمْسِ.



ثم أغلقت عليها الباب بثلاثة أقفال في غرفة. ولدى تأمل الأميرة هذه الشَّلَّة الضَّخمة، وبَعْدَمَا قَلَّبَتْهَا وَقَلَّبَتْهَا مِنْ جَدِيدٍ وَقَطَعَتْ أَلْفَ خِيَطٍ لِيَسْلَمَ خِيَطٌ وَاحِدٌ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ مَكَّثَتْ مِنْذَهَلَةً وَلَمْ تَعُدْ تَرِيدُ أَنْ تَحِلَّ خِيَطًا وَاحِدًا مِنْهَا وَرَمَتْهَا فِي وَسْطِ الْمَكَانِ قَائِلَةً:

- إِلَيْكَ عَنِّي أَيَّتُهَا الْخِيُوطُ الْقَاتِلَةُ، سَتَكُونِينَ سَبَبَ مَوْتِي. آه يَا بَرَسِينَةَ! بَرَسِينَةَ! إِذَا لَمْ تُنْفِرْكَ قَسَوْتِي عَلَيْكَ مَنِّي، فَأَنَا لَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ لِنَجْدَتِي بَلْ عَلَى الْأَقْلِ تَعَالَ لِتَلْتَقِيَ مِنِّي الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ.

وهنا أخذت تبكي بمرارة لدرجة أن بكاءها كان سيؤثر بمن هو أقل إحساساً من عاشق. فتح برسينه الباب بالسهولة نفسها كما لو أنه احتفظ بالمفتاح في جيبه.  
قال لها:

- ها أنا يا أميرتي مستعدّ دوماً لخدمتك. لستُ قادراً البتّة على التَّخْلِيعِ عَنكَ مَعَ أَنَّكَ لَا تَعْتَرِفِينَ بِشَغْفِي لَكَ كَمَا يَجِبُ.

ضَرَبَ بِعَصَاهُ السَّحَرِيَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلَى شِلَّةِ الْخِيُوطِ، وَعَلَى الْفُورِ اجْتَمَعَتِ الْخِيُوطُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَبِضْرَبَتَيْنِ أُخْرَيْنِ حُلَّتْ كُلُّهَا بِدَقَّةٍ مَدْهِشَةٍ. كَانَ يَسْأَلُهَا إِذَا كَانَتْ تَتَمَتَّى مِنْهُ شَيْئاً آخَرَ، وَإِذَا كَانَتْ لَا تَنَادِيهِ أَبَدًا إِلَّا فِي حَالَاتٍ ضَيْقِيهَا.

قالت له:

- دَعْ عَنكَ لَوْ مَيَّ يَا بَرَسِينَةَ الْجَمِيلِ فَأَنَا أَضْلًا تَعِيَسَةٌ بِمَا فِيهِ الْكُفَايَةُ.  
- وَلَكِنْ يَا أَمِيرَتِي، الْأَمْرُ مَتَعَلِّقٌ بِكَ لَكِي تَتَحَرَّرِي مِنَ الطَّغْيَانِ الَّذِي أَنْتِ ضَحِيَّتُهُ. تَعَالِي مَعِي وَلِنَصْنَعْ هُنَاءَنَا الْمَشْرُوكَةَ. مِمَّ تَخْشِينَ؟  
أجابته:

- أَحْشَى الْأَلَّ تُحْبِنِي بِمَا يَكْفِي. أَرِيدُ أَنْ يُؤَكِّدَ لِي الزَّمَنُ صَدَقَ مِشَاعِرُكَ.

فما كان من برسينه، وقد أهانته هذه الشكوك، إلا أن استأذن منها بالانصراف ورحل.

كانت الشمس على وشك أن تغيب ونكد تتحرق لأن تأتي الساعة بفارغ الصبر. وأخيراً لم يعد بإمكانها الانتظار وجاءت قبل الموعد مع وصيفاتها جنّيات الغضب الأربع اللواتي كنّ يُرافقنها إلى كل مكان. وضعت المفاتيح الثلاثة في الأقفال الثلاثة وقالت وهي تفتح الباب: - أراهن على أن هذه الكسولة الجميلة لم تقم بأي عمل بأصابعها العشر. فهي تفضل النوم لكي تظل بشرتها نضرة.

وعندما دخلت، قدّمت لها غراسيوزا شلة الخيوط كما طلبت. لم يكن لديها ما تقوله لها إلا أنها وسّخت الخيوط وأنها فتاة قدرة ولذلك وجهت لها صفتين أصبحت وجنتاها على أثرهما زرقاوين ثم صفراوين. تحمّلت غراسيوزا التعيسة إهانة لم تكن قادرة على صدّها واقتيدت إلى مخبئها حيث سجنت وأحكمت الإقفال عليها. حزنّت نكد أيّما حزن لكونها لم تفلح مع شلة الخيوط، فأرسلت في طلب الجنّية وأمطرتها بوابل من اللوم.

قالت لها:

- جدي عملاً أكثر صعوبة تعجز عن إنهائه.

ذهبت الجنّية وفي اليوم التالي أحضرت برميلاً معبأ بالرياش. رياش من كل نوع، رياش بلابل وكناريات وكعابر وحساسين وزقنقات ودخلات وبيغاوات وبوم وعصافير دوريّ وحمّام ونعام ودجاج بريّ وطواويس وقبرات وحجال.

لن أستطيع تسميتها كلها. كانت هذه الرياش مختلطة ببعضها البعض والعصافير نفسها لن تستطيع التعرف إليها. قالت الجنّية وهي تتحدّث إلى نكد:

- هاك ما يمكنك أن تمتحني به مهارة سجينتك وصبرها. مريها بأن تتقي هذه الرياش، أن تضع رياش الطواويس على حدة، ورياش البلابل على حدة، وأن تجعل من كل صنف كومة: وهذا ما قد تعجز حتى جنية عن فعله.

نكد أخذها الابتهاج عند تصوورها ارتباك الأميرة التعيسة. أرسلت في طلبها وهددتها كما تفعل عادةً وسجنتها مع برميل الريش في غرفة لها ثلاثة أقفال وأمرتها بأن تُنهي العمل عند مغيب الشمس. أخذت غراسيوزا بعض الرياش لكن كان يستحيل عليها أن تميز فيما بينها فأرجعتها إلى الكومة. ثم أخذتها من جديد وحاولت مرات عدة وإذ رأت أنها تحاول شيئاً مستحيلاً قالت بنبرة وهيتة يائستين:

- لِنْمُتْ! إنها تمتى موتي وهو الذي سيُنهي مصائبي. يجب ألا أستدعي برسينه لنجدتي: لو كان يحبني لكان هنا قبل الآن.

هتف برسينه:

- أنا هنا يا أميري. قال وهو يخرج من عُمق كومة الرياش حيث كان مخبئاً. أنا هنا لكي أخرجك من هذه الورطة التي أنت فيها. هل تشكين، بعد كل هذه التجارب، باهتامي وبأنني أحبك أكثر من حياتي.

وهكذا ضرب بعصاه ثلاث ضربات وخرجت الرياش بالآلاف من البرميل وانتظمت من تلقاء نفسها في كوم صغيرة حول الغرفة. قالت له غراسيوزا:

- ما الذي لا أدين لك به! لولاك لَكُنْتُ مت. كن واثقاً من امتناني كله.

لم ينس الأمير شيئاً في سبيل إقناعها باتخاذ قرار حازم لصالحه. سألته أن يُمهلهما. ومع أنه كان عليه من جديد أن يكبت مشاعره، إلا

أنه منحها ما طلبته.

جاءت نكد ومكثت ذاهلة مما رأت. لم تعد تعرف ماذا عليها أن تتصوّر لكي تزعج غراسيوزا. لم تتورّع عن ضربها والقول لها إنّ الرّياش كانت مرتّبة بشكل سيّء. أرسلت في طلب الجنيّة وغضبت غضباً شديداً حيالها. لم تحرّ الجنيّة جواباً. وبقيت مختارة. وأخيراً قالت لها إنّها ستستعمل كلّ فتّها في صنع علبة ستسبّب في وزطة كبيرة لسجيتها إذا حاولت فتحها. وبعد أيامٍ جاءت بها بعلبة كبيرة. قالت لنكد:

- خذي هذه وأرسلي في طلب سجيتك لتحملها. إمنعها من فتحها. لكنّها لن تستطيع الامتناع عن ذلك، وستكونين مسرورة. نفّذت نكد الأوامر، واستدعت غراسيوزا وقالت لها:

- خذي هذه العلبة إلى قصري الفخم وضعيها على طاولة الغرفة لكنني أمنعك، تحت طائلة الموت، من أن تنظري إلى داخلها. انطلقت غراسيوزا مرتديةً فبقابها ولياسها من الخيش وقلنسوتها الصّوف. من كانوا يلتقون بها كانوا يعدونها كائناً ساءواً متكرراً، لأنّها كانت محبوبةً بجمالٍ عجيب. مرّت بغاية صغيرة تحفّ بها بريّة ظريفة. جلست لكي تنفّس قليلاً. وضعت العلبة على ركبتيها وفجأةً اغترّتها الرّغبة في فتحها. قالت: ما الذي بإمكانه أن يحدث لي؟ لن آخذ منها شيئاً لكنني على الأقلّ سأرى ما في داخلها. لم تفكّر أكثر في العواقب وفتحتها. وللحال خرج منها الكثير من الرّجال الصّغار والنساء الصّغيرات والكمّنجات والآلات والطباخين الصّغار والأطباق الصّغيرة، وأخيراً عملاق الفرقة الذي كان بعلوّه إصبع. وقفزوا أخيراً في الحقل وتفرّقوا إلى فرق عديدةً وبدأوا أجمل حفلٍ راقصٍ قيّص له أن يُقام: كان بعضهم يرقصون والبعض الآخر

يَطْهُونُ وَالْآخَرُونَ يَأْكُلُونَ؛ وَكَانَتِ الْكَمَنْجَاتُ الصَّغِيرَةَ تَعْرِفُ بِإِبْدَاعِ. شَعَرَتْ غِرَاسِيوزَا بِأَدِي الْأَمْرِ بِالْمَتْعَةِ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْخَارِقَةَ؛ وَلَكِنْ عِنْدَمَا مَلَّتْ مِنْهَا قَلِيلاً وَأَرَادَتْ إِرْغَامَهَا عَلَى الْعُودَةِ إِلَى الْعَلْبَةِ، لَمْ يُرِدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْإِمْتِثَالَ لِذَلِكَ. فَرَّ السَّادَةُ الصَّغَارُ وَالسَّيِّدَاتُ الصَّغِيرَاتُ، وَأَيْضاً الْكَمَنْجَاتُ وَالطَّبَّاحُونَ وَاضْعِينَ طَنَاجِرَهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَالسَّفَافِيدُ عَلَى الْأَكْتِافِ، وَكَانُوا يَتَّجِهُونَ إِلَى الْغَابَةِ عِنْدَمَا تَدْخُلُ غِرَاسِيوزَا إِلَى الْحَقْلِ، وَيَدْخُلُونَ إِلَى الْحَقْلِ عِنْدَمَا تَتَّجِهُ إِلَى الْغَابَةِ.

قَالَتْ غِرَاسِيوزَا وَهِيَ تَبْكِي:

- يَا لِكِ مِنْ طُرْفَةٍ مَزْعُجَةٍ! سَتَرُوقِينَ جِداً لَعْدُوتِي! الْمَصِيبَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي كَانَ بِإِمْكَانِي تَدَارُكُهَا نَزَلَتْ بِي بِسَبَبِ غَلْطِي: لَا، لَا، لَا، اسْتَطِيعُ أَنْ أَلُومَ نَفْسِي عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ اللَّازِمِ.  
ثُمَّ هَتَفَتْ:

- بَرَسِينَهُ، بَرَسِينَهُ، إِذَا كَانَ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِكَ حَبٌّ لِأَمِيرَةٍ بِهَذَا التَّهَوُّرِ، فَتَعَالَ وَسَاعِدْنِي عَلَى تَحْمَلِ أَرْعَجِ لِقَاءِ فِي حَيَاتِي. لَمْ تَكُدْ تَتَلَفَّظُ بِاسْمِ بَرَسِينَهُ مَرَّتَيْنِ حَتَّى حَضَرَ. رَأَيْتُ فِي زِيَةِ الْأَخْضَرِ الْفَاخِرِ.

قَالَ لَهَا:

- يَا أَمِيرَةَ، لَوْلَا نَكْدُ الشَّرِيرَةِ لَمَا فَكَّرْتِ بِي قَطًّا.

فَأَجَابَتْهُ:

- آه! لَكِ أَنْ تَحْكُمِ عَلَى مِشَاعِرِي بِشَكْلِ أَفْضَلِ. لَسْتُ جَاحِدَةً بِالْإِحْسَانِ وَلَا نَاكِرَةً لِلْجَمِيلِ. يَبْقَى صَاحِحاً أَنِّي أَمْتَحِنُ ثَبَاتَكَ فِي الْحُبِّ، وَأَفْعَلُ هَذَا لِكِي أَتَوَجَّهُ بِالزَّوْاجِ عِنْدَمَا أَقْتَنِعُ بِهِ.  
وَإِذَا بَرَسِينَهُ، الَّذِي كَانَ أَسْعَدَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى، يَنْكُزُ الْعَلْبَةَ

بعصاه ثلاث مرّات، وفي الحال انتظّم فيها الرّجال الصّغار والنّساء الصّغيرات والكمنجات والطّباخون ومشاويهم، كما لو أنّهم لم يخرجوا منها. كان برسينه تركّ في الغايّة مرّكبته؛ رجا الأميرة باستخدامها للذهاب إلى القصر الثريّ: فهي بحاجة إلى هذه العربة في الحال التي كانت عليها. ثم جعلها غير مرّيّة، وقادها بنفسه واستمتع برفقته معها، وهذه المتعة، كما تقول الأخبار التي وصلت إليّ، لم تكن الأميرة غير مكرّثة بها في أعماق قلبها لكنّها كانت تُعنى بإخفاء مشاعرها. وصلت إلى القصر الثريّ، وعندما طلبت، قائلة إنّها آتية من قبل نكد، أن يُفتح لها الدّيوان، انفجَرَ قهرمان القصر ضاحكاً.

قال لها:

- ماذا، هل تظنين أنّ فلاحه مثلك، بمجرد أن تكون تركت أغنامها، تستطيع الدّخول إلى هذا المكان البديع؟ عودي من حيث جئت، هذه الأرضيّة لم يطأها قبقاب قطّ.

توسّلت إليه غراسيوزا أن يكتب لها رسالة قصيرة يقول فيها إنه رفض إدخالها. امتثل لطلبها. وحين خرجت من القصر الثريّ وجدت برسينه اللطيف في انتظارها وأعاد اصطحابها إلى القصر. سيكون من الصّعب أن أكتب كلّ ما قال لها أثناء الطّريق من كلمات رقيقة ومجّلة لإقناعها بأن تضع حدّاً لعنائها. فأجابته بأنه إذا دبّرت لها نكد خدعة جديدة فستقبل بذلك.

وعندما رأتها زوجته أبيها عائدة، انقضّت على الجنيّة التي كانت أبقّتها عندها فخدشتها بأظافرها وكادت تخنقها لو كانت الجنيات قابلة لأن تخنق. أظهرت لها غراسيوزا رسالة قهرمان القصر والعلبة فرمّت الرّسالة والعلبة في النّار من دون أن تتكلّف عناء فتحها. ولو أنّ غضبها تزايد أكثر لكانت رمت أيضاً الأميرة في النّار لكنّها لم تُردّ

إرجاء عذابها لوقتٍ أطول.

أمرت بحفر حفرة كبيرة في الحديقة، عميقة بعمق بئر؛ فحُفرت  
وسُدّت بصخرة ضخمة. راحت هي تنتزه وقالت لغراسيوزا ولكل  
من كان يرافقتها:

- تلك صخرةٌ قِيلَ لي إنَّ تحتها كنزاً. هيا ارفعوها بسرعة.

وتعاون الجميع على زحزحتها، وأرادوا أن تشاركهم غراسيوزا.  
ما إن أصبحت الصخرة على الحافة حتى دفعت نكد بغراسيوزا في  
البئر، وأطبقت الصخرة فوقها.

فيما يخص هذه الحيلة، لم يكن هنالك رجاء يُرجى. فأين بإمكان  
برسينه أن يجدها في عمق الأرض؟ أدركت غراسيوزا جيداً  
الصعوبات التي تحول دون ذلك وندمت على أنها تريتت كل ذلك  
الوقت لتتزوج.

هتفت:

- ما أهول مصيري! أنا مدفونة حية! وهذه الميتة أقطع من أية  
ميتة أخرى. لقد انتقممت مني لتأجيلي الزواج بك يا برسينه، لكن  
كل ما أخشاه هو أن تكون ملولاً كسائر الرجال الذين يتغيرون ما إن  
يتأكدوا من أنهم محبوبون. كل ما أردت هو أن أكون أكيدة من حبك.  
إن شكوكي الظالمة هي السبب في الحال التي وصلت إليها.

وأردفت:

- إذا كان لا يزال بإمكانني الأمل بأن تتحسّر على خسارتي فستهنون  
هذه الخسارة لعيني.

كانت تتكلم هكذا لكي تخفف من ألمها، وإذا بها تحس بأن باباً  
صغيراً لم تلحظه قد انفتح في الظلام. وفي الوقت نفسه رأت أنواراً  
وحديقة مليئة بالأزهار والثمار ونوافير الماء والمغاور والتماثيل

والرياض والمقصورات. لم تتردد في الدخول إليها. وتقدمت في أحد الممرات الكبيرة، مفكرة في النهاية التي ستأخذها تلك المغامرة التي كانت لا تزال في بدايتها. وفي الوقت نفسه، اكتشفت القصر السحري: لم يشق عليها التعرف إليه نظراً لأنه يتعدّر وجود قصر مصنوع كله من البلور الجندليّ وحيث نقشت على جدرانها كل مغامراتها المستجدة.

ظهر برسينه برفقة أمه الملكة وأخواته.

قالت الملكة لغراسيوزا:

- لا تُمانعي أيتها الأميرة الجميلة. حان الوقت لتسعدني ابني وتخلصني من الحال المزرية التي تعيشين فيها تحت وطأة استبداد الجنيّة نكد.

جثت الأميرة الممتنة على ركبتيها وقالت لها إنها تستطيع أن تتحكم بمصيرها كيفما تشاء، وإنها تستطيعها في كل شيء، وإنها لم تنس نبوءة برسينه عندما غادرت القصر السحريّ وقال لها إن ذلك القصر نفسه سيكون بين الأموات وإنها لن تدخل إليه إلا بعد دفنها. كانت تنظر بإعجاب إلى حكمته وبإعجاب أكبر إلى جدارته، وبذلك تقبل به زوجها. فارتقى الأمير بدوره عند قدميها. وفي الوقت نفسه صدح القصر بالأصوات والآلات وأقيم العرس في روعة ما بعدها روعة. وجميع الجنّيات من مختلف الأمكنة من العالم جنن برفقة مواكب باذخة. بعضهنّ وصلن في عربات تجرها بجعات، وبعضهنّ في عربات تجرها تنانين، وأخريات وصلن على متن الغيوم، وأخريات أيضاً في كرات من نار. وبينهنّ ظهرت الجنيّة التي ساعدت نكد على تعذيب غراسيوزا. وعندما تعرّفت إليها، تعجبت أشدّ العجب وتوسّلت إليها كي تنسى ما حصل ووعدتها بأنها لن توفر وسيلة لكي تعوّض



لها عن الآلام التي سببها لها. ولكن ما حصل هو أنها لم تشأ أن تبقى  
لتحضر الوليمة. فاستقلت عربتها التي كانت تجرها حيتان مرعبتان،  
وطارت إلى قصر الملك. وهناك بحثت عن نكد ودكت عنقها دون أن  
يستطيع حراسها ولا وصيفاتها ردعها عن ذلك.

هذا أنت أيها الحسدُ المخزن والمشؤوم  
أنت يا من تتسبب بعذاباتِ البشر  
وتُعكر في أجل حياةٍ  
أصفى أيامها.

أنت الذي أشعلت في نفس نكد الجائرة  
هذا الحقد حيال غراسيوزا  
أنت الذي انهكت عليها بالضربات  
التي جعلتها شقيّة.

آه! ماذا كان سيحلّ بها  
لو أنّ عاشقها برسينه الثابت في حبّه  
لم يخلصها من برائن الموتِ مرّاتٍ ومرّاتٍ.

كان يستحقّ المكافأة  
التي هيأتها له نخوته  
حين يكون الحبّ مخلصاً  
يلقى العاشقُ نفسه عاجلاً أم آجلاً في أحضانِ السعادةِ الكاملة.



«الجميلة بشعرا الذهبية»، للرسام جوزيف مارسيل بروتون

Joseph Marcel Breton, 1904

## الجميلة بشعرها الذهبي

كان يا ما كان، كانَ هناك ابنةُ ملكٍ، وكانت على جمال ليس له مثيل. ولِسِدَّةٌ جَملها أُطلقوا عليها اسمُ الجميلةِ ذاتِ الشعرِ الذهبيِّ لأنَّ شعرها كان أرقَّ من النَّصار، أشقر إلى حدِّ العجب، متموِّج الحُضلاتِ ومُسترسلاً حتى أخصَّ قدميها. كانت تخرُجُ دوماً متدثرةً بشعرها المقصَّب يتوَّجُ رأسها إكليلٌ من الأزهار، ومرتديَّةً ملابسَ مطرزةً بالأماسِ واللآليءِ. ما مِنْ رجلٍ يستطيعُ أن يَرى جمالها دونَ أن يقعَ في حُبِّها.

وكان هنالك ملكٌ شابٌ مجاورٌ لها، حَسُنَ المظهر، وافِرُ الثراء. حينَ بلغه ما يُقالُ عن الجميلةِ ذاتِ الشعرِ الذهبيِّ، ورُغمَ أَنه لم يَرها بعد، شرعَ يَحبُّها بجنونٍ فاقدًا الرِّغبةَ في الأكلِ والشربِ، عاقداً العزمَ على إيفادِ رسولٍ إليها ليطلبَ يَدها للزَّواج. أمرَ بتجهيزِ عَربةٍ ملكيَّةٍ فاخرةٍ لرسوله وزوَّدهُ بأكثرَ من مائةِ حصانٍ ومائةِ خادِمٍ، وأمره بأن يصطحبَ الأميرةَ لَدى عودَتِه.

استأذَنَ الرسولُ الملكَ بالانصرافِ وانطلقَ إلى مهمَّتِه. حينَذاك، لم يكنْ أهلُ البلاطِ يتحدَّثونَ إلَّا عن الأميرةِ التي ستعودُ بصُحبةِ الرسولِ. ولم يكنْ الملكُ ليشكَّ في أنَّ الجميلةَ ذاتِ الشعرِ الذهبيِّ ستمثِلُ لرَغبَتِه. فأمرَ بأن تُحاطَ لها الفساتينُ الجميلةُ ويُجهَّزَ لها الأثاثُ البديع. وفيما كانَ العمالُ منكبِّينَ على تنفيذِ الأوامرِ، وصلَ الرسولُ عندَ الجميلةِ ذاتِ الشعرِ الذهبيِّ وبلَّغها بإيجازِ الرِّسالةِ القصيرةِ التي عُهدَ بها إليه. لكنَّها، إمَّا لأنَّها لم تكنْ في ذلكَ اليومِ على مزاجِ صافٍ وإمَّا لأنَّها لم تستسغِ الإطراءَ الذي سمعتهُ، أجابتَ الموفدَ بأنَّها تشكُرُ

المَلِكُ لَكِنَّهَا غَيْرُ رَاغِبَةٍ فِي الزَّوْاجِ.

غَادَرَ السَّفِيرُ قَصْرَ هَذِهِ الْأَمِيرَةِ وَبِهِ حُزْنٌ شَدِيدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَصْطَحِبْهَا مَعَهُ مُعِيداً بِجَمِيعِ الْهَدَايَا الَّتِي كَانَ الْمَلِكُ قَدْ أَرْسَلَهَا لَهَا، لِأَنَّ الْأَمِيرَةَ عَاقِلَةٌ وَتَدْرِكُ جَيِّداً أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْفَتَيَاتِ أَلَّا يَأْخُذْنَ شَيْئاً مِنَ الْفَتَيَانِ: لِذَا امْتَنَعَتْ قِطْعاً عَنْ قَبُولِ حَبَاتِ الْأَمَاسِ الْجَمِيلَةِ وَبَاقِي الْهَدَايَا. وَاکْتَفَتْ فَقَطْ، إِرْضَاءً لِلْمَلِكِ، بِأَنْ تَأْخُذَ حَفْنَةً مِنْ دَبَابِيسِ الشَّعْرِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ الرَّسُولُ إِلَى مَدِينَةِ الْمَلِكِ الْكَبِيرَةِ، حَيْثُ كَانَ الْجَمِيعُ فِي انْتِظَارِهِ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، حُزِنُوا حِينَ رَأَوْا أَنَّهُ لَمْ يَصْطَحِبْ مَعَهُ الْجَمِيلَةَ الذَّهَبِيَّةَ الشَّعْرَ. وَطَفِقَ الْمَلِكُ يَبْكِي كَطِفْلِ صَغِيرٍ، وَأَخَذُوا يُوَاسِوْنَهُ دُونَ أَنْ يُفْلِحُوا فِي تَبْدِيدِ حُزْنِهِ.

كَانَ هُنَاكَ فَتَى شَابٌّ فِي الْقَصْرِ مَشْرِقُ كَالشَّمْسِ، وَكَانَ الْأَحْسَنَ مَظْهَرًا فِي الْمَمْلَكَةِ كُلِّهَا: وَنَظْرًا لَظْرَفِهِ وَوَسَامَتِهِ سُمِّيَ «مُحْبُوبًا». وَكَانَ فِعْلاً مُحْبُوبًا مِنَ الْجَمِيعِ مَا عَدَا الْحَاسِدِينَ الَّذِينَ كَانُوا غَاضِبِينَ مِنْ أَنْ يُنْعِمَ الْمَلِكُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ كُلِّ يَوْمٍ.

التَّقَى مُحْبُوبٌ بِجَمْعٍ مِنَ النَّاسِ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ عَوْدَةِ الرَّسُولِ قَائِلِينَ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ. قَالَ لَهُمْ دُونَ أَنْ يَتَوَخَّى حَذْرَهُ:  
- لَوْ أَرْسَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى الْجَمِيلَةِ الذَّهَبِيَّةِ الشَّعْرِ لَكُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهَا سَتَأْتِي مَعِي.

مَا كَادَ يُنْهِي الشَّابُّ كَلَامَهُ حَتَّى ذَهَبَ أَوْلَئِكَ النَّاسُ الْأَشْرَارَ لِيَسْهُوا لِلْمَلِكِ بِمَا قَالَهُ:

- مَوْلَانَا، أَلَا تَعْرِفُ مَا يَقُولُهُ مُحْبُوبٌ؟ يَقُولُ إِنَّكَ لَوْ أَرْسَلْتَهُ إِلَى الْجَمِيلَةِ ذَاتِ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ لَكَانَ اصْطَحَبَهَا. أَرَأَيْتَ خُبْرَتَهُ؟ يَدَّعِي أَنَّهُ أَجْمَلُ مِنْكَ وَأَنَّهَا لَوْ رَأَتْهُ لِأَغْرَمَتْ بِهِ وَتَبِعَتْهُ حَيْثُمَا يَذْهَبُ.

فغضبَ الملكُ غضباً شديداً جعلهُ يخرُجُ عن طوره. وقال:  
- هكذا إذا! صاحِبنا الظريفُ الجميلُ يَهْزَأُ من شقائِي! ويُفْرِطُ  
في تعظيمِ نفسه. مَنْ يحسبُ نفسهُ يا ترى؟ اذهبوا وضمِّعوه في برجِي  
الكبيرِ وأترُكوه هناكَ حتَّى يموتَ من الجوعِ.

ذهبَ حراسُ الملكِ للقبضِ على محبوبِ الذي لم يعدْ يتذكَّرُ ما  
قاله. اقتادوه إلى السجنِ ونكَلوا به. ولمْ يعدْ لهذا الفتى المسكينِ إلا  
القليلُ من القشِّ لينامَ وكانَ مصيرهُ الهلاكُ لولا نبعٌ صغيرٌ ينسابُ  
من أسفلِ البُرجِ، كانَ يرتوي منه قليلاً مرطّباً فمهُ الذي جفَّفه الجوعِ.  
ذاتَ يومٍ، لمْ يعدْ بإمكانه الاحتمالُ فقالَ متنهِّداً:

- ممَّ يشتكي الملكُ؟ لا أحدَ من رعاياه يُظهرُ له تفانياً أكثرَ مِنِّي.  
لمْ أتسبَّبْ له قطُّ بأيةِ إهانةٍ. وكانَ الملكُ ماراً بالقربِ منَ البُرجِ عن  
طريقِ الصدفةِ فتنبَّهَ لشكوى ذاكَ الذي أحبَّه كثيراً. فتوقَّفَ ليصغيَ  
إليه بالرغمِ من اعتراضِ مرافقيه الذين يكرهونَ محبوباً. قالوا للملكِ:  
- مولانا، أيُّ متعةٍ تجِدُ في وقوفك هناكَ؟ ألا تعرفُ أنَّه مكار!

أجابَ الملكُ:

- أترُكوني هنا. أريدُ أن أسمعَه.

بعدَ ما أضغى إلى شكواه، اغرورقتَ عيناهُ بالدموعِ.  
فتحَ بابَ البُرجِ وناداه. جاءَ محبوبٌ يلقُّه الحزنُ وخرَّ ساجداً على  
رُكبتيه أمامه وقبَّلَ قدميه وقال:

- مولاي، ماذا فعلتُ لكَ لكي تُعاملني بهذه القسوة؟

أجابَه الملكُ:

- سَخِرْتَ مِنِّي ومن رسولي. قلتِ إنِّي لو أرسلتُك إلى الجميلةِ  
ذاتِ الشعرِ الذهبيِّ لكانتِ رَضِيَّتْ في الحالِ أن تأتيَ معكِ.  
أجابَه محبوبٌ:

- صحیح یا مولای. کنتُ سأحدثها عن خصالك الحميدة  
وشيمك الحسنة، وأنا على قناعة بأنها لن تستطيع مقاومتك. وفي هذا  
الصدد لم أقل شيئاً بإمكانه أن يندو لك بغيضاً.

وجد الملك أن محبوباً ليس مخطئاً: نظرَ شزراً إلى أولئك الذين  
اغتابوا صديقه المؤمنَ على أسرارِهِ، واصطحبَهُ معه، نادماً أشدَّ التدم  
على الشقاء الذي تسبَّبَ لَهُ بِهِ.

بعد أن أُولِمَ لَهُ عشاءٌ فاخراً، دَعَاهُ إلى ديوانِهِ وقالَ لَهُ:

- محبوب، لا أزالُ أحبُّ الجميلةَ ذاتَ الشعرِ الذهبيِّ، وتمنُّعُها  
لم يُخمدِ همتي لكنِّي لا أعرفُ كيفَ عليَّ أن أتصرَّفَ لكي ترغَبَ في  
الزواجِ بي: أتوقُّ إلى أن أرسلكَ لأرى ما إذا كنتَ تستطيعُ التَّجَاحَ في  
هذه المهمَّة.

أجابهُ محبوبٌ إنَّهُ مستعدٌّ ليطيعَهُ في كلِّ شيءٍ، وإنَّهُ سيرحلُ منذُ  
الصباحِ التَّالي.

فقال الملك:

- آ! أريدُ أن أحيطكَ بركبٍ كبيرٍ.

فأجاب:

- ليسَ هذا بضروريِّ. لا يلزمني إلاَّ حصانٌ قويٌّ، ورسائلٌ من

قبلك.

قبَلَهُ الملكُ لأنَّهُ كانَ مسروراً لرؤيته متأهباً للرحيلِ بهذه السرعةِ.  
وفي نهارِ الاثنينِ صباحاً، استأذَنَ مِنَ الملكِ بالانصرافِ، ومن  
أصدقائه، لكي يذهبَ إلى مهمَّتهِ وحيداً من دونِ أبهةٍ ولا صحبٍ.  
لم يكنْ يفكرُ إلاَّ في إيجادِ الوسائلِ التي تتيحُ لَهُ أن يُلزِمَ الجميلةَ  
بأن تزوِّجَ الملكِ. كانَ لديه في جعبتهِ ظرفٌ وأدواتُ الكتابةِ، وما  
إن تراوَدَّهُ خاطرةٌ جميلةٌ ليضعها في خطبتهِ حتَّى كانَ ينزلُ من على

الحصانٍ ويجلسُ تحتَ الأشجارِ ليكتُبَ، كي لا ينسى شيئاً.  
 ذاتَ صباحٍ غادرَ فيه عندَ بزوغِ النهارِ، مجتازاً براريَ شاسعةً،  
 خطرَتْ له فكرةٌ جميلةٌ جداً فترجَّلَ عن حصانِهِ وجلسَ لضيقِ  
 أشجارِ الصِّفصافِ والحُورِ المزروعةِ على طولِ جدولٍ صغيرٍ يسيلُ  
 عندَ حافةِ الحقلِ. وبعدَ أن كتبَ، نظرَ إلى كلِّ الجهاتِ من حوله  
 مسحوراً لوجودِهِ في ذلك المكانِ البعيدِ. فلمحَ على العشبِ سمكةً  
 شَبوطٍ ذهبيةً ضخمةً تتأبَّبُ عاجزةً عن الحراكِ: أرادت أن تلتقطَ  
 بَعوضاتٍ صغيرةً فقفزت خارجَ الماءِ بقوةٍ وهوتَ على العشبِ حيثُ  
 شارفت على الموتِ. أشفقَ محبوبٌ عليها، ومعَ أَنَّهُ كانَ يومَ قِطاعةٍ<sup>(1)</sup>  
 وأنَّه كانَ يستطيعُ أن يتخذها طعاماً لعشائِهِ، أمسكها ورماها برفقٍ في  
 الجدولِ. وما إنَّ أحسَّت صاحبُنا سمكةَ الشَبوطِ بِبرودةِ الماءِ حتَّى  
 ابتهجت وانزلت إلى عمقِ الماءِ ثمَّ عادت إلى حافةِ الجدولِ ممتلئةً  
 حبوراً وجدلاً. قالت:

- محبوب، أشكرُك على هذه النعمة التي حبوتني بها، لولاك  
 لَكُنْتُ مَيِّتة. أنت أنقذتني، سأجازيك بالمثل.  
 بعدَ هذا الإطراءِ الصَّغيرِ، غاصت السمكةُ في الماءِ، وظلَّ محبوبٌ  
 لوهلةً مندَهشاً من نباهتها وأدبها الرِّفيعِ.  
 وفي يومٍ آخر، فيما كان يتابع رحلته، رأى غراباً في مأزقٍ خطيرٍ:  
 كان ذلك الطائر المسكين يطاردهُ نسرٌ ضخمٌ يهوى التهامَ الغُربانِ.  
 كانَ على وشكٍ أن يُمسكَ بهِ ويبتلعَهُ كحَبَّةِ عدسٍ لولا أن محبوباً لم  
 يعطف على ذاك الحيوانِ.

قال:

- ها إنَّ الأقوياءَ يضطهدونَ المستضعفينَ: أي حقَّ يملكُ النسرُ

(1) أيام القِطاعة هي تلك التي ينقطع فيها المرء عن تناول اللحم والذهن، لأسباب دينية.

في أن يأكل الغراب؟

امتشق قوسه الذي يجمله دوماً وأخذ سهماً ثم صوب جيداً نحو  
النسر، وطق! اخترق السهم جسده من جهة إلى جهة فسقط النسر  
صريعاً، وطار الغراب ليحط على شجرة مبتهجاً.

قال له:

- محبوب، أنت فعلاً سهم لأنك أنقذتني، أنا لست إلا غراباً  
بائساً، لكنني لن أكون ناكراً للجميل، سأجازيك بالمثل.

أعجب محبوب بتعقل الغراب، وتابع سيره. وعندما أوشك على  
الدخول في غابة كبيرة، والصبح بازع لتوه لدرجة أنه بالكاد رأى  
طريقه، سمع بومة تصرخ يائسة كيما يأتي أحد لنجدها.

قال محبوب:

- ياه! هي ذي بومة في شقاء، ربها وقعت في شرك مضيذة.  
تحرى الجهات كلها. وأخيراً وجد شباكاً كبيرة كان قد وضعها  
صيادو العصافير ليلاً لالتقاط فراخ الطيور.

قال:

- إنه لأمر لا يفتقر! الناس خلّفوا فقط ليعذب بعضهم بعضاً أو  
ليطاردوا حيوانات مسكينة لا تتسبب لهم بضرر أو أذى؟!  
ثم استلّ سكينة وقطع الجبال الصغيرة. حلقت البومة لكنها  
عادت بسرعة، وقالت:

- محبوب، ليس من الضروري أن أنلي لك بخطاب طويل لكي  
أفهمك كم أنا ممتنة لك فالإناء ينضح بما فيه: كان الصيادون سيأتون.  
وكنت عالقة وكنت ساموت لو أنك لم تأت لإنقاذي، قلبي شاكر لك  
ما فعلته لي، وسوف أجازيك بالمثل.

هاكم المغامرات الثلاث الأكثر أهمية التي خاضها محبوب أثناء



تلك الرحلة. كان مستعجلاً جداً في الوصول فلم يتأخر في الذهاب إلى قصر الجميلة ذات الشعر الذهبي.

كل شيء في القصر كان رائعاً. رأى فيه حبات الألماس المتراكمة كالحجارة؛ رأى الملابس الفاخرة، الحلوى، المال؛ كانت تلك أشياء أخذها. وفكر في قرارة نفسه أنه إذا تركت كل ذلك لتأتي إلى الملك سيده فلا بد أنه سيكون محظوظاً جداً. أخذ ملابس من الديباج وأرياشاً قرمزية وبيضاء. سرح شعره، وتعطر بـ «البودرة»، وغسل وجهه ووضع منديلاً فاخراً مطرزاً على عنقه، ومعه سلة في داخلها كلب صغير جميل كان اشتراه عندما مرّ ببولونيا. كان محبوب من حُسن المظهر والظرف والأناقة في التصرف لدرجة أنه حين مثل أمام مدخل القصر، أظهر له جميع الحراس احتراماً كبيراً؛ وهزولوا ليقولوا للجميلة ذات الشعر الذهبي إن محبوباً، المرسل من الملك الأقرب إليها جواراً، يطلب رؤيتها.

عندما سمعت باسم محبوب، قالت الأميرة:

- اسمه يحمل معنى جميلاً. أراهن أنه جميل ويروق للجميع.

قالت لها جميع وصيفاتها:

- حقاً إنه لكذلك يا سيدي، رأيناه من العلية حيث كنا نجهز

نسالة الكتان، وطيلة الوقت الذي استغرقه وقوفه تحت النوافذ لم نستطع فعل شيء.

أجابت الجميلة ذات الشعر الذهبي:

- أمرٌ جميل أن تتلهين بالنظر إلى الفتيان! هيا، اجلبن لي فستاني

الفضفاض من الساتان الأزرق المطرز، وشففن شعري الأشقر، واضفرن لي إكليلاً جديداً من الأزهار، واجلبن لي حذائي ذا الكعب العالي ومرّوحتي. نظفن غرفتي وعرشي، لأنني أريد أن يقول الناس

في كل مكانٍ إنني الجميلة ذات الشعر الذهبِيّ.

وها إن جميع النساءِ سارَعْنَ لتزيينها وكأنتها ملكة. كُنَّ على عجلةٍ كبيرةٍ من أمرهنَّ ما جعلهنَّ يصطدم بعضهنَّ ببعض ويراوحن في أمكتهنَّ. وأخيراً مرّت الأميرةُ في الرّواقِ المُزدانِ بالمرايا الكبيرة ل ترى ما إذا كان ينقُصها شيء. ثم اعتلت عرشها المصنوع من الذهب والعاج وخشب الأبنوس، الذي تتصاعدُ منه رائحةُ الراتنج العطريّ. وأمرت وصيفاتها بأن يغزفنَ على الآلهنَّ ويغنينَ بصوت ناعم كني لا يُزعجنَ أحداً.

اصطحبَ محبوب إلى صالةِ الاستقبالِ. أخذته نشوةُ الإعجاب ما جعله يشعرُ مراراً أنّه عاجزٌ عن الكلام ومع ذلك استجمَع شجاعته وألقى خطابهُ بشكلٍ رائع: توَسَّلَ إلى الأميرة لكي تعفيه من مغبّة العودَةِ وحيداً من دونها.

قالت له:

- أيها اللطيفُ محبوب، جميع الأسبابِ التي تلوّتها عليّ مقنعةٌ جدّاً، وأؤكدُ لك أنّه يسرني فعلاً أن أستجيبَ لك أكثر من أيّ شخصٍ آخر. لكن يجبُ أن تعلمَ أنّي منذ شهر ذهبتُ للتنزّه على ضفةِ الجدولِ مع جميع وصيفاتي. وبما أنّهنَّ كُنَّ يقدمنَ لي وجبةَ الطعام الخفيفة، نزعْتُ قفازي فسحبتُ معه خاتماً وسقط لسوء الحظّ في الجدول. كنتُ أحبُّ ذلك الخاتم أكثر من مملكتي. لذا أتُركُ لك أن تحكّم بنفسك على الحزنِ الذي ألمَّ بي عَقِبَ هذه الخسارة. وعاهدتُ نفسي أنّي لن أصغي لأبي طلبِ زواجٍ إلا إذا أعاد لي الرسولُ الذي يقترحُ عليّ الزواج، خاتمي. فأنظر الآن ما بإمكانك أن تفعله بهذا الخصوص لأنك لو حدثتني خمسةَ عشرَ يوماً وخمسَ عشرةَ ليلةً فلن تقنعني بأن أعيرَ شعوري.

مَكَثَ محبوبٌ مندهشاً من هذا الجواب. انْحَنَى أمامها بإجلالٍ واحترام كبيرين وَرَجَّاهَا أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ الكَلْبَ الصَّغِيرَ والسَّلَّةَ والمندِيلَ. لَكِنَّهَا أَجَابَتْهُ أَنَّهَا لَا تَرِيدُ هَدَايَا البَتَّةِ وَأَنْ يَفَكِّرَ جَدِيًّا فِيهَا قَائِتُهُ لَهُ للْتَوُّ.

عندما عادَ إلى منزله، خلدَ للنوم دونَ أَنْ يتناولَ عشاءَهُ. وكذلكَ كَلْبُهُ الصَّغِيرَ الذي يُدْعَى نطناطَ لم يُردَ أيضاً تناولَ عشاءِهِ: جاءَ واضْطَجَعَ قَرْبَهُ. وطيلةَ اللَّيْلِ لم يكفَّ محبوبٌ عن التَّنَهَّدِ.  
كَانَ يَقُولُ:

- أَيْنَ أُسْتَطِيعُ العُثُورَ على خاتمِ سَقَطَ منذُ شهرٍ في التَّهَرُّ؟ إِنَّهُ مشروعٌ جنوني! لم تقلْ لي الأَمِيرَةَ ذلكَ إِلَّا لكي تجعلَ الأمرَ مستحيلاً. تنهَّدَ واغتمَّ غمًّا شديداً. كَانَ نطناطُ يستمعُ إليه فقال له:  
- يا سيِّدي العزيز، أتوسَّلُ إليك، لا تياسُ من حسنِ طالعِكَ. مَنْ هُوَ محبوبٌ مثلكَ يجبُ ألاَّ يكونَ إِلَّا سعيداً. لنذهبْ عندَ طلوعِ الصُّبْحِ إلى ضفَّةِ النهرِ.

رَبَّتْ محبوبٌ عليه بيدهِ مرَّتينِ ولم يُجِبْ بشيءٍ. لكن رازحاً تحتَ ثقلِ حزنِهِ، غفا. ونطناطُ، عندما رأى الصُّبْحِ يطلُّعُ أخذَ يَنْطِنِطُ بحماسٍ كبيرٍ فأيقظَ محبوباً وقال له:  
- يا سيِّدي، ارتدِ ثيابَكَ ولتُخرجِ.

امتثلَ محبوبٌ للأمرِ طَوْعاً. نهَضَ، وارتدى ثيابهَ ونزَلَ إلى الحديقةِ، وفي الحديقةِ، ذهبَ دونَ أَنْ ينتبهَ إلى ضفَّةِ النهرِ، حيثَ كانَ يتنزَّهُ واضعاً قَبَعَتَهُ على عينيهِ ومُصالِباً يديه، غيرَ مفكِّرٍ إِلَّا برحيلِهِ حينَ سمعَ فجأةً أحداً يناديه:

- محبوب! محبوب!

إلتفتَ إلى جميعِ الجهاتِ ولم يَرَ أحداً. ظنَّ نفسهَ يحلمُ. تابعَ نزهتَهُ.

سمع النداء مجدداً:

- محبوب! محبوب!

قال:

- من يناديني؟

نظناط، الذي كان صغيراً جداً وكان ينظرُ إلى الماءِ عن كُتب،  
أجابه:

- صدّق أو لا تصدّق: ألحُ سمكةً شبوط ذهبية!

وللحال ظهرت سمكة الشبوط الضخمة وقالت له:

- لقد أنقذت حياتي في حقل أشجار الميس وكنت سأفضي

أجلي هناك لولاك؛ وعدتك بأن أعوّض عليك ذلك، خذ يا عزيزي  
محبوب، هذا هو خاتم الجميلة ذات الشعر الذهبي.

انحنى وأخذه من فم صاحبتنا سمكة الشبوط، وشكرها ألف  
مرة.

وبدّل أن يعودَ إلى منزله، ذهبَ تَوّاً إلى القصرِ معَ نظناط الصّغير

الذي كانَ مسروراً جداً لأنّه جاءَ بسّيدهِ إلى ضفّةِ التّهر.

وجاء الحراس ليقولوا للأميرة إنّهُ يطلبُ رؤيتها.

قالت:

- وا أسفاه على الصبيّ المسكين، أتى يستأذن منّي بالانصراف.

يعتبرُ أنّ ما أريدهُ مُستحيل، وسيذهبُ إلى سيّده ليقول ذلك.

أدخَلَ محبوب إلى الملكةِ فقَدَّم لها خاتمها وهو يقول:

- سيّدي الأميرة. ها إنّ أمرِك مُطاع، هل تفضّلين الآنَ بقبول

سيّدي الملك زوجاً لك؟

عندما رأت خاتمها الذي لا ينقصه شيء، مكثت منذهلةً وخالَتْ

نفسها محلّماً.

قالت:

- في الحقيقة يا محبوب الظريف، لا بد أن إحدى الجنيات تدعمك لأن ما فعلته مستحيل بطبيعة الحال.

قال:

- سيدتي، لا أعرف أية جنية، لكنني رغبت فعلاً في إطاعتك.  
وأردفت:

- بما أنك تظهر رغبة صادقة وحسن نية واضحاً، عليك أن تؤدي لي خدمة أخرى من دونها لا أستطيع الزواج أبداً. هناك ملك، غير بعيد من هنا، يدعى غاليفرون، صمم على الزواج بي. أعلن لي عن مخطئه مرفقاً بتهديد مرعب وقال لي إنه في حال رفضته فسيدمر مملكتي. لكن سأصيفه لك وأنت احكم إذا كنت أستطيع أن أتخذه زوجاً لي: إنه عملاق وقامته أطول من برج عالٍ، يلتهم الرجل كما يلتهم قرذ حبة كستناء. عندما يذهب إلى الرّيف، يحمل في جيوبه مدافع صغيرة ويستعملها كمسدسات، وعندما يتكلم بصوت عالٍ يُصبح من هم قريبون منه صماً. أرسلت له جوابي بأنّي لا أريد الزواج به وأن يعذّرني. ومع ذلك لا يمتنع عن مُطارَدتي وقتل جميع رعاياي، لذا قبل كل شيء عليك أن تهزّمه وتجلّب لي رأسه.

مكث محبوب مُنذِهلاً قليلاً من جرّاء هذا الطلب، وفكر لبعض الوقت ثم قال:

- حسناً يا سيدتي، سأحارب غاليفرون. أعتقد أنني سأهزم لكنني سأموتُ بصفتي رجلاً شجاعاً.

بقيت الأميرة مندهشةً فعلاً. حاولت المستحيل لثنيه عن القيام بمشروعه. لكنّه لم يثن عنه: خرج محبوب ذاهباً للبحث عن الأسلحة وكل ما يلزمه تحسباً للمواجهة. عندما حصل على ما يريده،

وضع نطناط الصغير في سلته وصعد على حصانه الجميل وذهب إلى بلاد غاليفرون. راح يسأل عن أخباره لأولئك الذين كان يصادفهم وكانوا يقولون له إنه كان شيطاناً حقيقياً ولا أحد يجزؤ على الاقتراب منه؛ كلما سمع عن أخباره، ازداد خوفه منه باطّراد. إلا إن نطناط كان يطمئنه قائلاً:

- يا سيدي العزيز، في الوقت الذي ستواجهان فيه وتتقاتلان سأعوضُ له ساقيه وسيخفِضُ رأسه لإبعادي عنه، وعندئذ تقتله.  
أعجبَ محبوب بِفِطْنَةِ الكلبِ الصَّغِيرِ لَكِنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ يَقِيناً أَنَّ نَجْدَتَهُ لَنْ تَجِدِي نَفْعاً.

وأخيراً، وصلَ بالقربِ من قصرِ غاليفرون. كانت الطرقات كلها مغمورةً بالعظام وهياكل الناس الذين التهمهم أو مزقهم إرباً. لم ينتظر طويلاً حتّى رآه آتياً عبر الغابة. كان رأسه يعلو على أطول الأشجار وكان يغني بصوتٍ فظيع:

أَيْنَ هُمُ الأَطْفَالُ الصَّغَارُ  
لَأَكْلَهُمْ بِشَهِيَّةٍ  
يَلْزُمُنِي الكَثِيرُ والكَثِيرُ مِنْهُمْ  
والكثيرُ والكثيرُ حتّى إنَّ العالَمَ لا يكفيني.

وكذلك، أخذ محبوب يغني على النغمة نفسها:

اقترَبْ، اقترَبْ فأمامك محبوب  
الذي سيقتلعُ أسنانك  
معَ أَنَّهُ ليسَ كبيراً بما يكفي

لكن ليهزمك هو كافٍ.

لم تكن القوافي منتظمة كما يجب لكنّه أنشد الأغنية بسرعة كبيرة حتى إنها لتعدّ معجزة كيف أنّه لم يؤلفها بشكل أسوأ لما انتابه من خوف عظيم. عندما سمع غاليفرون هذه الكلمات نظّر إلى جميع الجهات ولمح محبوباً والسيف في يده، ثم تلفّظ بشتيمتين أو ثلاث لإغاظته. لم يستلزمه الأمر أكثر من ذلك لأن العملاق انتابته سورة غضب مسعور. أمسك هراوة من حديد كلّها، وكان سيصرع محبوباً اللطيف من الضربة الأولى لولا أن غراباً جاء وحطّ على قمة رأسه، ونقر عينيه بمنقاره حتى فقأهما. أخذ الدم يسيل من وجهه، وبدا وكأنه يائس يضرب في جميع الجهات. تحاشاه محبوب وطعنه بالسيف طعنات قويّة مغرزا المهتد حتى المقبض متسبباً له بألف جرح فترّف منه دم كثير وتهاوى أرضاً. وفي الحال، قطع محبوب رأسه مغتبطاً من أن يكون حظّه بمثل ذلك اليمن. والغراب الذي كان جاثماً على غصن شجرة قال له:

- لم أنس الخدمة التي أدّيتها لي حين قتلت النسر الذي كان يطاردني. وعدتُك بأن أردّ لك الجميل: وأظنني فعلت ذلك اليوم.

فأجابه محبوب:

- أنا الذي أدين لك يا سيدي الغراب بكلّ شيء. أنا خادمك. وصعد للحال على حصانه محملاً برأس غاليفرون المخيف.

عندما وصل إلى المدينة، تبعه الجميع وأخذوا يهتفون: «هذا هو محبوب الشجاع الذي صرع لتوه الوحش». سمعت الأميرة الصراخ وراحت ترتجف من أن يأتي أحدهم ويبلغها وفاة محبوب، لذا لم تجرؤ على أن تسأل ماذا حصل له. لكنّها رأت محبوباً يدخل ومعه رأس

العملاق الذي لا يزال يثيرُ الهَلَعِ في نفسِها مع أَنه لم يُعُدْ هنالك ما يُجشَى منه.

قال لها:

- سيّدي ها إنّ عدوّك قد قُتِلَ. أملٌ إلّا يعود هناك سبب لترفضي سيّدي الملك؟

قالت الجميلة ذاتُ الشعرِ الذهبيّ:

- آه! مستحيل! سأرفضه إذا لم تجد، قبل رحيلي، وسيلةً لأن تجلب لي الماء من المغارة المظلمة.

«ثمّة مغارة عميقة بالقرب من هنا ويُنلغُ مُحيطها ستّة فراسخ. يوجد عند مدخلها تيّنانٍ يمنعانِ الدّخول إليها. تتصاعد من شدقيها نارٌ ومن أعينها. ثم، عندما ندخل إلى المغارة نجدُ حفرةً كبيرةً يجبُ التزوّل فيها: وهي مليئةٌ بالضفادع والأفاعي والحيات. وفي آخر هذه الحفرة، قبوٌ صغيرٌ يسيلُ منه نبعُ الجمال والصحة: هذه هي المياه التي أريدها. كلُّ ما نغسله بها يصبحُ رائعاً: إذا كانت المرأة جميلة، تبقى جميلة إلى الأبد، وإذا كانت قبيحة، تصبح جميلة، وإذا كانت فتية تبقى شابة، وعجوزاً تصبح شابة. كما ترى يا محبوب، لن أترك مملكتي إذا لم تجلب لي منها الماء.»

قال لها:

- سيّدي، أنت من الجمال بحيث لا تحتاجين لهذا الماء؛ لكنني رسولٌ بئسُ تريدين موته: لذا سأذهبُ لآتيك بما تريدين وأنا على يقين أنني لن أرجع حياً.

لم تغيرُ الجميلة ذاتُ الشعرِ الذهبيّ رأيها، وانطلقَ محبوب مع كلبه الصّغير نطناط للذهاب إلى المغارة المظلمة لكي يأتي بهاء الجمال. كان كلٌّ من التقى بهم على الطّريق يقولون له:



- إنه لشيءٌ مؤسفٌ رؤيةُ فتى بهذا اللطف يذهب إلى حتفه بهذا الحماس. يذهب وحيداً إلى المغارة، لكن لو ذهب برفقة مائةٍ من الشجعان لما استطاع الوصول إلى مُرادِهِ. لماذا لا تطلبُ الأميرة إلا الأمور المستحيلة؟

وكان يتابع السير دون أن ينسَ بكلمةٍ وبه حزنٌ شديد، ووصلَ إلى قمةِ جبل فجلسَ هناك ليرتاح قليلاً. وتركَ لحصانه أن يعرَى ولنطناط أن يهرولَ خلفَ الذباب. كان يعرفُ أن المغارة المظلمة لم تكن بعيدةً من هناك. ونظرَ ليرى ما إذا كان سيرَها. وأخيراً لمَحَ صخرةً مخيفةً سوداءَ كالحرير، ومنها يتصاعدُ دخانٌ كثيف، وما هي إلا هنيهة حتى خرجَ أحدُ التينين وكان يرسل ناراً من عينيه ومن شدقه: كان جسده أصفرَ وأخضرَ وكانت له مخالبٌ وذنبه ملتفٌ بأكثر من مائة دائرة، رأى نطناط كل ذلك فأصيب بهلع شديد ولم يعرف أين عليه الاختباء.

مصمماً على الموت استلَّ محبوب سيفه ونزل الجبلَ وفي يده القارورة التي أعطته إياها جميلة الشعر الذهبي لكي يملأها من ماء الجمال. قال لكلبه نطناط:

- انتهى أمري! لا أستطيع أبداً أن أحصلَ على هذا الماء الذي يحرسه التينان. حين أموت، املاً هذه القارورة من دمي واحملها إلى الأميرة لترى الثمن التي تكلفني إياه ثم اذهب لرؤية الملك وارو له مصيبيتي.

وفيما هو يتكلم على هذا النحو، سمعَ أحداً يناديه:

- محبوب! محبوب!

قال:

- من يناديني؟

ورأى بومةً في جوفِ شجرةٍ قديمةٍ تقولُ لهُ:

- لقد حرّرتني من شباكِ الصيادين حيثِ علقتُ وأنقذتِ حياتي، وعدتُكَ بأنني سأردُّ لكِ الإحسانَ وها قد آن الأوان. أعطني القارورة: أعرف جميع الدروب في المغارة المظلمة. سأذهبُ لآتيك بهاءِ الجمال.

بربكم! هل من هو أكثرُ حظاً منه؟ أتركُ لكم أن تحكموا على الأمر. سارع محبوب لإعطائها القارورة. ودخلت البومة من دون عراقيل إلى المغارة. وبأقلّ من ربع ساعة عادت بالزجاجة مسدودةً بإحكام. اغتبطَ محبوب وشكرها من كلِّ قلبه، وصعدَ الجبلَ من جديدٍ سالكاً طريق المدينةِ جذلانٍ مسروراً.

توجّه توّاً إلى القصر. قدّم القارورة للجميلة التي لم يُعد لديها ما تقوله: شكرت محبوباً وأعطت أمراً لتهيئة كلِّ ما يلزم للرحيل، ثم غادرت برِفقتِهِ. وجدته من اللطف والظرف بحيث كانت تقول له أحياناً:

- لو أردت لجعلتُكَ ملكاً ولما رحلنا قطّ عن مملكتي. لكنّه أجاب:  
- لا أريدُ أن أتسبّب بالكرب لسَيدي لقاء كلِّ تمالك العالم، مع أنّي أجِدك أجملَ من الشمس.

وأخيراً وصلوا إلى مدينة الملك الكبيرة. كان الملك قد عرف بمجيء الجميلة ذات الشعرِ الذهبيّ فذهبَ للقائِها وقدم لها أجملَ الهدايا الممكنة. وتزوجها في جوٍّ من الابتهاج والجدل لم يكن أحدٌ يتكلّم فيه إلاّ عن ذلك الزواج. لكنّ الجميلة ذات الشعرِ الذهبيّ التي كان يهاها محبوب في قرارة قلبه لم تكن سعيدةً إلاّ حين تراه، وكانت تشي عليه دوماً.

كانت تقول للملك:

- لولا محبوب لما أتيت. توجب عليه أن يفعل أشياء مستحيلةً لخدمتي: عليك أن تكون ممتناً له. أعطاني ماء الجمال: لن أشيخ أبداً، سأكون جميلة دوماً.

تنبه الحساد لأقوال الملكة فأسرّوا للملك:

- لا تغارُ فيما لديك ما يملكك على الغيرة! الملكة تحبّ محبوباً لدرجة أنها تفقد الشهية في الأكل والشرب. لا تتحدّث إلا عنه وعن أفضاله عليك كما لو أنّ أيّ رسولٍ ستوفده لن يفعل ما فعله.  
قال الملك:

- تنبّهتُ للأمر بحقّ. اذهبوا وضّعوه في البرج وغلّوا قدميه ويديه.

اقتيد محبوب، ومكافأةً على حسن خدمته للملك، سُجنَ في البرج والغلال في قدميه ويديه. لم يكن يرى أحداً إلا السجانَ الذي كان يرمي له من الثقب بقطعة خبز من الحنطة السوداء ويقصعة من الفخار فيها ماء. ومع ذلك كان كلبه نطناط لا يفارقه أبداً، كان يواسيه ويأتيه بكلّ الأخبار المستجدة.

وعندما عرّفت الجميلة ذات الشعر الذهبي ما ألمّ به من إبعادٍ وسجن، ارتمت عند قدمي الملك وأخذت تبكي متوسّلةً إليه بإخراج محبوبٍ من السجن. لكنّ كلّما توسّلت إليه، ازداد غضبه مفكراً: «هذا لأنّها تحبّه»، ويرفض أن يقوم بشيء لأجله. لم تعدّ تحدّثه عن الأمر وألمّ بها حزنٌ شديد.

تنبّه الملك إلى أنّها ربّما لا تجده جميلةً ما يكفي فرغّب في أن يدعك وجهه بهاء الجمال لكي تحبّه الملكة أكثر. كان ذلك الماء في قارورة على حافة المدفأة في غرفة الملكة وكانت وضعتها هناك لتنظر إليها في أغلب الأحيان؛ لكنّ إحدى خادمتها أرادت أن تقتل عنكبوتاً بمكسّتها

فَرَمَتِ لِسْوَةَ الْحِظِّ بِالْقَارُورَةِ أَرْضاً وَانكسرت وانداحَ منها كلُّ الماءِ .  
كُنِسَتْ الأَرْضَ بِسُرْعَةٍ وَلَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ مَاذَا تَفْعَلُ فَتَذَكَّرَتْ بِأَنَّهَا رَأَتْ فِي  
دِيْوَانِ الْمَلِكِ قَارُورَةً مُشَابِهَةً لِمِئْتَةِ بَهَاءٍ صَافٍ وَكَأَنَّهُ مَاءُ الْجَمَالِ فَأَخَذَتْهُ  
بِلَبَاقَةٍ دُونَ أَنْ تَقُولَ شَيْئاً وَوَضَعَتْهُ عَلَى حَاقَةِ الْمَدْفَأَةِ فِي غُرْفَةِ الْمَلِكَةِ .

القارورة التي كانت في ديوان الملك كانت مملوءة بهاء قاتل يميئُ  
الأمراء والأسياد الكبار إذا كانوا مجرمين . فبدلَ أن تُقَطَّعَ رُؤُوسُهُمْ  
أَوْ يُسْنَقُونَ ، تُدْعَكُ وَجُوهُهُمْ بِبَعْضِ ذَلِكَ الْمَاءِ فَيَغْفُونَ وَلَا يَفِيقُونَ  
أَبَداً . ذات مساء أخذ الملك القارورة وفركَ بها وجهه وفي الحالِ  
غفا ومات . كان الكلب نطناط أوّل العارفين بالخبر فلم يتوانَ عن  
الذهابِ إلى محبوبٍ وتبليغِهِ بما جرى فقال له أن يذهبَ للقائه الجميلةِ  
ذاتِ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ وَيَذْكُرْهَا بِالسَّجِينِ التَّعِيسِ .

تسلَّل نطناط خفيةً بينَ الجمعِ الغفيرِ لأنَّ الغوغاءَ عمَّت القصرَ  
بسببِ وفاةِ الملكِ . قال للملكة :

- سيِّدتي ، لا تنسي محبوباً المسكين .

وللحالِ تَذَكَّرَتْ الألامُ التي تَسبَّبتْ لَهَا بِهَا وَيَاخِلاصَهُ الكَبِيرِ .  
خَرَجَتْ دُونَ أَنْ تَقُولَ لِأَحَدٍ وَتَوَجَّهَتْ تَوّاً إِلَى البَرَجِ وَهناكَ نَزَعَتْ  
بِنَفْسِهَا أَغْلالَهُ الحَدِيدِيَّةَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَيَدَيْهِ . وَوَضَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ تاجاً  
ذَهَبِيّاً وَعَلَى كَتْفَيْهِ المِعْطَفَ المَلِكِيِّ وَقَالَتْ لَهُ :

- تعالِ يا محبوبَ اللطيفِ أَجْعَلْكَ مَلِكاً وَأَتَّخِذْكَ زَوْجاً لِي .

ارْتَمَى عِنْدَ قَدَمَيْهَا وَشَكَرَهَا . وَفَرِحَ كُلُّ مَنْهَا بِذَلِكَ القِرانِ الَّذِي  
جَمَعَهُمَا . أَقِيمَ أَجْمَلَ عَرْسٍ فِي الوجودِ . وَعَاشَتْ الجَمِيلَةُ ذاتِ الشَّعْرِ  
الذَّهَبِيِّ طَوِيلاً مَعَ الجَمِيلِ محبوبِ فِي سَعادَةٍ وَرِضاً مُتبادِلِينَ .

إذا صدفَ وسألكَ بائسٌ صُدْفَةً

مساعدته

فلا ترفض أن تهب لنجدته بكل نخوة  
لأن كل معروف يلقي ثوابه عاجلاً أم آجلاً.

عندما أنقذ محبوب، باندفاع كبير  
سمكة الشبوط والغراب، وحتى البومة نفسها،  
وما نفرته منها قباحتها،  
فإنه بذلك احتفظ بحرّيته!

هل كان أحد ليصدق  
أن تلك الحيوانات يوماً  
ستقوده إلى قمة المجد  
حين أراد أن يسعف الملك في حبه الحنون؟

وبالرغم من كل إغواءات الجمال الساحر  
والرغبات التي بدأ يثيرها في نفسه  
احتفظ لسيدته بإخلاص دائم  
كابحاً تنهيدات الحب.

ومع ذلك ودون سبب رأى نفسه متهماً.  
لكن، حين حال دونه والسعادة عراقيل كثيرة  
دانث له السماء بمعجزة  
لأن السماء لا ترفض للفضيل طلباً.



## العصفور الأزرق

كَانَ يَا مَا كَانَ، كَانَ هُنَاكَ مَلِكٌ وَافِرُ الثَّرَاءِ أَرْضاً وَمَالاً. تَوَقَّيْتُ زَوْجَتَهُ وَغَدَا لَا يَتَعَزَّى بِسَبَبِ وَفَاتِهَا. انزوى ثمانية أيّام كاملة في غرفةٍ صغيرةٍ ولتفجّعه راحٍ يلطّمُ رأسه بالجدار. خشيَ مَنْ حوله أن يقتل نفسه فغلّفوا الجدران بالبطانيات لئلا يؤذي نفسه. وصمّم جميع رعاياه على الذّهاب لرؤيته وقالوا له كلّ ما يستطيعونه لمواساته في حزنه. حضّر البعض كلماتٍ مفخّمةً وجادّةً والبعض الآخر نواذرَ ظريفةً ومبّهجةً: لكنّ كلّ ما كان يُقال لم يخلف أيّ أثرٍ في نفسه. وأخيراً مثلت أمامه امرأةٌ متدثّرةٌ بالكثير من أوشحة الحِدادِ والبراقع والعباءات والملابس السوداء الطويلة، وكانت تبكي وتنتحبُ بصوتٍ قويٍّ عالٍ حتّى ذهل الملك. قالت له إنّها لا تنوي إطلاقاً كما يفعل الآخرون التخفيف من ألمه، لا بل جاءت إلى هناك لكي تزيد حزنًا لأنّه لا شيء أعدل من أن يبكي الزوجَ زَوْجَةً فاضلةً. أمّا هي، وكانت حظيت بأفضل زوج من بين كلّ الأزواج، فإنّها تفي زوجها حقّه ببكائها عليه ما بقيت في عينها دموع. وهنا ضاعفت من صُراخها، وحذا الملك حدوها، فبدأ في البكاء والعيول.

استقبلها أفضل من الجميع وحدثها عن خصال العزيرة المتوفّاة الحميدة وزايدت عليه بخصال زوجها المرحوم. وراحا يتحدّثان ويتحدّثان ولم يعد لديهما ما يقولانه عن ألمها. وعندما رأت الأرملة الأريية أنّ الأحاديثَ نضبت، رفعت قليلاً أوشحتها فمتّع الملك المألوم نظره برؤية هذه المفجوعة المسكينة التي راحت، في اللّحظة المناسبة، تقلّب بغنجٍ عيينين كبيرتين زرقاوين تظلّلها أهدابٌ طويلة

سوداء: كانت بشرتها لا تزال نضرة. نظر إليها الملك باهتمام كبير، وشيئاً فشيئاً أخذ حديثه عن زوجته يتضاءل حتى انعدم تماماً. كانت الأرملة تقول إنها ترغب في أن تبكي زوجها على الدوام فتوسل إليها الملك ألا تديم شجعتها إلى الأبد. وفي الختام، تعجب الجميع من زواجه بها ومن أن الأسود تغير إلى أخضر وإلى لونٍ وردّي: يكفي غالباً أن نعرف مكمّن الضعف عند الناس لندخل إلى قلوبهم ونفعل بها كلّ ما نشاء.

لم يكن لدى الملك إلا ابنة وحيدة من زواجه الأول وكانت لجمالها تُعدّ ثامنَ عجيبةٍ من عجائب الدنيا السبع. كان اسمها فلورين لأنها تشبه بنضارتها وجمالها فلورا إلهة الأزهار الأسطورية. كانت تهوى فساتين التفتا الخفيفة المزدانة ببعض المشابك المصنوعة من الأحجار الكريمة، وتزين شعرها الجميل بالكثير من أكاليل الزهر ما يضيف على مظهرها سحراً أخذاً. كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوج الملك من جديد.

أرسلت الملكة الجديدة في طلب ابنتها ترويتون التي كانت قد تربّت عند عرابتها<sup>(1)</sup> الجنيّة سوسيو. لكن ذلك لم يضيف عليها لا جمالاً ولا ظرفاً: كانت سوسيو تحبها حباً جماً ولم تأل جهداً لمعالجة المشكلة لكنّها لم تفلح. كانت تُدعى ترويتون لأنّ وجهها المليء ببقع النمش أشبه بسمكة التروته، وكان شعرها الأسود دهيتاً جداً ووسخاً جداً يؤنّف لَمْسُهُ، وجلدها الأصفر يزشح زيتاً. وكانت الملكة تحبها إلى حدّ الجنون ولا يحلو لها التحدّث إلا عن سحر ترويتون. وبما

(1) يساعد العراب الأبوين في تنشئة الطفل، ويكون الطفل بمثابة ابنه الروحي (ابنه بالمعمودية في التقليد المسيحي). ينطبق الأمر نفسه على البنات، ويمكن أن تضطلع امرأة بدور العرابة.



أن فلورين كانت تتمتع بكل أنواع المزايا التي تجعلها تتفوق على تزويتون، يئست الملكة وأخذت تفتش بكل الوسائل الممكنة لكي تسيء إلى حظوتها في عيني الملك. لم يكن يمرّ يوم إلا وتُنصب الملكة وتزويتون شركاً للأميرة فلورين التي كانت رقيقة فطنة وتسعى دوماً لأن تتعالى على هذه الصغائر.

وذات يوم قال الملك للملكة إن فلورين وتزويتون أصبحتا في سنّ الزواج، وإن أول أمير يأتي إلى البلاط، يجب تدبّر الأمر لتزويجه بإحدى الفتاتين.

أجابت الملكة:

- أريد أن تكون ابنتي هي أول من يقترن برباط الزواج لأنها أكبر سناً من ابنتك، وبما أنها ألطف منها ألف مرّة، فليس هناك ما يُقال بهذا الشأن.

فقال لها الملك الذي لم يكن يحبّ الشجار إطلاقاً إنه يرغب في ذلك فعلاً وإن لها الكلمة الفصل في ذلك.

بعد مُضيّ فترة قصيرة، علّم أن ملكاً يدعى «فتان» سوف يصل إلى القصر. لم يسبق لأمر أن حمل اللطف والبهاء إلى ذلك المستوى. كان اسماً على مسمى بفكره وشخصه. عندما عرفت الملكة بهذه الأخبار، وظفت جميع الموشين والخياطين والعمال لكي يُجروا الترتيبات اللازمة لتزويتون. توّسلت للملك ألا تحظى فلورين بأية فساتين جديدة، وأمرت خادمتها وقد كسبتهنّ إلى جانبها أن يسرقن كلّ ملابسها وقبعاتها وأحجارها الكريمة يوم وصول الملك فتان. وعندما أرادت فلورين أن تتزيّن لم تجد شريطاً واحداً. أدركت من يقف خلف هذه المساعي الحميدة فأرسلت إلى البائعين للحصول على أقمشة فأجابوها أن الملكة حطّرت عليهم أن يعطوها أقمشة.

فظلّت والحالة هذه في فستانٍ رثٍّ متّسخٍ جدّاً وكان خَجَلها عظيماً ما دفعها للانزواء في ركنٍ من القاعة لدى وصولِ الملك فتان.

استقبلته الملكة بحفاوةٍ كبيرة. قدّمت له ابنتها التي كانت تشعّ أكثرَ من الشمس والتي زادتها كلّ زينتها تلك قبحاً، أكثر ممّا هي عليه عادةً. أشاحَ الملك بنظره عنها. أرادت الملكة أن تقنع نفسها بأنّها تعجبه جدّاً وأنّه يتصرّف على ذلك النحو لأنّه يخاف من الارتباط فجعلتها دوماً نُصب عينيه. سأل عمّا إذا لم تكن هنالك أميرة أخرى تدعى فلورين.

قالت تزويتون وهي تشير إليها بإصبعها:

- نعم. ها هيّ محتبّئةٌ لأنّها تفتقر إلى الشجاعة.

احمّرت فلورين خَجلاً، ما زادها جَمالاً إلى حدّ أنّ الملك مكث مندهلاً أمام جمالها. نهض بسرعةٍ وانحنى بإجلالٍ عميقٍ أمام الأميرة. قال لها:

- سيّدتي، إن جمالك الذي لا يُضاهى يزينك فلا تحتاجين معه لأية معونةٍ خارجيّة.

أجابته:

- مولاي، أعترف لك أنّني لستُ معتادةٌ على ارتداءِ رداءٍ متّسخٍ كهذا وسيكون من دواعي سروري ألاّ تكثرث لأمرِي.  
هتف فتان:

- هذا مستحيل، مستحيل أن توجد مثل هذه الأميرة الرائعة في مكان وأن ينظر المرء إلى سواها!  
قالت الملكة مغتاظة:

- بجدّاً! كم يطيب لي سماعك تقول هذا! صدّقني يا مولاي أنّ فلورين لديها من الدّلغ ما يكفي ولا تحتاجُ لنقول لها غزلاً يزيدّها

عُنْجاً.

وفي الحال أدرك الملك فتان الدوافع التي حدثت بالملكة لأن تنفوه بمثل هذا الكلام. ولكن بما أنه كان حرّ الطبع، تمادى في التعبير عن إعجابه بفلورين وتحدّث إليها ثلاث ساعات متتالية.

بلغ اليأس من الملكة مبلغاً، وابتتها تزويتون لم تكن تتعزى لأنها لم تستطع أن تكون الأثيرة فأخذتا تشكوان للملك وأرغمتاه على أن يوافق، خلال إقامة الملك فتان، على سجن فلورين في أحد الأبراج لكي لا يلتقيا مطلقاً. وبالفعل، ما إن عادت فلورين إلى غرفتها حتى حملها أربعة رجالٍ مقنّعين إلى أعلى البرج وتركوها هناك في تلك الكربة الشديدة. عرفت أنهم لا يعاملونها هكذا إلا ليمنعوها من أن تعجب الملك الذي فتنها منذ اللحظة الأولى والتي ترغب فيه زوجاً أشدّ الرّغبة.

لم يكن فتان يعرف شيئاً عن العنف والإكراه اللذين يُمارسان على الأميرة، لذا كان ينتظر بشديد اللّهفة وعلى أحرّ من الجمر الساعة التي سيراه فيها مجدّداً. أراد أن يتحدّث عنها إلى أولئك الذين وضعهم الملك في تصرّفه زيادةً في تكريمه، ولكن، بأمر من الملكة، قالوا له كلّ السوء الذي يستطيعون إليه سبيلاً: إنّها كانت دلعة وغير متوازنة ومزاجيّة وإنّما كانت تعذب أصدقاءها وخدامها وإنّه لا يمكن لأحد أن يكون بقذارتها وإنّما كانت من البُخل بحيث تفضّل أن ترتدي ملابس راعية بسيطة على أن تشتري الأقمشة الفاخرة بالمال الذي يُعطيها إياه الملك والدّها. وإزاء كلّ هذه التفاصيل، كان فتان يتألّم ويأخذ منه الغضب مأخذاً لا يستطيع التحكّم به.

قال في نفسه:

- لا، من المستحيل أن تكون السّماء قد وضعت روحاً سيّئة في

التَّحْفَةُ التي صَنَعَتَهَا الطَّبِيعَةُ. أوافق على أنها لم تكن نَظِيفَةً الثِّيابِ عندما رَأَيْتَهَا لَكِنَّ الخَجَلَ الذي كانت تَبْدِيهِ يَثْبُتُ فعَلاً أَنَّها قَلِمًا كانت مَعْتادَةً على أن تَكُونَ بهذا المَظْهَر. عَجَباً! كيف بِإمكانِها أن تَكُونَ سَيِّئَةً مع كُلِّ هَذينِ التَّواضِيعِ والرَّقَّةِ البادِيينِ للعيانِ واللَّذينِ يَسْحرانِ الألبابَ؟ الأمرُ بَدِيهِيّ. أَغلبُ الظَّنَّ أَنَّ المَلِكَةَ تَسعى لِلذَّمِّ فيها: لَيسَت زَوجَةَ الأبِ سَدِيّ؟ والأَميرَةُ تَروِيَتونَ هِيَ العَبِيَّةُ القَبِيحَةُ وِليسَ أَمراً مَسْتَغْرَباً أن تَحسُدَ أَكثَرَ المَخْلُوقاتِ كَمَا لَ.

وفِما كان يَفكِّرُ على هَذا النِّحوِ، حَدَسَ أَفرادَ الحاشِيةِ الَّذينَ كانوا يُحِيطونَ بِهِ مِن سَيبائِهِ أَنَّهُ غيرَ مَسرورٍ بِأَنَّ يذَمُّوا فلورينَ. وكان هَناكَ بَينَهُم مَن هُوَ أَحذقُ مِنَ الآخَرينَ فَغَيَّرَ نَبْرَتَهُ وكَلِمَتُهُ ليقفَ على حَقِيقَةِ مِشاعِرِ الأَميرِ وأخذَ يَقولُ أَجملَ الأَشياءِ عَنِ الأَميرَةِ. ولدى سِماعِهِ هَذهِ الكَلِماتِ اسْتيقِظَ وكَأَنَّهُ كانَ في سِباتٍ عَميقٍ وخاضَ الحَدِيثَ والبَهجَةَ نَغمَ مُحَيَّاه. أَيُّها الحَبِّ، أَيُّها الحَبِّ، كَم يَصعبُ إِخفاؤُكَ! تَظْهَرُ في كُلِّ مَكانٍ، على شَفْطِي العاشِقِ وفي عَينِيهِ وفي نَبْرَةِ صَوْتِهِ. حينَ نَحَبِّ، كُلُّ شَئٍ يَنطُوقُ بِها نَحسٌ بِهِ: الصَمْتُ أو الحَدِيثُ، السَعادَةُ أو الحَزَنُ.

المَلِكَةُ المَتَلَهِّفَةُ لِمَعْرِفَةِ ما إِذا كانَ المَلِكُ فَتَانٌ قَد تَأثَّرَ بِها قالَهُ الواشونَ، أرسَلتُ في طَلَبِ مَن كانَتِ ائْتَمَّتَهُم على سَرِّها وَأَمضتْ بِقِيَّةِ اللَّيْلِ تَسْتَجوِبُهُم. وكُلُّ ما كانوا يَقولونَهُ كانَ يَثبُتُ الرأْيَ الذي كَوَّنَتَهُ: المَلِكُ يَحِبُّ فلورينَ. لَكِنَ ماذا أَقولُ لَكُم عَنِ الكابَةِ التي أَلَمْتُ بِهِذِهِ الأَميرَةَ المَسْكِينَةَ؟ كانَتِ مَضطَّجَعَةٌ أرضاً في أَعلى ذَلِكِ البَرجِ الرَّهيبِ الَّذي اِقْتادَها إِلَيهِ الرِجالُ المَقْتَعونَ.

كانت تقول:

- كنت سأشفق على نفسي أقل لو أنهم وضعوني هنا قبل أن أرى

هذا الملك الحبيب: الفكرة التي احتفظت بها عنه ليس لها إلا أن تزيد شقائي. لا شك أن الملكة تُعاملني بهذه الوحشية فقط لتمنعي من رؤيته أكثر. واأسفاه! أن أدفع باهظاً ثمن هذا القليل من الجمال الذي حبتني به السماء على حساب طمأنيتي بالذات!  
ثم بكت بمرارة شديدة، بكاءً مرّاً كان سيجعلُ عدوتها بالذات تشفق عليها لو أنّها عاينت آلامها.

وهكذا مضت تلك الليلة. الملكة التي كانت تريد أن تلزم الملك فتان الزواج بابنتها عبر كل مظاهر الاهتمام التي تبديها تجاهه، أرسلت له ملابس من ثراء وروعة لا يضاهيان، مصنوعة على طراز البلاد، وشعار جماعة فرسان الحب، التي أجبرت الملك على تأسيسها يوم زفافهما. كان الشعار قلباً من ذهب مطلياً بلون النار ومحاطاً بأسهم عديدة ومخترقاً بسهم عليه هذه الكلمات: «سهمٌ واحدٌ يجرحني». أمرت الملكة بأن يُنحتَ لفتان قلبٌ من الياقوت الكبير كبيضة نعامة وكلّ سهم كان من ألماسة واحدة بطول الإصبع والسلسلة التي علّق إليها هذا القلب مصنوعة من اللآلئ، وأصغر لؤلؤة فيها ترن رطلاً. وأخيراً، لم تعرف البشرية منذ وجودها مثيلاً لهذه الهدية.

مكث الملك لدى رؤيته ذلك القلب مندهشاً، ما أخرسه لبعض الوقت. قدّم له في الوقت نفسه كتابٌ كانت أوراقه من جلد العجل، مزدان بمُنمنّات رائعة، غلافه من الذهب وموشى بالأحجار الكريمة وفيه قوانين جماعة فرسان الحب مكتوبة بأسلوب هو غاية في الرهافة والأناقة، يقولون فيه للملك إنّ الأميرة التي رآها ترجوه أن يكون فارسها وإثنا تبعث له بهذه الهدية. وإزاء هذه الكلمات تجرّأ على التباهي بأنّها هي من يُحب.  
هتف قائلاً:

- عجباً! هل تكنّ الأميرة فلورين لي مثل هذا العطف المتدفق  
وهذا التفاني؟

فقالوا له:

- مولانا، أنت مخطئٌ في الاسم. نحنُ آتون من قِبَلِ الأميرة  
المحبوبة تزويتون.

قال الملك ببرودةٍ وجديةٍ:

- تزويتون هي التي تريدين فارساً لها! أنا آسف لعدم قدرتي على  
تقبّل هذا الشرف. لكنّ ملكاً ليس سيّد نفسه بما يكفي ليلتزم بالعهود  
التي يريد. أعرف تعهّدات الفرسان وأريد أن أتمّها كلّها، وأفضّل  
عدمَ تقبّل الهبة التي تقدّمها لي على أن أكون غير جدير بها.  
وفي الحال، وضع القلبَ والسلسلةَ والكتابَ في السلة نفسها  
وأرسلها إلى الملكة التي كادت تحتنق غضباً هيّ وابتتها إزاء الاحتقار  
الذي تلقى به الملك الغريب هذه الحظوة المميّزة.

عندما استطاع الذهاب إلى الملك والملكة، توجه إلى جناحهما  
أملاً أن يجد فلورين هناك. بحث عنها في كلّ الاتجاهات ولكن دون  
جدوى. وما إن سمع أحدهم يدخل الغرفة حتّى التفت برأسه فجأةً  
إلى الباب: كان يبدو قلقاً وحزيناً. شعرت الملكة الماكرة بذلك وبها  
يجول في نفسه لكنّها تظاهرت بعدم الانتباه. لم تكن تحدّثه إلا عن  
حفلات اللّهُو وكان هو يجيئها غير مكترث بما تقول. وأخيراً سألت  
عن مكان الأميرة فلورين.

قالت الملكة بافتخار:

- مولاي، الملك والدها حَظَرَ عليها الخروج من غرفتها حتّى  
تتزوَّج ابنتي.

فأجابها الملك:

- وما هو الداعي لإبقاء هذه الفتاة الجميلة أسيرة؟

قالت الملكة:

- أجهل السبب. وحين أعرفه أستطيع أن أعفي نفسي من قوله لك.

أحسّ الملك بغضب عارم. نظر إلى تزويتون شزراً وفكر في قرارة نفسه أنه بسبب ذلك المسخ الصغير حُظرت عليه لذة أن يرى الأميرة. ترك الملكة بسرعة: لأن حضورها كان يتسبب له بشقاء كبير.

وعندما عاد إلى غرفته، قال لأمير شاب رافقه وكان يحبّه كثيراً بأنّه يعطيه كلّ ما يريدّه في العالم إذا استطاع أن يكسب إلى جانبه إحدى وصيفات الأميرة لتدبّر له لقاء يكلمها فيه ولو للحظات. ولم يطل الأمر حتى وجد الأمير سيّداتٍ في القصر اتّمنهنّ على سرّه، وقد أكّدت له واحدة أنّه في المساء نفسه ستنتظره فلورين عند نافذة صغيرة منخفضة تشرف على الحديقة حيث بإمكانها التحدّث إليه، شريطة أن يأخذ جانباً كبيراً من الحيطّة والحذر لئلا يعلم أحدٌ بالأمر. «لأنّ الملك والملكة، على حدّ قولها، قاسيان جدّاً وسوف يتسببان بموتي إذا اكتشفا أنني مهّدت الطريق لحبّ فتان». سرّ الأمير لأنّه استطاع الوصول بالمسألة إلى هذا الحدّ، ووعد الوصيفة بكلّ ما كانت تريده وهُرِعَ ليُعلم الملك بالأمر معلناً وقت الموعد. لكنّ الوصيفة الشريرة لم تتوان عن الدّهاب وإخبار الملكة بما جرى والانصياع لأوامرها. وفي الحال فكّرت في أنّه يجدر بها أن ترسل ابنتها لتنتظره أمام النافذة الصغيرة. وعلمتها ما عليها أن تفعله والتزمت تزويتون بما أمّلته والدتها عليها مع أنّها كانت غبيّة حمقاء بطبيعتها.

كان الظلام دامساً وكان مستحيلاً أن يلاحظ الملك الخدعة التي دُبّرت له. فاقترب من النافذة وبه فورة فرح لا توصف.

قال لتزويتون كل ما كان سيقوله لفلورين ليقنعها بشغفه حيالها. وتزويتون، اغتنمت المناسبة لتقول له إنها أتعس إنسان على وجه الأرض لأن لديها زوجة أب متوحشة وأنها ستتعدّب طالما أنّ ابنتها لم تتزوّج. فطمأنها الملك قائلاً إنه إذا اختارته زوجاً فسيكون سعيداً أن يتقاسم معها عرشه وقلبه. وهنا، انتزع خاتمه من إصبعه ووضعها في إصبع تزويتون مضيفاً أنّ ذلك هو العُربون الأبديّ عن صدقه وأنها ما عليها إلا أن تختار التوقيت للرحيل على وجه السرعة. استجابت تزويتون على أفضل وجه لاستعجاله. لاحظ الملك أنها لم تكن تقول شيئاً ذا قيمة وكان ذلك سيُتعبه لولا أنّه كان مقتنعاً أنّ خشيتها من أن تباغتها الملكة قيّدت من تفكيرها وشئتته. لم يتركها إلا شرط أن تعود إلى المكان ذاته في الساعة نفسها من الغد، فوعده بذلك بكل تأكيد.

بعد أن علمت الملكة بالنجاح الذي تكلّل به ذلك اللقاء، منّت نفسها بكثير من الوعود والآمال. وفي اليوم المتفق عليه أتى الملك ليأخذها في كرسيّ طائرة تجرّها ضفادع مجنّحة: أحد أصدقائه السحرة قدّم له هذه الهدية. خرجت تزويتون خفيةً من باب ضيق، والملك الذي كان في انتظارها عانقها وعاهدها مائة مرّة على وفاءٍ أبديّ. لكن، بما أنّه لم يكن في مزاج يؤهله لتحمل طيران أطول في كرسيّ الطائرة دون أن يتزوّج الأميرة التي يحبّ، سأها أين ترغب في أن يُقام العرس. فقالت له إنّ عرابتها جنّية تدعى سوسيو وهي شهيرة جداً وإنّها ترغب في الذهاب إلى قصرها. لا يعرف الملك الطريق، وما عليه إلا أن يقول لضفادعه الضخمة لتقلّهما إلى القصر، فهي تعرف خارطة العالم بأسره. وهكذا بوقتٍ قصيرٍ أوصلت الضفادع الملك وتزويتون عند سوسيو.



كان القصر مشعشعاً بالأضواء وكان باستطاعة الملك لدى وصوله أن يكتشف خطاه لو أنّ الأميرة لم تستر بوشاحها. طلبت رؤية عرابتها. أخذتها على حدة وروت لها كيف استطاعت أن تخدع فتان وتوسلت إليها أن تعمل على تهدئته.

قالت الساحرة:

- آه يا ابنتي، لن يكون الأمر سهلاً: إنه يعشق فلورين وأنا متأكدة من أنه سيخيّب آمالنا.

وفي تلك الأثناء، كان الملك ينتظرهما في صالة جدرانها من الألماس الصافي الشفاف ورأى من خلالها سوسيو وترويتون يتحدثان سوية. خال نفسه يحلم.

قال:

- ماذا! هل خُدعت؟ هل جاءت الشياطين بهذه العدوّة في غفلة منّا؟ هل أنت لتعكر علينا صفو زواجنا؟ عزيزتي فلورين محتجة عن ناظري! لا بدّ أنّ والدها تعقّبها!

وفكر بألف شيءٍ محزنٍ لكنّ المنظر الذي رآه فاق كلّ أحزانه: رآهما تدخلان القاعة وقالت له سوسيو بنبرة حازمة:

- أيها الملك فتان، هذه هي الأميرة ترويتون التي عاهدتها على الزواج. أنا عرابتها وأتمنى عليك أن تزوّجها في الحال. هتف قائلاً:

- أنا أتزوّج هذا المسخ! هل تظنّين أنني مطيعٌ بطبعي لأقبل عرضاً كهذا؟ اعلمي أنني لم أعدها بشيء، وإذا قالت لك العكس، فهي...

قاطعته سوسيو:

- لا تكمل، لا تكُنّ وقحاً وتقلّل من احترامي.

أجابَ الملك:

- أقبَلْ بأنْ أَحْرَمَكَ بِقَدْرِ ما تَوْحِي جَنِيَّةً بِالاحْتِرامِ، شَرِيطَةً أَنْ تَعِيدِي لِي أَمِيرِي.

قالَت تَرْوَيْتُونِ وَهِيَ تَظْهَرُ لَهُ خاتَمُه:

- أَلَسْتُ أَمِيرَتَكَ يا مَنْ خُنْتَ الوَعْدَ؟ لِمَنْ أُعْطِيتَ هَذا الخاتَمَ عُرْبوناً عَلى عَهْدِكَ؟ لِمَنْ تَحَدَّثْتَ أَمامَ النافِذَةِ الصَغيرَةِ إنْ لَمْ يَكُنْ إلَيَّ؟  
أَرَدَفَ قائِلاً:

- كَيفَ! هَلْ خُيِّبَ ظَنِّي وَخُدِعْتُ؟ لا، لا، لَنْ يُغَرَّرَ بِي. هَيَّا، هَيَّا يا ضَفادَعِي، أريدُ الرِّحيلَ في الحالِ.

قالَت سوسيو:

- هوَ! لَيسَ بِمَقْدورِكَ فَعَلْ ذلكَ إذا لَمْ أوافقِ.  
لَمَسَتْهُ فَعَلِقَتْ قَدَماءُ بِالأَرْضِضِيَّةِ وَكانَ أَحْداً سَمَرَهُما.

قالَ الملك:

- حَتى لَوْ رَجَمْتُمونِي، حَتى لَوْ سَلَخْتُم جِلدي، لَنْ أَكونَ إلاَّ لِفَلورينِ، لَقَدْ اتَّخَذْتُ قَرارِي. بَعْدَ ذلكَ، تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَسْتَعْمَلِي قَدْرَاتِكَ بِقَدْرِ ما تَشائِينَ.

جاءَتْهُ سوسيو بِالكلامِ المَعسولِ وَبِالتَّهديدِ، بِالوَعودِ وَالتَّوَسُّلاتِ. بَكَتْ تَرْوَيْتُونِ وَصَرَختْ وَانْتَحَبَتْ وَغَضِبَتْ وَهَدَّأتْ. ظَلَّ الملكُ صامِماً يَظُنُّ إلَيْهِما بِاحْتِقارٍ وَأَيَّ احْتِقارِ، لَمْ يَرُدَّ شَيْءً عَلى كِلِّ ثَرْتِريهما الفارِغَةَ.

وَمَرَّ هَكَذا عَشْرُونَ نَهاراً وَعَشْرُونَ ليلَةً دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفا عَنِ الكلامِ، دُونَ طَعامِ، دُونَ نَومِ، دُونَ جِلوُسِ. وَفي النَهايةِ، بَعْدَ أَنْ هَدَّ سوسيو التَّعَبُ وَأَخَذَ مِنْها كَلِّ ما أَخَذَ قالَت لِلملكِ:

- حَسناً، أَنْتِ عَنيِدُ وَلا تَريدُ الاِستِماعَ إلَى صَوْتِ العَقلِ. اخْتَرِي:

إِذَا أَنْ تَقْضِي سَبْعَ سِنَوَاتٍ تَكْفُرَ عَنْ ذَنْبِكَ لِأَنَّكَ أَخْلَفْتَ وَعَدَكَ  
لَا بَتِّي بِالتَّبْنِيِّ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَزَوَّجَهَا.

الملك الذي احتفظ بصمته الطويل هتف فجأة:

- افعلي بي ما تشائين شرط أن تعطيني من هذه الفتاة المكربة.

قالت تزويتون غاضبة:

- أنت المكرب! أجدك مليكاً ظريفاً في صُحبة أفرادٍ موكبك  
القدّرين، تأتي إلى بلادي لتهينني وتنتكث بوعدك. لو كانت لديك

ذرة شرفٍ واحدة، هل كنت تصرّفت على هذا النحو؟

قال الملكُ بنبرةٍ ساخرة:

- هي ذي ملامة جميلة حقاً! انظروا أيّ خطأٍ ارتكبتُ لأنني لم  
أأخذ مثل هذه الفتاة الجميلة زوجةً لي!

هتفت سوسيو غاضبة:

- لا، لا، لن تكون زوجتك. ليس عليك إلا أن تطير من هذه  
التأفة، إذا شئت، لأنك ستكون عصفوراً أزرق لسبع سنوات.

وفي الحال، تغيرت هيئة الملك. اكتست ذراعه بالرّيش وتشكّلت  
أجنحته. أصبحت ساقاهُ وقدماهُ سوداء صغيرة. ونبتت له أظافرُ

معقوفة وصغرُ بدنهُ واكتسى كَله بريشٍ طويلٍ رقيقٍ يُمازجُه لونُ  
أزرقٍ سماويّ. استدارت عيناهُ وبرقت كشموسٍ. لم يعد أنفه إلا

منقاراً عاجياً، ونبتت له على رأسه قنبرة بيضاء على شكل تاج؛ أخذ  
يعني ويسحر بغنائه ويتكلّم أيضاً. صرخ صرخة أليمة لرؤيته يتحوّل

على هذا الشكل وطارَ بسرعةٍ هرباً من قصر سوسيو المشؤوم.

حلّق من غصنٍ إلى غصنٍ وهو يرزح تحت ثقل كآبته، ولم يختر  
إلا الأشجارَ المكرّسة للحبّ أو للحزن، تارةً يغطّ على أشجار الآس

وطوراً على السرو. وأنشد الحاناً شجيرةً يأسف فيها لحظه التعيسِ

ولبؤس فلورين.

كَانَ يَقُولُ:

- في أيِّ مكانٍ خبأها الأعداء؟ ماذا حلَّ بهذه الضحيَّة المسكينة؟ هل تترك وحشيَّة الملكة لها متنفساً؟ أين أبحث عنها؟ هل حُكِمَ عليَّ أن أَمْضِيَ سَبْعَ سنواتٍ من دونها؟ ربَّما في هذه الأثناء سيزوجونها وسأفقدُ إلى الأبد الأمل الذي يزيِّنُ حياتي.

كانت هذه الأفكار المختلفة تضني العصفور الأزرق وتجعله راغباً في الاستسلام للموت.

من جهةٍ أخرى، أرسلت الجنيَّة سوسيو تزويتون إلى الملكة التي كانت قلقةً جداً على مجريات العرس. لكنَّها حينَ رأت ابنتها روت لها ما جرى، انتابها غضبٌ مسعورٌ ارتدَّت عواقبه على فلورين المسكينة. قالت:

- يجب أن تدفع الثمنَ غالياً لأنَّها عرَفَت كيفَ تدخل إلى قلب الملك فتان.

صعدت إلى البرج برفقة تزويتون التي زينتُّها بأفخر ما لديها من ثياب: كانت تحملُ على رأسها تاجاً من الألماس وتمسكُ ثلاث فتيات من بنات أثرى بارونات الدَّولة بذيلِ عباةها الملكية. وقد حملت على إبهامها خاتم الملك فتان الذي لا حَظُّته فلورين يومَ تحدُّثنا سوية. كانت متفاجئةً جداً لرؤية تزويتون في المظهرِ الباذخِ ذلك.

قالت الملكة:

- ها إنَّ ابنتي تأتي لتحملَ إليك هدايا زواجها. الملك فتان تزوجها ومُحِبُّها حتَّى الجنون، لم يسبق لعروسين أن كانا بهذا السُّرور. وللحال، بسَّطت أَمَامَ الأميرة أقمشةً من ذهبٍ وفضَّةٍ وأحجارٍ كريمةٍ ودانتيلاً وأشرطة، في سلالٍ كبيرة مفتولةٍ ومجدولةٍ بخيوطٍ

من ذهب. وأثناء تقديمهنّ لها كلّ هذه الأشياء، لم تتوانِ تزويتون عن استعراض خاتَم الملكِ في إصبعها والتباهي به. وعندئذٍ بدا جلياً للأميرة فلورين أنّ شقاءها محتوم. استصرختهنّ لكي ينزَعنَ من أمام عينيها كلّ تلك الهدايا المشؤومة. لن تستطيعِ منذ تلك اللحظة إلاّ أن تلبسَ الأسود، أو بالأحرى إلاّ أن ترغبَ في الموتِ حالاً. فقدتَ وعيها. والملكة المتوحّشة، وقد سُرت لنجاح خدعتها، لم تسمحَ بأن يأتي أحدٌ لنجدتها: تركتها وحيدةً في أتْعَسِ حالٍ ممكنة، وراحت تروي بمكرٍ على الملكِ أنّ ابنته تتصرّف بنزق غريب وأنّه يجب الحؤول دون خروجها من البرج. قال لها الملك إنّ باستطاعتها التحكّم بهذه المسألة على طريقته وإنّه سيكونُ دوماً راضياً عن الإجراءات التي تتخذها. عندما عادت الأميرة إلى رشدها وفكرت في التصرفات التي تقابلُ بها وبالمعاملة السيئة التي تتلقاها من زوجة أبيها، وبالأمل الذي فقدته إلى الأبدِ بالزواج بالملك فتان، تزايدَ ألمها فبكت طيلة الليل؛ وفي غمرة اليأس تلك، وقفت أمام نافذتها وعبرت عن حسرتها برقة مؤثرة. وعندما اقتربَ النهار، أقفلت النافذة واستمرت في البكاء.

في الليلة التالية، فتحت النافذة وأطلقت تأوهات عميقة وانتحبت نحيباً ذارفةً سيلاً من الدموع: وحينَ طلَعَ النهار، اختبأت في غرفتها. في تلك الأثناء لم يكفَ الملك فتان، أو بالأحرى العصفور الجميل الأزرق عن التحليقِ حول القصر. شعر أنّ أميرته العزيزة كانت مسجونةً هناك وأنّ شكواها الحزينة لا تقلّ حزناً عن شكواه. اقتربَ من التوافدِ بقدر ما يستطيعُ لينظرَ إلى الغرف. لكنّ الخشية من أن تراه تزويتون وترتابَ في أمره كانت تمنعه من تحقيق رغبته.

قال في نفسه:

- حياتي في خطر: إذا عرّفت هاتان الشريرتان مكاني فسوف

ترغبان في الانتقام. عليّ الابتعاد أو أعرض نفسي لمخاطر شديدة.  
هذه الأسباب أرغمته على اتخاذ الحيطة والحذر، ولم يكن يغني  
عادةً إلا ليلاً.

كان هناك قبالة النافذة حيث تتكئ فلورين سرورة شائخة باسقة.  
وكان العصفور يأتي ليَجثم على أغصانها. لم يكد يغط حتى سمع  
صوتاً يشتكى قائلاً:

- هل سأتعذب طويلاً بعد؟ ألن يأتي الموت لنجدتي؟ هؤلاء الذين  
يخشونه يأتيهم باكراً، فيما أنا أرغبُ به ولكن الموت الذي لا يرحم  
يهربُ مني. آه أيتها الملكة الهمجية ماذا فعلتُ لك لكي تحبسني في  
هذا السجن المرعب؟ أليس لديك أمكنة أخرى لتسجنيني فيها؟ ما  
عليك إلا أن تجعليني شاهدةً على السعادة التي تتذوقها ابتك، وهي  
غيرُ جديرة بها، مع الملك فتان!

لم يسهُ العصفور الأزرق عن كلمة واحدة من هذه الشكوى؛  
ومكث مندهلاً منها وانتظرَ طلوعَ النهار بفارغِ الصبر لكي يرى  
السيدة الكئيبة. لكنها، قبل أن يطلع النهار، أقفلت النافذة وانزوت  
في الدّاخل.

لم يتوان العصفورُ الفضوليّ عن العودة في الليلة التالية. كان  
القمر يرسلُ أشعته الساطعة: رأى فتاة عند نافذة البرج تبدأ تلاوة  
حسراتها. كانت تقول:

- أيها القدر، أنت الذي وعدتني بالملك، أنت الذي أعدت لي  
محبة والدي، ما الذي فعلته لك لكي تغرقيني دفعةً واحدة في أشد  
العذابات إيلاًماً؟ هل في سنّ فتية مثل سنّي يُبتدأ في تحمّل تقلباتك؟  
عدّ أيها الهمجيّ إذا كان ممكناً، أسألك، طلباً واحداً، هو أن تُتم  
مصيري المشؤوم.

كان العصفور الأزرق يسمع، وكلما سمع، ازدادت قناعتُهُ بأنَّ  
أميرتَه الحبيبة هي مَنْ كانت تشتكي. قال لها:

- يا فلورين الحبيبة، تحفة أيا منّا، لماذا تريدان أن تنهي هذه السّرعَة  
أيامك؟ ألامك ليست من دون دواء.

هتفت:

- مَرِحِي! من يتكلّم بمثل هذه الطّريقة المُواسية؟

أزْدَف العصفور:

- ملك تعيسٌ يخبُّك ولن يحبَّ غيرك أبداً.

أضافت:

- ملكٌ يحبّني؟ هل هذا أيضاً فُحٌّ نَصَبْتُهُ لي عدوّتي؟ ولكنها ماذا

ستجني حقيقة؟ إذا كانت تريد اكتشاف مشاعري فأنا مستعدة  
لأبوح لها بأسرار حبي.

أجاب:

- لا يا أميرتي، العاشق الذي يتحدّث إليك ليس قادراً على

خِيانتِك.

ولم يُنه كلماته تلك حتّى طارَ نحو النّافذة. خافت فلورين من

عصفور عجيب كذلك العصفور، يتكلّم بكلّ ذلك الذّكاء كما لو

كان إنساناً مع أنّ صوته عذب كصوت البلبل، لكنّ جمال ريشه

وأقواله طمأنها.

هتف:

- هل تسمّحين لي برويتك مجدداً يا أميرتي؟ هل أستطيع أن أتذوق

سعادةً مكتملة كهذه دون أن أموت فرحاً؟ لكنّ وا حَسْرَتاه! هذه

الفرحة يعكّرها أسرك والحال التي وضعتني فيها الشريرة سوسيو

لسبع سنوات.

قالت الأميرة وهي تداعبه:

- ومن أنت أيها العصفور الفتان؟

أضاف الملك:

- قلت اسمي وتظاهرين بعدم التعرف إليّ.

قالت الأميرة:

- ماذا! أعظم ملك في الدنيا! ماذا! الملك فتان هو العصفور

الصغير الذي أحمله بين يدي؟

أضاف:

- هو بعينه يا للأسف يا حلوتي فلورين. وإذا كان هناك من شيء

يعزيني فهو أنني فضلت هذا الشقاء على أن أتخلى عن العشق الذي أحمله لك.

قالت فلورين:

- تحمله لي! آه! إياك أن تسعى إلى خداعي! أعرف، أعرف أنك

تزوجت تزويتون. رأيت خاتمك في إصبعها: رأيتها تلمع بالأماس الذي أهديتها إياه. أتت لتشمت بي في سجن الحزين مزينة بتاج نفيس ومدثرة بمعطف ملكي ألبستها إياه بيدك فيما أنا أرسف في سلاسل وأغلالي.

فقاطعها الملك:

- هل رأيت تزويتون بهذه الهيئة؟ هل تجرأت هي وأمتها على أن

تقولا لك إن هذه الجواهر مني؟ أيتها السماء! هل يعقل أن أسمع أكاذيب مروعة كهذه وأعجز عن الانتقام لنفسي في الحال كما أتمنى؟ اعلمي أنهما أرادتا خداعي، واستغللتا اسمك وورطتاني في خطف تلك القبيحة تزويتون؛ لكن ما إن عرفت خطئي، أردت هجرها، واخترت أن أكون عصفوراً أزرق سبع سنوات متتالية على أنك



العهد بالوفاء الذي قطعته لك.

شعرت فلورين بلذّة كبيرة لسماعها ما يقوله حبيبها اللطيف  
فنسيت مآسي سجنها. ما الذي لم تقله له لكي تواسيه من آلام  
مغامرته العائرة ولتقنعه بأنّها لن تبادله بأقلّ مما بادها به؟ طلع  
النهار، وكان معظمُ العاملين قد استفاقوا ولا يزالُ العصفورُ الأزرقُ  
والأميرةُ يتبادلان أطرافَ الحديث. افترقا بشقّ النفس بعد أن تواعدا  
على أنّهما طيلة الليالي سيتحدّثان على النحو ذاته.

كانت فرحة اللقاء ما بعدها فرحة وليس هناك عبارات تستطيع  
وصفها. وكلّ من ناحيته شكرَ الحبّ والحظ. إلا أنّ فلورين كانت  
تقلقُ بخصوص العصفور الأزرق:

كانت تقول:

- مَنْ سَيُضْمَنُ لَهُ الحِمَايَةَ مِنَ الصّيّادين أو من برائن التّسور الحادّة  
أو الصّقور الجائعة التي ستلتهمه كما لو أنّه لم يكن ملكاً عظيماً؟ أيتها  
السّماء! ماذا سيصيرُ بحالي إذا دفعت الرّيح ريشاته الخفيفة الرّقيقة إلى  
سجني وحملت لي نبال المصيبة التي أخشاها؟

وعلى هذا جافى التّوم الأميرة المسكينة فالحبّ يجعل الأوهام تبدو  
وكأنّها حقائق. وما بدا مستحيلاً في وقتٍ سابقٍ يُضحى يسيراً في زمنِ  
الحبّ. أمضت النّهار تبكي حتّى حانت ساعة المكوثِ أمام النافذة.  
العصفور السّاحر، المختبئ في جوفِ شجرةٍ شغل كلّ نهاره  
بالتّفكير في أميرته الجميلة.

كان يقول:

- ما أسعدني لأنني وجدتها! ما أعذبها! كم أشعرُ بعمقِ المحبّة  
التي تكنّها لي!

كان ذلك العاشق الحنون يعدّ دقيقة بدقيقة نهاية العقوبة التي

تَمَنَعُهُ مِنَ الْاِقْتِرَانِ بِمَعشوقته، بشغف ولهفة لا مثيل لهما. وبما أنه أراد أن يحيطَ فلورين بكلّ مظاهر الحنو والاهتمام التي كان قادراً عليها طارَ حَتَّى المدينة الرئيسيّة في مملكته؛ ذهبَ إلى قصره ودخلَ إلى ديوانه عبرَ نافذةٍ مكسورةٍ وأخذَ أقراطاً من الماس لم يكن لجمالها واكتماها مثيل في العالم. وحملها مساءً إلى فلورين وتوسّل إليها أن ترتديها.  
قالت له:

- سأقبل، إذا جئتَ لرؤيتي نهراً. لكن بما أنني لا أتحدّث إليك إلا ليلاً فلن أضعها.

وعدها العصفور بأنّه سيحسنُ تدبير وقته، وأنّه سيأتي إلى البرج ساعة تشاء: وفي الحال وضعت الأقراط ومضت الليلة في الحديث كالليلة السابقة.

في اليوم التالي، عاد العصفور الأزرق إلى مملكته؛ ذهب إلى قصره ودخل إلى ديوانه عبر الزجاج المكسور وجلبَ منه أنفَسَ الأساور التي شوهدت حتى ذلك اليوم: كانت منحوتة من زمردة واحدة ومجوّفة في الوسط لكي تدخلَ فيها اليد والذراع.  
قالت الأميرة:

- هل تظنُّ أنّ مشاعري حيالك تحتاج لأن تزيدها الهدايا؟ آه!  
أنت لا تعرفني جيّداً!  
أجاب:

- لا يا سيّدي، لا أعتقد أنّ التفاهات التي أهديك إياها ضروريّة لكي تحتفظي بحنانك لي. لكنّ حناني سيُخدشُ إذا أهملتُ مناسبةً ولم أظهر لك اهتمامي. وحينَ أغيّبُ عن نظرك فإنّ هذه الجواهر البسيطة تذكرك بي.

قالت له فلورين بهذا الصّدَدِ ألفَ شيءٍ لطيفٍ وأجابها بألفٍ شيءٍ

لا يقلّ لطفاً.

في الليلة التالية، لم يفت العصفور العاشق أن يجلب لجميلته ساعة ذات حجمٍ معقولٍ منحوتةً في لؤلؤةٍ ومشغولة بإتقان يفوق الدرر فرادة.

قالت بودّ:

- غير مُجدٍ أن أمتّع بساعة؛ عندما تكونُ بعيداً عني تبدو لي الساعات لا متناهية. وعندما تكونُ برفقتي، تمرّ وكأنتها في حلم: وهكذا لا أستطيع أن أقيسها بشكلٍ صائب.

هتف العصفور الأزرق:

- يا للأسف يا أميرتي، لديّ الشعور نفسه، لا بل وأكثر، صدّقيني.

أجابته:

- بعد كلّ الذي تقاسيه من أجل أن تحتفظ لي بحبّك، أعتقد أنّك حملت الصداقة والاحترام إلى أرفع مقام.

ما إن ييزغُ النهار حتى يطير العصفور متغلغلاً في شجرته حيث يقاتُ من الثمار. أحياناً كان يغني ألحاناً جميلة تسحرُ العابرين. كانوا يسمعونها ولا يرون أحداً يغنيها، وهكذا جرى الاعتقاد أنها أرواح تغني. وبات هذا الاعتقاد شائعاً بحيث إنّ أحداً لم يعدّ يجرؤ على الدّخول إلى الغابة. وأخذ الناس يروون ألف مغامرة خرافية جرت هناك. وبات الرعب المعمّم يشكّل الأمن الخاص بالعصفور الأزرق.

لا يمضي نهار إلاّ ويقدم فيه هديّة لفلورين: تارة عقداً من اللآلئ أو خواتم من أكثر الخواتم بريقاً وإتقاناً، ومشابك من ألماس ومخارز وبقايات من الأحجار الكريمة تُحاكي لون الأزهار وكُتُباً مسليّة وميداليات، وأخيراً حظيت الأميرة بكومة من التفاس العجيبة. لم تكن تتزيّن بجواهرها إلاّ ليلاً لكي تُرضي الملك، وفي النهار، بما أنّه لم

يكن لديها مكانٌ لتضعها فقد حرصت على إخفائها في حصيرة القش.  
مضت سنتان على هذا التحوُّون أن تتدمَّر فلورين مرَّةً واحدة  
من أسرها. وكيف لها أن تتدمَّر؟ كانت تُسرُّ بالتحَدُّث طيلة الليل إلى  
مَن تحبُّ ولم يسبق لعاشقين أن قالوا مثل هذه الأشياء الجميلة. ومع  
أنها لم ترَ أحداً، ومع أنَّ العصفورَ يمضي التَّهار في جوفِ الشَّجرة،  
كانت لديها آلاف الأشياء الجديدة لكي يروِّبها أحدهما للآخر، أشياء  
لا تنضب، كان قلبها وذهنها يتدعان الأحاديث بوفرة.

ومع ذلك فإنَّ الملكة الماكرة التي كانت تحتجزها بهذه الوحشيَّة في  
السجن، تقوم بجهودٍ غير مجدِّية لتزويج تزويتون. أرسلت موفدين  
لعرضها على جميع الأمراء الذين كانت تعرِّف أسماءهم: ما إن يصلون  
حتَّى يُصرِّفون في الحال.  
وكانوا يقولون لهم:

- لو كان الأمر يتعلَّق بالأميرة فلورين لكننا استقبلناكم بسرور،  
ولكن فيما يخصُّ تزويتون فيإمكانها أن تبقى عذراء إلى أجل غير  
مستوى.

لدى سماعها هذه الأخبار استشاطت هي ووالدتها غضباً إزاء  
الأميرة البريئة التي تضطهدانها. كانتا تقولان:

- ماذا! بالرغم من أسرها تعترض هذه المغرورة طريقنا؟ كيف  
السبيل إلى الصَّفح عن الحيل الخبيثة التي تدبرها لنا. لا بدَّ أنها تبعثُ  
برسائل خفية إلى البلدان الأجنبية. أقلُّ ما يُقال إنها مجرمة بحقِّ  
المملكة. لنعاملها على هذا الأساس ونفتش عن كلِّ الوسائل الممكنة  
لحملها على الاعترافِ بذنبيها.

أنهيتا مشاوراتهما في وقتٍ متأخر. كانت السَّاعة تتجاوزُ منتصف  
الليل حين صمَّمتا على الصعود إلى البرج لاستجوابها. كانت برفقة

العصفور الأزرق عند النافذة متزيّنة بجواهرها ومسرحة شعرها الجميل بأناقة لا تناسب الأشخاص الأسيانين. غرفتها وسريرها كانا مفترشين بالأزهار وبعض كُرات التبخير من إسبانيا التي أحرقتها للتوّ تنشر رائحةً عذبةً فوّاحةً. أصغت الملكة عند الباب. خالت أنها تسمع لحناً من دورين مفعم بالكلمات الرقيقة. كانت فلورين تملك صوتاً سهاوياً:

كمّ مخزن مصيرنا  
وكم يُشقينا العذاب  
لأننا يجبّ واحدنا الآخر حبّاً ثابتاً  
وعبثاً يحملون علينا الضغينة  
وبالرغم من أعدائنا الذين لا يهادنون  
فإنّ قلبينا متّحدان أبداً.

أعقت بعض التهنّيدات ذلك الاحتفال الموسيقيّ الصّغير.  
- آه يا تزويتون لقد خُدِعنا!

هتفت الملكة وهي تفتح الباب عنوة مقتحمةً الغرفة.  
ماذا صار بحال فلورين لدى رؤيتها ذلك المشهد؟ سارعت إلى إغلاق النافذة قليلاً لكي تفسح المجال للعصفور الملكيّ بالطيران، إذ كانت مهمومة بنجاته أكثر ممّا بنجاتها هي. لكنّه شعر أنّه عاجز عن الابتعاد: كانت عيناه الثاقبتان تكشفان له الخطر المحدق بالأميرة. رأى الملكة وتزويتون. أيّ حزنٍ رهيب انتابه لأنّه لا يستطيع الدفاع عن عشيقته! اقتربت منها وكأتهما اثنتان من جنّيات الغضب تريدان التهامها.

هتفت الملكة:

- نعرف المؤامرات التي تحيكنها ضدّ الملكة. لا تعتقدي أنّ مقامك سينقذك من العقاب الذي تستحقّينه!

أجابتها الأميرة:

- ومع من أحبك المؤامرات يا سيّدة؟ ألسنت سجانتي منذ سنتين؟ هل رأيت أشخاصاً غير هؤلاء الذين أوفدتهم إليّ؟ وفيما هي تتكلّم كانت الملكة وابنتها تُعنانِ النَّظَرَ إليها بدهشةٍ كليّةٍ منبهرتين بجماها الرّائع وزينتها المُدهِشة.

قالت الملكة:

- ومن أين لك يا آنسة هذه الأحجار الأشدّ سطوعاً من الشّمس؟ هل تريدن أن تُقنّينا أنّ هناك مناجم في هذا البرج؟

أجابت فلورين:

- لقد وجدتها؛ هذا كلّ ما في الأمر.

نظرت إليها الملكة بانتباهٍ لكي تخترق سرّ قلبها وما يعتملُ داخله.

قالت:

- لا يمكنك أن تخدعينا. هل تظنّين أنّ بإمكانك إقناعنا بهذه السهولة. ولكن أيتها الأميرة، نعرفُ ماذا تفعلين منذ الصّباح حتّى المساء. لقد أعطيت كلّ هذه الجواهر بهدفٍ واحدٍ هو إرغامك على بيع مملكة أيبك.

فأجابتها الأميرةُ بابتسامةٍ هازئة:

- أنا فعلاً في حالٍ تسمّح لي بتسليم الملكة! أميرةٌ بائسةٌ الحظّ أسيرة الأغلّالٍ منذُ فترةٍ طويلةٍ، وتملك كلّ قدرة لتدبيرِ مؤامرةٍ من هذا النوع!

أردفتِ الملكة:

- ولمن إذا سَرَّحتِ شعركِ كفتاةٍ صغيرةٍ غنجةٍ. غرفتكِ مفعمةٌ  
بالعطور ومظهركِ بديعٌ حتى إنك لو كنتِ في البلاطِ لما تزينتِ على  
هذا النحو؟

قالت الأميرة:

- لديّ الكثير من الوقت. ليس أمراً عجبياً أن أخصّصَ بعضَ  
السّويعاتِ للاعتناءِ بملابسي. فكلّ الوقتِ الباقي أمضيه في البكاءِ  
على مصائبِ التي لا يمكنُ لأحدٍ أن يحسدني عليها.  
قالت الملكة:

- لنرّ، لنرّ ما إذا كانت هذه الفتاةُ قد وقّعت معاهدةً مع الأعداء.  
راحت تفتّش بنفسها وفي كلّ مكان وأمسكت فراش القش  
وأفرغتهُ ووجدت فيه كميّةً هائلةً من الألباس واللالعي والياقوتِ  
والزمرّدِ والزبرجدِ وحاتر في مصدرها. صمّمت على أن تضعَ في  
مكانٍ ما أوراقاً مشبوهة لتورّطَ الأميرةَ واستغلّت سهوها القليل  
لتخبئ بعضها في المدخنة. ولكنّ لحسن الحظّ كانّ العصفورُ الأزرقُ  
جائهاً على أحد الأغصان ويرى أفضل من الوشق ويسمّع كلّ شيء،  
هتف:

- حاذري يا فلورين إنّ عدوتكِ تريد تخوينكِ!  
أثارَ ذلك الصّوت غيرُ المتوقّعِ رُعباً كبيراً في نفس الملكة فلم تجرؤ  
على فعل ما خطّطت لأجله.  
قالت الأميرة:

- أرايتِ يا سيّدة، إنّ الأرواح التي تطيرُ في الهواءِ تؤازرني.

قالت الملكة بسخطٍ شديد:

- أعتقدُ أنّ الشياطين هي التي تسانديك؛ ولكن بالرغمِ منها

سيعرفُ أبوكِ كيفَ ينتقمَ لنفسه.

هتفتُ فلورين:

- إن شاءت السماءُ أن يُنزلَ بي والدي سخطه، فأنا أخضعُ

لإرادتها! لكن أخشى ما أخشاه هو غضبكِ أنتِ يا سيّدة.

تركتها الملكة مضطربةً لكلِّ ما رأت وسمعت. أقامت مجلساً لترى

ما يتوجّبُ عليها فعله لمواجهه الأميرة. قيلَ لها إنّه إذا كانت هناك

جنّية أو ساحر يشفعان لها فإنّ السرّ الحقيقيّ لإغاظتهما هو التّسبّب

لها بآلام جديدة، وإنّه من الأفضل السعي للكشفِ عن المؤامرة التي

تدبرها. وافقت الملكة على هذه الفكرة وأرسلت إلى غرفة الأميرة

فتاةً شابة تتظاهر بالبراءة لتنامَ قريبها. تلقت الأمر بأن تقول لها إنّها

وُضِعَت قريبها لخدمتها. لكن ما الهدفُ من تدبير خدعة فاضحة

كهذه والإتيان بهذه الجاسوسة لتزيد المصائب مصيبة أخرى؟

قالت في نفسها:

- ماذا! ألن أعودَ للتحدّث مع هذا العصفور الذي هو أعزّ من

نفسي؟ كان يساعدي على تحمّل مآسي، وكنت أخفّف من مآسيه.

كان حناننا يكفيننا. ماذا سيفعل؟ وماذا سأفعل أنا نفسي.

كانت تفكّر في هذه الأمور والدموع تنهال من مآقيها سيلاً عرماً.

لم تعد تجرؤ على الوقوف عند النافذة الصغيرة مع أنّها تسمعه يخلّق

من حولها. كانت تتحرّق تحرقاً مُميّناً لكي تفتح له النافذة لكنّها كانت

تخشى أن تعرّض حياة ذلك العشيق الغالي للخطر. أمضت شهراً

كاملاً دون أن تظهر على النافذة. شعر العصفور الأزرق باليأس.

وكم من شكوى خالجتُه! كيف السبيلُ للعيش دون أميرته؟ لم يسبق

له أن شعر بآلام الغياب ولا بآلام تحويله إلى عصفور على هذا النحو.



كَانَ يَبْحَثُ عَبَثًا عَنْ مَدَاوِئِ الْغِيَابِ وَالْإِمْتِسَاحِ<sup>(1)</sup>. وَبَعْدَ أَنْ قَدَحَ ذَهَنَهُ فِي التَّفْتِيشِ عَنْ حَلِّ، لَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَتَعَزَّى بِهِ. وَأَخِيرًا بَعْدَ مَرُورِ شَهْرٍ مِنَ السَّهْرِ لَيْلِ نَهَارٍ، أَحْسَسَتْ الْجَاسُوسَةُ، الْمُوَكَّلَ إِلَيْهَا بِمِرَاقَبَةِ الْأَمِيرَةِ، بِالنَّعَاسِ يَهْدِمَا تَمَامًا فَاسْتَرْسَلَتْ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ. لَاحَظَتْ فَلُورِينَ ذَلِكَ فَفَتَحَتْ النَّافِذَةَ وَقَالَتْ:

أَيُّهَا الْعَصْفُورُ الْأَزْرَقُ، يَا لَوْنَ الْوَقْتِ  
طَرِّإِي حَالًا.

كَانَتْ هَذِهِ كَلِمَاتِهَا بِالذَّاتِ وَلَمْ نَرِدْ أَنْ نَغَيِّرَ مِنْهَا شَيْئًا. سَمِعَهَا الْعَصْفُورُ عَلَى الْفُورِ وَطَارَ إِلَى النَّافِذَةِ فِي الْحَالِ. مَا أَجْمَلَ فَرِحَةَ التَّلَاقِي! كَمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَدَيْهَا لِيَقُولَ لَهَا! وَتَجَدَّدَتْ وَعَوْدُ الصَّدَاقَةِ وَالْإِخْلَاصِ أَلْفَ مَرَّةٍ وَمَرَّةً. لَمْ تَسْتَطِعِ الْأَمِيرَةُ الْإِمْتِنَاعَ عَنْ ذَرْفِ الدَّمُوعِ مَا جَعَلَ عَشِيقَهَا يَتَحَنَّنُ عَلَيْهَا كَثِيرًا وَيُوَاسِيهَا بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ. وَأَخِيرًا وَأَفْتِ سَاعَةَ الْإِفْتِرَاقِ مِنْ دُونَ أَنْ تَفِيقَ السَّجَّانَةَ مِنْ نَوْمِهَا. فَتَوَادَعَا وَدَاعًا يَثِيرُ فِي النَّفْسِ انْفِعَالًا مُؤَثِّرًا. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ غَفَتِ الْجَاسُوسَةُ أَيْضًا فَاسْرَعَتْ الْأَمِيرَةُ فِي الْوُقُوفِ أَمَامَ النَّافِذَةِ وَقَالَتْ كَمَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى:

أَيُّهَا الْعَصْفُورُ الْأَزْرَقُ، يَا لَوْنَ الْوَقْتِ  
طَرِّإِي حَالًا.

وَعَلَى الْفُورِ، أَتَى الْعَصْفُورُ وَمَضَتْ اللَّيْلَةُ كَسَابِقَتِهَا دُونَ ضَبْجَةٍ

(1) نَكَبَ «الْمَسْخُ» وَ«الْإِمْتِسَاحُ» عِنْدَمَا يُمَسَّحُ إِنْسَانٌ إِلَى كَيْانٍ حَيَوَانِيٍّ قَبِيحٍ، وَنَكَبَ «تَحْوِيلًا» وَ«تَحْوِيلًا» عِنْدَمَا يَنْقَلِبُ الْمَرْءُ طَائِرًا أَوْ شَيْئًا آخَرَ جَمِيلًا.

ولا صوت، وكانَ عاشقانا مسحورين. وكانَ يطيَّبُ لهما القول إنَّ الرّقيبة مُستمتعةٌ جدًّا بالنوم وإنها ستفعلُ كذلك كلَّ ليلة. وبالفعل، مرّت اللّيلةُ الثالثةُ بسعادة تامّة، ولكن في اللّيلةِ التّالية، سمعت النائمةُ ضجّةً فأصغت دونَ أن تتظاهرَ بشيء، ثم نظرت بإمعانٍ كبيرٍ ورأت في ضوءِ القمرِ أجملَ عصفورٍ في العالم يتحدّث إلى الأميرة، ويدّاعبها بميسمه وينقرها بعدوبة؛ وأخيراً سمعت أشياء عديدة من أحاديثهما ومكثت مندهشةً جدًّا لأنّ العصفورَ كانَ يتكلّم كعاشقٍ وكانت الجميلةُ فلورين تبادله بكلام يفيض شعوراً ورقة. طلّع النّهار وتودّعا. وكما لو أنّها استشعرا بالمصيبة الوشيكة، افترقا بألم شديد. ارتمت الأميرة على سريرها والدموع تغمرها وعادَ الأمير إلى جوف شجرته. وهروكت السجّانة إلى الملكة. وأعلّمتها بكلِّ ما رأته وسمّعتة. أرسلت الملكة في طلب تزويتون ووصيفاتها. وتساوَرَن كثيراً سوياً ووصلنَ إلى خلاصة مفادها أنّ العصفور الأزرق كان هو الملك فتان.

هتفت الملكة:

- يا للعار! يا للعار! يا للعار يا تزويتون! تلك الأميرة الوقحة التي ظننتها أسيانة، تتمتع قدر ما يجلو لها بالأحاديث الشيقة مع ملكنا الجاحد! أه! سأنتقم منها بطريقةٍ داميةٍ وعنيفةٍ وسيذيعُ الخبر في كلِّ مكان. توسّلت إليها تزويتون بعدم تضييع دقيقةٍ واحدة. وبما أنّها كانت تظنّ أنّها معنيّة بالموضوع أكثرَ من الملكة، كانت تتحرّق شوقاً ولذّة عندما تفكّر في كلّ ما ستفعلانه للتنكيل بالعاشق وعشيقته.

أرسلت الملكةُ الجاسوسةَ من جديد إلى البرج وأمرتها بعدم إظهار أيّ ريبةٍ أو فضولٍ والظهور بمظهر النائمة كالعادة. خلّدت للنوم في ساعة مبكرة وأخذت تشخرُ بصوتٍ قويٍّ، والأميرةُ المسكينة الخائبةُ

أيتها العصفور الأزرق يا لونَ الوقت،  
طرِّإِي حَالاً.

لكنها نادَتْ طيلة الليل دونَ جدوى. لم يظهر العصفور. لأنَّ الملكة الشريرة طوّقت السّروة بالسّيوف والسكاكين ومواسي الحلاقة والخناجر، وعندما جاء العصفور على وجه السرعة علق بها فقطعت جناحيه. وأخيراً، مجرّحاً ومطعوناً من كلّ جهة، فرّ بشقّ النفس حتّى شجرته تاركاً وراءه أثراً طويلاً من الدم.

ليتكِ كنتِ هناك أيتها الأميرة الجميلة لتواسي ذلك العصفور الملكي! لكنها كانت ستموت لو رأته في مثل هذه الحال المزرية. خدمت في داخله الرغبة في المقاومة للبقاء على قيد الحياة لاقتناعه أنّ فلورين هي التي دبّرت له هذه الحيلة الخبيثة.

كان يقول بألم:

- آه أيتها الهمجية هل هكذا تبادلين العشق الأتقى والأرق الذي تسنّى لعاشق أن يظهره حتّى الآن؟ إذا كنت تريدين موتي فلم لم تطلبي ذلك مني بنفسك؟ كان الموت سيطيّب بين يديك! كنت آتي للقائك بكثير من الحبّ والثقة! كنت أتعدّب لأجلك وأتعدّب دون أن أشتكي! ماذا! هل ضحيت بي لأعتى النساء! لعدوتنا المشتركة! هل صنعت سلامك معها على حسابي. هذه أنت، فلورين، أنت من تطعنيني! استعرت يد ترويتون وغرزت الخنجر عميقاً في صدري!  
كانت هذه الأفكار المشؤومة تُضنيه بشدة وتجعله يشتهي الموت.

لكن صديقه الساحر الذي كان قد أقله على متن المركبة التي تجرّها الضفادع المجنّحة إلى قصر الساحرة سوسيو ثم عاد ليصطحبه دون أن يجد له أثراً، انتابه قلق شديد عليه فجاء الأرض كلها ثماني مرّات بحثاً عنه ولكن دون جدوى. كان يقوم بجولته التاسعة عندما مرّ بالغابة حيث علق العصفور، ووفقاً للقواعد التي كان يتّبعها، نفخ في بوقه طويلاً ثم صاح بكلّ ما أوتي من قوّة خمس مرّات:

- أيها الملك فتان، أيها الملك فتان، أين أنت؟

تعرف الملك إلى صوت صديقه المفضّل وقال:

- اقترب من هذه الشجرة وانظر إلى الملك التعيس الذي كنت تحبه غارقاً في دمه.

دُهِشَ السّاحر تماماً ونظر إلى كلّ الجهات دون أن يرى شيئاً.

قال الملك بصوت واهن سقيم:

- أنا عصفور أزرق.

وعلى هذه الكلمات، وجده الساحر دون مشقّة في عشّه الصّغير. إنّ أحداً سواه كان سيتعجّب أكثر منه بكثير، لكنّه لم يكن يجهد أية حيلة من فنّ السّحر والعرافة: كفاه أن يتلفّظ كلمات قليلة لكي يوقف الدّم الذي كان لا يزال ينزف. ثمّ قطف بعض الأعشاب من الغابة ورقى عليها كلمتين مبهمتين من الطّلاسّم، فشفّي الملك تماماً وكأنّه لم يُجرّح قطّ.

ثمّ توّسل إليه أن يخبره بأية طريقة أصبح عصفوراً ومن تسبّب له بجروحه القاتلة تلك. روى الملك غليل فضوله وقال له إنّ فلورين هي التي فضحت سرّ زيارته الغراميّة لها، وأنها لكي تقيم السّلام مع الملكة وافقت على تجهيز السّروة بالخناجر والمواسي التي جرحته. صرخ محتجّ ألف مرّة على غدر هذه الأميرة وقال إنّه كان سعيداً لو

ماتَ قبلَ أن يعرفَ خبثَ قلبها. والسّاحر أيضاً صبّ جامَ غضبه عليها وعلى كلِّ النساء، ونصح الملك بنسيانها.  
قال له:

- أيّ شقاء سيكونُ من نصيبك لو تسنّى لك أن تحبّ هذه الجاحدة لوقتٍ أطول؟ بعدما فعلته معك يجبُ أن تحترس من كلِّ شيء.

لم يستطع العصفورُ الأزرقُ أن يوافقه الرأي، كان لا يزال يحبّ فلورين حبّاً شديداً. والسّاحر العارف بمشاعره رغم الجهد الذي يبذله الأمير لإخفائها، قال له بطريقة طريفة:

حينَ ترزح تحت ثقلِ شقاء لا يزحم  
عبثاً يُرَكَّنُ إلى الكلامِ والتعقلِ  
حينئذٍ لا تسمع إلا صوتَ الملكِ  
وتصمّ أذنيك عن نصيحِ كلِّ صديق.

دع الزّمن يأخذ مجراه  
لكلِّ شيءٍ أوانه  
وإذ لم تحن الساعة بعد  
يضيعُ عذابك سدى.

وافق العصفورُ الملكيُّ على قولِ صديقه وتوسّل إليه أن يصطحبه إلى القصر ويضعه في قفصٍ في مأمنٍ من مخالبِ الهَرّ وكلِّ سلاح قاتل.  
قال له السّاحر:

- ولكن هل ستبقى أيضاً خمسَ سنواتٍ في مثلِ الحالِ المزريّة

والتي قلما تليق بمقامك والمهام المترتبة عليك؟ ثم إن لديك أعداء يقولون إنك مُت؛ يريدون اجتياح مملكتك: وأخشى فعلاً أن تكون قد خسرتها قبل استعادتك شكلك الحقيقي.

أجاب:

- ألا أستطيع الذهاب إلى قصري وأمارس الحكم كما كنت أفعل عادة؟

هتف صديقه:

- آه، إن المسألة صعبة! من أطاع إنساناً لم يستطع أن يطيع بئغاء، ومن خشيك ملكاً مُحاطاً بمظاهر العظمة والأبهة سوف ينتف ريشك كله حين يراك عصفوراً صغيراً.

هتف الملك:

- آه يا ضعفاً بشرياً، آه يا ظواهرُ بَرّاقة! مع أنك لا تعين شيئاً للاستحقاق والفضيلة، فأنت لا تتوانين عن امتلاك جوانب مخيبة لا يمكن إنكارها! ثم أردف: «حسناً، لنكن حكماء، لنحتقر كل ما لا يمكننا الحصول عليه: عندئذ لن يكون خيارنا الأسوأ».

قال السّاحر:

- لا أستسلم بسهولة، أمل العثور على بعض الوسائل الناجعة. فلورين، فلورين الحزينة، اليائسة من عدم رؤية الملك كانت تمضي النهارات والليالي عند النافذة مكرّرة دون توقّف:

أيها العصفور الأزرق، لون الوقت  
طرز إليّ حالاً.

لم يعد حضور جاسوستها يمنعها من مناداته. وصل بها اليأس

مبلغاً لم تعد معه تُراعي شيئاً.

هتفت:

- ماذا صارَ بحالكِ أيتها الملكِ فتان؟ هل جعلك أعداؤنا المشتركون تكابدُ التّبعات التي لا ترحم لبغضهم المسعور؟ هل استسلمتَ لضراوة كيديهم؟ يا حسرة لا أكاد أحملها! يا أسفي عليك! أتراك مت؟ ألم يعد بإمكانني رؤيتك أو إنك سئمتَ من بليّتي وتركتني لمصيري القاسي؟

كم من الدّموع، كم من الشّهقاتِ أعقبت هذه المناجيات الرّقيقة! كم أصبحت الساعات بطيئةً بفعل غيابِ عشيقٍ لطيفٍ عزيز! انهارت الأميرة ومَرَضت وهزلت وتبدّلت وعجزت عن الوقوف على قدميها. باتت مقتنعة أنّ أسوأ الأمور حصلت للملك.

وكان الظفر من نصيب الملكة وابنتها تزويتون. أشعرهما الانتقام بلذّة تفوق الشّقاء الذي تسببت الإهانة لهما به. والحق يقال، عن آية إهانة نحدّث؟ لأنّ الملك فتان لم يقترن بتلك الفتاة التي تشبه المسخ ويملك ألف سبب لاحتقارها؟ بيد أنّ والد فلورين، وقد تقدّمت به السنّ، مرضَ ومات. وعندئذٍ دارت الدوائر على الملكة الشريفة وابنتها. بات الجميع ينظرُ إليهما بوصفهما محظيتي الملك اللّتين أفرطتا في استغلالِ هذه الخطوة، عندئذٍ هُرِعَ الشّعْبُ المتمرد إلى القصر يطالب بالأميرة فلورين منادياً بها كملكة. أرادت الملكة الغاضبة أن تعالج المسألة بتعالٍ؛ ظهرت على إحدى الشرفات مهدّدة المتمردين. وما لبث أن عمّ العصيان البلاد. واخترق المهاجرون أبوابَ جناحها ونهبوه وصرعوها بضرباتِ الحجارة. فرّت تزويتون عند عزّابتها الساحرة سوسيو بعد أن تعرّضت لمخاطرٍ لا تقلّ أهميّة عن تلك التي واجهت والدتها.

اجتمع كبار المملكة على وجه السرعة وصعدوا إلى البرج حيث كانت الأميرة سقيمة جداً: كانت تجهل وفاة والدها وعذاب عدوتها. عندما سمعت كل ذلك الصخب، أيقنت أنهم لم يأتوا إلا لاقتيادها إلى الموت. لم يُخفها الأمرُ فالحياة باتت لعنة منذ أن فقدت العصفورَ الأزرق. لكن رعاياها ارتموا عند قدميها وأعلموها أن طالعتها تبدل. لم تفعل لما حصل. حملوها إلى القصر وتوجوها ملكة. وكان الاهتمامُ اللامتناهي بصحتها أضف إليه رغبتها في الذهاب للبحث عن العصفور الأزرق قد ساهما كثيراً في استعادتها عافيتها ونشاطها وأمدّاهما عاجلاً بالقوة، فعينت مجلساً يُدير شؤون المملكة في غيابها ثم أخذت معها ألف ألف حجر كريم ورحلت ذات ليلة وحيدة دون أن يعلم أحد وجهتها.

لم يكن السّاحر الذي يهتم بشؤون الملك فتان يمتلك المقدرة الكافية ليزيل سحر سوسيو، لذا ارتأى أن يذهب للقائهما ويقترحَ عليها تسوية ما لقاءً أن تُعيد إلى الملك هيئته الطبيعيّة. حملته الضفادع إلى الجنيّة التي كانت تتحدّث في تلك اللحظة إلى تزويتون. كان السّاحر والجنيّة، بحكم عملهما المتشابه، يعرف كل منهما الآخر منذ خمسمائة أو ستمائة سنة وخلاها توافقا وتخاصما ألف مرّة. استقبلته سوسيو بحفاوة وسرور. قالت له:

- ماذا يريد مني شريكِي؟ (هكذا كان يُلقب بعضهم بعضاً) هل ثمة خدمة يطلبها مني؟  
قال السّاحر:

- نعم يا صديقتي. أنت وحدك بإمكانك تنفيذ طلبي. الأمر يتعلّق بأفضل أصدقائي، بملك جعلته منكود الحظّ.  
هتفت سوسيو:



- ها!ها! فهمتُ قصدك يا شريكِي. لقد أثارَ غضبي. لكن ليسَ من عفويُ رجى له إذا لم يتزوَّج ابنتي الرّوحية. انظُرْ إليها كم هي جميلة وظريفة: ليشاورُ نفسه.

ارتأى السّاحر أن يبقى صامتاً. وجدها قبيحة. ومع ذلك لم يكن بإمكانه عقد النّية على الرّحيل من دون أن يحسم الأمر معها لأنّ الملك تعرّض لمخاطر جمّة منذ أن وُضع في قفص. فالمسار الذي كان القفص معلقاً إليه انقطع فسقط القفص، وتعذب العصفورُ الملكيُّ المتوفُّ الريش كثيراً من جرّاء تلك السّقطة. ثمّ إن هُريراً، القطّ الصّغير الذي كان في الغرفة عند وقوع الحادث، خدشه بمخلبه في عينه فصار أعور. وفي إحدى المرّات، أغفلَ عن تقديم الماء له، وكان على وشك أن يصاب بورم في لسانه لولا أن أنجدَ ببعضِ قطراتِ ماء. وكان هناك قرْدٌ خبيث فرّ من سجنه وأمسك بريش العصفور عبر قضبان القفص وأشفق عليه ليس بأقلّ ممّا يفعل حيال أبي زريق أو شحورور. لكنّ الأسوأ من ذلك كلّهُ هو أنّه كان على وشك أن يفقدَ مملكته؛ كان ورثته يميكونَ حياً جديدة ليبتسوا أنّه توفي. وأخيراً، عقد السّاحر اتّفاقاً مع صاحبتِهِ سوسيو بأن تصطحب تزويتون إلى قصر الملك فتان وتبقى هناك بضعة أشهر يتخذ الملك خلالها قراره بالزّواج بها وعندئذٍ ستعيّد له هيئته السّابقة، وإذا امتنع عن الزّواج تُعيده عصفوراً.

أعطت السّاحرة لتزويتون ملابس منسوجة من ذهب وفضّة ثمّ أصعدتها خلفها على ظهر تين وذهبتا إلى مملكة فتان الذي وصل لتوّه مع صديقه السّاحر الوفي. وبثلاث ضرباتٍ من عصاها السّحرية، رأى فتان نفسه كما كان، جميلاً ولطيفاً وحاضر البديهة ومهيباً. لكنّه دفعَ باهظاً ثمّن خفض المدّة الزّمنيّة لعقوبته. كان يرتعش خوفاً لمجرّد التّفكير أنّه سيتزوَّج تزويتون. حاول السّاحر أن يقنعه بأفضل

الحجج التي يستطيع إليها سبيلاً ولكنها لم تُحدث أيّ وقع في نفسه وكان مهتماً بسير الأمور في مملكته أقلّ من اهتمامه بالوسائل لإطالة المدّة التي حدّدها سوسيو للاقتران بترويتون.

وفي تلك الأثناء بدأت الملكة فلورين رحلتها متنكرة بزّي فلاحه: بعثت شعرها وشعّته لإخفاء وجهها، واعتمرت قبّعة من القشّ على رأسها، وعلّقت كيس قماش إلى كتفها. أحياناً كانت تسافر مشياً على القدمين وأحياناً على ظهر حصان، تارةً بحراً وتارةً برّاً: استقلّت كلّ وسائل النقل الممكنة. لكنها لم تكن تعرف أيّ اتجاه تأخذ وكانت تخشى دوماً أن تذهب إلى جهة فيما يكون ملكها الحبيب في جهة أخرى. وذات يوم توقّفت عند ضفّة سبيل ماء حيث المياه الفضيّة تجري على الحصى الصّغيرة. رغبت في غسل قدميها. جلست على العشب ورفعت شعرها الأشقر بشريطٍ ووضعت قدميها في الجدول. كانت أشبه ما تكون بديانا<sup>(1)</sup> المستحمة بعد رحلة صيد. وكانت ماّرة في ذلك المكان عجوز قصيرة القامة مقوّسة الظهر متكئة على عصاها الضخمة. توقّفت وقالت لها:

- ماذا تفعلين وحدك هنا يا حلوتي؟

قالت الملكة:

- يا سيّدي، لديّ صحبة لا يُستهانُ بها: أحزاني وهمومي وآلامي. وما إن نطقت بهذه الكلمات حتّى اغرورقت عيناها بالدموع.

قالت العجوز:

- ماذا! أنتِ بهذا الشباب وتبكين! آه يا بنيتي، لا تحزني. قولي لي بصدق ممّ تشكين وأمل أن أخفف عنك.

أرادت الملكة حقاً أن تُفرّج مكنونات صدرها فروّت لها المتاعب

(1) ديانا: هي في الميثولوجيا الرومانيّة إلهة الناييع والغابات والصيد.

التي صادفتها وكيف تصرّفت الساحرة، وأخيراً صرّحت لها أنّها تسعى للعثور على العصفور الأزرق.

نهضت العجوز الحذباء وأعدت تشكيل هيئتها فتبدّل وجهها دفعةً واحدة لتصير جميلةً شابّةً في لباس مذهش. نظرت إلى الملكة وعلى مَحَيّاها ابتسامة لطيفة، قالت لها:

- يا فلورين يا من ليس لجمالِكِ مثيل. إنّ الملك الذي تبحثين عنه لم يُعد عصفوراً. أعادت له شقيقتي سوسيو هيئته السابقة. إنّهُ في مملكته. لا تحزني سوف تصلين إلى هناك وتبلغين مُرادِكِ. هاكِ أربع بيضات، اكسريها عندما تحتاجين إلى عون في الحالات الطارئة وسوف تنجديك.

وعلى هذه الكلمات، اختفت.

شعرت فلورين بالعزاء والرّاحة لما سمعته. وضعت البيض في حقيبتها واتّجهت إلى مملكة فتّان.

بعد أن مشّت ثمانية أيّام وثمانٍ ليالٍ دون توقّف وصلت إلى أسفل جبل شاهق الارتفاع وكلّه من عاج. كان الجبل مسطحاً بحيث إنّ أحداً لا يستطيع أن يضع قدميه عليه دون أن يسقط. قامت بألف محاولة للتسلّق ولكن دون جدوى. شعرت بالتعب واليأس إزاء ذلك الحاجز الذي لا يمكن تحطّيه، فاضطّجت عند سفح الجبل مصمّمة على الاستسلام للموت. عندئذٍ تذكّرت البيضات التي أعطتها إيّاها الساحرة. أخذت بيضةً وقالت:

- لنرّ ما إذا كانت الساحرة هزّئت بي عندما وعدتني بأن تمدّني بالمعونات التي أحتاجها.

ما إنّ كسّرت البيضة حتّى وجدت كلاليب من ذهب زوّرت بها قدميها ويديها. وعندما تجهّزت بها، صعّدت جبل العاج دون أيّة

مشقة لأن الكلايب كانت تنغرز فيه وتحول دون سقوطها. وعندما أصبحت في أعلى الجبل، واجهت أيضاً متاعب جديدة في النزول: كأن الوادي كله صفحة مرآة مصقولة. وكان هناك من حول المرأة أكثر من ستين ألف امرأة تتمرأى فيها بلذّة قصوى، لأنّ هذه المرأة كانت بعرض فرسخين وارتفاع ستة فراسخ. كانت كلّ امرأة ترى صورتها في المرأة كما تشتهي: الصهباء تبدو فيها شقراء، والسمراء مزينة بشعر أسود، والعجوز تحال نفسها شابة، والشابة لا تشيخ؛ وأخيراً كانت كلّ العيوب مخفية تماماً، وكان الجميع يقصد المرأة من أركان العالم الأربعة، وكان المنظر يميّث من الضحك: رؤية إبيات العبوس والدلال التي كانت تفعلها أولئك العنجات. وتلك المرأة كانت تجتذب الرجال أيضاً وتروق لهم فتجعل البعض يثبت لهم شعر جميل وتزود البعض الآخر بقوام أطول وأكثر رشاقة، أو تضيف عليهم هيئة الأبطال وطلعة أبهى. والنساء اللواتي كان الرجال يسخرون منهن رُحْنٌ يسخرن من الرجال أيضاً. وكان يُطلق على ذلك الجبل ألف اسم مختلف، ولم يسبق لأحد أن توصل إلى بلوغ قمته، لذا عندما رأت السيدات فلورين أطلقن صرخات يأس طويلة. كنّ يقلن:

- أين تذهب هذه المتهورة؟ لا شك أنّها تفتقر إلى التباهة لكي تمشي على مرآتنا: خطوة واحدة ويتحطم كل شيء.

أحدثت النساء جلبة مرعبة. لم تعد الملكة تعرف ماذا تفعل لأنها كانت استشعرت خطراً كبيراً يحفّ بنزولها إلى الوادي. كسرت بيضة أخرى فخرجت منها حمامتان تجران عربة اتسعت ما يكفي لتجلس فيها فلورين بارتياح؛ ثم حطت الحمامتان برفق وأنزلتا الملكة دون أن يحدث لها أيّ مكروه، قالت لهما:

- يا صديقتي، لو سمحتهما وأرشدتني إلى قصر الملك فتان، ولن

أنسى لكما هذا المعروف.

وظلّت الحمامتان المهذبتان المطيعتان تواصلان الطيران ليلاً ونهاراً إلى أن بلغتا أبواب المدينة. ترجّلت فلورين وقبّلت كلاً منهما قبلة رقيقة أعلى من تاج.

آه! كم كان قلبها يخفق بقوة حين دخلت! لطّخت وجهها كي لا تعود معروفة. وسألت المارّة أين بإمكانها رؤية الملك. أخذ بعضهم يضحك. قالوا لها:

- تريدين رؤية الملك؟ هه! ماذا تريدين منه يا وجه القذارة. اذهبي اذهبي ونظفي نفسك، فمظهرك لا يليق بمقابلته.  
لم تُجب الملكة بشيء: ابتعدت بهدوءٍ وسألت كلّ أولئك الذين التقت بهم أين بإمكانها أن تقف لِترى الملك.  
قالوا لها:

- سيأتي غداً إلى المعبد برفقة الأميرة تزويتون. لأنّه وافق أخيراً على الزواج بها.

أيتها السماء! ما هذا الخبر! تزويتون، تزويتون الخسيسية على وشك أن تتزوَّج الملك! فكّرت فلورين بالموت، لم يعد لديها القوة لتتكلّم أو تمشي: جلست تحت أحد الأبواب على حجارة متسترةً بشعرها وقبعتها القشّ. قالت:

- يا لحظّي المنكود! أجيء إلى هنا لكي أضيف إلى انتصار عدوّتي انتصاراً وأجعل نفسي شاهدةً على سعادتها! إذاً بسببها كفّ العصفور الأزرق عن المجيء لزيارتي! من أجل هذا المسخ المقرّف كشف عن أكثر الخيانات دناءة، فيما أنا كان يحطمني الألم ويتأكلني همُّ بقائه على قيد الحياة! لقد تبدّل الخائن. لم يعد يتذكّرني وكأنّه لم يرني قطّ، تركّني لعذابي من جرّاء غيابه الطويل دون أن يهتمّ لغيابي.

شعرت الملكة بحزن شديد؛ بحثت عن مكان تأوي إليه وخلدت للنوم دون عشاء لأن الحزن أفقدها الشهية إلى الطعام. نهضت مع الصباح وهرعت إلى المعبد. لم تدخل إليه إلا بعد أن صبرت ألف مرة على صدّ الحراس والجنود لها. رأت عرش الملك وعرش تزويتون التي صار يُنظر إليها منذ تلك اللحظة على أنها الملكة. يا للألم الذي يعترني شخصاً بالغ الرهافة كالملكة فلورين! اقتربت من عرش غريمته. وقفت متكئة إلى عمود من رخام. أطلّ الملك في الطليعة، أجمل وألطف مما كان طيلة حياته. ثم ظهرت تزويتون في ثياب فاخرة ولكن في بشاعتها المخيفة. نظرت إلى الملكة مقطبة حاجبيها.

قالت لها:

- من أنت، لكي تجرؤي على الاقتراب من شخصي الكريم ومن عرشي المذهب؟

أجابت:

- اسمي وجه القذارة. أتيت من البعيد وفي حوزتي أشياء نادرة أبيعها.

وللحال فتشت في كيسها القماش وأخرجت منه أساور زمرد كان الملك فتان أهداها إياها.

قالت تزويتون:

- يا لطيف! يا لطيف! هاكم أساور جميلة من زجاج! هل تبيعينها بخمسة قروش؟

قالت الملكة:

- أظهرها يا سيدي للعارفين وبعدها نعقد صفقة البيع.

تزويتون التي كانت تحبّ الملك بحنان أكبر مما تحبّ كلبة سيدها، اغتبطت جداً كونها وجدت مناسبة للتحدث إليه فتقدمت

حتى عرشه وأرثه الأساور راجية إياه أن يقول شعوره. لدى رؤية الأساور، تذكر تلك التي قدمها لفلورين؛ شحب لونه وتنهد واستغرق وقتاً طويلاً في التفكير دون جواب. وأخيراً، خشي أن تنتبه لاضطرابه، فبذل جهوداً للحفاظ على مظهر عادي وأجاب:

- أعتقد أن ثمن هذه الأساور يساوي ثمن مملكتي. كنت أظن أن ليس لها إلا مثيل واحد في العالم ولكن ها إنني أرى العكس.

عادت تزويتون وسحنتها أكثر اكفهراراً من محارة. سألت الملكة عن الثمن الذي تريده لقاء تلك الأساور ولكن من دون مبالغة.

قالت:

- سيشق عليك كثيراً أن تدفعي ثمنها لي يا سيدي. من الأفضل اقتراح تسوية أخرى: إذا سمحت لي أن أنام ليلة في غرفة الأصدقاء الموجودة في قصر الملك، أعطيتك زمرداتي.

قالت تزويتون وهي تضحك مثل مجنونة كاشفة عن أسنان أطول من أنياب الضواري:

- بسرور عميق.

لم يستعلم الملك عن مصدر تلك الأساور ليس لأنه غير مكترث بتلك التي تقدمها (علماً أنها لم يكن من شأنها أن تثير فضوله) بل لأنه يشعر بجفاء يفوق الوصف إزاء تزويتون. بيد أن من المفيد أن نعلم بهذا الشأن أنه حين كان الملك عصفوراً أزرق كان قد حدثت الأميرة أنه يوجد تحت جناح قصره غرفة تدعى غرفة الأصدقاء وأنها مصنوعة ببراعة فائقة بحيث أن كل ما يقال فيها حتى لو كان خافئاً جداً يُسمع من الملك عندما يخلد للنوم في غرفته. وبما أن فلورين أرادت أن تأخذ عليه خيانتها لم تستطع أن تتخيل وسيلة أفضل من تلك الغرفة.

اضطجبت إلى الغرفة بأمر من تزويتون: وهناك بدأت شكواها

وحسراتها.

قالت:

- المصيبة التي أردتُ الارتباب فيها ليست إلا واضحة كعين الشمس. أيها العصفور الأزرق. نسيّتي، وأحببتُ غريمّتي الخسيسة! الأساور التي تلقّيتها من يدك الخائنة لم تستطع أن تعيدني إلى ذاكرتك لإمعانك في إبعادي عنها!

وعندئذٍ قطعت الشّهقات كلماتها، وعندما استجمعت قواها لتتكلم من جديد، ازدادت شكواها بأطراذٍ، متواصلة حتى طلوع الصّباح. سمعها خدام الغُرف طيلة اللّيل تنتحب وتتنهد فقالوا ذلك لترويتون التي سألت فلورين عن سبب الضّجّة التي كانت تحدّثها. فقالت لها إنّها كانت غارقة في نوم عميق وإنّها عادةً تحلم وتتكلم بصوت عالٍ. أمّا الملك فلم يسمعها قطّ وذلك بسبب مصادفة غريبة وهي أنّ الملك مُدّ أحبّ فلورين جافاه النوم، لذا ما إن يخلد ليرتاح إلى فراشه حتّى يعطونه أفيوناً يساعده على النوم. أمضت الملكة ردحاً من النهار في قلق غريب.

كانت تقول:

- إذا سمعني كيف بإمكانه أن يُظهرَ مثلَ هذه اللّامبالاة؟ وإذا لم يسمّعني فماذا أفعل لكي أتوصّل إلى إسماعه ما أقول؟  
لم تُعدّ في حوزتها أشياء نادرة خارقة، والأحجار الكريمة لا شيء يُدهش في جمالها فهي دوماً متشابهة. ولكن كان يلزمها شيء ما يثير فضولَ ترويتون: لجأت إلى البيضات التي أعطتها إياها السّاحرة. كسرت واحدة فخرجت منها عربة صغيرة من الفولاذ المصقول المزيّن بقطّع الذهب تجرّها ستّ فئران خضراء يقودها جرد زهرّي اللون، والحوذيّ كان أيضاً من فصيلة الجرذان ولونه ضارب إلى



الرّمادي الفاتح. كان في تلك العربة أربع دُميات متحرّكة أكثر نشاطاً وظرفاً من كلّ تلك التي تظهر في معارض سان جرمان وسان لوران. كانت تقوم بأشياء مدهشة، وبالتحديد كان هناك دميّتان مصريّتان صغيرتان تتفوّقان على الراقصة الشهيرة ليانس في رقصة السّرْبندة<sup>(1)</sup> ورقصة الرّجل.

مكثت الملكة منسحرةً بهذه التحفة الجديدة لفنّ السّحر والعرافة. لم تنبس بكلمة حتّى المساء الذي تقوم فيه تزويتون بنزعتها. ولجّت فلورين ممّراً وأخذت تُجري الفئران التي تجرّ العربة والجرذان والدّمى المتحرّكة. ذلك الاختراع الجديد أدهش تزويتون كثيراً فهتفت مرّتين أو ثلاثاً:

- يا وجه القذارة، يا وجه القذارة، تريدين خمسة قروش ثمناً لعربتك التي تجرّها الفئران؟  
قالت فلورين:

- إسألني الأدباء والعلماء في هذه المملكة عن قيمة هذه التّحفة وسأحتكم إلى تقدير الأكثر علماً ومعرفة بينهم.  
تزويتون التي كانت حاسمة في كلّ شيء، أجابتها:  
- من دون أن تُزعجيني لوقتٍ أطول بحضورك القذر، قولي لي ثمنها.

قالت:

- أن أنام مرّة أخرى في غرفة الأصدقاء. هذا كلّ ما أطلبه.  
أجابت تزويتون:

- اذهبي أيتها الغبيّة المسكينة، لن نرفض طلبك.  
ثمّ استدارت إلى وصيفاتها وقالت لهنّ:

(1) السّرْبندة: رقصة إسبانيّة بسيطة ثلاثيّة الإيقاع.

- هي ذي فتاة حمقاء لا تعرف كيف تكسب مغنماً من أشياءها  
النادرّة!

وإني الليل. قالت فلورين كل ما يُمكنها تصوّره من أعذب الكلام  
وأرقه، ولكنها قائتة عبثاً كما فعلت سابقاً، لأنّ الملك كان يتناول في  
كلّ مرّة أفيوناً لينام. وكان خدام الغرف يقولون فيما بينهم:  
- لا شك أنّ هذه القرويّة مجنونة: عمّ تتحدّث طيلة الليل؟  
وقال آخرون:

- ومع ذلك، فإنّ هنالك ذكاءً وشغفاً في ما تقوله.  
كانت تنتظر طلوع النهار بلهفة لكي ترى ما الوقع الذي تُحدّثه  
خطاباتها في نفس الملك.  
قالت:

- ماذا! هذا البربري يصمّ أذنيه عن سماع صوتي! ألم يعدّ يسمع  
عزيرته فلورين؟ آه! أن أظلّ على حُبّه هو ضعفٌ كبيرٌ من جانبي! كم  
أستحقّ فعلاً علامات الاحتقار التي يندبها لي!  
لكنّ كلّ هذه الأفكار غيرُ مجدّية لأنّها لا تستطيعُ الشفاء من حبّها  
له. لم يعدّ في حقيبتها إلاّ بيضة واحدة يمكنها أن تستعين بها. كسرتها  
فخرجت منها فطيرة محشوة بستّة عصافير مُحاطة بشرائح الدّهْن  
مطهّوة ومحضّرة على أفضل وجه. وفوق ذلك كانت الأعصافيرُ  
تغني بطريقتي عجيبة وتتنبأ بالمستقبل وتعرفُ الطبّ أفضل من  
أسكليبيوس<sup>(1)</sup>. بقيت الملكة منسحرةً بذلك الشيء الرائع وذهبت  
مع فطيرتها الناطقة إلى المدخل أمام غرفة تزويتون. وفيما هي تنتظرُ  
مرورها من هناك، اقترب أحدُ خدام غرفة الملك منها وقال لها:  
- يا وجه القذارّة، هل تعرفين، لو أنّ الملك لا يتناول الأفيون

(1) هو إله الطبّ في الميثولوجيا الإغريقيّة.

لكي ينامَ لَكُنْتُ أزعجته بكلامك بكلِّ تأكيد؟ لأنك تثرثرينَ طيلةَ الليلِ بطريقةٍ مذهِشةٍ.

لم تُعدِ فلورين متفاجئةً من أنه لم يسمَعها. بحثت في حقيبتها وقالت له:

- لا أحسب حقاً أنني أقطعُ على الملكِ راحتَه. إذا لم تُعْطِه أفيوناً هذه الليلة وتركتني أنامُ في غرفةِ الأصداءِ، فإنَّ كلَّ هذه اللالئِ والألماساتِ ستكونُ من نصيبك.

وافقَ خادِمُ الغرفةِ وأعطاهما كلمته. وبعدَ مُضيِّ لحظاتٍ قليلةٍ جاءتِ تزويتون. لمحتِ الملكةَ مع فطيرتها وهي تتظاهر بالرغبةِ في أكلها.

قالت لها:

- ماذا تفعلينَ هنا يا وجّه القذارة؟

أجابت فلورين:

- سيدي، أكلُ منجمينَ وموسيقينَ وأطباء.

وفي الوقت نفسه، بدأتِ العصافيرُ كلَّها في الغناءِ منشدَةً لحناً رائعاً أزوعَ من الحوريات. ثم صاحتِ العصافير:

- أعطينا القطعةَ التقديّةَ الفضيّةَ وننتبأ لكِ بمستقبلكِ.

كانَ هناك فرخٌ بطَّ صوتهُ أعلى من الآخرين يقول:

- كَان، كَان، كَان، أنا طبيبٌ أشفي جميعَ الأمراضِ وكلِّ أنواعِ الجنونِ ما عدا اعتلالِ الحبِّ.

وإذا بتزويتون، التي أدهشتها هذه الروائعُ أكثر من أيِّ شيءٍ رأتها في حياتها، تقول وهي تشتم:

- تبتاً لكِ، هذه فطيرةٌ ممتازة! أريدُ الحصولَ عليها؛ هيا، هيا، قولي لي ماذا أعطيكِ لقاءها؟

قالت:

- السَّعْرُ المَعْهُود: التَّوْمُ فِي غُرْفَةِ الْأَصْدَاءِ وَلَا شَيْءَ أَكْثَرَ.

قالت:

- خذِي، سَاعِطِيكَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً (لَأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى مِزَاجٍ طَيِّبٍ لِحُصُولِهَا عَلَى الْفَطِيرَةِ).

عِنْدئِذٍ عَمِدَتْ فُلُورِينَ، الْأَكْثَرُ فَرِحًا مِنْ أَيِّ يَوْمٍ مَضَى، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَأْمَلُ أَنْ يَسْمَعَهَا الْمَلِكُ، عَمِدَتْ إِلَى الْإِنْسِحَابِ وَهِيَ تَشْكُرُهَا. مَا إِنْ هَبَطَ اللَّيْلُ حَتَّى اصْطَحَبَهَا الْحِرَّاسُ إِلَى غُرْفَةِ الْأَصْدَاءِ، وَكَانَتْ تَتَمَنَّى بِحِمَاسٍ كَبِيرٍ أَنْ يَفِيَّ خَادِمُ الْغُرْفَةِ بِقَوْلِهِ وَيُعْطِي الْمَلِكُ بَدَلًا مِنَ الْأَفْيُونِ شَيْئًا مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مُسْتَقِظًا: وَعِنْدَمَا ظَنَّتْ أَنَّ الْجَمِيعَ نَامُوا بَدَأَتْ شَكْوَاهَا الْمَعْهُودَةَ.

كَانَتْ تَقُولُ:

- كَمْ مِنْ الْمَخَاطِرِ وَاجْتَهْتُ لِكِي أُعْثَرَ عَلَيْكَ فِيهَا كُنْتُ تَهْرُبُ مِنِّي وَتُرِيدُ الْإِقْتِرَانَ بِتُرُوتُونَ! مَاذَا فَعَلْتُ لَكَ أَيُّهَا الْقَاسِي الْقَلْبُ لِكِي تَنْسَى وَعُودَكَ؟ تَذَكَّرْ امْتِسَاخَكَ وَعَظْفِي عَلَيْكَ وَأَحَادِيثِي الرَّقِيقَةَ. وَأَعَادَتْ اسْتِذْكَارَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا بِذِكْرَةِ تَثْبُتِ أَنْ لَا شَيْءَ أَعْلَى عِنْدَهَا مِنْ هَذِهِ الذِّكْرَى.

لَمْ يُعُدْ بِإِمْكَانِ الْمَلِكِ النَّوْمُ وَكَانَ يَسْمَعُ بِكَامِلِ الْوَضُوحِ صَوْتَ فُلُورِينَ وَكُلَّ كَلِمَاتِهَا دُونَ أَنْ يَفْهَمَ مَصْدَرَهَا. لَكِنَّ قَلْبَهُ الْمَغْمُورَ بِالْحَنَانِ أَعَادَ لَهُ بِشَغْفٍ صُورَةَ أَمِيرَتِهِ الَّتِي لَا مِثِيلَ لَهَا، فَأَحْسَنَ بِإِفْتِرَاقِهِ عَنْهَا بِالْأَلْمِ نَفْسَهُ حِينَ جَرَّحَتْهُ السَّكَاكِينُ عَلَى السَّرْوَةِ. أَخَذَ يَتَكَلَّمُ مِنْ جَانِبِهِ كَمَا فَعَلَتْ فُلُورِينَ مِنْ جَانِبِهَا.

قال:

- آه! أَيْتِهَا الْأَمِيرَةُ الْعَدِيمَةُ الرَّحْمَةِ بِالنِّسْبَةِ لِعَشِيقِ كَانِ يَحِبُّكَ

بشغف! هل يُعقل أن تكوني ضحيتِ بي على مذبح عدوتينا  
المشركتين؟

سَمِعَت فلورين ما كان يقوله ولم تتوانَ عن إجابته وإبلاغه بأنه إذا  
أراد التحدّث إلى وجه القذارة فسيقدر على استيضاح جميع الأسرار  
التي لم يستطع جلاءها حتّى ذلك الوقت. على هذه الكلمات، نادى  
الملك المتلهّف أحد خدّام غرفته وسأله إذا كان بإمكانه العثور على  
وجه القذارة وجلبها إلى هنا. فأجابه الخادم أن لا شيء أسهل من  
ذلك لأنّها كانت تنام في غرفة الأصدقاء.

احترار الملك في أمره. كيف بالإمكان الظنّ أن تكون ملكة عظيمة  
مثل فلورين متنكرة بزّي فتاة قدرة؟ وكيف الظنّ أيضاً أنّ الفتاة  
المدعوّة وجه القذارة تملك صوت الملكة نفسه وتعرف أسراراً خاصّة  
جداً أللهمّ إن لم تكن هي نفسها الملكة؟ نهضَ والشكّ يعمتل في  
داخله وارتدى ثيابه على وجه السرعة ونزل عبر سلّم خفيّ إلى غرفة  
الأصدقاء التي كانت الملكة قد نزعت مفتاحها لكنّ الملك كان لديه  
مفتاح يفتح كلّ أبواب القصر.

كانت ترتدي ثوباً رقيقاً من التفتا الأبيض تحت ملابسها الرثة.  
وكان شعرها الجميل يغطّي كتفيها. كانت مضطجعة على سرير صغير  
وفي الغرفة مصباح بعيد قليلاً ينشر نوراً خافتاً. دخل الملك بغتةً وقد  
تغلّب على ضغيفته، وما إن تعرّف إليها حتّى جاء ليرتمي عند قدميها  
وبلّل يديها بدموعه. أحسّ أنّه سيموت فرحاً والمأ وأنّ رأسه كان  
مزدحماً بأفكار متلاطمة. واضطربت الملكة أيضاً لدى رؤيته. انقبض  
قلبها، وبالكاد استطاعت التنهّد. شخصت إلى الملك دون أن تقول  
له شيئاً، وعندما تسلّحت بالقوّة للتحدّث إليه لم تمتلك القدرة لتبوح  
له بما أخذها عليه. فإنّ فرحة اللقاء به مجدداً أنستها لبعض الوقت كلّ

مواضيع الشكوى التي اعتَمَلت في نفسها تجاهه. وأخيراً، استوضحا مسائلهما وبرزتا وجهات النظر لديهما فاستيقظ حنانها الهاجع في قلبيهما. لكنّ كلّ ما كان يزعجهما هو السّاحرة سوسيو.

ولكن في تلك اللّحظة وصل السّاحر، الذي كان يحبّ الملك، وبصحبتِه جنّية شهيرة: كانت بالضبط تلك التي أعطت البيضات الأربع لفلورين. بعد المجاملات الأولى، أعلن السّاحر والجنّية أنّهما وحدًا قدرتِيهما لصالح الملك والملكة، وأنّ سوسيو لم تعد تستطيع فعل شيءٍ تجاههما، وبذلك لن يعيق زواجهما أيّ تأخير.

من السّهل تصوّر فرحة هذين العشيقين السّابّين: ما إن طلع الصّباح حتّى أذيع الخبر في كلّ القصر وكان الجميع مغتبطاً برؤية فلورين. هذه الأخبار تناهت إلى مسامع تزويتون فهُرعت هذه لدى الملك، وبإدهشتها عندما رأت هناك غريمتها الجميلة! ما إن أرادت أن تفتح فمها لتنفّوه ببعض الشتائم حتّى ظهر السّاحر ومعه الجنّية فحوّلاها إلى سمكة تروته، ليبقى لها على الأقلّ جزء من اسمها ومن طبعها الكثير من التّوبيخ. وفَرّت وهي لا تزال تهمهم حتّى حظيرة الحيوانات حيث رافقتها القهقهات السّاخرة منها مجهزةً على كلّ أملٍ لديها.

وهكذا فإنّ الملك فتّان والملكة فلورين، وقد تخلّصا من ذلك الشّخص اللّعين، لم يعودا يفكران إلّا بالاحتفال بعرسهما، الذي لم يغب عنه لا التّائق ولا الأثمة. ويسهل تصوّر الغبطة التي غمرتها بعد كلّ ذلك الشّقاء الطّويل.

عندما تاقت تزويتون إلى الزّواج بفتّان

وأرادت، دون أن تستطيع نيل إعجابه،  
أن ترتبط بهذا الرباط  
الذي وحدَه الموت قادر على حلّه  
لكم كانت متهورّة في ذلك للأسف!

لا شكّ، كانت تجهل أن زواجاً كهذا  
لا يكمله الحبّ بجناحيه  
يصبح عبوديّة مشؤومة  
وأجد أنّ فتان كان حكيماً برفضه.

في رأيي، من الأفضل بكثير  
أن يكون المرء عصفوراً أزرق لا بل وأن يصير بومة  
على أن يكابد المأماً ما بعده ألم  
برؤية من يكرهه شريكاً لحياته.

هذه الزيجات الأثمة وما أكثرها في عصرنا:  
عسى أن يحول ساحرٌ لبقٌ دونها  
مانعاً كلّ قرانٍ قائم على مصلحةٍ أو نزوة  
بين قلبين تاعسين غير متحابّين.





## الأمير عفريت

كان يا ما كان، كان هناك ملك ومملكة ليس لديهما إلا ابنٌ يُجْتَانِه بِشَغْفٍ رَغْمَ هَيْئَتِهِ الْقَبِيحَةِ جَدًّا. كان أضخم من أكثر الرجال سُمْنَةً وَأَقْصَرَ قَامَةً من أقصر قَزَمٍ. لكن لم تكن قباحة الوجه وتشوّه الخِلْقَةِ بشيءٍ مقارَنَةً مع سوء الخُلُقِ. منذ سنّته الأولى كان عنيداً كحمار، مثيراً استياءَ الجميع وخيبَتَهُمْ. لاحظَ الملك ذلك، لكنّ أمّه الملكة كانت تحبّه بجنون. ولقد ساهمت في إفساده بمجاملاتها الفاضحة التي كانت تكشف له عن مدى ما له عليها من سلطان. فإذا أراد أحدٌ التودّد لها لم يكن عليه إلا أن يقول لها إنّ ابنها جميل وذكيّ. أرادت أن تعطيه اسماً يوحى بالاحترام والخشية. وبعد أن بحثت طويلاً، أسمته: غضبان.

وعندما صارَ بِعُمُرٍ أن يؤتى له بِمَرَبِّ، اختارَ الملك أميراً كان يملك حقوقاً قديمة على المملكة وكان سيدافع عنها كرجل شجاع لو أنّ أعماله كانت أفضلَ حالاً، ولكن منذ زمنٍ طويل لم يعد يفكر بالأعمال، بل كان كلّ دأبه منصّباً على تربية ابنه الوحيد بمقتضى الأصول. لم يكن أحدٌ يُضاهي ذلك الأميرَ في جمالِ سجيّته وذكائه المتوقّد العميق وروحِهِ المطيعة الوادعة. كان كلّ ما يقوله مَصوغاً بشكل ملفتٍ ويتسم بالطرافة. كان شخصهُ بأكمله كاملاً.

وقد اختارَ الملك ذلك السيد الكبير ليرشد الأميرَ غضبان في صباه. وأمّر ابنه بأن يكونَ مُطيعاً مُنصاعاً لأوامر مرّبه. لكنّ غضبان كان عصياً يمكن ضربه بالسّياط ألف مرّة دون أن يُصارَ إلى تأديبه. كان لدى مرّبه ابن يدعى لياندر وكان محبوباً من الجميع. كانت السيدات

ينظرون إليه بعين الود والإعجاب، لكنه لم يتعلق بأية واحدة منهم. فكأن يدعوته الجميل اللامبالي. كن مُخَاصِمَنَّهُ ومُجَاهِدَنَّهُ لكن دون أن يستطعن تغيير تصرفاته. وهو لم يكن يفارق غضبان إطلاقاً. ولم تكن تلك الصَّحْبَةُ تَلَطَّفُ من النفور الذي يثيره غضبان لابل تزيد منه. لم يكن هذا الأخير يقرب من السيدات إلا ليقول لهن كلمات جارحة: تارة يقول عنهن إن ثيابهن رديئة وطوراً بأنهن يبدون ريفيات. كان يتهمهن أمام الجميع بأنهن متبرجات، ولم يكن يحب أن يعرف عن أسرارهن إلا ليحكىها للملكة فتوثبهن أو تجعلهن يصمن عن الطعام لمعاقبتهن. كل ذلك كان السبب في كرههن الفظيع لغضبان. وكان غضبان يلاحظ ذلك جيداً فيوجه الملامة دوماً للياندر اليافع قائلاً له وهو ينظر إليه شزراً:

- أنت محظوظ جداً فالسيدات النبيلات يمتدحنك ويوافقن على ما تقوله. وليس يتصرفن معي على نحو مماثل.

فيجيبه بتواضع:

- يا سيدي، إن الاحترام الذي يُبدينه لك يَمْنَعُهُنَّ من التقرب منك.

ويقول غضبان:

- حسناً يفعلن لأنني سأضربهن ضرباً مبرحاً لأعلمهن كيف يؤدبن واجباتهن.

وذات يوم وصل فيه سفراء من مكان بعيد جداً؛ فمكث الأمير برفقة لياندر في أحد الممرات وأخذ يراقبهم وهم يمرّون. ما إن لمح السفراء لياندر حتى تقدّموا وانحنوا أمامه بإجلال كبير معبرين بإيماهم عن مقدار إعجابهم به. ثم نظروا إلى غضبان فظنوا أنه قزم تابع له. فأمسكوه من ذراعِهِ وقتلوه مرّات رغم استيائه منهم.

كان لياندر في غَمْرَةِ اليأس. اسْتَمَاتَ ليقول لهم إنَّ غضبان هو ابن الملك فما كانوا يستمعون إليه. ولسوء الحظَّ كان التَّرجمان قد ذهبَ لينتظِرَهم عند الملك. وإذ عرف لياندر أنَّهم لا يفهمون شيئاً من إشاراتِه أخذ يُغالي في تواضعه أمام غضبان، وإذ ذاك خالَ السُّفراء وكذلك مرافقوهم أنَّ تلك لعبة فضحِكوا حتَّى التوتَ خواصرُهم، وأرادوا أن يمازحوا غضبانَ بِنَقْفَاتٍ على الخدَّين والأنف كما هو معمولٌ به في بلادهم. عندئذٍ، استلَّ ذلك الأمير اليأس سيفه القصيرَ الذي لم يكن يتعدَّى طولُه مهقَّة اليد، وكاد أن يرتكب حماقة لو لم يأت الملك للقاءِ السُّفراء ومكثَ منذهلاً تماماً من موقف ابنه الغاضب. اعتذر منهم، لأنَّه كان يعرفُ لغتَهم، فأجابوه إنَّ الأمر ليسَ بخطيرٍ وأنَّ ذلك القزمَ الصَّغيرَ المرعَبَ الذي يرافقه سيء المزاج ليس إلا. فحزنَ الملك حزناً شديداً لأنَّ هيئته ولده القبيحة وتصرفاته الغريبة جعلت الآخرين لا يُلقونَ له بالاً.

عندما غابوا عن نظره، أمسك غضبان بلياندر من شعره وانتزعَ منه حفنة أو حفتين. وكان سيخنقه لو أنَّه استطاعَ إلى ذلك سبيلاً. وحظَرَ عليه الظهورَ ثانيةً برفقته. شعرَ والد لياندر بالإهانة من جزاء تصرف غضبان فأرسلَ ولده إلى قصر كان يملكه في الرِّيف. وهناك وجد لياندر ما يشغله فهو يهوى صيدَ العصافير والأسماك والنزهات. كما أنَّه يُتقنُ الرَّسمَ ويقرأ كثيراً ويعزف على أدواتٍ عدَّة. وألقى نفسه سعيداً لكونه غيرَ مرغمٍ على التودد إلى أميره النزق، وبالرغم من الوحده فإنَّه لم يشعر بالملل قط.

وذات يوم شديد القيظ، ذهب يتنزّه في حدائق القصر، ثم دخلَ إلى غابة صغيرة مُدغلةً بأسقة الأشجار فاستظلَّ بفيئها هائناً. وأخذ يعزف على المزمارِ لكي يتسلى. وعندئذٍ أحسَّ بشيءٍ يلتفتُ مرَّاتٍ

عدّة على ساقه ويضغط عليها بقوة. فنظرَ إلى ساقه لِيَتحرّى عن الأمر وتفاجأ برؤية أفعى ضخمة. تناول منديله وأمسكها من رأسها هاماً بقتلها ولكنها التفت أيضاً حول باقي جسده وذراعه محدّقة إليه وكأنها تطلب الرّحمة. وحينئذٍ وصلَ أحد البساتنة في القصر فصرخَ منادياً سيّده ما إن لمَح الأفعى:

- يا سيّدي أمسكها جيّداً، منذ ساعة وأنا أطارُدها لأقتلها؛ ليس هناك ما هو أشدّ دهاءً ومكراً منها، وهي تعيثُ خراباً في رياضنا. نظرَ لياندر مرّة أخرى إلى الأفعى المرقّشة بألف لونٍ مدهش؛ ألفاها تتابع التّحديق إليه ولا تهتمّ بأية حركة للدّفاع عن نفسها. قال للبستانيّ:

- بما أنّك أردتَ قتلها وجاءت لتلتجئَ إليّ، فأنا أمنعك من أن تتسبّب لها بأيّ أذى. أريد أن أطعمها، وعندما تلحع جلدّها سأتركها تذهب في سبيلها.

عاد إلى المنزل ووضعها في غرفةٍ كبيرةٍ احتفظ بمفتاحها وجلبَ لها النّخالة والحليب والأزهار والأعشاب لإطعامها وتدليلها: يا لها من أفعى محظوظة! وكان يذهب أحياناً لرؤيتها. ما إن تراه حتّى تأتي إلى لقائه زاحفةً وتقوم بكلّ الحركات الطّريفة الرّشيقة التي يمكن لأفعى القيام بها، ما أدهش ذلك الأمير لكنّه لم يكن يعيرها اهتماماً كبيراً.

حزنت كلّ سيّدات البلاط لغيابه. كنّ يتحدّثن فقط عنه ويرغبن في عودته.  
كنّ يقلن:

- يا للأسف! لم يعد هناك شيء ممتع في القصر منذ رحيل لياندر. غضبان الشرير هو السبب. أمّن المعقول أن يُضمّر له الشرّ ولا ذنب

له سوى أنه مُحِبٌّ وَمُحَبٌّ أَكْثَرُ مِنْهُ؟ وَهَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَشُوهُ قَامَتَهُ وَوَجْهَهُ لَكِي يَرُوقَ لَهُ؟ أَتُرَاهُ يَجِبُ أَنْ يَلْوِي عِظَامَهُ وَيَشُقَّ فَمَهُ حَتَّى أذْنِيهِ لَكِي يَصْبِحَ شَبِيهَهُ؟ أَوْ أَنْ يُصَغَّرَ عَيْنِيهِ وَيَقْتَلِعَ أَنْفَهُ؟ إِنَّ غَضْبَانَ هُوَ فِعْلًا قَرْدٌ ظَالِمٌ لَنِيْمٍ! لَنْ يَفْرَحَ أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ لِأَنَّهُ لَنْ يَجِدَ مَنْ هُوَ أَقْبَحَ مِنْهُ!

ومهما يكن الأمراء أشراراً إلا أنهم يجدون دوماً مدّاحين يتملقونهم، لا بل إنّ الأمراء الأشرار مُحاطُونَ بالمتزلفين أكثر من سواهم. وكان لغضبان مدّاحوه. ثم إنّ سلطانه على أمه الملكة جعله مهيباً. روى له ما قالته سيّدات القصر فانتابه غضب مسعور ودخل إلى غرفة الملكة قائلاً لها إنّه سيقتل نفسه أمام عينيها إذا لم تجد طريقة تقضي فيها على لياندر. أجابته، وكانت تكره لياندر لأنّه أجهل من ابنها السعدان، أنّها تعتبره خائناً منذ زمن طويل وتفكر بوسيلة للقضاء عليه. فليذهب غضبان مع أصدقائه الحميمين إلى الصيد، وعندئذ سيأتي لياندر فيعلموه عاقبة أن يكون محبوباً من الجميع.

ذهب غضبان إلى الصيد؛ وعندما سمع لياندر نباح كلاب وصدح أبواق في الغابات المحيطة بقصره، امتطى حصانه وذهب ليرى ماذا هنالك. اندهش كثيراً للقاء غير المتوقع بالأمير غضبان. ترجل عن حصانه وحيّاه بإجلال. استقبله غضبان أفضل ممّا كان يتوقع وقال له أن يتبعه. وللحال التفت وأشار للقتلة بأن يقضوا عليه. ولكنه ما إن ابتعد مسافة كبيرة حتى خرج أسد ذو ضخامة هائلة من عمق عرينه وانقضّ عليه ورماه أرضاً. عندئذٍ لازم مرافقوه بأذيال الفرار وبقي لياندر وحده يصارع ذلك الحيوان الضاري. هاجمه والسيف بيده، وأوشك أن يلتهمه الوحش. وهكذا أنقذ ببئله ومهارته الد أعدائه. أغمى على غضبان من الخوف وأغاثه لياندر بعناية مدهشة. وعندما عاد إلى رشده قليلاً، قدّم له حصانه ليغتاليه. لو لم يكن غضبان

جاحداً لَشَعَرَ في الحالِ بامتنانٍ عظيمٍ وأبدى جزيل الشكر ولَبَادَرَ  
 لفعلِ أشياء جميلة أو لقولِ كلامٍ طيبٍ. لكن لا شيء من هذا كله.  
 لم تبدر منه التفاتة واحدة إلى لياندر ولم يستخدم حِصانه إلا ليلحق  
 بالقتلة ويأمرهم مجدداً بأن يقتلوه. فأحاطوا بلياندر وكان سيقتل لا  
 محالة لولا تحلّيه بشجاعةٍ فائقة. احتَمَى بشجرة مستنداً إليها لكي لا  
 يُهاجم من الخلف وانقضَّ على أعدائه كمن فقد كلَّ أمل في الحياة.  
 ظنَّ غضبان أنه مات فَسَارَعَ بالمجيء لِيَتَمَتَّع بمنظره ميتاً لكنَّ مشهداً  
 آخر كان بانتظاره: رأى كلَّ أولئك السَّفلة يلفظون أنفاسهم الأخيرة.  
 عندئذٍ تقدَّم لياندر نحوه وقال له:

- يا سيّدي إذا كانوا يريدون قتلي بأمرٍ منك فاعذرنى لأنني  
 دافعت عن نفسي.

فأجابهُ الأميرَ غاضباً:

- أنت وقحٌ وإذا رأيتك مرّة ثانية فسأمر بقتلك.

لم يُجب لياندر بشيء بل عادَ إلى القصر حزيناً جداً وأمضى الليل  
 يفكر بما سيتوجب عليه فعله لأنّه لم يكن وارداً لديه أن يواجه ابن  
 الملك. وصمّم على القيام برحلة حول العالم، لكنّه، وهو على أهبة  
 الرّحيل، تذكّر الأفعى فحملَ إليها الحليب والفواكه. وعندما فتح  
 الباب، أبصرَ نوراً سنياً يلتمعُ في إحدى زوايا الغرفة. ذهب ليتحرّى  
 عن الأمر ودُهِشَ من وجودِ سيّدة جلييلة بهيئةٍ يشي مظهرها بنبالة  
 مولدها. كان ثوبها من السّاتان القرمزيّ المطرّز بالألماس واللّؤلؤ.  
 تقدّمت نحوه بلطفٍ وقالت له:

- أيها الأمير الشاب، لا تبحث هنا عن الأفعى التي أخضرتّها،  
 لقد رحلت. لقد حللتُ محلّها لكي أعوّضَ لك عمّا تدين به إليك.  
 ولكن يجب أن أكلمك بوضوحٍ أكبر. اعلم أنّي الجنيّة لطيفة، هذا

هو اسمي، وأنا شهيرة بالحيل التي تقوم على البراعة والدعابة؛ نحن نعيش مائة عام دون شيخوخة ولا مرض ولا أحزان ولا هموم. بعد انقضاء مائة عام، نصبح أفاعي لمدة ثمانية أيام نواجه خلالها فقط مصيراً مشؤوماً لأنه لا يمكننا التكهن بالمصائب التي تُحدق بنا ولا الحؤول دونها. وإذا صدف وقتلنا أحدًا لا نعود إلى الانبعاث مجددًا، وبعد انقضاء الثمانية أيام هذه، نعود إلى هيتتنا السابقة ونستعيد جمالنا وقدراتنا وكنوزنا. أنت تعلم الآن يا سيدي الواجبات المترتبة عليّ تجاهك ومن العدل أن أردّ لك الجميل. قل لي ما تتمناه فأجعله يتحقّق في الحال.

مكث الأمير الشاب مندهشاً عاجزاً عن الكلام لوقتٍ طويل فهو لم تكن له أية علاقة بالجنّيات حتّى ذلك الحين. انحنى أمامها بإجلالٍ عميق وقال لها:

- سيّدي، بعد الشرف الذي أوّلتيني إياه لخدمتك، يبدو لي أنّه ليس لديّ ما أطلبه منك.

أجابت:

- يحزنني فعلاً ألاّ تطلب منّي تقديم خدمة لك. فكّر أنّي أستطيع أن أجعلك ملكاً عظيماً، أو أطيلَ عمركَ أو أجعلك محبوباً أكثر، أو أهبك مناجم من الألماس ومنازل مليئة ذهباً. أستطيع أن أجعلك خطيباً مفوهاً أو شاعراً أو موسيقياً أو رسّاماً. أستطيع أن أجعلك تهوى نساءً أو تزيد ذكاءك. أستطيع أن أجعلك عفريتاً فضائياً ومائياً وبرياً.

وعندئذٍ قاطعها لياندر وقال:

- اسمحي لي يا سيّدي أن أسألك بمّ يفيدني أن أكون عفريتاً؟  
أجابت الجنّيّة:

- بألفٍ شيءٍ نافعٍ وجميلٍ. تستطيع الاختفاء ساعةً تشاء وتجتاز في لحظةٍ فضاء الكونِ الرَّحْبِ. ترتفع دون أن يكون لديك أجنحةٌ وتذهب إلى آخر الأرض دون أن تموت وتخرقَ لجج البحر دون أن تغرق. تدخل حيثما تشاء رغم التوافدِ والأبواب المغلقة، وما إن ترى اللحظة ملائمةً حتى تستطيع الظهورَ بمظهرك الطبيعيِّ.

هتف:

- آه يا سيدي أختار أن أكون عفريتاً. أنا على أهبة القيام برحلةٍ وأتخيل ملذاتٍ لا نهاية لها يمنحني إياها العفريت وأفضل أن أصيره على كل الأشياء الأخرى التي عرضتها عليّ بسخاء.

أجابت لطيفة وهي تمرّ يدها ثلاث مرّاتٍ حول عينيه ووجهه:

- كنْ عفريتاً محبوباً، كن عفريتاً محبباً، كن عفريتاً ذكياً.

ثم قبلته وأعطته قبعة صغيرة حمراء مزدانة بأرياش الببغاء. قالت

له:

- عندما تنزعها تُصبح مرثياً.

أدخل لياندر مبتهجاً القبعة الصغيرة الحمراء في رأسه ورغب في الذهاب إلى الغابة ليقطفَ وروداً بريّة كان رآها من قبلُ ولفتت نظره. انتقلَ إلى الغابة عبر النافذة مرفرفاً مثل عصفور. لكنّه أحسّ بشيءٍ من الخوف عندما رأى نفسه يعلو ويمتاز النهر. خاف من السقوط فيه وأن تعجزَ قدرة الساحرة عن حمايته لكنّه ألقى نفسه لحسن الحظّ عند أسفل شجرة الورد فقطف ثلاث وردات وعاد في الحال إلى الغرفة التي كانت لا تزال الجنيّة موجودة فيها فقدّمها لها مبتهجاً بالتجربة التاجحة التي قام بها. قالت له أن يحتفظ بتلك الوردات لأنّ الوردة الأولى تزوده بالمال الذي سيحتاج إليه؛ والوردة الثانية تنبئه بوفاء عشيقته له إذا وضعها على صدرها؛ والوردة الثالثة



تقيه شرّ الأمراض. ثم، من دون أن تنتظر عبارات الشكر تمت له رحلة موفقة واختفت.

ابتهج أيما ابتهاج بالهبة الجميلة التي منحت له للتوّ.

كان يقول في نفسه:

- من كان سيفكر أنّ إنقاذي لأفعى مسكينة من بين يدي البستانيّ سيعود عليّ بهذه المنافع النادرة العظيمة؟ آه كم سيكون ذلك مدعاة للسرور وكم من اللحظات الرائعة تنتظرني! كم سأعرف من الأشياء! ها أنا غير مرثي. وستكون لديّ القدرة على معرفة أكثر المغامرات سرية.

فكر أيضاً أنّه يُحسّن صنيعاً إذا انتقم قليلاً من غضبان وسرعان ما جهّز أمتعته واعتلى أجمل حصان في اسطبله ويدعى أشهب، متبوعاً ببعض خدامه المرتدين الكسوة الموحدة، وذلك لكي يشيع خبر عودته بسرعة أكبر.

ينبغي أن نعلم أنّ غضبان، الذي كان كذاباً، قال إنّه لولا شجاعته لكان لياندر قتله أثناء الصيد؛ وإنه قتل كل مرافقيه، لذا يريد أن يُصار إلى محاكمته. وكان أبوه الملك قد ألحقت عليه الملكة بالمطالبة بلا كلل، فأعطى الأوامر بالذهاب لاعتقال لياندر وبأن يُخطر غضبان بذلك؛ لأنّ غضبان كان أجبن من أن يذهب لإحضاره بنفسه. هرع إلى غرفة والدته وقال لها إنّ لياندر وصل للتوّ وإنه يتوسل إليها كي يُصار إلى اعتقاله. ولم تتورّع الملكة، وهي لا ترفض لابنها طلباً، عن الذهاب إلى الملك. تبعها الأمير المتلهّف لمعرفة القرار الذي سيؤخذ دون أن ينبس بكلمة. توقف أمام الباب مقرّباً أذنه ومبعداً خصلات شعره ليستسنى له الاستماع بدقة أكبر. وعندئذ دخل لياندر في قاعة القصر الكبيرة؛ اعتمر القبعة الحمراء فأصبح غير مرثي. ما إن لمح غضبان

يُصِيخ السَّمعَ حَتَّى أَخَذَ مَسْهَرًا وَمَطْرَقَةً وَسَمَّرَ أُذُنَهُ إِلَى الْبَابِ .  
أَخَذَ غَضْبَانَ يَتَخَبَّطُ يَأْسًا وَيَسْتَشِيْطُ غِيْظًا وَيَقْرَعُ الْبَابَ مِثْلَ مَجْنُونٍ  
مُطْلَقًا صَرَخَاتٍ مَرْوَعَةٍ . هُرَعَتِ الْمَلِكَةُ لَدَى سَمَاعِهَا الصَّوْتِ لَتَفْتَحَ  
الْبَابَ . كَادَتْ تَقْتَلِعُ أُذُنَ وَلَدِهَا . كَانَ يَنْزِفُ وَكَأَنَّهُ نُحِرٌ لِلتَّوِّ وَعَلَى  
وَجْهِهِ تَكْشِيرَةٌ مَرْعَبَةٌ . حَضَّتَتْهُ الْمَلِكَةُ الْمَفْجُوعَةُ وَأَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى أُذُنِهِ  
وَقَبَلَتْهَا وَضَمَدَتْهَا . أَمْسَكَ عَفْرِيَتِ حَزْمَةً مِنَ الْقَضْبَانِ تُسْتَعْدَمُ لَجَلْدِ  
كِلَابِ الْمَلِكِ الصَّغِيرَةِ وَأَخَذَ يَضْرِبُ بِهَا يَدِي الْمَلِكَةِ وَ«خَطَمَ» ابْنَهَا  
فَصَرَخَتْ مُطَالِبَةً بِأَنْ يُقْبِضَ عَلَى الْمُعْتَدِي وَيُصْرَعَ . نَظَرَ الْمَلِكُ مِنْ  
حَوْلِهِ وَهُرِعَ الْجَمِيعُ وَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا . وَأَخَذُوا يَتَهَامَسُونَ بِأَنَّ الْمَلِكَةَ  
جُنَّتْ مِنَ الْأَلْمِ لِرُؤْيَيْهَا أُذُنَ غَضْبَانَ مَقْطُوعَةً . وَكَانَ الْمَلِكُ أَوَّلَ مَنْ  
صَدَّقَ مَا يُقَالُ فَتَحَاشَاهَا عِنْدَمَا أَرَادَتْ الْإِقْتِرَابَ مِنْهُ : كَانَ ذَلِكَ  
الْمَشْهُدَ مِمْتَعًا جَدًّا . وَأَخِيرًا وَجَّهَ الْعَفْرِيَتِ الصَّالِحَ أَلْفَ ضَرْبَةٍ أُخْرَى  
لِغَضْبَانَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ وَمَرَّ فِي الْحَدِيقَةِ جَاعِلًا نَفْسَهُ مَرْتِيًّا .  
ذَهَبَ بِكُلِّ جَسَارَةٍ لِيَقْطِفَ مِنَ الْكَرْزِ وَالْمَشْمَشِ وَالْفِرَاوِلَةِ وَالْأَزْهَارِ  
الْمَوْجُودَةِ فِي بَسْتَانِ الْمَلِكَةِ : كَانَتْ تُصَرُّ عَلَى أَنْ تَسْقِيَهَا بِنَفْسِهَا وَكُلَّ مَنْ  
مَسَّهَا قُضِيَ عَلَيْهِ فَوْرًا . فَوَجَّى الْبَسَاتِنَةَ بِتَصَرُّفِهِ كَثِيرًا وَجَاءُوا يَقُولُونَ  
لِجَلَالَتِي الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ إِنَّ الْأَمِيرَ لِيَانَدِرَ يَجْرِدُ الْأَشْجَارَ مِنْ ثَمَارِهَا  
وَالرَّوْضَةَ مِنْ أَزْهَارِهَا .

هتفت الملكة:

- يَا لِلْوَقَاخَةِ! يَا صَغِيرِي غَضْبَانَ! يَا طِفْلِي الْعَزِيزِ، تَنَاسَّ لِبَعْضِ  
الْوَقْتِ أَلَمْ أُذْنِكَ وَسَارِعْ لِمُعَاقِبَةِ هَذَا الْوَعْدِ . خَذْ حِرَّاسَنَا وَفِرْسَانَنَا  
وَجُنُودَنَا وَحَاشِيَةَ الْمَلِكِ . تَقَدَّمْهُمْ وَاقْبِضْ عَلَيْهِ وَمَرْقَهُ إِرْبًا .  
مَدْفُوعًا بِأَمِّهِ وَمَصْحُوبًا بِأَلْفِ رَجُلٍ مَدَّجِّجِينَ بِالسَّلَاحِ ، دَخَلَ  
غَضْبَانَ إِلَى الْحَدِيقَةِ وَرَأَى لِيَانَدِرَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَرَمَاهُ بِحَجَرٍ كَسَرَ

ذراعَه وهاجم باقي فريقه بأكثر من مائة برتقالة. أرادوا الرّكض  
بأتجاهه ولكنّه غاب عن نظرهم في الحال. انزلق خلف غضبان الذي  
كانت ذراعُه المكسورة توجعه، ومَرَّرَ حبلًا بين ساقَيْهِ فسقطَ على أنفه  
فزُفِعَ ومُجِلَّ إلى سريره متهاكًا من الألم.

شعر لياندر بالرضا والتشفي لانتقامه ذاك فعادَ إلى حيث ينتظره  
رجالُه. أعطاهم مالاً وأعادهم إلى قصره، غيرَ راغِبٍ في اصطحابِ  
أحدٍ معه لأنّه يريد إبقاء أسرار القبّعة الصّغيرة الحمراء والورود طيِّ  
الكتّان. امتطى حصانه الجميل الذي يُدعى أشهب وسارَ على غير  
هدى مجتازاً غاباتٍ وسهولاً ونجوداً وأودِيّة لا عدّها. كان يرتاح  
من وقتٍ لآخر ليأكل أو ينام دون أن يصادف في طريقه ما هو جدير  
بالاهتمام. وأخيراً وصلَ إلى غابة فتوقّف فيها ليستظّل بأفائها قليلاً  
لأنّ حرارة الطقس كانت مستعرة.

وفي وقتٍ ما، سمع تنهداً ونحيباً فالتفت من كلّ الجهات ولمَحَ  
رجلاً يركض ثم يتوقّف ويصرخ، ثم يصمّت ليعود وينتزِعُ شعره  
ويلطمُ نفسه دون توقّف. فقال في نفسه إنّه لا شكّ رجلٌ تعيس مختلّ  
العقل. بدا حسنَ الهيئة يافعاً، ويرتدي ثياباً بديعةً لكنّها ممزّقة تماماً.  
فاقتربَ منه الأمير وقد أثارَ مشهدُ الرجل استعطافه قائلاً:

- أراك في حالٍ يُزئني لها ما يدفّعني إلى أن أسألك عن السبب  
مقدّمًا لك خدماي.

فأجاب هذا الشاب:

- آه يا سيدي! إنّ حالتي ميؤوسٌ منها. اليوم ستقدم عشيقتي  
الغالية ضحيّة لشيخٍ طماعٍ لديه مال كثير لكنّه سيجعلها أتعس امرأة  
في الوجود.

قال لياندر:

- وهل تحبّك؟

فأجاب:

- نعم تحبّني.

وتابع الأمير:

- وأين مكانها؟

فأجاب العاشق:

- في أحد القصورِ عندَ تخومِ هذه الغابة.

فقال لياندر:

- حسناً، انتظري هنا، قليلاً وآتيكِ بأخبارٍ تُثلجِ صدرك.

وعلى الفور، اعتَمَرَ القُبعة الحمراء الصغيرة وتمنى أن يصيرَ في القصر. لم يكذُ يصل إليه حتّى سمعَ موسيقى السّمفونيّة العذبة. ولدى وصوله كانت الكمنجاتُ والآلات الموسيقيّة تدوّي في أرجاءِ القصر. دخلَ إلى قاعة استقبالٍ فسيحة مليئة بأقارب الشيخ والأنسة الشابة وأصدقائهما. كانت ولاأظرف، لكنّ شحوبَ وجهها والكآبة البادية عليه والدموع التي تنهمر من عينيها من وقت لآخر تُشي بتعاسيتها.

حينئذٍ تحوّل لياندر إلى عفريت. انتحى ركناً لمراقبة الحضور. رأى والدَي الفتاة الجميلة يؤثبانها بصوتٍ خفيضٍ على السيّء العابسة التي كانت تتخذها. ومن ثمّ عادا إلى مكانيهما. وقف عفريت خلف الأم ثم اقتربَ من أذنها وقال لها:

- بما أنّكِ ترغمينَ ابنتكِ على الزواج بهذا السعدان الهرم، فثقي أنّك ستلقين عقابك وتموتين قبلَ انقضاء ثمانية أيام.

ذُعرت المرأة لسماها الصوت الذي لم ترَ أحداً ينطق به والتهديد الذي وجهه إليها فأطلقت صرخةً عالية وسقطت أرضاً. سأها

زوجها عما بها. هفت قائله إنه سيقضى عليها إذا تمّ زواج ابنتها وإتها  
 لن تسمح بذلك الزواج لقاء كل كنوز العالم. أراد الزوج الهزء منها  
 واصفاً إياها بأنها تتصرف وكأنها رائية. لكن عفريتاً اقترَب منه قائلاً:  
 - أيها الشكاك العجوز إذا لم تصدق زوجتك فإن هذا سيكلفك

حياتك أنت أيضاً، أبطل زواج ابنتك وزوجها بسرعة من تحب!  
 وكان لهذه الكلمات أثرها التاجع. وطرد العريس في الحال. قيل  
 له إن إبطال الزواج جاء تنفيذاً لأوامر صدرت من عل. ارتاب في  
 ما يقال وأراد المماحكة. لكن عفريتاً صاح في أذنه صيحة استهزاء  
 «هو!» «هو!» فقال الشيخ أنه سيصاب بالصمم، ومشى عفريت  
 بقوة على قدميه المصابتين بالنقرس وهشمهما.

وجيء بالعشيق الذي كان يغالب يأسه في الغابة. كان عفريت  
 ينتظره بلهفة لا توازيها إلا لهفة العشيقة الشابة. أوشك العاشق  
 وحبيبته أن يجتا فرحاً. والوليمة التي أعدت لزفاف الشيخ كانت من  
 نصيب العاشقين السعيدين. تحلى لياندر عن قبعة العفريت وظهر  
 فجأة عند باب القاعة وكأنه غريب اجتذبه ضجة العيد. وما إن  
 لمح العريس حتى هرع يرتمي عند قدميه شاكراً ممتناً وداعياً إليه  
 بكل الخير. أمضى لياندر يومين في ذلك القصر، ولو أراد لكان جعل  
 الزوجين يفسلان لأنهما كانا يقدمان إليه كل ما يتمناه المرء. ولم يتخل  
 عن صحبتها الرائعة إلا على مضض.

تابع سفره وذهب إلى مدينة كبيرة كانت الملكة فيها تهوى أن  
 تضم إلى حاشيتها أجمل أفراد رعيتها وأرفعهم مقاماً. لدى وصوله،  
 جعل لياندر لنفسه أكبر موكب وجد حتى ذلك الحين. ثم هز وردته  
 السحرية فتدقق منها المال. ونظراً لجماله وشبابه وذكائه، والمهابة  
 الفريدة التي يثيرها في النفوس فقد استقبلته الملكة وجميع الأميرات

معبرَاتٍ له عن تقديرِهِنَّ واحترامِهِنَّ.

وكان ذلك القصر من أكثر القصور عشقاً للغزل والحب. كلٌّ من لا يُحبّ فيه يُصبح هُزأة. أراد لياندر أن يتماشى مع العادة المتَّبعة وفكّر بأن يعيش مغامرة عاطفيّة عابرة قبل رحيله. رنا إلى إحدى وصيفات الملكة ويسمونها الشّقراء الجميلة. كانت فتاة كاملة الجمال لكنّها في منتهى البرودة والجدية لدرجة أنّه حارّ في التصرّف الذي يجب اتّباعه ليروق لها.

أقام لها حفلاتٍ ساحرة، حفلة راقصة وملهاة في كلّ ليلة. وأتى لها بتحفٍ نادرة من سائر جهات الدّنيا، ولكنّ هذا كلّه لم يكن يؤثّر بها. وكلّما أبدت عدم اكتراثها به، زاد في إصراره على أن يروق لها، متشبّها بمسعاها معنأً فيه لظنه أنّها لم تعرف الحبّ بعد. ولكي يتأكّد من ظنّه، أراد أن يمتحن ورّدته فوضّعها على صدر الشّقراء مازحاً إيّاها. وفي الحال أصبحت الوردّة النّضرة المتفتّحة يابسة ذابّلة فكان ذلك كافياً ليعرف لياندر أنّها تهوى أحدهم. استشعر ذلك بقوة وأراد أن يقتنع ويرى الأشياء بأمّ عينيه، فلبس قبعة العفريت ودخل مساءً إلى غرفة الشّقراء. رأى أحد الموسيقيّين يدخل إليها وكان شديد البشاعة. ثمّ أنشد ثلاثة أو أربعة مقاطع ألّفها على شرفها كانت في منتهى الرداءة فيما استمعت إليها الصبيّة وكانها أجمل أغنية أطربتها في حياتها. وراح الموسيقيّ يحرك وجهه بطريقة غريبة وكأنّه أحد الممسوسين فيما كانت تبدي إعجاباً مُبيناً بجماله وتثني عليه لشدّة هيامها به. وأخيراً سمّحت لذلك القدر بأن يقبل يدها على سبيل الامتنان للعناء الذي تكبّده. أحسّ عفريت بالإهانة فارتمى على العازف الوقح ودفعه بكلّ قوّته عن إحدى الشرفات فتهشم ما تبقى له من أسنان.

لو أنّ صاعقة نزلت بالشّقاء لما دُهِشت على هذا التّحو. ظنّ أنّ ذلك حصل بفعل روح شريرة. خرج عفريت من الغرفة غير مرئي، وللحال عاد إلى منزله وكتب إلى الشّقاء كلّ الملامات التي تستحقّها. ومن دون أن ينتظر جوابها رحل تاركاً مرافقيه في عهدّة ساسة خيوله ومعاونيه، ومكافئاً باقي أتباعه. أخذ حصانه الوفيّ أشهب واعتلاه مصمماً كلّ التصميم على الإقلاع عن الحبّ بعد تلك المغامرة.

ابتعد لياندر بسرعة قياسية وأحسن بالشّجن لوقت طويل لكنّ تعقله والغياب أشفياه. ذهب إلى مدينة أخرى حيث علم لدى وصوله أنّ احتفالاً كبيراً يجري لأجل فتاة سيتم إلحاقها بالكاهنات رغم أنّها لم تكن تريد ذلك. تأثر الأمير لحالتها. بدا له أنّ قبعته الصّغيرة الحمراء لا تنفعه إلاّ بتصحيح الأخطاء العامّة وتعزية الحزانى. هرع إلى المعبد. كانت الطّفلة اليافعة متوجّهة بالزّهر ومرتدية الأبيض وشعرها يُغطّيها بالكامل، يقودها اثنان من إخوتها من كلّ جانب ممسكين بيدها، وتتبعهم أمها مصحوبة بحشد هائل من الرّجال والنّساء. كانت أقدم الكاهنات تنتظر عند باب المعبد. وفي الحال صرخ عفريت بكلّ قوّته:

- توقّفوا توقّفوا أيّها الأخوان السيّانِ وأيتها الأمّ العديمة الفطنة. إنّ السّماء تعارض هذا الاحتفال الذي يجري بالإكراه؛ إذا تجاوزتم حدّكم فسوف تُهشّمون كالضّفادع.

نظروا إلى كلّ الاتجاهات ليروا مصدر الصّوت المتلفظ بهذه التهديدات المرعبة. قال الأخوان إنّهم عشيق شقيقتها المختبئ في إحدى الحفر ليتظاهر بأنّه العراف. لكنّ عفريتاً غضب وأخذ عصاً طويلة ووجه إليها مائة ضربة. كانت العصا تعلو وتهبط على أكتافها وكأنّها مطرقة تضرب السندان. لم يكن من مجال للشكّ في أنّ

الضربات كانت حقيقيّة. أصيبت الكاهنات بالذعر وهربن. وحذا الجميع حذوهُنَّ. بقي عفريت مع الشابة الضحيّة. خلّع بسرعة قبعته الصّغيرة وسألها بمُمكنه أن يُخدّمها. قالت له بجرأة قلّ نظيرها نسبةً إلى فتاةٍ في مثل سنّها إنّ هنالك فارساً تهتمّ لأمره ولكنه يحتاج إلى المال، فهزّ لياندر ورده الجنيّة لطيفة وترك لها عشرة ملايين: فتزوجا وعاشا سعيدين.

أما المغامرة الأخيرة التي عاشها فكانت الأظرف. عند دخوله إلى غابة كبيرة، سمع صرخات فتية شاكية وكان أحداً يجري تعنيفه. نظرَ إلى كلّ الجهات وأخيراً لمّح أربعة رجالٍ مدججين بالسلاح يقتادون فتاة تبدو في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها. اقترب بأقصى سرعته وصاح بهم:

- ماذا فعلت لكم هذه الطفلة لكي تعاملوها وكأنتها جارية؟

قال الأكثر نفوذاً بينهم:

- وما دخلك أنت؟

أضاف لياندر:

- أمرك بأن تتركها في الحال.

فهتفوا ضاحكين:

- نعم، نعم، أوامرك مُطاعة.

ارتقى الأمير أرضاً ووضع القبعة الصّغيرة الحمراء لأنّه وجد أنّه ليس مضطراً لأن يُهاجم وحيداً أربعة رجالٍ أقوىاء قادرين على الإطاحة باثني عشر رجلاً.

عندما اعتَمَرَ قبعته الصّغيرة واختفى عن الأنظار، قال السارقون:

- لقد لاذّ بالفرار، لا يستحقّ الأمر عناء البحث عنه، لنمسك

فقط بحصانه.



وبَقِيَ أَحدهم مع الصبيّة لحراستها فيما هُرِعَ الثلاثة الآخرونَ  
خلف الحصان أشهب الذي جعلهم يتكبّدون عناء اللّحاقِ به:  
واصلت الفتاة الصّغيرة الصّراخ والشكوى.  
قالت:

- واأسفاه! يا أميرتي الجميلة، كم كنتُ سعيدةً في قصرِكَ! كيف  
بإمكاني العيش بعيداً عنكَ؟ لو أنّكَ تدرِكينَ التجربة المريرة التي أمرُّ  
بها لأرسلتُ أمازونياتكِ<sup>(1)</sup> لئُنجدنَ مشمشة التّعيسة.  
ما إن سمعها لياندر حتى أمسكَ بذراع السّارق، الذي كان  
يمسك بالفتاة، وأوثقه إلى إحدى الأشجار دون أن يتسنى له لا  
الوقت ولا القوّة للدّفاع عن نفسه، لأنّه لم يرَ من قيّده. وعلى أثرِ  
الصّرخاتِ التي أطلقها هُرِعَ إليه أحدُ أصدقائه لنجدتهِ لاهثاً وسأله  
مَن أوثقه إلى الشجرة.

قال:

- لا أعرف، لم أرَ أحداً.

قال الآخر:

- تقول هذا لكي تبرّر نفسك، لكنني أعرف منذ وقتٍ طويل أنّك  
جبانٌ رَغيد. أريد أن أعاملكَ كما تستحقّ.  
ووجهُ إليه عشرينَ ضربة من سوطه.

استمتع عفريت كثيراً بصراخه ثمّ اقترب من السّارق الثّاني  
وأمسكته من ذراعيهِ وأوثقه إلى الشجرة قبالة صديقه الذي سرعانَ  
ما قال له:

- حسناً أيّها الرّجل الشجاع مَن جاءَ إذاً وقتيَد وثاقك؟ ألسنتَ

(1) أمازونيّة: امرأة من سلالة خرافيّة من المحاربات، وقد صارت التسمية تُطلق على كلِّ  
امرأة محاربة.

جباناً كبيراً أنت أيضاً؟

لم ينبس الآخر بكلمة بل خَفَضَ رأسه خجلاً غير قادرٍ على أن يفهم كيف قُتِدَ إلى الشجرة ولم يرَ أحداً.

ومع ذلك اغتَنَمَت مشمشة (هذا هو اسم الفتاة) تلك الفرصة لكي تهزّب دون أن تعرف حتى وجهتها. وما إن رأى لياندر أنها قد غابت عن ناظره حتى نادى ثلاث مرّات أشهب الذي شعر بأن سيّده يريد منه أن يوافيه في الحال فوجه رَفَسَتَيْنِ إلى السارقين اللذين لحقا به، فحطّم رأسَ الأوّل وثلاثة أضلُعَ للثاني. لم يعد أمامَ عفريت إلا اللحاق بمشمشة لأنّه وجدها جميلةً جدّاً. فتمنّى أن يكون حيث تكون الصبيّة فتمّ له ما تمنّى. وجدها منهكة لا بل في غاية الإنهاك مستندةً إلى الأشجار غير قادرةٍ على التقاط أنفاسها. وعندما شاهدت أشهب المتّجة برشاقة نحوها، هتفت:

- حسناً، حسناً، هذا حصانٌ جميلٌ سيوصل مشمشة من جديد إلى قصر الملذّات.

كان عفريت يسمعها فعلاً لكنّها لا تراه. اقترب، فتوقّف أشهب وارتّمت فوقه الفتاة. ضمّتها عفريت بين ذراعيه ووضعها برفق أمامه. آه كم خافت مشمشة عندما شعرت أنّ أحدهم يضمّها دون أن تراه! لم تجرؤ على الحراك، أغمضت عينيها خشيةً أن ترى روحاً شريرةً ولم تنبس بكلمة واحدة. الأمير الذي كان يملك في جيوبه أطيب حبات الملبس أراد أن يضع منها في فمها لكنّها كانت تشدّ على أسنانها وشفّتها.

وأخيراً نزع قبّعته وقال لها:

- ولكن يا مشمشة لا حاجة لأن تخشيني إلى هذا الحدّ. لكم أنت خجولة: أنا الذي انتشلتك من أيدي السارقين.

نظرت إليه فعرفته.

قالت:

- آه يا سيدي أدينُ لك بحياتي. صحيح، خفتُ كثيراً لوجودي مع أحدٍ غيرِ مرثي.

أجاب:

- لستُ غيرِ مرثيِّ ولكن يبدو أن عينيكِ كانتا تؤلمانكِ فَمَنَعَتْكِ من رؤيتي.

صدّفته مشمشة مع أنها تملك ذكاءً كبيراً. بعد أن تحدّثنا لبعضِ الوقتِ كيفما اتفق، رجاها لياندر أن تقول له كم عمرها ومن أين هي وما هي الصدفة التي أوقعتها في قبضة السارقين.

قالت:

- أنا مدينة لك بالكثير ولا أستطيع أن أرفض لك هذا الطلب وأرضي فضولك. ولكن يا سيدي أتوسّل إليك أن تُعنى بالإسراع في إيصالي أكثر تما بالاستماع إليّ:

- كان هناك جنيّة لا أحدٌ يُضاهيها في المعرفة أحبّت بإضرار أحدَ الأمراء. ومع أنها كانت أول جنيّة يعترها ضعف الحبّ، فهي لم تتوان عن الاقتران به رغم اعتراض جميع الجنّيات اللواتي كنّ يستعرضن لها باستمرار الخطأ الذي تقترفه بحق نظام الجنّ. فرفضن أن تسكنّ معهنّ، وكلّ ما استطاعت فعله هو أن تبني لنفسها قصرًا كبيراً قريباً من مملكتهنّ. لكنّ الأمير الذي تزوّجته سيّم منها وتملكه اليأس لحدسها كلّ ما يفعله. ما إن تتنازعه أقلّ رغبة لامرأة أخرى حتّى تسحرّها وتجعلها مهما تكن جميلة أشدّ النساء قبحاً.

«وانزعج ذلك الأمير من شغف الجنيّة المفرط به فرحلَ ذات صباح في إحدى العربات السّراع وابتعد، ابتعد كثيراً واختبأ في كهفٍ

داخلَ أَحَدِ الْجِبَالِ لَكِي تَفْقِدَ لَهُ كُلَّ أَثَرٍ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعِ لِأَنَّهَا تَبِعَتْهُ وَقَالَتْ لَهُ إِنَّهَا كَانَتْ حَبْلِي، وَاسْتَحْلَفْتَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْقَصْرِ، وَوَعَدَتْهُ بِأَنْ تَعْطِيَهُ الْمَالَ وَالْخَيُْولَ وَالْكَلابَ وَالْأَسْلِحَةَ وَبِأَنَّهَا سَتَقِيمُ مَسَابِقَاتٍ فِي الْفَرُوسِيَّةِ وَسَتَهَيِّئُ لَهُ جَمِيعَ وَسَائِلِ اللَّهْوِ. لَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ إِقْنَاعَهُ. كَانَ عَنِيداً بِطَبْعِهِ وَمَاجِناً؛ وَبَدَرَتْ مِنْهُ مِائَةٌ كَلِمَةً نَابِيَةً نَاعِماً إِيَّاهَا بِالْجَنِّيَّةِ الْعَجُوزِ وَبِالْمُسْتَذْبِئَةِ.

قالت له:

- أَنْتَ مَحْظُوظٌ جِداً لَكُونِي أَكْثَرَ تَعَقُّلاً مِنْ جَنُونِكَ؛ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَجْعَلَ مِنْكَ، لَوْ شِئْتُ، هَرّاً يَمُوءُ إِلَى الْأَبَدِ عَلَى الْمِزَارِيبِ أَوْ ضَفْدَعاً بَشِعاً يَتَخَبَّطُ فِي الْأَوْحَالِ، أَوْ يَقْطِينَةَ، أَوْ بَوْمَةَ. لَكِنَّ الشَّرَّ الْأَكْبَرَ الَّذِي يُمْكِنُنِي أَنْ أَقْتَرِفَهُ بِحَقِّكَ هُوَ أَنْ أَثْرُكَكَ لِزَوَاتِكَ. إِبْقِ فِي وَكْرِكَ وَفِي كَهْفِكَ الْمَظْلَمِ مَعَ الدَّيْبَةِ وَنَادِ عَلَى رَاعِيَاتِ الْجَوَارِ فَتَعْرِفْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ كَيْفَ تَمَيَّزَ بَيْنَ الْوَضِيعَاتِ وَبَيْنَ جَنِّيَّةٍ مِثْلِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسِمَ نَفْسَهَا بِمِظَاهِرِ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَرِيدُهَا.

وَدَخَلْتُ عَلَى الْفُورِ إِلَى عَرَبَتِهَا الْمَجْتَنِحَةِ وَغَادَرْتُ بِأَسْرَعٍ مِنَ الطَّيْرِ. وَفُورَ عَوْدَتِهَا، نَقَلْتُ قَصْرَهَا وَطَرَدْتُ مِنْهُ الْحِرَّاسَ وَالضَّبَّاطَ وَاتَّخَذْتُ لَهَا حَرَساً مِنَ الْأَمَازُونِيَّاتِ وَنَشَرْتُهُنَّ حَوْلَ جَزِيرَتِهَا لَكِي يُحْرُسْنَهَا وَيَمْنَعْنَ أَيَّ رَجُلٍ مِنَ الدَّخُولِ إِلَيْهَا وَسَمَّيْتُ ذَلِكَ الْمَكَانَ جَزِيرَةَ الْمَلذَّاتِ الْهَانِئَةِ. كَانَتْ تَقُولُ دوماً إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَلذَّاتٌ حَقِيقِيَّةٌ وَسَطٌ مَعَشَرَ الرِّجَالِ. وَرَبَّتْ ابْتَنَّاها عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ. وَكَانَتْ ابْتَنَّاها عَلَى جَمَالٍ لَا مِثِيلَ لَهُ وَهِيَ الْأَمِيرَةُ الَّتِي أَخْدَمْتُهَا أَنَا. وَبِهَا أَتَتْهَا مَمْلُوكَةُ الْمَلذَّاتِ فَإِنَّ الشَّيْخُوخَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَدْرِكُنَا فِي قَصْرِهَا. وَكَمَا تَرَى، عُمُرِي يُنَاهِزُ الْمِائَتِي عَامٍ. عِنْدَمَا كَبُرَتْ سَيِّدَتِي تَرَكْتُ لَهَا وَالدُّمَّ الْجَنِّيَّةَ جَزِيرَتِهَا؛ وَلَقِّمْتُهَا الْمَبَادِيءَ الْجَوْهَرِيَّةَ لِتَعِيشَ سَعِيدَةً. ثُمَّ

عادَت إلى مملكةِ الجنِّ، وأدارت أميرَةَ الملذّاتِ الهانئةِ شؤونَ مملكتِها بطريقةٍ رائِعةٍ.

«لا أتذكّر، مُد أتيت إلى العالم، أن رأيت رجالاً آخرين غير اللّصوص الذين اختطفوني، وأنت يا سيّدي. أولئك الناس قالوا لي إنّ واحداً بشعاً مشوّه الخلقة يُدعى غضبان أرسلهم لآته وقع في غرام سيّدي بعد أن رأى رسمها. كانوا يَومونَ حولَ الجزيرة ولم يجرؤوا على الدّخول إليها: ذلك أنّ أمازونيّاتنا متيقّظاتٌ دوماً ولا يدعون أحداً يقترب منها. لكن بما أنّني أعطني بطيورِ الأميرة، أفلتت منّي بيتغاؤها الجميلة وطارت، فخِفْتُ أن تعاقبني وخرجتُ دونَ حذر من الجزيرة أبحث عنها فأمسكوا بي وكانوا اصطحبوني معهم لولا نجدتُك».

قال لياندر:

- إذا كنتِ منّ النوع الذي يقدرُ المعروف، أفلا أستطيع أن أمل، يا مشمشة الجميلة، أن تدخليني إلى جزيرة الملذّاتِ الهانئة لكي أرى الأميرة الرّائعة التي لا تشيخُ أبداً؟  
قالت له:

- آه يا سيّدي، سنهلّك أنا وأنت إذا قمنا بهذه الخطوة! من السهل التخلّي عن خيرٍ لا تعرفه. لم تزر هذا القصر من قبل، افرض إذا أنّه غير موجود.

أجاب الأمير:

- ليس بالسهولة التي تتصوّرينها أن ينتزع شخصٌ من ذاكرته الأشياء التي يستحسنها. ولا أوافقُ معك أنّ الحصولَ على ملذّاتِ هانئةٍ يُحتمُّ إلغاءَ جنسِ الرّجالِ منها.  
أجابته:

- سيدي، لا يعود لي البتّ بهذا الشأن. لا بل إنني أعترف لك أنه إذا كان جميع الرجال يُشبهونك فأنا مبالغة للتأكيد على أن الأميرة ستسنّ قوانينَ جديدة. ولكن أربعة من الرجال الخمسة الذين أُتيح لي اللقاء بهم كانوا أشراراً جدّاً، لذا فأنا أستنتج أن عدد الأشرار يفوق عدد الأخيار ولذا يجب إبعادهم جميعاً.

وإذ هي تتحدّث على هذا النحو، وصلاً عند ضفة نهر كبير فقفزت ممشة على الأرض برشاقة.

قالت للأمير وهي تنحني له إجلالاً:

- وداعاً يا سيدي أتمنى لك الكثير من السعادة وأن تكون الأرض كلها بالنسبة لك جزيرة الملذات: انسحب من هنا بسرعة خشية أن تلمحك الأمازونيّات.

قال لها:

- وأنا أيضاً يا ممشة الجميلة، أتمنى أن يكون قلبك رقيقاً لتتذكريني من وقت إلى آخر.

وللحال ابتعد وتوغّل عميقاً في إحدى الغابات القريبة من النهر. نزع السرج واللجام عن أشهب لكي يستطيع التنزه ورعي العشب: وضع القبعة الصغيرة الحمراء وتمنى أن يكون في جزيرة الملذات الهانئة. تحققت أمنيته في الحال ووجد نفسه في المكان الأجمل في العالم والأقل ارتياداً.

كان القصر من الذهب الصّرف وترتفع فوقه رسوم من البلور والأحجار تمثل دائرة البروج وكلّ روائع الطّبيعة والعلوم والفنون والعناصر، البحر والأسماك، الأرض والحيوانات، رحلات الصّيد التي قامت بها ديانا مع حورتاتها، مآثر الأمازونيّات، متع الحياة الرّيفيّة، قطعان الرّاعيات وكلاهنّ، شؤون الحياة الرّيفيّة، الرّعاية،

مواسم الحصاد، الحداثق، الأزهار، التحل. ووسط مختلف تلك المشاهد والصّور ليس من رُجلٍ واحدٍ أو صبي أو ملاك حبّ صغير. كانت الجنّية غاضبة جداً على زوجها الطّائش فلعلت جنس الرّجال برمته وغدرهم.

قال الأمير في نفسه:

- لم تكذب عليّ مشمشة. حتّى مفهوم الرّجل استُبعدَ في هذه الأمكنة. لنرّ ما إذا كان الرّجال يفوتهم الكثير لعدَم وجودهم فيها. ودخلَ إلى القصرِ وعندَ كلِّ خطوة كان يصادفُ أشياءً عجيبة. ما إن ينظر بعينه إلى ناحيةٍ ما حتّى يشقّ عليه كثيراً الإشاحة بوجهه عنها. كان الذهب والألماس نادريّن ليس فقط بالنسبة لنوعيّتهما بل أيضاً لطرائق استخدامهما المتقنة. أتى التفت رأى فتيات يافعات رقيقات الهيئة بريئات ضاحكات وجميلات كضوء النّهار الصّافي. ثم اجتاز عدداً كبيراً من الأجنحة الفسيحة بعضها مليء بقطع جميلة من الصّين رائحتها المقرّنة بغرابة الألوان والرّسوم راقت له بشكل لا متناه، وبعضها جدرانها مصنوعة من الخزف الشّفاف لدرجة أنّه يمكن رؤية الضّوء من خلالها، وبعضها الآخر من بلّور الصّخر المنقوش، أو من العنبر والمُرجان واللّازورد والعقيق، وجناح الأميرة كان مزداناً كلّه بالمرايا الكبيرة لأنّه ليس ينبغي الإفراط في مضاعفة مكان ساحر كذاك بالإكثار من المرايا الصّغيرة. كان عرشها مصنوعاً من لؤلؤة واحدة محفورة كصدفة تجلس فيها بارتياح. وكان مُحاطاً بالشّاعِدِ المزخرقة المزدانة بالياقوت والألماس، ولكنّ كلّ هذا لم يكن شيئاً إزاء جمال الأميرة الذي لا يُضاهى. كانت هيئتها الطّفولية تجمع نضارة الصّبا إلى جلال التّضج. لا شيء كان يُساوي رقة نظراتها وحيويّتها: كانت كاملة الأوصاف بحق. كانت تبسم بجاذبيّة

لَوْصِيفَاتِهَا اللَّوَاتِي اِزْتَدَيْنَ ثِيَابَ الْحَوْرِيَّاتِ لَكِي يُسَلِّينَهَا.  
وبها أنّ مشمشة كانت غائبة، سألتُهنَّ أينَ هي فأجابتِ الحورياتُ  
إنَّهنَّ فَتَشْنَ عنها دونَ جدوى وإنَّها متوارية عن الأنظار. وكان  
عفريت متحرِّقاً إلى الكلام، فحاكى صوت البيغاء (لأنَّه كان هناك  
بيغاوات عديدة في الغرفة)، وقال:

- أيتها الأميرة الفاتية، مشمشة ستعود عمّا قريب؛ كان يُخدقُ بها  
خطرُ داهم، خطرٌ أن تُختطفَ لو لم يعثر عليها أميرٌ شاب.  
مكثتِ الأميرة مندهشةً ممّا قاله البيغاء لأنَّه أجاب بدقّة تامّة.  
قالت له:

- أنتَ جميل جداً، أيها البيغاء الصّغير، ولكن يبدو لي أنّك تخطيء،  
لذلك عندما ستأتي مشمشة فسوف أقول لها أن تجلِّدك.

أجاب عفريت وهو يصطنعُ صوت البيغاء:  
- لئن يجلِّدني أحد، سوف تخبرك عن رغبةٍ ذلك الغريب في زيارة  
القصرِ لكي يطرد من أذهانك الأفكار السيئة المتجذّرة فيها ضدّ  
جنسه.

هتفت الأميرة:

- في الواقع أيها البيغاء إنَّه لمن المؤسف ألا تكون بمثل هذا اللطف  
في كلّ يوم، لو كنتَ كذلك لأحببتك كثيراً.  
فأجاب عفريت:

- آه، إذا كان الحديث كافياً لإثارة الإعجاب فلن أكف لحظة عن  
الحديث.

أردفت الأميرة:

- ولكن برّبك ألا ترين أنه بيغاء ساحر؟

قال:



- إنه عاشق أكثر منه ساحراً!

وفي تلك اللحظة دخلت مشمشة وجاءت ترتمي عند قدمي سيّدتها الجميلة. أخبرتها عن مغامرّتها ووصفت لها الأمير بإعجاب وبهجة.

وأضافت:

- كنت سأمقت الرّجال جميعاً لو لم أرَ ذاك الرّجل. آه! يا سيّدي كم هو فاتن! إنّ هيئته وجميع تصرّفاته فيها نُبْلٌ وذكاء. وبما أنّ كلّ شيءٍ يقوله مثير للإعجاب، أظنّ أنّني أحسنت صنيعاً بأنّ لم أصطحبه معي.

لم تُحبّ الأميرة بشيءٍ لكنّها تابعت تسأل مشمشة عن الأمير: هل تعرف اسمه أو بلاده أو أصله، من أين هو آتٍ وإلى أين هو ذاهب. ومن ثمّ استسلمت لحلم عميق.

كان عفريت يتفحص كلّ شيءٍ وتابع الكلام كما بدأ.

قال:

- مشمشة جاحدة يا سيّدي، هذا الغريب المسكين سيموت حزناً إذا لم يرك.

أجابت الأميرة وهي تتنهد:

- ليُمّت إذاً، وبما أنّك تقدّم حججاً وكأنّك شخص ذكيّ وليس بصيفتك طيراً عادياً، فأنا أحظر عليك أن تتحدّث إليّ عن هذا الغريب.

كان لياندر مبتهجاً لرؤية تأثير رواية مشمشة ورواية البيغاء على الأميرة؛ كان ينظر إليها بلذّة تجعّله ينسى العهود التي قطعها بالآجب أبدأ في حياته: لأنّه لا مجال للمقارنة بينها وبين الشقراء الغنجة.

قال في نفسه:

- هل من المعقول أن تظل تحفة الطبيعة هذه، معجزة أيامنا، إلى ما لا نهاية له في هذه الجزيرة دون أن يجرؤ أيّ فإن على الاقتراب منها! ولكن ما همّي إذا كان الرجال الآخرون مبعدين من الجزيرة ما دُمْتُ لحسن الحظّ موجوداً فيها وما دُمْتُ أراها وأسمعها وأتأملها وأحبّها منذ الآن بجنون.

كان الوقت متأخراً. عبرت الأميرة في صالون من المرمر والرخام السماقي، حيث كانت نوافير عديدة متدفقة تُشيعُ جواً من النداءة اللذيذة. ما إن دخلت حتى بدأت الموسيقى تُعزفُ وقُدّمَ عشاء مهيب. كان هناك في جوانب القاعة أقفاص طويلة مليئة بعصافير نادرة تعتنى بها مشمشة.

تعلم لياندر خلال رحلاته طريقة الغناء مثلها حتى إنه قلّد طيوراً غير موجودة في الأقفاص. استمعت الأميرة متعجبة ونظرت من حولها ثم نهضت عن المائدة واقتربت من الأقفاص. عندئذ زقزق عفريت بصوت أقوى وأعلى متخذاً صوت طائر الكناري، فقال هذه الكلمات وفقّ لحن مرتجل:

إن أجمل أيام حياتنا

تمضي دون بهجة

إذا غاب الحب عنها

ونعيشها بحزن

أحبوا أحبوا برقة

فكل شيء هنا يدعو إلى الحب

اختاروا عشيقاً

لأنّ الحب نفسه يتوسل إليكم أن تفعلوا.

وإذا بالأميرة، وقد ازدادت دهشتها، تستدعي مشمشة وتسألها ما إذا كانت علمت أحدَ كنارياتها أن تغني. أجابتها بالنفي ولكنها أضافت أنها تظن أن طيورَ الكناري تستطيع أن تبرز البيغاء بالذكاء. ابتسمت الأميرة وتخيلت أن مشمشة أعطت دروساً لمعشر الطيور. وعادت إلى المائدة لتكمل عشاءها.

كان لياندر قد قام برحلة طويلة فشعر بالجوع. اقترب من المائدة الكبيرة وقد اجتذبه رائحة الطعام اللذيذة. كان لدى الأميرة هزّ أزرق اللون تحبه كثيراً. أمسكته إحدى وصيفاتها بين يديها وقالت لها:

- سيدي، ألفت انتباهك إلى أن الهزّ الأزرق جائع.

فأجلس إلى المائدة وأمامه صحنٌ صغيرٌ ذهبيٌ وضعت عليه فوطة من الدانتيل المثبته بعناية، وعلّق إلى عنقه جُلجُلٌ ذهبيٌ وعقدٌ من اللآلئ وبدأ يأكل بأبهة كأنه راميناغروبيس<sup>(1)</sup>.

قال عفريت في نفسه:

- يا للهول! هذا الهزّ الضخم الأزرق الذي ربّما لم يمسك بفأرة من قبل والذي، بكل تأكيد، لا ينتمي إلى سلالة نبيلة مثلي، أُعطي الشرف بأن يأكل مع أميرتي الجميلة! أريد فعلاً أن أعرف إذا كان يحبها بمقدارٍ حتّي لها وإذا كان من العدل أن أعتدي من الهواء فقط فيما هو يلتهم اللدّ المأكّل.

وانترع برفق الهزّ الأزرق وجلس في الكنبّة ووضعته في حضنه. لا

(1) راميناغروبيس، ويختصر أحياناً إلى ميناغروبيس: هو اسم أمير القطط في بعض حكايات لافونتين، وكانت الكلمة تُستخدم في الفرنسية القديمة لوصف رجل بدين وثرّي كثير الاعتداد بنفسه.

أحدَ كانَ يرى عفریت: وكيف بالإمكانِ رؤيته؟ فهوَ يَعْتَمِرُ القُبعة الصَّغيرةَ الحمراء. كانت الأميرة تَضَعُ في الصَّحنِ الذَّهَبِيِّ صغارَ الحِجَالِ والسَّمَانِي والتدرج، وكانت هذه الطَّيُورُ كُلُّهَا تَحْتَفِي بلحظةٍ وكان كلُّ البلاطِ يقول: «لم يأكل الهَرَّ الأزرق يوماً بهذه الشهية من قبل». كان هناك يَخَنَات رائعة؛ تناولَ عفریت شوكة، وممسكاً بقائمة الهَرَّ، حاول أن يقربَ أطباق اليخنات: كان يتهادى أحياناً في جذب قائمته قليلاً. لم يكن الهَرَّ الأزرق يفهم المزاحَ فيبدأ بالمواءِ ويريد أن يَخدِشَ كمثل قط يائس. وكانت الأميرة تقول:

- لنقربَ هذه الفطيرة أو هذا اللحمِ المقلِّي من أزرق (هكذا تسميه)، انظروا كيف يصرخ المسكين ليحصل منها على حصته.

فأخذ لياندر يضحك بصوتٍ خافتٍ مستمتعاً بتلك المغامرة المسلية، لكنّه شعر بعطش كبير لأنّه لم يكن معتاداً إطلاقاً على الجلوس طويلاً إلى مادبٍ مماثلة دون شرب. فأمسك بطيخة صفراء ضخمة بقائمة الهَرَّ وروى بعضاً من عطشه. شارفَ العشاء على الانتهاء فهُرِعَ إلى الصَّوَانِ وأخذ زجاجتي شراب طيب الرائحة.

دخلت الأميرة إلى ديوانها. قالت لمشمشة أن تتبعتها وتُغلق الباب. وتبعها عفریت دون أن يلحظه أحد. قالت الأميرة لصديقتها الحميمة:

- اعترفي بأنك بالغتِ عندما رسمتِ لي صورة ذاك المجهول. ليس بالإمكانِ، على ما يبدو لي، أن يكون جديراً بأن يُحبَّ كما وصفتِه! فأجابت:

- أوكد لك يا سيدي، إذا كان هناك نقصٌ في ما قلته فهذا لأنني لم أصفه كما يستحقُّ فعلاً.

تنهدت الأميرة وصممت لوهلة ثم استأنفت الكلام.

قالت:

- أنا ممتنة لك لأنك رفضت اصطحابه معك.

أجابت مشمشة (وكانت صريحة حاذقة وتخرق أفكار سيدتها):  
- ولكن يا سيدي، إذا أتى وتأمل روائع هذه الأمكنة الجميلة فأبي  
سوء في ذلك؟ هل تريد أن تظلي إلى ما لا نهاية له في ركن معزول  
محبوبة عن باقي الفنانين؟ بماذا تفيدك هذه العظمة والأبهة والروعة  
إذا لم يكن أحد يراها؟

قالت الأميرة:

- اصممتي، اصممتي أيتها الثرثرة الصغيرة، لا تعكري أبداً صفو  
الراحة التي أتمتع بها منذ ستمئة سنة. أو تظنين أنني لو كنت أعيش  
حياة قلقه مضطربة سيكون بإمكانني أن أستمر كل هذه السنوات؟  
ليس هنالك إلا الملدات البريئة والهائنة التي من شأنها أن تبقيني  
بمنأى عن العذاب. ألم نقرأ في أجل القصص عن التغيرات التي  
تحصل في أكبر الدول، وانقلابات الحظ، ومناهاات الحب، وآلام  
الغياب والغيرة؟ فما الذي يتسبب في كل هذه الأخطار وهذه  
الفواجع؟ إنها العلاقات التي يقيّمها الناس بعضهم مع بعض. أنا،  
وبفضل رعاية أمي، بمنأى عن كل هذه المصائب. لا أعرف مرارة  
الحب ولا الرغبات العقيمة ولا الحسد ولا الهوى ولا الكره. لنعش،  
لنعش دوماً في اللامبالاة نفسها!

لم تجرؤ مشمشة على الإجابة؛ انتظرت الأميرة بعض الوقت ثم  
سألته إذا كان لديها ما تقوله. فأجابت إنها تعتقد أنّ من غير المجدي  
إرسالها رسمها إلى قصور عدة. لن يؤدي هذا المسعى إلا إلى زيادة  
عدد الرجال التّعساء لأن كل واحد سيرغب في الحصول عليها وبها  
أنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً فسيكون اليأس مألهم.

قالت الأميرة:

- إلا أنني أعتزف لك رغم ذلك أنني أودّ أن يقع رسمي بين يدي ذلك الغريب الذي تجهلين اسمه!

أجابت:

- آه يا سيّدي لو تعرفين كم يتحرّق شوقاً لرؤيتك؟ هل تريدان زيادة شوقه؟

هتفت الأميرة:

- نعم؛ في داخلي نزوة غرور كنت أجهل وجودها لغاية الآن وهي تحرك في الرغبة في أن يرى رسمي.

كان عفريت يصغي إلى الحديث بحذافيره. كلمة بكلمة. وكان يبث فيه الأمل تارة واليأس طوراً.

تأخر الوقت. دخلت الأميرة إلى غرفتها لتخلد إلى النوم. كان عفريت يودّ فعلاً أن يتبعها إلى غرفة زينتها. ولكن، حتى لو كان ذلك في مُستطاعه، فإنّ الاحترام الذي يُكّنه لها كان سيمنعه من القيام به. لا ينبغي له أن يسمح لنفسه إلا بما تمليه عليه آداب السلوك. وكان عشقه من الرّهافة والرقة بحيث كان يتعدّب لأدنى شيء.

دخل إلى ديوانٍ قريب من غرفة الأميرة ليكون له على الأقلّ متعة الاستماع إليها وهي تتحدّث. كانت في تلك اللحظة تسأل مشمسة عمّا إذا كانت رأت أشياء خارقة خلال رحلتها الصّغيرة.

قالت لها:

- يا سيّدي، مررت بغابة رأيت فيها حيوانات تشبه أطفالاً صغاراً، وكانت تقفز وترقص على الأشجار مثل سناجب. إنها قبيحة جداً لكن ليس لبراعتها مثل.

قالت الأميرة:

- آه كم أودّ الحصولَ عليها. لو كانت أقلّ رشاقةً لأمكننا الإمساكَ بها.

كان عفريت قد مرّ بتلك الغابة، فأدرَكَ أنّها تتحدّث عن القروود. وللحال رَغِبَ في الحصولَ عليها فكان له ما شاء: دزينة منها، بينها الضّخم والصّغير ومن ألوانٍ عديدة مختلفة، فوضَعها بمشقة كبيرة في كيس كبير، ثمّ تمّنى أن يكون في باريس حيث سمعهم يقولون إنّهُ يمكننا الحصولَ على كلّ ما نريد لقاءَ المال. فذهَبَ إلى دوتيل، وهو بائع تُحَف، واشترى عربيّة صغيرة كلّها من ذهب وأوثقَ إليها ستّة قروودٍ خضرٍ وألبَسها برادعَ صغيرة من الجلدِ بلونِ النَّارِ مزينة بالذهب. ثمّ ذهبَ لدى بريوشيه، وهو محرّك دمي شهير، ووَجَدَ عنده قردينِ حاذقينِ جدّاً: الأكثر ذكاءً يدعى بريسكامبيل، والثاني برسيفوريه<sup>(1)</sup>، وكانا أنيقينِ جدّاً ومهذّبين. ألبَسَ بريسكامبيل ثياباً ملكيّة ووضَعَه في العربيّة وكان برسيفوريه حوذِيّه. أمّا القروود الأخرى فكانت ترتدي ملابس خدام الملوك. وكان منظرهم ولا أظرف. وضع العربيّة والقروود المحتذية جزماتٍ في الكيس نفسه. لم تكن الأميرة نامت فسمعت في الرّواق ضجّة عربيّة صغيرة، وجاءت حوريّاتها ليخبرنّها عن وصولِ ملكِ الأقزام. وفي الوقت نفسه دخلت العربيّة إلى غرفتها يُرافقها موكب القروود؛ ولم يتوان قروود الرّيف عن القيام بخدعٍ وپهلوانيّات تساوي تلك التي يقوم بها بريسكامبيل وبرسيفوريه. كان عفريت، والحقّ يقال، يقود اللعبة كلّها: يسحبُ قرَدَ العربيّة الصّغيرة الذي كان يمسك بعلبة

(1) بريسكامبيل هو اسم أحد أشهر الممثلين الهزليين الفرنسيين في القرن السابع عشر، وبرسيفوريه (ومعناه «مقتحم الغابات») اسم أحد أبطال روايات الفرسان في الفترة ذاتها.

مزدانة بالأماس فيقدّمها هذا الأخير بأنافة متناهية إلى الأميرة.  
فتسارع إلى فتحها وتجد في داخلها رسالة قرأت فيها الأبيات التالية:

كم من المفاتن! وكم من الملذات  
فيك أيها القصر اللذيذ، كم أنت ساحر  
لكنتك لست ساحراً  
بقدر تلك التي أعشقها.  
طوبى لك أيها السكينة  
التي ترفرف فوق هذا المكان الريفي  
من أجلك أفقد حريتي  
ولا أجرؤ على الكلام عنها ولا على التعريف بنفسي.

من السهل رؤية الدهشة التي اعترت الأميرة. وفي تلك اللحظة  
أشار بريسكامبيل إلى بر سيفوريه لكي يأتي للرقص معه. إن أشهر  
قرود المشعبدن لا تداني هذين مهارة. لكن الأميرة التي انشغل بها  
وأرادت أن تعرف مصدر تلك الأبيات، لم تلبث أن صرقت المهرجين  
بأبكر مما كان بإمكانها أن تفعل، مع أن القروود سلّتها كثيراً بادئ الأمر  
وأضحكتها حتى البكاء. أرادت الاختلاء بنفسها والاستسلام كلياً  
لأفكارها علّها تكشف ذلك السرّ المحير ولكن دون جدوى.

سّر لياندر لأن الأميرة قرأت بإمعان أشعاره واستمتعت  
بمشاهدة القروود، لكنه أراد أن يخلد إلى الراحة قليلاً لأنه كان متعباً  
جداً. خشي أن يختار جناحاً تسكّنه إحدى حوريات الأميرة. فبقِيَ  
لبعض الوقت في الرواق الكبير للقصر ثم نزل ووجد باباً مفتوحاً.  
دخل دون ضجة إلى جناح في الأسفل، هو الأجل والأظرف منظرًا



إطلاقاً: كان هنالك سريراً من الشاش الذهبية والأخضر المكشكش  
المزدان بشرائط من اللآلئ وشرابات من الياقوت والزمرد. كان لا  
يزال هنالك بعض الضوء فيستطيع تأمل ذلك السرير الفخم الوثير.  
وبعد أن أحكم إقفال الباب، غفا، لكن ذكرى أميرته الجميلة أيقظته  
مرات عدة ولم يستطع الامتناع عن إطلاق تنهيدات العشق بأنجاهها.  
نهض باكراً جداً وأمضى وقته متلهفاً للقائها حتى عيل صبره،  
والنفت إلى كل الجهات، فلمح لوحة مجهزة وألواناً. فتذكر في الحال  
أن أميرته تحدثت إلى ممشة عن رسمها. ومن دون أن يضيع لحظة  
واحدة (لأنه كان يرسم أفضل من أربع الرسامين) جلس أمام مرآة  
كبيرة وقام برسمها؛ ورسم ضمن إطار بيضاوي الشكل صورة  
الأميرة وقد استحضرها في خياله بحيوية لا يحتاج معها لرؤيتها  
للقيام بذلك الرسم الأولي. ثم راح يكمل عمله دون أن تلاحظ  
ذلك. كانت الرغبة في إثارة إعجابها حافزه للعمل، لذا لم يسبق له  
أن أنجز رسماً بهذا الإتقان. ورسم نفسه جاثياً على ركبتيه حاملاً رسم  
الأميرة بيد، وباليد الأخرى لفيفة كتب عليها:  
- إنها أزوع في قلبي.

عندما دخلت إلى ديوانها، دُهِشت لرؤيتها رسم رجل. وحدقت  
به بدهشة متعاطمة لا سيما وأنها تعرفت إلى رسمها أيضاً؛ كما أثار  
الكلمات التي كتبت على اللفيفة فضولها بشاكلة لا توصف وحملتها  
على أجنحة الحلم. كانت وحيدة في تلك اللحظة ولا يمكنها إلا أن  
تصف ما يجري لها بأنه أمر خارق. لكنّها عادت وأقنعت نفسها بأنها  
ممشة هي التي دبّرت لها تلك المفاجأة. بقي لها أن تعرف ما إذا  
كانت صورة ذلك الفارس صنع خيالها أم هي صورة كائن حقيقي.  
نهضت فجأة وهُرعت تُنادي بممشة. كان عفريت قد دخل مع

قَبَعَتْهُ الحِمْراءُ الصَّغِيرَةَ إلى الدِّيوانِ متحرِّقاً جداً لِسَماعِ ما سَيَحدثُ.  
قالتِ الأَميرَةُ لمشمِشةَ أن تَلقِي نَظرةَ عَلى ذلكِ الرِّسَمِ وأن تَعبرَ  
عَن شَعورِها. ما إن نَظَرَتِ إليه هَذه حَتَّى هَتَفَتِ:

- أوْكَدْ لَكَ يا سَيِّدَتِي أَنَّهُ رِسْمُ هَذا النَّبيلِ الغَريبِ الَّذي أُدِينُ لَه  
بِحَيَاتِي. أَجَلُ إِنَّهُ هُوَ بَينَهُ، لا أَسْتَطِيعُ الشُّكَّ بِذلكِ؛ هَذه هِيَ مَلاحِجُه،  
قامَتُه، شَعْرُه، سِماؤُه.

قالتِ الأَميرَةُ مَبْتَسِمةً:

- تَظَاهِرِينَ بِأَنَّكَ مَندَهِشَةٌ لَكن أَنْتِ وَضَعْتِ هَنا.  
أجابَتِ مَشمِشةَ:

- أنا، يا سَيِّدَتِي! أَقْسَمُ لَكَ أَنَّنِي لَم أَرِ في حَيَاتِي هَذه اللُّوْحَةَ. هَلْ  
مِنَ المَعلومِ أن أكونَ مِنَ الوَاقِحَةِ بِحيثُ أخفي عَليكِ شَيئاً يَتَعلَقُ  
بِكَ؟ وبأَيَّةِ مَعجِزَةٍ اسْتَطَعتُ القيامَ بِهَذا الرِّسَمِ، فأنا لا أَعرفُ الرِّسَمَ  
ولم يَسبقَ لِرُجُلٍ أن دَخلَ إلى هَذه الأَمَكنَةِ. ومع ذلكِ ها هُوَ مَرسومُ  
إلى جِوارِكَ!

قالتِ الأَميرَةُ:

- تَمَلَّكَنِي خَوفٌ مُريعٌ: لا بَدَّ أن شَيطاناً حَمَلَهُ إلى هَنا.  
قالتِ مَشمِشةَ:

- سَيِّدَتِي، أليسَ مَلاكُ الحَبِّ هُوَ مِنَ جاءَ بِهِ؟ إذا كَنتِ تَوافِقيني  
الرأيَ، فأنا أَجرؤُ عَلى تَقديمِ نَصيحَةٍ لَكَ: لَنحْرِقِ الآنَ.  
قالتِ الأَميرَةُ مَتنهِّدَةً:

- يا لِلأسَفِ! يَبدو لي أَنَّنِي لا أَسْتَطِيعُ تَزيينَ دِيوَانِي بِأَفضَلِ مِنَ  
هَذا الرِّسَمِ.

نَظَرَتِ إليه وَهِيَ تَفتَوِّهُ بِهَذه الكَلِماتِ. لَكنَّ مَشمِشةَ ظَلَّتْ مَصرَّةً  
عَلى رَأْيِها القائلِ بِحَرقِ شَيءٍ جاءَ إلى هَناكَ بِفِعلِ قَدَرَةٍ سَحرِيَّةِ.

قالت الأميرة:

- وهذه الكلمات: إنها أروع في قلبي، هل نُحرقُها أيضاً؟  
أجابَت مِشمِشة:

- يجب ألا نوقرَ شيئاً، ولا حتّى رسمِكَ.

وسارَعَت على الفور لتحصّرَ ناراً. اقتربت الأميرة من النافذة لأنها عاجزة عن رؤية رسمٍ يُحدث فيها تأثيراً كبيراً. لكن عفريت لم يتحمّل فكرة أن تُحرقَ اللوحةَ فاغتنمَ تلك الفرصة لأخذها والهرب دون أن تنتبه لذلك. ما كاد يخرج من الديوان حتّى التفتت لتنظرَ مرّةً أخرى إلى الرّسم السّاحر الذي راق لها كثيراً. ولشدّ ما كانت دهشتها عندما رأت أنّه اختفى. بحثت في كلّ الجهات. عادت مِشمِشة فسألتهَا إذا كانت هي التي انتزَعته. أكّدت لها أنّ لا. وهذه الحادثة الأخيرة أثارَت فيهما الرّعب.

وفي الحال، خبأ الرّسم وعادَ على عقبيه. كان يجد متعة كبيرة في سماع الأميرة الجميلة ورؤيتها مراراً. كان يأكل كلّ يوم على طاولتها مع الهزّ الأزرق الذي لم يكن يبشّ به. ومع ذلك كانَ ينقصُهُ الكثير لكي يُحسّ بالرّضا لأنّه لم يكن يجرؤ على التحدّث إليها ولا على أن يُظهر نفسه أمامها، ثم إنّه من التّادير أن يُحبّ شخص غير مرثي.

كانت الأميرة تهوى الأشياء الجميلة، وفي الحالة العاطفيّة التي كانت تمرّ بها شعرت بحاجة إلى التّسليّة. وذات يوم كانت برفقة جميع حوريّاتها فقالت لهنّ إنّها ستستمتّع كثيراً بمعرفة كيف كانت أزياء النّساء في مختلف القصور في العالم لأنّها تريد أن ترتدي بالطريقة الأكثر أناقة. ما جعل عفريت يصمّم على القيام بجولة حول العالم. ارتدى قبعته الصّغيرة الحمراء وتمنى نفسه في الصّين، وهناك ابتاعَ أجمل الأقمشة واحتفظَ بِطرازِ الثّياب. ثم طارَ إلى سيام حيث فعّل

الشيء نفسه. وَجَالَ عَلَى التَّوَاحِي الأخرى من العالم في ثلاثة أَيَّام. وكلما حَمَلَ الثَّيَاب كان يأتي إلى قصر المَلذَّاتِ الهانئة لكي يُجفِي في إحدى الغرف كل ما كان يُحضره. وَعندما جَمَعَ عدداً من المقتنيات النادرة التي تفوق الوصف (لأنَّ المالَ كان متوقراً لديه دون عناء إذ كانت وردته السَّحرية تزوِّده به باستمرار)، وذهبَ يشتري خمس دمي أو ستاً جَلَبَ لها ملابسها من باريس؛ فباريس هي المكان حيث الموضة تتطوَّر باستمرار. وكان هناك أزياء بكافة الأساليب وبروغة لا مثيل لها. وضعها عفريت في ديوان الأميرة.

عندما دخلت إلى الديوان لم يسبق لها أن اعترتها مثل تلك الدهشة اللذيذة: كانت كل دمية تمسك هدية، إما ساعات أو أزرار الماس أو عقوداً. والدمية الأكثر تميزاً كانت تحمل علبة وضعت فيها الرسوم الشخصية. فتحتها الأميرة ووجدت فيها رسم لياندر، فعرفته لأنها تحتفظ بذكرى رسمه الأول. صرخت بصوت عالٍ، ثم نظرت إلى مشمشة وقالت لها:

- لا أفهم شيئاً مما يجري منذ بعض الوقت في هذا القصر: طيوري مفعمة ذكاء. لا أتمنى شيئاً إلا ويتحقق، وأرى مرتين رسم ذاك الذي أنقذك من أيدي اللصوص. وانظري إلى الأقمشة والألماس والمطرزات والدانتيل والتُّحف التي لا تنتهي. من هي إذاً الجنية، من هو الجنّي الذي يُعنى بأن يؤدّي لي هذه الخدمات الرائعة؟

وإذ سمعها لياندر تتكلّم، كتب هذه الكلمات على ألواح الكتابة ورماها أرضاً عند قدمي الأميرة:

لا، لستُ جنياً ولا جنية،  
أنا عاشقٌ تعيس

لا يجرؤ أن يظهر لعينيك،  
على الأقل اندبني حظي!  
الأمير عفريت

كانت ألواح الكتابة ملتمعة بالذهب والألماس. ما إن رأتها حتى  
فتحتها وقرأت ما كتبت عفريت بدهشة لا مثيل لها.  
قالت:

- هذا الكائن غير المرئي هو مسخ إذا لأنه لا يجرؤ على الظهور.  
لكن، لو كان صحيحاً أنه متعلق بي لكان متحفظاً ولما أراني هذا الرسم  
المؤثر. لا بد أنه لا يحبني فيجرؤ على تعريض قلبي لهذه التجربة؛ أو  
أن لديه فكرة عالية عن نفسه فظن نفسه جديراً بالحب وأكثر.  
أجابت مسمشة:

- سمعتُ يا سيدي أن العفاريث مكونة من هواءٍ ونايرٍ وأنها لا  
تملك جسداً وأن ما يجرؤها هو روحها وإرادتها فقط.  
أجابت الأميرة:

- هذا يُرئيني جداً لأن عاشقاً مماثلاً لا يمكنه أن يعكّر صفو  
أيامي.

كان لياندر مبتهجاً لسامعه الأميرة ورؤيتها منشغلة إلى هذا الحد  
برسمه. تذكر أنه كان هناك، في مغارة غالباً ما تذهب إليها الأميرة،  
قاعدة تمثال مخصصة ليوضع فوقها تمثال ديانا غير المنجز. فاستقر  
عليها مرتدياً ثوباً رائعاً، ومكلاً بالغار، وحاملاً في يده قيثارة يعزف  
عليها بأكثر براعة من أبولون<sup>(1)</sup>. انتظر بفارغ الصبر أن تأتي إلى المغارة

(1) أبولون: إله النور والموسيقى والفنون والآداب في الميثولوجيا الإغريقية. وكان تجسيدا  
لجمال الذكر.

كما تفعل كل يوم لتتحلم هناك بالرجل المجهول. ما قالت لها مشمشة  
عن لياندر مقروناً بمتعة النظر إلى رسمه لم يتركها لها أية راحة. باتت  
تحب الوحدة ومزاجها المريح تغير كثيراً لدرجة أن حورياتها بتن لا  
يعرفنها.

عندما دخلت إلى الكهف أشارت إليهنّ ألا يتبعنها فابتعدت  
حورياتها، كل واحدة في ممر منفصل. ارتمت على سرير من العشب  
الأخضر. تنهدت وذرفت بضع دموع وتحذت إلى نفسها ولكن  
بصوت خافت لم يستطع عفريت سماعه. كان قد وضع القبتعة  
الحمراء الصغيرة فلم تره ثم نزعها فرأته بدهشة فائقة. ظنت أنه  
تمثال لأنه تظاهر باتخاذ الوضعية نفسها دون تغيير. نظرت إليه بفرح  
مشوب بالخشية. وتلك الرؤية غير المتوقعة كانت تدهشها، ولكن  
في العمق كانت اللذة تطرد الخوف، واعتادت على رؤية هيئة قريبة  
جداً من الحقيقة، وعندئذ دوزن الأمير قيثارته وفقاً لصوته وغنى  
هذه الكلمات:

خطيرٌ هو المكوث في هذا المكان  
إذ يُصبح فيه عديم الاكتراث حساساً  
عبثاً ادّعت أنني لن أغرم مجدداً،  
فهنا أتى لي ذلك!  
لماذا يُقال إن هذا القصر  
هو مكان الملذات الهائنة؟  
ما إن دخلته حتى فقدت حريتي  
ولكي أحمي نفسي، تبدو مساعي عقيمة  
أستسلم لحبي المضطرم

وأريد أن أكون هنا حتى آخر يومٍ لي.

مهما يكن جميلاً صوت لياندر، لم تستطع الأميرة أن تقاوم الخوف الذي تملكها. شحبت فجأةً وسقطت مغمياً عليها. دُعر عفریت وقفز عن القاعدة أرضاً وأعاد ارتداءً قبعته الصغيرة الحمراء لكي لا يراه أحد. أخذ الأميرة بين ذراعيه وأغاثها بكل اندفاع وحماس. فتحت عينيها الجميلتين ونظرت إلى جميع الجهات باحثة عن مغيثها لكن دون جدوى. ثم شعرت بأحدٍ قريباً يمسك بيديها ويقبلها ويبللها بدموعه فمكثت صامته طويلاً ولم تجرؤ على الكلام. وكانت روحها المضطربة تتأرجح بين الخشية والرجاء. كانت تخشى ذلك الجنّي لكنّها تحبه في الوقت نفسه عندما يتخذ هيئة المجهول. وأخيراً هتفت:

- أيها العفریت، أيها العفریت الغاوي، أترأك تكون ذلك الذي أتمناه؟

ولدى سماع عفریت هذه الكلمات، كان على وشك أن يعلن عن نفسه لكنه لم يجرؤ على القيام بذلك.  
قال في نفسه:

- إذا كنت أخيفُ المرأة التي أعشقها، وإذا كانت تخشاني فهذا يعني أنّها لن تستطيع أن تحبني.

جعلته هذه الأفكار يلوذ بالصمت وأرغمته على الانسحاب إلى زاوية في الكهف.

فالتفتت الأميرة، وقد ظنت نفسها وحيدة، ونادت ممشة وروّت لها عجائب التمثال المتحرك وأنّ صوته كان سماوياً، وأتها خلال غيبوبتها أغاثها الجنّي على نحو رائع.

قالت:

- يا خسارة أن يكون مشوّهاً وقييحاً! لأنّه أمِنَ المعقولِ أن تكونَ  
هناك تصرّفات أجمل وأحبّ من تصرّفاتِه؟

فأجابت مشمشة:

- وَمَن قال لك يا سيّدتي أنّه كان كما تصوّرتِه؟ ألم تكن بسيكيه<sup>(1)</sup>  
تظنّ أنّ الحبّ أفعى؟ ما أشبه مغامرتك بمغامرتِها، ولست أقلّ  
جمالاً. إذا كان كوبيدون<sup>(2)</sup> هو من يحبّك أفلا تقيّنين في غرامه؟

قالت الأميرة وهي تحمّر خجلاً:

- إذا كان كوبيدون والمجهول شخصاً واحداً فإنّي لأريدُ حقاً أن  
أعزّم بكوبيدون. ولكن للأسف ما أبعدي عن مثل هذه السعادة!  
أنا متعلّقة بوهم، وهذا الرّسم المحتم للمجهول، مقروناً بما قلته لي  
عنه، يرميني في حالٍ تتناقض والتعاليم التي تلقّيتها من والدتي، ولا  
أستطيع بالتالي إلّا الخوف من العقاب.

قالت مشمشة وهي تقاطعها:

- ولكن مهلاً يا سيّدتي، أليس لديك ما يكفيك من متاعب؟ فلم  
التحسّب لمصائب لن تحدث أبداً؟

من السهل تخيّل مقدار اللذة التي أثارَتها هذه المحادثة في نفس  
لياندر.

إلّا أنّ غضبان، ذلك الصّبيّ البالغ الشّبّه بأحد الأقزام، والذي  
كان لا يزال مغرماً بالأميرة دون أن يراها، كان ينتظر بلهفة عودة  
رجالِ الأربعة الذين أرسلهم إلى جزيرة الملذات الهانئة وعادَ

(1) بسيكيه Psyché: أميرة في الميثولوجيا الرومانية ألهمت كوبيدون الحبّ وبعد مغامرات  
عدّة أصبحت زوجته. رُفعت إلى مرتبة إلهة. سبقت الإشارة إليها.

(2) كوبيدون: هو في الميثولوجيا الرومانية إله الحبّ، يوازي إيروس لدى الإغريق. يُعتبر  
رسول الحبّ ويُرسّم غالباً في حياة طفل جميل يحمل قوساً وعلى أهبة إطلاق سهامه.



منهم رجل واحدٌ وأخبره عن كلِّ شيءٍ. قال له إنَّ الجزيرةَ تحميها الأمازونيات، وإذا لم يجهز هو جيشاً ضخماً لمهاجمة الجزيرة فلن يدخلَ أبداً إليها.

كان الملك والده قد توفيَ لتوِّه فوجدَ نفسه سيِّداً على كلِّ شيءٍ. فجمعَ أكثرَ من أربعمئة ألف رجلٍ وسارَ على رأسهم. كانَ جنرالاً مهيباً فعلاً: يمكن القول إنَّ القردَّين بريسكامبيل وبرسيفوريه كانا أفضلَ منه منظراً. كان حِصان القتالِ لديه لا يزيد ارتفاعُهُ على متر. وعندما لمحت الأمازونيات ذلك الجيش الضخم جئنَ ليُعلمنَ الأميرة التي أرسلت في الحال مشمشة الوفية إلى مملكة الجنيات لكي تتوسَّل إلى أمها أن تقولَ لها ما الذي يجب فعله لِطُرْدِ غضبان القصير من مملكتها. لكنَّ مشمشة وجدَّت الجنيَّة غاضبة جداً.

قالت لها:

- لست بغافلة عمَّا تفعله ابنتي. الأمير لياندر في قصرها، يحبُّها وتحبُّه. إنَّ كلَّ الاحتياطات التي اتخذتها لم تستطع حمايتها من استبداد الحبِّ؛ ها هي واقعةٌ تحت سطوتِهِ المشؤومة. وأسفاه! الحبُّ المتوحش لم يكتفِ بعد بالعذابات التي تسبَّب لي بها، لا يزال يتحكَّم بأغلى ما عندي! تلك هي حِكْمَةُ القَدَر ولا أستطيعُ الوقوفَ في وجهها. انصري يا مشمشة لا أريد أن أسمعَ شيئاً عن هذه الفتاة التي تُضنيني حالتها!

جاءت مشمشة تُعلمُ الأميرة بهذه الأخبار السيئة، ما أغرَقها في يأس كبير. كان عفريت قريبها دون أن تراه ويُعذِّبه ألماً المبرح. لم يجرؤ على التحدُّث إليها في تلك اللَّحظة؛ لكنَّه تذكَّر أنَّ غضبان كان شديد التعلُّق بالمال؛ وإذا قُدِّمت ثروة ضخمة فقد يتراجع عن مخططاته.

ارتدى عفریت ثوبَ أمازونيةٍ وتمنى أن يكون في الغابة لِيَسْتَعِيدَ حصانه. ما إن نادى على جواده أشهب حتى جاءه قافراً ومنظِطاً لأنه كان سَمِّمَ كثيراً لا بَتَعَادِ سَيِّده العزيز عنه. لكن عندما رآه مرتدياً ثوباً نساتياً لم يتعرّف إليه وَحَشِيَ أن يكون في الأمر خدعة ما. وصل لياندر إلى معسكر غضبان فاعتقد الجميع أنه أمازونية لجمالها الفائق. ذهبوا يقولون للملك إن سَيِّدة شابّة تطلب التحدّث إليه من جانب أميرة الملذّات الهانئة. أخذ معطفه الملكيّ بسرعة وجلس على عرشه فبدا كضفدعة ضخمة تتظاهر بأنّها ملك.

ألقي لياندر خطبته وقال له إنّ الأميرة تُفضّل حياة هادئة وهانئة على متاعب الحرب وقد أرسلته لكي تقدّم له من المال بقدر ما يشاء شرط أن يتركها بسلام. وإذا ما رُفِضَ هذا الاقتراح، فلن تألو جهداً للدفاع عن نفسها. أجاب غضبان أنّه يريد فعلاً أن يشفق عليها وأن تمنّحه شرف حمايتها، وما عليها إلا أن تُرسلَ إلى مملكته مائة ألف ألف إنّ عدّها سيستغرق وقتاً طويلاً جداً وإنّه ما عليه إلا أن يقول كم غرفة يريدّها مليئة بالمال، وإنّ الأميرة من السخاء والجبروت بحيث تعطي دون حساب.

مكث غضبان مندهشاً من هذا العرض فبدل أن يُطلب منه إخفاض القيمة، يُقترح عليه زيادتها. ففكر في نفسه بأنّه يجب أخذ كلّ المال الذي يستطيع ثمّ اعتقال الأمازونية وقتلها لكي لا تعود إلى سيّدتها.

قال لِياندر إنّه يريد ثلاثين غرفة كبيرة مليئة كلّها بالقطع الذهبية وإنّه يعطي كلمته كملك بأنّه سيراّجِع عن حملته الحربيّة. اقتيد لياندر إلى الغرف التي يُفترض به أن يملؤها ذهباً. أخذ الوردة السحريّة

وهزّها باستمرار. فتكدّست اللّيرات واللويستات والزّيالات  
الذّهبيّة<sup>(1)</sup>... كلّ ذلك انهمّر مثل مطر غزير: لا شيء في العالم أجمل  
من ذلك المنظر.

ابتهج غضبان وأخذته نشوة، وكلّما رأى ذهباً زادت رغبته في  
الإمساك بالأمازوتية وبالأميرة. وما إن امتلأت الغرّف الثلاثون  
حتى صرّخ بحرّاسه:

- اقبضوا، اقبضوا على هذه اللصّة فهي تجلب لي مالاً مزيفاً.

أراد جميع الحراس الانقضاض على الأمازوتية ولكن عفرتاً  
وضّع فوراً القبعة الصّغيرة الحمراء واختفى في الحال. ظنّوا أنّه خرج  
فركضوا خلفه وتركوا غضبان وحيداً. وفي تلك الأثناء، أمسك به  
عفريت كمن يُمسك بفرخ دجاج، وأجهز عليه من دون أن يرى  
التعيس القصير اليد التي كانت تمسك به.

وعندما انتهى عفرت من أمر غضبان، تمّنى أن يكون في قصر  
الملدّات. كانت الأميرة تنزّه وهي تفكّر بحزن في ما قالتها والدتها  
وبالوسائل اللّازمة لدخّر غضبان، وكانت تجد أنّ تلك الوسائل  
مستعصية لأنّها وحيدة مع عددٍ صغير من الأمازوتيات اللّواتي لا  
يستطعن الدّفاع عنها في مواجهة أربعمئة ألف رجل. وفي الحال  
سمعت صوتاً يقول لها:

- لا تخشي شيئاً أيتها الأميرة الرّائعة، لن يؤذيك غضبان بعد الآن  
أبداً.

تعرّفت مشمشة إلى صوت لياندر فهتفت:

(1) إنّ العُمَلات التي تذكرها الكاتبة، لا في هذه الحكاية وحدها بل في مجمل هذا الكتاب،  
هي خليط من عُمَلات فرنسيّة وغير فرنسيّة (إسبانيّة بخاصّة)، وتعود إلى حقّب مختلفة  
تجمع هي بينها على سبيل المبالغة وعلى هوى مخيلتها الأدبيّة.

- أوكد لك يا سيدي أن اللامرئي الذي يتكلم هو الغريب الذي  
قدم لي النجدة.

بدأت الأميرة مندَهشة ومبتَهجة.

قالت:

- آه إذا كان صحيحاً أن عفريت والغريب هما شخص واحد،  
أعترف أنني سأسرّ كثيراً بالتعبير له عن امتناني وشكري!

قال عفريت:

- سوف أعمل كل ما في وسعي على استحقاقهما.

وبالفعل، عادَ إلى جيش غضبان حيث انتشر خبرُ موتِ هذا  
الأخير للتوّ. وما إن ظهرَ لياندر هناك بلباسه العاديّ حتّى هُرِعَ  
الجميع نحوّه. أحاطَ به القادة والجنود وهم يطلقون صيحات  
الابتهاج واعترفوا به ملكاً عليهم وبأحقّيته في تولّي العرش. فأذنَ  
لهم بأن يتقاسموا بسخاء فيما بينهم الغرف الثلاثين المليئة ذهباً بحيث  
يظلّ ذلك الجيش غنيّاً إلى الأبد.

وبعدَ بضعة احتفالات أكّدت للياندر إيمان جنوده به، عادَ إلى  
أميرته، أمراً جيشه بأن يذهب إلى مملكته على دفعاتٍ مُتتالية. كانت  
الأميرة قد خلّدت للتوم، والاحترام الكبير الذي يُكته لها ذلك الأمير  
كان يمنعه من الدخولِ إلى غرفتها؛ انسحبَ إلى غرفته لأنّه كان ينامُ  
دوماً في الأسفل. وكان هو نفسه تعباً جداً وبحاجةٍ إلى الرّاحة. ما  
جعلّه ينسى أن يغلق الباب بعناية كما يفعل عادةً.

كانت الأميرة تخنق من الحرّ والقلق. نهضت باكرًا أبكر من المعتاد  
مع الفجر ونزلت في ثياب التوم إلى شقتها السفلى، ولكن كم كانت  
دهشتها كبيرة أن تجدَ لياندر نائماً على أحدِ الأسرة! تسنى لها الوقت  
كلّه لكي تنظرَ إليه دون أن يراها أحد وأن تتأكد من أنّه الشخص

الذي حصّلت على صورته في علبة الألبان.

قالت:

- ليس من المعقول أن يكون هذا عفريتاً! أفنّام العفاريت؟ هل هذا جسد من هواء ونار لا يشغل أيّ مكان كما تقول مسمّشة؟  
لامست شعره برقة واستمعت إلى تنفّسه، ولم تكن تستطيع الابتعاد عنه. تارة تشعر بالبهجة للعثور عليه، وتارة أخرى يُشعرها وجوده بالخطر. وأثناء استغراقها في النّظر إليه بانتباه، دخلت أمّها الجنيّة محدثةً جلبّة رهيبية فاستيقظ لياندر مذعوراً. وكم كانت دهشته كبيرة وكم كان حزنه شديداً لرؤيته أميرته في غمرة اليأس! كانت أمّها تجتذّبها موجّهة إليها أشدّ الملامات. آه يا للألم الذي أصاب قلبي هذين العاشقين اليافين! وجدنا نفسيهما على وشك الافتراق للأبد. لم تجرؤ الأميرة على قول شيءٍ للجنيّة الرهيبة. نظرت إلى لياندر وكأتمها تطلب منه نجدة ما.

أدرك تماماً أنه لا يستطيع إنقاذها من قبضة تلك الجنيّة الجبّارة، لكنّه سعى للركون إلى فصاحته وخضوعه ليؤثّر في تلك الأمّ الغاضبة. هُرِعَ راكضاً خلفها وارتمى عند قدميها. استحلّفها أن تشفق على ملك شاب لن يتغيّر حبه لابنتها وستكون ذروة غبّطته متمثلة في جعلها سعيدة. وتشجّعت به الأميرة وحذت حذوه وقبّلت على الفور ركبتي أمّها قائلة لها إنّها لا تستطيع أن تكون سعيدة من دون الملك وأنها تدين له بمعروف كبير.

هتفت الجنيّة:

- أنت لا تعلمين شيئاً عن مغبات الحب ولا عن الخيانات التي يقدر على اقترافها هؤلاء المخادعون المتودّدون. إنهم لا يفتنوننا إلا لكي يُسمّموا لنا حياتنا. لقد سبق لي أن عشت هذه التجربة. فهل

تريدين أن يكون مصيرك مُشابهاً لمصيري؟

أجابتها الأميرة:

- آه! يا سيّدي أليس هناك من استثناء؟ ألا تبدو لك الضّمانات التي يقدّمها الملك في منتهى الصدق؟ أو لا تحميني من الأشياء التي تخشيتها؟

لم تأبه الجنيّة العنيدة بالعاشقين المتألمين المرتميّن عند قدميها؛ كان غير مجّد أن يبّلا يديها بدموعهما؛ بدت عديمة الإحساس. وبالطّبع، لم تكن لتسأحهما لولا لم تظهر الجنيّة لطيفة في الغرفة أكثر سطوعاً من الشّمس. كانت ربّات الجمال والحكمة والفنّ يرافقنها وحلّفهنّ فريق من ملائكة الحبّ واللّهو والملاذات يغنون ألف أغنية عذبة جديدة. كانوا يتقافزون كجوقة أطفال.

قبّلت الجنيّة العجوز وقالت لها:

- يا أختي العزيزة، أنا مقتنعة أنّك لم تنسي الخدمات الجليلة التي أدّيتها لك عندما أردت الرجوع إلى مملكة الجنيات. لولاي لما استقبلتُك، ومنذ ذلك الوقت لم أطلب منك أية خدمة. ولكن أخيراً حان الوقت لتؤدّي لي خدمة جوهرية. اغفري لهذه الأميرة الجميلة ووافقي على أن يتزوجها هذا الملك الشاب. أكفل لك أنّه لن يتغيّر معها. ستكون أيامها منسوجة بالذهب والحريّر. وهذا الزّواج سيملوك رضاً ولن أنسى أبداً الفضل الذي سأدين لك به.

فقال لها الجنيّة:

- إنني أقبل بتنفيذ كلّ ما ترغين فيه يا عزيزتي لطيفة.

ثمّ التفتت إلى العاشقين وقالت لهما:

- إقربا منّي يا صغيري، تعالوا لأعانقكما ولتتلا عربون مودّتي!  
وعندما أنهت كلامها، قبّلت الأميرة وعشيقها. طارت الجنيّة

لطيفة فرحاً وأخذت تُنشد مع كلّ الفرقة أغاني الرّفاف. أيقظت تلك السّمفونيّة العذبة جميع حوريات القصر فهَرَّعنَ مرتدياتِ أبواباً شفافة ليستعلمنَ عما يجري.

وأية مفاجأةٍ لذيذةٍ كانت في انتظار مشمشة! ما كادت ترنو إلى لياندر حتى تعرّفت إليه. وإذ رآته يمسك بيدِ الأميرة لم تشكّ إطلاقاً بسعادتهما المشتركة. وذلك ما تأكّد لها عندما قالت الأمّ الجنيّة إنّها ستنقل جزيرة الملذّات الهانئة والقصر وكلّ الرّوائع التي يحتويها إلى مملكة لياندر؛ وإنّها ستقيم معها وسوف تقدّم لهما خيرات أكبر.

قال لها الملك:

- مَهْما أوحى لك سخاؤك من عطايا يا سيّدي فإنّ من المستحيل أن تقدّمي لي هديّة تُضاهي الهدية التي تلقّيتها اليوم. أنتِ تجعليني أسعدَ الرّجال، وأشعرُ جيّداً أنّي أيضاً أكثر امتناناً.

راقت هذه المُجاملة الصّغيرة للجنّة كثيراً. كانت تنتمي إلى الأزمنة الخوالي حيث كانوا يتبادلون عبارات الثناء على أدنى الأشياء نهراً بكامله.

وبما أنّ الجنّة لطيفة تفكّر في كلّ شيء فقد أمرت بأن يُنقل الجنرالات والقادة الموجودون في جيش غضبان دون تمييز إلى قصر الأميرة لكي يكونوا شهوداً على الاحتفال الأنيق الذي سيُقام. وعُنيّت بالفعل بذلك الأمر. إنّ خمسة مجلّدات أو ستّة لن تكون كافية لوصف المسرّحات الكوميديّة وحفلات الأوبرا والمقطوعات الموسيقيّة ومباريات الخاتم<sup>(1)</sup> وحفلات المصارعة والصّيد والرّوائع الأخرى التي تضمّنها ذلك الرّفاف السّاحر.

(1) في هذه اللّعبة يتبارى الفرسان للإمساك بخاتم معلق إلى عمود وسط حلبة المباراة، فيكون الفائز هو من يلتقط الخاتم برأس رمحه فيما هو يعدو على ظهر جواده بسرعة.

ولكنّ الفريدَ في الأمرِ هو أنّ كلّ حوريّةٍ وَجَدَتْ، بين الشَّجَعانِ  
الذينَ جَلِبَتْهُمُ الجَنِّيَّةُ لطيفةً إلى تلكِ الأمكنةِ الجميلةِ، زوجاً شغوفاً  
وكأنَّهما يعرفانِ أحدهما الآخرَ منذَ عشرِ سنواتٍ، مع أنّهما تعارفاً منذَ  
أربعِ وعشرينَ ساعةً فقط. لكنّ العصا السَّحريَّةَ الصَّغيرةَ تُحَدِّثُ  
نتائجَ أكثرَ عجباً أيضاً.

ماذا صارَ بِحالِ ذلكَ الزَّمنِ السَّعيدِ  
حينَ نُجِّيَتْ البراءةُ  
بقدرَةِ جَنِّيَّةِ

من بَرائِنِ الأخطارِ الواضحةِ كَعَيْنِ الشَّمْسِ.  
رأينا القدرةَ الجبَّارةَ لِقَبَعَةٍ ووردةِ  
وكم من التَّحوُّلاتِ حصلتْ بفضلهما.  
رأينا كيفَ أنّ فانياً كانَ يجولُ العالمَ  
يرى كلّ شيءٍ ولا يُرى  
وكيفَ وجدَ في الفضاءاتِ دَرْباً مجهولاً.  
كانَ لياندر يملكُ ورداتٍ عجيبةَ  
الوردةِ الأولى تغدقُ عليه  
ذاك المعدنَ الثمينَ الذي منه تولدُ المَلدَّاتِ  
والوردةِ الثانيةِ

تمنَّحه صحَّةَ لا سائبةَ فيها  
والوردةِ الثالثةِ، وهيَ في رأيي الأخطرُ،  
تكشفُ له عن عاطفةِ المحبوبِ  
وتريه ما إذا كانَ حبُّه حقيقيّاً أم مُخادِعاً.  
وا أسفاه، كانَ سعيداً من يقدرُ أن يغفلَ



عن امرأة تداهنه وتغمره بالقبلات  
فيما هي لا تملك تجاهه إلا طيفاً من الحب.



## الأميرة روزيت

كان يا ما كان، كان هناك ملكٌ وملكةٌ رُزقا بصبيّين جميلين ممتلئين مشرقين كالنهار بفضل عناية أبويهما ورعايتهما الدؤوب. وكانت الملكة، كلِّما رُزقت بطفل، تدعو الجنّيات للاحتفالِ بولادته متوسّلة إليهنّ أن يتكهننّ بمستقبله.

وأنجبت الملكة بنتاً صغيرة جميلة، وكانت في منتهى الجمال، ولا يمكن رؤيتها دون أن تُحَبَّ. قدّمت الملكة الأطايبَ للجنّيات اللواتي جئنَ لرؤيتها. وعندما تأهّبنَ للرّحيل قالت لهنّ:

- لا تنسوا العادة الصّالحة التي درّجتنّ عليها. قلنّ لي ماذا سيحصل لروزيت (هكذا سُمّيت الأميرة الصغيرة)؟

قالت لها الجنّيات إنهنّ نسينَ كتابَ الطّلاسم في المنزل وإنهنّ سيأتين مرّة أخرى لزيارتها.  
قالت الملكة:

- آه! هذا لا يُيسّر بالخير. تتحاشين أن تتنبّأن بشيءٍ قد يجلب الحزن إلى نفسي. لكنّي أتوسّل إليكنّ أن تُعلّمنني بكلّ شيءٍ دون تردّد. قدّمنّ لها اعتذارهنّ، ورغبت الملكة في أن تعرفَ أكثر عن الموضوع. وأخيراً قالت لها السّاحرة الأصغر سنّاً:

- نخشى يا سيّدتي أن تتسبّب روزيت بمأساةٍ كبيرةٍ لأخويها وأن يقضيا بسببِ مسألةٍ تتعلق بها. هذا كلّ ما نستطيع تكهّنه فيما يخصّ الفتاة الصّغيرة. نحن مستاءات جدّاً لأننا ليس لدينا أخبار أفضل ممّا أبلغناك إيّاه.

ودّهبن. وبقيت الملكة في حزنٍ شديدٍ، ما جعلَ الملك يُلاحظ

حزنها من سيئاتها.

سألها عما بها. أجابته إنها اقتربت كثيراً من النار وأنها أحرقت كل الكتان الذي على مغزها. قال لها الملك:

- أهذا كل شيء؟

ثم صعد إلى عليته وجلب لها من الكتان ما لا تستطيع أن تنسجه في مائة عام. لكن الملكة ظلت على حزنها. سألتها ما بها.

قالت له إنها فيما كانت على ضفة النهر، أوقعت خفها الذي كان من الساتان الأخضر في مجرى الماء. فقال لها الملك:

- أهذا كل شيء؟

وأرسل في طلب إسكافتي الملكة وجلب لها عشرة آلاف خف من الساتان الأخضر.

لكنها ظلت حزينة، فسألها عما بها. فقالت له إنها إذ أكلت بشهية كبيرة، التهمت خاتم العرس الذي كان يزین إصبعها، فعرف الملك أنها تكذب لأنه سبق له أن أخفى ذلك الخاتم. قال لها:

- يا زوجتي العزيزة أنت تكذبين! هذا هو خاتمك الذي أخفيتها في صرة نقودي.

اللعنة! لقد ضبطها بالجرم المشهود، فالكذب هو أقبح رذيلة في العالم. رأت الملك حرداً. فباحث له بما تنبتت به الجنيات عن روزيت الصغيرة. وقالت له إن كان لديه تصوّر لحلّ فليقله. حزن الملك كثيراً واعترف أخيراً للملكة قائلاً:

- لا أعرف وسيلة أخرى لإنقاذ ولدينا سوى أن نهلك روزيت. لكن الملكة اعترضت هاتفة أن لا حياة لها من بعدها، وسألته التفكير بحل آخر. في تلك الأثناء أبلغت الملكة بأن ناسكاً طاعناً في السن كان يقطن في غابة كبيرة وبنام في جذع شجرة، وكان الجميع

يذهبونَ لاسْتِشارَتِهِ من كَافةِ أنْحاءِ العالَمِ.

قالَتِ المَلِكَةُ:

- عَلَيَّ الذَّهابُ إِلَيْهِ. الجَنِيَّاتُ تَتَبَّانِ لِي بِالشَّرِّ لَكِنَّهُنَّ نَسِينَ إِعْطائِي  
الحَلَّ لِتَفادِيهِ.

واعتَلَّتْ منذ الصَّباحِ الباكرِ ظَهَرَ بَغْلَةً صَغِيرَةً بِيضاءَ ذَهَبِيَّةِ  
الحِوافرِ، بِرِفْقَةٍ اثْنَتَيْنِ من وِصيفاتِها امتَطَّتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْها حِصاناً  
جَميلاً. وَعندما أَصْبَحْنَ بِالقُرْبِ مِنَ الغابَةِ، نَزَلَتِ المَلِكَةُ ووَصيفتاها  
عَنْ ظَهْرِ الأُحْصَنَةِ وَذَهَبْنَ إِلى الشَّجَرَةِ حَيْثُ يَقِيمُ النَّاسِكُ الَّذِي لَمْ  
يَكُنْ يَجِبُ إِطْلاقاً رُؤيةَ النِّساءِ لَكِنَّهُ عَندما تَعَرَّفَ إِلى المَلِكَةِ قالَ لها:

- أَهلاً وَسَهلاً بِكَ! قولي ما ذا تَريدِينَ مِنِّي؟

فأخْبَرَتْهُ بِما قالَتِ الجَنِيَّاتُ عَن رُوزِيتِ طالِبَةِ مَشورَتِهِ. أَجابَها إِنَّهُ  
يَجِبُ إِخفاءُ الأَميرَةِ داخِلَ أَحَدِ الأَبراجِ وَمنعُها مِنَ الخُرُوجِ إِطْلاقاً.  
شَكَرَتْهُ المَلِكَةُ مَتصدِّقَةً عَلَيهِ بِمِبلَغِ كَبيرِ، وَعادَتْ لِتُخْبِرَ كُلَّ شَيْءٍ  
لِلْمَلِكِ. وَلِلحالِ أَمَرَ بِبِناءِ بَرجِ كَبيرٍ عَلَي وَجهِ السَّرعَةِ. وَأسَكَنَ فِيهِ  
ابنَتَهُ. وَحَتَّى لا يَصبِيها المَلَلُ، كانَ المَلِكُ وَالْمَلِكَةُ وَأَخواها يَزرُونَها  
كُلَّ يَومٍ. وَكانَ الابنُ البَكرُ يُدعى الأَميرُ الكَبيرُ والثاني يَدعى الأَميرُ  
الصَّغيرُ، وَكانا يُحِبَّانِ أختَهما حُباً جَمّاً لِأَنَّها كانَتِ أَجَمَلَ فَتاةٍ فِي العالَمِ،  
وَأَقَلَّ نَظَرَةَ مِنْها تُساوِي مالَ الدُّنيا. وَعَندما بَلَغَتِ الخامِسةَ عَشرةَ مِنَ  
عَمَرِها قالَ الأَميرُ الكَبيرُ لِلْمَلِكِ:

- ها قَد كَبُرَتِ أُختِي وَصارَتِ فِي سَنِّ الزَّواجِ، أَلّا يَجِدُرُ بِنائِ  
تَزوِيجِها فِي أَقربِ وَقْتٍ؟

وَقالَ الأَميرُ الصَّغيرُ الشَّيْءَ نَفسَهُ لِلْمَلِكَةِ وَلَكِنَّ جِلالَتِهما رَواغِيا  
بِإِجاباتِهما. إِلاَّ أَنَّ مَرَضاً أَصابَ المَلِكَ وَالْمَلِكَةَ وَتَوفِياً فِي يَومينِ  
مَتقارِبينِ. اتَّسَخَ البِلاطُ بِالسَّوادِ وَقُرِعَتِ الأَجراسُ فِي كُلِّ مَكانٍ. لَمْ

تكن روزيت تتعزّي على وفاة والدتها.

بعدما دُفِنَ الملك والمملكة، أضعَدَ مازكيزات المملكة ودوقاتها الأميرَ الكبيرَ على عرش من الذهب والألماس؛ تكلَّلَ رأسه بتاج جميل وارتدى ثياباً من المخمل البنفسجيّ الموشى بالشموس والأقمار. ثم هتف أفراد الحاشية ثلاث مرّات «يحي الملك!»، وصار همُّ الجميع محصوراً في إقامة المسرّات. واتخذ الملك وأخوه القرار التالي:

- الآن وقد أصبحنا السيّدِين في المملكة، يجب أن نُخرِجَ شقيقتنا من البرج الذي يُشعرُها بالسّام منذ وقتٍ طويل.

لم يكن عليهما إلا أن يجتازا الحديقة للذهاب إلى البرج الذي بُني على ارتفاع هائل لأن الملك والمملكة أرادا أن تسكنَ فيه دوماً. كانت روزيت تطرّزُ ثوباً جميلاً على التول أمامها. عندما رأت أخونها نهضت ثم أمسكت بيد الملك وقالت له:

- صباح الخير يا مولاي! أنت الآن الملك وأنا خادمك الوفيّة. أتوسّل إليك أن تُخرِجني من البرج لأنني أعاني فيه من سأم كبير. وأخذت تبكي.

قبّلها الملك وأمرها بأن تكفّ عن البكاء، وأخبرها بأنّه أتى ليُخرِجها من البرج ويصطحبها إلى قصر جميل. كانت جيوب الملك مليئة بحبّات الملابس التي أعطى منها روزيت قائلها:

- هيا، لنُخرِج من هذا البرج اللعين! الملك سيُزوِّجك عمّا قريب، لا تحزني!

عندما رأت روزيت الحديقة الجميلة مليئة بالأزهار والثمار والتوافير، أصابها الدهول ولم تستطع أن تنبس بكلمة لأنّها لم ترَ حتّى ذلك الحين شيئاً بذلك الجمال. جالت المكان بنظرها. كانت تسير ثم تتوقّف لتقطف الثمار من الأشجار والأزهار في الرياض.

كَانَ كَلْبُهَا الصَّغِيرُ يُدْعَى بِصَبُوصٍ، لِأَنَّهُ كَانَ مَوْلِعًا بِالْبَصْبَصَةِ، أَي تَحْرِيكَ ذَنْبِهِ. وَكَانَ أَخْضَرَ مِثْلَ بَيْغَاءٍ. لَدَيْهِ أُذُنٌ وَاحِدَةٌ وَيَرْقُصُ حَتَّى يُخْطِفَ الْأَنْفَاسَ. جَرَى أَمَامَهَا وَرَاحَ يَنْبَحُ وَيَقْفِزُ وَيَنْطِنِطُ دُونَ كَلَلٍ، فَادْخَلَ بِحَرَكَاتِهِ الْبُهْجَةَ إِلَى قُلُوبِ الْجَمِيعِ. وَفَجْأَةً أَخَذَ يَرْكُضُ فِي غَابَةِ صَغِيرَةٍ فَتَبِعَتْهُ الْأَمِيرَةُ وَأَصِيبَتْ بِالذَّهْشَةِ لَمَّا رَأَتْ فِي تِلْكَ الْغَابَةِ طَاوُوسًا كَبِيرًا يَنْشُرُ رِيشَ ذَنْبِهِ. بَدَا لَهَا جَمِيلًا جَدًّا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَشِيخَ بِنَظَرِهَا عَنْهُ.

أَقْرَبَ الْمَلِكُ وَالْأَمِيرُ مِنْهَا وَسَأَلَاهَا مَا الَّذِي يُلْهِمُهَا فَأَشَارَتْ إِلَى الطَّاوُوسِ وَسَأَلْتَهُمَا مَا يَكُونُ، فَقَالَا لَهَا إِنَّهُ طَائِرٌ يُؤْكَلُ أحيانًا.  
قالت:

- ماذا! كيف يجرؤ الناس على قتل طائر بهذا الجمال وأكله؟  
أعلمكما منذ الآن أنني لن أتزوج أبداً إلا ملك الطواويس، وعندما أصبح الملكة، سأحرم أكل هذا الطائر.

تعجب الملك مما تقوله شقيقته عجباً كبيراً. قال لها:

- ولكن يا אחتي، أين تريدین أن نعثر لك على ملك الطواويس؟  
- حينما شئت يا مولاي! لكنني لن أتزوج أحداً سواه.

بعد أن اتخذت هذا القرار اصطحبها الأخوان إلى قصرهما، وأخضر الطاووس إلى غرفتها. لم تكن أغلب النساء في القصر قد رأين روزيت من قبل فهرعن لإلقاء التحية عليها، منهن من جلب لها المرقيات، ومنهن السكر، وأخریات فساتين الذهب وأشرطة جميلة ودُمى وأحذية مطرزة ولآلئ وألباساً. وكانت من اللبابة وحسن التهذيب بحيث كانت تشكر الجميع وتنحني أمامهم بإجلال واحترام، ما جعل الجميع، رجالاً ونساءً، يعودون إلى بيوتهم مسرورين. وفيما كانت تتحدث إلى الأصدقاء، راح الملك والأمير

يَفْكَرَانِ فِي طَرِيقَةِ اللُّعْثُورِ لَهَا عَلَى مَلِكِ الطَّوَاوِيسِ إِنْ كَانَ يَوْجَدُ مَلِكِ  
طَوَاوِيسِ فِي الْعَالَمِ. ثُمَّ فَطِنَا أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهَا أَنْ يَوْصِيَا بِإِنجَازِ رَسْمِ  
لِلْأَمِيرَةِ رُوزِيْتِ. وَحِينَ أُنْجِزَ، كَانَ رَسْمًا فِي مَتْنِهِ الْجَمَالِ لَا يَنْقُصُهُ  
سِوَى التَّنَطُّقِ.

قَالَ لَهَا:

- بِمَا أَنَّكَ لَا تَرِيدِينَ إِلَّا الزَّوْجَ بِمَلِكِ الطَّوَاوِيسِ فَسِرْحَلِ مَعًا  
وَنَذْهَبِ لِلْبَحْثِ عَنْهُ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا. أَهْتَمِّي بِشُؤْنِ الْمَمْلَكَةِ بِانْتِظَارِ  
أَنْ نَعُودَ.

شَكَرْتُهُمَا رُوزِيْتِ عَلَى الْعِنَاءِ الَّذِي سَيَتَكَبَّدَانِهِ مِنْ جِرَاءِ تِلْكَ  
الرَّحْلَةِ، وَقَالَتْ لَهَا إِنَّهَا سَتَحْكُمُ الْمَمْلَكَةَ كَمَا يَجِبُ، وَسَتَكُونُ هَوَايْتَهَا  
أثناء غِيَابِهَا التَّنْظَرِ إِلَى الطَّوَاوِيسِ الْجَمِيلِ وَتَرْقِصُ بِصَبُوصِ. وَبَكَى  
الْجَمِيعُ لِحِظَةِ الْوَدَاعِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ الْأَمِيرَانِ فِي رِحْلَتِهِمَا وَكَانَا يَسْأَلَانِ كُلَّ مَنْ يُصَادِفَانِهِ:

- هَلْ سَمِعْتُمْ بِمَلِكِ الطَّوَاوِيسِ؟

وَكَانَ جَوَابُ الْجَمِيعِ هُوَ:

- لَا، لَا! لَمْ نَسْمَعْ بِهِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَا سَيْرَهُمَا ذَاهِبِينَ إِلَى مَسَافَةٍ أَبْعَدَ بِأَطْرَادِ، ابْتَعَدَا أَكْثَرَ مِنْ  
أَيِّ كَانَ وَوَصَلَا إِلَى مَمْلَكَةِ الْخَنَافَسِ. لَمْ يَرِيَا خَنَافَسَ أَكْثَرَ عِدْدًا مِنْ  
تِلْكَ الْمَوْجُودَةِ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ، وَكَانَتْ تَحْدِثُ طَنِينًا هَائِلًا مَا جَعَلَ  
الْمَلِكَ يَخَافُ مِنْ أَنْ يُصَابَ بِصَمَمٍ. سَأَلَ الْخَنَفَسَاءَ الَّتِي بَدَتْ لَهُ أَكْثَرَ  
هُدُوءًا مِنْ سِوَاهَا، إِذَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَيْنَ يَوْجَدُ مَلِكِ الطَّوَاوِيسِ.

قَالَتْ لَهُ:

- مَوْلَايَ، إِنَّ مَمْلَكَتَهُ تَقَعُ عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَرْسَخٍ مِنْ هُنَا.  
وَأَنْتَ اتَّخِذِي الطَّرِيقَ الْأَطْوَلَ لِلذَّهَابِ إِلَيْهِ.



سألها الملك:

- وكيف عرفتِ هذا؟

أجابَت الخنفساء:

- هذا لأننا نعرفك جيداً ونذهب في كلِّ سنة لتمضية شهرين أو ثلاثة في حدائق قصرِك.

وأحاط الملك وأخوه الخنفساء بذراعيهما، كلُّ من جهة. وتناولوا العشاء سوياً كبادرة صداقة. وكانا ينظران بإعجاب إلى كلِّ أنحاء تلك البلاد حيث أصغر ورقة في الشجرة تساوي ليرة ذهبية. وبعدئذ استأنفا رحلتها من جديد، ولم يستغرقا وقتاً طويلاً لمعرفتهما الطريق. حين وصلنا، أيقنا أنّ الطواويس تغلغلت داخل كلِّ الأشجار وملاّت كلَّ الأمكنة حتى بات زعيقها ولغوها يُسمعان عن مسافة فرسخين. قال الملك لأخيه:

- إذا كان ملك الطواويس طاووساً هو نفسه، فكيف تريد شقيقتنا الاقتران به؟ على المرء أن يكون مجنوناً لكي يوافق على أمر كهذا. ثم أي نسل ستُنجب لنا، هل سيكون أولاد أختنا فراخ طواويس؟ كذلك أحاط الأمير بخطورة المسألة وقال:

- إنها لنزوة غريبة خَطرت لها. لا أعرف كيف تصوّرت أن في العالم ملكاً للطواويس!

عندما وصلنا إلى المدينة الكبيرة، ألقيناها مزدحمة بالرجال والنساء المصنوعة ملبسهم من ريش الطواويس وكانوا يضعونها في كلِّ مكان وكانت أوفر زينة يمكن التزيين بها. وفي طريقهما، التقيا بالملك الذي خرج ينتزه في عربة صغيرة جميلة موشاة بالذهب والألماس، يجرها اثنا عشر طاووساً بأقصى سرعة. وكان ملك الطواويس ذاك جميلاً جداً وقد افتتن الملك والأمير بجماله: شعره أشقر طويل مجعد،

ووجهه أبيض، ورأسه مكلَّل بتاج من ريش الطاووس.  
عندما رأها عرف أنها غريبةان لا زتدائهما ملابس مختلفة عن تلك  
التي يرتديها أهل البلاد. وللتحقّق من ذلك، أوقف عربته وناداهما.  
اقترب الملك والأمير منه وقد انحنيا بإجلال.  
قالا له:

- مولانا، نحن آتيان من مكان بعيد جداً لكي نطلعك على رسم  
جميل.

وأخرجا من حقيبتيهما رسم روزيت الكبير. حين نظر إليه ملك  
الطاوويس قال:

- لا أستطيع أن أصدق أنّ في العالم فتاة بمثل هذا الجمال!  
قال له الملك:

- إنها مائة مرّة أجمل في الحقيقة.

أجابته ملك الطاوويس:

- لا بدّ أنك تسحر مني!

قال له الأمير:

- مولاي، إنه أخي وهو ملكٌ مثلك. إنّ شقيقتنا التي رأيت  
رسمها هي الأميرة روزيت. جئنا نسألك إذا كنت تريد الزواج بها.  
هي جميلة وفي غاية التعقل. وسوف نقدّم لها صاعاً من الريالات  
الذهبية.

قال الملك:

- يُسعدني الزواج بها. معي لن تفتقر إلى شيء. سأحبّها كثيراً.  
لكنتي أريد أن تكون جميلة بقدر رسمها وإلا قتلتكما.

قال أخواروزيت:

- حسناً نوافق على شرطك هذا.

أضاف الملك:

- توافقان؟ حسناً إذْهبا إذاً إلى السّجنِ وابقيا فيه حتى تأتي  
الأميرة.

وانصاعَ الأميران لطلبِ الملكِ دونَ تردّدٍ لأنّهما كانا متأكّدين أنّ  
روزيت أجملُ من الصّورة. حينَ أدخِلنا السّجن، أكرمهما عن طريق  
خدّمه وغالباً ما كان يذهب لزيارتِهما. ووضَعَ في القصرِ نُصبَ عينيه  
رسمَ روزيت وقد هامَ به فما عادَ يستطيعُ النّومَ لا في اللّيلِ ولا في  
النّهار.

وبها أنّ الملكَ وأخاه كانا في السّجنِ فقد أبقانا إلى الأميرة برسالة  
وطلباً منها أن تجهزَ أمتعتها بسرعةٍ وتستعدّ للرّحيلِ في أقربِ وقتٍ  
ممكن، لأنّ ملك الطّواويس، الذي عثرا عليه أخيراً، يتنظّرها. لم  
يذكرا في الرّسالة أنّهما كانا أسيرينِ مخافةً أن ينشغلَ بالها عليهما. عندما  
وصلتها الرّسالة، طارت الأميرة من الفرح. قالت للجميع إنّ أخويها  
عثرا على ملك الطّواويس وإنّه يريد الزّواجَ بها. أشعلت نيرانَ الفرحِ  
ابتهاجاً وقصفت المدافعَ وأكل الناس في كلّ مكانٍ حبات الملبسِ  
وكرعوا مشروباتٍ محلّاةً بالسكرِ ومفعمة بطعمِ القرفة والقرنفل  
والزّنجبيل. تركت الأميرة أجملَ دميّاتها لصديقاتها، وأودعت مملكةً  
أخيها بين أيدي الشيوخ الأكثرِ حكمةً في المدينة.

وأوصتهم بأن يُعنوا بإدارة كلّ الأمورِ وأن يكفّوا عن صرفِ  
المالِ وأن يجمعوه لأجلِ عودة الملك. وتوسّلت إليهم أيضاً أن  
يهتمّوا بطاووسها إذ لم تشأ أن تصطحبَ معها إلاّ مربّيتها وأختها  
بالرّضاعة، وكلبها الصّغير الأخرى بصبوص. ورخّلت على متن  
مركبٍ في البحر، وحملت معها روزيت صاع الرّيبالات الفرنسيّة  
القديمة ومنّ الملابسِ ما يكفي لعشر سنواتٍ ولتغييرها مرّتين في

اليوم. كنّ يضحكَن ويُغَنين. ثمّ سألت المربّية النوتيّ قائلةً:

- هل قاربنا الوصول، هل قاربنا الوصول من مملكة الطواويس؟  
وكان يقول لها:

- لا، لا زلنا بعيدين.

وسألته مرّة أخرى:

- هل دَنَوْنَا منها، هل دَنَوْنَا منها؟  
قال لها:

- عمّا قريب، عمّا قريب!

وسألته مرّة ثالثة:

- هل أوْشَكْنَا على الاقتراب؟ هل أوْشَكْنَا على الاقتراب؟  
فأجاب:

- نعم، نعم.

وعندما قال ذلك، ذهبت إلى أقصى المركب وجلست قزبه ثمّ  
قالت له:

- إذا شئتَ فسَتَصْبِحُ ثريّاً إلى الأبد.

أجاب:

- أرغبُ في ذلك فعلاً.

وتابعت:

- إذا شئتَ فسوفَ تغنمَ ليراتٍ ذهبيّةً كثيرةً.

أجاب:

- لا أطلبُ شيئاً أفضل.

قالت:

- حسناً، عليك في هذه الليلة وأثناء نوم الأميرة أن تساعِدني

على رَمِيها في البحر. وبعد أن تغرق سألِبِسُ ابنتي ثيابها الجميلة

ونصطحبها إلى ملك الطواويس الذي سيُسعدُهُ جدّاً الزّواج بها،  
ومكافأةً على مساعدتك لي سأهديك ما لا يحصى من قطع الألباس  
الخالص.

دُهِشَ النّوّيّ من عَرْضِ المَرِيّةِ. قال لها إنّهُ لأمرٌ مؤسّفٌ إغراق  
أميرةٍ بمثل هذا الجمالِ وإنّ ذلك يثيرُ إشفاقه. لكنّها أخذت قينيّةً من  
أطيب المشروبات وجعلته يَحْتَسِبُها بحيث لم يعد بمقدوره أن يرفضَ  
لها طلباً.

وإني اللّيل فخلدّت الأميرة للنوم، وكان بصبوص الصّغير  
مضطجعاً بهدوءٍ تحت قدميّها دون أن يُحرّك قوائمه. واستغرقت  
روزيت في نوم عميق. عندئذٍ ذهبَت المَرِيّةُ الشريرة لتأتي بالنوّيّ.  
أدخلته إلى غرفةِ الأميرة ثمّ، من دون أن يوقظها، حملها مع سريرها  
وفراشها وشراشفها وأعطيتها، وساعدتها في ذلك أخذتها بالرضاعة،  
وقذفها في البحر. كانت الأميرة تغطّ في نوم عميق ولم تستيقظ أبداً.  
ولحسن حظّها، كانت فرشتها محشوّّة بأرياش الفينيق النادرة جدّاً  
والتي تمتازُ بأنّها تظلّ طافية على وجه الماء. ما جعلَ الأميرة تسبح في  
مرقدها وكأنّها على متن قارب. ولكنّ الماء بلّل شيئاً فشيئاً فراشها  
فشعرت بالرطوبة وخشيت أن تكونَ بالّت في فراشها وأن تُزجرَ  
على ذلك. وبما أنّها استدارت في سريرها، استيقظ بصبوص، وكانت  
حاسّة شمّه فائقة فاستمّت رائحة أسماك موسى وأسماك القدّ قريبة جدّاً  
فبدأ بالنباح المتواصل بحيث أيقظ الأسماك الأخرى.

وبدأ يسبحان. كانت الأسماك الضخمة تلطم رأسها بسريير  
الأميرة الفالت من كلّ الجهات فيدورُ راقصاً مثل فريرة. اللعنة!  
كانت متفاجئةً جدّاً ممّا يجري لها، قالت:

- هل يرقص مزكّبنا على الماء؟ لم أشعر في حياتي بانزعاج كهذه

وواصل بصبوح نباحه ومقاومته اليائسة. كانت المرتبة الشريرة والنوقى يسمعان صراخهما من مكان بعيد جداً ويقولان:  
- ها إن هذا الكليب المضحك يشرب مع سيدته نخب صحتنا.  
لنعجل بالوصول!

كانا يقتربان من مدينة ملك الطواويس، وكان الملك أرسل إلى شاطئ البحر مائة عربة تجرها جميع أنواع الحيوانات النادرة، من أسود ودببة وأيائل وذئاب وأحصنة وعجول وحمر ونسور وطواويس. كانت العربة المخصصة للأميرة روزيت تجرها ستة قروذ زرقاء تقفز وترقص على الحبل وتقوم بيهلواتيات جميلة، وهي مرتدية بدلات من المخمل القرمزي المزتر بالشرايط الذهبية.

وشوهدت ستون آنسة يافعة اختارهن الملك لتسليتها. كن جميعاً يرتدين ألواناً مختلفة كان فيها الذهب والفضة وما هو أنفَس منها أيضاً. عُينت المرتبة بتزيين ابنتها فكللت رأسها بالماسات روزيت وألبستها ثوبها الجميل: لكنّها كانت رغم كلّ هذه الزينة أقبح من قرودة. شعرها أسود دهنيّ وعيناها بهما حَوْل، وساقاها ملتويتان، وكان هناك حذبة كبيرة في وسط ظهرها. أضف إلى ذلك مزاجها السيئ المتجهّم دوماً وكلامها المهّمهم.  
عندما رآها أفراد حاشية ملك الطواويس خارجة من القارب، مكثوا مندهشين عاجزين عن الكلام.

قالت:

- ما بكم؟ هل كلّكم نيام؟ هيّا، هيّا اجلبوا لي شيئاً أكله! أنتم حثالة رعا، سأمُرّ بشنقكم جميعاً.  
وعند سماعهم كلامها، هتفوا قائلين:

- يا لها من حيوانٍ وضيع! إنها شريرة بقدر ما هي بسعة! آية زوجة للملك! ما كانت تستحقّ عناء إخضرارها من آخر الدنيا إلى هنا!

كانت ابنة المربية تتصرف وكأنها الأميرة الناهية فتوجه الصفعات واللطمات واللكمات إلى الجميع. وكان موكبها كبيراً جداً فمشت على مهل وتربعت مثل ملكة في عربتها. كانت كل الطواويس التي انتظرتها تحت الأشجار لإلقاء التحيّة عليها لدى مرورها، تصرخ هاتفة: «تحيا روزيت الجميلة!». لكن عندما رأتها على هذا القبح هتفت قائلة: «تبا لها! ما أبسعها!». فيها هي تستشيط غيظاً واستياءً قائلة لخراسها:

- اقتلوا هذه الطواويس البائسة التي تكيل لي الشتائم!

وفرت الطواويس بسرعة هازئة بها!

أما النوتيّ التّعس الذي رأى كلّ ذلك فكان يقول بصوت خفيض للمربية: «يا صاحبتى، لسنا في وضع نُحسد عليه، على ابتك أن تكون أكثر جمالاً». فأجابته:

- أصمت أيها الغبي! إنك ستجلب لنا الشقاء.

وذهبوا لإبلاغ الملك أنّ الأميرة تقارب الوصول.

- ما قولكم، هل أخواها على حق؟ هل هي أجمل من رسمها؟

- مؤلانا، يقولون إنها جميلة بقدر رسمها.

قال الملك:

- لَكُمْ يُسْعِدُنِي هَذَا! لِنَذْهَبْ لِرُؤْيَيْهَا!

ذلك أنه سمع ضجّة كبيرة في الباحة. ها قد وصلت، لكنّه لم يستطع تمييز شيءٍ ممّا يقال إلا: «تبا لها! ما أبسعها!». ظنّ أنهم يتحدّثون عن قرّمة أو عن بيمّة اصطحبها معها لأنّه لم يخطر بباله

أَنَّ هَذِهِ التَّعَوْتُ تَصِفُ الْفَتَاةَ. كَانُوا يَجْمَلُونَ رَسْمَ رُوزِيَّةٍ عَلَى طَرَفِ عَصَا طَوِيلَةٍ عَلَى مَرَأَى مِنَ الْجَمِيعِ. وَسَارَ الْمَلِكُ خَلْفَهُ بِوَقَارٍ بِرَفْقَةِ كُلِّ بَارُونَاتِهِ وَطَوَاوَيْسِهِ وَخَلَفَهُمْ سَفَرَاءُ الْمَالِكِ الْمُجَاوِرَةِ. كَانَ مَلِكُ الطَوَاوَيْسِ مَتَلَهْفًا لِرُؤْيَةِ عَزِيْزَتِهِ رُوزِيَّةَ.

اللَّعْنَةُ! عِنْدَمَا لَمَحَهَا كَادَ يَقْضِي فِي مَكَانِهِ وَانْتَابَهُ غَضَبٌ مُسْعُورٌ. مَزَّقَ ثِيَابَهُ رَافِضًا الْاقْتِرَابَ مِنْهَا لِفَرْطِ مَا أَخَافَهُ مَرَأَاهَا.  
قَالَ:

- كَيْفَ؟ هَذَانِ السَّافِلَانِ اللَّذَانِ اعْتَقَلْتَهُمَا فِي السَّجْنِ يَتَجَرَّانِ عَلَى الْهَزْرِ بِي وَعَلَى أَنْ يَقْتَرِحَا عَلَيَّ الزَّوْاجَ بِتِلْكَ الْقَرْدَةِ؟ سَأَمُرُ بِقَتْلِهِمَا. وَالْآنَ هِيَ لِنَسْجِنِ تِلْكَ الْمُدَّعِيَةِ الْمُتَبَجِّحَةِ وَمَعَهَا مَرِيَّتُهَا وَذَلِكَ الَّذِي يَرِافِقُهُمَا! لِنَضْعُهُمْ دَاخِلَ بَرَجِي الْكَبِيرِ!

أَمَّا الْمَلِكُ وَأَخُوهُ السَّجِينَانِ فَقَدْ عَرَفَا أَنَّ شَقِيْقَتَهُمَا سَتَصِلُ عَمَّا قَرِيبٍ فَارْتَدَيَا الثِّيَابَ الْجَمِيلَةَ لِاسْتِقْبَالِهَا.

وَبَدَلَ أَنْ يَأْتِيَ الْحِرَّاسُ لِإِخْرَاجِهِمَا مِنَ السَّجْنِ كَمَا كَانَا يَأْمَلَانِ، جَاءَ السَّجَّانُ مَعَ جَنُودِهِ وَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِمَا إِلَى كَهْفٍ مُظْلَمٍ تَمَامًا مَلِيءٍ بِالْحَيَوَانَاتِ الشَّرِيْرَةِ حَيْثُ وَصَلَ مَسْتَوَى الْمَاءِ حَتَّى عَنَقَهُمَا. قَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ:

- يَا لِلْخَطْبِ! أَيُّ عَرْسٍ مَشْؤُومٍ هَذَا يُحْضِرُنَا! لَكِنْ مَنْ تَسَبَّبَ لَنَا بِهَذِهِ الطَّامَةِ الْكَبْرَى؟

لَمْ يَسْتَطِيعَا التَّكَهُنَ بِمَا كَانَ يُدَبِّرُ لَهَا سِوَى أَنَّ الْمَوْتَ بَانْتِظَارِهِمَا، وَكَانَ مِنْزَعَجِيْنَ مِنْ ذَلِكَ أَيَّمَا انْزِعَاجٍ. مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لَمْ يَرِ يَأْتِي فِيهَا وَجْهًا لِإِنْسَانٍ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ جَاءَ مَلِكُ الطَّوَاوَيْسِ لِيَكْتَلِ لَهَا الشِّتَائِمَ عِبْرَ أَحَدِ الثَّقُوبِ.

صَرَخَ بِهَا قَاتِلًا:



- انتَحَلتَ صفةَ الملكِ وأخوك انتحلَ صفةَ الأميرِ لكي توقعا بي وتُلمزمني بالزواج بشقيقتكما. لكن لسُنْمَا إلا مجردَ متسولين لا تُساويانِ الماء الذي تشرَبانه. سأرسلُ قُضائي ليتولَّوا محاكمتكما، وإنَّ رجالي يحضرون منذ الآن الحبلَ الذي سيَلتفَ حولَ عنقكما.  
أجاب الملكَ غاضباً:

- يا ملك الطواويس، لا تتسرَّع في حكمك علينا في هذه المسألة، فقد تندم بشأنها. أنا ملكٌ مثلك ولديّ مملكةً جميلةً وملابس وتيجان وأموالٌ كثيرة. أقسم لك بِشرفي! آ، آ! طريف جداً ما تقوله عن إمكانية سُنقنا! هل سرقنا شيئاً لك؟

عندما سمعه الملك يتكلم بكل ذلك الحزم، احتارَ في ما يتوجب عليه فعله. خطرَ له أن يدعها يزحلان مع شقيقتيها، لكنَّ مستشاره، وكان متملقاً حقيقياً، حثه على الانتقام قائلاً له إنه إذا لم ينتقم فإنه سيصيرُ أضحوكة الجميع وسيُعتبرُ ملكاً صغيراً لا حول له ولا قوة. عندئذٍ توعدَّ بالآ يغفرَ لهما وأمرَ بأن تُجرى محاكمتها.

لم تدم اجراءات المحاكمة طويلاً. تطلَّب الأمر فقط رؤيةَ رسم الأميرة الحقيقية، الأميرة روزيت ومقارنتها مع الفتاة التي تدعي أنها هي ليُصارَ إلى الحكم عليهما بقطع الرأسِ بتهمة الكذب، فهما وعدا الملك بأميرة جميلة ولم يحظَ إلا بفلاحة قبيحة. حينئذٍ ذهب الحراس إلى السجن لتلاوة الحكم عليهما فصرخا قائلين إنهما لم يكذبا أبداً وإن أختها أميرة وهي أجمل من ضوء النهار. لا بدَّ أن في الأمر خطأ ما لذا فهما يطالبان فقط بمهلة سبعة أيام لعلَّهما يستطيعان إثبات براءتهما وتجنَّب المصير المشؤوم الذي ينتظرهما.

كان ملك الطواويس غاضباً جداً وشقَّ عليه كثيراً أن يمنحهما حظوة كهذه. لكنَّه أخيراً امتثلَ لطلبهما. وفيما كانت تلك الأحداث

تسارع في البلاط، يجب قول شيء عما جرى للأميرة التعيّسة روزيت. فمند طلوع النهار، أصيبت بالذهول، وكلبها أيضاً، إذ رأيا أنّها في عرض البحر دون مركب ولا نجدة. أخذت الأميرة تبكي وتزيد في البكاء ما أثارَ شفقةَ الأساكِ جميعاً. لم تكن الأميرة تعرف ماذا تفعل ولا ما سيصيرُ بحالها.

راحت تقول:

- لا شك أنّي رُميتُ في البحرِ بأمر من ملكِ الطواويس. لقد ندمَ على رغبته في الزواج بي فأرادَ إغراقِي ليتخلصَ مِنِّي. إنّه لإنسانٌ غريب الأطوار! كان بإمكانه أن أحبه كثيراً وأن يكون زوجنا سعيداً!

وأخذت تزيد في البكاء لأنها لم تستطع الامتناع عن حبه. وظلت يومين على هذه الحال عائمة وسط الماء ومبتلة حتى العظم فأصابها زكامٌ مميت. كانت مجمدة الأوصال ولولا وجودُ بصوص الصغير قريباً ليدفئ قلبها قليلاً لكانت ماتت ألف مية.

وأحست بجوع ينهش أحشاءها نهشاً. وجدت محاراً فأخذت منه بقدر ما تستطيع والتهمتّه. لم يكن بصوص يُحب المحار ولكن للظروف أحكامها. وعندما جاء الليل، تولى روزيت خوفٌ كبيرٌ وقالت لكلبها:

- بصوص، اتبع دوماً لثلاً تأكلنا أسماك موسى.

وواصل نباحه طيلة الليل، ولم يكن سرير الأميرة بعيداً عن الشاطئ حيث كان هناك شيخٌ طيبٌ يعيش وحيداً في كوخ صغير لا يزوره أحد. كان فقيراً جداً وغير مكترثٍ بخيرات هذا العالم.

لدى سماعه بصوص ينبح، تفاجأ لأن الكلاب لم تكن تمر من هناك. ظن أن بعض المسافرين جنحت بهم سفينتهم. خرج ليدلهم

على الطريق على سبيل فعل الخير، وفجأة لمح الأميرة وبصوب  
يسبحان في البحر. وحين رآته الأميرة مدت ذراعها وصاحت به:  
- أيتها الشيخ الطيب، ساعدني لأنني سأقضي نحبي هنا. منذ  
يومين وأنا أصارع الموت.

عندما سمع نبرة التعاسة في صوتها رق لهاها ودخل إلى منزله  
ليأتي بخطاف طويل فتقدم في الماء حتى غمره إلى عنقه وأوشك  
مرتين أو ثلاثاً أن يغرق، وأخيراً، وبعد جهد جهيد، جذب السرير إلى  
الشاطئ. سرت روزيت وبصوب كثيراً لأنها أصبحت على اليأس.  
وشكرت الرجل الطيب كثيراً وأخذت غطاءه لتدثر به، ثم  
دخلت حافية القدمين إلى الكوخ حيث أشعل لها الشيخ ناراً صغيرة  
من القش اليابس. وأخرج من الخزانة أجل الثياب التي كانت  
لزوجته المتوفاة وخفين وجوربين لترتديها الأميرة. وهكذا بدأت  
الأميرة في ثوب الفلاحة جميلة كضوء النهار، وراح بصوب يرقص  
من حولها لتسليتها.

من أعطية سرير روزيت التي كانت منسوجة بخيوط الذهب  
والفضة ومن فراش سريرها الساتان، لاحظ الشيخ أنها سيّدة نبيلة.  
رجاها بأن تقص عليه ما جرى لها ووعدّها بأنّه لن ييوح لأحد بشيء  
إذا كانت هذه رغبتها. روت له كلّ ما حدث لها وهي تبكي بحرارة  
لأنّها كانت تظن أنّ ملك الطواويس هو الذي أمر بإغراقها.  
قال لها الشيخ:

- وماذا سنفعل يا بنتي؟ أنت سيّدة نبيلة جداً ومعتادة على أفضل  
أصناف الطعام وأنا ليس لديّ إلا خبز أسود ولفت. ستناولين طعاماً  
رديئاً. وإذا شئت سأذهب لأقول للملك الطواويس أنّك عندي. أنا  
أكيد من أنّه سيتزوجك.

قالت روزيت:

- آه منه، إنه شرير، سوف يهلكني. لكن، إذا كان لديك سلّة صغيرة فسنعلّقها إلى عنقِ كليبي ليأتي لنا بالمؤونة، وإلا فإنّ المصيبة ستحلّ بنا.

أعطى الشيخ سلّة للأميرة وعلّقها إلى عنقِ بصبوص وقالت له:  
- اذهب إلى أفضل طعام أُعدّ في المدينة واجلب لي ما تجده فيه.  
هُرِعَ بصبوص إلى المدينة وبما أنّه لم يكن هنالك أفضل من قدرِ الملك فقد دخلَ إلى المطبخ واكتشفَ قدرَ الطعام وأخذَ بلباقة كلّ ما يوجد فيها وعادَ إلى المنزل.

قالت له روزيت:

- عدُ إلى غرفة المؤونة المجاورة للمطبخ واتّني بأفضل شيء.  
وعادَ بصبوص إلى غرفة المؤونة وأخذَ منها كلّ أنواع الفواكه والمرببات والمشروبات وحملَ منها الكثيرَ فرزَحَ تحت ثقلِ حمليه.  
وعندما أرادَ ملكُ الطواويس تناولَ العشاء، لم يكن هناك شيء في قدرِ الطعام ولا في غرفة المؤونة.  
تبادلَ الجميع النظرات وانتابَ الملكَ غضبٌ مسعور.

قال:

- حسناً، لن أتناولَ العشاء! ولكن هذا المساء، لنضعِ السّفايد على النّار، أريد الحصول على أفضل المشاوي.

وعندما وافى المساء، قالت الأميرة لبصبوص:

- اذهب إلى المدينة وادخل إلى أفضل مطبخ واتّني بأفضل المشاوي.

ونفَذَ بصبوص ما أوصته به سيّدته. وبما أنّه لم يجد مطبخاً أفضل من مطبخ الملك فقد دخلَ إليه بهدوء. وفيما كان الطّهاة غافلين، أخذَ

الطريدة التي كانت موضوعة على السفود. ولمجرد رؤيتها، كانت تثير الشهية.

وأعاد بصبوص سلته ملأى إلى الأميرة. وأمرته بالعودة في الحال إلى المطبخ مجدداً، وجلب لها كل أنواع الفواكه المطهّوة والساكر المخصّصة للملك. لم يكن الملك قد تعشى بعد. أحس بجوع كبير وأراد تناول عشاءه باكراً ولكن لم يكن هناك شيء للعشاء، فانتابه غضبٌ مسعور وذهب للنوم دون عشاء.

في اليوم التالي، وعند حلول وقت الغداء والعشاء، حصل الأمر نفسه، بحيث إن الملك بقي ثلاثة أيام دون أكل أو شراب. وكلما جلس إلى المائدة، وجدها فارغة. أصيب مستشاره بالهلع وخشي أن يموت الملك فاخْتبأ في زاوية صغيرة من المطبخ وراقب بأمعان القدر التي كانت تغلي. ففوجئ برؤيته كلباً صغيراً أخضر بأذن واحدة يدخل على مهل ويكشف غطاء الطنجرة ويضع اللحم في سلته. تبعه ليعرف وجهته وراه يخرج من المدينة.

استمر في تتبعه فوجد نفسه أمام كوخ الشيخ الطيب. وسارع في الحال لإبلاغ الملك بما رآه، وبأن حساء الملك وشواءه كانا يذهبان مساءً وصباحاً إلى كوخ فلاح فقير. ذهل الملك للخبر وطلب أن يقتاد الفلاح إلى القصر. أراد المستشار الذهاب بنفسه إلى الكوخ مصطحباً معه رُماً، فألفوه يتناول العشاء مع الأميرة من طعام الملك، فأمر باعتقالهما وأوثقوهما بحبال ضخمة.

لدى وصولهم، ذهبوا لإبلاغ الملك الذي قال:

-- غداً ينتهي اليوم السابع الذي منحتُه لهذين الوقحين. سأمرّ بقتلِهما مع سارقي طعامي.

ثم دخل إلى غرفة العدل. سجد الشيخ على ركبتيه أمامه وقال إنه

سيخبرُه بكلِّ شيءٍ. وأثناء كلامه، أخذ الملك يرنو إلى الأميرة الجميلة وشعرَ بالإشفاق لرؤيتها تبكي.

وفيا كان الشيخ يبوح للملك بأنها هي الأميرة روزيت وأنه قد ألقى بها في البحر، وثب الملك، بالرغم من الوهن الذي كان أصابه لبقائه طويلاً دون طعام، ثلاث قفزات باتجاه الأميرة وسارع لتقبيلها وفك الحبال التي تقيدها وقال لها إنه يحبها بجنون. وفي الحال أرسل في طلب الأميرين اللذين ظنا أنهما يُقتادان لتنفيذ حكم الإعدام بحقهما فوصلا وعلى وجهيهما أمارات الحزن الشديد، مطأطأ رأسه وجيء أيضاً بالمربية وابتتها. وعندما تقابل الجميع، قفزت روزيت لتعانق أحويتها، وارتمت المربية وابتتها والنوتى ساجدين أرضاً يطلبون المغفرة.

كانت الفرحة كبيرة لدرجة أن الملك والأميرة غفرا لهم. ونال الشيخ الطيب مكافأة سخية وأبقى في القصر مدى الحياة. وأخيراً فعل ملك الطواويس كل ما في وسعه ليُرضي الملك وأخاه معبراً عن ألمه لإساءته معاملتهما، وأعادت المربية إلى روزيت ملابسها الجميلة وصاعها من الريالات الذهبية، ودَام العرس خمسة عشر يوماً. وكان الجميع سعيداً بمن فيهم بصبوص الذي لم يعد يأكل إلا أجنحة الحجال.

السَّاءُ تَسَهَّرُ عَلَيْنَا وَحِينَ يُجَدِّقُ

بِالْبَرَاءَةِ خَطَرَ دَاهِمٌ

تَعْرِفُ السَّاءُ كَيْفَ تَدَافِعُ عَنْهَا

وَتُخَلِّصُهَا مِنْ بَرَاثِنِ الشَّرِّ وَتَنْتَقِمُ لَهَا.

ما إن نرى روزيت الخجول  
أشبه ما تكون بالسيون<sup>(1)</sup> في مهده الصغير  
عائمة على الماء تتقاذفها الرياح  
على غير هدى  
لا يسعنا إلا أن نشعر بالإشفاق الخفي حيالها  
والجزع لئلا تلقى نهاية مشؤومة  
وسط الأمواج العاتية  
أو أن تغدو لقمّة سائغة  
لحوتٍ جائع.

لولا نجدة السماء لكانت حتماً لقيت حتفها.  
ولا ننس فضل بصبوص الذي تصدى  
لأسماك القذّ وأسماك موسى  
وكيف جلب القوت لسيدته:  
من منا لا يريد الحصول على كلبٍ مماثل؟

روزيت التي أنجدت من الغرق  
غفرت وساحت أولئك الذين تسببوا بكبير الأذى لها؛  
آه أنت يا من تُهان  
وتريد أن تنتقم  
اعلم أنه لأمرٌ جميلٌ أن تغفرَ الإساءة  
بعد أن قدّرت على هزيمة أعدائك  
كذا يكون انتقامك عادلاً،  
لأنّ الفضيلة تعترّ بك والجريمة كُسرَت شوكتها.

(1) ألسيون: طائرٌ بحريٌّ أسطوريٌّ.



«الغصن الذهبي»، للرسام جوزيف مارسيل بروتون

Joseph Marcel Breton, 1907



## الغصن الذهبي

كان يا ما كان، كان هناك ملكٌ يوحى مِزاجه الصَّارم الحزين بالخشية أكثر مما بالحبّ. لم يكن يظهر علناً إلا فيما ندر. وكان يأمر بقتل أفراد رعيته لأقلّ شبهة. سُمّي الملك المتجهم لأنه كان يقطب حاجبيه دوماً. وكان لدى الملك ابنٌ لا يشبهه أبداً بشيء. لم يكن لذكائه مثل وكذلك لم يكن هناك من يفوقه لطفاً وجلالاً وحقاً. ولكن ساقيه كانتا ملتويتين وحدثته أعلى من رأسه. وكانت عيناه بهما حَوْل، وكان فمه ملتوياً.

وأخيراً بالإمكان القول إنه كان مسخاً صغيراً أو بالأحرى جسداً مشوهاً يَحْتَضن روحاً ولا أروع. ومع ذلك، وبفعل تأثير فريد، كان يستطيع أن يدفع بالآخرين لكي يحبوه حتى الجنون إن أراد حياة إعجابهم. كان ذكاؤه متفوقاً على كل ما عداه وليس في الإمكان أن يستمع إليه المرء ويبقى على عدم الاكتراث به.

أرادت الملكة أن يدعى فركوح<sup>(1)</sup>، إماماً لأنها تهوى هذا الاسم وإمّا لأنه كان فعلاً مشوهاً تماماً، فقالت إن هذا الاسم يليق به أكثر من أي شيء آخر. وكان الملك المتجهم الذي يفكر في عظمته أكثر مما بسعادة ابنه قد اختار له ابنة ملك مجاور جبار جعلته الدول التي ضمها إلى ولايته مهيباً من جميع سكان المعمورة.

فكر الملك العابس أن تلك الأميرة ستكون مناسبة جداً لابنه الأمير فركوح لأنها لن تعيب عليه تشوّهه وقبحه فهي تساويه قباحة

(1) فركوح: تصغير تحبّي لفركاح أو مُفْرَكْح، وهو بحسب معجم لسان العرب من تباعد ما بين إليته وكان فيه شوّه.

وتشوّها. كانت تسير في ما يُشبه طشتاً، لأنّ ساقِها مخلّعتان وكانت تُدعى المُخلّعة. وكانت المخلّعة المخلوق الأظرف روحاً. يبدو أنّ السّماء حاولت أن تعوّضها عن الخطأ الذي اقترفته الطّبيعة بحقّها. بعد أن طلب الملك المتجهم رسماً لتلك الأميرة ووضعها في غرفة كبيرة تحت ظلّة، أرسل في طلب الأمير فركوح وأمره بالنظر إلى تلك الصّورة بحنان لأنّها صورة زوجته المقبلة. رماها فركوح بنظرة خاطفة ولم يلبث أن أشاح عنها بصّره باحتقار، ما أشعر والده بالإهانة.

قال له بنبرة حادة غاضبة:

- ألسنت مسروراً؟

أجابته:

- لا يا سيّدي، لن أسرّ إطلاقاً بزواجي بمُقعّدة.

قال الملك المتجهم:

- لا يضيرك أن تجد عيوباً في هذه الأميرة فيما أنت لست إلاّ

مسخاً صغيراً مخيفاً!

فأجابته الأمير:

- ولهذا السّبب بالذّات لا أريد الاقتران بمسوخ آخر. لديّ من

الآلام ما يكفيني فهل تريد أن تزيدها بشريكة ماثلة؟

أجاب الملك بنبرة محتقرة:

- تخشى أن تُديم نسل القروء! مخاوفك عقيمة. ستزوّجها،

يكفي أن أمرك لكي تُطيعني.

- لم يجب فركوح بشيء. انحنى باحترام كبير واستأذّن بالانصراف.

لم يكن الملك المتجهم معتاداً أن يُجاوبه أحد، فسأه جداً اعتراض

ابنه له. فأمر بسجنه داخل برج بُني خصيصاً للأمراء العاصين. لكن

لم يوجد متمرد عاص كابنه منذ ما يربو على مائتي سنة. وكان كل شيء في البرج في فوضى تامّة والغرف والأثاث قديمة بالية. كان الأمير يهوى القراءة فطلب كتباً ليقرأها وسمح له باستعارتها من مكتبة البرج. بادئ الأمر اعتقد أنّ ذلك الإذن له بالقراءة كان كافياً للترويح عن نفسه. حين همّ بقراءة الكتب وجد لغتها قديمة جداً ولم يفهم منها شيئاً. وضعها جانباً ثم عاد إليها مُحاولاً أن يفقه شيئاً منها أو أن يتسلّى بها على الأقل.

كان الملك المتجهّم مقتنعاً أنّ ابنه الأمير سوف ييأس من وجوده في السجن ويُدعُن في النهاية للاقتران بالأميرة المخلعة. أرسل موفدين إلى الملك جاره ليطلب يد ابنته التي وعدّها بسعادة لا مثيل لها. وسرّ والد الأميرة لأنّه وجد الفرصة ملائمة جداً لتزويجها لأنّه كان من الصعوبة بمكان أن تجد أحداً يقبل بفتاة مُقعّدة، فوافق على اقتراح الملك المتجهّم مع أنّ رسم الأمير فركوح الذي أحضر له لم يكن مشجعاً. أمر بدوره أن يوضع الرسم في صالة رائعة. أرسل في طلب ابنته لتراه فحفضت بصّرها وبدأت في البكاء. استنكر الأب التفور الذي أبدته ابنته فأخذ مرآة وضعها قبالتها قائلاً لها:

- آه يا ابنتي لماذا تبكين؟ انظري إلى نفسك في المرآة وستريين بعدها أنّك لست محقّة بالبكاء!  
قالت له:

- لو كانت لديّ تلك الرغبة الجارحة في الزواج لكنت وافقت في الحال. لكنني لا أريد أن أشرك أحداً بمصيبي وأرضى بتقبّلها وحيدة. لا أريد أن أزعج أحداً بمنظري المكرب. فلأبقى طيلة حياتي الأميرة التّعيّسة المخلعة. فأنا قانعة بمصيري أو على الأقلّ لن أتدمر أبداً.

مهما تكن الذرائع التي قدّمها لوالدها مقنعة فإن الملك لم يصخ السمع إليها وفرض عليها الرحيل مع الموفدين الذين جاؤوا في طلبها.

ندعها هنا تقوم برحلتها على محمل كمقعدة تعيسة حقاً، لنتقل إلى البرج ونرى ما يفعله الأمير. لم يجرواً أحد من حراسه على التحدث إليه. تلقوا الأوامر بحمله على السّام من وضعه وبتقديم طعام رديء له وإرهاقه بمعاملتهم السيئة له. كان الملك المتجهّم يعرف كيف يجعل الآخرين يطيعونه، إذا لم يكن حبّاً به فعلى الأقلّ خشيةً منه. لكنّ الحراس كانوا يُكثون مودةً للأمير وهذا ما دفعهم للرأفة به.

وذاث يوم، وفيما كان يتنزّه في رواقٍ طويلٍ مفكراً بحزنٍ بمصيره ذلك، الذي جعله يولد بهذه البشاعة والقباحة ويُدفع للزواج بأميرة تفوقه بشاعة، ألقى نظرة على التوافذ فوجدّها مطليةً بألوان مفعمة بالحيوية وبرسوم معبرة. وبما أنّه كان يستسيغ مثل هذه الأعمال الجميلة، أمعن النظر إليها. لم يفهم شيئاً من الرسومات لأنّها كانت تعود إلى أحداث حصلت منذ قرونٍ عدّة. لكن ما لفت انتباهه بشكل خاصّ هو رجل يشبهه إلى حدّ بعيدٍ وكأنّه صنوه. كان ذلك الرّجل مرسوماً في أعلى البرج الرّئيس وكان يبحث في الجدار فوجد مفتاحاً ذهبياً وفتح به إحدى الغرف. وكان هناك أشياء أخرى كثيرة أدهشت خياله. وعلى أغلب التوافذ شاهدَ دوماً الرّسم الذي يشبهه فقال في نفسه:

- ما الذي حدا بهم ليرسموا شخصاً يشبهني تماماً رغم أنّي لم أكن قد ولدت بعد؟ ولم خطر للرّسام أن يرسم رجلاً مثلي؟  
ثم رأى على تلك التوافذ سيّدة جميلة ذات ملامح متناسقة وسياء ذكيّة ولم يستطع أن يشيخ ببصره عنها. وفي النهاية، كان هناك آلاف

الأشياء والأهواء معبراً عنها بوضوح لدرجة أنه استطاع تبيانها فقط من خلال تمازج الألوان.

لم يخرج من الأوراق إلا حين مالت الشمس وتعدّر عليه تمييز هذه الرسوم. عندما عاد إلى غرفته، أخذ مخطوطة قديمة وقعت صدقة بين يديه وكانت أوراقها من الورق القزيم<sup>(1)</sup> المزيّنة جوانبه بالرسوم، أما الغلاف فمن الذهب المطعم بالأزرق والمزدان بالأرقام. مكث مندهشاً لأنه رأى في المخطوطة الرسوم نفسها التي رآها على التوافذ في الأوراق. حاول أن يقرأ ما كان مكتوباً لكنه لم يفلح كثيراً. ثم رأى في إحدى الصفحات موسيقيين شرعوا في الغناء وفي صفحة أخرى أناساً يلهون بالورق وطاولة الزهر، وكانت أوراق اللعب والتروود تروح وتجيء. ثم رأى احتفالاً يرقص فيه الجميع وكانت جميع السيدات متزيّيات ومدهشات الجمال. وظلّ يقلّب الصفحات أيضاً فاشتّم رائحة مآذبة شهية حيث راح المدعوون يأكلون، وكان أطول واحد فيهم بحجم نصف ذراع. التفتت إحدى المدعوات إلى الأمير وقالت له:

- في صحتك يا فركوح، فكّر في أن تعيد لنا ملكتنا. إذا فعلت ذلك فستؤول مآلاً حسناً، وإذا أخللت به فستجد ما لا يُرضيك.

وعلى أثر هذه الكلمات، انتاب الأمير خوفٌ شديدٌ لأنه منذ بعض الوقت كان قد بدأ بالارتجاف بحيث ترك كتابه جانباً وسقط في الجانب الآخر كالقتيل. وعلى أثر الضجة التي أحدثتها سقوطه، هرع حراسه. كانوا يُحبّونه حبّاً جمّاً وفعلوا كل ما بوسعهم ليقظوه من غيبوته.

وعندما عاد إلى رشده ورأى نفسه قادراً على الكلام سأله عن

(1) الجلد الأبيض يُكسب فيه.

حاله فقال لهم إنه يأكل بشكل سيء جداً ولن يستطيع الصّمود. قال لهم أيضاً إن رأسه مليء بالتخيّلات فهو يتخيّل ويرى ويسمع أشياء مدهشة في ذلك الكتاب ما يجعل الخوف يتملكه. قدّم له الحراس الرّاثونّ لحاله الطّعام بالرّغم من كلّ المحظورات التي ألزّمهم باحترامها الملك المتجهّم. بعد أن تناول الطّعام، أخذ الكتاب من جديد في حضورهم، فلم يرَ الرّسوم المتحرّكة التي سبق أن رآها واقتنع بأنّه كان يهذي.

وفي اليوم التّالي، عادَ إلى الرّواق فرأى من جديد الرّسومَ على النّوافذ تتحرّك ويتجوّل أشخاصها في ممرّات بين الأشجار ويصطادون أيّائل أو أرانب بريّة أو أسماكاً، وبينون منازل صغيرة منمنمة، وكان رسمه لا يزال في كلّ مكان، ولباسه مشابهاً للذي يرتديه؛ رأى نفسه يصعد إلى أعلى البرج ويجد المفتاح الذهبيّ. كان قد أكل جيّداً ولا مجال للظنّ بأنّه يتوهّم أشياء غير حقيقيّة.

قال في نفسه:

- كلّ هذا يكتنفه الغموض المطبّق، وهذا ما يدفعني لأسعى بكلّ ما أوتيته من وسائل لأعرف أكثر عن سرّ الرّسوم التي أراها. ربّما استطعت إلى ذلك سبيلاً إذا صعدت إلى أعلى البرج.

وهذا ما فعله: قرّع الجدارَ فبدا له أنّ هنالك مكاناً أجوفَ فيه. أمسك مطرقةً وفتح ثغرةً فيه فوجد مفتاحاً ذهبياً مصنوعاً بإتقان لكنّه حار في أيّ قفل يضعه. وعندئذٍ لمح في زاوية من الحصن خزانة عتيقة من الخشب الرّديء. أراد أن يفتحها لكنّه لم يستطع العثور على القفل في أيّ جانب من جوانبها.

طفق يبحث دون جدوى إلى أن رأى أخيراً ثقباً صغيراً وفي الحال وضع فيه المفتاح الذهبيّ وفتح الخزانة جاذباً دَرَفَتها بقوة. كانت

جميلة رائعة من الدّاخل بقدر ما كانت قديمة مهلهلة من الخارج: جميع أدراجها من البلور الصّخريّ المنحوت ومن العنبر والأحجار الكريمة. كلّما فتّح دُرْجاً رأى داخله، عند الجوانب ومن فوق ومن تحت وفي العمق، أدراجاً أصغر منفصلة بعضها عن بعض بعزق اللؤلؤ، وكلّ درج فيها مليء بأجمل الأسلحة الممكنة وبتيجان فخمة ورسوم رائعة. سُحِرَ الأمير بما رآه، وراح يفتّح الأدراج دون توقّف وأخيراً وَجَدَ مفتاحاً صغيراً قدّ من زمردة واحدة ففتّح به باباً صغيراً من ذهب كان في عمق الدّرج وأدهشته علبة كبيرة من الياقوت فانتزعتها بسرعة من الخزانة، ولكن ماذا صار بحاله عندما وجدها مليئة دماً وكانت يدُ الرّجل المقطوعة فيها لا تزال تحمل قلادة تمثل رسماً شخصيّاً؟

عندما رأى فركوح ذلك، ارتجف وانتصب شعر رأسه وخائنه ساقاه الواهيتان. جلس أرساً وهو لا يزال يحمل العلبة مشيحاً بنظره عن اليد المشؤومة. شعر برغبة لإرجاعها إلى مكانها، لكنّه فكّر أنّ كلّ ما جرى حتّى ذلك الحين كان مكتنفاً بالأسرار المستعصية على الفهم. تذكّر ما قالت له إحدى المدعوّات في الصورة عن المهمة التي عليه الاضطلاع بها. كان يخشى المستقبل بقدر ما يخشى الحاضر. لكنّه خجل من خوفه ذاك ووجده غير لائق بذكائه، فتحامل على نفسه وألقى نظرة باتجاه اليد قائلاً:

- أيّتها اليد المشؤومة! ألا تستطيعين ببعض الإشارات أن تخبريني عن التجربة المروعة التي قاسيتها؟ إذا أردت أن أخدمك في إمكانك أن تعتمدني على نخوتي.

بدت اليد مضطربة لسماعها هذه الكلمات. حرّكت أصابعها وقامت بإشارات ثم سمعها بتكلّم وكأنّ لساناً مفعماً بالذكاء يتحدث

إليه.

قالت اليد:

- اعلم أنك تستطيع فعل كل شيء لذلك الذي فرّقني عنه  
ذاك الغيور المتوحش. أمامك هذا الرسم الجميل الذي كان سبب  
شقائي. اذهب دون تأخير إلى الرواق وانتبه إلى المكان الذي ترسل  
فيه الشمس أشعتها الأكثر توهجاً. ابحث وستجد كنزي.

وعندئذ توقفت اليد عن الحراك. طرح الأمير عليها أسئلة عدّة  
لكنها لم تُجِب بشيء.

قال لها:

- أين أضعك؟

قامت له بإشارات جديدة فهم منها أنه يجب وضعها في الخزانة.  
فعل ما أمرته به. ثم أغلق كل شيء وأعاد المفتاح إلى مكانه في الجدار.  
ثم نزل إلى الرواق وقد شعر أنه بات متألّفاً مع الخوارق.

لدى وصوله بدأت النوافذ تُحدث أزيزاً واهتزازاً متواصلين. نظر  
إلى حيث ترسل الشمس نورها الأكثر توهجاً فرأى صورة مراهق  
في غاية الجمال والتبّل فسُحرَ بمرآه. وحين رفع تلك اللوحة، وجد  
تليسة من خشب الأبنوس المطعم بخيوط الذهب كما في باقي  
الرواق. لم يعرف كيف بإمكانه انتزاعها ولا إذا كان يفترض به ذلك.  
نظر إلى النوافذ ورأى التليسة تُنزع فنَهَضَ للفور ووجد نفسه في  
ردهة من الرّخام السّماويّ مزدانة كلّها بالتماثيل. ثم صعد درجاً  
طويلاً من العقيق ودرابزينه من الذهب المشغول. ودخل إلى صالون  
مفروش باللّازورد ثم اجتاز أجنحة لا عديد لها وهو مسحور بجودة  
الرّسوم وغنى الأثاث إلى أن وصل أخيراً إلى غرفة صغيرة مزدانة  
بالفيروز ورأى على سرير من القماش الشّفاف الأزرق المذهب امرأة



تبدو وكأنتها نائمة. جماها لا مثيل له، شعرها أسود سواد الأبنوس  
ويبرز بياض بشرتها. بدت مضطربة في نومها ويخالج وجهها إرهاق  
وإغياء.

حشي الأمير أن يوقظها فاقرب برفق منها وسمعها تتمتم  
فأصخى سمعه بانتباه واستطاع تمييز هذه الكلمات القليلة التي  
تقطعها التنهدات:

- أو تظن أيها الغدار أنني أستطيع أن أحبك بعد أن أبعدتني عن  
حبيبي ترازيمان؟ ماذا؟ أتجرو أمام ناظري أن تفرقني عن يد عزيزة  
علي وعن ذراع يجب أن تثير فيك المهابة؟ هل بهذه الوسيلة تسعى  
لإثبات حبك لي واحترامك؟ آه يا ترازيمان يا حبيبي الغالي ألن أراك  
بعد اليوم؟

لاحظ الأمير أن الدموع تبحث عن معبر لها بين أهدابها المطبقة  
وتنهمر على خديها. كانت تشبه قطرات الندى عند الفجر.  
مكث عند أسفل سريرها جامداً حائراً في أمره: هل يفترض به  
إيقاظها أم تركها مستغرقة في ذلك النوم الحزين. فهم من كلامها أن  
ترازيمان كان عشيقها وأنه هو الذي وجد يده مقطوعة في أعلى البرج.  
وعندئذ، وفيما كانت تحتدم في رأسه الأفكار المشوشة، سمع  
موسيقى رائعة، من غناء البلابل وصغار الكناري، وكانت زققاتها  
مضبوطة الإيقاع بحيث تفوق أجمل الأصوات البشرية. ثم اقتحم  
الغرفة نسر هائل. كان يطير برفق ويحمل في برائنه غصناً ذهبياً مثقلاً  
بالياقوت على شكل حبات كرز. حدق بالجميلة النائمة وكأنتها  
شمسه<sup>(1)</sup>، ثم بسط جناحيه الكبيرتين محلّقاً أمامها مرتفعاً حيناً

(1) معروف عن السر أنه يعاين الشمس مباشرة ويدرب صغاره على التحديق بها بدون  
إغماض العينين.

ومنخفضاً حيناً حتى قدّمها.

وبعد بضع لحظات، التفت نحو الأمير مقترباً منه ووضع في يده الغصن الذهبيّ المزدان بحبّات الكرز. عندئذٍ أطلقت العصافير المزققة أصواتاً ثقت قباب القصر. واسترجع الأمير في فكره مختلف الأحداث التي تتابعت وعرف أنّ تلك المرأة مسحورة وأنّ مغامرة مجيدة كانت مقدّرة له. تقدّم نحوها ثمّ سجد على ركبته ولمسها بالغصن قائلاً:

- أيتها الفتاة الجميلة الفاتنة الثائمة بفعل قدرة أجهلها. أستحلفك باسم ترازيمان أن تعودني إلى حياتك الطبيعيّة التي يبدو أنّك فقدتها وتمارسي مهامها كالعادة.

فتحت السيّدة عينيها وهتفت عندما رأت النسر:

- توقّف أيّها العشيّق السّاحر، توقّف!

لكنّ العصفور الملكيّ أطلق صرخة حادة مؤلمة وطار مع عصافيره الصّغيرة المغرّدة بأجمل الألحان.

وآنذاك، التفتت السيّدة إلى فركوح وقالت له:

- أصغيت إلى قلبي بدّل أن أظهر لك امتناني. أعرف أنّي أدين لك بكلّ شيء، وأنك تعيدني إلى الضّوء الذي فقدته منذ مائتي عام. إنّ السّاحر الذي أغرّم بي وتسبّب لي بعذاباتٍ جمّة خصّك بهذه المغامرة الكبيرة. أنا قادرة على خدمتك وأرغب في ذلك بشكل جارف. قل لي ماذا ترغب ولديّ من السّحر ما يكفي لأجعلك سعيداً.

أجاب الأمير:

- سيّدي، إذا كانت معرفتك عميقة بخفايا القلوب فسيسهل عليك أن تعرفني أنّه بالرّغم من أنّ الحياة حرّمتني من أشياء كثيرة فأنا راضٍ بما قدّرت لي.

أضافت الجنيّة:

- هذا بفضلِ روحك الطيبة. لكن، في جميع الأحوال لا تجعلني  
جائحةً بحقك فهذا يُخجّلني. قل لي ماذا تتمنى فأنا قادرةٌ على كل  
شيء، اطلب فقط.

أجاب الأمير:

- أتمنى أن أعيدَ لكِ ترازيمان الجميل الذي تُطلقينَ لأجله هذه  
التأوهات المتكررة النابعة من القلب.  
قالت له:

- إنّه لنُبئل منك أن تؤثرَ مصالحي على مصالحك. هذا الأمر الجلل  
سيتمّ على يدِ امرأةٍ أخرى. وسيكون لك دُخْل فيه بشكل أو بآخر.  
لن أوضح لك أكثر من ذلك. والآن لا تتأخر قل لي بماذا أُخدمك ولا  
تُحرمني هذه المتعة لوقتٍ أطول.  
قال الأمير مرتمياً عند قدميها:

- وما رأيك يا سيّدي؟ ألا ترين هيتي المزعبة؟ يسمونني فركوح  
على سبيل التهكم. اجعليني أقلّ إثارةً للسخرية.  
قالت الجنيّة وهي تلمسه ثلاث مرّاتٍ بالغصن الذهبي:

- اذهب! اذهب، ستكون كاملاً تمام الكمال، لن يُضاهيك أحدٌ لا  
قبلك ولا بعدك جمالاً. ادعُ نفسك «فريداً» وسوف تحمل هذا الاسم  
بجدارة.

قبلَ الأمير رُكبتي المرأة امتناناً وكان صنمته يُعبّر عن فرحتِهِ ويجعلها  
تحدّس ما يدور في خلدِهِ. دَعته للنهوض. تمرأى في المرايا التي كانت  
تزيّن هذه الغرفة. ولم يعد «فريد» يتعرّف على فركوح. طالت قامته  
ثلاث أقدام وانسدل شعره خصلات كثيفة على كتفيه واتسمت هيتته  
بالنُبيل والظرف، باتت ملامحه متناسقة وعيناه مفعمتين ذكاءً وأخيراً،

باتت الصنيفة الفذة لجنية خيرة ومرهفة الإحساس.

قالت له:

- آه لئنه سمح لي أن أكشف لك عن مصيرك! ليت باستطاعتي أن أنبتك بالخواجز التي سيضعها القدر في طريقك وأعلمك السبيل لتجنبها! كم سأكون راضية بأن ألق الخدمة التي قدمتها لك لتوي بهذه التي أتمناها! لكنني لو فعلت لتسببت بالإهانة للجنّي السامي المقام الذي يرشدك. هيا أيها الأمير، اذهب من هذا البرج وتذكر أنّ الجنية حليلة ستكون دوماً صديقة لك.

ما قالت هذه الكلمات حتى اختفى القصر ومعه التروائع التي رآها الأمير. وجد نفسه في غابة كثيفة تبعد أكثر من مائة فرسخ عن البرج الذي احتبسه داخله الملك المتجهّم.

لنتركه يخرج من ذهوله، ولنعرف أمرين. الأمر الأوّل يتعلق بالخرج الذي أحسّ به الحراس المساكين الذين فوجئوا بأن أميرهم لم يطلب طعاماً لعشائه فدخلوا إلى غرفته ولما لم يجدوه تولّاهم الذعر واليأس وبحثوا عنه في كلّ مكان. كانوا خائفين من أن يأمر الملك، الذي كان رهيباً في أحكامه، بإعدامهم. تشاوروا فيما بينهم علّهم يجدون حيلةً تجبّهم العقاب: واتفقوا على أن يندسّ أحدهم في السرير متظاهراً بأنّه الأمير، وأن يُقال للملك إنّ الأمير في غاية الاعتلال ثمّ يبلّغونه لاحقاً بأنّه توفّي. وعندئذٍ يكفنون عوداً خشبياً مكان جثته ويدفنون النعش في التراب فيتخلّصون من الورطة التي تنتظرهم. بدا لهم هذا الحلّ مثالياً ودامياً وبادروا على الفور إلى تنفيذه. جُعِلت لأصغر الحراس حدبة كبيرة واضطجع في السرير متظاهراً بأنّه الأمير.

قيل للملك إنّ ابنه كان مريضاً جداً. ظنّهم يقولون ذلك ليُحنّوا

قلبه لكنّ الملك أمعنَ في قسوته. وهذا بالضبط ما كان يتمناه الحرّاس المذعورون. وكلّما عظموا له فداحة مرض الأمير، أمعنَ الملك في استخفافه.

أمّا الأميرة المخلعة فقد وصلت موضوعه على محمل تجرّه عربة صغيرة يبلغ ارتفاعها ذراعاً. تقدّم الملك المتجهّم للقائها وعندما رأى تشوّهها الفظيع وجلدها المحرفش مثل سمكة القدّ وحاجبيها الملتصقتين وأنفها المفلطح وفمها المتطاول حتى أذنيها، لم يستطع الامتناع عن القول:

- تعرفين أيتها الأميرة، لا يحقّ لك أن تحتقري ابني. صحيح أنّه قبيحٌ جدّاً، لكنّه، إن أردت الصدق، أقلّ قباحة منك.  
قالت له:

- مولاي، لا أملك من الخيلاء ما يكفي لكي أشعر بالإهانة إزاء ما تقوله لي من أشياء مُدّلة. لكنني لا أظنها مع ذلك وسيلة تقنعني بأن أحبّ أميرك الفاتن. لكنني أعلن لك أنني، بالرغم من أنني مقعّدة وبالرغم من العيوب التي أتخفّتي بها الطيّبة، لا أريد الزواج به وأفضّل لقب الأميرة المخلعة على الملكة زوجة فركوح.  
استشاط الملك المتجهّم غضباً من جوابها وقال لها:

- أوكد لك أنّ الشّعور متبادل. لكنّ والدك الملك وهو وليّ أمرِك عهدلي بالعناية بك فأصبحتُ الآن وليّ أمرِك.  
قالت:

- إلّا أنّ هنالك أشياء يمكننا الاختيار بشأنها. أحضروني إلى هنا رغماً عني. خذِ علماً بأنني سأعتبرك عدويّ الألدّ إن أرغمتني بالقوّة على الموافقة.

غادرها الملك مستشيطاً غضباً وأمر بأن تُسكنَ في جناح في

قصره وتُحاط بالسيدات اللواتي تقوم مهمتهن على إقناعها بالاقتران بالأمير.

في تلك الأثناء سارع الحراس يقولون للملك إن ابنه توفي تداركاً لأن يُفتضح أمرهم ويعرف الملك بهروبهم. لدى سماعه هذا النبأ شعر الملك بألم شديد وكان من رآه يستغرب أن يكون قادراً على إبداء مثل هذه المشاعر. راح يصرخ ويزعق، وإذا اعتبر المخلعة مسؤولة عن الخسارة التي مني بها للتو أرسلها إلى البرج حيث كان احتبس ولده العزيز المتوفى.

اعتري الأميرة المسكينة الحزن والذهول في آن لأنها وجدت نفسها سجيناً. كانت مفعمة شجاعةً وتحذت عن الظلم الذي ألحق بها من جرّاء تلك المعاملة الممّعة في القسوة. ظنت أنهم سينقلون أقوالها للملك لكن لا أحد كان يجرؤ على إعلامه بموقفها. ظنت أيضاً أنها تستطيع أن تكتب لوالدها لتخبره عن المعاملة السيئة التي تلحق بها وتناشده أن يأتي لإعتاقها. لكن ذلك لم يُجد نفعاً لأن رسائلها كانت تُصادر وتُسلم للملك المتجهّم.

كانت تعيش على ذلك الرجاء لذا شعرت بحزنٍ أقل. كانت في كلّ يوم تذهب إلى الرواق لتنظر إلى الرسوم المختلفة التي تزدان بها النوافذ، ولا شيء كان يبدو لها أعجب منها لا سيباً وأنها رأت رسمها بينها وهي مقعدة في طشتها. قالت في نفسها:

- منذ أتيت إلى هذه البلاد والرسامون يلتذون برسمي؛ ألا توجد هينات مضحكة إلا هيّتي؟ أم إنهم يريدون أن يرسموني لكي يُبرزوا الفرق بيني وبين جمال هذه الراقية الشابة الفاتنة؟

رأت بعدئذ صورة راع بهي الطلعة جميل المحيّا. أخذت تقول:  
- ما أتعس حظي حرمتني الطبيعة من كلّ حظوة! ما أسعد هؤلاء

الذين حَبَّبَهُم الطَّبِيعَةَ بِالْجَمَالِ!

قالت هذه الكلمات وأخذت الدموع تنهمر من عينيها؛ ثم نظرت إلى نفسها في إحدى المرايا والتفتت فجأة فذهلت عندما رأت خلفها عجوزاً قصيرة معتمرة قلنسوة أشد قباحة منها، وكان الطشت الذي تجرجر نفسها فيه مليئاً بالثقوب لشدة عتقه.

قالت لها المرأة العجوز البسعة:

- أيتها الأميرة يمكنك أن تختاري بين الفضيلة والجمال. حسراتك أثرت في كثير. إذا أردت أن تكوني جميلة فستكونين غنجة ومدعية وأنيقة جداً. وإذا أردت أن تبقي كما أنت فستكونين حكيمة ومحترمة ومتواضعة جداً.

نظرت الأميرة إلى محدثتها وسألتهما ما إذا كان الجمال لا يتلاءم مع الحكمة. قالت المرأة المسنة:

- بلى، ولكن فيما يخصك أقر أنه لا يمكنك أن تحصلي إلا على ميزة واحدة: إما الجمال وإما الحكمة.

فهتفت الأميرة بلهجة حازمة:

- حسناً، أفضل بشاعتي على الجمال.

أردفت العجوز:

- عجباً! تفضلين أن تخيفي هؤلاء الذين يرونك؟

قالت الأميرة:

- نعم يا سيدي، أختار بالأحرى جميع المصائب على أن أفتقر إلى الفضيلة.

قالت الجنية لها:

- لقد أحضرتُ عمداً قفازي الأَصْفَر والأَبْيَض. إذا نفخت في اللون الأَصْفَر فستكونين شبيهة بهذه الرّاعية الرّائعة التي بدت لك

فاتنة وسوف تحيين مع الراعي الذي استوقفك رسمه أكثر من مرة. وإذا نفخت في الأبيض فسوف يكون بإمكانك أن تواصل سيرك قدماً على درب الفضيلة بشجاعة وثبات. أضافت الأميرة:

- حسناً يا سيدي، لا تمنعي عني هذه التعمّة فسوف تواسيني وتعوض لي عن كل الاحتقار الذي ألقاه.

أعطتها العجوز القصيرة قفاز الفضيلة والجمال فنفخت دون تردد في اللون الأبيض وشكرت الجنة التي اختفت في الحال.

كانت متهجّة بالخيار الحسّن الذي قامت به. ومهما تكن لديها أسبابها لتخسد الرّاعية المرسومة على الجدران لجمالها، فكّرت، في محاولة منها لمواساة نفسها، في أنّ الجمال يعبر كالحلم، وأنّ الفضيلة كنز أبديّ وجمال لا يزول لا بل يدوم أكثر من الحياة نفسها. كانت تأمل دوماً أن يأتي والدها على رأس جيش ضخم ويخرجها من البرج. كانت تنتظر لحظة رؤيته بفارغ الصبر وتتحرق للصعود إلى أعلى البرج مرتقبة الاستغاثة الوافدة إليها. ولكن، ما السبيل إلى بلوغ هذا العلو في مثل حالتها هي التي تذهب إلى غرفتها أبطأ من سلحفاة وتحملها وصيفاتها إذا أرادت الصعود إلى أيّ مكان؟

ومع ذلك، وجدت سبيلاً لبلوغ قمة البرج بفضل ساعة الحائط الكبيرة التي كانت في أعلاه فنزعت منها أثقالها ووضعت نفسها في مكانها، وعندما أعادوا تشغيل الساعة رفعت إلى فوق تلقائياً. نظرت بسرعة من النافذة التي تطل على الزيف ولكنها لم تر أية نجدة آتية فزحفت لكي ترتاح قليلاً. وفيما كانت تتكى إلى الجدار الذي كان الأمير فركوح، أو بكلام أدقّ الأمير الذي أصبح يُدعى «فريداً» لجماله، أقول كان هدمه ثم عاد فسواه بشكل سيء، انهار الجص



ووقع المفتاح الذهبي أرضاً محدثاً رنيناً قربها فأمسكته وقلبته لترى الهدف من استعماله. وبما أنها كانت فائقة الذكاء، أدركت في الحال أنه ملائم لفتح الخزانة التي لا يوجد فيها قفل ظاهر. ففتحتها وسحرت كالأمير بكل ما وجدته فيها من أشياء نادرة وأنيقة. كان هنالك أربعة آلاف درج مليئة كلها بالجواهر القديمة والحديثة. وأخيراً وجدت الباب الذهبي والعلبة المصنوعة من الياقوت واليد السابحة في الدم. ارتجفت لمزأها وأرادت أن ترميها ولكن قوة خفية منعتها من ذلك. قالت بحزن:

- واحسرتاه! ماذا سأفعل؟ أفضل الموت على البقاء أكثر مع هذه اليد المقطوعة.

وفي تلك اللحظة، سمعت صوتاً عذباً وناعياً يقول لها:  
- تشجعي يا أميرتي، فهذه المغامرة ستكون مصدر سعادتك.  
أجابت مرتجفة:

- آه، وماذا بإمكانني أن أفعل؟

قال الصوت:

- يجب أن تحملي هذه اليد إلى غرفتك وتخفيها تحت سريرك؛ وعندما ترين نيراً عليك أن تُعطيها له دون تأخير ولو للحظة واحدة. بالرغم من خوفها الكبير، أحست الأميرة أن لذلك الصوت نبرة مقنعة، ولم تردّد في إطاعتها. أعادت الأدراج إلى أمكنتها ووضعت فيها التوادر كما وجدتها دون أن تلمس أيّاً منها. انتبه حراسها، وكانوا يخشون أن تفرّ منهم بدورها، إلى غيابها عن غرفتها فأخذوا يفتشون عنها وفوجئوا من العثور عليها في مكان لا يمكنها الصعود إليه، بحسب قولهم، إلا بسحر ساحر.

ظلت ثلاثة أيام وهي لا تجرؤ على النظر إلى العلبة ولا إلى فتحها

لأنَّ اليَدَ المقطوعَةَ كانت تحيفها بشدَّة. وأخيراً، ذات ليلة، سمعت ضجَّة قرب نافذتها ففتحت الستارة ولمحت في ضوء القمر نيراً محلّقاً. نهضت وفق السرعة التي يسمَح لها بها وضعها وجزّرت نفسها على أرض الغرفة لتفتح النافذة.

دخل التسر مصفّقاً بجناحيه بصخب علامة على ابتهاجه. لم تتأخّر في إعطائه اليد فأخذها بين مخالبه وبعد قليل غاب عن نظرها وظهر بدلاً منه رجل شاب وكان أجمل الرجال وأحسنهم خلقة: جبينه مكلّل بتاج وثيابه مزدانة بالأحجار الكريمة وفي يده رسم؛ ثم بادرها بالكلام قائلاً:

- يا أميرتي، منذ مئتي سنة وأنا سجينُ هذه الأمكنة تحت تأثير ساحر غدار. أغرم كلانا بالجنّية الرائعة حلّيمة لكنّها اختارتني بدلاً منه فشعرَ بغيره قاتلة، وكانت فنون سحره تتخطى قدرتي. وإذا أراد أن يتسبّب بموتي، قال لي بنبرة مطلقة الحزم بأنه يمنعني من رؤيتها ثانية. وكان مثل هذا الحظر منافياً لحبّي وللمنزلة التي احتلّها: هدّدته، وكذلك شعرت الجميلة التي أنا عاشقٌ لها بأنّ تصرّف الساحر مشين حياها فحظرت عليه الاقتراب منها. وحينئذٍ صمّم الساحر المتوحش على معاقبتنا نحن الاثنين.

«ذات يوم وفيما كنت أجلس قربها مسحوراً بالرسم الذي أعطتني إياه أتأمله وأجده ألف مرّة أقلّ جمالاً منها في الواقع، ظهر الساحر وفصل، بضربة سيفٍ واحدة، يدي عن ذراعي. أحسّت الجنّية حلّيمة (لأنّ هذا كان اسم مليكتي) بالألم الذي أصابني على أثر هذه الضربة أكثر منّي، ففقدت رشدها وتهاوت على سريرها. وفي الحال، اكتسيت بالريش وتحوّلت إلى نسر.

«كان يُسمح لي بالمجيء كل يوم لرؤية الملكة الجنّية، دون أن أقدر

على الاقتراب منها ولا على إيقاظها، ولكّني كنت أتعزّي بِسَمَاعِهَا  
تطلقِ تَأوّهاتٍ تعبّر عن شوقها لي وتحدّث في حلمها عن ترازيمان  
حبيبها الغالي.

«كنت أعرف أيضاً أنّه بعد مرور مائتي سنة سوف يُوقظ أحد  
الأمراء الجنيّة حلّيمَة من رقادها، وأنّ أميرة سوف تعيد يدي  
المقطوعة ومعها هيئتي الأولى. إنّ إحدى الجنيّات التي تهتمّ لعزّتك  
أرادت أن يكون الأمر على هذا النحو. إنّها هيّ التي احتفظت بيدي  
في خزانة البرج. وإنّها هيّ التي زوّدتني بالقدرة لكي أعبرَ لك اليوم  
عن امتناني. اطلبي وتمني أيتها الأميرة الشيء الأحبّ إليك وسيُلبّي  
طلبك في الحال».

أجابت الأميرة (بعد لحظات قليلة من الصمت):

- إذا كنتُ لم أجبك بالسرعة اللازمة أيها الملك العظيم، فهذا  
ليس نتيجة ترددي بل لأنّي، وأعترف لك بذلك، لسْتُ متمرّسة في  
هذه المغامرات الخارقة كهذه التي تحصل لي، وأتصوّرها حلماً أكثر  
منها حقيقة.

أجاب ترازيمان:

- لا، يا سيّدي، ليس وهماً ما يحصل لك، وسوف تشعرين  
بتأثيراته ونتائجِهِ ما إن تقولين لي الأميّة التي تشتهينها.

قالت:

- إذا طلبتُ كلّ ما أنا بحاجة إليه لأكون كاملة، فسيصعب عليك  
تحقيقه مهما بلغت قدرتك. لكنني أكتفي بالأساسي: أن تجعل روعي  
جميلة بقدر ما جسدي قبيح ومشوّه.

هتف الملك ترازيمان:

- آه أيتها الأميرة، إنّهُ لمُدعاةُ سرورٍ لي أن تقومي بهذا الخيار

الصَّائِبِ والنَّبِيلِ. سَيَصْبِحُ جَسَدُكَ بِجَمَالِ رُوحِكَ وفِكْرِكَ.  
لَمَسَ الأَمِيرَةَ بِرَسْمِ الجَنِّيَّةِ، فَسَمِعَتْ عِظَامَهَا تُطْقِطِقُ ورَأَتْهَا تَتَطَاوَلُ  
وتَعُودُ مَنظَمَةً. نَهَضَتْ فَبَاتَتْ طَوِيلَةَ القَامَةِ، جَمِيلَةَ، مُسْتَقِيمَةَ، بِيضَاءِ  
البَشْرَةِ مُتَنَاسِقَةَ المَلامِحِ، وَاتَّسَمَتْ سَيَآؤَهَا بِالكِبَرِ وَالتَّوَضُّعِ،  
وَالرَّهَافَةِ وَالظَّرْفِ فِي آنٍ.  
هتفت:

- يا للمعجزة! أيعقل أن أكون أنا؟  
أردفَ ترازيبان:

- نعم يا سيدي هذه أنت؛ إن اختيارك الحكيم للفضيلة أنعم  
عليك بهذه الهيئة الجميلة. إنها لمتعة كبيرة لي، بعد كل ما أدينُ به لك،  
أن أكون مقدراً للمساهمة في تبذلك هذا! لكن آن لك أن تتخلي عن  
لقب المخلعة وتتخذي اسم «سناء» الذي تستحقينه نظراً للسناء  
المنبعث منك.

واختفى في الحال؛ ووجدت الأميرة نفسها، دون أن تعرف كيف  
وبأية وسيلة، عند ضفة نهر صغير في مكان وارف لا أظرف تُظللّه  
الأشجار.

لم ترَ هيئتها الجديدة بعد. وكانت مياه التهر صافية فرأت على  
صفحتها أنها تشبه الراحية نفسها التي أعجبت برسمها على نوافذ  
الرواق، ما أثار دهشتها إلى أقصى حد.

وبالفعل، كانت ترتدي، مثل الراحية، ثوباً أبيض مزداناً بدانتيلاً  
مصنوعاً بإتقان، وأنصع بياضاً من أية دانتيلاً سبق لفلاحة أن  
ارتدتها. وكان حزامها محبوكاً من الورود الصغيرة والياسمين،  
وشعرها مزيناً بالأزهار. وجدّت بالقرب منها عصاً مذهّبة وقطيعاً  
من الخراف ترعى على طول الضفة، وتعرف صوتها. حتى كلب

القطيع بدا وكأنه يعرفها، وجاء يداعبها.

واستغرقت في أفكارها مستعرضة الخوارق الجديدة التي تحصل لها، وكم سرّحت بعيداً! وُلِدَتْ وعاشت حتى اليوم على أساس أنها أقبح الكائنات جميعاً رغم أنها كانت أميرة. واليوم أصبحت أجمل من كوكب النهار لكنّها لم تعد سوى راعيّة ولم تستطع إلا التآثر من جزاء فقدانها لقبها.

هزّت هذه الأفكار المختلفة كيّانها فأنهكتها، وتولاها النعاس. كانت سهرت طيلة الليل (كما قلت آنفاً) وأتعبتها الرحلة التي اجتازت خلالها مائة فرسخ في غفلة منها. كانت خرافها وكلبها المتجمّعة حولها تبدو وكأنّها تحرسها وترعاها بعناية. لم يكن بمستطاع الشّمس أن تزعجها مع أنّها كانت في أشدّ سطوعها لأنّ الأشجار الكثيفة تحميها من القَيْظ والأعشاب النَّضرة النَّاعِمة تبدو جذلي باحتضانها كلّ ذلك الجمال.

هناك كانت تُرى أزهار البنفسج  
بارزةً وسط الأعشاب الطّريّة  
مثيرةً بعطرها الفواح  
غيرة الأزهار الأخرى.

استرسلت العصافير في زقزقاتٍ عذبة واحتبس النسيم أنفاسه خشية أن يوقظها. لمَحَ أَحَدَ الرَّعيان، وقد أنهكته حرارة الشّمس، ذلك المكان من بعيدٍ فهُرِعَ إليه مسرعاً. لكنّه حين رأى الصبيّة اليافعة سناء، أصيب بدهشة عميمة ولو لم يكُ هناك شجرة يستند إليها لتهاوى بطوله أرضاً. وفي الواقع، لقد تعرّف إليها، إنّها الفتاة

نفسها التي أعجَبَ بجماها المرسوم على نوافذ الرّواق وفي الكتاب  
ذي الورق الصّقيل.

لا شكّ أنّ القارئ أدرك أنّ ذلك الرّاعي هو الأمير فريد. لقد  
استوقفته قدرة مجهولة في تلك التّاحية وقد أعجب به كلّ من صادفه  
لأنّ لباقتَه وسِخنتَه المشرّقة وروحَه اللطيفة كانت تميّزه عن سائر  
الرّعيان وكأنّه وُلِدَ نبيلاً في الأصل.

حدّق بسناء متملياً من ملامحها شاعراً بلذّة لا عهد له بها. خرّ على  
ركبتيه ساجداً قربها خاشعاً أمام جمال الفتاة الكامل الذي لا عيّبَ  
فيه. ووجد نفسه صريعَ هواها، هو الذي لن تمتنع عليه أيّة فتاة منذ  
ذلك الحين. كان لا يزال مستغرقاً في أحلامه حين استيقظت سناء.  
ما إن رأت فريد قربها بلباسٍ راعٍ متأنّق حتّى تذكّرتَه لأنّها كانت  
شاهدت صورته في البرج.

قال لها:

- أيتها الرّاعية اللطيفة، أيّة صدفة سعيدة قادتك إلى هنا؟ أتيتِ  
ولا شكّ لكى نثني على فضائلك وتكوني قبة أمانينا. آه! كم أنا  
متلهّف لتكريمك بقدر ما تستحقّين!

قالت له:

- لا أيّها الرّاعي. لا أدعي البتّة شرفاً لا أستحقّه. أريد أن أبقى  
راعية بسيطة. أحبّ قطيعي وكلبي. للوحدة مفاتنها بالنسبة إليّ ولا  
أنشد غيرها.

- ماذا! جئتِ إلى هذه الخلوة أيتها الرّاعية الشابة بنية أن تختبئي  
عن بني البشر!

ثمّ أضاف:

- هل منّ المعقول أن تتقي شرّاًنا إلى هذا الحدّ؟ على الأقلّ استثنيني

أنا، لأنني أول من وضع نفسه رهن إشارتك.  
أردفت سناء:

- لا، لا أريد أن أراك أسوة بالآخرين مع أنني أشعر بتقدير خاص لك. ولكن دُلّني على راعيةٍ حكيمةٍ أستطيع اللجوء إليها.  
لأنني غريبة هنا ولست في سنّ تسمّح لي بالبقاء وحيدة. إن أرشدتني إليها فسأكون ممتنة لك.

سُرّ فريد لهذه المهمة. اقتادها إلى كوخ لا أظرف في نظافته وبساطته وتسكنه امرأة عجوز لا تخرُج نادراً لأنها باتت شبه عاجزة عن السير.  
قال فريد وهو يقدم لها سناء:

- اهتَمّي أيتها الأمّ الطيبة بهذه الفتاة التي لا مثيل لها فإن حضورها  
وحدّه سيعيدُ إليك الشباب.

قبّلتها العجوز وتأهّلت بها بمودةٍ قائمة لها أن تعذرَها على إسكانها  
هذا المكان الذي لا يليق بها. ولو اقتضى الأمر لأسكنتها قلبها.  
قالت سناء:

- لم أكن أعتقد أنني سألقى هنا استقبالاً بهذه الحرارة وهذا  
التهديب. لكنني أوكد لك يا جدّتي الطيبة أنني مسرورة بأن أكون  
قربك.

ثمّ توجهت إلى الرّاعي وقالت له:

- من فضلك لا تحجب عني اسمك لأنّي أريد أن أعرف لمن أدين  
بهذا المعروف.

أجاب الأمير:

- يسمّونني فريداً. لكنني من الآن فصاعداً لا أريد اسماً آخر  
سوى أنني عاشقك.

قالت العجوز القصيرة:

- وأنا، أتمنى أيضاً أن أعرف اسم الراعية التي أستضيفها.  
قالت لها إن اسمها سناء. بدأت العجوز مُعجبة بهذا الاسم الفاتن  
وأطرى كذلك فريد على هذا الاسم كثيراً.

خشيت الراعية العجوز أن تشعر سناء بالجوع فقدّمت لها في  
قضعة نظيفة جداً حليباً محليّ مع خبزٍ أسمرٍ وبيض طازج وزبدة  
مخضوضة حديثاً وجبنة بالقشدة.

وهرع فريد إلى كوخه وجلب لها منه فراولةً وبنديقاً وكرزاً وفواكه  
أخرى مزيّنة بالأزهار. وحتى يتسنى له الوقت ليبقى مدةً أطول  
معها، سألها أن تأذن له بأن يُشاركها الطعام. ما كان أصعب عليها  
أن ترفض له ذلك الطلب وكيف لها ذلك! مهما تكن البرودة التي  
تصطنعها فإنها كانت تشعر أنّ حضوره يسرّها كثيراً.

وعندما غادرها، فكّرت فيه طويلاً وفكّر هو فيها أيضاً. كان يراها  
كلّ يوم ويقود قطيعه إلى المراعي التي تسوق قطيعها إليها، ويغني  
لها كلمات مليئة شغفاً وعاطفةً وهو يعزف على الناي والمزمار لكي  
يحمّلها على الرقص وكانت ترقص برشاقة وبراعة أثارت إعجابه.  
وكلّ من ناحيته كان يفكر في هذا التسلسل المدهش للمغامرات التي  
حدّثت له وكلّ بدأ يقلق، وكان فريد يبحث عنها في كلّ مكان بدأبٍ  
وصبر.

وأخيراً، كلّما وجدها وحيدة

كان يُكلّمها عن الحب

ويصف لها لوعته وشغفه

وما يجمع بين قلبيهما من حبّ رقيق

فعرفت أنّ هذا الشعور الذي لا تعرف أن تصفه



وكانت تحسّ به ناحيته دون أن تعرف السبب  
كان شرارة حبّ،  
عندئذٍ أدركت الخطرَ  
الذي يتهدّد براءتها  
وقلبها لما يختبر الحبّ بعد.  
فعملت على تحاشي رؤية ذلك الراعي اللطيف  
ولكنّ تمنّعها ذاك  
شقاءً لا يُحتمل  
وكان قلبها يتنهد غالباً في سرّه  
ويلومها على ظلم حبيب بهذا الخفر!  
وفريد، لم يكن يستطيع أن يفهم  
ما سبب تغير تصرفها الظالم حياله!  
فسعى جاهداً لمعرفة السبب  
ولكن عبثاً  
لأنّ سناء رفضت التقرب منه أو سماعه!

كانت تتفنّن في تجنّب رؤيته وتلوم نفسها باستمرار على ما تشعر  
به ناحيته. كانت تقول في نفسها:  
- ماذا! هل أعاني شقاء الحبّ وأقع في هوى راع تعيس! ما هذا  
المصير الذي ينتظرنى؟ لقد آثرت الفضيلة على الجمال. يبدو أنّ السماء،  
لكي تكافئني على هذا الاختيار أرادت أن تجعلني جميلة لكنني كم  
أشعر بالتعاسة لكوني صرت كذلك! لولا هذه المفاتن غير المجديّة  
التي أمّلكها لما سعى الراعي الذي أمّجّبته إلى اللحاق بي ولما كنت أحمّر  
خجلاً من المشاعر التي أكنّها تجاهه.

وهكذا كانت دموعها تنهمر إثر هذه الأفكار التي تضيئها،  
ويتفاقم عذابها لدى تمثّلها العذاب الذي يُقاسيه راعيها اللطيف  
بسببها.

ومن جهته، كان الحزن يُثقل كاهله. رغبَ في أن يُعلِّمَ سناء بنبل  
مولده معتقداً أنّ شعوراً بالغرور سيُساورها وأنها ستستجيب إليه  
إذ ذاك بمراعاة أكبر. لكنّه ما لبثَ أن اقتنَعَ أنّها لن تصدِّقه وأنها إذا  
طلبت منه إثباتاً على كلامه فهو غير قادرٍ على تقديمه لها.  
هتف:

- أيتها القدر القاسي! كنت رغم قباحتني سأخلفُ أبي وكم يُصلح  
المُلكُ من العيوب. أمّا اليوم فلا يُجديني أن أمثلَ لا أمامه ولا أمام  
رعاياه لأنّ أحداً منهم لن يعرفني. ما أغرب الخير الذي صنّعه معي  
الجنيّة حلّيمّة حينَ جرّدتني من اسمي وبشاعتي وجعلتني راعياً  
وأسيرَ راعيّة فاتنة لا تُرحم وتضيق ذراعاً بي.  
ثم أضاف وهو يتنهد:

- يا نجمة حظّي التعس، اجعليني أكثرَ حظّاً أو أعيدي لي عاهاتي  
ومعها تهاوني الأوّل.

تلك هي الحسرات التي اعتملت في نفسي العشيّق والعشيقة دون  
أن يعرف أحدهما حقيقة الآخر. لكن بما أنّ سناء كانت تثار على  
تحاشي فريد فإنّه صنّم ذات يوم على التحدّث إليها وسعى في سبيل  
ذلك لإيجاد ذريعة لا تنقرها منه فأخذ حملاً صغيراً وزيّنه بالشرائط  
والأزهار ثم وضع له عقداً من القشّ الملون المشغول بإتقان بدا معه  
كأنّه تحفة فنيّة. وكان هو يرتدي ثوباً من التفتا وردّي اللون مزداناً  
بدانتيلاً إنكليزيّة الصنع ويتقلّد عصاً مزينة بالشرائط، ويحمل جراباً.

لم يكن أحدٌ ليجرؤ على الظهورِ إلى جانبه لا سيلا دون<sup>(1)</sup> ولا جميع أمثاله قاطبة. وجد سناء جالسة على ضفة جدول يسيل ببطء تحيط به غابة كثيفة. وكانت خرافها ترعى متفرقة إذ أن الحزن العميق للرعية لم يكن يسمح لها بأن تولي عنايتها لقطيعها. اقترب منها فريد بخجلٍ وقدم لها الحمل الصغير وهو ينظر إليها بحنان قائلاً:

- ماذا فعلتُ لك أيتها الرعية الجميلة فنزرت مني على هذا النحو المرعب؟ تستكثرين عليّ أن ترميني بالتفاته؟ لماذا تهربين مني وتصديني؟ هل يبدو لك شغفي بك مُهيناً إلى هذا الحد؟ وهل هنالك ما هو أنقى وأوفى منه؟ ألم تكن كلماتي وتصرفاتي حيالك مفعمة دوماً بالاحترام والورع؟ ولكن يبدو جلياً أن قلبك منشغل بشخصٍ آخر. فأجابته على الفور:

«أيها الراعي، أتسألني عن حذري

وخوفي من رؤيتك؟

ألا يعني هربي منك

أنني أخاف حبك أكثر من أي شيء؟

لو كان نفوري منك هو الذي يُبعدي عنك

لكنتُ ابتعدتُ دون شقاء.

لكنّ عقلي يردّ عني عن الجري بينما يستحطني الحب،

وكلّ شيء يُروّعني؛ في هذه اللحظة بالذات

أشعر أن نظراتك تصيبيني وأكاد أسقط صريعة الحب.

(1) سيلا دون بطل رواية أستريه Astree الشهيرة التي كتبها أونوريه دورفيه Honoré d'Urfé في القرن السابع عشر، وهي أول رواية طويلة في الأدب الفرنسي، وتروي قصة غرام الرعية أستريه والراعي سيلا دون Céladon، العاشق العذري العفيف.

لكن الواجب الصّارم يدعوني للهرب سريعاً أيها الرّاعي  
 وكم نبطىء في الهرب ممّن نحب!  
 وداعاً؛ ويل لي إن كنت تحبني!  
 لأنك تشوّش عليّ راختي، فحاذر أن تلحق بي  
 ربّما من دونك يستحيل عليّ العيش  
 ومع ذلك حذارٍ أن تتبع خطاي.

ما كادت سناء تُنهي كلامها حتى ابتعدت وأراد الأمير العاشق  
 اليأس اللّحاق بها لكنّ ألمه المتفاقم جعله يسقط فاقد الرّشد عند  
 أسفل إحدى الأشجار. آه منك أيّتها العفيفة صاحبة الفضيلة  
 القاسية المتوحّشة، لماذا تخشين رجلاً أغرم بك منذ الطفولة؟ ليس  
 في مقدوره الإساءة إليك وشغفه بك عذريّ وبريء. لكنّ الأميرة  
 كانت ترتاب بنفسها وبه. أحياناً لا تستطيع الامتناع عن تقدير  
 فضائل الرّاعي الفاتن حقّ قدرها ولكنها تعرف في الوقت نفسه أنّه  
 يجب تجنّب الوقوع في تجربة الحبّ الجارف.

لم يحمل أحد نفسه الشقاء الذي حملته هي نفسها. كانت تبتعد  
 مكرهة عن الكائن الأرق والأعزّ الذي رأته في حياتها. التفتت أكثر  
 من مرّة لترى ما إذا كان يلحق بها. لمحتة يسقط جامداً بلا حراك.  
 كانت تحبّه لكنّها امتنعت عن إغائته غير مبالية بما تحمل لها هذه  
 الإغائة من عزاء. عندما أصبحت في السهل رفعت نظراتها المفعمة  
 بالحسرات وصالبت ذراعيها قائلة:

- أيّتها الفضيلة! أيّها المجد! أيّتها العظيمة! أضحيّ لك براختي.  
 أيّها القدر! يا ترازيمان أنا أتخلّى عن جمالي المشؤوم. أعد لي بشاعتي، أو  
 أعد لي، دون أن أشعر بالعار، العشيق الذي تخلّيت عنه!

ثم توقفت عن الكلام غيرَ واثقة من رغبتِها في مواصلة الهرب، أو العودة على عقبِها. كان قلبها يحدثها بأن تعودَ إلى الغابة حيث تركت الراعي فريد لكنّ فضيلتها انتصرت على عاطفتها. فالتحذت القرار الصّعب بالألّا تعود لرؤيته.

مُدُّ نُقِلَتْ إلى تلك الأمكنة كانت تسمعهم يتحدّثون عن ساحرٍ شهير يسكن في قصر بناه مع شقيقته عند نُحوم الجزيرة. كانوا يتحدّثون عن معرفتهما الواسعة، هو وشقيقته، والآيات التي يقومان بها في كلّ يوم. فكّرت أنها بحاجة إلى قدرة ساحر لكي تمحو من قلبها صورة الراعي الفاتن؛ ومن دون أن تقول شيئاً للعجوز المحسنة التي استضافتها وعاملتها كأنها ابنتها، انطلقت في رحلتها منشغلة بهمومها فلم تنتبه إطلاقاً للمخاطر التي تحدق بفتاة جميلة وشابة تسافر وحيدة. لم تكن تتوقّف لا في النهار ولا في الليل ولا تأكل ولا تشرب، لا يشغلها إلّا همّ وجيد هو أن تصل إلى القصر لتُشفى من عاطفتها. ولكّنها لدى مرورها في إحدى الغابات سمعت أحدهم يغني. خالت أنها تسمع اسمها وتعرّف إلى صوت إحدى رفيقاتها. توقفت لتسمع الأغنية التي تقول هذه الكلمات:

كانَ الرَّاعي فريد أجمل الشبان في قريته  
يُحِبُّ الراعية سناء،

وكانت لطيفة وياقعة وجميلة أي فاتنة باختصار.  
وكان ذلك الرَّاعي يقول لها بألفِ طريقةٍ مشاعره حيالها،  
لكنّ الشابة المتمتعة  
تجهل ما هو الحب.  
كان قلبها المفعم بالحزن .

يصبو مع ذلك إلى الرَّاعي الغائب:  
 ما يعني عاطفتها تجاهه  
 فلا نتوق لأحد لا نكثرث به.  
 فيما مضى لم يكن لراعيتنا مثلُ هذه الشَّجون؛  
 وكان حبيبها يتبعها إلى كلِّ مكان  
 (ولم تكن تُشدد أفضل من ذلك)  
 وغالباً ما كانا يضطجعان على العشب النَّاعم  
 فيغني لها أشعاراً من تأليفه  
 وتستمع الحلوة إلى عزف نايه بلذّة  
 لا بل تحفظ أغانيه عن ظهر قلب.

قالت وهي تذرِف دموعها:

- لا، هذا كثير! أيها الرَّاعي الثرثار، تتباهى بمراعاتي البريئة  
 لك! وتتجرأ على الادِّعاء بأنَّ قلبي الرقيق سيَهون أمام حبِّك وينسى  
 الواجب الذي يناديه! لقد بُحِثت برغباتك الأئمة، وها أنت السبب  
 في أنهم باتوا يتغنون بي في الغابات والسهول!  
 وشعرت نحوَه بغضب شديد وصممت على أن تنظر إليه من  
 الآن فصاعداً بعدم أكثرث لا بل ربها بحقد.  
 أرذفت:

- من غير المُجدي أن أذهب بعيداً لأفتش عن دواءٍ لآلامي؛ ليس  
 لدي ما أخشاه من راعٍ لا يستحق اهتمامي به. سأعود إلى القرية مع  
 الرَّاعيَّة التي سمعتها للتو.

نادتها بكلِّ قواها ولكنَّ أحدًا لم يجبها، ومع ذلك فقد سمعت من  
 وقتٍ لآخر أغاني بالقرب منها. فأخذتها الرعدة واضطربت. وفي

الواقع، كانت تلك الغابة مُلك السّاحر ولا يمكن لعابريّ أن يمرّ فيها دون أن يتعرّض لمغامرةٍ ما.

سارعت سناء، المتردّدة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، للخروج من الغابة. كانت تتساءل:

- هل تضاءلت خشبيّتي من الراعي فما عدت أكثرث لرؤيته من جديد؟ أم إنّ قلبي المتعلّق به يسعى لخداعي؟ آه، لنهرب، لنهرب بعيداً، إنّهُ أفضل حلّ لأميرة تعيسة مثلي.

وتابعت طريقها نحو قصر السّاحر. بلغت ودخلت إليه دون عوائق تُذكر. اجتازت باحات كبيرة اجتاحتها الأعشاب والأشواك العالية جداً وشعرت أنّ أحداً لم يأتِ إلى هناك منذ مائة سنة. أبعدتها بيديها فخدشتها الأشواك في أكثر من مكان. دخلت إلى إحدى القاعات وكان التور لا ينفذ إليها إلّا من ثقب صغير: كانت تفترشها أجنحة الخفافيش، وتدلت من سقفها دزينة من الهررة كالثرّيات وراحت تموء للدرّجة أنّ من يسمّعها يفقد صبره. ووُضعت على طاولة طويلة اثنتا عشرة فأرة ضخمة موثّقة من أذناها وأمام كلّ واحدة منها قطعة من الشحم لا يمكنها بلوغها. وهكذا كانت الهررة تنظر إلى الفئران دون أن تستطيع التهامها، والفئران ترتعد من الهررة وتموت جوعاً وأمامها قطع الشحم الشهية.

وفيا كانت الأميرة تراقب عذاب تلك الحيوانات رأت السّاحر يدخل مرتدياً ثوباً طويلاً أسود. كان يضع على رأسه تمساحاً بمثابة قبعة، ولم يسبق لها أن رأت في حياتها قبعة مخيفة كتلك. وكان ذلك الشيخ يرتدي نظارات ويحمل في يده سوطاً من عشرين أفعى طويلة وكلّها لا تزال حيّة. آه! يا للهلع الذي انتاب الأميرة! كم تحسّرت في تلك اللحظة على الرّاعي وخرافها وكلبها! لم تفكر إلّا في الهرب.

ومن دون أن تقول كلمة لذلك الرجل المرعب، هُرِعَت نحوَ الباب لكتّنها رأت نفسها محاطة بخيوط العناكب فنزعتها عنها فاكتست بشبكة أخرى من خيوط العناكب فنزعتها لكتّنها اصطدمت بثالثة. وفي كلّ مرّة كانت تتخلّص من نسيج العناكب تجد نفسها عالقة وسطها من جديد وهكذا دواليك. إلى أن شعرت الأميرة بالإنهاك ولم يعد بإمكانها مواصلة ذلك العناء.

لم تعد ذراعاها تطاوعانها لتزيح عنها خيوط العناكب تلك التي لا تنتهي. أرادت الجلوس أرضاً لترتاح قليلاً فاخرقت جسدها الأشواك فنهضت ورأت لزاماً عليها عبور ما نسجته العناكب دون مناص. كان الشيخ الشرير ينظر إليها وهو يقهقه عالياً لحدّ الاختناق ضحكاً. وفي النهاية ناداها قائلاً لها:

- سوف تمضين هنا بقيّة حياتك ولن تجدي مخرجاً. تبدين لي شابة وأجمل من اللواتي رأيتهنّ في حياتي. إذا شئت أتزوجك وأمنحك هذه الهررة الاثنتي عشرة التي رأيتها معلقة إلى السقف لتفعل بها كلّ ما تشائين، وستكون لك أيضاً هذه الدزينة من الفئران على الطاولة. الهررة كانوا في الماضي أمراء والفئران كنّ أميرات. هؤلاء الأميرات المحتالات رُقنَ لي (لأنني كنت دوماً لطيفاً وأنيقاً) ولكن لم يردن أن يبادلنني الحب.

وهؤلاء الأمراء كانوا خصومي وأسعد حظاً منّي. فأخذتني الغيرة ووجدت وسيلة لاجتذابهم إلى هنا وحالما أمسكت بهم حولتهم إلى هررة أو إلى فئران. والمسليّ في الأمر أنّهم يتباغضون على قدر ما كانوا يتحابون وآته لا يمكننا أن نجد طريقة للثأر أنجع من هذه وأشدّ إيلاماً.

هتفت سناء:



- آه يا سيدي اجعلني فأرة فلست أستحق مصيراً أفضل من هؤلاء الأميرات التعيسات.

قال الساحر:

- ماذا تقولين أيتها الرّاعية الصّغيرة، ألا تريدين أن تحبيني؟

قالت:

- اتّخذتُ قراري بالأحبّ أبداً.

أضاف:

- آه منك ومن سذاجتك! سوف أطعمك أشهى المأكّل وسأروي

لك القصص وأقدّم لك أفخر الثياب في العالم ولن تذهبي إلّا في

عربة أو على هودج وسيدعونك السيّدة.

أجابت الأميرة من جديد:

- صمّمتُ على عدم الحبّ.

هتف الساحر غاضباً:

- حذارٍ ممّا تقولينه. سوف تندمِينَ على ذلك لوقتٍ طويل.

قالت سناء:

- لا يهمني. قرّرتُ ألا أحبّ أبداً.

قال لها وهو يلمسها:

- حسناً أيتها المخلوقة المستخفة بي، بما أنّك لا تريدين أن تحبيني

فيجب أن تكوني من جنس خاصّ. لذا، ستكونين في المستقبل جنساً

حائراً لا لحم له ولا دم ولا عظام، ستكونين خضراء لأنك لا زلتِ

في ريعانِ شبابك المخضّر، ستكونين خفيفة ومرحة، وتعيشين في

البراري كما عشتِ وسندعوكِ جرادةً.

وفي اللحظة نفسها، أصبحت الأميرة سناء أجمل جرادة في العالم.

وإذ باتت تتمتع بالحرية توجّهت تواءاً إلى الحديقة.

وما إن أصبحت قادرة على التحسّر على مصيرها حتى هتفت بألم:  
 - آه يا طشتي، يا طشتي العزيز ماذا صارَ بحالك؟ أهذه نتيجة  
 وعودك يا ترازيمان؟ هل هذا إذاً ما كُتِبَ لي منذ مائتي عام؟ جمال  
 لا يدوم أكثر مما تدوم أزهار الربيع، ومسك الختام ثوب من الحداد  
 الأخضر وهيئة صغيرة، جراحة لا لحم لها ولا عظم ولا دم! ما  
 أتعسني! واحسرتاه! لو احتفظت بالتاج لأخفى كل عيوبي ولكنك  
 وجدتُ زوجاً يليق بي؛ ولو كنت بقيت راعية لما تمنى فريد اللطيف  
 إلا امتلاك حبي: لقد ثأر على أية حال كما يجب من احتقاري الظالم  
 له. ها أنا جرادة مقدرة للغناء ليلاً ونهاراً فيما قلبي المفعم مرارة  
 يدعوني للبكاء!

هكذا تحدّث الجرادة مخبئة بين الأعشاب الطرية التي تحفّ  
 بصفاف الجدول.

ولكن في تلك الأثناء ماذا كان يفعل الأمير فريد وقد غابت عنه  
 راعيته الفاتنة؟ تركته بقسوة لا يمكنه احتماها وكان الألم الذي أصابه  
 ينتزع منه كل قوة ويمنعه من اللحاق بها. قبل أن يوافيها، أغمى عليه  
 وبقى طويلاً فاقد الرشد عند أسفل الشجرة حيث رآته سناء يسقط.  
 وأخيراً، إما أنها نداوة التربة أو أنّ قوة جبارة مجهولة جعلته يعود إلى  
 رشده: لم يجرؤ على الذهاب في ذلك اليوم إلى كوخها. استرجع في  
 ذهنه الأبيات الأخيرة التي قالتها له:

ما يُشقيننا ليس الهرب ممن نكرهه  
 بل الابتعاد عن عشيق  
 عطوف في ريعان الصبا وأهل للثقة.

كانت هذه الكلمات تمدّه بالرّجاء المُخادع، فعلّل نفسه بأنّ الوقت والاهتمام بها سيجعلانها تُكُنّ له بعض الامتنان. لكن عندما ذهب إلى كوخ الرّاعيّة العجوز حيث أوت سناء وعلم أنّها مختلفة منذ العشيّة شعر أنّه سيموت قلقاً. ابتعد رازحاً تحت ثقل الأفكار التي تتنازعه وجلس عند ضفّة النّهر حزين الفؤاد. أو شكّ مرّة أن يرتمي في النّهر واضعاً حدّاً لحياته وآلامه. وأخيراً أخذ خنجراً وحفر هذه الأشعار على جذع شجرة غيّراء<sup>(1)</sup>:

أيها النبع الرّقراق، أيها الجدول الصّافي  
 أيّتها الوديان الظّريفة وأنّ أيّتها السّهول الخصبة  
 أيّتها الخلوة التي كنت أجدها في منتهى الجمال  
 واحسرتاه! كم تزيدين من آلامي!  
 إنّ الفتاة الرّقيقة التي أحبّها  
 والتي تستعيرين منها كلّ مفاتنك  
 تركتك إلى غير رجعة هاربة من عاشقٍ تعس  
 لن ترينني بعد اليوم إلّا ذارفاً دموعي.  
 وعندما ينبلع الفجر مغلناً للفانين طلوع النّهار  
 فسوف يراني غارقاً في أشجاني  
 وستكون الشّمس شاهدة في كلّ لحظةٍ على دموعي  
 وعندما ستغرب في البحر  
 لن تغرب معها آلامي.  
 أنت أيّتها الشّجرة الرّقيقة، اعذريني إن كنت أجرح جذعك  
 وأحفر عليه همومي

(1) شجر حرجي يؤخذ منه خشب لصنع الأثاث.

إنها مجرد كلمات بسيطة تشي بها  
فعلته بي تلك الفتاة الظالمة.  
إن حدّ خنجري لا يسلبك الحياة  
وستزدادين جمالاً من أحرف اسمها.  
ولكنّ الموت كلّ ما أتمناه  
إذا ما فقدتُ سناء.

وَلَمْ يَسْتَطِعْ مُتَابَعَةَ الْكِتَابَةِ لِأَنَّ امْرَأَةً عَجُوزاً قَصِيرَةَ الْقَامَةِ دَنَتْ  
مِنْهُ. كَانَتْ تَرْتَدِي جَفْجَفًا<sup>(1)</sup> وَثَوْباً مَنْفُوخاً وَبِرُئُوساً مَحْمَلِيّاً لَهُ قَلَنْسُوءَةٌ  
وَتَطَوَّقُ شَعْرَهَا بِشَبَكَةِ رَقِيقَةٍ. كَانَ مَظْهَرُهَا الْقَدِيمُ يَتَّسِمُ بِشَيْءٍ مِنَ  
الْمَهَابَةِ.

قالت له:

- يا بُنَيَّ، تطلق حشراتٍ مُرّةً! أتوسّل إليك أن تُفصِحَ لي عَمَّا  
يؤلمك.

قال لها فريد:

- وَيَلُّ لِي! مَاذَا أَقُولُ لِكَ يَا جَدَّتِي؟ أَتَحْسَرُ عَلَى رَاعِيَةٍ رَائِعَةِ الْجَمَالِ  
هَرَبَتْ مِنِّي. وَصَمَّمْتُ عَلَى اللَّحَاقِ بِهَا فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ حَتَّى  
أَجِدَهَا.

قالت له وهي تدلّه على طريق القصر حيث أصبحت سناء  
المسكينة جرادّة:

- اذهب من هذه النَّاحِيَةِ يَا بَنِيَّ. لَدَيَّْ شَعُورٌ أَنَّكَ لَنْ تَفْتَشَ عَنْهَا  
طَوِيلًا.

شكّرها فريد وتوسّل إلى رسول الحبّ السماويّ أن يساعده.

(1) جفجف: طوق من القماش المكشكش كان يُلبس حول العنق.

لم يلتقِ الأمير بشيءٍ على الطريق يستأهل أن يستوقفه. لكن حين وصل إلى الغابة القريبة من قصر الساحر وشقيقته، خال أنه رأى الرّاعية فسارعَ للحاقِ بها فابتعدت.

صاح بها:

- سناء، سناء يا محبوبتي، توقفي قليلاً، من فضلك أصغي إليّ. لكنّ الطيفَ كان يُمعِن في الابتعاد عنه وأمضى هو نهاره يلاحقه. عندما وافي الليل، رأى أنواراً كثيرة في القصر: سرّ معتقداً أنّ الرّاعية قد تكون فيه. فهُرِعَ إليه. دخلَ دون أن يعترضه شيء. صعَدَ ووَجَدَ في قاعة استقبالٍ بديعةٍ جنيّةٍ عجوزاً طويلة القامة ونحيلة بشكلٍ مخيف. عيناها أشبه بمصباحين مطفأين، وخدّاهَا غائران، وذراعاهَا كأنّهما قُدّتا من خشب، وأصابعها مثل مغازل، ويغطيها هيكلها العظمي جلدٌ مسودٌ وبابس. وإلى ذلك كلّه كانت تضع الحُمرة على شفيتها وخالات اصطناعيّة على خدّها وشرائط خضراء ووردية في شعرها وترتدي معطفاً من الديباج الفضي وتعمُرُ إكليلاً من الألماس، وكانت مطوّقة بالحليّ في كلِّ موضعٍ من جسدها.

قالت له:

- وأخيراً أيّها الأمير، تصل إلى مكانٍ تمثيتك فيه منذ زمن بعيد. لا تفكّر بعد اليوم براعيّتك الصّغيرة. إنّ شغفاً من طرف واحد لا يليق بك. أنا ملكة الشّهب والنيازك. أتمنّى لك الخيرَ وأستطيع أن أغدق عليك نِعماً لا متناهية إذا أحببتي.

فصاح الأمير مرتاعاً وهو ينظر إليها باشمزاز:

- أن أحبّك؟ أحبّك أنت يا سيّدة! ماذا تظنين! وهل أستطيع التحكّم بمشاعري! لا، لا يمكنني أن أخونَ من أحبّ. ثم افرضي أنّني رغبت في أن أُبدلَ حبيبي فلن أستبدلها بك. بما أنّك ملكة

الأجواء اختاري شيئاً يلائمك: أحبّي الهواء أو الرّيح أو دعي الفانين بسلام.

غضبت الجنّية المكابرة وبضربتين من عصاها ملأت القاعة بالمسوخ المرعبة وتوجب على الأمير الشاب أن يثبت مهارته وشجاعته إزاءها. كانت بعض المسوخ تبدو متعدّدة الرّؤوس والأذرع وبعضها الآخر على هيئة قنطورس<sup>(1)</sup> أو حوريّة وبعضها أسود بوجه إنسان أو أشبه ما تكون بأبي الهول أو بتنانين مجنّحة. لم يكن في حوزة فريد إلاّ عصاه وحرّبة صغيرة تسلّح بها عندما بدأ رحلته. كانت الجنّية الطويلة القائمة توقف من وقت لآخر القتال وتسال الرّاعي ما إذا كان راغباً في حبّها فيقول لها دوماً إنّهُ منذورٌ حبّ ثابت لا يتغيّر. بعد أن سئمت الجنّية من عنادهِ، أظهرت له سناء ثمّ قالت له:

- حسناً. هل ترى عشيقتك في آخر الرّواق، إذا رفضت أن تزوّجني فستمزّقها هذه النّمور إرباً أمام ناظريك.

هتف الأمير وهو يرتمي عند قدميّها:

- رُحماك يا سيدي! أقبل الموت طوعاً لأنقذ عشيقتي الغالية.

أديمي حياتها وخذي حياتي.

أجابت الجنّية:

- لا مجال لأن تموت أيّها الخائن فالمسألة متعلّقة بك.

وفيا كانا يتحدّثان سمع الأمير صوت الرّاعيّة وكأنتها تتحب

وتشكي. كانت تقول له:

- هل تريد أن تتركني للنّمور كي تفترسني؟ إذا كنت تحبّني

فلتتقدّ ما تقوله لك الملكة.

تردّد الأمير التّعيس. ثمّ هتف:

(1) القنطورس: كائن خرافي نصفه إنسان ونصفه فرس.

- أَيْنَكَ يَا حَلِيمَةَ الْجَنِّيَّةِ؟ أَوْ تَتَخَلِّينَ عَنِّي بَعْدَ كُلِّ الْوَعُودِ الَّتِي قَطَعْتَهَا لِي؟ هَيَّا تَعَالَى أَنْجِدِينَا.

مَا إِنْ تَلْفَظْ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى سَمِعَ صَوْتًا فِي الْفِضَاءِ يَتَلَفَّظُ بِوَضُوحٍ بِالْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ:

- دَعَّ الْقَدْرَ يَفْعَلُ فَعْلَهُ، لَكِنْ كُنْ وَفِيًّا وَابْحَثْ عَنِ الْغِصْنِ الذَّهَبِيِّ.

إِنَّ الْجَنِّيَّةَ الطَّوِيلَةَ الْقَامَةَ الَّتِي ظَنَّتْ أَنَّهَا انْتَصَرَتْ بِلِجْوئِهَا إِلَى كُلِّ تِلْكَ الْخُدْعِ، قَدْ شَعُرَتْ بِالْيَأْسِ أَمَامَ ذَلِكَ الْحَاجِزِ الْجَبَّارِ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهَا، الْحَاجِزِ الَّذِي نَصَبْتَهُ رِعَايَةَ الْجَنِّيَّةِ حَلِيمَةَ.

قَالَتْ:

- ارْحَلْ عَنِّي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْبَائِسُ الْعَنِيدُ. بِمَا أَنَّ قَلْبَكَ مَفْعَمٌ بِالْحَبِّ فَسَاحْوَلِّكَ إِلَى جُنْدُبٍ، صَدِيقِ الْحَرِّ وَالنَّارِ.

وَعَلَى الْفُورِ تَحْوَلُ الْأَمِيرُ الرَّائِعُ الْجَمَالُ إِلَى جُنْدُبٍ صَغِيرٍ أَسْوَدَ قَدْرِهِ الْإِحْتِرَاقُ حَيًّا فِي أَوَّلِ مَدْخَنَةٍ أَوْ فَرْنٍ يَصَادِفُهُ لَوْ لَمْ يَتَذَكَّرِ الصَّوْتِ الْخَيْرِ الَّذِي شَجَّعَهُ.

قَالَ:

- يَجِبُ أَنْ أُبْحَثَ عَنِ الْغِصْنِ الذَّهَبِيِّ وَعِنْدئِذٍ لَنْ أَعُودَ جُنْدُبًا. آه لَوْ أَنَّيْ أَعْتَرَى عَلَى الرَّاعِيَةِ فَمَاذَا سَيَنْقِصُنِي بَعْدَ لِأَكُونَ فِي ذُرْوَةِ الْغُبْطَةِ؟ وَسَارَعَ الْجُنْدُبُ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْقَصْرِ الْمَشْهُومِ. وَمِنْ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ وَجْهَتَهُ، سَلَّمَ أَمْرَهُ لِرِعَايَةِ الْجَنِّيَّةِ الْجَمِيلَةِ حَلِيمَةَ ثُمَّ انْطَلَقَ دُونَ تَرَدُّدٍ لِأَنَّ جُنْدُبًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَى لَا السَّارِقِينَ وَلَا الصَّدْفَ السَّيِّئَةَ. وَاتَّخَذَ مِنْ أَوَّلِ ثَقْبٍ فِي شَجَرَةٍ مَأْوَى لَهُ؛ وَهَنَّاكَ صَادِفَ جَرَادَةٍ حَزِينَةٍ لِلْغَايَةِ تَأْبَى الْغِنَاءَ. لَمْ يَفْطَنَ الْجُنْدُبُ إِلَى أَنَّ الْجَرَادَةَ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ فِتَاةً مَلِيئَةً بِالذِّكَاةِ وَالْحِكْمَةِ، قَالَ لَهَا:

- إلى أين تذهب صاحبتى الجراة؟  
فأجابته على الفور:

- وأنت يا صاحبي الجندب، إلى أين أنت ذاهب؟  
باغت هذا الجوابُ الجندبَ العاشقَ بشكلٍ غريبٍ فهتَفَ قائلاً:  
- ماذا! هل تستطيعين الكلام؟  
فأجابته:

- وهل تظنّ أنّ الكلامَ حِكْرٌ فقط على الجنادبِ دونَ الجراداتِ؟  
قال الجندب:

- أستطيع الكلامَ لأنني رجل.  
قالت الجراة:

- وأنا أيضاً أستطيع الكلامَ، لا بل أقدر عليه أكثر منك، لأنني فتاة.

قال الجندب:

- وهل طالعك مصيرٌ مشابهٌ لمصيري؟  
أجابت:

- بالطبع. ولكن قل لي إلى أين تذهب؟  
أضاف الجندب:

- سأكون في غاية السرور أن نكون معاً. سمعتُ صوتاً أجهله  
يقول لي: «دع القدرَ يفعل فعله وائحت عن الغصنِ الذهبيّ». بدا لي  
أنّ هذا القول لا يمكن أن يُوجّهَ إلّاي. ومن دونِ تردّد انطلقتُ رغم  
أنّني أجهل وجهتي.

ثم قطع حوارهما مجيءُ فأرتين كانتا تركضانِ بأقصى سرعتيهما، وإذا  
لمحتا ثقباً في أسفل الشجرة ارتميتا فيه مُدخلتينِ رأسيهما أولاً وكادتا  
تخنقان الجندب وصاحبته الجراة. وانحسرتا بقدر ما تستطيعان في



زاوية صغيرة.

قالت الفأرة الأضخم:

- آه يا سيدي. تؤلمني خاصرتي لكثرة ما ركضت. كيف حال جلالتك؟

أجابت الفأرة الأصغر سنًا:

- انقطع ذنبي ولو لم أفعل ذلك لكنت ما زلت موثقة إلى طاولة ذلك الساحر الهرم. ولكن هل رأيت كيف طاردنا؟ ما أسعدنا لأننا نَجَوْنَا من قصره الجهنمي!  
قالت الفأرة الغنجة:

- لكنني خائفة قليلاً من الهررة والمصائد يا أميرتي، وأتحرّق شوقاً للوصول في أقرب وقتٍ إلى الغصن الذهبي.

قالت جلالة الفأرة:

- هل تعرفين إذا الطريق؟

أجابت الأخرى:

- بالطبع أعرفها يا سيدي! كما أعرف طريق بيتي. هذا الغصن عجيب. إن ورقة واحدة من ورقاته تكفي لتكوني طيلة حياتك ثرية، وتزيل السحر وتعيد الجمال وتديم الشباب. يجب استئناف المسير قبل طلوع النهار.

قالت الجرادة:

- يا سيدي لو سمحتما، يشرّفنا أن نرافقكما أنا وهذا الجندب التزيه. لأننا مثلكما نحجّ لبلوغ الغصن الذهبي.

وتبادلا عبارات الثناء من كلّ جانب وبالغوا فيها. كانت الفأرتان أميرتين أوثقهما ذلك الساحر اللعين إلى الطاولة. وكذلك كان الأدب الذي يظهره الجندب والجرادة يعبر أفضل تعبير عن أصلهما النبيل.

واستيقظ الجميع في وقت مبكر جداً وانطلقوا بصمتٍ لثلا يسمَعهم الصيادون. وهكذا وصلوا إلى الغصن الذهبي. كان مزروعاً وسط حديقة بديعة، وبدلَ التراب كانت الممرات مليئة بلألئ صغيرة مشرقية مستديرة كحبات البازلاء، وكانت الورود من الألباس الوردية وأوراقها من الزمرد، وأزهار الرمان كانت من الياقوت الأحمر، وأزهار الآذريون من الياقوت الأصفر، والترجس الآسي من الألباس الأصفر، والبنفسج من اللازورد والياقوت الأزرق، والترنجان من الفيروز، والتوليب من الجمشيت وعين الهر<sup>(1)</sup> والألباس. وأخيراً كانت تلك الأزهار الجميلة المتنوعة أشدَّ سطوعاً من الشمس.

هناك إذاً (كما سبقَ وقلت لكم) كان موضع الغصن الذهبي، الغصن نفسه الذي تلقاه الأمير فريد من السر والذي لمسَ به الجنية حليلةً عندما كانت واقعة تحت السحر. أصبح أكثر علواً من أعلى الأشجار ومثقالاً بحبات الكرز المصنوعة من الياقوت.

ما إن اقتربَ منه الجندب والجرادة والفأرتان حتى عادوا إلى هيئاتهم الأولى. ما أعظم فرحتهم! يا للغبطة التي شعر بها الأمير العاشق عندما رأى الرأعية الجميلة! كان على وشك أن يعبر لها عن سعادته بهذه المفاجأة الرائعة عندما ظهرت الجنية حليلة برفقة الملك ترازبيان وسط مظاهر الأبهة التي لا مثيل لها حيث كان كل شيء يتجاوب مع روعة الحديقة. وكان هناك أربعة من ملائكة الحب يحملون بسهامهم سرادقاً صغيراً من الديداج الذهبي والأزرق وفي داخله تاجان يلَمعان بالجواهر.

هتفت الملكة وهي تمدُّ لهما ذراعيها:

(1) عين الهر: حجر لبني كريم متغير الألوان.

- تعالا أيها العاشقان اللطيفان، تعالا وتسلمًا من أيدينا التّاجين  
اللذين تستحقّانها بفضل خصالكما الحميدة وأصلكما النبيل ووفائكما  
المبادل. إنّ معاناتكما ستحوّل إلى مسرّات.  
ثم أردفت:

- أيّتها الأميرة سناء، هذا الرّاعي الذي كنت خائفة من حبه  
هو الأمير الذي اختاره والدك ووالده زوجاً لك. لم يمت في البرج  
فاقبله زوجاً ودعي لي أمر السّهر على راحتكما وسعادتكما.  
أرتمت الأميرة على الجنيّة حلّيمّة وطوّقت عنقها وهي في غاية  
السّرور. وعندما رأت دموعها عرفت أنّ فرحتها ألزمتها الصّمت  
وانترعت منها القدرة على الكلام. وارتمى فريد أيضاً عند قدمي تلك  
الجنيّة الشّهمة وأخذ يقبل يديها باحترام ويقول كلماته عفو الخاطر.  
وداعبها ترازيمان كثيراً. وروت لهم الجنيّة حلّيمّة بكلمات مختصرة  
أنها لم تتخلّ عنها أبداً. وأنها هي التي اقترحت على سناء أن تنفخ  
في القفّاز الأصفر والأبيض، وهي التي اتخذت هيئة راعية عجوز  
لتسكن الأميرة عندها، وهي التي أعلمت الأمير الوجهة التي عليه  
اتّخاذها للحاق بالرّاعية.  
ثم أضافت:

- في الحقيقة واجهتُها مصاعب كان بإمكانني أن أجنبكما إياها لو  
كنت قادرة على ذلك. ولكن، في النهاية، يبدو أنّ ملذات الحبّ يجب  
أن يُدفع ثمنها باهظاً.  
وعندئذٍ سمعت سمفونية عذبة دوّت أصداؤها في كلّ جانب.  
سارعت ملائكة الحبّ لكي تضع التّاج على رأسي العاشقين  
السّائين. وأقيم حفل الرّفاف. وفي تلك الأثناء، استحلفت الأميرتان  
اللتان تركتا لتوهما هيئة الفأرة، استحلفتا الجنيّة أن تستخدم قوتها

لكي تُعتَقَ الفئران والهرة التعيسة الحظّ من قصر السّاحر.

قالت لهما:

- هذا اليوم ليسَ كالأيام ولن أستطيع فيه أن أرفض لكما طلباً.  
وفي الحال، ضربت ثلاث مرّاتِ الغصنَ الذهبيّ فظهر كلُّ أولئك  
الذين اعتقلوا في القصر واسترجع كلُّ واحدٍ منهم هيئته الأصليّة  
وسارعَ لمُوافاة محبوبه. وإذا كانت الجنّة السخية تريد أن يكون  
العيد في كلّ مكان، أعطتهم الخزانة في أعلى البرج لكي يتقاسموا  
محتوياتها فيما بينهم. وهذه الهبة كانت تُساوي أكثر من عشر ممالك  
في ذلك الزّمان. ومن السّهل تحيّل رضاهم وامتنانهم. واختتمت  
الجنّة حليمةً والملك ترازيمان ذلك العمل العظيم بمئةً تفوق كلّ ما  
منحاه حتّى الآن بإعلانها أنّ القصر وحديقة الغصن الذهبيّ يخصّان  
مستقبلاً الملك فريد والملكة سناء. وكان مائة ملك يدفعون الجزية لهما  
وكانت مائة مملكة تابعة لهما.

عندما قدّمت جنّية معونتها للأميرة سناء

كانت الأميرةُ قادرةً على أن تسألها

أن تهبّها الجمالَ الفاتن

وكنوزَه النَّادرة،

فلأجل الجمال والحفاظ عليه

يُبذل كلُّ غالٍ ورخيص،

لكنّ سناء لم تستسلم

لإغواء جمال الجسد

بل آثرت جمالَ الفكر والروح،

ذلك أنّ الورود والزّنايق المتفتّحة على وجهٍ ساحر

تذبل كغيرها من الزهور بلحظة واحدة  
فيها جمال الرّوح خالدٌ لا يموت.



## الفأرة الصغيرة الطيبة

كانَ يا ما كان، كان هناكَ ملكٌ وملكةٌ متحابَّانِ إلى أبعدِ حدٍّ، وكلٌّ منهما يُدكِّي سعادةَ الآخر. كان قلبُهما ومشاعرُهما على وفاق تام. كلَّ يومٍ، كانا يذهبانِ إلى الصَّيد ليصطادا الأرناب البريةَ والأبائل، إلى جانبِ الأسماكِ من صنفِ سمكِ موسى والشبوط. وفي الحفلاتِ الرَّاقصةِ، كانا يؤدِّيانِ رقصاتٍ متنوِّعةٍ منها رقصةُ الخطواتِ الثلاثِ ورقصةُ الطاووس. وفي الولائمِ الكبيرةِ، يأكلانِ اللَّحمَ المشويَّ وحبَّاتِ الملبَّس. وكانا يذهبانِ أيضاً إلى المسرحِ والأوبرا، ويضحكانِ ويغنيانِ ويؤلِّفانِ ألفَ مسرحيَّةٍ ليسلِّيا. وفي النهايةِ، يمكن القولُ إنَّهما كانا أسعدَ زوجينِ في الوجودِ لا بل عبرَ الأزمنةِ كلِّها.

وكانَ أفرادُ الرعيَّةِ يُحذونَ حذوَ الملكِ والملكةِ، فيتنافسونَ فيما بينهم على أسبابِ اللُّهو والترفيه. ولهذا كلُّهُ سُمِّيتِ تلكَ المملكةُ بلادَ البهجةِ (والملكُ نفسه كان يُدعى بهيجاً). وحدثَ أنَّ ملكاً مجاوراً للملكِ بهيجٍ كانَ يعيشُ بشكلٍ مختلفٍ تماماً، عدواً معلناً للملذاتِ، لا يهوى إلاَّ التنكيلَ بالناسِ وتبريجمهم ضرباً. كانتِ سيِّئاً وجهه متجهمَةً ولحيتهُ طويلةٌ وعيناهُ غائرتين. كانَ نحيلاً وجافاً، يرتدي دوماً الأسودَ، وكانَ شعره مشعثاً ودهنياً ومسخاً. لا يثيرُ إعجابهُ إلاَّ القتلُ وصَرَخُ المارَّةِ. وكانَ يعمدُ إلى شقِّ المجرمينِ بنفسه متلذذاً بتعذيبهم.

وحيثُ يعلمُ أنَّ أمّاً حنوناً تحبُّ كثيراً ابنتها الصغيرةَ أو ابنتها الصغير، كان يُرسلُ في طلبِها ويقطعُ ذراعاً ولديها بحضورها أو يدكُ عنقه. لذا سُمِّيتِ بلادُهُ بلادَ الدَّموعِ. وتناهتِ إلى أسمعِ الملكِ اللئيمِ

الأخبار عن الهناء الذي يعيش في كنفه رعايا الملك بهيج ورضاهم عليه، فضمر له حسداً كبيراً وصمم على أن يجهز جيشاً ضخماً ويذهب لمحاربتِه إلى أمد غير محدد حتى يموت أو يسقط صريعاً. وأرسل إلى كل ناحية يطلب تزويده بالمحاربين والأسلحة. وأمر بصنع المدافع. وكان كل واحد يرتجف خوفاً قائلاً: «من سينقّض عليه الملك فلن يوفّره أبداً». وعندما جهّز كل شيء، زحف إلى بلد الملك بهيج الذي ما إن وصلتته تلك الأخبار السيئة حتى سارع للدفاع عن نفسه. كانت الملكة مذعورة حتى الموت وتقول له وهي تبكي:

- مولاي، علينا الهرب، لنحاول أن نجتمع من المال ما أمكن ونذهب بعيداً إلى أقاصي الأرض.

فيجيب الملك:

- تبتاً لك يا سيدي! أنا لا تثقُصني الشجاعة. أفضل الموت على أن أكون جباناً.

وجمع جنوده وودّع الملكة بكلمات لطيفة ثم امتطى حصاناً جميلاً وانطلق. عندما تواری عن ناظرِها، أخذت تبكي بمرارة. ثم جمعت يديها قائلة:

- واحسرتاه! إنني حبلی، وإذا قُتلَ الملك في الحرب فسأغدو أزملة وأسيرة وسيستبب لي الملك الشرير بألف أذى.

منعتها تلك الفكرة من الأكل والنوم. كان الملك يكتب لها كل يوم. وذات صباح، وفيما كانت تشرح بنظرها إلى ما وراء الأسوار، رأت ساعياً يركض بأقصى سرعته. فأخذت تناديه:

- يا هذا!، أيها الساعي، ما هي الأخبار؟

هتف قائلاً:

- توفي الملك. وخسرنا المعركة. سيصل الملك الشرير بعد لحظات.



فسقطت الملكة التَّعِيَسَةَ فاقِدَةَ الرِّشْدِ. مُحِلَّتْ إِلَى السَّرِيرِ وَكَانَتْ  
 جَمِيعَ وَصِيفَاتِهَا قَرَبَهَا وَرُحْنَ يَبْكِينَ. بَكَتْ وَاحِدَةً أَبَاهَا وَثَانِيَةً ابْنَهَا.  
 كَتَنَ يَنْتَزِعْنَ شَعُورَهُنَّ وَكَانَ مَرَأَهُنَّ مَثِيراً لِلشَّفَقَةِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ  
 آخِرٍ. وَفَجْأَةً سَمِعَ صَوْتَ يَقُولُ: «اقْتُلُوهُمْ، اهْجَمُوا عَلَى اللُّصُوصِ».   
 كَانَ الْمَلِكُ الشَّرِيرُ يَصِلُ بِصُحْبَةِ رَعَايَاهِ الْبَائِسِينَ وَكَانُوا يَقْتُلُونَ دُونَ  
 ذَنْبِ كُلِّ مَنْ يُصَادِفُونَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ. وَدَخَلَ إِلَى قِصْرِ الْمَلِكِ مَسْلِحاً  
 تَمَاماً ثُمَّ صَعَدَ إِلَى غُرْفَةِ الْمَلِكَةِ. وَعِنْدَمَا رَأَتْهُ يَدْخُلُ، اغْتَرَاهَا خَوْفٌ لَا  
 يُوَصِّفُ فَانْدَسَّتْ فِي السَّرِيرِ وَدَفَنْتْ رَأْسَهَا فِي الْغِطَاءِ. نَادَاهَا مَرَّتَيْنِ  
 أَوْ ثَلَاثاً لَكِنَّهَا لَمْ تَنْبَسْ بِكَلِمَةٍ فَاغْتَاظَ، اغْتَاظَ كَثِيراً وَقَالَ:

- حذارِ أَنْ تَسْخَرِي مِنِّي! هَلْ تَعْلَمِينَ أَنِّي أُسْتَطِيعُ أَنْ أَذْبَحَكَ

فِي الْحَالِ؟

وَحَسَرَ عَنْهَا الْغِطَاءَ وَنَزَعَ قَبَعَهَا فَانْسَدَلَ شَعْرُهَا الْجَمِيلُ عَلَى  
 كَتِفَيْهَا. لَوَى يَدَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَحَمَلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ وَكَأَنَّهَا كَيْسٌ قَمَحٌ  
 ثُمَّ أَصْعَدَهَا عَلَى حِصَانِهِ الْأَدْهَمِ الضَّخْمِ. تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ كَيْ يُشْفِقَ  
 عَلَيْهَا فَسَخَّرَ مِنْهَا قَائِلاً:

- اضْرُخِي وَاشْتَكِي مَا شِئْتَ فَهَذَا يُضْحِكُنِي وَيُسَلِّينِي.

وَاصْطَحَبَهَا إِلَى بِلَادِهِ وَتَوَعَّدَهَا طِيلَةَ الطَّرِيقِ مَكْرَراً أَنَّهُ مَصْمَمٌ  
 عَلَى شَنْقِهَا. لَكِنْ قِيلَ لَهُ إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ مَوْسِفاً لِأَنَّهَا حَبْلِي.  
 وَعِنْدَمَا عَرَفَ بِالْأَمْرِ، خَطَرَ بِيَالِهِ أَنَّهَا إِذَا أَنْجَبَتْ بِنْتاً فَسَيُزَوِّجُهَا  
 ابْنَهُ. وَلَكِي يَعْلَمَ جِنْسَ الْوَلَدِ فِي أَحْسَائِهَا، أَرْسَلَ فِي طَلْبِ جَنِيَّةٍ  
 كَانَتْ تَقْطُنُ بِالْقَرَبِ مِنْ مَمْلَكَتِهِ. جَاءَتْ إِلَيْهِ فَأَوْمَّ لَهَا أَفْضَلَ تَمَّا يَفْعَلُ  
 عَادَةً. وَمِنْ ثَمَّ اصْطَحَبَهَا إِلَى أَحَدِ الْأَبْرَاجِ حَيْثُ أَسْكَنَ الْمَلِكَةُ التَّعِيَسَةَ  
 فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ جَدًّا مَفْرُوشَةً بِتَوَاضُعٍ كَبِيرٍ. كَانَتْ مَضْطَجَعَةٌ أَرْضاً  
 عَلَى فِرَاشٍ بَخْسٍ حَيْثُ كَانَتْ تَبْكِي كَيْلاً وَنَهَاراً. عِنْدَمَا رَأَتْهَا الْجَنِيَّةُ

رَقَّتْ لِحَالِهَا. انْحَنَّتْ أَمَامَهَا إِجْلَالًا وَقَالَتْ لَهَا بِصَوْتٍ خَفِيضٍ وَهِيَ تَقْبَلُهَا:

- تَشَجَّعِي يَا سَيِّدَتِي، الْآمُكُ سَتَنْتَهِي وَأَمَلُ أَنْ أَسَاهِمَ فِي إِنْهَائِهَا. حَمَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَ مِنَ الْعِزَاءِ إِلَى قَلْبِ الْمَلِكَةِ، فَدَاعَبَتْهَا وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهَا لْتُشْفِقَ عَلَيَّ أَمِيرَةَ بَائِسَةٍ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِثُرُوءٍ كَبِيرَةٍ ثُمَّ رَأَتْ نَفْسَهَا فِي الْحَضِيضِ. كَانَتْ تَتَبَادَلَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عِنْدَمَا قَالَ الْمَلِكُ الشَّرِيرُ:

- هَيْتَا! يَكْفِي مَجَامَلَاتٍ. جِئْتُ بِكَ إِلَى هُنَا لِتَقُولِي لِي مَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ حَبْلِي بِصَبِيٍّ أَوْ بِنْتٍ. أَجَابَتْ الْجَنِّيَّةُ:

- إِنَّهَا حَبْلِي بِنْتٍ وَسَتَكُونُ هَذِهِ الْبِنْتُ أَجْمَلَ أَمِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ وَمِثَالِ الْفِطْنَةِ وَالنَّبَاهَةِ.

وَتَمَنَّتْ لَهَا الْخَيْرَ وَالْعِزَّةَ بِلَا حُدُودٍ.

قَالَ الْمَلِكُ الشَّرِيرُ:

- إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمِيلَةً وَفِطْنَةً فَسَأَشْنُقُهَا إِلَى عُنُقِ أُمِّهَا ثُمَّ أَسْنُقُ أُمِّهَا وَأَعْلَقُهَا إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ دُونِ تَرَدُّدٍ.

وَبَعْدَئِذٍ خَرَجَ مَعَ الْجَنِّيَّةِ غَيْرِ أَبِيهِ بِالْمَلِكَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي كَانَتْ تَبْكِي بِمَرَارَةٍ وَهِيَ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا:

- يَا وَيْلِي! مَاذَا أَفْعَلُ؟ إِذَا أَنْجَبْتُ فِتَاءً جَمِيلَةً صَغِيرَةً فَسَيُزَوِّجُهَا ابْنَهُ الْقَرْدِ. وَإِذَا كَانَتْ قَبِيحَةً فَسَيَقْتُلُنَا كَلِينًا. أَيُّ إِجْرَاءٍ فَطِيعٍ مِنَ الْإِجْرَاءِينَ سَيَتَّخِذُ بِحَقِّي؟ أَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى إِخْفَائِهَا فِي مَكَانٍ مَا بَحِيثٍ لَا يَرَاهَا أَبَدًا.

اِقْتَرَبَ مِعَادُ مَوْلِدِ الْأَمِيرَةِ وَازْدَادَتْ هُمُومُ الْمَلِكَةِ.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ تَشْتَكِي إِلَيْهِ وَتَتَعَزَّى بِوَجُودِهِ. لَمْ يَكُنِ السَّجَّانُ

الذي يخرسها يغطيها إلا ثلاث حباتٍ بازلاءٍ مطهّوةٍ في الماءِ تتناولها طيلةَ النهارِ مع قطعةٍ من الخبزِ الأسودِ.

أصبحت أشدَّ نُحولاً من سمكة الرنكة وهزلَ جلدها على عظمها. وذات مساءً، وفيما كانت تنسجُ على مغزها (لأنَّ الملكَ الشريرَ كان بخيلاً جداً وجعلها تعملُ ليلَ نهارٍ). رأت فأرةً صغيرةً تدخلُ عبرَ الثقبِ وكانت جميلةً جداً.

قالت لها:

- يا ظريفتي عمَّ جئتِ تبحثينَ هنا؟ يا للأسف، ليسَ لديّ إلا ثلاث حباتٍ بازلاءٍ، هي طعامي اليوميّ. إذا كنتِ ترغيبينَ في غير الصيامِ فارحلي عن هذا المكانِ.

أخذتِ الفأرةُ تهزولَ في أرجاءِ الغرفةِ وترقصُ وتنطنطُ مثل قزْد صغير. سرّت الملكة كثيراً بالنظرِ إليها فأعطتها البازلاءَ الوحيدةَ التي بقيت في حسانها.

قالت لها:

- هيا خذي يا ظريفتي، ليسَ لديّ إلا هذه وأعطيكِ إياها بطيبةِ خاطرٍ.

ما إن أعطتها الحبةَ حتّى رأت على الطاولةِ حجلاً شهياً مطهّواً بشكلٍ رائعٍ ومرطبانينِ من المربى. قالت:

- لا يَضِيعُ المعروفُ أبداً.

وأكلت قليلاً لأنَّ شهيتها تضاءلت لكثير ما صامت.

أعطت ملبساً للفأرةِ فقضمته ثم راحت تقفز بحيوية أكبر ممّا فعلت قبل العشاء. وجلب السجّان إلى الملكة في الصباح الباكر حباتِ البازلاءِ الثلاثِ ووضعها في طبق كبير ليسخرَ منها. فجاءت الفأرةُ الصغيرةُ والتهمتها ثلاثتها بهدوءٍ وأكلت الخبزَ أيضاً. وعندما

أرادت الملكة أن تتناول عشاءها لم تجد شيئاً فغضبت من الفأرة،  
وقالت:

- إنها فأرة صغيرة شريرة. إذا تابعت على هذا المنوال فسأموت  
من الجوع.

وعندما أرادت أن تغطي الطبق الكبير الفارغ وجدت فيه كل ما  
لذ وطاب. شعرت بالارتياح وأكلت بشهية، ولكن أثناء ذلك خطر  
لها أن الملك الشرير سيقتل أبنتها في غضون يومين أو ثلاثة فأقلعت  
عن تناول الطعام وراحت تبكي. ثم قالت وهي ترفع نظرها إلى  
السماء:

- أهذا معقول! أما من وسيلة للهرب؟

وفيما هي تقول ذلك، رأت الفأرة الصغيرة تلهو بعيدان طويلة  
من القش؛ أخذتها الملكة منها وبدأت تحببها.  
قالت:

- إذا كان لدي ما يكفي من القش فسأصنع منه سلّة وأضع فيها  
ابنتي الصغيرة وأعطيها من النافذة لأول شخص محسن يريد الاعتناء  
بها.

وبدأت تعمل بدأب كبير. لم يكن القش ينقصها، وكانت الفأرة  
تأتي به إلى الغرفة دوماً حيث تتابع القفز. وفي أوقات الوجبات، كانت  
الملكة تقدم حبات البازلاء الثلاث وتجد بدلاً منها أصنافاً لا تُحصى  
من اليخّنات. أدهشها ذلك كثيراً وراحت تفكر باستمرار بمصدر  
تلك الأشياء الشهية. ذات يوم، نظرت الملكة عبر النافذة لكي تقدّر  
طول الحبل الذي يفرّض أن تعلق إليه السلّة لكي تنزلها فلمحت في  
الأسفل امرأة عجوزاً قصيرة القامة تتكى إلى عصاها.  
قالت لها:

- أعرف مقدارَ ألمكِ. إذا شئتِ فأنا أستطيع أن أساعدكِ.

قالت لها الملكة:

- واهأ يا صديقتي العزيزة. ستُدخلين السرور إلى قلبي لو أتيتِ كلَّ مساءٍ إلى أسفلِ البرج. وسأنزلُ لكِ طفلتَي المسكينَة وتُطعمينها. وإذا أصبحتِ ثريةً فسأجزلُ لكِ العطاء.

قالت العجوز:

- لا يهمني المال. أنا شرهة ولا شيء يطيب لي مثل فأرةٍ دسمةٍ ممثلة. إذا وجدتِ واحدةً في مسكنكِ الحقيق فاقطليها وازميها لي. لن أكونَ جاحدةً للجميل، وسأعنى بطفلكِ خيرَ عناية.

وإذ سمعتها الملكة أخذت تبكي ولم تجب بشيء. تريت العجوزُ قليلاً لتسأل عن سببِ بكائها.

قالت:

- هذا لأنه لا يأتي إلى غرفتي إلا فأرةٌ واحدةٌ وهي جميلة جداً ولا يسعني التصميم على قتلها.

قالت العجوز بنبرةٍ غاضبةٍ:

- ماذا تقولين؟ أتُحِبِّينَ فأرةً صغيرةً قارضةً أكثرَ من الطفلة التي ستُنجبِينها؟ حسناً يا سيدي، لن أشفقَ عليك. ابقِي بصحبِها وأنا، ما همني! سأحصل على الفئرانِ من دونكِ.

وزهدت وهي تُغمغم. ومع أن الملكة حصلت على وجبةٍ لذيذةٍ ومع أن الفأرة جاءت لترقص أمامها، إلا أنها أبقت بصرها منخفضاً وسالت الدموع على خديها. وفي تلك الليلة بالذات، أنجبت أميرةً كانت آيةً في الجمال، وبدل أن تصرخ كالأطفال الآخرين، بدأت تضحك لوالدتها وتمد لها يديها الصغيرتين وكأنها تفهم كل شيء. داعبتها الملكة وقبلتها بكل ما أوتيت من حنان. ثم فكرت بحزن:

- يا ظريفتي، يا حلوتي، يا ابنتي الغالية! إذا وقعت بين يدي الملك الشرير فسيتقضى عليّ.

ووضعتها في السلّة ووضعت على قماطها ورقة كتبت عليها:  
«هذه الصغيرة المسكينة البائسة تُدعى جوليت».

فتحت الملكة السلّة من جديد فوجدت الأميرة وقد ازدادت جمالاً. قتلتها وذرفت دمعاً مذراراً دون أن تعرف ماذا تفعل. ولكن ها إن الفأرة الصغيرة أتت واندست في السلّة مع جوليت.  
قالت الملكة:

- آه أيتها الفأرة الصغيرة، كم يكلفني غالياً أن أنقذ حياتك! ربّما كنت سأفقد جوليت العزيزة. إن امرأة أخرى سِوَيِ كانت ستقتلك وترميك إلى العجوز الشرهة. لكّتي لم أستطع القبول بذلك.  
حينئذ قالت الفأرة:

- لا تندمي على ما فعلته يا سيدي، فأنا جديرة بصداقتك خلافاً لما تظنين.

دُعرت الملكة وكادت تموت رُعباً لسماعها فأرة تتكلم على هذا النحو. لكنّ خوفها ازدادَ عندما رأت خطمها الصغير يتحوّل إلى وجهٍ وقوائمها تنقلب إلى يدينٍ وقدمين ويكبرُ حجمها فجأةً. وأخيراً لم تجرؤ الملكة على النظر إليها لكنّها أدركت أنّها الجنيّة التي أتت لزيارتها مع الملك الشرير والتي لاطفها كثيراً.  
قالت لها:

- أردت أن أمتحنَ طيبة قلبك فعرفتُ أنّه لكذلك وأنك قادرة على الصداقة. نحن معشر الجنيات نملك كنوزاً وثروات هائلة ولا نبحث عن حلاوة العيش إلا عبر الصداقة ونادراً ما نجدّها.  
قالت الملكة وهي تُقبّلها:

- هل يُعقل أيتها السيّدة الجميلة أن تلقى الجنّيات كلّ هذه المشقّة في إيجادِ أصدقاءٍ فيما هنّ في منتهى الثراء والقوّة؟  
أجابت:

- نعم، لأنّ الآخرين لا يحبّوننا إلّا بداعي المصلحة، وهذا لا يؤثرُ فينا. لكن، عندما أُحبّبت في الفأرة الصّغيرة فذلك لم يكن بدافع المنفعة. أردتُ أن أمتحنك أكثر فأخذتُ هيئة المرأة العجوز. أنا المرأة التي كَلَمْتُكَ في أسفل البرج ووجدتُ أنّك تُخلصين الودّي. ثمّ قبلت الملكة وقبلت ثلاث مرّاتٍ فَمَ الأميرة الصّغيرة القرمزي. وقالت لها:

- يا بَيْتِي، أهْبِكِ أن تكوني تعزّية والدتك، وأن تكوني أشدّ ثراءً من والدك وأن تعيشي مائة سنةً محافظةً على جمالِك وصحتِك فلا تجاعيد ولا شيخوخة.

شكرتها الملكة بمتهجّة وتوسّلت إليها أن تأخذ جوليت وتعني بها مضيقةً أنّها تغطيها إياها لتكونَ ابنتها. وافقت الجنّية على طلبها وشكرتها ووضعت الصّغيرة في السلة وأنزلتها إلى الأسفل. لكن بعد أن توقفت قليلاً لتستعيد هيئة الفأرة الصّغيرة وتنزلت على الحبل خلفها، نظرت إلى السلة فلم تجد الطفلة، وعندئذٍ صعّدت عند الملكة من جديدٍ وهي ترتعش من الدّعر وقالت لها:

- كلّ شيءٍ ضاع سدى. جاءت عدوّتي كأنكالين لتخطف الأميرة! اعلمي أنّها جنّية متوحّشة وتكرهني. ولسوء الحظّ، إنّها أقدم منّي وتفوقني قدرّة. لا أعرف بأيّة وسيلةٍ أستطيع انتزاع جوليت من براثنها الشريرة.

عندما سمعت الملكة هذه الأخبار الحزينة، كادت تموت ألماً. بكت بكاءً مرّاً متوسّلةً إلى صديقتها أن تحاول استعادة الصّغيرة من جديدٍ

مَهْمَا يَكُن الثَّمَنُ. وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ جَاءَ السَّجَّانُ إِلَى غَرْفَةِ الْمَلِكَةِ وَأَيَّقَنَ أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ حَبْلِي فَأَبْلَغَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ وَهُرِعَ لِيُطَالِبَ بِالطَّفْلةِ لَكِنَّهَا قَالَتْ لَهُ إِنَّ جَنِيَّةَ لَا تَعْرِفُ اسْمَهَا جَاءَتْ وَأَخَذَتْهَا مِنْهَا بِالْقُوَّةِ. فَأَخَذَ الْمَلِكُ الشَّرِيرَ يَرِفْسُهَا وَقَضَمَ أَظْفَرَهَا حَتَّى اللَّحْمِ.

قال:

- وَعَدْتُكَ بِأَنْ أَشُنُقَكَ وَسَأَفِي بُوْعَدِي الْآنَ.

وعلى الفور اجتذبت الملكة المسكينة إلى الغابة وتسلقت شجرة ساعياً إلى شئقها. عندئذ، جعلت الجنية نفسها غير مرئية ودفعته بعنف وأسقطته من أعلى الشجرة فانكسرت أربع من أسنانه. وفيما سعى مرافقوه إلى إسعافه، اختطفت الجنية الملكة في عربتها المجنحة وحملتها إلى قصرها الجميل. هناك أولتها عناية فائقة، ولو كانت الأميرة جوليت معها لاكتملت سعادتها. لكن لم يكن في الإمكان اكتشاف المكان الذي وضعتها فيه كالكالين، مع أن الفأرة الصغيرة بذلت جُلَّ جُهدِها. وأخيراً مرت السنون وتضاءل معها حزن الملكة الكبير. كانت خمسة عشر عاماً قد تصرمت عندما سمعوا أن ابن الملك الشرير سيتزوج راعية ديكة رومية لكن الفتاة كانت ترفض الزواج به.

أمرٌ عجيبٌ فعلاً أن ترفض راعية للدِّيكَةِ الرُّومِيَّةِ أَنْ تُصَيِّرَ مَلِكَةَ. ومع ذلك جهزت ثياب العرس وأجريت الاستعدادات الباذخة له وبدأ الناس يتوافدون من كل ناحية ومن أمكنة تبعدُ مائة فرسخ عن المملكة. وجاءت الفأرة الصغيرة لحضور العرس لأنها كانت تريد رؤية راعية الدِّيكَةِ الرُّومِيَّةِ وتتحرى عنها. دخلت إلى القن فوجدتها ترتدي ثوباً فضفاضاً من الكتان، وتضع خرقة وسخة على رأسها، وكانت حافية القدمين. قرَّبها على الأرض ثياب من ذهب وفضة



والماس ولآلئ وشرائط ودانتيلًا؛ وكانت الديوك الرومية تروح عليها وتجيء فتلطخها بالوحد وتملؤها ذروقا. والراعية جالسة على صخرة كبيرة. وكان ابن الملك الشرير، وهو مشوه الجسم وأعور وأعرج، يقول لها بنبرة قاسية:

- إذا تمتعت عني فسأقتلك.

وكانت تجميئه بفخر:

- لن أتزوجك، أنت قبيح جدا، تشبه أباك القاسي. اتركني بسلام مع ديكتي الرومية الصغيرة. أحبها أكثر من كل مظاهر الأبهة والملابس الثمينة التي تتبجح بها.

نظرت إليها الفأرة الصغيرة بإعجاب لأنها كانت جميلة بهيئة كالشمس. وما إن خرج ابن الملك الشرير حتى أخذت الجنية شكل راعية عجوز وقالت لها:

- صباح الخير يا ظريفتي. ها إن ديوك الرومية في حال جيدة. رفعت راعية الديكة اليافعة بصرها إلى تلك العجوز، وكانت نظراتها مليئة بالعدوبة. قالت لها:

- يريدون أن أتخلى عنها لأجل تاج خسيس فبم تنصحيني؟  
قالت الجنية:

- يا بنتي، التاج جميل جدا، يظهر أنك لا تعرفين لا ثمنه ولا قدره.

فعاجلتها الراعية بالقول:

- بلى، أعرفه وأرفض الخضوع مع أي لا أعرف من أنا، ولا أين أبي أو أمي. فأنا لا أهل لي ولا أصدقاء.

قالت الجنية الحكيمة:

- لكن لديك الجمال والفضيلة يا بنتي وهما أعلى من عشر ممالك.

أخبريني من فضلك، كيف جئت إلى هنا ما دام ليس لديك لا أب ولا أم ولا أهل ولا أصدقاء؟

- هناك جنية تدعى كائكالين هي السبب في وجودي هنا. كانت تضرُّني وتلطمُّني دون أي سبب. وذات يوم هربت ولم أكن أعرف مكاناً أذهب إليه فتوقفت في إحدى الغابات. وكان ابن الملك يتزّه هناك فسألني إذا كنت أرغب في العمل لديه في مزرعة الدجاج. فوافقت وبدأت أعنى بديكته الرومية. كان يأتي في كل لحظة ليتفقدها وتلك ذريعة ليراني. ويا لمصيتي، أخذ يجتني رغم أنني لا رغبة لي أبداً في ذلك، وازداد حبه لي وبدأ يزعجني كثيراً.

أدركت الجنية لدى سماعها هذه القصة أن الراعية كانت الأميرة جوليت. قالت لها:

- يا ابنتي، ما اسمك؟

- اسمي جوليت، أيتها خادمة؟

ولدى سماعها الاسم تيقنت الجنية من الحقيقة فغمرتها وداعبتها بحنان وكأنها لا تصدق عينيها. ثم قالت لها:

- جوليت، أعرفك منذ زمن طويل. يسرني جداً أن تكوني بهذه الفطنة والجمال. لكنني أريدك أن تكوني أكثر نظافة لأنك تبدين وسيخة كحيوان بري. خذي هذه الثياب الجميلة ورتبي هندامك.

فما كان من جوليت المطيعة جداً إلا أن نزعَت عنها على الفور الخرقه المتسخة التي كانت تضعها على رأسها. هزت رأسها فأنسدل شعرها الأشقر الغزير والرقيق كخيوط الذهب ملامساً الأرض. ثم غرقت في يديها التاعمتين ماءً من التبع الذي كان يسيل قريباً من القن ونظفت به وجهها الذي أضاء كلؤلؤة مشرقية. بدا وكأن وروداً تفتحت على خديها وفيها. كانت تنبثق من أنفاسها العذبة رائحة

الزَّعْتَرِ البرِّيِّ. كان جسدها مستقيماً رشيماً كالقصب. أمّا بشرتها فكانت أشبه ما تكون بالثلج في الشتاء وبالزنبق في الصيف. وعندما تزيّنت بالألماس والفساتين الجميلة، نظرت إليها الجنّية وكأنها آية من الجمال، وقالت لها:

- مَنْ تظنّين نفسك يا جوليت العزيزة؟ هي ذي أنتِ في كامل أناقتك.

أجابت:

- في الحقيقة، أشعر أنني ابنة ملكٍ عظيم.

قالت الجنّية:

- وهل سيرك لو كنت كذلك؟

أجابتها جوليت وهي تنحني إجلالاً:

- نعم يا جدتي، سأكون في غاية السرور.

قالت الجنّية:

- حسناً، افرحي منذ الآن، وسأقول لك أكثر في الغد.

وذهبت في الحال إلى قصرها الجميل حيث كانت الملكة منشغلة بنسج الحرير.

هتفت الفأرة الصغيرة:

- هل يمكنك يا مولاتي أن تعطيني مغزلك ومكوك الحياكة لقاء

الأخبار الطيبة التي ستسمعينها؟

أجابت الملكة:

- وا أسفاه، منذ وفاة الملك بهيج وخسارة ابنتي جوليت وكلّ

أخبار هذا العالم لا تساوي عندي دّبوساً.

قالت الجنّية:

- مهلك، مهلك، لا تحزني، الأميرة في خيرٍ وعافية. رأيتها للتوّ،

إنها جميلة جداً وإليها يعود القرار في أن تُصبح ملكة أو لا.  
وأخبرتها القصة كلها من أولها إلى آخرها، وبكت الملكة فرحاً  
لمعرفتها أن ابنتها جميلة جداً، وحنناً لأنها راعية ديوك رومية.  
قالت:

- عندما كنا ملوكاً كباراً في مملكتنا وكنا نقيم المآدب والولائم  
والحفلات لم يكن باستطاعتنا، أنا والمرحوم العاثر الحظ، أن نظن أن  
ابنتنا ستكون راعية ديوك.

- إن كانكالين المتوحشة هي التي، عندما عرفت أنني أحبك،  
جعلتك في هذه الحال لكي تنتقم مني. لكن ابنتك ستخرج من  
مخبتها، أعاهدك على ذلك.  
قالت الملكة:

- لا أريد أن تزوج ابن الملك الشرير. لنذهب منذ الغد لجلبها  
واصطحبها إلى هنا.

بيد أن ابن الملك الشرير كان مستاءً جداً من جوليت فجلس  
تحت إحدى الأشجار وبدأ يبكي بقوة ويزعق. سمعه والده. فاقترَب  
من النافذة وصاح به:

- لماذا تبكي وكانك طفلاً صغيراً أبله؟

أجاب:

- لأن راعية الديكة ترفض أن تحبني.

قال الملك الشرير:

- ماذا تقول! ترفض أن تحبك. ستحبك وإلا فستموت.

ثم نادى على جنوده قائلاً لهم:

- اذهبوا واجلبوها. سوف أتسبب لها بالأم كبيرة. وستندم على

عنادها.

وذهبوا إلى القنّ ووجدوا جوليت ترتدي فستاناً جميلاً من  
الساتان الأبيض مطرزاً بالذهب وموشى بالألماس الأحمر وبأكثر من  
ألف ذراع من الشرائط في كل مكان. لم يشاهد أحد فتاةً بمثل هذا  
الجمال. لم يجرؤوا على التحدّث إليها ظناً منهم أنها أميرة.

قالت لهم بتهذيب كبير:

- من فضلكم، قولوا لي عمّن تبحثون هنا.

قالوا:

- سيّدتي، نبحث عن بائسة صغيرة تدعى جوليت.

قالت:

- للأسف، إنّها أنا، فماذا تريدون منّي؟

وأخذوها بسرعةٍ وأوثقوا قدَميها ويديها بحبالٍ غليظةٍ مخافة أن  
تهربَ واصطحبوها مقيّدة على هذا النحو إلى الملك الشرير الذي  
كان برفقة ابنه. عندما رآها على ذلك الجمال الباهر أحسّ رغباً عنه  
بالتأثر. لا شك أنّها كانت ستثير شفقتَه لو لم يكن الإنسان الأشدّ شراً  
وتوحشاً في العالم.

قال لها:

- هكذا إذا أيتها اللّصة الصّغيرة، أيتها الضفدعة! ألا تريدن  
أن تحبّي ابني؟ إنّهُ مائة مرّة أجمل منك. نظرة واحدة منه تُساوي كلّ  
شخصك. هيّا أحبّيه الآن أو أسلخُ جلدك!

ارتعشت الأميرة مثل حمامةٍ صغيرةٍ وخرّت ساجدة على رُكبتيها  
أمامه وقالت له:

- مولاي، أتوسّل إليك ألاّ تسلخَ جلدي. هذا يؤلم كثيراً. اتركْ  
لي يوماً أو يومين أفكر في ما يتوجّب عليّ فعله. وبعد ذلك تصنع بي  
ما تشاء.

أراد ابنه اليائس أن يسلخَ جلدها. واتفقا معاً على أن يسجناها في بئج لا ينفذ إليه نور الشمس. وحينئذ جاءت الجنّة الطيبة في العربة المُجَنّحة مع الملكة وعلّمتا بكلّ ما جرى. وفي الحال بدأت الملكة تبكي بمرارة قائلة إنّها تعيسة الحظّ دوماً وإنّها تفضّل أن تموت ابنتها على أن تتزوج ابن الملك الشرير.

قالت الجنّة:

- تشجعي. سأزهقهم وأهلك نعمتهم. وثقي أنّك ستحظين بالسعادة وستتقمن.

ثمّ ما إن ذهب الملك لينام حتّى اتخذت الجنّة هيئة الفأرة واندست تحت المخدّة. وما إن خلد للنوم حتّى قضمّت له أذنه فعضب كثيراً والتفت إلى الناحية الأخرى فقضمّت له أذنه الأخرى. فنادى على الحراس ليقتلوا الفاعل وليسعفوه. جاؤوا فوجدوا أذنيه الاثنتين مقصومتين وتزفان بشدة بحيث عجزوا عن إيقاف الدّم. وفيما كانوا يبحثون في كلّ مكان عن الفأرة، فعلت الشيء نفسه مع ابن الملك الشرير. فنادى على الحراس وأراهم أذنيه المسلوختين تماماً، فضمدوا جراحه. وعادت الفأرة الصّغيرة إلى غرفة الملك الشرير الذي كان غفا قليلاً وقضمّت له أنفه وعملت على قرص وجهه. وضع يديه عليه فعضته وخذشته، وأخذ يصرخ:

- النجدة فأنا هالك لا محالة!

دخلت إلى فيه وقضمّت لسانه وشفّتيه وخذّيه. دخل الحراس فوجدوا منظره مريعاً ولم يعد يستطيع الكلام لشدة الألم في لسانه. أشار لهم بأنّ الفاعل فأرة. فتشوا الفراش والمخدّة والزوايا كلّها، فلم يجدوها. كانت قد هُرعت إلى غرفة الابن لتفعل ما هو أسوأ وأكلت له عينه السليمة (لأنّه كان أعور). نهض كالمسعود والسيف في يده.

بَاتَ أَعْمَى. هُرِعَ إِلَى غُرْفَةِ وَالِدِهِ الَّذِي اسْتَلَّ سَيْفَهُ وَأَخَذَ يَلْعَنُ وَيَشْتُمُ مَتَوَعِّدًا أَنَّهُ سَيَقْتُلُ الْجَمِيعَ إِذَا لَمْ يُمْسِكُوا بِالْفَأْرَةِ.

عِنْدَمَا رَأَى ابْنَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْيَأْسِ، زَجَرَهُ. أَمَّا الْابْنُ فَكَانَتْ أُذُنَاهُ مَلْتَهَبَتَيْنِ وَلَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَى صَوْتِ وَالِدِهِ فَاِنْقَضَ عَلَيْهِ. فَمَا كَانَ مِنَ الْمَلِكِ الشَّرِيرِ الْغَاظِبِ إِلَّا أَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ ضَرْبَةً مِنْ سَيْفِهِ فَبَادَرَهُ ابْنُهُ بِأُخْرَى وَسَقَطَ كِلَاهُمَا أَرْضًا وَأَخَذَا يَنْزِفَانِ مِثْلَ ذَبِيحَتَيْنِ. وَكَانَ كُلُّ أَفْرَادِ رَعِيَّتَيْهِمَا يَكْرَهُونَهَا حَتَّى الْمَوْتَ، فَأَوْثَقُوا أَقْدَامَهُمَا بِالْحَبَالِ وَجَذَبُوهُمَا إِلَى النَّهْرِ وَهُمْ يَغِيطُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ تَخَلَّصُوا مِنْهَا. وَهَكَذَا تَوَفَّى الْمَلِكُ الشَّرِيرَ وَابْنَهُ. وَعِنْدئذٍ ذَهَبَتِ الْجَنِيَّةُ الطَّيِّبَةُ لِتَأْتِيَ بِالْمَلِكَةِ وَاتَّجَهَتَا إِلَى الْبَرَجِ الْأَسْوَدِ حَيْثُ سُجِنَتْ جُولِيَّتُ خَلْفَ أَرْبَعِينَ بَابٍ.

ضَرَبَتِ الْجَنِيَّةُ بَعْصَاهَا السَّحْرِيَّةَ<sup>(1)</sup> ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلَى الْبَابِ الرَّئِيسِيِّ فَانْفَتَحَ وَمَعَهُ جَمِيعُ الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى. وَجَدَتَا الْأَمِيرَةَ فِي غَايَةِ الْحَزَنِ لَا تَنْبَسُ بِكَلِمَةٍ. فَارْتَمَتْ عَلَيْهَا الْمَلِكَةُ وَعَانَقَتْهَا قَائِلَةً لَهَا:  
- يَا ظَرِيفَتِي، أَنَا وَالذَّتْكَ الْمَلِكَةُ بَهِيجَةٌ.

رَوَتْ لَهَا قِصَّةَ حَيَاتِهَا. رُحْمَاكَ يَا رَبِّ! عِنْدَمَا سَمِعَتْ جُولِيَّتُ تِلْكَ الْأَخْبَارَ الْمُبْهَجَةَ جَحَّتْ مِنَ الْفَرَحِ وَارْتَمَتْ عِنْدَ قَدَمِي الْمَلِكَةِ وَقَبِلَتْ رُكْبَتَيْهَا وَبَلَّتْ يَدَيْهَا بِالذَّمُوعِ وَقَبِلَتْهَا أَلْفَ مَرَّةٍ. وَلَا طَفَّتِ الْجَنِيَّةُ بَحْنَانٍ فَقَدَّمَتْ لَهَا هَذِهِ الْأَخِيرَةَ سِلَالًا مَلِيئَةً بِالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ الَّتِي لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، وَبِالذَّهَبِ وَالْأَمْاسِ وَالْأَسَاوِرِ وَاللَّالِئِ وَصُورَةَ الْمَلِكِ بَهِيجَ مُحَاطَةً بِإِطَارٍ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، فَوَضَعَتْهَا أَمَامَهَا.

(1) هي في العادة عصاً مأخوذة من شجرة بندق، إذ يعدّ المشعوذون والسحرة فروع هذه الشجرة قادرة على فتح الأبواب المغلقة والكشف عن مخابئ الكنوز بأن تشني كلما مرّ بها الساحر أمام مخبأ كنز.

قالت الجنّية:

- والآن جاء وقت الجدِّ. لنذهب إلى قاعةِ القصرِ الكبيرة  
ولنخطب في الشعب.

مشت الجنّية في الطليعة بوجهٍ جديٍّ صارمٍ وكان ثوبها يتجزّج  
وراءها بذيل أطول من عشر أذرع. وارتدت الملكة فستاناً من المخمل  
الأزرق المطرز كله بالذهب، وذيله كفستان الجنّية. كانتا جلبتا ثيابهما  
الجميلة معهما، ووضعَت كلٌّ منهما تاجاً على رأسها. تبعتهما الأميرة  
جوليت المشعةً جمالاً وتواضعاً. انحنّت إجلالاً لكلّ من صادقتهم  
في الطريق، صغاراً كانوا أم كباراً.

وسارعَ الشعبُ للحاقِ بهنّ ليعرفنّ من هنّ أولئك السيدات  
الجميلات. وعندما امتلأت القاعة، قالت الجنّية الطيبة لأفراد الرعيّة  
الذين كان يحكمهم الملك الشرير إنّها تريد أن تنصب ابنة الملك بهيج،  
التي يرونها أمامهم، ملكة عليهم. وستكون حياتهم سعيدة في ظلّ  
حكمها. لذا حتّتهم على مبايعتها. قالت لهم أيضاً إنّها ستبحث لها  
عن زوج كامل الأوصافٍ مثلها يهوى الضحك دوماً ويطرّد الكأبة  
من القلوب. ولدى سماع هذه الكلمات، هتف الجميع:

- نعم، نعم، نرغب في الضحك. منذ زمنٍ طويلٍ والحزن والبؤس  
يلفان مملكتنا.

وعلى الفور، عزفت مائة آلةٍ مختلفَةٍ الموسيقى من كلّ جانب.  
وأعطى كلّ واحدٍ يده لقريبه ورقصوا رقصة دائرية منشدين الأغاني  
من حول الملكة وابنتها والجنّية الطيبة.

- نعم، نعم، نريد أن نضحك ونلهو.

وهاكم كيف كان الاستقبال. كانت الفرحة تعمّ الأجواء إلى حدّ  
يفوق الوصف. أقيمت المآدب فأكلوا وشربوا وناموا هنيئاً. وعندما



استيقظت الأميرة الشابة قدّمت لها الجنيّة أجمل أمير، بعد أن ذهبَت  
 للبحث عنه على متن عربتها المجنّحة إلى أقاصي الدنيا. كان ودوداً  
 مثل جوليت. أحبته من أول نظرة وسحر بها. أمّا الملكة فطارَت  
 فرحاً. أقيمت وليمة رائعة وُجهّزت ملابس بديعة. وكان عرسٌ  
 تكلّل بمباهج وأفراح لا حدّ لها.

تلك الأميرة التاعسة  
 التي رأيت مصائبها للتو  
 المتروكة لسجنها  
 كم كانت ستعاني من قسوة القدر الغاشم  
 وتبكي ابتها جوليت منذ ولادتها،  
 لكن امتنانها وعرفانها بالجميل  
 حننا قلب تلك الجنيّة العاقلة فلم تأل جهداً  
 لتسير بالملكة وسط الأخطار الكبيرة التي تتهدّدها  
 إلى برّ الأمان.  
 ما هي إلا قصة خرافية حكيتها  
 لأسلي قارئها  
 ومع ذلك نجد فيها عبرةً حقيقية:  
 لا تنس من أسدى إليك معروفاً  
 وأظهر عربون امتنانك له.  
 إنها أعظم الفضائل  
 تمسّ القلوب وتفوز بها.



## الخروف

في ذلك الزّمن السّعيد حين كان ما يزال ثمة جنّيات، كان يسودُ ملكٌ لديهِ ثلاث بناتٍ جميلاتٍ وبافعاتٍ وفضيلات. لكنّ الصّغرى كانت الأكثر ودّاً والأحبّ إلى القلوب. سُمّيت باهرة. كان الملك والدها يغدق عليها من الفساتين والشّرائط في ظرفٍ شهرٍ ما يغدقه على الآخرين في ظرفٍ سنة. وكان لديها قلب في منتهى الطّيبة ما يدفعها إلى تقاسم كلِّ شيءٍ مع أختيها لدرجّة أنّ الوثام كان قوياً بينهنّ.

كان لدى الملك جيران أشرار، أعلنوا عليه الحربَ بعدَما ملّوا السّلام معه. خشِيَ الملك أن يُهزَم إذا لم يُدافع عن نفسه فحشد جيشاً كبيراً وباشر حملته. بقيت الأميرات الثلاث مع مربّيتهنّ في أحد القصور حيث كانت تتوافد إليهنّ كلّ يوم أخبار طيبة عن الملك، كاحتلاله مدينة أو انتصاره في معركة. وأخيراً، قام بحملاتٍ عدّة هزَم فيها آخر المطاف أعداءه وطردهم من ولاياته. ثمّ سارع للعودة إلى قصره لكي يرى من جديد ابنته الصّغرى باهرة التي كان يحبّها كثيراً.

صنعت الأميرات الثلاث لأنفسهنّ ثلاثة أثوابٍ من السّاتان، الأوّل أخضر والثاني أزرق والثالث أبيض. وكانت الأحجار الكريمة التي تزيتها تتلاءم والأثواب. فالثوب الأخضر زُينَ بالزمرّد والأزرق بالفيروز والأبيض بالألماس. وبذلك الهنّام سارعنّ للقاء الملك وهنّ يُنشدنّ هذه الأبيات التي نظمت احتفالاً بانتصاره:

بعد الكثير من المعارك البارزة  
كم يسعدنا رؤية والدنا وملكننا من جديد  
فلنبتدع ملذات ولنحتفل بألف عيد  
وليخضع كل أحد هنا لشريعته  
لنحاول أن نبرهن على مدى حبنا له  
برعايتنا المحكمة وأغانينا الفرحة.

وعندما راهن على هذا الجمال وهذه البهجة، قبلهن بحنان وداعب  
باهرة ودللها أكثر من شقيقتيها. وأقيمت وليمة بديعة؛ جلس الملك  
وبناته الثلاث على المائدة. وبما أنه كان يستخلص العبر من كل شيء،  
قال للكبرى: «هيا، قولي لي لماذا اخترت ثوباً أخضر؟» فقالت له: «يا  
سيدي، بما أنني عرفت بمأثرك، ظننت أن الأخضر يعبر عن فرحتي  
والأمل بعودتك». فهتف الملك: «نعم ما تقولين». ثم أردف قائلاً  
للوسطى: «وأنت يا ابنتي لماذا اخترت ثوباً أزرق؟» فأجابته الأميرة:  
«يا سيدي، هذا لكي أشير إلى أنه يجب أن أتضرع للآلهة لكي يعينوك،  
وأنتي حين أراك، إخال أتي رأيت السماء وأجمل الكواكب». قال  
الملك: «عجباً! تتكلمين كالعرافات. وأنت يا باهرة، لماذا اخترت أن  
تلبسي الأبيض؟» فقالت له: «يا سيدي، لأن الأبيض يلائمني أكثر  
من الألوان الأخرى». غضب الملك إذ ذاك غضباً شديداً وصرخ  
قائلاً: «ماذا تقولين؟ أيتها العنجة الصغيرة، ألم تكن لديك إلا هذه  
التيّة؟» فقالت له الأميرة: «كنت أنوي أن أثير إعجابك، يبدو لي أنه  
لا يجب أن تحدوني تيّة أخرى». ووجد الملك، الذي كان يحبها، أن  
الجواب ملائم وأن هذه الصيغة الذكيّة التي تفوّت بها تروق له،  
وأن من اللياقة ألا يفصح الانسان دفعة واحدة عما يخطر بباله. ثم

قال: «مهلكن، ابقين معي، لقد تعشيت جيداً ولا أريد أن أخلد إلى التوم باكراً. لذا اروين لي الأحلام التي رأيتها في الليلة التي سبقت عودتي».

قالت الابنة البكر إنها حلمت أنه جلب لها ثوباً تلمع أحجاره الكريمة أشد سطوعاً من الشمس. وقالت الوسطى إنها حلمت أنه جلب لها مكوكاً ومغزلاً ذهبياً لكي تخط له قمصاناً. وقالت الصغرى إنها حلمت بأبيها وهو يزوج أختها الوسطى، وإنه في يوم العرس كان يحمل في يده إبريقاً ذهبياً ويقول لها هي: «تعالى يا باهرة، تعالى أصب لك الماء لتغسلي يديك».

استاء الملك من هذا الحلم وقطب حاجبيه واتسمت سيماءه بأبشع تكشيرة ممكنة. وعرف الجميع أنه كان غاضباً. دخل إلى غرفته واندس في فراشه فجأة. واستعاد في فكره مراراً حلم ابنته. «تلك الصغيرة الوقحة، قال في نفسه، تريد أن تجعلني خادمها! لا أتعجب من أنها اختارت الثوب الأبيض الساتان دون أن تفكر بي، تظنني غير جدير باهتمامها، لكنني أريد أن أدارك مكائدها قبل حصولها». ونهض مستشيطاً غضباً. ومع أن النهار لم يكن طلع بعد، أرسل في طلب قائد حراسه وقال له: «لقد سمعت باهرة تتحدث عن الحلم الذي رآته فهو يرمز إلى أشياء غريبة مُحاك ضدّي. أريدك أن تمسك بها الآن وتقتادها إلى الغابة وتذبحها، وإلا جعلتك تموت ميتة فظيعة». تعجب رئيس الحراس أشد العجب لسماعه هذا الأمر البربري. لم يشأ معاكسة الملك مخافة أن يؤجج سخطه وأن يعهد بهذه المهمة لأحد سواه. قال له إنه سوف يصطحب الأميرة إلى الغابة ويذبحها.

وذهب على الفور إلى غرفتها، وانتظر طويلاً حتى فتح له الباب

لأنّ الوقت كان باكراً جداً. قال للأميرة باهرة إنّ الملك يريد رؤيتها  
فنهضت على وجه السرعة. فأمسكت موريتانية صغيرة تُدعى باتيباتا  
بذيل ثوبها. وهُرعت في أثرها قردتها ودرّواسها<sup>(1)</sup> اللذان يتبعانها  
دوماً. كانت قردتها تدعى غرابوجون ودرّواسها تان-تان.

أرغمها قائد الحرس على النزول وقال لها إنّ الملك كان في الحديقة  
يتنشّق الهواء في الخارج. دخلت إلى الحديقة. تظاهر قائد الحرس  
بأنه يبحث عن الملك ولا يجده فقال لها إنّ الملك انتقل ولا شك إلى  
الغابة. فتح باباً صغيراً واقتادها إلى الغابة. بدأ النهار يطّلع بحفّر.  
نظرت الأميرة إلى مرشدّها. كانت عيناه تدمعان وكان حزنه شديداً  
يمنعه من الكلام. سألته بنبرة مفعمة بطيبة ساحرة: «ما بك؟، تبدو  
لي حزينا جداً!».

فهمت قائلاً: «ومن ذا الذي يقدر على ألا يكون كذلك يا سيدي؟  
والامر الذي أعطي لي لم أتلّق أمراً يُضاهيه فظاعة حتى الآن. يريدني  
الملك أن أذبحك هنا. وإذا توانيت عن ذلك سيأمر بقتلي. اعترى  
الشحوب وجه الأميرة المسكينة المرتعبة وبدأت تبكي بصمت.  
بدت كحمل على وشك أن يُذبح. حدقت بعينيها الجميلتين إلى قائد  
الحرس ونظرت إليه نظرة خالية من الغضب قائلة له: «هل ستكون  
لديك الشجاعة لتقتلني، أنا لم أتسبب لك بأيّ أذى ولم أقل للملك  
عنك إلاّ كل ما هو حسن؟ لو أنني على الأقل فعلت شيئاً لأستحق  
كراهية أبي، لتحملت العواقب دون اعتراض. ولكن واحسرتاه لم  
أبد له إلاّ كبير الاحترام والتعلق الشديد به وكل ما يفعله بي ظلّم  
ليس إلاّ». فقال لها قائد الحرس: «لا تظني يا أميري الجميلة أنني  
قادر على أن أنفد له مثل هذه المهمة الهمجية. أفضل بالأحرى أن

(1) درواس: كلب للحراسة كبير الرأس أفطس الأنف.

أَسْلَمَ نَفْسِي لِلْمَوْتِ الَّذِي يَتَهَدَّدُنِي. وَلَكِنْ حَتَّى لَوْ طَعَنْتَ نَفْسِي فَلَنْ تَكُونِي فِي أَمَانٍ. عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ الْوَسِيلَةَ لِكَيْ أُسْتَطِيعَ الْعُودَةَ إِلَى الْمَلِكِ وَإِقْنَاعَهُ بِأَنَّكَ لَقَيْتَ حَتْفَكَ».

قالت باهرة: «ولكن بأية وسيلة؟ فهو يريدك أن تجلب له شواهد على قتلك لي، وإلا فلن يصدقك أبداً؟». كانت باتيباتا قد سمعت الحوار كله وإن لم تلحظ الأميرة ولا القائد وجودها، لشدة حزنهما، فتقدمت بشجاعة وجاءت ترمي عند قدمي باهرة. قالت لها: «سيدتي، أتيت أقدم إليك حياتي. أفنديك بحياتي. سأكون مسرورة جداً أن أموت كرمي لسيدتي الطيبة». فقالت لها الأميرة وهي تقبلها: «أه! لا أقوى على ذلك يا باتيباتا العزيزة، بعد هذه الشهادة الرائعة عن مودتك، لا يفترض أن تكون حياتك أقل أهمية من حياتي». ثم تقدمت قردتها غرابوجون وقالت: «معك حق يا سيدتي أن تحبتي وصيفةً وفتيةً مثل باتيباتا. ربما كانت تفيدك أكثر مني. لذا أمنحك حياتي بفرح على أمل أن أنال الخلود في مملكة القروء». فقالت لها باهرة: «آه! أيتها الظريفة غرابوجون، لا أستطيع تحمل فكرة أن أسلبك حياتك». وعندئذ هتف تان-تان: «لا أستطيع أن أحتمل، لكوني درواساً طيباً، أن يهب سواي حياته لأجل سيدته. علي أن أموت ولا أحد غيري». وهنا دار جدال صاحب بين باتيباتا وغرابوجون وتان-تان، قيلت فيه شتائم مُسَيِّئة. وأخيراً، سارعت غرابوجون قبل الآخرين بالصعود إلى أعلى الشجرة ورمت بنفسها على رأسها، فهاتت على الفور. وبالرغم من الأسف الذي تولى الأميرة، وافقت، بما أن غرابوجون قد توفيت، على أن يقدم قائد الحرس شواهد من جسم القردة على أنها آتية من جسمها هي، ولكن غرابوجون كانت صغيرة جداً، فأدركا بأنم كبير أن الملك سيعرف

حقيقة الأمر.

قالت الأميرة: «وا أسفي عليك يا قردتي الصغيرة العزيزة ها قد لقيت حتفك، من دون أن يجعل موتك حياتي في أمان». فقاطعتها الوصيصة الموريتانية قائلة: «دعي لي هذا الشرف»، وأمسكت بسكين وأغرزتها في عنقها. أراد قائد الحرس أن يأخذ شواهد من جسدها ولكنها كانت سوداء جداً، ما جعله يتردد لأن الحيلة لن تنطلي على الملك. قالت الأميرة وهي تبكي: «ألسْتُ تعيسة في غاية التعاسة. أخسر كل ما أحبه ولا يتغير فألي السيء». فقال تان-تان: «لو أنك قبلت ووافقت على اقتراحي لما تأسفت على أحد غيري، ولكن لي شرف أن أكون المأسوف عليه الوحيد».

قُبلت باهرة درواسها الصغير وهي تبكي بكاءً مرّاً يمزقها ويكاد يقضي عليها. فابتعدت بسرعة بحيث أنها حين التفتت، لم تعد ترى مرشدتها. وجدت نفسها وسط خادماتها وقردتها ودرواسها الذين قضوا فداءً عنها<sup>(1)</sup>. لم تستطع الرحيل قبل أن تدفنهم في حفرة وجدتها صدفةً في أسفل أحد الأشجار. ثم كتبت على الشجرة هذه الكلمات:

هنا يرقد فان وفانيسان  
ثلاثتهم متساوون في الوفاء  
أرادوا الحفاظ على حياتي  
فججلوا في موتهم.

وأخيراً فكرت في سلامتها. وبما أنه لم تكن سلامتها مضمونة

(1) هذا يعني أن المؤلفة تفادت، تحاشياً للتكرار وعلى سبيل الاقتضاب والتكثيف، وصف موت درواس الفتاة باهرة وابتعاد قائد الحرس الذي أشفق عليها ولم يشأ أن يميتها بنفسه.



إطلاقاً في تلك الغابة المجاورة جداً لقصر أبيها، لا سيّما وأنّ أوّل قادم كان يستطيع رؤيتها والتعرّف إليها، كما يستطيع الأسود والذئب التهامها وكأنها دجاجة، بدأت تسيّرُ بقدر ما تستطيع. لكنّ الغابة كانت فسيحة جداً، والشمس حارقة بحيث كادت تحتق من الحرّ وتموت من الخوف والتعب.

نظرت حولها من جميع الجهات دون أن ترى تخوم الغابة. كان كلّ شيءٍ يخيفها، وكانت تظنّ دوماً أنّ الملك يلاحقها لكي يقتلها: من المستحيل تكرار شكواها الحزينة.

ومشّت على غير هدى. كانت الجنّات الشائكة تمزّق ثوبها الجميل وتجرّح بشرتها البيضاء. وأخيراً سمعت ثغاء خروف. قالت في نفسها: «لا شك أنّ هناك رعاة في هذا المكان مع قطعانهم باستطاعتهم إرشادي إلى أحد الأكوخ حيث سأنتكر بثوب فلاحه». وأردفت قائلة: «يا للأسف! ليس المقتدرون والأقوياء هم الأسعد على الدوام. من كان سيظنّ في كلّ هذه الدّيار أنني هاربة من وجه أبي الذي ينشد هلاكي دون سبب ولا ذنب اقترفته، وأني لكي أتجنّب شره عليّ أن أنتكر!».

وإذ كانت مستغرقة في هذه الأفكار، تقدّمت إلى المكان الذي سمعت فيه خروفاً يثغو. لكن ما أعظم دهشتها عندما ألقت نفسها في مكانٍ فسيح للغاية ومحاطٍ بالأشجار، وفي وسطه خروف ضخم أشدّ بياضاً من الثلج، ذهبيّ القرنين ولديه حول عنقه عقد من الأزهار، وقوائمه محاطة بسلاسل مزدانة بلآلئ ضخامتها مدهشة وحبّات ألماس! كان مضطجعاً على أزهار أشجار البرتقال. وفوقه علقت خيمة من القماش الذهبيّ في الهواء لتقيه الشمس الحارقة. ومن حوله مائة خروفٍ مزيّنٍ لا تزعى العشب، بل منها من كان

يتناول القهوة أو المثلجات أو الليموناضة ومنها من يتناول ثمار الفراولة والقشدة والمرّيّات، وخراف أخرى تلعب بالورق. وكان للكثير منها عقودٌ ذهبيةٌ مُزدانةٌ بشعاراتٍ متأنقة، وكانت آذانها مثقوبةً، ومزينةٌ بالأشرطة والأزهار التي لا تُحصى. مكثت باهرةً منذهلةً بما تراه وجمّدت في مكائنها تقريباً. تحرّرت بعينها عن راعي القطيع الخارق عندما جاء الخروف الأجهل إليها قافزاً ومتوتّباً. قال لها: «أقتربي أيتها الأميرة الفاتنة، لا تخشي حيواناتٍ وديعةً مسالمةً مثلنا». هتفت الأميرة: «يا للمعجزة! خرافٌ تتكلّم! فأجابها: «لكن أنسيّت يا سيّدي أنّ قردتكَ ودرواسك كانا يتكلّمان بطلاقة هما أيضاً ولم يكن هناك ما يدعوك للدهشة!».

فقال باهرةً: «ثمّة جنيّة منحتّها القدرة على الكلام. وهذا ما جعل المعجزة مألوفة أكثر بالنسبة إليّ». فأجابها الخروف وهو يتسم للتعجبة: «ربّما حصلت لنا تجربة مشابهة. ولكن من قاد خطاك إلى هنا أيتها الأميرة؟» فأجابته: «ألف مصيبةٍ يا سيّدي الخروف. أنا أتعسُ إنسانٍ في العالم. أبحث عن ملجأ أتقي فيه شرّ والدي»، فأجابها الخروف: «تعالى يا سيّدي، تعالي معي فأقدم لك ملجأ لن يكون معروفاً إلاّ منك وتكونين فيه الأميرة الناهية». قالت باهرةً: «يسّتحيل عليّ اللّحاق بك فأنا أكاد أموتُ تعباً».

وأمر الخروف ذو القرنين الذهبين أن يؤتى له بعربته. وبعد قليل من الوقت شوهدت ستّ عنزاتٍ تجرّ يقطينةً ضخمةً إلى حدّ عجيب بحيث يستطيع شخصان الجلوس فيها براحةٍ تامّة. كانت اليقطينة مجوّفة وفي داخلها مخدّات ووسائد من المخمل والرّيش. جلّست الأميرة فيها معجبةً بتلك المركبة الجديدة. ودخل السيّد الخروف إلى اليقطينة معها، وعدت العنزات بكلّ قوّتها حتّى وصلت إلى أحد

الكهوفِ وكانت تسدّ مدخله صخرة كبيرة.

لامس الخروف الذهبي الصخرة بقدمه فسقطت على الفور. طلب من الأميرة أن تدخل دون خوف؛ ظنت أنّ ذلك الكهف ليس فيه ما يُخيف، وإلا لما كان شيء يُرغمها على النزول من العربة. ولكن لشدة التوجس الذي كان يعترها، كانت قادرة على رمي نفسها في بئر.

لم تتردد إذاً في اللحاق بالخروف الذي كان يمشي أمامها. وجعلها تنزل وتتوغّل نزولاً حتى ظنت أنها ذاهبة إلى أقاصي الأرض. وكانت تخاف أحياناً من أن يقودها إلى مملكة الأموات. وأخيراً، اكتشفت فجأة أنها في سهل فسيح نُثرت فيه ألف زهرةٍ مختلفةٍ تفوق رائحتها الطيبة كلّ أريج تنشقته من قبل. كان هناك جدولٌ غزير من ماء زهر البرتقال يجري حول نوافير من إكسبير إسبانيّ وألف صنّفٍ آخر من المشروبات الحلوة المعطرة تنهمر شلالاتٍ وسواقي صغيرة ساحرة. كان ذلك السهل مكسوّاً بأشجارٍ فريدة. وكان هناك ممراتٌ مليئةٌ بفراخ الحجال المشحمة والمطهّوة، كما لو أنّ أفضل طاهٍ أعدّها، متدلّية من الأغصان. وكان هناك ممراتٌ أخرى ملأى بطيور السمن والخرانق<sup>(1)</sup> والديوك الرومية والدجاج والديوك البرية والأرطانات<sup>(2)</sup>. وفي بعض الأماكن، حيث بدا الجو أكثر قتامة، كان ثمة قدورٌ من حساء السلطعون، وكبد البط، واليخنة المصنوعة من لوزة العجل، والمقانق البيضاء، والمقانق<sup>(3)</sup> والفظائر والمرببات المكثفة والرّخوة، وتلالٌ من قطع اللويسيات النقديّة

(1) جمع خرنق، صغير الأرنب.

(2) الأرطلان أو بلبل الشعير.

(3) مدوّرة: فطيرة مستديرة باللحم أو السمك.

والزِّيالات واللآلئ والألماس. ولكنَّ الخروف لم يأبه بكلِّ تلك الخيرات ولم يبُدْ عليه أيُّ تأثرٍ لمراها. ذلك أنَّ جميع المدوّنات تحدّثت عنه مؤكّدةً أنّه احتفظَ بتجهمِهِ وكأنّه أحدُ أعضاء مجلس الشيوخ في روما.

وبها أن الفصلَ حين وصلت باهرةً إلى تلك الأمكنة الجميلة كان يتزامن مع أجمل فصول السنة، فإنّها لم ترَ قصوراً أخرى إلاّ سلسلة طويلة من أشجار البرتقال والياسمين وزهر العسل<sup>(1)</sup> والورود المسكّية التي كانت أغصانها المتشابكة تؤلف حجيرات وقاعاتٍ وغرفاتٍ مفروشة بأستار شقافة ذهبية وفضيّة، ومرايا كبيرة، وثرّيات ولوحات بديعة.

قال السيّد الخروف للأميرة إنّها سيّدة على تلك الأمكنة، وإنّه منذ بضع سنواتٍ حصلت له أحداث محزنة ومبكية، لكنّه بات واثقاً من أنّها وحدها قادرة على تعزّيته. قالت له: «إنّ الطّريقة التي تتصرّف بها أيّتها الخروف السّاحر تتسم بسخاءٍ لا حدود له، وكلّ ما أراه هنا يبدو لي خارقاً فأحترار في الحكم عليه».

ولم تكد تنهي كلامها هذا حتّى رأت أمامها جوقة من الحوريّات ذوات جمالٍ رائع. قدّمن لها ثماراً في سلالٍ من العنبر. لكن عندما أرادت الاقترابَ منهنّ، ابتعدت أجسادهنّ وتلاشت شيئاً فشيئاً. بسطت ذراعها لتلمسهنّ فلم تشعر بشيءٍ وأدرّكت أنّهنّ أطياف. هتفت: «ما هذا؟ بصحبة من أنا؟» وأخذت تبكي. تعمّد الخروف تزكّها لبضع لحظات لكنّه عاد قريباً إذ رأى دموعها تنهمر وتملّكته الحيرة فأوشك أن يموت عند قدميها.

قال لها: «ماذا دهالك أيّتها الأميرة الجميلة؟ هل قللنا في هذه الأمكنة

(1) زهر العسل: جنس جنبة معترشة دائمة الخضرة.

مَنْ الاحترام الذي تستحقينه؟». فأجابت: «لا، لا أشتكي من شيء، أعتز لك فقط أنني لست معتادة على العيش مع الأموات ومع الخراف التي تتكلم. كل شيء هنا يخيفني. ومهما يكن الجميل الذي أدين لك به لاصطحابي إلى هنا، إلا أنني أدين لك بمعروف أكبر إن أنت أزعجتني إلى الحياة العادية».

فأجاب الخروف: «لا تجزعي، تفضلي واسمعي بهدوء وستعرفين حكايتي المحزنة».

وطفق يروي لها: «وُلِدْتُ على العرش خلفاً لملوك كثيرين سبوني وأمنوا لي امتلاك أجمل مملكة في الكون. كان أفراد رعيتي يحبونني، وكنت مخشياً ومحسوداً من جيراني ومقدراً بحق. كانوا يقولون إنه لم يسبق لملك مثلي أن كان جديراً بهذا اللقب. كان لشخصي تأثير في كل من يراني».

كنت أهوى الصيد كثيراً، وذات يوم طاب لي أن ألحق إيلاً فابتعدت قليلاً عن كل الذين كانوا برفقتي. رأته فجأة يرتمي في إحدى البحيرات فدفعت حصاني بطريقة فيها كان من التهور بقدر ما فيها من الجرأة. لكن حين تقدمت قليلاً، شعرت بدلاً من برودة الماء بحرارة فائقة. جفت البحيرة ومن فتحة فيها راحت تتصاعد نيران هائلة، وسقطت في قعرها وية لا ترى فيها إلا السنة اللهب.

«ظننتني هالكاً، وعندئذ سمعت صوتاً يقول لي: «أيها الجاحد يبدو أنك تحتاج إلى مثل هذه النيران لتدفئ قلبك». فهتفت: «مرحى! من يشتكي هنا من برودتي؟». فأجاب الصوت: «شخص تعيس الحظ يحبك دون أمل». وفي الوقت نفسه انطفأت النيران. ورأيت جنية كنت أعرفها منذ الطفولة، وكانت ستها وقباحتها ترعباني على الدوام. كانت متكئة إلى جارية شابة ذات جمال لا يُضاهى وفي يديها

وقدَمِيها سلاسل ذهبية تشير إلى وضعِها. قلتُ لها: «ما هذا الأمر العجيب الذي يحدث هنا يا وسواسة (لأنّ هذا كان اسم الجنّة)؟ هل هذا يحصل بأمرٍ منك؟» فأجابتنِي: «ما بالك! وبأمرٍ منّ إذا؟ ألمْ تدرك حتى الآن حقيقة مشاعري؟ هل عليّ أن أشعر بالعار من شرّحها لك؟ عينيّ الوائقتان فيما مضى من سحرهما وسطوّتهما، هل فقدتا كلّ سلطان؟ انظرْ إلى أيّ مدى اتّضعتُ واعترفتُ لك بضعفي، لكنّ اعلم أنّك حتى لو كنت رجلاً عظيماً فأنت أقلّ من نملة بالمقارنة مع جنّة مثلي».

«فقلتُ لها بنبرةٍ نافذة الصبر: «سأفعل كلّ ما يحلو لك. ولكن في النهاية ماذا تريدن مني؟ هل تريدن تاجي، مُدني، كنوزي؟»، فأجابت بازدراء: «يا لك من بائس، حين أريد يصبح طبّاحي أكثر جبروتاً منك. أريد قلبك. لقد طلبته عينايّ ألفَ ألفِ مرّة ولم تستمع إلى طلبهما، أو بالأحرى، لم تشأ الاستماع إليهما. إذا كنت مرتبطاً بواحدة فسوف أدعك تحرّز تقدماً في غرامياتك. لكنني حرصت أشدّ الحرص على أن أنيرك لكي تكتشف اللامبالاة التي تسود في قلبك». ثم أضافت وهي تزعم شفيتها لتجعل فمها أكثر إثارة وتقلّب عينيها إغراءً: «حسناً، أحببني، سأكون حبيبتك وسواسة، وسأضيف عشرين مملكة إلى مملكتك، ومائة برج مليء بالذهب وخمسمائة برج آخر مليء بالفضّة، وباختصار سيكون لك كلّ ما تريد».

«فقلتُ لها: «يا سيّدة وسواسة، يصعب عليّ وأنا في عمق هذه الحفرة التي تكويني بلهيب نارها أن أعلن الحبّ لشخص بمثل مقامك. أتوسّل إليك بكلّ المفاتن التي تجعلك محبوبة أن تعتقيني، ومن ثمّ نرى معاً ما بإمكانني أن أفعل لإرضائك». فهتفت: «آه، أيها الخائن!، لو كنت تحبّني لما سعيت للعودة إلى مملكتك، ولكنك

سعيداً في مغارة، وفي جحر ثعلب، وفي الغابات، والصحارى. لا تظن أنني جنيّة مبتدئة. أنت تفكر في التملص مني، لكنني أحذرك بأن عليك البقاء هنا، وأول شيء ستفعله هو أن تحرس خرافي التي تتحلّى بالذكاء وتتكلّم بطلاقة كمثلك أنت».

«وعلى الفور، تقدّمت في السهل حيث كنا ودلّنتني على قطعها. لم أهتمّ به. وبدت لي الجارية الجميلة التي كانت قربها رائعة. خانتني نظراتي. انتبهت وسواسة المتوحّشة لإعجابي بها فانقضت عليها وغرزت في إحدى عينيها مشبك شعريها وأمعت في غرزه حتى فارقت تلك الفتاة الرائعة الحياة في الحال. وعندما رأيت ذلك المشهد المشؤوم، ارتميت على وسواسة مستلاً سيفي وكنت سأضحّي بها لأرواح موتى غالية عليّ لو أنّها لم تُجمّد بقدرتها كلّ قدرة في. كانت جهودي بلا طائل وسقطت أرضاً وأنا أبحث عن وسيلة لأقتل نفسي وأتحرّر من الحال التي وجدتنى فيها. عندئذٍ قالت لي بابتسامة هازئة: «أريد أن أجعلك تعرف قدرتي. أنت الآن أسدٌ وسوف تصبح خروفاً».

«ثمّ لمستني بعصاها السحرية فأنسخت إلى الخروف الذي تجدينه الآن أمامك. لم أفقد القدرة على التطق ولا مشاعر الألم التي تتنابني من جزاء امتساخي. قالت لي: «ستظلّ خروفاً لمدة خمس سنوات وسيبدأ مطلقاً على هذه الأمكنة الجميلة. وفيما أنا بعيدة عنك وفيما لا أعود أرى وجهك الجميل لن أفكر إلاّ بالحقّد الذي أضمره لك».

«واحتفّت. وإذا كان ثمة شيء بإمكانه أن يلطف عاري فهو غياها. والخراف الناطقة هنا اعترفت بي ملكاً عليها، وأخبرتني أنّها كانت فيما مضى أناساً لسوء حظهم لم يروقوا من نواح عدّة للجنّة المنتقمة فجعلت منهم قطيعاً. أمّا فترات عقوبتهم فهي متفاوتة.

وبالفعل، من وقتٍ إلى آخر، يعودون إلى ما كانوا عليه ويتركون القطيع. هناك أيضاً منافسات أو عدوات لوسوسة حكمت هي عليهنّ بالموت لقرنٍ أو أقلّ ومن ثمّ يُعدنّ إلى العالم. الجارية الشّابة التي حدّثتكِ عنها هي في هذا العِداد.

«رأيتها لاحقاً مرّاتٍ متتالية عديدة واستمتعتُ بمرآها مع أنّها لم تتحدّث إليّ وحين أردتُ الاقتراب منها ساءني أن أعرف أنّها لم تكن سوى طيف. ولكّني، إذ لاحظتُ أنّ أحدَ خرافي كان ملازماً لذلك الطّيف الصّغير، عرفتُ أنّه كان عشيقها، وأنّ وسوسة التي تستفزّها مشاعر الحبّ أرادت انتزاعه منها.

«هذا ما دفعني للابتعاد عن طيف الجارية. ومنذ ثلاث سنوات لا يشغلني إلاّ استعادة حريّتي.

«وهذا ما يدفعني للذهاب أحياناً إلى الغابة. رأيتكِ هناك أيتها الأميرة الجميلة، تارةً على عربة كنتِ تقودينها بنفسك ببراعة تفوق براعة الشّمس حين تجرّ مركباتها، وتارةً أخرى ممتطيّةً حصاناً يبدو شمساً يتمرّد على كلّ من يريد أن يمتطيه سواك، ثمّ رأيتكِ تركضين بخفّة في السّهل مع أميرات البلاط وتفوزين بالجائزة وكأنتكِ آتالانتا<sup>(1)</sup> أخرى. آه! أيتها الأميرة، لو أنّني، خلال كلّ تلك الأوقات التي كان فيها قلبي يُخاطبك سرّاً وبصمتٍ، تجرّأتُ على التحدّث إليك، لكنّك قلتِ لكِ أرقّ القول وأغدّبته! ولكن أنّي لكِ أن تتلقّي تصرّيحاً بالحبّ من خروف بائس مثلي؟»

كانت باهرة مضطربة من جرّاء كلّ ما سمعته حتّى تلك اللّحظة، ولم تكن تعرف بها تحببها. ومع ذلك، قالت له أقوالاً مجاملة تركت في

(1) آتالانتا: شخصيّة أسطورية في الميثولوجيا الإغريقية، يُروى أنّها كانت صيادة سريعة الجري، وقد وضعت على كلّ من يريد أن يتزوّجها شرطاً هو أن يسبقها في الرّكض.



نفسه شيئاً من الرجاء، وقالت له إنها باتت أقلّ خوفاً من الأطياف لأنها لا بدّ أن تعود إلى الحياة يوماً. ثم تابعت: «يا للأسف! لو أنّ باتياناتا المسكينة و غرابوجون العزيزة وتان-تان الجميل الذين ماتوا في سبيل إنقاذي يستطيعون أن يلقوا مصيراً مشابهاً، لما كنت أشعر بالتأم هنا».

وبالرغم من فقدان الخروفِ الحظوة، فهو كان ما يزال يمتلك امتيازات مدهشة. قال للقيّم على الخراف<sup>(1)</sup> (وكان خروفاً قوياً ممتلئاً عافيةً): «أذهب وأحضر الوصيفة الموريتانية والقردة والدرواس، فإنّ أطيافهم ستكون سلوى للأميرة». وبعد لحظة، رأتهم باهرة، ومع أنّهم لم يقترّبوا بما يكفي لكي تلمسهم، إلّا أنّ حضورهم حمل إلى قلبها العزاء والسلوان.

كان السيّد الخروف يتّسم بكلّ الذكاء وكلّ الرهافة اللذين يخوّلانه إجراء أحاديث طريفة. كان يحبّ باهرة بشغف كبير ما جعلها تحترمه بادئ ذي بدءٍ ثمّ تحبّه. إنّ خروفاً جميلاً، عذباً جداً وملاًطفاً، لا يمكنه إلّا أن يثير الإعجاب، لا سيّما عندما نعرف أنّه ملك وأنّ الامتساخ لا بدّ أن ينتهي.

وهكذا أمضت الأميرة أيامها الحلوة بهدوءٍ منتظرةً مصيراً أفضل. لم يكن الخروف المتودّد يهتمّ إلّا بها. كان يقيم الاحتفالات والحفلات الموسيقيّة وحفلات الصّيد، يساعده في ذلك قطيعه، وحتى الأطياف تؤدّي فيها أدوارَ شخوصها.

وذات يوم وصلّ سعاة البريد، لأنّ الخروف كان يبعث دوماً رسلاً لمعرفة آخر الأخبار. وكانت تصله أفضلها. قيل له إن الأخت البكر للأميرة باهرة سوف تقترن بأميرٍ كبيرٍ وإنّ الاستعدادات التي

(1) واضح أنّ هذه الوظيفة تقابل وظيفة كبير سائسي خيول الملك.

تُقام للعرس لم يسبق لها مثيل. عندئذٍ هتفت الأميرة الشابة قائلة: «آه! ما أتعس حظي، لن أستطيع مشاهدة زفاف هذه الزوجة! ها أنا تحت الأرض مع الأطياف والحراف فيما شقيقتي ستظهر متزينة كملكة. سيتغزل الجميع بها وأنا سأكون الوحيدة التي لن أشاركها فرحتها». فسألها ملك الحراف: «مّم تشتكين يا سيدي وهل منعك من الذهاب إلى الزفاف؟ ارحلي متى شئت، لكن عديني بأنك ستعودين. وإذا لم توافقي على ذلك فستريئني صريعاً عند قدميك، لأن الحب الذي أكنه لك هو من القوة بحيث لا يمكنني أن أخسرك دون أن أموت».

رق قلب باهرة لحاله، فوعدت الخروف بأن لا شيء في العالم يمكنه أن يحول دون عودتها. وأمدها الخروف بموكب جدير بأصلها النبيل. ارتدت ثياباً مذهشة، ولم تنس شيئاً مما يستطيع أن يزيد جمالها جمالاً. وصعدت في عربة مصنوعة من عروق اللؤلؤ، وتجرها ستة أحصنة طائرة غنساء<sup>(1)</sup> وصلت حديثاً من أقصى الدنيا. وجعل الخروف عدداً كبيراً من الموظفين المرتدين ثياباً فاخرة ومثقنة الصنع مرافقين لها. لقد جاء بهم من مكان بعيد جداً ليؤلفوا الموكب.

وصلت إلى قصر والدها الملك في اللحظة التي كان يُقام فيها الزفاف. ما إن دخلت حتى أذهشت كل من رآها ببهاء جمالها وسناء الأحجار الكريمة التي تزينها. لم تكن تسمع من حولها إلا الهتاف والمدائح. نظر إليها الملك بانتباه وتمعن جعلها تخشى أن يتعرف إليها. لكنه كان أخطر بموتها فلم يخطر بباله قط أن تكون ابنته.

ومع ذلك، فإن خوفها من أن تُعتقل منعها من البقاء حتى نهاية الاحتفال. خرجت فجأة، وتركت دُرْجاً صغيراً من المرجان المزين

(1) غنساء، مذكر أغبس، من الغنسة، وهو حسب لسان العرب لوزن بين السواد والصفرة.

بالزمرّد، نُقِشَ عليه بحروفٍ مِنَ الألماس: «أحجارٌ كريمةٌ للعروس». وفتَحَ الدرّج في الحال، وما هي الجواهر التي لم تكن موجودةً فيه؟ إنّ الملك الذي كان يأمل موافاة المدعوّة ويتحرّق للتعرف إليها، أصابه القنوط لغيابها عن ناظره. أمرَ فقط، في حالٍ عودتها، أن تُغلق الأبوابُ خلفها وأن يتمّ إبقاؤها.

مهما يكن غياب باهرةٍ قصيراً إلاّ أنّه بدا للخروف بمثابة دهر. كان ينتظرها عند ضفة أحد الينابيع، في عمق أعماق الغابة. وهناك بسط أمامها ثروات هائلة ليهدّيها أيّاه امتناناً على رُجوعها. ما إن رآها حتّى جرى نحوها، قافزاً ومتوثباً مثل خروفٍ حقيقيّ. وأغدق عليها المداعبات الخنونة واضطجع عند قدميها، وقبل يديها وأخبرها بشجنه ونفاد صبره. كان شغفه يمدّه بفصاحةٍ فتنت الأميرة.

وبعد فترةٍ قصيرة، زوج الملك ابنته الوسطى. علّمت باهرةً بذلك، وتوسّلت إلى الخروف بالسّماح لها بالذهاب، كما فعلت سالفاً، إلى حفل يكتسي أهميّة قصوى بالنسبة لها. عندئذٍ أحسّ الخروف بألم يفوق طاقته على الاحتمال وبشعورٍ خفيّ ينبئه بكارثةٍ وشيكة. ولكنّ ليس في مقدورنا تجتّب الشقاء، ثمّ إنّ الخروف لم يكن قادراً على ردّ طلب للأميرة فموّده لها كانت فوق كلّ الاعتبارات الأخرى. قال لها: «تريدين أن تتركيني يا سيّدي، وما ألقاه من شقاء آتٍ من قدرتي اللّعين وليس منك. أوافق على تحقيق أمنيتك ولا أستطيع أبداً أن أقوم لك بتضحيةٍ أعظم منها».

أكّدت له أنّها لن تتأخّر أكثر من المرّة الأولى، وأنّها ستشعر بألمٍ شديدٍ من جرّاء كلّ ما يبعدها عنه، واستحلّفته ألاّ يقلق. استخدمت الموكب نفسه الذي رافقها من قبل، ووصلت لدى بدء الاحتفال. وبالرغم من الانتباه الذي كانه موجّهاً إلى الحفل، إلاّ أنّ حضورها

انتزع صيحاتِ الفرح والإعجاب، واجتذبت أنظار جميع الأمراء نحوها. لم يكونوا يملون النظر إليها ووجدوها على جمالٍ غير مألوف. شعرَ الملك بالبهجة العامرة لرؤيتها مجدداً. لم ينزع عينيه عنها إلا لكي يوجه الأوامر بإغلاق جميع الأبواب لاحتجازها. وعندما صار الاحتفال على وشك الانتهاء نهضت الأميرة بسرعة وأرادت الاختفاء عبر الحشد، لكنها أصيبت بدهشة عميقة وحزنٍ شديد عندما وجدت الأبواب مغلقة.

اقترَب الملك منها باحترام جليل وخضوع فشعرت بالاطمئنان. توسل إليها ألا تغادر بسرعة وتحرمهم لذة رؤيتها ومشاركتها في الوليمة الفخمة التي كانت تقام للأمراء والأميرات. وقادها إلى باحة استقبالٍ بديعة اجتمع فيها كل أفراد الحاشية. واتخذ هو نفسه طستاً من الذهب وإبريقاً مليئاً بالماء ليغسل يديها الجميلتين. وفي تلك اللحظة بالذات، شعرت وكأنها في حالة انخفافٍ فارتجت عند قدميه وقبلت ركبتيه قائلة: «ها إن حلمي قد تحقّق، لقد ساعدتني لأغسل يوم زفافٍ أختي، دون أن يحدث أمرٌ بغيض».

وتعرّف إليها الملك بسهولة كبيرة لأنه ألفها عندئذٍ تشبه تماماً ابنته باهرة. قال لها وهو يقبلها ذارفاً الدموع: «آه يا ابنتي العزيزة! هل بإمكانك نسيان الذنب الفظيع الذي اقترفته حيالك؟ لقد أردت موتك لأنني ظننت أن حلمك يعني خسارة تاجي. وكان يعني هذا أيضاً: ها إن أختيك تزوجت وكل واحدٍ منهما تاج، وتاجي أنا سيكون لك». وللحال، نهض ووضع التاج على رأس الأميرة ثم هتف: «تحيا الأميرة باهرة!»، وهتف خلفه البلاط كله. وجاءت شقيقتا هذه الملكة اليافعة وعانقتها بحرارة ودللتها كثيراً. طار فؤاد باهرة فرحاً لدرجة أنها لم تعد تعرف ماذا تفعل: كانت تبكي

وتضحك في الوقت نفسه، ثم تقبل شقيقتها الأولى وتحدث إلى الأخرى، وتشكر الملك. ووسط فرحة اللقاء تلك وما خالجها من انفعالات، تذكّرت قائد الحرس الذي كانت تدين له بالكثير، وسألت عنه بإلحاح ولكن قيل لها إنه توفي: فشعرت بألم عميق من جرّاء موته.

وعندما جلّست إلى المائدة، توسّل إليها الملك أن تخبره ما حدث معها منذ اليوم الذي أعطى الأوامر المشؤومة لقتلها. وللغور بدأت الكلام بطلاقة أدهشت الجميع.

ولكن، فيما تناسّت نفسها بالقرب من الملك وشقيقتها، كان الخروف العاشق يحتسب الساعات التي تمرّ على عودة الأميرة دقيقة بعد أخرى ويتفاقم معها قلقه وانشغال باله، حتّى أنّه فقد السيطرة على رباطة جأشه. هتف: «لم تعد تريد العودة، إنّ هيئتي البائسة كخروف لا تروق لها. آه! يا لي من عاشقٍ تعيس الحظّ ماذا سأفعل من دون باهرة؟ يا وسواسة، أيتها الساحرة البربرية، أيّ ثأر عظيم نأزّته لنفسك لعدم اكتراثي بك؟ وندب حظّه التعسّ طويلاً. وإذ رأى أنّ الليل كان يقرب وأنّ الأميرة لم تعد بعدُ هُرِعَ إلى المدينة. وعندما أصبح في قصر الملك، سأل عن باهرة، ولكن بما أنّ الجميع بات عالماً بقصته مع الأميرة ورافضاً لعودتها مع الخروف، فقد حُظرت عليه رؤيتها وسُدّت كلّ المنافذ في وجهه. كانت شكواه ولوعته قادرتين على استعطاف أيّ كان، إلاّ الجنود الذين يجرسون باب القصر. وأخيراً، ارتمى أرضاً وقد رزّح تحت وطأة ألمه، وفارق الحياة.

كان الملك والأميرة باهرة غافلين عن المأساة الحزينة التي حصلت للتوّ. واقترح الملك على ابنته الصعود في العربة ليطوفاً معاً في جولة

في أنحاء المدينة على ضوء آلاف المشاعل التي كانت عند التوافذ وفي  
 الساحات الكبرى. ولكن أي حزنٍ انتابها عند خروجها من القصر  
 عندما رأت خروفها العزيز ممدداً على الرصيف جامداً بلا حراك؟  
 نزلت من العربة مسرعة وهُرعت إليه، بكّت وانتحبت وعرفت أنّ  
 عدم التزامها بالدقة في مواعدها تسبّب في وفاة الخروف العظيم.  
 وفي خضمّ بأسها، أوْشكت أن تموت هي نفسها. فوافق الجميع  
 على الفكرة القائلة إنّ الأشخاص الأرفع مقاماً عرضة كالأخرين  
 لضربات القدر وإنهم يكابدون أشدّ الآلام في اللحظة التي يعتقدون  
 فيها أنّهم في أوج السعادة:

غالباً ما تتسبّب أجملُ هباتِ السماء

في هلاكنا

نسألُ تمامَ النعمة

فنستحقّها حزناً والمأ

كان السيّد الخروف سيتألم أقلّ

لو لم يضرّم في قلبه ذلك الحبّ المحتوم

فانتقمت وسواسة منه ومن المرأة خضمها،

كان شغفه سببَ هلاكه.

كان في مقدوره أن يلاقي مصيراً أفضل؛

لكنّه لم يأبه للجنّية وسواسة ولا لعطاياها،

كان يكره دون كذب ويحبّ دون تصنّع

ولا يشبه بشيءٍ رجالَ اليوم،

لا بل إنّ نهايته تبدو لنا في منتهى الفرادة

نهاية لا تليق إلا بمن هو مثله.  
أنى لنا أن نرى في هذه الأصقاع خروفاً  
يموت إذا أضعاع نعبته!



«رهيفة أو فتاة الرّماد»، للرّسام جوزيف مارسيل بروتون

Joseph Marcel Breton, 1904



## رهيفة أو فتاة الزماد

كَانَ يَا مَا كَانَ، كَانَ هُنَاكَ مَلِكٌ وَمَلَكَةٌ لَمْ يُفْلِحَا فِي إِدَارَةِ شُؤُونِ مَمْلَكَتَيْهِمَا فَطُرِدَا مِنْهَا. بَاعَا تاجَيْهِمَا لِيَعِيشَا، ثُمَّ ثِيَابَهُمَا وَمَا لَدَيْهِمَا مِنْ دَانِيَالًا وَكُلِّ الْأَثَاثِ قِطْعَةً قِطْعَةً حَتَّى مَلَّهْمُ تِجَارَ الْمُسْتَعْمَلَاتِ وَالرَّثَاثُونَ، فَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَا يَبِيعَانِهِمْ شَيْئًا جَدِيدًا. وَعِنْدَمَا صَارَا فِي حَالٍ مِنَ الْفَقْرِ الْمُدْقِعِ، قَالَ الْمَلِكُ لِرَؤُوسِهِ:

- هَا قَدْ أَبْعَدْنَا عَنْ مَمْلَكَتِنَا، وَلَمْ يُعِدْ لَدَيْنَا مَا نَمْلِكُهُ. يَجِبُ أَنْ نَكْسِبَ رِزْقَنَا وَنَعْمِلَ أَوْلَادِنَا الْمَسَاكِينَ. فَكِرِي قَلِيلًا فِي مَا نَسْتَطِيعُ فَعَلَهُ لِأَنِّي حَتَّى الْيَوْمِ لَمْ أَعْرِفْ إِلَّا مِهْنَةَ الْمَلِكِ وَهِيَ مِهْنَةٌ لَيْسَ فِيهَا شُظْفٌ. كَانَتِ الْمَلِكَةُ ذَكِيَّةً جَدًّا. طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَمَهِّلَهَا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ لِلتَّفَكِيرِ. وَعِنْدَ انْقِضَاءِ تِلْكَ الْمُدَّةِ، قَالَتْ لَهُ:

- يَا سَيِّدِي. لَا تَحْزَنْ. لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَعَدَّ الشَّبَاكُ وَتَذْهَبَ لِاصْطِيَادِ الْعَصَافِيرِ وَالْأَسْهَاكِ. وَعِنْدَمَا تَبْلَى الْخِيُوطُ أَحْيَاكَ لَكَ سِوَاهَا. أَمَا فِي مَا يَخْتَصُّ بِنَاتِنَا الثَّلَاثِ فَهُنَّ كَسُولَاتٌ صِرَاحَةٌ وَيَعْتَقِدْنَ أَنَّهُنَّ لَا يَزِلْنَ مِنَ الْأَشْرَافِ وَيُرِذْنَ أَنْ يَبْدُونَ بِمُظْهِرِ الْأَمِيرَاتِ. يَجِبُ اصْطِحَابُهُنَّ إِلَى الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ، إِلَى مَكَانٍ لَا يَسْتَطِيعْنَ الْعُودَةَ مِنْهُ أَبَدًا. لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْنَا أَنْ نُوْمِنَ لَهُنَّ مَلَاسًا تَلِيقٌ بِذُوقِهِنَّ.

أَخَذَ الْمَلِكُ يَبْكِي عِنْدَمَا شَعَرَ أَنَّ مَضْطَرَّ لِالْفِتْرَاقِ عَنِ بِنَاتِهِ. كَانَ أَبًا صَالِحًا لَكِنَّ الْمَلِكَةُ كَانَتْ هِيَ الْأَمْرَةَ النَّاهِيَةَ. لِذَا كَانَ يُوَافِقُ دَوْمًا عَلَى كُلِّ مَا تُرِيدُهُ. قَالَ لَهَا:

- انْهَضِي صَبَاحًا وَاصْطَحِبِي مَعَكُمْ بِنَاتِكِ الثَّلَاثِ إِلَى حَيْثُ تَرْتِيئُهُ مَلَائِمًا.

وفما كانا يدبران هذه المؤامرة، كانت الأميرة رهيبة، وهي الأصغر ستأبين البنات تستمع إليهما من ثقب القفل. وعندما علمت بخطّة والدها ووالدتها ذهبت بأسرع ما يمكن إلى مغارة كبيرة بعيدة جداً عن المنزل حيث تسكن الجنية ميرلوش<sup>(1)</sup> عزّابتها.

أخذت رهيبة مقدار رطل من الزبدة الطازجة وبيضاً وحليباً وطحينا لتصنع كعكة شهية لعزّابتها فتحسن هذه استقبالها. بدأت رحلتها ببهجة لكنها كلما تابعت سيرها أحست بالتعب. حُفّ حذاؤها حتى انثقب، وتجرّحت قدمها الصغيران الناعمتان بجروح بالغة إلى حدّ أنّ من يراها كان يُشفق عليها، ولم يعد بإمكانها الاستمرار في المسير. جلست على العشب باكية.

ومرّ من هناك حصان إسباني جميل مُسرج ومُلجَم. وكان من الألماس على غطاء سرجه ما يكفي لشراء ثلاث مدن وأكثر. عندما رأى الأميرة، بدأ يرعى بهدوء قربها، ثم طوى ركبته وكأنه ينحني لها احتراماً، فأمسكته من لجامه في الحال، وقالت له:

- يا حصاني اللطيف، هل لك أن تأخذني إلى عند عزّابتي الجنية، ستسدي لي بذلك خدمة جليّة لأنني منهكة حتى الموت. وإذا فعلت ما أطلبه منك فسوف أقدم لك أجود الشوفان والشعير والقشّ الطري لتنام.

انحنى الحصان حتى لامست ركبته الأرض واعتلته الفتاة الصبيّة وراح يغدو خفيفاً خفيفاً وكأنه عصفور. إلى أن توقف عند مدخل المغارة وكأنه يعرف الطريق. وبالفعل كان يعرفه لأن ميرلوش، وقد حدّست أنّ ابنتها الروحية تُريد رؤيتها، أرسلت إليها ذلك الحصان الجميل.

(1) هو بالأصل اسم السمكة المعروفة بسمكة المورة.

لدى دخولها، انحنّت أمام عرّابتيها ثلاث مرّات ثمّ أمسكت  
أسفل ثوبها وقبلته.  
قالت لها:

- صباح الخير يا عرّابتي، كيف حالك؟ هاك زبدهً وحليياً وطحيناً  
وييضاً جنتك بها لكي أصنع لك كعكة لذيذة على طريقة بلادنا.  
قالت لها الجنيّة:

- أهلاً وسهلاً بك يا رهيفة. تعالي أقبلك.  
وقبلتها مرّتين. سرّت رهيفة لتينك القبلتين لأنّ السيّدة ميرلوش  
لم تكن جنيّة كغيرها من الجنّيات. قالت لها:  
- على هذا يا بنيتي، أريد أن تكوني وصيفتي. حلي شغري  
وأعيدي تسريحه.

حلت الأميرة شعرها وسرّحته بأناقة رقيقة.  
قالت ميرلوش:

- أعرف جيداً لماذا أتيت إلى هنا. استمعت إلى الملك والملكة  
اللذين يريدان اصطحابك أنت وأختيك لإهلاككن، فأردت تجنّب  
الكارثة. هيّا، خذي كبة الخيوط هذه التي لا تنقطع أبداً. أوثقي  
طرف الخيط بباب منزلكن وأمسكيه بيدك. حين تتخلّى عنكن الملكة  
سيسهل عليكن العودة باتّباع الخيط.

شكرت الأميرة عرّابتيها التي ملأت لها كيساً من الثياب الجميلة  
المزدانة كلّها بالذهب والفضّة. قبلتها وأصعدت الفتاة على الحصان  
الجميل، وفي غضون لحظتين أو ثلاث أعادها عند باب البيت الصغير  
حيث يقطن جلالتنا الملك والملكة. قالت رهيفة للحصان:

- يا صديقي العزيز، أنت جميل وهادئ جداً. تمضي بأسرع من  
التور. أشكرك على مجهودك. عبّدي إلى حيث أتيت.

دخلت إلى المنزل خفيةً وخبأت كيسها تحت سريرها. رقدت  
وكان شيئاً لم يكن. وعندما طلع النهار، أيقظ الملك زوجته وقال لها:  
- هيا، هيا يا سيدتي تحضري للسفر.

ونَهَضت في الحال. انتعلت حذاءها الضخمَ وارتدت تنورةً  
قصيرةً وصدراً أبيض بلا حزام وأمسكت بعصا. استدعت كبرى  
بناتها وكانت تُدعى زهرة الحب، والثانية وتدعى جميلة الليل والثالثة  
رهيفة لسمعها المرهف.

قالت الملكة:

- حلُمْتُ هذه الليلة أن علينا الذهاب لرؤية شقيقتي. سوف  
تُطعمنا ما لذ وطاب. وسنأكل ونلهو بقدر ما يحلو لنا.  
زهرة الحب التي كانت يائسة من هذه الحياة الموحشة قالت لأمها:  
- هيا، يا مولاتي، لنذهب حيث شئت. المهم هو التنزه وكل ما  
عده لا يهمني.

وقالت شقيقتها مثلها. ثم استأذن من الملك، وها هن أزيعتهن  
باشرن المسير. وسرن بعيداً، ما أشعر رهيفة بخوف كبير من نفاد  
الخيوط، فهن اجتزن ما يقارب ألف فرسخ، وكانت تمشي خلفهن  
دوماً ممررةً الخيط بلباقة بين الجنبات.

وعندما ارتأت الملكة أن بناتها لم يعد بإمكانهن العثور على طريق  
العودة، دخلت إلى غابة كبيرة وقالت لهن:

- يا نعجاتي الصغيرات، ارفدن هنا. وأنا سأحرسكن كالزاعية  
التي تحرس نعجاتها لئلا يأكلهن الذئب.

واضطجعن على العشب وخلدن للنوم. غادرتهن الملكة معتقدةً  
أنهن لن تراهن أبداً من جديد. أغمضت رهيفة عينها لكنها لم تتم.  
قالت:

- لو كنت فتاةً شريرةً، لذهبتُ في الحال، تاركةً أختي تموتان هنا لأنهما تضرّبانني حتى ينزف مني الدّم. لكن بالرّغم من كلّ خبثيهما، لا أنوي التخلّي عنهما.

ثم أيقظتهما وروّت لهما القصة كلّها. وبدأتا بالبكاء متوسّلتين إليها لكي تصطحبهما معها ووعدتاها بأن تعطّياها دُماهما الجميلة وعُلب أدواتها الفضيّة، وألعا بهما الأخرى وحبّات الملبّس التي في حوزتهما. قالت رهيقة:

- أعرف جيّداً أنّكما لن تنفّذا وعودكما لكنّ هذا لن يمنعني من أن أكون أختاً حنوناً.

نهضت وتبعّت الخيط وتبعّتها الأميرتان، ووصلن في الوقت نفسه الذي وصلت فيه الملكة تقريباً.

عندما توقّفن عند الباب سمعن الملك يقول لزوجته:  
- قلبي منقبض لرؤيتك تعودين وحيدة.  
قالت الملكة:

- وماذا تريدان أن أفعل؟ كان وجود بناتنا يُرَبِّكنا كثيراً.  
قال الملك:

- لئنيك اصطحبت معك رهيقة. كان هذا سيُعزّيني عن خسارة شقيقتيهما لأنهما كسولتان ولا تُحبّان شيئاً.  
قرعن على الباب: طق... طق... طق...  
قال الملك:

- من هناك؟  
فأجبن:

- بناتكما الثلاث، زهرة الحبّ وجميلة الليل ورهيقة.  
أخذت الملكة ترنّجف وقالت:

- لا تفتح. لا بد أن هذه أشباح، لأن من المستحيل أن تستطيع بناتنا العودة.

كان الملك جباناً كزوجه. قال:

- أنتن تخدعنني، لستن بناتي.

لكن رهيبة كانت لبقة وقالت له:

- يا أبت سأخفص رأسي. انظر إلي من ثقب الباب، وإذا لم أكن

رهيبة فاجلدني بالسوط إذا شئت.

نظر الملك من الثقب فتعرف إلى ابنته وفتح هن. تظاهرت الملكة بالسرور لرؤيتهن. وقالت هن إنها نسيت شيئاً ما وجاءت لتبحث عنه لكنها كانت بالتأكيد ستذهب لموافتهن. تظاهرن بتصديقها وصعدن إلى عليّة صغيرة جميلة حيث رقدن.

قالت رهيبة:

- والآن يا أختي، وعدتني بدمية، أعطيني إياها.

فقالت لها:

- أيتها الماكرة الصغيرة، ليس عليك إلا الانتظار إلى ما شاء الله.

أنت السبب في أن الملك لم يتحسر على فقداننا.

وعلى هذا، أخذتا مغزليهما وبدأتا تضربانها ضرباً مبرحاً. ذهبت للنوم لكنها لم تستطع لكثرة الجروح والتدوب المتورمة. عندئذ سمعت الملكة تقول للملك:

- سأصطحبهن إلى الجهة الأخرى، إلى مسافة أبعد، وأنا أكيدة

من أنهن لن يعدن أبداً.

وعندما سمعت رهيبة بهذه المؤامرة، نهضت ببطء لتذهب من

جديد لزيارة عرابتها. دخلت إلى قن دجاج أهلها واستلت دجاجتين وديكاً فلوت عنقه وأزبين، كانت الملكة تغذيها بأوراق الملفوف لكي

تتلذذَ بهما عندما تُحِينُ المناسبةَ. وَضَعْتَ كُلَّ ذَلِكَ فِي سَلَةِ وَرَحَلْتِ. لَكُنَّهَا لَمْ تَكُدْ تَسِيرُ فَرَسَخاً وَاحِداً مَتَلَمَّسَةً طَرِيقَهَا وَقَدْ ائْتَابَهَا خَوْفٌ شَدِيدٌ حَتَّى جَاءَ الْحِصَانُ الْإِسْبَانِيَّ وَهُوَ يَعْدُو شَاخِراً وَصَاهِلاً. ظَنَّتْ أَنَّ أَمْرَهَا انْتَهَى وَأَنَّ بَعْضَ الرِّجَالِ الْمُسَلَّحِينَ سَيَمْسِكُونَ بِهَا. لَكُنَّهَا عِنْدَمَا رَأَتْ الْحِصَانَ الْجَمِيلَ وَخَدَهُ، امْتَطَّتْهُ مَسْرُورَةً لِأَنَّهُ سَيُوصِلُهَا بِسُرْعَةٍ إِلَى عَرَّابَتِهَا.

بعدَ مراسمِ الاستقبالِ المعهودة، أَعْطَتْهَا الدَّجَاجَتَيْنِ وَالذِّبِكِ وَالْأُرْتَبِينَ وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهَا أَنْ تُسَاعِدَهَا بِأَرَائِهَا السَّدِيدَةِ لِأَنَّ الْمَلِكَةَ أَقْسَمَتْ أَنْ تُوَصِّلَهُنَّ إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ. قَالَتْ مِيرَلُوشُ إِلَى ابْنَتِهَا الرُّوحِيَّةِ أَلَا تَحْزَنُ. أَعْطَتْهَا كَيْساً مَلِيئاً بِالرَّمَادِ وَقَالَتْ لَهَا:

- تَحْمِلِينَ الْكَيْسَ أَمَامَكَ وَتُهْزِينَهُ وَتَمَشِينَ عَلَى الرَّمَادِ. وَعِنْدَمَا تَرِيدِينَ الْعُودَةَ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَنْظُرِي إِلَى آثَارِ خُطَاكَ لَكِنْ لَا تَصْطَحِبِي أَخْتِيكَ. إِنَّهُمَا مَآكِرَتَانِ جَدَّاءُ، وَإِذَا أُرْجَعْتَهُمَا مَعَكَ، فَلَا تَعُودِي إِلَى زِيَارَتِي.

اسْتَأْذَنْتْ رَهيفَةً بِالْأَنْصُرَافِ حَامِلَةً مَعَهَا، بِأَمْرِ مِنْهَا، عُلْبَةً صَغِيرَةً فِيهَا مِنَ الْأَمْلاَسِ مَا يُسَاوِي عَشْرَاتِ الْمَلَّايِينِ، فَوَضَعَتْهَا فِي جَيْبِهَا. كَانَ الْحِصَانُ مَتَأَهَّباً وَأَعَادَهَا بِسُرْعَةٍ كَالْمَعْتَادِ. وَعِنْدَ طُلُوعِ النَّهَارِ، نَادَتْ الْمَلِكَةَ عَلَى الْأَمِيرَاتِ فَجِئْنَ. قَالَتْ لهنَّ:

- لَيْسَ الْمَلِكُ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ. حَلَمْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِأَنَّ عَلِيَّ الذَّهَابِ لِأَقْطَفَ لَهُ الْأَزْهَارَ وَالْأَعْشَابَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الشَّهِيرَةِ حَيْثُ يَنْبُتُ أَفْضَلُهَا وَسُتُعِيدُ لَهُ الشُّبَابَ. لِذَا، لِنَذْهَبِ فِي الْحَالِ.

إِنَّ زَهْرَةَ الْحَبِّ وَجَمِيلَةَ اللَّيْلِ اللَّتَيْنِ ظَنَّتَا أَنَّ وَالِدَتَهُمَا كَفَّتْ عَنِ السَّعْيِ لِإِهْلَاكِهِنَّ، حَزَنْتَا لِهَذَا الْخَبَرِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَجَبَ الرَّحِيلَ. وَذَهَبْنَ بَعِيداً جَدَّاءاً. لَمْ يَسْبِقْ لِسَفَرٍ أَنْ طَالَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ. لَمْ تَكُنْ رَهيفَةً

تقول شيئاً. سارت خلف أختيها والملكة وراحت تذرّ الرماد الموجود في الكيس دون أن تُبعثره الريح أو يُجرّفه المطر. وبها أن الملكة باتت مقتنعةً أنّهنّ لن يستطعنّ الاهتداءً إلى الطريق، فقد استغلّت رقاد بناتها الثلاث العميق لكي تتركهنّ وتعود إلى المنزل. وعند طلوع النهار أيقنت رهيفة أن والدتها رحلت فأيقظت شقيقتيها وقالت لهما:  
- ها نحن وحدنا فالملكة رحلت.

أخذت زهرة الحبّ وجميلة الليل تبيكان وهما تتنفان شعراً وتلطمان وجهيهما بعنفٍ وصرختا:  
- يا ويلنا، ماذا سنفعل؟

لكنّ رهيفة فتاة تتحلّى بخلق رفيع فأشفقت على أختيها.  
قالت لهما:

- اسمعاني جيداً. عندما أمّدتني عرابتي بالوسيلة للعودة، حرّمت عليّ أن أهديكما على الدرب وقالت لي إنني إذا عصيتُ أو امرها فلن ترعّب في رؤيتي ثانيةً.

ازممت جميلة الليل على رهيفة وعانقتها. ومثلها فعلت زهرة الحبّ. داعبناها بحنان، وعُدن ثلاثهنّ سويةً إلى عند الملك والمملكة. تفاجأ الملك والمملكة بروية الأميرات وتحادثا طيلة الليل عما جرى، لكنّ الفتاة الصغرى التي كانت تدعى رهيفة، ولسبب وجيه إذ كان لها أذنان شديدا الرهافة، سمعت أنّها يدبران مكيّدةً جديدةً وأنّ الملكة سترحلّ معهنّ في اليوم التالي فهيرعت لتوقظ شقيقتيها.  
قالت لهما:

- يا للأسف، نحن هالكات. تريد الملكة قطعاً أن تصطحبنا إلى صحراء تتركنا فيها. أنتما السبب في إغضابي عرابتي. لا أجرؤ على الذهاب لزيارتها كما كنتُ أفعل من قبل.



وبَقِينَ فِي حَيْرَةٍ لَا يَعْرِفْنَ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى سَبِيلٍ، وَقَالَتْ إِخْدَاهُنَّ  
لِلْأُخْرَى:

- مَاذَا سَنَفْعَلُ؟

وَأخِيرًا قَالَتْ جَمِيلَةٌ لِلَّيْلِ لِأَخْتِهَا:

- عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَاسَكَ وَنَجِدَ حَلًّا. لَمْ تَسْتَأْثِرِ الْعَجُوزُ مِيرْلُوشَ  
بِالذِّكَاةِ وَحُدَّهَا. مَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَمْلَأَ جِيُوبَنَا بِحُبُوبِ الْبَازِلَاءِ وَنَذَرَهَا  
عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ فَتَهْدِينَا إِلَى طَرِيقِ الْعُودَةِ.

وَجَدَتْ زَهْرَةَ الْحَبِّ الْفِكْرَةَ رَائِعَةً. جِئْنَ بِحُبُوبِ الْبَازِلَاءِ وَمَلَأْنَ  
بِهَا جِيُوبَهُنَّ. أَخَذَتْ رَهيفَةَ الْكَيْسِ الْمِيءِ بِالثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ وَعَلَبَتِ  
الْأَلْمَاسَ. وَمَا إِنْ نَادَتْ عَلَيْهِنَّ الْمَلِكَةُ لِلرَّحِيلِ حَتَّى كُنَّ مُسْتَعْدَّاتٍ  
جَمِيعًا.

قَالَتْ لِهُنَّ:

- حَلَمْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ أَنَّ هُنَاكَ، فِي بِلَادِ لِنَ أَسْمِيهَا، ثَلَاثَةَ أَمْرَاءَ  
وَسِيمِينَ يَنْتَظِرُونَكَ لِلزَّوْجِ بِكَ. لِذَا سَأَصْطَحِبُكَ إِلَى هُنَاكَ لِأَرَى  
مَا إِذَا كَانَ حَلْمِي سَيَحَقُّقُ.

ذَهَبَتِ الْمَلِكَةُ فِي الْمَقْدَمَةِ وَتَبِعَتْهَا بَنَاتُهَا اللَّوَاتِي بَدَأْنَ يُذَرِينَ حُبُوبَ  
الْبَازِلَاءِ دُونَهَا أَكْثَرًا لَمَّا سَيَجْرِي لِأَحِقًّا لِأَنَّهُنَّ كُنَّ وَائِقَاتٍ مِنْ  
عُودَتِهِنَّ إِلَى الْمَنْزِلِ. وَفِي تِلْكَ الْمَرَّةِ ذَهَبَتِ الْمَلِكَةُ مَسَافَةً أَبْعَدَ مِنَ الْمَرَاتِ  
السَّابِقَةِ. وَلَكِنْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ تَرَكَتَهُنَّ وَعَادَتِ إِلَى الْمَلِكِ. وَصَلَتْ  
مِنْهُكَةً وَشَعَرَتْ بِالْإِزْتِيَاكِ لِتَحْرِّرِهَا مِنْ ذَلِكَ الْعَبِّ الَّذِي كَانَ يُثْقِلُ  
كَاهِلَهَا.

نَامَتِ الْأَمِيرَاتُ الثَّلَاثُ حَتَّى الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ صَبَاحًا وَعِنْدَمَا  
اسْتَيْقَظْنَ، كَانَتْ رَهيفَةُ أَوَّلَ مَنْ لَاحَظَتْ غِيَابَ الْمَلِكَةِ. وَمَعَ أَنَّهَا  
كَانَتْ تَتَوَقَّعُ ذَلِكَ فَإِنَّهَا لَمْ تَتَوَقَّفَ عَنِ الْبُكَاءِ لِأَنَّهَا تَتَّقُ بِعَرَابَتِهَا الْجَنِيَّةِ

أكثر من ثقتها بمهارة أختيها.

قالت لهنّ والذَّعرُ يجعلُ أوْصالها ترتجف:

- الملكة رحلت وعلينا أن نتبع آثارها في أقرب وقتٍ ممكن.

فأجابت زهرة الحب:

- اصممتي أيتها الفتاة الشقية الصغيرة. سنجد الطريق متى شئنا،

وأنتِ ما أنتِ إلا أختٌ مزعجة دائمة الاستعجال في غير أوان.

لم تجرؤ رهيبة على الرد. لكن، عندما أرددن العثور على الطريق،

لم يكن هناك لا آثارٌ ولا طريق. جاءت الحمايم، وهي كثيرة في تلك

البلاد، والتهمت حبوب البازلأء. وأخذت الفتيات في البكاء حتى

الصراخ. وبعده أن بقين يومين دون طعام، سألت زهرة الحب جميلة

التهار قائلة لها:

- يا أختي، هل لديك شيء يؤكل؟

أجابتها:

- لا.

وسألت الشيء نفسه لرهيبة فقالت:

- ليس لدي ما يؤكل لكنني وجدت بلوطة للتوّ.

قالت إحداهن:

- هيا! أعطيني إياها.

وأرادت كل واحدة منهنّ الحصول عليها.

قالت رهيبة:

- لن نشبع أبداً ثلاثتنا من بلوطة. لنزرعها، وسوف نعثر على

أخرى يُمكنها أن تسدّ جوعنا.

وتوافقن على تنفيذ الفكرة رغم أنه كان أمراً مشكوكاً فيه أن تثبت

شجرة في بلادٍ خالية من الأشجار ولا يُعثر فيها إلا على الملفوف أو

الحس. أخذت الأميرات يأكلن حساً وملفوفاً، ولو كن أكثر تطلباً لكن قضين أجلهن منذ زمن. كن يخلدن للتوم في العراء أغلب الأحيان. وفي كل صباح ومساءً يذهبن بالتناوب ليروين البلوطة ويقلن لها: «هيا اكبري، اكبري أيتها البلوطة الجميلة!». وأخذت البلوطة تكبر على مرأى منهن. وعندما علت قليلاً، أرادت زهرة الحب أن تتسلقها لكنها لم تكن بعد صلبة لتحملها. شعرت بأنها تشني تحت ثقلها فنزلت على الفور. وفعلت مثلها جملة الليل لكنها لم تنجح. أما رهيفة الأكثر رشاقة فيهن فمكثت في أعلاها لوقت أطول وعندئذ سألتها أختهاها:

- هل ترين شيئاً يا شقيقتي؟

أجابتها:

- لا، لا أرى شيئاً.

قالت زهرة الحب:

- هذا لأن السنديانة ليست عالية بما يكفي.

وهكذا واصلن الاهتمام بالبلوطة يسقينها ويقلن لها: «اكبري اكبري أيتها البلوطة الجميلة». لم تتوان رهيفة عن تسلق الشجرة مرتين في اليوم. وذات صباح، وفيما كانت في أعلى الشجرة، اغتنمت جملة الليل الفرصة وقالت لزهرة الحب:

- وجدت كيساً خبأته شقيقتنا عنا. ماذا يوجد فيه يا ترى؟

فأجابتها زهرة الحب:

- قالت لي إن فيه قطعة دانتيلاً قديمة تحتاج إلى رتقها، وبعض

حبّات الملبس.

كانت جملة الليل نهمة وأرادت أن ترى ما بداخل الكيس. ووجدت فيه فعلاً كل قطع الدانتيلاً الخاصة بالملك والملكة لكنها

كانت مستعملة لإخفاء الملابس الجميلة التي تملكها رهيفة وعلبة  
الأماس.

هتفت:

- ما هذا! أيعقل أن يكون من هو محتمل أكثر منها؟ علينا أن نأخذ  
كل شيء ونضع لها حجارة في محله.

وسارعتا للقيام بذلك. فنزلت رهيفة عن الشجرة ولم تلاحظ ما  
فعلته بها شقيقتها لأنه لم يخطر لها أن تتزين في الصحراء. لم تكن تفكر  
إلا في السنديانة التي أصبحت أجمل من كل أشجار السنديان.

ذات مرة، بعدما صعدت أعلى السنديانة، وعلى جزري عادتِها،  
سألتها شقيقتها إذا كانت عثرت على شيء. فهتفت:

- أرى منزلاً كبيراً جميلاً جداً يفوق الوصف. جذرائه من الزمرد  
والياقوت وسقفه من الأماس ومكسو كله بأجراس صغيرة ذهبية،  
وأرى دوائر الريح تسيرها الريح كيفما تشاء.

قالت لها:

- تكذابين! ليس جميلاً بالقدر الذي تصفينه.

فأجابت رهيفة:

- صدقاني، لستُ كاذبة. تعالا وانظرا بنفسيكما. لا زالت عيناى

مبهورتين به.

صعدت زهرة الحب على الشجرة وعندما رأت القصر لم تستطع  
إلا التعبير عن إعجابها. وما لبثت جميلة الليل الفضولية جداً أن  
صعدت بدورها على الشجرة ومكثت مفتونة به كأختيها.

قالت:

- بالطبع علينا الذهاب إلى هذا القصر، ربنا وجدنا فيه أمراء  
وسيمين يسعدون للزواج بنا.

وطيلة السهرة لم يتحدثن إلا عن خطتهن. رقدن على العشب لكن عندما بدا لزهرة الحب وجميلة الليل أن رهيفة نامت، قالت الأولى للثانية:

- أتعرفين ماذا علينا فعله يا شقيقتي؟ لننهض ونزدد الثياب الفاخرة التي أحضرتها رهيفة.

قالت جميلة الليل:

- أنتِ على حق.

ثم نهضتا وجعدتا شعرهما وطلتا وجهيهما بالذرور، ثم وضعتا عليهما خالات مصطنعة للزينة وارتدتا الملابس الذهبية والفضية المرصعة كلها بالأماس، ولم يكن هناك ملابس أروع منها.

كانت رهيفة تجهل السرقة التي قامت بها الشقيقتان. أخذت كيسها بهدف أن ترتدي ثيابها لكنها مكثت حزينة لأنها لم تجد فيه إلا الحصى. ثم انتبعت إلى أن أختيها تزيتنا وبدت كل واحدة أهدى من الشمس. بكت وعاتبتهما على خيانتها لكنها أمعنتا في الضحك والسخرية.

عندئذ قالت لهما:

- هل يُعقل أن تكون لديكما الجراءة لاصطحابي إلى القصر دون أن أتزين وأبدو جميلة؟

أجابت زهرة الحب:

- ليس لدينا من الثياب ما يفيض عن حاجتنا. سنهال عليك ضرباً إذا أزعجتنا.

أردفت رهيفة:

- لكن هذه الثياب التي ترتديانها هي لي وقد قدمتها لي عرابتي وليس من حقكم أخذها.

قالتا لها:

- إذا تكلمتِ أكثرَ فسوف نقتلكِ ونذفكِ دونَ أن يعرفَ بكِ أحد.

لم تجرؤ رهيبة المسكينة على إغاظتهما. تبعتهما بهدوء وسارت مبتعدةً عنهما مسافة قليلة. وبدت كخادمة لهما. كلما اقتربتا من المنزل بدا لهما أكثرَ جمالاً. قالت زهرة الحبّ وجميلة الليل:

- يا للزوعة! كم سنتسلى! كم سنأكل من الأطياب! سنجلس إلى مائدة الملك. أما رهيبة فسوف تغسل الأواني في المطبخ، لأنها تبدو قدرة. وإذا سئلنا من هي فلتجنب القول إنها أختنا ونحرص على ذلك أشدّ الحرص. لنقل إنها راعية البقر في القرية.

إن رهيبة التي كانت شديدة الذكاء والجمال شعرت باليأس لمعاملتها إياها على هذا النحو. وعندما أصبَحن عند باب القصر، قرعن الباب وفي الحال فتحت لهن امرأة عجوز مرعبة. كان لديها عين واحدة وسط جبينها لكثها أكبر من خمس عيون أو ست. وكان أنفها مسطحاً وفمها مرعباً، وكانت بشرتها سوداء ورؤيتها تثير الذعر في النفوس. أما طولها فيبلغ خمس عشرة قدماً وعرضها ثلاثين. قالت لهن:

- أيتها البائسات! ما الذي جاء بكنّ إلى هنا؟ هل تجهلن أنه قصر الغول وأنكنّ بالكاد تكفين لغذائه. لكنني أفضل من زوجي. ادخلن. لن أكلكنّ دفعة واحدة. سوف أسمح لكنّ بالبقاء على قيد الحياة ليومين أو ثلاثة.

وعندما سمعن امرأة الغول تتكلم على هذا النحو، لذن بالفرار معتقداتٍ أتهنّ يستطعن التّجاة بأنفسهنّ. لكنّ خطوة واحدة منها كانت تُساوي خمسين خطوة من خطواتهنّ. جرّت خلفهنّ وأمسكت

بهنّ من شعورهنّ أو من جلدة أعناقهنّ ووضعتهنّ تحت ذراعيها  
ثمّ رمتهنّ ثلاثهنّ في قبو مليء بالصفادع والأفاعي. كُنّ يمشين على  
عظام الضحايا التي سبق أن التهماها هي وزوجها.

أرادت في الحال أن تلتهم رهيفة وطلبت أن يُؤتى لها بالخلّ والزيت  
والملاح لأنّها تريد أن تجعل منها وجبة سلّطة. بيد أنّها سمعت خطوات  
الغول. لكنّ لأنّها وجدتهنّ يضاوات البشرّة جدّاً وناعمات، قرّرت  
أن تأكلهنّ بمفردها فأخفّتهنّ بسرعة تحت برميل كبير لا يستطيعنّ  
الرؤية فيه إلاّ عبر ثقب.

كان الغول أطول من زوجته بستّ مرّات. إن تكلم اهتزّ المنزل،  
وإن عطس، بدت عطسته وكأنّها أصوات رعد. لم يكنّ لديه إلاّ عين  
كبيرة مخيفة، وكانّ شعره كأشواك القنفذ ويتكئى إلى عصا ضخمة.  
وكان في يده سلّة مغطاة فأخرج منها خمسة عشر طفلاً كان سرّهم  
من الطرقات والتهمهم وكانّهم خمس عشرة بيضة طازجة. وعندما  
رأته الأميرات الثلاث جعلنّ يرتجفنّ تحت البرميل ولم يجرؤنّ على  
البكاء بصوت عالٍ مخافة أن يسمعهنّ. لكنهنّ كنّ يقُلنّ فيما بينهنّ  
بصوتٍ خفيض:

- سيلتهمنا ونحن على قيد الحياة. كيف بإمكاننا الهرب؟

قال الغول لزوجته:

- أتعرفين؟، أشم رائحة لحم طازج. أريد أن تعطيني إياه.

قالت الغولة:

- حسناً، دائماً تظنّ أنك تشم رائحة لحم طازج. لا بدّ أنّ خرافك

مرّت من هنا.

- آه! أنا لا أخطئ. أشم رائحة اللحم الطازج بكلّ تأكيد. أريد

أن أبحث في كلّ مكان.

قالت:

- إِبْحَثْ وَلَنْ تَجِدَ شَيْئاً.

أجاب الغول:

- بلى، سأجد، وإذا كنت تُخْفِنَ عَنِّي شَيْئاً فسأقطعُ لكِ رأسكِ وأجعلُ منه كرة.

أخافها تهديدهُ فقالت له:

- لا تغضب يا غولي الصغير العزيز، سأصارحك بالحقيقة.

جاءت اليوم ثلاث فتيات شابات اتخذتهن أسيرات. لكن سيكون مؤسفاً أن تلتهمهن لأنهن يعرفن القيام بكل الأعمال. وبما أنني عجوز، فعلي أن أرتاح. فكما ترى إن بيتنا الجميل متسخ وخبزنا لا يُخبز والحساء لم تعد أنت تستطيعه ولم أعد أبدو في عينك جميلة مذ أتهمني العمل. سيكنّ خادمات لي. أتوسل إليك ألا تلتهمهن في الوقت الحاضر. وإذا ما رغبت فيهن يوماً فسيكون لك ما تريد.

شق على الغول أن يعدّها بالألّا يَلْتَهْمُهُنَّ في الحال. كان يقول:

- دعيني أفعل فلن أكل سوى اثنتين.

- لا، لن تأكل.

- حسناً، سأكل الصغرى.

قالت:

- لا، لن تأكل ولا واحدة.

وأخيراً، وبعد الكثير من الأخذ والرد، وعدّها بالألّا يَلْتَهْمُهُنَّ.

قالت في نفسها:

- عندما يذهب إلى الصيد سأكلهن وأقول له إنهن هربن.

خرج الغول من القبو وقال لها أن تقودهن أمامه. كادت الفتيات

المسكينات يمتنن من الخوف فطمأنتهن زوجة الغول. عندما رآهن



سألهنّ ما الذي يُحسِّنُ صنعه. وأجبنَ أتهنّ يعرفنَ الكناسَةَ والخياطَةَ والحياكةَ بامتياز، وكذلك طهوَ يَخْناتٍ لذيذة، وأنّ الناسَ يأتون من آخرِ الدنيا ليشتروا منهنّ الخبزَ والحلوى والفطائرَ التي يصنَعنها.

أزدادَ نهمُ الغولِ فقال:

- هيا إذا سارعنِ إلى العملِ ما دمتنِ على هذا النشاط.

ثمّ سألَ رهيفة:

- قولي لي: عندما تضرمينَ التّار في الفرن، كيف تعرفينَ أنّه باتَ

حامياً بِشكْلِ كافٍ؟

أجابَت:

- يا سيّدي، أرمي فيه قطعةَ زُبدةٍ ثمّ أذوقها بلساني.

قال:

- حسناً، أشعِلي الفرن.

كانَ الفرنُ كبيراً جداً مثلَ حَظيرة، لأنّ الغولَ وزوجته يلتهمان من الخبزِ ما يُطعمُ أكثرَ من جيشين. أضرمَت الأميرةُ فيه ناراً رهيبةً فاضطرمَ مثلَ أتونٍ حام. وكان الغولُ حاضراً ينتظرُ أن ينضجَ الخبز. وفي تلك الأثناء التهمَ مائةَ حملٍ ومائةَ جُدي صغيرٍ لا يزال على الحليبِ وكانت زهرةُ الحبِّ جميلةً الليلِ يُحضِرُ العجّين. قال السيّد الغول:

- حسناً، هل حميَ الفرن؟

أجابت رهيفة:

- تحقّق بنفسك يا سيّدي.

ورمَت أمامه ألفَ حفنةٍ زبدةٍ في عمقِ الفرنِ ثمّ قالت:

- يجبُ تحسُّسهُ باللسانِ، لكنّي صغيرةٌ جداً.

قال الغول:

- أنا كبير.

خَفَضَ رَأْسَهُ وَتَوَغَّلَ فِي الْعَمَقِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَعْذُ يَسْتَطِيعَ الْخُرُوجَ  
فَبَقِيَ هُنَاكَ وَاحْتَرَقَ حَتَّى عَظَامِهِ. عِنْدَمَا اقْتَرَبَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْفَرْنِ،  
دُهِّشَتْ لِرُؤْيَيْهَا عِظَامَ زَوْجِهَا وَقَدْ صَارَتْ جَبَلًا مِنَ الرَّمَادِ.

زَهْرَةُ الْحَبِّ وَجَمِيلَةُ اللَّيْلِ اللَّتَانِ رَأَتَاهَا حَزِينَةً جَدًّا حَاوَلْنَا تَغْزِيَّتَهَا  
عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ. لَكِنَّهُمَا خَشِيْنَا أَنْ يَهْدَأَ أَلْمُهَاءُ سَرِيعًا وَأَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا  
شَهِيَّتُهَا وَتَتَنَاوَلُهُنَّ عَلَى أَنْهِنَّ وَجِبَةَ سَلْطَةِ كَمَا سَبَقَ لَهَا أَنْ أَشَارَتْ. قُلْنَ  
لَهَا:

- تَشَجَّعِي يَا سَيِّدَتِي. فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، سَتَجْدِينَ مَلِكًا أَوْ مَرَكِيزًا  
يَتِمَّنَى الزَّوْجُ بِكَ.

ابْتَسَمَتْ قَلِيلًا فَبَأَنَتْ أَسْنَانَهَا أَطْوَلَ مِنْ إِصْبَعٍ. وَعِنْدَمَا رَأَيْنَ  
مِزَاجَهَا رَائِقًا، قَالَتْ رَهِيْفَةً:

- إِذَا تَخَلَّيْتِ عَنِ جُلُودِ الدَّبِيَّةِ الْمُخَيَّفَةِ هَذِهِ الَّتِي تَرْتَدِيْنَهَا وَتَلْبَسِيْنَ  
عَلَى الْمُوَضَّةِ فَسَوْفَ نَسْرَحُ شَعْرَكَ أَجْمَلَ تَسْرِيجَةٍ وَتَبْدِيْنَ بَهِيَّةً مِثْلَ  
كُوكَبٍ.

قَالَتْ:

- لَنْرَ مَاذَا بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَفْعَلِي. لَكِنْ كُونِي وَاثِقَةً مِنْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ  
هُنَاكَ سَيِّدَاتُ أَجْمَلَ مَنِّي فَسَوْفَ أَفْرُمُكِ فَرْمًا كَاللَّحْمِ الَّذِي نَحْشُو  
بِهِ الْفَطَائِرَ.

وَعَلَى هَذَا، نَزَعَتْ الْأَمِيرَاتُ الثَّلَاثُ قَبَعَتَهَا عَنْ رَأْسِهَا وَبَدَأْنَ  
يَسْرَحْنَ شَعْرَهَا وَيُجْعِدْنَ وَهَنَّ يَسْلِيْنَهَا بِهَذْرِهِنَّ وَثَرْتَرْتِهِنَّ. وَفِي تِلْكَ  
الْأَثْنَاءِ أَخَذَتْ رَهِيْفَةً فَأَسَأَ وَانْهَالَتْ عَلَيْهَا بِضَرْبَةٍ كَبِيْرَةٍ مِنَ الْخَلْفِ  
عَلَى رَقَبَتِهَا فَصَلَّتْ جَسَدَهَا عَنْ رَأْسِهَا.

شَعْرُنَ بِفَرْحَةٍ لَا مِثْلَ لَهَا. صَعَدْنَ عَلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ لِكَيْ يَفْرَعْنَ

الأجراس الذهبية ومن ثم توجهن إلى الغرف كلها وكانت من لؤلؤ  
 وألماس، وكان الأثاث فخماً جداً، وكم كانت غبطتهن عظيمة لرؤية  
 كل ذلك الثراء. وأخذن يضحكن ويغنين. لم يكن شيء ينقصهن، لا  
 القمح ولا المربى ولا الفواكه وكان هناك دُمى كثيرة. ونامت زهرة  
 الحب وجميلة الليل في أسرة من الديباج والمخمل وقالت فيما بينهما:  
 «ها نحن أكثر غنى مما كان عليه والدنا عندما كان له مملكة. لا ينقصنا  
 سوى شبان نتروجهم. لن يأتي أحدٌ إلى هنا لأن هذا المنزل يُعتبر ولا  
 شك مهلكة. لم يعرف أحدٌ أن الغول وزوجته لقيتا حتفهما. يجب أن  
 نذهب إلى أقرب مدينة لكي نتختر بملابسنا الجميلة ولن يطول بنا  
 الأمر حتى نجد خطاباً صالحين يتمنون الأقران بأمرات».

وما إن ارتدتا ملابسهما حتى قالتا لهيفة إتهما ذاهبتان للتزّه  
 وإن عليها البقاء في المنزل لتقوم بأعمال التنظيف والغسيل، ولكي  
 يكون كل شيء لدى عودتهما نظيفاً تماماً. وإذا لم تنفذ أوامرها فسوف  
 تنهالان عليها ضرباً مبرحاً حتى الموت. انقبض قلب رهيفة المسكينة  
 من الألم وبقيت وحيدة في المنزل تكنس وتنظف وتغسل دون توقف  
 وهي تبكي. قالت في نفسها:

- ما أتعسني! ليتني لم أعص أوامر عرابتي فها كل المآسي انهالت  
 علي. سرقت شقيقتاي ثيابي الجميلة وها هما تتزيّنان بها. ولولاي  
 لكان الغول وزوجته على قيد الحياة. ما استفدت من قتلها؟ ألم يكن  
 من الأفضل أن يلتهماني بدلاً من عيشتي البائسة هذه؟

قالت ذلك ثم بكّت حتى الاختناق. وصلت أختها محمّلتين  
 ببرئقال من البرتغال ومرّيات وسكر وقالتا لها:

- أه لو تعلمين ما أروع هذا الحفل الراقص الذي حضرناه!  
 كان هنالك حشدٌ كبيرٌ من الناس! وكان ابن الملك يرقص فيه. وقد

أَحْتَفِي بِنَا كَثِيرًا. وَالآنَ تَعَالَى وَقَوْمِي بِوَأَجَابَاتِكَ: سَاعَدِينَا عَلَى خَلْعِ  
أَحْدِيثِنَا وَامْسَحِي الْوُخْلَ عَنْهَا، فَهَذَا وَاجِبُكَ.

أَطَاعَتْ رَهيفَةَ الأَمْرِ، وَلَوْ أَرَادَتْ صَدْفَةً أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَى أَيِّ أَمْرٍ  
كَانَ لَارْتَمَّتَا عَلَيْهَا وَضَرَبَتَاهَا حَتَّى الْمَوْتِ.

وكَذَلِكَ فِي اليَوْمِ التَّالِي عَادَتَا مِنَ الحِفْلِ وَأَخَذَتَا تَرْوِيَانِ مَا جَرَى  
مَعَهُمَا مِنْ أَشْيَاءَ جَمِيلَةٍ. ذَاتَ مَسَاءٍ، وَفِيهَا كَانَتْ رَهيفَةُ جَالِسَةً بِالقَرَبِ  
مِنَ النَّارِ عَلَى كَوْمَةٍ مِنَ الرَّمَادِ، وَلَا تَدْرِي مَاذَا تَفْعَلُ، أَخَذَتْ تَبْحَثُ  
فِي شُقُوقِ المَدْفَأَةِ. وَفِي مَعْرِضِ تَفْتِيشِهَا، وَجَدَتْ مَفْتاحًا صَغِيرًا قَدِيمًا  
جَدًّا وَفِي غَايَةِ القَدَارَةِ بِحَيْثُ بَدَلَتْ جَهْدًا حَثِيثًا لَكِي تَنْظِفَهُ. وَعِنْدَمَا  
صَارَ نَظِيفًا عَرَفَتْ أَنَّهُ مَفْتاحٌ مِنْ ذَهَبٍ وَيُفْتَرَضُ بِهِ وَالحَالَةَ هَذِهِ أَنْ  
يَكُونَ مَفْتاحًا لِدُرُجٍ صَغِيرٍ جَمِيلٍ. وَأَخَذَتْ فِي الحَالِ تَرْكُضَ فِي أَرْجَاءِ  
الْمَنْزِلِ وَتُدْخِلُ المَفْتاحَ فِي الأَقْفَالِ، وَأَخِيرًا وَجَدَتْ صَنْدُوقًا يُعْتَبَرُ  
تَحْفَةً فِي جَمَالِهِ. فَتَحَّتْهُ وَكَانَ فِي دَاخِلِهِ مَلَابِسُ وَأَمَاسٌ وَدَانِتِيَالٌ وَأَلْبِسَةٌ  
دَاخِلِيَّةٌ وَشَرَائِطُ، وَكُلُّهَا تُقَدَّرُ بِثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ. لَمْ تَقُلْ شَيْئًا عَنِ الكَنْزِ  
الَّذِي وَجَدْتَهُ. لَكِنِهَا انْتَهَرَتْ بِفَارِغِ الصَّبْرِ أَنْ تَخْرُجَ شَقِيقَتَاهَا فِي اليَوْمِ  
التَّالِي، وَمَا إِنْ غَابَتَا عَنِ نَاظِرِيَّهَا حَتَّى تَزَيَّنَتْ وَبَدَتْ أَجْمَلُ مِنَ الشَّمْسِ.  
مُتَشِحَّةً بِذَلِكَ الزَّيِّ، ذَهَبَتْ إِلَى الحِفْلَةِ الرَّاقِصَةِ نَفْسِهَا حَيْثُ  
كَانَتْ شَقِيقَتَاهَا تَرْقِصَانِ. وَمَعَ أَنَّهُمَا لَمْ تَكُنْ تَرْتَدِي قِنَاعًا إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ  
يَتَعَرَّفَا عَلَيْهَا لِتَبَدَّلِ شَكْلِهَا. وَمَا إِنْ ظَهَرَتْ بَيْنَ الحَشْدِ حَتَّى تَصَاعَدَتْ  
دَمْدَمَةٌ أَصْوَاتٍ بَعْضُهَا إِعْجَابًا وَبَعْضُهَا الأَخْرَ حَسَدًا. دُعِيَتْ لِلرَّقْصِ  
وَتَفَوَّقَتْ عَلَى جَمِيعِ السَيِّدَاتِ رَقْصًا وَبِزَّتِهِنَّ جَمَالًا. جَاءَتْ سَيِّدَةُ المَنْزِلِ  
لِلإِحْتِفَاءِ بِهَا وَانْحَنَتْ أَمَامَهَا إِجْلَالًا مُتَوَسِّلَةً إِلَيْهَا أَنْ تَفْصِحَ عَنِ  
اسْمِهَا حَتَّى لَا تَنْسَى اسْمَ فَتَاةِ هَذِهِ الرُّوعَةِ. فَأَجَابَتْهَا بِتَهْذِيبٍ إِنَّ  
اسْمَهَا فَتَاةُ الرَّمَادِ. لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ رَجُلٌ إِلَّا هَامَ بِهَا حُبًّا، وَلَمْ يَتَوَانَ شَاعِرٌ

عن نظم الأشعارِ متغنياً بها، ولم يُجِدْ اسمَ ضجّةٍ كتلك التي أحدثها في وقتٍ قصيرِ اسمُها، ولم تكن تُسمعُ إلاّ المدائح التي تُكّال لها تتردّد أصدأؤها في كلّ ناحية. اتجهت جميع الأنظار صوبها تتأملها وهتفت الأفواه كلّها بالثناء على حُسنها.

زهرة الحب وجميلة الليل اللتان أثارتا الإعجابَ دوماً حيثما ظهرتا كادتا تموتانِ حسداً إزاء الاستقبالِ الذي لقيته تلك الضيفة الجديدة. لكنّ رهيفة كانت تتحاشى كلّ ذلك الحسد بكياسةٍ مذهشة. كان يبدو من تصرّفاتِها أنّها خلقت لتكون الأمرة الناهية. زهرة الحب وجميلة الليل اللتان لم تكونا تريان شقيقتهما إلاّ ووجهها ملطخ بسخام المدخنة، وأكثر اتساخاً من كلب صغير، نسيباً تماماً كلّ تصوّرٍ عن جمالها ولم تستطيعا التعرّف إليها. وراحتا تطريان على جمالها كما فعل الآخرون، وما إن لاحظت رهيفة انتهاء الحفل حتى خرجت بسرعةٍ وعادت إلى المنزل ثم خلعت ملابسها على وجه السرعة مرتدية أسماها من جديد. وعندما وصلت شقيقتها قالتا لها:

- يا رهيفة، لو تعلمين!، رأينا لتونا أميرةً شابةً فاتنةً وليست قبيحةً مثلك. إنّها بيضاء كالثلج وخطاها كالورود وأسنانها كاللؤلؤ وشفاتها كالمرجان. ثوبها يزن أكثر من ألف رطلٍ وكلّه من ذهبٍ وألماس. فما أجملها وما أزوعها!

أجابت رهيفة مهمّمة:

- هكذا كنت. هكذا كنت.

قالتا:

- ماذا تهّمهمين؟

فأجابت رهيفة بصوتٍ أكثر انخفاضاً:

- هكذا كنت.

دامت هذه اللعبة الصغيرة طويلاً. لم يَمض يومٌ إلا وغيّرت فيه رهيفة ثيابها لأنّ الصندوق كان مسحوراً، كلما أخذت منه امتلاً من جديدٍ بثيابٍ على الموضة، حتى إنّ السيدات بدأنَّ يُحظننَ أزياءهنَّ وفق ما ترتديه هي.

وذات مساء، رقصت رهيفة أكثر من المعتاد، وتأخرت بالانصراف قليلاً، وأرادت أن تستدرك الوقت الضائع وتصل إلى المنزل قبل أختيها فراحت تسيرُ بأقصى سرعتها فسقط منها أحد خفيها اللذين كانت تلبسهما، وكانا من المخمل الأحمر المزدان باللاّلى. بذلت كل ما في وسعها للعثور عليه ولكن الليل اذهمَّ وكانَ جهدها لا طائلَ منه. عادت إلى المنزل بقدّم تتعلُّ خُفاً وأخرى حافية.

في اليوم التالي، كانَ الأمير حبيب، الابن البكر للملك، ذاهباً إلى الصيد فوجدَ خُفَّ رهيفة. أمرَ بالتقاطه ثمَّ نظرَ إليه معجباً بصغره وجماله. قلبه من جميع الجهات، أعجبه فحملَه معه. ومنذ ذلك اليوم، فقد كلَّ شهية للطعام. أصبحَ نحيلاً وتبدلت سِخنته فصار شاحباً مثل سَفْرَجَلَة وحزيناً ومنهكاً. كانَ الملك والملكة يُجتانِه كثيراً فأرسلَا في كلِّ ناحيةٍ ليجلبوا له الطرائد الشهية والمربيات اللذيذة. لكن ذلك كله لم يعن له شيئاً. نظرَ إلى كلِّ ذلك ولم يكن يجيبُ على أسئلة الملكة عندما تحدّث إليه. وأرسلَ في طلب الأطباء في كلِّ مكان حتى إلى باريس ومونبيليه. وعندما وصل الأطباء جيءَ بهم لرؤية الأمير، وبعد أن راقبوه لمدة ثلاثةِ نهارات وثلاث ليالٍ دونَ أن يغيبَ عن ناظرهم، خلصوا إلى النتيجة التالية: إنه مغرَم وسيَموت إذا لم يُشفَ من سُقم الغرام.

كانت الملكة تحبّه إلى حدّ الجنون. بكت بحُرقةٍ ولوعةٍ لأنّها لم تستطع أن تكتشف من هي تلك التي يحبّها لتزوَّجَه إياها. وجاءت

إلى غرفته بأجمل الفتيات لكنه أشاح بنظره عنهن. وأخيراً قالت له:  
- يا ابني العزيز، سنموت ألماً عليك بسبب غرامك وإخفاء  
مشاعرك عنا. قل لنا من تريد ونحن نزوجك إياها حتى لو كانت  
راعيةً بسيطةً.

تشجع الأمير إزاء وعود الملكة فسحب الخف من تحت السرير  
وأراها إياه قائلاً لها:

- هذا هو سبب ألمي يا سيدي. وجدتُ هذا الخف الظريف  
الجميل عندما كنت ذاهباً إلى الصيد. ولن أتزوج إلا تلك التي  
بإمكانها انتعاله.  
قالت الملكة:

- حسناً يا بُني، لا تحزن سوف نُرسل للبحث عنها.

ثم أخبرت الملك بما جرى فمكث مندهشاً وأمر في الوقت نفسه بأن  
يُعلن على وقع الطبول والأبواق عن دعوة جميع الفتيات والنساء لكي  
يأتين لانتعال الخف، ومن طابق مقاس قدمها مقاسه تزوجها الملك.  
وكل فتاة سمعت الخبر غسلت قدميها بكل أنواع الماء ومستحضرات  
التجميل والمراهم. وثمة سيدات نتفن شعراً سيقانهن لكي تبدو  
بشرائهن أجمل وأخريات امتنعن عن الطعام أو جلفن أقدامهن لكي  
تبدو أصغر. وذهبن وفوداً وفوداً ليُجرّبن الحذاء ولم تقدر أية واحدة  
منهن على انتعاله. وكلما توافدت الفتيات عبثاً ازداد حزن الأمير.

وذات يوم أعدت زهرة الحب وجميلة الليل العدة للذهاب. كانت  
زينتها مذهشة.

سألتهما رهيفة

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

فأجابتا:

- نحن ذاهبتان إلى المدينة الكبيرة حيث يُقيم الملك والملكة.  
وذلك لكي نُجربَ الحُفَّ الذي وجده ابن الملك. إذا لاءَمَ إحدانا  
فسيترَوُجها وتصيرُ ملكة.

قالت رهيفة

- وأنا، ألا أستطيع الذهاب؟

قالتاها:

- حقاً، أنتِ مجرد فتاةٍ بليدةٍ لا نفع لها. اذهبي، اذهبي وازوي  
نبات الملفوف، فأنتِ لا تصلحينَ لشيء.

فكرت رهيفة على الفور أنها ستلبس أجمل ثيابها وستذهب  
لتجربَ حظها كالأخريات لأنها كانت تخمن قليلاً أنّ الحفّ إنّما هو  
خفها. لكن الأمر الذي كان يُشقيها هو أنّها لا تعرف الطريق. فالحفلة  
الراقصة التي كانت تُقام لم تكن أصلاً تجري في المدينة الكبيرة. ارتدت  
ثياباً رائعة. كان ثوبها من الساتان الأزرق المزدان بالنجوم والألماس.  
كانت الشمس فوق رأسها وكان القمر البدر فوق ظهرها وكل ما  
فيها يلتمع لدرجة أنّ من ينظر إليها لا يستطيع إلا أن يُطرف بعينيه.  
وعندما فتحت الباب لتُغادر دُهِشت تماماً لأنها وجدت الحصان  
الإسباني الجميل الذي اصطحبها عند عزابيتها. داعبته وقالت له:

- أهلاً وسهلاً بك يا حصاني الصغير. أنا مدينة بالكثير لعزابتي

ميرلوش.

انخفض الحصان فاغتلكته مثل حورية. كان الحصان مزداناً  
بجلاجل ذهبية وأشرطة. كان غطاء السرج واللجام لا يقدران بثمن  
وبدّت رهيفة أجمل بثلاثين مرة من هيلانة<sup>(1)</sup> الجميلة.

(1) هيلانة: هي في الميثولوجيا الإغريقية ابنة زفس وليدا، تزوجت مينيلاس، وبسبب  
اختطاف الطروادي باريس لها في غياب زوجها حدثت حرب طروادة التي ألهمت =



كَانَ الْحِصَانُ الْإِسْبَانِيَّ يَعْذُو بِخَفَّةٍ وَجَلَا جِلَّهُ تَرْنٌ: دُنْ دُنْ دُنْ.  
مَا إِنْ سَمِعَتْ زَهْرَةَ الْحَبِّ وَجَمِيلَةَ اللَّيْلِ الدَّنْدَنَاتِ حَتَّى التَفَتَتْ  
وَشَاهَدَتَاهَا آتِيَةً. وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ هَلْ فِي الْإِمْكَانِ تَخِيلٌ مَقْدَارِ  
دَهْشَتَيْهِمَا؟ تَعَرَّفْنَا إِلَيْهَا، رَهِيْفَةَ فَتَاةِ الرَّمَادِ. وَكَانَتْا مَلَطَّخَتَيْنِ بِالْوَحْلِ  
وَتِيَابُهَا الْجَمِيْلَةَ مَلَطَّخَةً أَيْضًا.

هتفت زهرة الحب قائلة لجميلة الليل:

- أختي، أوكد لك أنها رهيفة فتاة الرماد.

وهتفت الأخرى قائلة مثلها. مرّت رهيفة قريبتها ولطّخهما  
الحِصَانُ بِالْوَحْلِ لَدَى مَرُورِهِ جَاعِلًا قِنَاعًا مِنَ الْوَحْلِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ  
مِنْهُمَا. أَخَذَتْ رَهِيْفَةَ تَضْحَكُ وَقَالَتْ لَهَا:

- يَا صَاحِبَتِي السَّمُو، إِنَّ رَهِيْفَةَ تَحْتَقِرُكُمْ بِقَدْرِ مَا تَسْتَحِقُّانِ!

ثُمَّ عَبَّرَتْ مِثْلَ سَهْمٍ. تَبَادَلَتْ جَمِيْلَةُ اللَّيْلِ وَزَهْرَةُ الْحَبِّ النَّظْرَاتِ  
حَائِرَتَيْنِ.

أخذتا تقولان:

- هَلْ نَحْنُ فِي حَلْمٍ؟ مَنْ زَوَّدَ رَهِيْفَةَ بِالْتِيَابِ وَالْحِصَانِ؟ يَا  
لِلرَّوْعَةِ، إِنَّ السَّعَادَةَ لَنْ نَصِيْبَهَا، سَوْفَ تَنْتَعِلُ الْخَفَّ وَنَحْنُ سَتَكُونُ  
رَحَلْتَنَا غَيْرَ مُجْدِيَةِ.

وَفِيْمَا كَانَتْا نَهَبَ يَأْسِهْمَا، وَصَلَتْ رَهِيْفَةُ إِلَى الْقَصْرِ. كُلٌّ مَنِ رَأَاهَا  
حَسِبَهَا مَلِكَةً. امْتَشَقَ الْحِرَّاسُ أَسْلِحَتَهُمْ وَقُرِعَتْ الطُّبُولُ وَصَدَحَتْ  
الْأَبْوَابُ وَفُتِحَتْ الْأَبْوَابُ. أَوْلَيْكَ الَّذِينَ رَأَوْهَا فِي الْحَفْلِ تَقَدَّمُوا  
بِاتِّجَاهِهَا وَهُمْ يَقُولُونَ: «أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ، أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ. إِنَّهَا فَتَاةُ  
الرَّمَادِ الْجَمِيْلَةَ، بَدْءَةُ الْكُونِ». وَدَخَلَتْ فِي تِلْكَ الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ إِلَى  
غُرْفَةِ الْأَمِيرِ الْمُحْتَضِرِ. نَدَّتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ صَوْبَهَا فَسُحِرَ بِجَمَاهَا وَتَمَنَّى

= الأساطيرُ الموضوعية فيها آثاراً أدبية عديدة أهمها ملحمتا هوميروس الإلياذة والأوديسة.

أن تستطيع قَدَمُهَا انْتِعَالَ الخُفِّ. أَدْخَلَتْ قَدَمِهَا فِي الخُفِّ بِسَهُولَةٍ وَأَظْهَرَتْ الخُفَّ الآخَرَ الَّذِي كَانَتْ أَحْضَرْتَهُ مَعَهَا عَمْدًا. وَفِي الوَقْتِ نَفْسَهُ بِدَأِّ الجَمِيعِ يَهْتَفُ: «تَحْيَا الأَمِيرَةَ!، تَحْيَا الأَمِيرَةَ الَّتِي سَتُضْبِحُ مَلِكْتَنَا!». نَهَضَ الأَمِيرُ مِنْ سَرِيرِهِ وَجَاءَ لِيَقْبَلَ يَدَيْهَا. وَجَدْتَهُ جَمِيلًا وَمُفْعَمًا بِالذِّكَاةِ؛ قَالَ لَهَا أَلْفَ عِبَارَةٍ مُوَدَّةً. أَخْطَرَ المَلِكُ وَالمَلِكَةُ بِمَجِيءِ رَهيفَةٍ فَسَارَعَا لِلحُضُورِ. احْتَضَنْتَهَا المَلِكَةُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا وَأَخَذَتْ تَسْمِيَهَا بِابْنَتِهَا الظَّرِيفَةِ وَمَلِكَتِهَا الصَّغِيرَةِ وَقَدَمَتْ لَهَا هَدَايَا رَائِعَةً زَائِدَةً عَلَيْهَا المَلِكُ الكَرِيمُ. وَقَصَفَتْ المَدَافِعُ وَعَزَفَتْ الكَمَنُجَاتُ وَالتَّيَاتُ وَالآلَاتُ جَمِيعًا. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَلَى الرِّقْصِ وَالمُوسِيقِ.

تَوَسَّلَ المَلِكُ وَالمَلِكَةُ إِلَى رَهيفَةٍ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ ابْنَهُمَا. قَالَتْ: «لَا، يَجِبُ أَوَّلًا أَنْ أُرَوِّيَ لَكُمْ قِصَّتِي». وَرَوَتْهَا بِاخْتِصَارٍ شَدِيدٍ. عِنْدَمَا عَرَفُوا أَنَّهَا وُلِدَتْ أَمِيرَةً أَزْدَادًا بِهَجَّةٍ عَلَى بَهْجَةٍ. كَادَا يَطِيرَانِ فَرَحًا. لَكِنْ عِنْدَمَا ذَكَرَتْ اسْمَ المَلِكِ وَالدِّهَاءِ وَاسْمَ المَلِكَةِ وَالدِّهَاءِ، أَدْرَكَا أَنَّهَا هُمَا اللَّذَانِ اخْتَلَا مَمْلَكَتَهُمَا وَصَارَ حَاها بِذَلِكَ. عِنْدئِذٍ أَقْسَمَتْ أَنَّهَا لَنْ تَقْبَلَ بِذَلِكَ الزَّوْجَ مَا لَمْ يُعِيدَا مَمْلَكَةَ أَبِيهَا. فَوَعَدَاها بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ لَدَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَمْلَكَةٍ، وَإِذَا تَنَازَلَا عَنْ وَاحِدَةٍ فَمَا ذَلِكَ بِالْأَمْرِ الخَطِيرِ.

وَفِي تِلْكَ الأَثْنَاءِ وَصَلَتْ جَمِيلَةَ اللَّيْلِ وَزَهْرَةَ الحَبِّ. وَأَوَّلَ خَبْرٍ أُعْلِمْتَا بِهِ هُوَ أَنَّ فَتَاةَ الرَّمَادِ انْتَعَلَتْ الخُفَّ. عِنْدئِذٍ لَمْ تَعُودَا تَعْرِفَانِ مَاذَا تَفْعَلَانِ وَلَا مَاذَا تَقُولَانِ. أَرَادَتَا العُودَةَ دُونَ رُؤْيَيْهَا لَكِنَّ رَهيفَةَ عِنْدَمَا عَلِمَتْ بِوُصُولِهَا أَمَرَتْ بِإِذْخَالِهَا، وَبَدَّلَ أَنْ تَتَجَهَّمُ فِي وَجْهِهَا وَتُعَاتِبَهَا كَمَا تَسْتَحِقَّانِ، نَهَضَتْ وَتَقَدَّمَتْ بِأَتْجَاهِهَا وَقَبَلَتْهَا بِخَنَانٍ ثُمَّ قَدَمَتْهَا إِلَى المَلِكَةِ وَهِيَ تَقُولُ:

- سَيِّدَتِي إِنَّهَا شَقِيقَتَايَ وَهُمَا وَدُودَتَانِ جَدًّا. أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ

تَحْبِبِيهَا.

وبقيتا حائرتين أمام طيبة رهيبة فعجزتا عن التفوه بكلمة. قالت لهما إن بإمكانهما العودة إلى مملكتيهما لأن الأمير يريد إعادتها إلى الأسرة المالكة عائلتهن. وعند سماع هذه الكلمات سجداً أمامها وهما تبكيان من الفرح.

وأقيم زفافٌ لا مثيل له. كتبت رهيبة إلى عرابتها وكانت رسالتها مرفقةً بهدايا كثيرةً بعثت بها على متن الحصان الإسباني الجميل، وفي الرسالة رجتها أن تبحث عن الملك والملكة لتعلمهما بزفافها وبوجوب العودة إلى مملكتيهما.

تكفلت الجنية ميرلوش طوعاً بهذه المهمة. وعاد والد رهيبة ووالدتها إلى مملكتيهما وكانت شقيقتها ملكتين مثلها.

إذا أردت أن تنتقم من جاحد انتقاماً نبيلاً  
فافعل كما فعلت الأميرة رهيبة وكن مثلها حكيماً.  
أغدق إحسانك عليه دون كفاف  
لأن عطاياك وأفضالك

هي بمثابة انتقام خفي  
يهمي في قلبه المضطرب لعذابه.  
ما أقسى العقاب الذي أنزل بجميلة الليل وزهرة الحب  
حين صفحت عنها رهيبة وأمطرتهما بالنعم،  
كان غفرانها أشد هولاً من انقضاض الغول عليها.  
أخذ حذوها في كل ظرف،  
وفي ضغيتك فكر  
أن القلب الشهم  
ليس لانتقامه سبيل أكثر نبلاً.



«سعدی»، نقش غائر لکلیمان-بیار ماریلییه

Clément-Pierre Marillier, 1785

## سعدى

كان يا ما كان، كان هناك فلاحٌ فقيرٌ شعرَ أنّ الموت قريبٌ فأرادَ أن يجنّب ابنه وابنته اللذين يحبهما حباً جماً أيّ خلافٍ قد يثيره بينهما موضوعُ الميراث.  
قال لها:

- جلبت لي والدتكما على سبيلِ المهر<sup>(1)</sup> كُرسيتين صغيرين وحصيرة. وها هما، مع دجاجةٍ أملكها وأصيص قرنفلٍ وخاتم من فضةٍ أعطتني إياه سيّدة ذات شأنٍ أقامت فترةً في كوخى الفقير.  
قالت لي عند رحيلها:

- أيها الرجل الطيب، هذه هبةٌ أمْنُحك إياها. اهتمّ بسقي أزهار القرنفل واحتفظ بالخاتم. سيكون لابنتك جمال لا مثيل له. سمّها سعدى وأعطها الخاتم وإناء القرنفل لمواساتها في فقرها.  
ثم أضاف الرجل الطيب:

- وهكذا يا سعدى يا ابنتي، سيكون لك القرنفل والخاتم، أما الباقي فلاخيك.

بدا ابنا الفلاح مسرورين. توفي الوالد بكياً عليه وتقاسما الإرث كما تم الاتفاق. كانت سعدى تظنّ أنّ أخاها يحبها، لكنّها عندما أرادت أن تأخذ أحد الكرسيتين لتجلس عليه قال لها بنبرةٍ مجافية:  
- احتفظي بالقرنفل والخاتم ودعي لي كرسيّى بسلام. أحبّ أن يظلّ بيتي مرتباً.

(1) في تقاليد الزواج الأوربية، التي لم تعد مرعيةً تماماً، المرأة هي التي تهدي عريسها مهراً وليس العكس.

أخذت سعدى، وكانت فتاة في منتهى الرقة، تنكي بصمت. مكثت واقفة فيما كان بُودو<sup>(1)</sup> (وهذا هو اسم أخيها) متربعا على كرسيه كأمير.

حان وقت العشاء. أكل بودو بيضة طازجة من دجاجته الوحيدة، ورمى قشرتها لأخته قائلاً لها:

- خذي، ليس لدي شيء آخر أعطيك إياه. وإذا لم يعجبك فاذهبي واصطادي الضفادع في المستنقع المجاور.

لم تجب سعدى بشيء. وماذا عساها تجيب؟ رفعت عينها إلى السماء وبكت من جديد. ثم دخلت إلى غرفتها فألفت رائحة العطر تملؤها فعرفت أنه أريج القرنفل. اقتربت بحزن من الأزهار وقالت لها:

- أيها القرنفل الجميل المتنوع الألوان الذي يبهجني منظره أيما بهجة. أنت الذي تُفرح القلب الحزين بعطرك العذب الفواح. لا تخش شيئاً أبداً: لن أدعك تحتاج للماء ولن أقسو عليك بيدي فأنزعك عن ساقك. سأهتم بك لأنك كنزي الوحيد.

أنهت كلماتها، وعانته ما إذا كانت الأزهار عطشى. وجدتها يائسة تماماً. أخذت إبريقها وهُرعت إلى التبع الذي كان بعيداً قليلاً. وبما أنها مشت بسرعة فقد جلست عند الضفة ترتاح. لكتها ما كادت تجلس حتى رأت سيّدة مهيبّة تواكبها حاشية كبيرة تليق بها: كان هناك ستّ وصيفات يجمّلن ذيل معطفها فيما تستند إلى وصيفتين أخريين. كان حراسها يمشون أمامها لابسين المخمل النفيس الأرجواني المطرز باللالئ، ويحملون كنبه منجدة بالقماش الذهبي جلست عليها الملكة. وفي الحال نُصب سُرّادق ومُدّت سفرة مليئة

(1) يقرب ناشرو حكايات دونوا اسم بُودو Bedou هذا من المفردة bedon وتعني «سمين» أو «مكترش».

بالأواني الذهبية والمزهريات البلورية. وقدموا لها عشاءً فاخراً عند  
ضفة النبع الذي كانت دمدمته العذبة تبدو وكأنها تنسجم مع غناء  
متعدد الأصوات، منسدة هذه الكلمات:

غاباتنا يُهددها التسيّم العليل  
والأزهارُ تلمعُ على ضفافها  
تحثّ هذه الأغصان الوارفة  
تبوحُ العصافيرُ المسحورة برغباتها  
أشغلوا وقتكم بالاستماع إليها  
وإذا أراد قلبكم الحب  
فهناك أشياء عذبة يمكنها أن تسحركم:  
والذهاب إليها مصدرٌ اعتزاز.

انزوت سعدى بعيداً عن الموكب ولم تجرؤ على الحراك مندهشة  
بكلّ الأشياء التي تراها. وبعد انقضاء بعض الوقت، قالت هذه  
الملكة العظيمة لأحد سائسيها:

- يبدو لي أنني أرى راعيةً بالقرب من تلك العليقة. دعها تقرب.  
وللحال اقتربت سعدى، ورغم خجلها الطبيعي لم تتوان عن  
الانحناء احتراماً للملكة وبذوق رفيع أدهس الذين رأوها؛ أمسكت  
بطرف فستانها وقبلته ثم وقفت أمامها خافضةً بصرها بخفض. اصطبغ  
خداها بحمرةٍ أبرزت بياض بشرتها. وكان سهلاً أن تُستشف من  
تصرفاتها بساطتها ورقتها اللتان تسحران الشبان.  
قالت لها الملكة:

- ماذا تفعلين هنا أيتها الفتاة الجميلة، ألا تحشين اللصوص؟

قالت سعدى:

- يا حَسْرَةً يا سَيِّدَتِي. لَيْسَ لَدَيَّ إِلَّا ثَوْبٌ مِنَ الْكِتَّانِ، فَمَاذَا سَيَجْنِي  
الْلَّصُوصُ مِنْ رَاعِيَةٍ فَقِيرَةٍ مِثْلِي؟

سَأَلَتْهَا الْمَلِكَةُ مَبْتَسِمَةً:

- أَلَسْتَ ثَرِيَّةً إِذَا؟

قالت سعدى:

- أَنَا فَقِيرَةٌ مَعْدَمَةٌ. لَمْ يورِثْنِي أَبِي إِلَّا أَصِيصَ قَرْنَفِلٍ وَخَاتَمًا فَضِيًّا.  
أَضَافَتْ الْمَلِكَةُ:

- لَكِنَّ لَدَيْكَ قَلْبٌ. وَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَحْذَهُ فَهَلْ سَتُعْطِيهِ؟

أَجَابَتْهَا:

- لَا أَعْرِفُ مَاذَا يَعْنِي إِعْطَاءَ الْقَلْبِ يَا سَيِّدَتِي. سَمِعْتُ دَوْمًا أَنَّهُ  
مِنْ دُونَ قَلْبٍ لَا يُمْكِنُ الْعَيْشُ، وَأَنَّهُ إِذَا جُرِحَ فَالْمَوْتُ مُحْتَمٌ. وَبِالرَّغْمِ  
مِنْ فَقْرٍ حَالِي فَأَنَا لَسْتُ مُسْتَاءَةً مِنَ الْحَيَاةِ.

أُزْدَفَتْ الْمَلِكَةُ:

- أَنْتِ مُحَقَّةٌ أَيُّهَا الْفَتَاةُ الْجَمِيلَةُ فِي الدَّفَاعِ عَنِ قَلْبِكَ. هَلْ تَعَشَيْتِ

جَيِّدًا؟

قالت سعدى:

- لَا يَا سَيِّدَتِي. أَخِي أَكَلَ كُلَّ شَيْءٍ.

أَمَرَتْ الْمَلِكَةُ بِأَنْ يُؤْتَى لَهَا بِمَلْعَقَةٍ وَشَوْكَةٍ وَسَكِّينَ.

دَعَتْهَا لِلْجُلُوسِ أَمَامَ الطَّائِلَةِ وَقَدَّمَتْ لَهَا أَفْضَلَ مَا عِنْدَهَا. كَانَتْ

الرَّاعِيَةَ مَعْجَبَةً أَيْمًا إِعْجَابَ بِالْمَلِكَةِ وَبِطَبِيبِهَا فَمَنْعَهَا أَنْفِعَالُهَا مِنْ أَنْ  
تَأْكُلَ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا.

- أَوْدَ فَعَلًا أَنْ أَعْرِفَ لِمَاذَا أَتَيْتِ إِلَى النَّبْعِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمَتَأَخَّرِ؟

قالت:



- سيدي، جئت لأحمل الماء في الإبريق لأزوي قرنفلاتي.  
وإذ تكلمت، انخفضت لكي تأخذ إبريقها الذي كان قريباً. لكن  
عندما أظهرته للملكة تعجبت أشد العجب لأنه بدا مذهباً ومزداناً  
بحبات ألماس كبيرة ومليء بهاءٍ تفوح منه رائحة عطرة. لم تجرؤ على  
أخذه لئلا يكون إبريقها.  
قالت الملكة:

- خذيه يا سعدى. أذهبي واسقي الأزهار التي تغتنين بها.  
وتذكري أن ملكة الغابات تريد أن تكون صديقتك.  
وعلى هذه الكلمات ارتمت الزاعية عند قدمي الملكة.  
قالت لها:

- أشكرك جزيلاً الشكر على هذه اللقطة الكريمة التي خصصتني  
بها. هل أستطيع أن أتوسل إليك أن تنتظري هنا للخطئة. أريد أن  
أتيك بنصف ما أملكه: أصيص القرنفل الذي أتساءل أتى له أن  
يكون بين يديني أفضل من يديك!  
قالت الملكة وهي تداعب خديها برفق:

- أوافق على البقاء هنا حتى تعودني!  
أخذت سعدى إبريقها الذهبي وهرعت إلى غرفتها الصغيرة.  
لكن أباها كان قد دخل أثناء غيابها وأخذ أصيص القرنفل واضعاً  
مكانه نبتة ملفوف كبيرة. عندما لمحت سعدى نبتة الملفوف التعيسة  
تلك ألم بها حزنٌ لا يوصف ومكثت محتارة: هل تعود إلى التبع؟  
وأخيراً حزمت أمرها وخرت ساجدة أمام الملكة.  
قالت لها:

- سيدي، بودو أخي سرق مني أصيص القرنفل. لم يبق عندي  
إلا خاتمي. أرجوك أن تقبله علامة على امتناني لك.

قالت الملكة:

- إذا أخذتُ خاتمك أيتها الراعية الجميلة فسوف تُفلسين.

قالت بنبرة مفعمة بالذكاء:

- لكن يا سيدي ما دُمْتُ أملك رضاك فأنا غنية به.

أخذت الملكة الخاتم من سعدى ووضعتَه على إصبعِها. وعلى الفور، صعدت في عربة من المرجان مزدانة بالزمرّد تجرّها ستة أخصنة بيضاء، أشدّ بهاءً من عربة الشمس. شيعتها سعدى بنظراتها حتى توارت خلف طرقات الغابة. هزّها ذلك اللقاء بعمق. أوّل شيءٍ قامت به لدى دخولها إلى غرفتها هو أنّها رمت نبتة الملفوف من النافذة لكنّها فوجئت إذ سمعت صوتاً يصرّحُ بها: «ها قد انتهى أمري». لم تفهم شيئاً من هذه الشكوى لأنّ نبات الملفوف لا تتكلم عادةً. ثمّ ما إن طلع النهار حتى نزلت سعدى إلى الأسفل لتبحث عن أصيص القرنفل الذي كان يشغل بالها اختفاؤه. وجدت نبتة الملفوف التعيّسة فرفستها بقدميها وقالت:

- ماذا تفعلين هنا أنتِ يا من أردتِ أن تأخذي مكان القرنفل في

غرفتي؟

أجابت نبتة الملفوف:

- حملوني إلى هنا وإلاّ لما جنّت من تلقاء نفسي.

ارتعشت سعدى خوفاً. لكنّ نبتة الملفوف قالت لها أيضاً:

- إذا أردتِ أن تحمّليني من جديدٍ إلى زميلاتي، فأنا أقول لك

باختصار إنّ القرنفل مخبأ في حَصيرةٍ بودو.

أرادت سعدى أن تُهرع في الحال لاستعادته لكنّها زرعت نبتة

الملفوف بادئ الأمر ثم أخذت الدجاجة المفضلة لدى أخيها وقالت

لها:

- أيتها الدجاجة الشريرة! سأجعلك تدفعين الثمن لقاء كل  
الأحزان التي يتسبب لي بودودها.  
قالت الدجاجة:

- رُحماك أيتها الرّاعية، دعيني أعيش. وبما أن مزاجي يطيب  
له القوقاة فسأخبرك أشياء مذهلة. لا تظني أنك ابنة الفلاح الذي  
أطعمك وربّاك. لا يا سعدى الجميلة. إنه ليس أباك. لكنّ الملكة التي  
أنجبتك كانت أمّاً لست بنات. وكما لو أنّ في يدها أن تنجب صبيّاً  
قال لها زوجها وحموها إنهما سيقتلانا إذا لم تنجب لهما وريثاً.  
حبّلت الملكة التّعيّسة الحزينة. احتبسوها داخل أحد القصور  
ووضّعت من حولها الحراس، أو بال

أحرى الجلادون الذين تلقوا الأمر بقتلها إذا أنجبت فتاة جديدة.  
هذه الأميرة المذعورة من الموت الذي يتهددها لم تعد تأكل ولا تنام.  
كان لديها أختٌ جنيّة. كتبت لها تُعلّمها عن مخاوفها. كانت الجنيّة  
حبلى وتعرف جيّداً أنّها سترزق بصبي. وعندما وضعت طفلها  
عهدت إلى النسائم بسلةٍ وضعت فيها ابنها بعناية كبيرة وأمرتها  
بأن تحمل الأمير الصّغير إلى غرفة الملكة لكي تستبدله بالابنة التي  
ستنجبها شقيقتها. لكنّ هذا الاحتراز لم ينفع بشيء لأنّ الملكة التي لم  
يصلها أيّ خبرٍ من أختها الجنيّة أفادت من حُسن نوايا أحد حراسها  
الذي أشفق عليها وأنقذها بواسطة سلّم من حبال.  
وأكملت الدجاجة:

- ما إن أبصرت الملكة المحزونة الثور حتى سعت للاختباء،  
ووصلت إلى هذا المنزل الصّغير شبه ميّنة من التعب والألم. أنا كنتُ  
فلاحة، قالت الدجاجة، ومرضعة جيّدة. كلّفني بك وروت لي

مصائبها التي كانت هي تنوء تحت ثقلها فهأت دون أن يتسنى لها الوقت لأن ترشدنا إلى ما يجب أن نفعله بك. ولأنني أحببت طيلة حياتي الثرثرة، لم أستطع الامتناع عن قص هذه الحادثة. وذات يوم، جاءت إلى هنا سيّدة جميلة رويت لها كلّ ما أعرفه. وعلى الفور لمستني بعصاها السحرية فأصبحتُ دجاجة وفقدت القدرة على الكلام. وزاد في بليتي أنّ زوجي كان غائباً في ذلك الحين فلم يعرف شيئاً عن امتساخي. لدى عودته، فُتس عني في كلّ مكان. وأخيراً اعتقد أنّني غرقت، أو أنّ وحوش الغابات التهمتني. وهذه السيّدة نفسها التي أدتني أشدّ الأذى مرّت مجدداً من هنا وأمرته بأن يُسمّيكَ سعدى وأهدته خاتماً فضياً وأصيص قرنفل. ولكن صادف وجودها هنا مجيء خمسة وعشرين جندياً من حراس الملك والدك يبحثون عنك وهم يضمرون لك الشر. عندئذٍ قالت بضع كلمات وجعلتهم يتحولون إلى نبات ملفوف خضراء، ومن بينها تلك التي رميتها مساء أمس من نافذتك. لم أسمعها تتكلّم حتى الآن ولم أكن قادرةً أنا نفسي على الكلام. أجهل كيف استعدنا أصواتنا.

مكثت الأميرة مندهشة من الأخبار العجيبة التي قصتها عليها الدجاجة. كانت لا تزال مفعمة بالطيبة فقالت للدجاجة:

- تثيرين شفقتي كثيراً يا مرضعتي المسكينة لأنك صرت دجاجة. أودّ بقوة أن أعيد إليك هيتك الأولى لو كان ذلك في مُستطاعي. ولكن دعينا لا نياس من شيء. يبدو لي أنّ كلّ الأشياء التي أعلمتني بها للتوّ لا يمكنها أن تظلّ على ما هي عليه. سأبحث عن قرنفلاتي لأنّها الشيء الوحيد الذي أحبه.

ذهب بودو إلى الغابة. لم يتصوّر أنّ سعدى سوف يخطر لها أن تفتش في حصيرته. سرّت لابتعاده عن المنزل، وأمّلت النفس بأنّها

لن تجد ما يعترض طريقها. وإذا بها ترى دفعة واحدة مجموعة كبيرة من الجرذان الهائلة الحجم المسلحة للقتال والمنتظمة كتائب وخلفها الحصيرة الشهيرة وعلى جانبيها الكرسيان. وكان هناك فئران ضخمة عديدة تؤلف جيش الاحتياط ومستعدات للقتال مثل الأمازونات. مكثت سعدى مندهشة ولم تجرؤ على الاقتراب لئلا تنقض الجرذان عليها وتعصفها وتجعلها مضرجة بدمائها.

هتفت:

- هل هذا معقول! هل ستبقى يا قرنfli، يا قرنfli العزيز برفقة معشر السوء هذا؟

وفجأة فطنت إلى أن الماء العطر الموضوع في إناء ذهبي قد تكون له مزايا خاصة. فهرعت لتجلبه. ورشت بعض القطرات على جماعة الفئران وفي اللحظة نفسها لاذت تلك الحثالة بأذيال الفرار لتختبئ في حُجرتها. وسارعت الأميرة لأخذ قرنفلاتها التي كانت على وشك أن تموت لشدة العطش فسكبت كل الماء الذي كان في الإناء الذهبي متنسقة شذاه بكثير من اللذة، وعندئذ سمعت صوتاً عذباً يخرج من بين الأغصان ويقول لها:

- يا سعدى التي لا مثيل لجمالها، ها قد وافى النهار السعيد المنشود لأعبر لك عن مشاعري. ثقي أن قدرة جمالك تؤثر حتى في الأزهار. ارتجفت الأميرة ودُهشت لسماها نبتة الملفوف والقرنفل والدجاجة تتكلم ولرؤيتها جيشاً منتظماً من الجرذان. شحبت وأغمي عليها. في تلك الأثناء وصل بودو: كان العمل والشمس قد ألها رأسه. عندما رأى أن سعدى جاءت لتبحث عن القرنفل ووجدته، جزها حتى الباب ورماها خارجاً. ما إن أحست بنداوة الأرض حتى فتحت عينيها الجميلتين ورأت قزبها ملكة الغابات

السَّاحِرَةَ دوماً والبَدِيعَةَ.

قالت لسعدى:

- لديكِ أُنْحُ سَعَى. رأيتُ بأيةِ قسوةِ طردكِ خارجَ البيتِ. هل تريدِينَ أن أنتَقِمَ لكِ؟

قالت لها:

- لا يا سيّدتي. لستُ قادِرةُ البتّةِ على الغَضَبِ منه. وطبّعه لا يُمكنُهُ أن يغيّرَ طبعي.

أضافت الملكة:

- ولكن حدسي ينبؤني أنّ هذا الفلاحَ الضَّخَمَ ليسَ أخاكِ، فما رأيكِ؟

أجابَت الرَّاعِيَةَ بتواضع:

- جميع المظاهر تؤكّد لي أنّه أخي يا سيّدتي، وَعَلَيَّ تَصْديقُها.

تأبعت الملكة:

- عَجَباً! ألم تسمعيهم يقولون إنّك وُلدتِ أميرةً؟

أجابَت:

- قيلَ لي ذلك منذ بعض الوقت. ومع ذلك أو يمكنني التباهي بشيءٍ لا أملك إثباتاً عليه؟

أضافت الملكة:

- آه يا بُنَيَّتِي العزيزة، كم يعجبني موقفك! أعرف الآن أنّ التَّربِيَةَ الغامِضَةَ التي تلقَّيتها لم تحجب أصلك النّبل. نعم أنت أميرة. ولا تظنّي أنّه كان بمقدوري تجنيبك المشقّات التي كابدتها حتّى هذه السّاعة.

وقاطعَ كلامها وصولُ شابٍّ مراهقٍ إلى ذلك المكان. كان أشدَّ جمالاً من النّهار، يرتدي سترَةً طويلة ممزوجة بالذهب والحريز

الأخضر ومزدانة بأزرار كبيرة من الزمرد والياقوت والألماس. وكان إكليل من القرنفل يتوّج شعره الطويل المنسدل حتى كتفيه. ما إن رأى الملكة حتى سجد على ركبة واحدة أرضاً وحيّاها باحترام. قالت الملكة:

- هذا أنت يا بني! آه يا قرنفل الحبيب! إن الزمن المشؤوم لوقوعك تحت السحر انتهى للتو بفضل نجدة سعدى الجميلة. يا لفرحتي برؤيتك!

واحتضنته بقوة بين ذراعيها ثم التفتت إلى الرّاعية وقالت لها:  
- أيتها الأميرة الفاتنة، أعرف كل ما أخبرتك إياه الدجاجة. لكن ما لا تعرفينه أبداً هو أنّ النسائم التي أوكلت لها أن تضع ابني في مكانك قد حملته إلى حديقة أزهار. وفيها ذهبّت النسائم لتجلب أمك شقيقتي، إذا بجنيّة عارفة بأدهى فنون السحر، وكنت متخاصمة معها منذ وقت طويل وكانت تتحين لحظة ولادة ابني، حولته فوراً إلى زهرة قرنفل. وبالرغم من سعة علمي لم أستطع الحؤول دون هذه المصيبة. وفي الحزن الذي ملك عليّ كياني، استعملت كل فني بحثاً عن حل فلم أجد حلاً أفضل لسلامة الأمير قرنفل من أن أجلبه إلى المكان الذي تربيت فيه، مخمّنة أنّه حين تسقين الأزهار بالماء الطيب الذي كنت احتفظت بها في إناء ذهبي فسوف يتكلم ويحبك ولن يعكّر راحتك شيء في المستقبل. كان معي أيضاً الخاتم الفضي الذي كان يتوجب عليّ أن أتلقاه من يدك، غير غافلة أنّه سيكون العلامة التي سأعرف من خلالها أنّ ساعة زوال قدرة السحر قد اقتربت، وهذا بالرغم من الجرذان والفئران التي جهّزتها عدوّتنا لكي تمنعك من لمس قرنفلاتك. وهكذا يا عزيزتي سعدى، إذا تزوجك ابني وحملت هذا الخاتم، فستتوّج الغبطة الدائمة حياتك. والآن لنر ما إذا

كنتِ تقدِرينَ على محبّة هذا الأميرِ لتتخذيهِ زوجاً لكِ.  
أجابتِ الرّاعية وقد احمرّ خدّاها:

- سيّدتي، غمّرتني بفضلك. أعرف أنّكِ خالتي، وأنّه بفضلِ معرفتكِ حولتِ الحراسَ المرسلينَ لقتلي إلى نباتٍ ملفوفٍ ومُرصّعتي إلى دجاجة. وأعرف أنّ اقتراحكِ عليّ الزّواجِ بالأميرِ قرنفل هو أكبرُ شرفٍ أستطيع نيله. ولكن هل أقدر أن أحدثك عن ظنوني؟ لا أعرف مشاعره ناحيتي لكنني بدأت أشعر لأول مرّة في حياتي أنّي لا أستطيع أن أكون سعيدة إذا لم يحبّني.  
قال لها الأمير:

- دعي الشكوكَ جانباً أيّتها الأميرة الجميلة. منذ زمنٍ طويلٍ اعتملت في المشاعر التي ترغيبين في إثارتها الآن، ولو كنتِ قادراً على التطق لكنتِ سمعتِ كلّ يوم كلاماً أسرّ به عن الشغفِ الذي يكويني بناره، وأيّ كلام؟ لكنني أمير تعيس كلّ ما ينشده هو أن تعيريه اهتمامك.

ثمّ قال لها هذه الأبيات:

عندما سُحرْتُ وحوّلْتُ إلى زهرةِ قرنفلٍ  
أولّيتني رعايتكِ الرّقيقة واهتمامك  
كنتِ تأتينَ أحياناً لتتأملي بإعجابِ  
الشكلِ الغريبِ لأزهارِي اللامعة.

لأجلكِ كنتُ أشيعُ أريجي أعذبه  
وأظهرُ لعينيكِ جمالاً جديداً  
وعندما أبعدتِ عنكِ



أصابني يأسٌ قاتل  
صرتُ سقيماً  
أحيا في الانتظار المؤلم  
أنتظر خفيةً أن تأتي الفتاة فاتتني.

كنتِ المواسيةً لآلامي  
بيدك الجميلة  
رويتِ نُسغي بهاءِ نقبي  
وأحياناً كانَ فمكِ الفاتن  
يطبع قبلاًتي على أوراقِي، واحسرتاه!، مليئةً بالحلاوة.

ولكي أتمتع بسعادتي بشكل أفضل  
وأبرهنَ لكِ عن حبي وامتِناني  
كنتُ أتمنى، في لحظةٍ أذوبُ لرقتها  
أن تُزيل عني قدرةً ساحر  
هذه اللعنة الحزينة  
واستجيبتُ أميني، ها إنِّي أراكِ وأحبكِ  
وأستطيعُ أن أبوحَ لكِ بعذابي  
ولكن ويا لسقائي لقد تبدلتِ  
فأيّ أمنيّةٍ تمنيّتِ أيتها السماوات العادلة وماذا فعلتُ!

بدتِ الأميرة مسرورة جداً لتودد الأمير ومغازلته الرقيقة. أمنت كثيراً على هذا الشعر المرتجل، ومع أنّها لم تكن معتادة على سماع الشعر، فقد أطرث عليه كمن يتمتع بذوقٍ رفيع. أما الملكة، التي عيل

صبرها ولم تعد تتحمّلها في ثياب الرّاعيّة، فلمسّها بعصاها لتزيّنها بأجمل الثّياب. وللحال تحوّل الخاتم الأبيض إلى ثوب من ديباج فضيٍّ مزدان بالعقيق الأحمر؛ ومن تشرّحتها العالية انسَدَل وشاخَّ طويلٌ شفافٌ ممزوجٌ بالذهب؛ وازدان شعرها الأسود بألف ألماسة؛ واتّخذت بشرتها ذات البياض الباهر ألواناً مفعمة بالحياة لدرجة أنّ الأمير لم يستطع احتمال بريقها الساطع.

هتف الأمير متنهّداً:

- ياه! كم أنت جميلة وفاتنة! ألن ترحميني من العذاب؟

قالت الملكة:

- لا يا بنيّ، لن تقدر قريبك أن تتجاهل حرارة توسّلاتنا.

وصادف ذلك مرور بودو الرّاجع من عمّله فرأى سعدى في جمالها البديع. لم يصدّق ما ترى عيناه. نادته بكثيرٍ من الطّيبة وتوسّلت إلى الملكة لكي تشفق عليه.

قالت الملكة:

- عجباً! بعد كلّ المعاملة السيئة التي كبّدك إيّاها!

فأجابت الأميرة:

- أنا غير قادرة يا سيّدتي على الانتقام!

قبّلتها الملكة وامتدّحت شهامة مشاعرها.

وأضافت:

- ولكي أرضيك سأعنتي ببودو الجاحد.

وللحال أصبح كوخه قُصراً مفروشاً بالأثاث ومليئاً بالمال. لكنّ الكرستين لم يتغيّر شكلها ولا الحصيرة، وذلك لتذكيره دوماً بماضيه. لكنّ ملكة الغابات طهرت روحه من أدرانها وهذبت أخلاقه وحسنت شكله. وعندئذ بات بودو قادراً على الشعور بالامتنان. وما

الذي لم يقله للملكة والأميرة لكي يعبرَ لهما عن امتنانه بهذه المناسبة؟ ثم، وبضربة من عصاها السحرية، أصبحت نباتُ الملفوف رجلاً والدجاجة امرأة. وحده الأمير قرنفل كان مستاءً وكان يتأوه عشقاً بالقرب من أميرته ويستخلفها أن تأخذ قراراً لصالحه: وأخيراً وافقت على طلبه. ولم تَر في حياتها من هو أجدر بالحب من ذلك الأمير الشاب. سرت ملكة الغابات لذلك القران الذي كان وشيكاً ولم تهمل شيئاً ليكون زفافاً محاطاً بكل مظاهر الأبهة. ودام الاحتفال سنوات عدة ودامت السعادة بين ذينك الزوجين الرقيقين دوام حياتهما.

ليس لأية جنية فضل في ذلك:  
 نعرف والدي الأميرة اللطيفة سعدى،  
 ونعرف الفضائل السامية التي كانت تزيئها  
 وهي أعظم بكثير من الدم النبيل الذي يجري في عروقها.  
 الاستحقاق وحده والفضيلة وحدها

هما النبيل الحقيقي.  
 وأنت أيها المتشعخع بالنبيل  
 فيما لا تظهر إلا غروراً وضعفاً  
 خذ مني هذه العبرة:  
 عبثاً تنباهي باسمك النبيل وعائلتك الأصيلة  
 عبثاً ترقل بالأرجوان اللامع البراق  
 التبييل النبيل هو الفاضل مهما كان أصله وضيعاً.  
 ووحده الجدير باللقب  
 لكن أمجادك ومظاهرك البراقة  
 أتى لها أن تجعلك نبيلاً؟



# لَعِينَة

كان يا ما كان، كان هناك ملكة لا ينقصها شيء لتكتمل سعادتها سوى أن تنجب ولداً. كان هذا محورَ أحاديثها كله، وكانت تقول باستمرارٍ إنَّ الجنيّة بهارج<sup>(1)</sup> (هذا هو اسمها) جاءت عند ولادتها، وكانت مستاءة من الملكة والدتها فغضبت عليها ولم تمنن لها إلاّ الأحزان.

وذات يوم، وفيما كانت تجلس حزينة في ركن أمام النار، رأت عجوزاً صغيرة بحجم اليد تنزل عبر المدخنة، وكانت تمتطي ثلاثة أعواد من القصب وتحمل على رأسها عُصناً من الزعرور البرّي<sup>(2)</sup>. كان ثوبها مصنوعاً من أجنحة الذباب وحذاءها من قشري جوز. شرعت تنزّه في فضاء الغرفة وبعد أن دارت ثلاث مرّات، توقفت أمام الملكة وقالت لها:

- منذ زمن طويل وأنتِ تتكلمين بالسوء عني، وتتهميني بما ألمّ بك من أحزانٍ وتحمليني مسؤولية كل ما يحدث لك. أو تظنين يا سيّدتي أنني السبب في أنك لم تنجبي أطفالاً؟ لذا جئت أبشرك بولادة ابنة لك لكنني أخشى أن تتسبب لك بأشجان كثيرة.  
هتفت الملكة:

(1) جمع «بهرجة»، وهو معنى اسم الجنيّة الأصلي: فانفرلوش Franfreluche، يُشار به إلى الحلي الرخيصة والبهرجة الزائفة واللّمعان الكاذب.

(2) زهرة الزعرور البرّي من الأزهار الشائكة، ولذا يدعوها الفرنسيون أيضاً «الشوكة البيضاء»، كما تسمّيها الكاتبة في بعض المواضع «زهرة الشوك». وقد حافظنا في ما يلي على هذه التسمية الأخيرة لما في تاج الأشواك هذا من دلالة مأسوية تكثف آلام لعينة في الشطر الأول من حياتها.

- أرجوك أيتها التبيلة بهارج، لا تحرميني شفقتك وعونك. أعدك بأن أوّدي لك كلّ الخدمات التي أقدرُ عليها، شرط أن تكون الأميرة التي تعديني بها تعزيتي وليس شقائي.

أجابت الجنيّة:

- القدر أقوى مني. كلّ ما أقدر عليه تعبيراً منّي عن مودّتي هو أن أعطيك زهرة الشوك هذه. علّقها إلى رأس ابتك ما إن تولد فهي تحميها من أخطار عدّة.

أعطتها زهرة الشوك واختفت مثل البرق.

بقيت الملكة حزينةً سارحةً في أفكارها.

قالت:

- وأيّ أمنيّة هذه؟ ابنة ستسبّب لي بالدموع والحسرات! ألن أكون أكثر سعادةً إذا لم أنجبها؟

بدد حضور الملك الذي كانت تحبه كثيراً بعضاً من أحزانها. جلست الملكة، وكان كلّ همّها أثناء حبلها أن تذكر وصفاتها بأن تعلق زهرة الشوك تلك إلى رأس الأميرة عند ولادتها وكانت تحتفظ بها في علبة ذهبية مرصعة بالألماس، وكأثما أئمن ما لديها في العالم.

وأخيراً أنجبت الملكة أجمل مخلوقة وجدت حتى اليوم. وسارعت الوصيفات وشبكن إلى رأسها زهرة الشوك. وفي اللحظة ذاتها، ويا للهول!، تحوّلت إلى قرودة صغيرة وراحت تقفز وتهزول وتنطنط في الغرفة كأيّة قرودة أخرى. وعندما رأت السيدات هذا الامتساخ أطلقن صرخات مرعبة. أما الملكة التي أصابها هلع لا مثيل له فكادت تموتُ يأساً. صرخت بهنّ أن يترزغن الباقّة التي تحيط بأذنها. وشقّ عليهنّ كثيراً الإمساك بالقرودة ليترزغن عنها الأزهار المشوومة ولكن عبثاً. كانت قرودة، قرودة حقيقية، تأنف الرضاعة ولا تتصرف

كالأطفال، غيرَ رَاعِيَةٍ إِلَّا فِي التَّهَامِ الْجُوزِ وَالكَسْتَاءِ.

هتفت الملكة بصوتٍ يَشِي بِأَلْمِهَا وَعَذَابِهَا:

- أَيُّهَا المَتَوَحِّشَةُ بِهَارِجٍ! مَاذَا فَعَلْتُ لِكِ لِكِي تَعَامِلِينِي بِهَذِهِ القِسْوَةِ؟ مَاذَا سَيَصِيرُ بِحَالِي؟ أَيُّ عَارٍ جَلَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي! سَيُظَنَّ أَفْرَادُ رِعْيَتِي أَنَّنِي أُنْجَبْتُ مَسْخَاً. وَمَاذَا سَيَقُولُ المَلِكُ عِنْدَمَا يَرِي هَذِهِ الطِّفْلَةَ، أَيُّ رُغْبٍ سَيَعْتَرِيهِ!

وَأَخَذَتْ تَبْكِي وَتَتَوَسَّلُ إِلَى النِّسْوَةِ طَالِبَةً نَصَحَهِنَّ: مَاذَا بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَفْعَلَ إِزَاءَ هَذِهِ الكَارِثَةِ الطَّارِئَةِ!  
قَالَتْ الأَكْبَرُ سَنَاءً بَيْنَ الوَصِيفَاتِ:

- سَيَدَتِي، يَجِبُ إِقْنَاعُ المَلِكِ أَنَّ الأَمِيرَةَ تَوَقَّيْتُ عِنْدَ وِلَادَتِهَا. أَمَّا هَذِهِ القَرْدَةُ فَيَجِبُ وَضْعُهَا فِي عِلْبَةٍ وَرَمِيْهَا فِي قَعْرِ البَحْرِ. لِأَنَّ إِحْتِفَاطِكِ بِبَهِيمَةٍ مِثْلِهَا لَوْقْتُ أَطْوَلَ أَمْرٍ مُرْعَبٍ.  
صَعَبَ عَلَى المَلِكَةِ أَنْ تُقَرَّرَ عَلَى قَرَارِ. ثُمَّ قِيلَ لَهَا إِنَّ المَلِكَ آتٍ لَزِيَارَتِهَا فِي غُرْفَتِهَا فَمَكَثَتْ فِي تَشَوُّشٍ وَاضْطِرَابٍ شَدِيدَيْنِ، وَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَرْسِلَ فِي التَّفْكِيرِ أَكْثَرَ، قَالَتْ لَوَصِيفَتِهَا أَنْ تَفْعَلَ بِالقَرْدَةِ مَا تَشَاءُ.

أُخِذَتْ إِلَى جَنَاحٍ آخَرَ وَوُضِعَتْ فِي عِلْبَةٍ وَأَمَرَ خَادِمٌ غُرْفَةَ المَلِكَةِ بِرَمِيْهَا فِي البَحْرِ فَانْطَلَقَ فِي الحَالِ. وَهَذَا إِذَا خَطَرَ جَانِباً يُجَدِّقُ بِالأَمِيرَةِ، فَالْخَادِمِ وَجَدَ العِلْبَةَ جَمِيلَةً وَأَرَادَ الإِحْتِفَاطَ بِهَا. جَلَسَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ وَسَحَبَ القَرْدَةَ مِنَ العِلْبَةِ مَصْمُوماً عَلَى قَتْلِهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّهَا أَمِيرَتُهُ. وَعِنْدَمَا أَمْسَكَ بِهَا، فَوَجَّىءَ بِسَمَاعِ جَلْبَةِ كَبِيرَةٍ. التَّمَّتْ فَرَأَى عَرَبَةً مَكْشُوفَةً تَجْرُهَا سِتَّةٌ مِنْ أَحَادِيثِ القَرْنِ<sup>(1)</sup>، مَلْتَمِعَةً بِالدَّهَبِ وَالأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ وَبِتَقَدُّمِهَا جُنُودَ مُحَارِبُونَ. وَبَانَتْ فِيهَا مَلِكَةٌ

(1) أَحَادِيثُ القَرْنِ حَيَوانٌ خِرَافِيٌّ لَهُ جِسمُ فَرَسٍ وَرَأْسُ تَيْسٍ، بِقَرْنٍ وَاحِدٍ يَتَوَسَّطُ رَأْسَهُ.

متوّجَة في معطِفِها الملكيّ جالسةً على أرائكٍ ذهبيّةٍ مربّعةٍ تحتضنُ  
ابنَها البالغَ أربعَ سنواتٍ.

عرفَ الخادِمُ تلكَ الملكةَ لأنّها كانت شقيقةً سيّدة. وكانت  
قد أتت لتَهتِتها بالمولودِ الجديد. لكنّها ما إن عَلِمَت بوفاةِ الأميرةِ  
الصغيرةِ حتّى تملكها حزناً شديداً وانطلقت عائداً إلى مملكتها. كانت  
مسترسلةً في حلم عميقٍ عندما صرخَ بها ابنها:  
- أريد القردة. أريد الحصولَ عليها.

التفتت الملكة فأبصرت أجملَ قردةٍ رأتها حتّى ذلك اليوم. سعى  
الخادِمُ لإيجادِ وسيلةٍ للهَرَبِ فَمَنَعَتْهُ من ذلك وأمرت بأن يُمنَحوهُ  
مبلغاً من المالِ كبيراً. وبما أنّها وجدّت القردة ناعمةً وظريفةً كلعبه  
صغيرةٍ فقد أسَمَتها لُعيبة. وهكذا، بالرّغم من قساوةِ قدرها، وقعت  
الأميرة بين يدي الملكة، خالتها.

وعند الوصولِ إلى الملكة، توّسل الأمير الصغير إلى والدته أن  
تغطيه القردة لُعيبة ليلعبَ معها. أرادَ إلباسها كأميرة. خيبت لها  
كلّ يومٍ أثوابَ جديدةٍ وعلموها أن تمشي فقط على قدميها. لم يكن  
ممكناً العثور على قردةٍ أجملَ وأظرفَ منها: وجهها الصغير أسود مثل  
السَّبَج<sup>(1)</sup>، ولها لحية صغيرة بيضاء وخصلات وردية عند الأذنين؛  
وقوائمها منمنمة مثل أجنحة فراشة. كانت عيناها مفعمتين بالحويّة  
وتشيانٍ بكاءٍ كبيرٍ فلا يتفاجأ المرء لدى رؤيته ما هي قادرة على فعله.  
كانَ الأميرُ يحبّها كثيراً ويداعبها دونَ توقّفٍ ويحترس جدّاً كي لا  
تعضّه. وعندما يبكي، تبكي أيضاً. مرّت أربع سنواتٍ على وجودها  
عند الملكة عندما بدأت تُتأتى وكأَنَّها طفل يريد أن يقول شيئاً. تفاجأ  
الجميع من ذلك وشدّ ما كانت دهشتهم عظيمةً عندما بدأت فيها

(1) السَّبَج: حُرز أسود.



بعد تتحدّث بصوتٍ عذبٍ جليّ، وكانت كلّ كلمةٍ تنطقُ بها واضحةً مفهومةً. يا للعجب! قرّدة ناطقة! قرّدة مفكّرة! أرادت الملكة أن تحصل عليها من جديدٍ لكي تتسلّى. واقتيدت إلى جناح الملكة رغم حُسرة الأمير الكبيرة. انهارت دموعه قليلاً فسارَعوا إلى مواساته بمنحه كلاباً وهررة وعصافيرٍ وسناجبٍ وحتى حصاناً صغيراً يُدعى كريكْتان كان يرقص رقصة السّرْبندة. لكنّ كلّ ذلك لا يساوي كلمة واحدة تنطقُ بها لعيبة.

أما لعيبة فسُحرت من جهتها بأنّها مكرّمة على القيام بأشياء أكثر صعوبةً ممّا كانت تفعل عند الأمير. توجب عليها أن تحبب وكأَنَّها عالمة على مائة سؤالٍ شائكٍ ويتطلّب ذكاءً، وأحياناً تعجز عن الإجابة عليها. وما إن يقدّ سفيرٌ أو مبعوثٌ أجنبيٌّ إلى المملكة حتّى يتمّ إبرازها في ثوبٍ ضيقٍ من المخمل أو الديباج مزدانٍ بياقة. وإذا كان القصر في حداد، كانت تجرّ خلفها معطفاً طويلاً أسود تنوء تحت ثقله. ولم يعد لديها الحرية في أن تأكل طعاماً على ذوقها. يصف لها الطيب ما يتوجب عليها أكله وهذا لا يعجبها لأنّها قرّدة وُلدت أميرةً.

وزوّدتها الملكة بمعلّمين أخضعوا فكرها لتمارين كثيرة. كانت ممتازة في العزف على البيان. وصنعوا لها بياناً رائعاً من أصداف المحار. وأتى رسامون من سائر أقطار الدنيا وخصوصاً من إيطاليا ليُرسموها. وطارت شهرتها من قُطرٍ إلى قُطرٍ لأنّه لم يسبق لأحدٍ أن رأى قرّدة تتكلّم.

كان الأمير جيلاً كرسوم ملائكة الحب، ظريفاً وذكياً إلى حدّ الإعجاز. كان يأتي لرؤية لعيبة ويتسلّى معها أحياناً ويسترسِلان في أحاديث مفعمة بالمزاح والفكاهة وأحياناً تصبح جدية وعميقة. كان

للعبيبة قلب، وذلك القلب لم يتغير مع تحوّل هيئتها الصغيرة. فتعلقت بالأمر وتمادى الأمر في التعلق بها بدوره. حارت لعبيبة التعيسة الحظّ في ما عليها فعله. كانت تقضي الليالي في أعلى مصراع الشباك أو في زاوية من المدفأة وترفض الاندساس في سلّتها المبطّنة بالريش، النظيفة، الناعمة. كانت مربيّها (إذ كان لديها مربيّة) تسمعها دوماً تتنهد حيناً وتشكو أحياناً. تنامت كآبتها مثل عقلها، ولم تنظر يوماً إلى مرآة من دون أن تعمل على كسرها غيظاً واستياءً. هكذا بحيث شاع أن يُقال بخصوصها: «بما أنّ القرد يظلّ قزداً، فلن تعرف لعبيبة كيف تتخلّص من المكر الملائم بصورة طبيعيّة لأبناء جنسها».

كبر الأمر وكان يهوى الصيد والرّقص والمسرحيات الفكاهية والأسلحة والكتب، ولم يعدّ يكثرث بأمر القردة. أمّا من ناحيته فقد أخذت الأمور تتخذ منحىً آخر. كانت القردة تحبه في سنّ الثانية عشرة أكثر ممّا أحبّته عندما كان في السادسة، وتلومّه على تجاهله لها. أمّا هو فكان يظنّ أنّه يؤدّي واجبه حيالها إذا ما أعطاها تفاحة صغيرة أو حبات كستناء مغلّفة بالسكر. وأخيراً ذاع صيت لعبيبة في مملكة القرود. فرغب شديد<sup>(1)</sup>، ملك القرود، في الاقتران بها، وتنفيذاً لهذه الخطة، أرسل وفداً مهيباً ليطلب يدها من الملكة. لم يصعب عليه أن يُفصّح عن نواياه إلى رئيس الوزراء. لكنّ الأمر كان سيّصِفُ بمسقة لا حدود لها لولا نجدة البيغاوات وعصافير الكندش، التي تدعوها العائمة عقاقق تذكيراً بكونها طيوراً ثرثارة. وبالفعل كانت تعقق وتثرثر كثيراً، حتّى إنّ عصافير أبي زريق التي تتبع الموكب ستستاء لو أنّها قوأت أقلّ منها.

وترأس الوفد قردٌ ضخّم يدعى ميرليفيس: أمر بصنع عربّة من

(1) استخدمت المؤلف هنا الاسم magot وهو قرد المغرب، واسمه لدى العرب هو «شديم».

المقوى رُسِمَت عليها الغراميات الشهيرة في امبراطورية القروود بين الملك شديد ومونيت<sup>(1)</sup> القرودة التي قضت دون رحمة بين محالب قط متوحش قلما كان معتاداً على حيلها. ورُسِمَت أيضاً الحلويات التي تذوقها شديد ومونيت خلال زواجهما، والحزن الشديد الذي اعترى الملك لدى وفاتها وبأية لوعة بكأها. كانت ست أرانب بيضاء من نوع ممتاز تجرّ تلك العربة التي سميت على سبيل التكريم، «عربة الموكب الملكي». وتبعتها عربة من القش مطلية بألوان عدّة وفيها القرودات المكرّسات لخدمة لُعيبة. يجدرُ بكم أن تشاهدوا أزياءهُنَّ وهندامهُنَّ: لقد بدوّنَ وكأتهنَّ آياتٌ إلى عرس. وكان سائرُ الموكبِ مؤلفاً من الكلاب الإسبانية والجراء السلوقية والقطط الإسبانية وجرذان موسكو وبعض القنافذ وبنات عرس الظريفة والشعالب التهمة. كان بعضهم يقود العربات وبعضهم الآخر يحمل الأمتعة، وعلى رأسهم ميرليفيس الأشدّ وقاراً من حاكم روماني والأكثر حكمة من كاتون<sup>(2)</sup>، مُعتلياً خرنقاً<sup>(3)</sup> يعدو به بأسرع من الخيل الإنجليزية.

لم تكن الملكة تعرف شيئاً عن ذلك الوفد الرائع عندما وصل بجوار قصرها. تناهت إليها قهقهات الشعب والحراس وأزغمتها على الإطلال برأسها من النافذة فرأت أعجب موكب تشاهده في حياتها. وللحال، تقدّم ميرليفيس الذي كان يواكبه عددٌ ملحوظٌ من القروود إلى عربة القرودات. بسط قائمته باتجاه القرودة الضخمة التي تُدعى جيغونيا، أي «أم الأولاد»، وأنزلها من العربة ثم أفلت البيغاء الصغيرة مترجمته. انتظر حتى يمثّل الطائر الجميل أمام الملكة ويسأها

(1) الاسم «مونيت» Monette تصغير «مون» mone، وهو اسم قرودة أفريقية.

(2) كاتب وسياسي روماني توفي في 149 قبل الميلاد.

(3) الخرنق هو صغير الأرنب البرية.

الموافقة على مقابلته. حلقت الببغاء برفق في الهواء ثم جاءت لتُحط إلى التافذة حيث كانت الملكة تنظر إليها. قالت لها بصوتٍ لا مثيلَ لجمالها:

- سيدي، إن سيدي الكونت ميرليفيش، وهو موفدٍ شديد الشهير، ملك القروء، يسألك أن تستقبله لأنه يريد أن يحدثك في مسألةٍ في غاية الأهمية.

قالت لها الملكة وهي تداعبها:

- أيتها الببغاء الجميلة، ابدي أولاً بتناول رفاقةٍ حمّصةٍ واشربي شيئاً. بعدئذ أوافق على أن تذهبي لتقولي للكونت ميرليفيش أنني أرحب به في مملكتي، هو وكل من يرافقه. إذا كان السفر من مملكة القردة حتى هنا لم يتعبه، فبإمكانه الدخول الآن إلى قاعة الاجتماعات حيث سأنتظره على عرشي مع حاشيتي كلها.

وعلى هذه الكلمات، خفضت الببغاء قائمتها مرتين وشفقت بجناحيها وأنشدت لحناً قصيراً تعبيراً عن فرحتها. ثم عاودت طيرانها وخطت على كتف ميرليفيش وهمست في أذنه الجواب المواتي الذي تلقته للتو. فتأثرت لذلك ثم، عن طريق مارغو العقق الذي نصب نفسه مترجماً مُساعداً، سأل أحد ضباط الملكة إذا كان في الإمكان إعارته غرفة ليرتاح فيها لبعض الوقت. وعلى الفور فتحت غرفة استقبال مرصوفة بالرخام المذهب المزدان بالرسوم، وكانت الأكثر نظافة في القصر. دخل إليها مع قسم من حاشيته. لكن، بما أن القروء كائنات فضولية متطفلة فقد ذهبت للتقريب في إحدى الزوايا حيث وضعت مرطابانات مرتبي كثيرة فالتهمتها بشراهة. وأمسك أحدها بقصعة من البلور مليئة بالشمس وآخر بقئينة شراب. ثم أمسك ذاك ببطائر محسوة وآخر بحلوى اللوزية. أما جماعة الطير التي كانت في

الموكب فكانت مستاءة من رؤية وليمة ليس فيها بذور قنب ولا ذرة بيضاء. وطار أبو زريق، وهو ثرثارٌ كبيرٌ بطبيعته، إلى صالة الاجتماع واقترَبَ بإجلالٍ من الملكة وقال لها:

- سيدي، أنا خادم جلالتك. وهذه الصفة لا أستطيع أن أكون شاهد زور على الضرر الذي ألحق بمُربياتك. إن الكونت ميرليفش أكلَ منها ثلاثَ علب من جهته: وها هو يلتهم الرابعة دون أي احترام لجلالتك الملكية. شعرتُ عندئذٍ بغصةٍ في القلبِ وجئتُ أعلمك بما يجري.

قالت الملكة مبتسمة:

- أشكرك يا أبا زريق الصغير يا صديقي. لكنني أعفيك من أمر الاهتمام الورع بمرباناتِ المرَبّي خاصتي. أنخلي عنها إكراماً للعبية التي أحبها من كل قلبي.

خجل أبو زريق من العصيان الذي أظهره للتو وانسحب دون أن ينس بكلمة.

وبعد بضع لحظات، شوهد الموقد يدخل مع حاشيته. لم يكن مرتدياً على الموضة تماماً لأنه، منذ عودة فاغوتان، قرد المشعبد الذي لمع كثيراً في المهرجانات الشعبية، لم يأت إليهم أي طراز جيد. كانت قبعته المقرنة مزينة بباقة من الرياش الخضراء، وكان متمنطقاً بحمالة سيوف من الورق الأزرق المرصع بنثار من الذهب براق، ومرتدياً جوارب نصفية سميكة وحاملاً عصا.

وإذ كانت البيغاء تجيد فن الشعر فقد حضرت خطبة منظومة جادة للغاية وتقدمت إلى أسفل العرش حيث تجلس الملكة. توجهت إلى لعيبة وقالت:

سَيِّدَتِي، مَنْ الْحَبِّ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ شَدِيدِمْ أَوَارُهُ  
لِكَ أَنْ تَعْرِفِي سِحْرَ عَيْنَيْكَ وَسُلْطَانَهُمَا.  
هَذِهِ الْقِرْدَةُ وَالْهَرَرَةُ، هَذَا الْمُؤَكَّبُ الْفَخْمُ  
هَذِهِ الْعَصَافِيرُ، كُلُّ شَيْءٍ هُنَا يَتَكَلَّمُ عَنْ نَارِ حُبِّهِ،  
عِنْدَمَا وَقَعْتَ مَوْنِيَّتَ (وَهَذَا هُوَ اسْمُ قِرْدَتِهِ الْغَالِيَةِ)  
بَيْنَ بَرَاثِنِ قِطِّ مَتَوَحَّشٍ مَسْعُورٍ،  
سَيِّدَتِي، لَا يُمْكِنُنِي إِلَّا أَنْ أَقَارِنَهَا بِكَ  
عِنْدَمَا اخْتَطَفَهَا الْمَوْتُ مِنْ شَدِيدِمْ، زَوْجَهَا،  
أَقْسَمَ الْمَلِكُ مِائَةَ مَرَّةٍ بِرُوحِ مَوْتَاهُ أَنْ  
يُعَاهِدَهَا عَلَى الْوَفَاءِ وَالْحُبِّ الْأَبَدِيِّ.  
سَيِّدَتِي، إِنَّ سِحْرَكَ طَرَدَ مِنْ قَلْبِهِ  
الذِّكْرَى الرَّقِيقَةَ لِحُبِّهِ الْأَوَّلِ.  
وَهُوَ لَا يَفْكَرُ إِلَّا بِكَ. لَوْ كُنْتَ تَعْرِفِينَ سَيِّدَتِي  
مِقْدَارَ حُبِّهِ لَكَ، إِنَّهُ بِلَا حُدُودٍ  
لَا شَكَّ أَنْ قَلْبَكَ الْمَطْبُوعَ عَلَى الْإِشْفَاقِ  
سَيُخَفِّفُ مِنْ آلامِهِ وَيَحْمِلُ عَنْهُ نِصْفَ الْحَبِّ.  
كَانَ فِيهَا مَضَى ضَخْمًا سَمِينًا يَقِظًا رَشِيقًا  
وَمَا قَدْ أَضْحَى الْيَوْمَ قَلِقًا شَاحِبًا شَدِيدَ النَّحُولِ  
لَكَانَ هُمَا أَبَدِيًّا يَتَاكَلُهُ،  
سَيِّدَتِي، لَكُمْ يَشْعُرُ بِالْحُبِّ يَأْسُرُ كِيَانَهُ!  
الزَّيْتُونُ وَالْجُوزُ اللَّذَانِ كَانَ يَأْكُلُهُمَا بَيْنَهُمْ  
لَمْ يَعُودَا بِالنَّسَبَةِ لَهُ إِلَّا طَعَامًا غَنًّا  
إِنَّهُ مُجْتَضِرٌ، وَإِلَيْكَ وَحَدِّكَ نَلْتَجِي  
أَنْتِ وَحَدِّكَ بِإِمْكَانِكَ إِنْقَاذُهُ مِنَ الْمَوْتِ

لن أخبرك أبداً عن المزايا الساحرة  
لشواطئنا البهجة  
هناك حيث التين والعنب غلالهما وافرة  
هناك حيث الثمار الأشهى تفيض في كل المواسم.

ما كادت البغاء تنهي خطبتها حتى التفتت الملكة إلى لعيبة التي  
ظلت من ناحيتها مذهولة صامتة في حال لا عهد لها بها. أرادت  
الملكة أن تعرف شعورها قبل أن تعطي كلمتها. قالت للبيغاء أن تبلغ  
السيد الرسول أنها من ناحيتها ستوازر ما ينشده ملك القروء. وبعد  
أن انتهى الاجتماع، انسحبت إلى ديوانها وتبعتها الملكة، قالت لها:  
- يا قريدي، أفر بأني سأتحسر كثيراً من جرأ بعدك عني لكن  
ما من سبيل لرد طلب شديد الذي يريدك زوجة له لأنني لم أنس  
بعد الحملة التي جهزها والده وقوامها مائتا ألف قرد لمساندة حرب  
كبيرة كانت تثن ضد والدي. والتهموا حينها عدداً كبيراً من رعايانا  
ما أجبرنا على عقد سلام مهين معهم.  
أجابت لعيبة بنفاد صبر:

- هذا يعني يا سيدي أنك صممت على التضحية بي لهذا المسخ  
اللعين تجنباً لغضبه. لكن أرجو جلالتك أن تمهليني على الأقل بضعة  
أيام لأتخذ قرارى الأخير.  
قالت الملكة:

- هذا عين الصواب. ولكن إن أردت أن أصدقك القول، فأنا  
أعتقد أن عليك أن تتخذي قرارك سريعاً. خذي بعين الاعتبار المراسم  
الاحتفالية التي يعدونها لك وفخامة البعثة الموفدة والوصيفات  
المرسلات. أنا متأكدة من أن شديد لم يفعل لمونيت ما يفعله لك.

أجابت لُعيبة الصَّغيرة بنبرةٍ ازدراء:  
 - لا أعرفُ ما الذي فعله لمونيت لكنني أعرفُ جيداً أنّ المشاعرَ  
 التي يَكُنُّها لي لا تُؤثِّرُ بي كثيراً.  
 وللحال نهضتْ وانحنتْ بجلالِ أمّامِ الملكة. ثم ذهبَت لِتَبْحَثَ  
 عن الأمير وتشكو له حالها. ما إن رآها حتّى هتَفَ:  
 - حسنًا يا لُعيبي، متى سنَرُقُصُ في عُرْسِك؟  
 قالت له بحزن:

- لا أعرفُ يا سيّدي. لكنّ الحال التي أنا فيها مثيرَةٌ للشَّفقةِ وما  
 عدتُ أستطيعُ أن أكنمَكَ سرِّي مع أنّ ذلك يسيءُ إلى كرامتي. عليّ  
 الاعترافُ أنّك الوحيدُ الذي أستطيعُ أن أتمناه زوجاً لي.  
 قال الأميرُ مقهقهاً:

- زوجاً لك! زوجاً يا قرّدي! أنا مسحورٌ بما تقولينه لكنني أمّلُ مع  
 ذلك أن تعذريني إذا لم أقبلُ بأن أكونَ شريكَ حياتك لأننا من طينةٍ  
 مختلفَةٍ فلا القوامُ متشابهة ولا المظهرُ ولا التصرفُ.  
 قالت:

- أوافقُ على ما تقوله لا سيّما وأنّ قلبينا ليسا متشابهين. فأنت  
 جاحِد. منذ وقتٍ طويلٍ وأنا ألاحظُ ذلك. وإنّه لأمرٌ مستغرَبٌ أن  
 أقدرَ على حبِّ أميرٍ قلما يستحقُّ ذلك.  
 قال:

- ولكن يا لُعيبي، فكّري في المشقة التي سأجدها لدى رؤيتك  
 جاثمةً على أعلى شجرةٍ جَميزٍ وأنتِ تتعلّقين بطرفِ ذيلك إلى أحد  
 فروعها: صدّقيني، لنأخذ المسألةَ على سبيلِ الهزلِ وهذا لصالحك  
 وصالحِي. تزوّجي ملكَ القروودِ شديماً. وباسمِ الصداقةِ الطيبة التي  
 تجمَعُنا، ابعثي لي بأولِ قرّيدٍ من نسلِكما.



فَعَقِبَتْ لُعَيْبَةَ:

- أَنْتَ مَحْظُوظٌ لِكُونِي لَا أَتَحَلَّى تَمَاماً بِعَقْلِ قَرْدَةَ لِأَنَّ وَاحِدَةً غَيْرِي  
كَانَتْ فَقَاتَ عَيْنِيكَ وَعَضَّتْ أَنْفَكَ وَاقْتَلَعَتْ أُذُنِيكَ، لَكِنِّي أَدْعُ  
لِلْأَيَّامِ أَنْ تَحْمِلَكَ عَلَى التَّفَكِيرِ بِشَأْنِ تَصَرَّفِكَ الْمُهِينِ.  
وَلَمْ تَسْتَطِعْ مُتَابَعَةَ كَلَامِهَا. جَاءَتْ مَرَّيْتَهَا لِلْبَحْثِ عَنْهَا فَالرَّسُولُ  
مِيرَلَيْفِيشِ ذَهَبَ إِلَى جَنَاحِهَا وَفِي حَوْزَتِهِ هَدَايَا بَدِيعَةٍ.

كَانَ هُنَاكَ بَيْتٌ عَنكَبُوتٍ مَطْرُزٌ بِرَاعَاتِ حَقُولٍ، وَقَشْرَةٌ بَيْضَةٌ  
تَحْوِي عَلَى الْأَمْشَاطِ، وَكَبَّةٌ خِيُوطٌ فِي شَكْلِ حَبَّةِ كَرَزٍ بِحَمْرَاءَ، وَكَلٌّ  
الْثِيَابِ الدَّاخِلِيَّةِ كَانَتْ مُزْدَانَةٌ بِدَانْتِيلاً مِنْ وَرَقٍ: وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضاً  
فِي سَلَّةٍ أَصْدَافٌ عَدَّةٌ مُتَلَاثِمَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا، بَعْضُهَا يُسْتَعْمَلُ كَأَقْرَاطٍ  
لِلْأُذُنِينَ وَبَعْضُهَا الْآخَرُ كَمَشَابِكٍ لِلشَّعْرِ، وَكُلُّهَا تَلْمَعُ كَالْأَمْسِ.  
وَالْأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ دَزِينَةٌ مِنَ الْعَلْبِ الْمَلِيشَةِ بِالْمُرْتَبِيِّ وَدُرُجٌ صَغِيرٌ  
زَجَاجِيٌّ فِي دَاخِلِهِ حَبَّتَا بَنْدُقٍ وَزَيْتُونٍ، لَكِنَّ الْمِفْتَاحَ ضَاعَ وَلُعَيْبَةُ قَلَّمَا  
اكَتْرَتْ لِذَلِكَ.

أَفْهَمَهَا الرَّسُولُ وَهُوَ يُهْمُهُمْ، وَتِلْكَ هِيَ اللَّغَةُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا  
فِي مَمْلَكَةِ الْقُرُودِ، أَنَّ مَلِكَهُ تَأَثَّرَ بِسِحْرِهَا كَمَا لَمْ تَوْثِّرْ بِهِ قَرْدَةَ فِي حَيَاتِهِ  
حَتَّى أَنَّهُ بَنَى لَهَا قَصْراً فِي أَعْلَى شَجَرَةٍ تَتُوبُ، وَبَعَثَ لَهَا بِتِلْكَ الْهَدَايَا،  
وَبِهَذِهِ الْمُرِيَّاتِ اللَّذِيذَةِ، تَعْبِيراً أَمْثَلُ عَنْ حُبِّهِ لَهَا.

ثُمَّ أَضَافَ:

- وَلَكِنَّ أَكْبَرَ بُرْهَانٍ، يَا سَيِّدَتِي، عَلَى عَاطِفَتِهِ الْجَيَّاشَةِ تَجَاهَكَ،  
وَالَّذِي يَفْتَرِضُ أَنَّ يُؤَثِّرُ بِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، هُوَ أَنَّهُ عُنِيَ بِأَنْ  
يَبْعَثَ لَكَ بِرَسْمِهِ لَكِي يُسَرِّعَ مِنْ رَغْبَتِكَ فِي رُؤْيَتِهِ.  
وَالْحَالُ، بَسَطَ رَسْمَ مَلِكِ الْقُرُودِ جَالِساً عَلَى قَرْمَةٍ ضَخْمَةٍ مُسَكِّاً  
تَفَاحَةً يَأْكُلُهَا.

أشاحت لُعيبة بنظرها لكي لا تتأمل لوقتٍ أطولَ وجهاً بهذه  
 البشاعةِ وزَجَّرتَ مرتينِ أو ثلاثاً لكي تُفهمَ ميرليفيش أنها تُكِنُّ  
 الاحترامَ لسَيِّدهِ لكنها لم تقررَ بعدُ ما إذا كانت راغبةً في الزواجِ.  
 وفي تلك الأثناءِ قرَّرتِ الملكةُ ألا تستجلبَ غضبَ القروء؛ وإذ  
 ظنَّت أنه لا يستوجبُ القيامَ باحتفالاتٍ رَسميَّةٍ كثيرةٍ لإرسالِ لُعيبةِ  
 حيث كانت تريد لها أن تذهب، أمرت بإعدادِ كلِّ شيءٍ لِرحيلها.  
 وعندما عرَّفت لُعيبةِ بذلك، تملكَّ اليأسُ قلبها تماماً، فاحتقارُ الأميرِ  
 من جهةٍ ولا مُبالاةِ الملكةِ من جهةٍ أخرى دَفَعها لاتخاذِ القرارِ  
 بالهَرَبِ. والأكثرُ من ذلكِ كلُّه مثل ذلك الزوجِ المقدَّرِ لها. ولم يكن  
 هربُها بالأمرِ الصَّعبِ، فمُنذ أن بدأت تتكلَّمُ فكَّ وثاقها، وكانت  
 تذهبُ وتجيءُ بحُرِّيَّةٍ إلى غرْفَتِها وتدخلُ إليها سواءً من التافذةِ أو  
 من البابِ.

أسرَّعت في إعدادِ العدةِ للرحيلِ فقَفَّرت من شجرةٍ إلى شجرةٍ  
 ومن غصنٍ إلى غصنٍ حتَّى وصلت إلى ضفَّةِ أحدِ الأنهارِ. وحال  
 إمعانها في اليأسِ من أن تُدرِكَ الخطرَ الذي يُحدِقُ بها حينَ أرادت  
 أن تُعبِّرَ النَّهرَ سباحةً. ومن غيرِ تفكيرٍ، ازتمت في النَّهرِ وسُرَّعانَ ما  
 غارت في الأعماقِ. لكن أُرشدتها بقيَّةُ من صوابِ إلى مغارةٍ بديعةٍ  
 لمحتها مزينةً بالأصدافِ فعاجلت للدخولِ إليها واستقبلها هناكِ  
 شيخٌ جليلٌ كانت لحيتُه البيضاءُ مسترسلةً إلى خصره. كان مضطجعاً  
 على أصلات القصبِ والدُّلبوثِ وعلى رأسِه تاجٌ من زهرِ الحشخاشِ  
 والزَّبَقِ البريِّ. اتكأ إلى صخرةٍ تسيلُ منها ينبوعٌ عدَّةُ ترفدُ ماءً النَّهرِ.  
 قال وهو يمدُّ لها يدهُ:

- مرحى أيتها القردة الصَّغيرة! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟  
 أجابته:

تزويجي منه.

أضاف الشيخ الجليل:

- أعرف عن أخبارك أكثر مما تظنين. صحيح أنك تمقتين شديد  
ملك القروء، ولكن صحيح أيضاً أنك تحبين أميراً شاباً لا يابيه لأمرِك.  
هتفت لعيبة متنهدة:

- آه يا سيدي لا تحدثني عن ذلك. إن ذكره تزيد في آلامي.

تابع مضيف مملكة الأسماك؟

- لن يكون عصياً دوماً على الحب فيما بعد. أعرف أنه مقدر  
لأجل أميرة في الكون.  
تابعت لعيبة:

- ما أتعسني! إذا لن يكون لي أبداً.

ابتسم الرجل الشيخ الطيب قائلاً لها:

- لا تحزني أبداً يا لعيبة الطيبة. الزمن يحكم كل شيء. احرصي  
فقط على الاحتفاظ بالدرج الصغير من الزجاج الذي بعته لك  
شديد والذي أبقيته صدفة في جيبك. لا أستطيع أن أقول لك أكثر  
من ذلك: ها هي سلحفاة ماضية في طريقها، اعتليها وستوصلك إلى  
حيث يجب أن تذهبي.  
قالت له:

- بعد كل المعروف الذي أسديته لي، لا يمكنني أن أتجاهل  
التعرف إلى اسمك.

- يُسمونني بيروكوا، والد بيروكي، هذا التهر الذي ترين والذي  
هو ضخّم وشهير.

صعدت لعيبة على السلحفاة بكثير من الثقة وسارتا لوقت طويل

على الماء. وأخيراً، بعد شوطٍ بدا لها طويلاً، بلغت السِّلحفاة الضِّفَّة. يصعُبُ إيجادُ شيءٍ أكثرَ أناقةً من ترْسها وباقي العِتاد الذي كان أشبه ما يكون بترج على الطَّريقة الإنكليزيَّة. كانَ هناك في السَّرج مسدَّسان، وغمداهما من أجسام سلطعونات.

وسافرت لُعيبة بثقةٍ كاملة على ظهر السِّلحفاة متسلِّحة بوعود الحكيم بيروكوا. وفجأة سمعت جلبةً كبرى. يا للهول! إنَّه الرِّسول ميرليفيش، مع كلِّ معاونيه الميرليفيشيين، كانوا عائدین إلى مملكة القروء، مطأطي الرُّوس متحسرين على هرب لُعيبة. صعدَ قرءٌ من الفرقة إلى أعلى شجرة جوز لكي يفرطَ الجوزَ ويُطعم صغارَ القردة. لكنه ما إن اغتلى قمة الشجرة ونظرَ متلفتاً حوله حتى لمح لُعيبة وهي تمطّي السِّلحفاة المسكينة التي كانت تسيرُ ببطءٍ في أرض مكشوفة. لما رآها بدأ يصرخُ عالياً فسأله القروء المتجمعون بلغتهم ماذا هنالك فحدّثهم عما رآه. فأفلتوا في الحال الببغاوات وطيور العققق وطيور أبي زريق التي حلقت حتى مكان لُعيبة، ووفقاً لتبليغهم هرع الرِّسول والقروء وباقي الموكب إلى لُعيبة واعتقلوها.

يا للاستياء الذي اعترى لُعيبة! من الصَّعب أن يكونَ هنالك استياءً أكبر وأشدَّ إيلاماً. أُجبرت على الصَّعود في «عربة المحفل الملكي» وأحيطت في الحال بالقروء الأكثر تيقظاً، وبعض الثعالب، وديك جثم على أعلى العربة ليقوم بالحراسة ليلاً ونهاراً. وكان هناك قرءٌ يتعهّد السِّلحفاة ويجرّسها وكأنها حيوانٌ نادر: وهكذا تابع الموكبُ سيره رغم امتعاض لُعيبة التي كانت ترافقها السيِّدة جيغونيا، وهي كما يدلُّ عليها اسمها قردة ضخمة حادة الطباع وقليلة التهذيب.

وبعد مرور ثلاثة أيام دون حادثة تُذكر، تاه المرشِّدون ووصلوا جميعاً إلى مدينة كبيرة شهيرة لم يكونوا يعرفونها. لكن لما لمحو حديقة

جميلة بوابتها مفتوحة توقفوا فيها ونهبوا كل شيء وكأثم يغزون بلاداً. هذا أخذ ينهش الجوز وذاك يزدرد الكرز وآخر يُجرد شجرة خوخ. وأخيراً لم يتبق قرْدٌ صغير إلا وسعى إلى إيجاد الرزق وخرن منه.

يُجدر التنويه إلى أن تلك المدينة كانت عاصمة المملكة حيث وُلدت لُعبية وكانت تسكن فيها والدتها الملكة منذ أن ألت بها المصيبة لدى رؤيتها وليدتها تتحول إلى قرْدَة بفعل زهرة الشوك. لم تكن تحتمل أن ترى في ولاياتها أيّاً من صنوف القرْدَة، سواء من صنف النسناس أو السبوس أو الشديم<sup>(1)</sup>، ولا أيّ شيء يعيد إلى ذاكرتها تلك الحادثة المشؤومة التي تدعو للرتاء. وكان يُنظر إلى القروِد في مملكته على أنهم جنسٌ مثيرٌ للشغب ومقلقٌ للراحة. فيا للدهشة التي أصابت الشعب إذ رأى عربة المقوى وعربة القش الملونة وسائر الموكب العجيب لا بل الأعجب مذ كانت قصصٌ ومذ كانت جنيتات!

طارَت الأخبار إلى القصر وارتجفت الملكة خوفاً ظناً منها أن أمة القروِد تريد أن تستولي على زمام الحكم. فسارعت إلى الدعوة لانعقاد المجلس وأمرت بإعدامهم جميعاً بصفيتهم مجرمين بتهمة القذح في الذات الملكية. وإذا أرادت ألا تضيع الفرصة بإعطاء أمثلة يتذكرها الناس في المستقبل، أرسلت حراسها إلى البستان وأمرتهم بالإمساك بجميع القروِد، فرموا بشباك كبيرة على الأشجار واصطادوها. وبالرغم من الاحترام المتوجب عادةً للرسول فإنه عومل باحتقار شديد في شخص ميركيفيش ورُمي دون رحمة في أحد الأقبية حيث احتبس هو وأصدقائه مع القردات السيدات والأنسات اللواتي كن يرافقن لُعبية.

(1) الأسماء الثلاثة تشير إلى عدد من صنوف القرْدَة.

أما لَعِيْبَةٌ فَأَحْسَتْ مِنْ جَهْتِهَا بِفَرْحَةٍ غَامِضَةٍ حِيَالِ تِلْكَ الْفَوْضَى الْمَسْتَجِدَّةِ. فَعِنْدَمَا يَصِلُ الْخَزْيِيُّ وَفَقْدَانُ الْحِطْوَةِ إِلَى حَدِّ مَعَيْنٍ، تَهْوُنُ الْأَشْيَاءُ كُلَّهَا وَيَصْبِحُ الْمَوْتُ نَفْسَهُ الْغَايَةَ الْمُنْشَوْدَةَ. وَتِلْكَ هِيَ الْوَضْعِيَّةُ الَّتِي أَلْفَتْ فِيهَا لَعِيْبَةٌ نَفْسَهَا، إِذْ كَانَ قَلْبُهَا مَشْغُولًا بِالْأَمِيرِ الَّذِي احْتَقَرَهَا، وَكَانَتْ قَدْ هَالَتْهَا فِكْرَةُ الزَّوْاجِ الْوَشِيكِ بِمَلِكِ الْقُرُودِ شَدِيدٍ. لَكِنْ، يَجِبُ أَلَّا نَنْسَى أَنَّ مَلَابِسَهَا كَانَتْ رَائِعَةً وَتَصَرَّفَاتُهَا خَارِجَةً عَنِ الْمَأْلُوفِ، مَا جَعَلَ الَّذِينَ أَمْسَكُوا بِهَا يَلْحِظُونَ أَنَّهَا شَيْءٌ فَرِيدٌ فِي نَوْعِهِ. وَعِنْدَمَا تَحَدَّثَتْ إِلَيْهِمْ، زَادَتْ دَهْشَتَهُمْ لَا سِتِيًّا وَأَنْتَهُمْ سَبَقَ لَهُمْ أَنْ سَمِعُوا عَنِ لَعِيْبَةِ الْعَجِيْبَةِ. كَانَتْ الْمَلِكَةُ الَّتِي عَثَرَتْ عَلَيْهَا تَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ امْتِسَاخِهَا، وَغَالِبًا مَا كَتَبَتْ إِلَى شَقِيْقَتِهَا لِتَقُولَ لَهَا إِنَّهَا تَمْلِكُ قُرَيْدَةً رَائِعَةً وَرَجَّتْهَا أَنْ تَأْتِيَ لِرُؤْيَيْتِهَا. لَكِنْ الْمَلِكَةُ الْحَزِينَةُ لَمْ تَكْتَرِثْ لِلْأَمْرِ أَطْلَاقًا. وَأَخِيرًا بَعْدَ أَنْ فَتِنَ الْحِرَّاسُ بِلَعِيْبَةِ، حَمَلُوهَا إِلَى صَالَةٍ كَبِيرَةٍ وَجَعَلُوا لَهَا عَرْشًا صَغِيرًا. وَأَجْلَسَتْ عَلَيْهِ بِصِفَتِهَا مَلِكَةً وَلَيْسَ بِصِفَتِهَا قُرَيْدَةً أَسِيرَةً. وَإِذْ مَرَّتِ الْمَلِكَةُ بِالْقَاعَةِ مَكَّتْ مِنْدَهِيْشَةً وَمِنْدَهِيْلَةً أَمَامَ جَمَالِ وَجْهِهَا وَكَلِمَاتِ الْمُجَامَلَةِ اللَّطِيْفَةِ الَّتِي بَادَرَتْهَا بِهَا، وَأَحْسَتْ بِقُوَّةِ طَبِيعِيَّةِ تَجْذِيْبِهَا، رَغْمًا عَنْهَا، إِلَى الْأَمِيرَةِ الْقَرْدَةِ.

أَخَذَتْهَا الْمَلِكَةُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا. وَعِنْدئذِ ازْتَمَّتِ الْمَخْلُوقَةَ الصَّغِيرَةَ عَلَى عُنُقِهَا مَدْفُوعَةً بِمَشَاعِرَ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا أَشْيَاءٌ فِي غَايَةِ الرِّقَّةِ وَالتَّهْذِيْبِ مَا أَثَارَ إِعْجَابَ كُلِّ مَنْ سَمِعَهَا.

هَتَفَتْ قَائِلَةً:

- لَا يَا سَيِّدَتِي، لَيْسَ الْخَوْفُ مِنْ مَوْتِ وَشِيكِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَهْدِدِينَ بِهِ أُمَّةَ الْقُرُودِ التَّعْيِسَةِ، هُوَ الَّذِي يُرْعِبُنِي وَيُلْزِمُنِي السَّعْيَ لِإِيْجَادِ وَسِيْلَةٍ لِإِعْجَابِكِ وَالذَّخُولِ إِلَى قَلْبِكَ. لَيْسَتْ نِهَائِيَّةُ حَيَاتِي هِيَ الْمَصِيْبَةُ الْكَبْرَى الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحْدِثَ لِي؛ وَلَدَيْ مِنَ الْمَشَاعِرِ

التي تتخطاني بحيث لا أحرص إطلاقاً على بقائي على قيد الحياة.  
المسألة هي أنني أحبك يا سيدي، وليس تأجك هو الذي يؤثر في بل  
فضائلك.

برأيكم بم يمكن الرد على هذه القرودة التي تُجيد التّجيل والتّوقير  
إلى هذا الحد؟ ظلت الملكة صامته كسمكة شبوطٍ محمّلة بعينها ظناً  
منها أنّها تحلم وشعرت بتأثر كبير لما قالته القردة.

حملت القرودة إلى ديوانها، وعندما أصبحتا وُحدهما، قالت لها:  
- لا تتأخري لحظة في قصّ مغامراتك عليّ لأنني أشعرُ فعلاً أنّه  
من بين كلّ البهائم التي تملأ الأفاص والتي أحتفظ بها في قصري  
ستكونين أنت من أحبّ أكثر. وأؤكد لك أنّي إكراماً لك سأعفو  
عن القروود التي ترافقك.  
هتفت:

- رويدك يا سيدي! لا أطلب منك أن تعفي عنهم. إنّ قدري  
اللّعين جعلني أولد قرودةً وهذا القدر نفسه أمدني بميزة ستجعلني  
أتعذب حتى يماتي لأنني في النهاية أحسّ بالألم حين انظر إلى نفسي  
في المرآة صغيرة هكذا وقيحة وسوداء، قوائمي مكسوة بالوبر ولدي  
ذيل وأسنان متأهبةً دوماً للعض. لكتي في الوقت نفسه لا أفتقر إلى  
الدكاء ولدي ذوقٌ وأحاسيس مرهفة!  
قالت الملكة:

- هل أنت قادرة على الشعور بالحب؟  
تنهدت لعيبة دون أن تجيب.  
أزدفت الملكة:

- اسمعي! عليك أن تقولي لي هل تُحِبّين قروداً أو أزناً أو سنجاباً.  
لأنك إذا لم تكوني مرتبطةً بأحدٍ فلديّ قزمٌ يلائمك جداً.

قابلت لُعيبة هذا الاقتراح بتعابير احتقار، فانفجرت الملكة ضاحكةً وقالت لها:

- لا تغضبني وقولي ما الذي أعطاك القدرة على الكلام.  
فأجابت لُعيبة:

- كل ما أعرفه عن قصتي هو أنّ الملكة شقيقتك عندما غادرت بعد ولادة الأميرة ابتكت ووفاتها، شاهدت وهي تمرّ عند شاطئ البحر أحد خدامك يريدُ إغراقني فانتشلوني من بين يديه بأمر منها. وبفضل معجزة أذهست الجميع أيضاً أعطيت لي الكلام والذكاء. ثم زودوني بمُعَلِّمين لقنوني لغات عدّة والعزف على آلات موسيقية، وفي النهاية يا سيدي أصبحتُ أشعرُ بخزي وفقداني الحظوة...

وعندئذٍ رأت وجه الملكة شاحباً ويندى عرقاً بارداً فهتفت:

- لكن يا سيدي ماذا دهالك؟ ألاحظ انقلاباً وتبدلاً كبيرين في

ملاحك...

قالت الملكة بصوت واهن غير مفهوم:

- إنني أحتضر. أحتضر يا ابنتي العزيزة التعيّسة الحظ! اليوم

أستعيدك من جديد!

وإثر هذه الكلمات، فقدت رُشدَها فارتعبت لُعيبة وهُرعت تطلبُ التّجدة. وسارعت الوصيفات بإعطائها ماءً وحلّ أربطتها ووضعها في السرير. اندست لُعيبة معها في الفراش ولم ينتهّن لها لَصغَرِ حجْمِها.

وعندما عادت الملكة من غيبوبتها الطويلة التي داهمتها إثر ما قالته الأميرة، أرادت أن تختلي بالسيدات اللواتي يعرفن سرّ الولادة المشؤومة لابنتها. روت لهنّ ما جرى لها وبقين حائرات ولم يعرفن بهاذا ينصحنها. لكنها أمرتهنّ بأن يُرشدنّها إلى ما يحسُن القيام به في



مناسبة رهيبه كتلك. قالت بعضهن إنه يجب خنق القرئدة، وأخریات  
إنه يجب احتباسها في حفرة، أو رميها في البحر. فيما راحت الملكة  
تبكي وتشهق.

قالت:

- لديها ذكاء مذهش. يا لسوء حظها! كيف حولتها باقة مسحورة  
إلى قرودة! لكنّها ابنتي، إنها دمي، أنا من اجتذبت سخط الجنّة الشريرة  
بهاج؛ هل من العدل أن تتعذب بسبب الحقد الذي تُضمّره هذه  
الجنّة لي؟

هتفت وصيفتها العجوز:

- نعم، يا سيدي يجب أن تحمي سمعتك المجيدة. ماذا سيقولون  
عندك في المجتمع إذا صرّحت أنّ ابنتك قرودة؟ من الخزي أن تحظى  
امرأة جميلة مثلك بأطفال مماثلين!

عيل صبر الملكة لسماعها هذا الكلام. لم تكن لاهي ولا الوصيفات  
الأخریات متحمّسات للتخلّص من ذلك المسخ الصغير. وفي الختام  
قرّرت أن تسجن لعيبة في أحد القصور حيث سيقدّم لها أفضل  
الطعام وتحاط بأفضل رعاية حتى نهاية أيامها.

عندما سمعت لعيبة أنّ الملكة تريد وضعها في سجن، انسحبت  
بهدوء من السرير وقفزت من النافذة لتحط على شجرة في الحديقة  
ولاذت بأذيال الفرار حتى الغابة الكبيرة تاركة الجميع في بلبلة من  
جراء اختفائها.

وأمضت الليل في جوف سديانة حيث تسنى لها الوقت لكي  
تأمل قساوة مصيرها: لكن الأمر الذي كان يتسبب لها بألم أكبر هو  
اضطرابها للافتراق عن الملكة. ومع ذلك آثرت أن تتعمد الابتعاد  
وتظل حرة وسيده نفسها على أن تفقد حريتها إلى الأبد.

ما إن طَلَعَ النَّهَارَ حَتَّى تَابَعَتْ سَفَرَهَا دُونَ أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ تُرِيدُ  
الذَّهَابَ وَهِيَ تَفَكَّرُ وَتُعِيدُ التَّفَكِيرَ مِرَاراً بِتِلْكَ الْمَغَامِرَةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي  
كَانَتْ تَعِيشُهَا.

هَتَفَتْ:

- يَا لِلهُوَّةِ الَّتِي تَفْصِلُ مَا أَنَا عَلَيْهِ عَمَّا يَجِبُ أَنْ أَكُونَ!

وسالت الدَّمُوعَ بِغِزَارَةٍ مِنْ عَيْنَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ، عَيْنِي الْقَرِيدَةَ  
المسكينة. ما إن طَلَعَ النَّهَارَ حَتَّى رَحَلَتْ. كَانَتْ تَحْشَى أَنْ تَأْمُرَ الْمَلِكَةَ  
بأن يُلْحَقُوا بِهَا، أَوْ يِقْتَادَهَا أَحَدُ الْقَرَدَةِ الَّتِي أُفْلِتَتْ مِنَ الْقَبْوِ إِلَى الْمَلِكِ  
شَدِيمٍ رَغْمًا عَنْهَا. وَتَابَعَتْ سَيْرَهَا، سَارَتْ طَوِيلًا عَلَى غَيْرِ هُدًى دُونَ  
أَنْ تَتَّبِعَ طَرِيقًا مَعَيَّنَةً أَوْ دَرْبًا وَابْتَعَدَتْ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى صَحْرَاءَ كَبِيرَةٍ  
لَا مَنْزِلَ فِيهَا وَلَا شَجَرَةَ وَلَا ثَمْرَةَ وَلَا عَشْبَ وَلَا سَبِيلَ مَاءٍ. وَتَوَعَّلَتْ  
فِيهَا دُونَ تَفَكِيرٍ. وَعِنْدَمَا بَدَأَ الْجُوعُ يَنْهَشُ أَحْشَاءَهَا أَذْرَكَتْ، وَلَكِنْ  
بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، أَنَّ تَرْحَالَهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَصْقَاعِ كَانَ تَهَوُّرًا كَبِيرًا  
مِنْ قَبْلِهَا.

مَرَّ يَوْمَانِ وَمَرَّتْ لَيْلَتَانِ مِنْ دُونَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْعَثُورِ عَلَى دُودَةٍ  
صَغِيرَةٍ أَوْ ذَبَابَةٍ فَتَمْلِكُهَا الْخَوْفَ مِنَ الْمَوْتِ جُوعًا. كَانَتْ وَاهِنَةً  
جَدًّا بَحِيثَ فَقَدَتْ رُشْدَهَا وَاضْطَجَعَتْ أَرْضًا. ثُمَّ تَذَكَّرَتْ الزَّيْتُونَةَ  
وَالْبُنْدُوقَةَ اللَّتَيْنِ كَانَتَا لَا تَرَالَانِ فِي الْعَلْبَةِ الصَّغِيرَةِ الزَّجَاجِيَّةِ فَارْتَأَتْ  
أَنْ تَجْعَلَ مِنْهَا وَجِبَةً صَغِيرَةً. ابْتَجَهَتْ لَشَعُورِهَا بِذَلِكَ الْبَصِصِ  
مِنَ الْأَمَلِ؛ أَمْسَكَتْ حَجْرًا وَكَسَرَتْ الْعَلْبَةَ لِتَلْتَهُمَ الزَّيْتُونَةَ. لَكِنَّهَا  
مَا كَادَتْ تَعْرِزُ أَسْنَانَهَا قَلِيلًا فِيهَا حَتَّى فَاضَ مِنْهَا زَيْتٌ عَطْرِيٌّ  
مُنْدَاحًا عَلَى قَائِمَتَيْهَا الْأَمَامِيَّتَيْنِ فَأَصْبَحَتْهَا أَجْمَلُ يَدَيْنِ فِي الْعَالَمِ: لَشَدَّ  
مَا كَانَتْ دَهَشْتُهَا كَبِيرَةً! أَخَذَتْ مِنْ ذَلِكَ الزَّيْتِ وَدَعَكَتْ جَسْمَهَا  
كَلَّةً! يَا لِلْعَجَبِ! تَحَوَّلَتْ فِي الْحَالِ إِلَى فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ لَا مِثْلَ لِحْمِهَا.

شَعَرَتْ بِعَيْنَيْهَا تَسْعَانِ وَارْتَسَمَ فَمُهَا صَغِيرًا وَأَنْفُهَا مُسْتَقِيمًا وَحَسَنَ التَّكْوِينِ. تَحَرَّقَتْ شَوْقًا لِيَكُونَ لَدَيْهَا مَرَأَةٌ. وَأَخِيرًا انْتَبَهَتْ إِلَى أَنَّ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَتَمَرَّأَى عَلَى كَسْرَةِ زَجَاجٍ مِنَ الصَّنَدُوقِ الصَّغِيرِ. آه، يَا لَفَرْحَتِهَا عِنْدَمَا رَأَتْ نَفْسَهَا! يَا لِلدَّهْشَةِ اللَّذِيذَةِ! وَثِيَابُهَا كَبُرَتْ مَعَهَا. وَكَانَ شَعْرُهَا مَسْرَحًا بِشَكْلِ رَائِعٍ وَمُنْسَدِلًا فِي أَلْفِ خِصْلَةٍ. وَكَانَ لِبَشَرَتِهَا نَضَارَةٌ أَزْهَارِ الرَّبِيعِ.

بَعْدَ أَنْ اضْمَحَلَّتْ لِحْظَاتٍ دَهْشَتِهَا الْأُولَى، شَعَرَتْ بِجُوعِهَا يَتَنَامَى وَازْدَادَتْ حَسْرَاتُهَا بِشَكْلِ غَرِيبٍ.

قَالَتْ:

- عَجَبًا! حَتَّى وَأَنَا بِهَذَا الْجَمَالِ وَالشَّبَابِ، حَتَّى وَأَنَا مَوْلُودَةٌ أَمِيرَةً عَلِيًّا أَنْ أَقْضِيَ نَحْبِي فِي هَذِهِ الْأَمْكِئَةِ الْحَزِينَةِ. آه! يَا لِلْقَدْرِ الْهَمَجِيِّ الَّذِي قَادَنِي إِلَى هُنَا! مَاذَا سَيَكُونُ مِصْرِي؟ أَيُّهَا الْقَدْرُ هَلْ أُرِدْتُ أَنْ تَزِيدَ فِي حُزْنِي فَحَوَّلْتَنِي إِلَى هَذَا الشَّكْلِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَمَلُ أَنْ أَنَالَهُ يَوْمًا؟ وَأَنْتِ يَا بِيروكُوا، أَيُّهَا النَّهْرُ الْجَلِيلُ الَّذِي أَنْقَذَ حَيَاتِي بِبُنْبُلٍ، هَلْ سَتَتْرُكُنِي أَمُوتُ فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ الْمُرْعِبَةِ؟

عَبثًا اسْتَنْجَدَتْ ابْنَةُ الْمَلِكَةِ وَاسْتَعَاثَتْ. كُلُّ شَيْءٍ كَانَ أَصَمَّ إِزَاءَ صَوْتِهَا. كَانَ الْجُوعُ يَنْهَشُ أَحْشَاءَهَا وَيُعَذِّبُهَا فَأَخَذَتْ حَبَّةَ الْبَنْدُقِ وَكَسَرَتْهَا، لَكِنَّمَا عِنْدَمَا رَمَتْ الْقِشْرَةَ فَوَجِئَتْ إِذْ رَأَتْ مَهَنْدِسِينَ مَعْمَارِيِّينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَبِنَائِينَ وَمَنْجِدِينَ وَنَحَاتِينَ وَشَتَّى أَصْنَافِ الْعُمَّالِ. صَمَّمَ بَعْضُهُمْ قِصْرًا وَشَيْدَهُ آخَرُونَ وَزَيَّنَهُ الْبَعْضُ الْآخَرَ بِالْأَنْثَاءِ. وَطَلَيْتِ الْغُرْفُ وَزُرِعَتْ الْحِدَائِقُ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَلْمَعُ بِالذَّهَبِ وَاللَّازُورِدِ. ثُمَّ حُضِرَتْ وَليمة رَائِعَةٌ. كَانَ هُنَاكَ سِتُونَ أَمِيرَةً يَزْتَدِينَ ثِيَابًا أَفْخَرَ مِنْ مَلَابِسِ الْمَلِكَاتِ، يَقْتَادُهُنَّ سَائِسُونَ وَيَتَبَعُهُنَّ خَدَمٌ، وَقَدْ جِئْنَ لِيُقَدِّمْنَ لَهَا الْمَجَامِلَاتِ وَيَدْعُونَهَا إِلَى الْمَادَّبَةِ

المقامة على شرفها. وللحال تقدمت لعيبة بسرعة إلى الصالون وهناك جلست كملكة وأكلت كمن يمضه الجوع. وما إن أنهت طعامها وقامت عن المائدة حتى جاءها حراس خزنها بخمسة عشر ألف صندوق كبير مثل البراميل، مليئة ذهباً وأماساً. سألوها أن تفضل وتدفع أجراً للعمال الذين بنوا قصرها.

قالت إن ذلك هو عين الصواب شرط أن ينواها أيضاً مدينة وأن يتزوجوا ويبقوا معها. وافق الجميع. وأنجزت المدينة في ظرف ثلاثة أرباع الساعة مع أنها كانت أكبر من روما بخمسة مرات. تلك هي المعجزات التي تحققت من حبة بندق صغيرة.

خطر للأميرة أن تبعث وفداً عظيماً إلى الملكة أمها وأن تسمع الأمير الشاب ابن خالتها بغض الملامات. وبانتظار أن تأخذ الإجراءات الضرورية بخصوص ذلك، راحت تتسلى برؤية مسابقات يقوم بها الفرسان وتعطي دوماً الجائزة للفائز، وبمشاهدة الألعاب والمسرحيات المضحكة وصيد الطيور والأسماك، لأن نهرًا وسع مجراه حتى مملكتها. وذاع صيت حُسن الأميرة في أرجاء المعمورة وأخذ يتوافد إلى قصرها ملوك من كل جهات العالم وعمالقة أطول من الجبال وأقزام أقصر من الجرذان.

وذات يوم، وبينما يُقام احتفال كبير، تشاجر فرسان فيما بينهم فتعاركوا بالأيدي وأصيب بعضهم بجراح. نزلت الأميرة الغاضبة من شرفتها لكي تتحقق من الذين افتعلوه. لكن عندما نزع منهم سلاحهم، تعرّفت بينهم إلى الأمير قريبها الذي كاد يقضي في الشجار. وعندئذ انهارت وشعرت أنها توشك أن تقضي نحبها هي أيضاً من فرط الألم وهول المفاجأة. أمرت بحمله إلى أجل جناح في القصر ووفرت له كل ما يلزم لسفائه: أمهر الأطباء والجراحين،

والمراهم، وأصناف الحساء والشراب. كانت ابنة الملكة تقوم هي نفسها بوضع الضمادات وتجهيزها، وتزوي جراحاته بدموع عينها وهي بمثابة بلسم. كان المريض قد أصيب بسبب ضربات سيف وبمثله من طعنات الرمح اخترقته من كل جانب. كان منذ زمن طويل يجول في أرجاء ذلك البلاط متنكراً، وكان قد شعر بأنه يكابد سطوبة عيني لعيبة الجميلتين وأنه لا يمكنه الشفاء من حسام لحظها. من السهل إذاً الحكم على جزء يسير مما كان يحس به حين قدر له أن يرى على وجه الأميرة الحبيبة ألها وتعاطفها الكبير حياله. لن أتوقف ها هنا لكي أكرّر كل الكلمات التي أملتها عليه عاطفته ليشكرها على معاملتها الطيبة له. أولئك الذين تسنى لهم سماعه دُهِشوا من أن يظهر رجل في حلقة المرض هذا القدر من الشغف والامتنان. لا بل إن ابنة الملكة التي انهمرت خجلاً أكثر من مرة توصلت إليه كي يضمنت. لكن الانفعال والحماس اللذين اتصف بهما كلامه هَذَا قواه إلى أبعد حد فسقط دفعة واحدة في حالة احتضار مرعب.

فقدت الأميرة رباطة الجأش التي كانت تحلّت بها لغاية ذلك الوقت، وأخذت تصرخ وتتنف شعرها، وعلا صراخها فخال الجميع أن قلبها كان سهل المنال ما دامت قدرت على الشعور بذلك القدر من الحنان حيال غريب في فترة قصيرة من الزمن. لم يكن أحد في مملكتها يعلم أن الأمير كان قريبها وأنها كانت تحبه منذ نعومة أظفارها.

كان منطلقاً في رحلة عندما توقف أمام ذلك القصر. وبها أنه لم يكن يعرف أحداً ليقدّمه للأميرة، اعتقد أن لا شيء يفعلُه أفضل من أن يقوم أمامها بخمسة استعراضات بطولية أو ستة، أي أن يُبَطِّهمة الفرسان في المباراة ولكن أيّاً منهم لم يمثل. وحصل عراك صرع فيه

الأقوى مَنْ هوَ أضعف، والأضعف كان، كما قلتُ آنفًا، الأمير.  
هُرَعَت لُعبية من فرط ياسها تجولُ الطرقات الرّئيسة دونَ عربةٍ  
ولا حراس. حتى دَخَلت إلى غابةٍ وسَقَطت مغميًّا عليها عندَ جذع  
شجرة، حيث جاءت الجنيّة بهارج التي لا تنامُ أبداً وتفتشُ دوماً عن  
وسيلةٍ للأذى، لتختطفها مُمتطيّة غيمةً أشدَّ سواداً من الخبرِ وتجري  
بأسرعَ من الرّيح. بقيت الأميرة لبعض الوقتِ فاقدة الرّشد. وعندما  
فأت أخيراً إلى رُشدِها، لم يكن لدهشتها مثيلٌ لأنها وجدتَ نفسها  
فجأةً بعيدةً عن الأرضِ وقريبةً جداً من القطب. كانت أَرْضِيّة  
الغمامة لينةً لِدنةً بحيثُ بدا لها إذ جالت هنا وهناك فوقها أنها تمشي  
على ريش. وإذا انفتحت الغمامة، شقّ عليها كثيراً أن تمنعَ نفسها من  
السقوط. لم تجد أحداً تشكو إليه مُصابها، لأنَّ بهارج الشريرة جعلت  
نفسها غيرَ مرئية: تَسنى للعبية الوقت لتفكرَ بأمرها العزيز، وفي  
الحال التي تُركت فيها استسلمت للمساعيرِ الأكثرِ إيلاًماً للنفس.  
هتفت:

- ما أتعسني! كيف لا أزال قادِرةً على العيش بعدَ ذلك الذي  
أحببته! كيف لذرةٍ خوفٍ من موتٍ وشيكٍ يمكن أن تجد مكانها في  
قلبي! آه لو أن الشمسَ تكويني بناها فإتها بذلك تؤدّي لي خدمةً  
جليلة. ليُتني أستطيع أن أغرق في قوسٍ قزحٍ فكم سأكون سعيدة!  
ولكن ويا للأسف! فلُك البروج كُله يصمُ أذنيه عني. القوسُ فقدت  
سهاًها والثورُ قرونه والأسدُ أنيابه! ربّما ستكونُ الأرضُ أكثرَ رُحمةً  
وتمنّحني صخرَةً مسنّنةً أقتلُ بها نفسي. آه يا أميري! يا قريبي العزيز،  
لو أنّك هنا حتّى تراني أقومُ بالقفزةِ الأكثرِ مأساويةً التي بإمكانِ  
عاشقةٍ يائسةٍ أن تقفزها.

وإذ تفوّهت بهذه الكَلِمات، هزّولت إلى آخرِ الغمامةِ وازتمت مثلُ

سَهْمٌ يُطْلَقُ بَعْنَفٍ. كُلُّ الَّذِينَ رَأَوْهَا ظَنُّوا أَنَّهُ الْقَمَرُ يَسْقُطُ. وَبِمَا أَنَّ الْقَمَرَ كَانَ فِي فِتْرَةٍ نَقْصَانِهِ، فَإِنَّ شُعوباً عَدَّةً كَانَتْ تَقْدَسُهُ وَلَمْ تَرَهُ مِنْذُ فِتْرَةٍ لَبَسَتْ الْحِدَادَ مَقْتَنَعَةً أَنَّ الشَّمْسَ، بِدَافِعٍ مِنْ غَيْرَتِهَا، قَامَتْ بِتِلْكَ الْخُدْعَةِ.

وَمَهْمَا تَكُن رَغْبَةُ ابْنَةِ الْمَلِكَةِ فِي الْمَوْتِ فَإِنَّهَا لَمْ تَنْجَحْ فِي ذَلِكَ. سَقَطَتْ فِي قَتِينَةِ الزَّجَاجِ حَيْثُ تَضَعُ الْجَنِيَّاتُ عَادَةً شَرَابَهُنَّ الْأَثِيرَ فِي الشَّمْسِ. وَلَكِنْ آيَةٌ قَتِينَةٌ! لَيْسَ هُنَالِكَ بَرَجٌ فِي الْكَوْنِ أَعْلَى مِنْهَا. لِحُسْنِ الْحِظِّ، كَانَتْ فَارِعَةٌ وَإِلَّا لَغَرِقَتِ الْأَمِيرَةُ فِيهَا مِثْلَ ذَبَابَةٍ.

كَانَ سِتَّةَ عَمَالِقَةٍ يَحْرَسُونَهَا وَتَعَرَّفُوا فِي الْحَالِ عَلَى الْأَمِيرَةِ. كَانُوا هُمُ الْعَمَالِقَةُ ذَاتِهِمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي قِصْرِهَا وَيُجَلِّونَهَا. وَكَانَتْ بِهَارِجِ الْمَاكِرَةِ الَّتِي لَا تَفْعَلُ شَيْئاً بِالصَّدْفَةِ قَدْ نَقَلْتَهُمْ إِلَى هُنَاكَ، كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَتْنٍ تَيْنٍ مَجْتَمِعٍ. وَكَانَ أَوْلَئِكَ التَّنَانِينُ يَحْرَسُونَ الْقَتِينَةَ عِنْدَمَا يَنَامُ الْعَمَالِقَةُ. وَعِنْدَمَا سُجِنَتِ الْأَمِيرَةُ دَاخِلَ الْقَتِينَةِ، مَرَّتْ أَيَّامٌ تَحَسَّرَتْ خِلَالَهَا عَلَى أَيَّامِهَا عِنْدَمَا كَانَتْ قِرْزَةً. كَانَتْ تَعِيشُ كَالْحَرْبَاءِ مِنَ الْهَوَاءِ وَالتَّنْدَى.

كَانَ سَجْنُ الْأَمِيرَةِ خَافِئاً عَلَى الْجَمِيعِ. وَعَلَى الْأَمِيرِ الشَّابِّ أَيْضاً الَّذِي لَمْ يُمُتْ وَطَالَبَ بِاسْتِمْرَارِ بِالْأَمِيرَةِ لُعْبِيَّةً، لَكِنَّهُ لَاحِظٌ مِنَ السِّيَئِ الْكَثِيبَةِ لِكُلِّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَحْدُمُونَهُ أَنَّ هُنَاكَ مَصِيبَةٌ عَامَّةٌ أَلَمَتْ بِالْقِصْرِ. إِلَّا أَنَّ تَحْفَظَهُ الطَّبِيعِيُّ مَنَعَهُ مِنَ السَّعْيِ لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ ذَلِكَ الْحِزْنِ. وَلَكِنْ مَا إِنْ تَمَآثَلَ لِلشِّفَاءِ حَتَّى رَاحَ يُلِحُّ عَلَيْهِمْ طِيلَةُ الْوَقْتِ لَكِي يُطْلِعُوهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأَمِيرَةِ، لَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يَجِرُّوْهُ عَلَى أَنْ يُخْفِيَ عَنْهُ خُسَارَتَهَا. بَعْضُهُمْ رَأَوْهَا تَدْخُلُ الْغَابَةَ وَنَاصَرُوا الرَّأْيَ الْقَائِلَ إِنَّ الْأَسْوَدَ التَّهَمَّتْهَا. وَآخَرُونَ اعْتَقَدُوا أَنَّهَا قَتَلَتْ نَفْسَهَا يَأْسًا. فِيمَا ادَّعَى آخَرُونَ أَنَّهَا فَقَدَتْ عَقْلَهَا وَرَاحَتْ تَتَسَكَّعُ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ.

كَانَ الرَّأْيُ الْأَخِيرُ هُوَ الْأَقْلُّ إِثَارَةً لِلرَّعْبِ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعَزَّزَ الْأَمَلَ قَلِيلاً فِي قَلْبِ الْأَمِيرِ. لَذَا انْطَلَقَ عَلَى ظَهْرِ حِصَانِهِ كَرِيكْتَانَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثَ عَنْهُ لَكُنِّي سَهَوْتُ عَنِ الْقَوْلِ إِنَّهُ الْإِبْنُ الْبِكْرُ لِبُوسْفَالِسِ<sup>(1)</sup> وَأَحَدَ أَفْضَلِ الْأَحْصَنَةِ الَّتِي شُوهِدَتْ فِي ذَاكَ الْعَصْرِ. وَضَعَ لَهُ اللَّجَامَ عَلَى عُنُقِهِ وَجَعَلَهُ يَغْدُو عَلَى غَيْرِ هُدَى. كَانَ يُنَادِي ابْنَةَ الْمَلِكِ وَالْأَصْدَاءَ وَحَدَّاهَا تَجِيئُهُ.

وَأَخِيرًا، وَصَلَ عِنْدَ ضِفَّةِ نَهْرٍ كَبِيرٍ. شَعَرَ كَرِيكْتَانَ بِالْعَطَشِ فَتَقَدَّمَ لِيَشْرَبَ، وَالْأَمِيرَ، كَعَادَتِهِ، أَخَذَ يَصْرُخُ بِكُلِّ قَوَاهِ:  
- لُعَيْبِيَّةُ، يَا لُعَيْبِيَّةُ الْجَمِيلَةَ، أَيْنَ أَنْتِ؟

سَمِعَ صَوْتًا بَدَتْ رِقَّتُهُ وَكَأَنَّهَا تَبْهَجُ الْمَاءَ نَفْسَهُ. قَالَ لَهُ ذَلِكَ الصَّوْتُ:

- تَقَدَّمَ وَسَوْفَ تَعْرِفُ أَيْنَ هِيَ.

وَعِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، أَعْطَى الْأَمِيرَ، الَّذِي يُوَازِي تَهَوُّرَهُ عَشْقَهُ، ضَرْبَتِي مَهْمَازٍ لِلْحِصَانِ كَرِيكْتَانَ فَسَبَّحَ وَوَجَدَ لَجَّةً تَنْدَقُ فِيهَا الْمِيَاهُ الْمَسَارِعَةَ فَارْتَمَى فِي اللَّجَّةِ مُقْتَنِعًا فَعَلًا أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَشِكِّ الْغَرَقِ.

وَلِحُسْنِ الْحِظِّ، وَصَلَ عِنْدَ مَغَارَةِ الشَّيْخِ الطَّيِّبِ بِيْرُوكُوا الَّذِي كَانَ يَحْتَفِلُ بِعُرْسِ ابْنَتِهِ مَعَ التَّهْرِ الْأَغْنَى وَالْأَخْطَرِ فِي الْمَنْطِقَةِ. كَانَ جَمِيعُ أَرْبَابِ الْأَسْمَاكِ مُجْتَمِعِينَ فِي الْمَغَارَةِ، وَكَانَتْ آلهَةُ الْمَوْجِ وَالْحَوْرِيَّاتِ يَعْزِفْنَ مَوْسِيقَى نَاعِمَةً، يَرْقُصُ عَلَيْهَا النَّهْرُ بِيْرُوكِي مُرْتَدِيًا ثُوبًا شَفَافًا رَقِصَةَ الزَّيْتُونِ<sup>(2)</sup> مَعَ أَنْهَارِ السَّيْنِ وَالتَّايْمِزِ وَالفِرَاتِ وَالْغَانِجِ، كُلُّ تِلْكَ الْأَنْهَارِ الَّتِي آتَتْ وَلَا شِكَّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَتَلْهُوَ مَعًا. وَكَرِيكْتَانَ، الَّذِي

(1) بوسفالس: هو جواد الإسكندر المقدوني، بحسب الاساطير المنسوجة عنه.

(2) رقصة الزيتون: رقصة ريفية سميت بهذا الاسم لأنها يُقام بها عادةً بعد قطف الزيتون، يركض فيها الرافصون بعضهم وراء بعض ويدورون حول ثلاث أشجار أو ثلاث نقاط معينة في الحقل.



يعرف اللياقات، توقّف باحترام كبير عند مدخل المغارة، والامير، الذي يُتقن آداب السلوك بأفضل منه، انحنى بإجلال كبير سائلاً ما إذا كان مسموحاً لفان مثله أن ينضم إلى ذلك الجمع الجميل.

بادر بيروكوا إلى الكلام وأجاب بلطف بأن حضوره يُشرفهم ويُسّرهم.

وواصل الكلام قائلاً:

- منذ أيام وأنا أنتظرك يا سيدي. أنا في خدمتك، وخدمة ابنة الملكة العزيزة عليّ. يجب أن تحررها من المكان الذي وضعتها فيه بهارج المنتقمة، لقد سجتتها في زجاجة.

هتف الأمير:

- يا للهول! ماذا تقول؟ ابنة الملكة في زجاجة؟

أجابه الشيخ الحكيم:

- نعم وهي تتعذب كثيراً، ولكني أنتهك يا سيدي. ليس يسيراً أن تهزم العمالقة والتنانين الذين يحرسونها اللهم إلا إذا اتبعت نصائحي. يجب أن تترك هنا حصانك المقدام وتضعد على متن دلفين مجنح ظللت أنا أربيه لك منذ زمن طويل.

وأمر بإحضار الدلفين مُسرجاً وملجوماً، وكان يقوم باستدارات وانحناءات ما جعل كريكتان يشعر بالغيرة منه.

وسارع النهر بيروكي وشركاؤه لتسليح الأمير فوضعوا له درعاً من حراشف أسماك الشبوط المذهبة والبسوة قبعة من صدفة حلزون ضخمة يظللها ذنب سمكة المورة وكان مرفوعاً على شكل قنزعة. وقلدته حورية الينابيع بأنقليس يتدلّ منه سيفٌ مخيفٌ مصنوعٌ من حسكة سمكة طويلة. ثم أعطي له ترسٌ سلحفاة عريضٌ فجعله درعاً. وإزاء كل ذلك العتاد، لم يعد من سمكة صغيرة إلا وتعتبره

ربّ الأسماء لآته، والحق يُقال، كانَ لذلك الأميرِ هيئةً قلما تُصادفُها لدى الفانين.

بثّ فيه الرّجاء بِلِقَاءِ الأُميرةِ السّاحرةِ التي يُحبّها فرحةً لم يشعر بها منذ فقدها. وتذكر المَدوناتِ الخاصّةِ بهذه الحكايةِ الجديرةِ بالثقة أنّه أكَلَ بشهيةٍ كبيرةٍ عندَ بيروكوا وشكّرَ كلَّ الجماعةِ بكلماتٍ مبتكرة. ودعَّ حصانه كريكتان وصعدَ على متنِ الدّلفينِ المَجَنحِ الذي انطلقَ في الحال.

وجدَ الأميرُ نفسه عندَ آخرِ النهارِ محلّقاً على ارتفاعٍ عالٍ جداً وأرادَ أن يزنّاحَ قليلاً فدخَلَ إلى مملكةِ القمر. الأشياءُ النّادرةُ التي ألفها هناك كانت قادرةً على استبقائه طويلاً لو أنّه كان أقلَّ استعجالاً لإخراجِ ابنةِ الملكةِ من الرّجاجةِ التي كانت تعيشُ فيها منذ بضعةِ أشهر. كادَ الفجرُ يلوّحُ عندما وجدَها مُحاطةً بالتنانينِ والعمالقةِ الذين أبقتهم السّاحرةُ قربها بفضلِ قدرَةِ عصاها الصّغيرة. كانت تظنُّ أنّه لا أحدٌ يملكُ القدرةَ على تحريرها وكانت مطمئنّةً إلى حُرّاسها الرّهيبين المتيقّظين الذين كانوا يُعذّبونها.

نظرت الأُميرةُ الجميلةُ إلى السّماءِ بإشفاقٍ وأرسلت إليها شكواها الحزينة. وعندئذٍ رأت الدّلفينَ المَجَنحَ وعلى متنهِ الفارسُ الذي أتى لإنقاذها. بدا لها ما تراه وكأنّه من نسج الخيال مع أنّها تعرف، من خلالِ تجربتها بالذات، أنّ الأشياءَ الأكثرَ حرّقا للمألوفِ تبدو مألوفةً لبعض الأشخاص.

كانت تقول:

- هل وصلَ دهاءُ بعض الجنّياتِ إلى حدِّ إرسالِ هذا الفارسِ إلى الفِضاء؟ يا للأسف، كم أرثي لحاله إذا كان سيُنتهي في آخر الأمر مسجوناً مثلي في زجاجةٍ أو دورق!

وَفِيهَا هِيَ تَفَكَّرُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، خَالَ الْعَمَالِقَةَ عِنْدَمَا لَمَحُوا الْأَمِيرَ  
فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ أَنَّهُ مَجْرَدُ طَائِرَةٍ وَرَقِيَّةٍ، فَهَتَفَ الْوَاحِدُ تَلَوَّ الْآخَرَ:  
«أَمْسِكُوا الْحَبْلَ حَتَّى نَلْهُو بِهَا». لَكِنْ عِنْدَمَا انْحَنَوْا لِلْإِمْسَاكِ بِالْحَبْلِ،  
انْقَضَ عَلَيْهِمْ وَمَزَّقَهُمْ إِرْبًا وَكَأَنَّهُمْ أَوْرَاقٌ لَعِبٍ نَقَطَعُهَا مِنْ نَصْفِهَا  
وَنَزَمِيهَا فِي الْفِضَاءِ.

سَمِعَتِ الْأَمِيرَةَ الضَّجَّةَ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا تِلْكَ الْمَعْرَكَةُ الْكَبِيرَةُ  
فَالْتَفَتَتْ وَتَعَرَّفَتْ إِلَى أَمِيرِهَا الشَّابِّ! آيَةٌ فَرِحَ غَمَرَتْ قَلْبَهَا عِنْدَمَا  
تَأَكَّدَتْ مِنْ سَلَامَتِهِ وَبَقَائِهِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ! وَلَكِنْ أَيُّ هَلَعٍ اغْتَرَاها  
لَدَى رُؤْيَيْهَا ذَلِكَ الْخَطَرَ الْمُحْدِقَ بِهِ وَسَطَ الْعَمَالِقَةِ الْمُخِيفِينَ وَالتَّنَانِينَ  
الَّتِي تَنْقُضُ عَلَيْهِ! أَطْلَقَتْ صَيْحَاتٍ مَرْعِبَةً، وَكَادَ خَوْفُهَا عَلَيْهِ أَنْ  
يَتَسَبَّبَ بِمَوْتِهَا.

لَكِنَّ الضَّرْبَاتِ الَّتِي وَجَّهَهَا الْأَمِيرُ بِخَسْكَتِهِ الْمَسْحُورَةَ الَّتِي زَوَّدَهُ  
بِهَا بِيْرُوكُوا كَانَتْ مُحْكَمَةً. وَالذَّلْفِينُ الْمَجْتَمِعُ كَانَ خَفِيفًا يعلو وَيَهْبِطُ  
مِرَافِقًا تَحْرَكَاتِ الْأَمِيرِ وَمُسَانِدًا إِتْيَاهَ بِشَكْلِ رَائِعٍ. وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتُ  
طَوِيلٍ إِلَّا وَاكْتَسَتِ الْأَرْضُ بِأَشْلَاءِ تِلْكَ الْمَسُوخِ. وَحِينَ رَأَى الْأَمِيرُ  
الْمُتَلَهِّفُ ابْنَةَ الْمَلِكَةِ عَبْرَ الرَّجَاجِ كَادَ يَحْطِمُ الْقَنِينَةَ لَوْلَا أَنْ خَشِيَ أَنْ  
يَتَسَبَّبَ بِإِيذَائِهَا. اتَّخَذَ قَرَارَهُ بِالنُّزُولِ إِلَى عَمَقِ الرَّجَاجَةِ وَعِنْدَمَا صَارَ  
فِي آخِرِهَا، ارْتَمَى عِنْدَ قَدَمِي لُعَيْبَةٍ وَقَبِلَ يَدَهَا بِاحْتِرَامٍ.  
قَالَتْ لَهُ:

- سَيِّدِي، يَبْدُو لِي ضَرُورِيًّا أَنْ أُعْلِمَكَ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي حَدَّتْ بِي  
لِلْاهْتِمَامِ الْكَبِيرِ بِسَلَامَتِكَ. اَعْلَمُ أَنَّنَا قَرِيبَانِ وَأَنْنِي ابْنَةُ الْمَلِكَةِ خَالَتِكَ  
وَأَنْنِي لُعَيْبَةُ نَفْسِهَا الْقَرْدَةُ الَّتِي وَجَدْتُهَا عِنْدَ شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَالَّتِي مِنْذُ  
ذَلِكَ الْوَقْتِ تَوَلَّاهَا ضَعْفُ الْحُبِّ حَيَالِكَ وَعَبَّرْتَ لَكَ عَنْ تَعَلُّقِي بِكَ  
كَنْتُ نَمُقُّهُ.

هَتَفَ الأمير:

- آه يا سيدي هل عليّ أن أصدّق حدثاً عجيباً كهذا؟ كنتِ قرّدة.  
أحببتني وأعرِف ذلك وكانَ قلبي قادراً على رفضِ هذا الخيرِ الأعظم!  
أجابَت ابنة الملكة مبتسّمة:

- علِمْتُ لتوي أنّي كنتُ ساكُونُ فكرة سيئةٍ للغاية عن ذوقِكَ  
لو أنّكَ تعلّقتَ بي بشكلٍ أو بآخر. ولكن يا سيدي لنزحلّ، تعبُتُ  
من سجنِي وأخشى مجيءَ عدوّتي. لنذهب عندَ الملكة والِدتي نزوي  
لها أشياء كثيرةٌ عجيبةٌ لا بدّ أن تثيرَ اهتمامها.

قال الأميرُ العاشقُ وهو يَضَعُ على دلفينهِ المَجَنّحِ مَحْتَضِناً الأُميرةَ  
بذراعيه:

- هيا يا سيدي، هيا نذهب إليها لترى في شخصك أَلطَفَ أُميرةٍ  
في العالم.

ارتَفَعَ الدلفينُ برفقٍ منطلقاً باتجاهِ العاصِمةِ حيث كانت الملكة  
تَمْضِي حياتها التّعيّسة، ذلك أنّ هَرَبَ لُعيبةٍ لم يترك لها لِحْظَةً راحَةٍ  
واحدة. لم تكن تستطيعُ الامتناعَ عن التّفكيرِ بها وتذكُرُ أشياء جميلةً  
قالتها لها. رَغِبَت في رؤيتها من جديد، رغم أنّها قرّدة، وتُعْطِي لِقَاءَ  
ذلك نِصفَ مَمْلَكَتِها.

عندما وصل الأميرُ، تنكّرَ في زيِّ شيخٍ هَرِمٍ وطلَبَ مِنَ الملكةِ  
الموافقة على مقابلته.

قال لها:

- سيدي، أدُرس منذ نعومةِ أظفاري فنَّ العرافة. وعليك أن  
تَحْكُمِي بنفسك أنّي لا أجهلُ الحَقْدَ الذي تُضْمِرُهُ بهارج لك،  
والتّبعات السيئة التي ترتبت على ذلك. لكن امسحي دموعك يا  
سيدي. لُعيبة تلك، التي رأيتها في الماضي قبيلةٌ جدّاً هي الآن أجملُ

أميرة في الكون. ستكونَ عما قريب بجوارك إن أنتِ وافقتِ على مُسَاحَةِ المَلَكَةِ شقيقَتكِ بسببِ الحَرْبِ الشَّرِسَةِ التي تشنُّها عليك، والتوقيع على معاهدة سلام بتزويج ابنتكِ بالأمير ابن أختكِ.  
قالت المَلَكَةُ وهي تبكي:

- لا أستطيع أن أصدق ما تقوله أيها الشيخ الحكيم. لعلك تزغب في التخفيف من همومي. لقد فقدت ابنتي العزيزة. فقدت زوجي. وأختي تدعي أن مملكتي ملك لها. وابنها هو أيضاً ظالم مثلها، جميعهم يُطاردونني ولن أتصلح معهم أبداً.  
أردف:

- للقدر طرُق لا تُدرَك. أنا تمَّ اختياري لأعلمك بذلك.  
أضافت المَلَكَةُ:

- هه! وماذا أَسْتفيدُ من الموافقة على هذا الزواج. تملك بهارج قدرة ومكرًا لا حدَّ لهما، وسوف تقف دوماً في وجه هذا الزواج.  
أجاب الرجل الطيب:

- لا تقلقي يا سيديتي. عديني فقط بأنك لن تعارضي أبداً هذا الزواج الذي هو غاية المنى.  
هتفت المَلَكَةُ:

- أعدك بكل ما تريد شرط أن أرى ابنتي الغالية من جديد.  
خرج الأمير وهرع إلى حيث تنتظره ابنة المَلَكَةِ. دُهِشت عندما رآته متنكراً على ذلك النحو. ورأى لزاماً عليه أن يخبرها أنه منذ فترة حصلت خلافات كثيرة بين المملكتين وأن التوتر الشديد يسود علاقتهما، لكنه استطاع للتو أن يجعل خالته توافق على تحقيق أمنياته. شعرت الأميرة بسرور عظيم وذهبت إلى القصر. لاحظ كل من رآها تشابهاً كاملاً مع المَلَكَةِ وسارَّعوا للحاق بها ليُعرفوا من تكون.

ما إن لمحتّها الملكة حتّى خفق قلبها بقوة كبيرة وهذا أكبر دليل على صدق الرواية. ازتمت الأميرة عند قدميها واحتضنتها الملكة بين ذراعيها. مكثنا لوقت طويل دون كلام مكفكفتين دموعهما بألف قبلة مفعمة حناناً، وأسرت الواحدة للأخرى بكل ما يمكن قوله في مناسبة ثمالة. بعدئذ، التفتت الملكة إلى ابن أختها ثم استقبلته على أفضل وجه ونفذت ما وعدت به العراف. أرادت التكلّم لوقت أطول لكن الضجة التي كانت تنهاى إليها من باحة القصر أرغمتها على أن تطل برأسها من النافذة. تفاجأت بوصول أختها الملكة وكانت مفاجأة لذيذة. ورأى الأمير والأميرة أن بيروكوا المحترم كان يتبعها وكريكتان الطيب كان هو أيضاً في الموكب. أطلقت صرخات الفرح والبهجة. وهرعوا للتلاقي بفرحة لا مثيل لها. وعقد قران الأمير والأميرة في الحال رغماً من أنف الساحرة بهارج التي نال هذا الحدّ السعيد من معرفتها ومكرها فأصيبت بارتباك كبير.

اخش من عدوك حتّى هداياه.

رُبَّ عدو يريد أن يلزمك بصدافته  
مدعيًا أنه يحبك

فيما يسعى سرّاً للانتقام منك.

الأميرة التي رويت لكم قصتها

كانت ستعيش بهناءً

لو وهبت خلفة حسنة.

ولكن الجنيّة الظالمّة بهارج

حبّتها بمواهب مسمومة

وحولتها إلى قرّدة قبيحة.

لكنّ هذا الامتساخ المشؤوم  
لم يستطع أن يقبّحها  
سهام الحب الحارق  
ولم يثنها عن الجرأة واختيار معشوقها أميراً  
أعرف الكثيرات مثيلاتها في أيامنا هذه  
لهنّ من القرودة قبّحها  
ويزعمنّ مع ذلك  
أنهنّ يأخذنّ بألباب أعظم الرجال  
شرط أن يتدخّل لصالحهنّ  
ساحرٌ مُحسِن  
ويمنّحهنّ، كما حدّث للقرودة لعيبة،  
شكلاً ظريفاً ليدفع بعجلة سعادتهنّ قدماً.



”القزم الأصفر»، للرّسام غوستاف ستال

Gustave Staal, 1860



## القزم الأصفر

كان يا ما كان، كان هناك ملكة لم يبقَ من الذرية العديدة التي أنجبها إلا فتاة واحدة تساوي أكثر من ألف فتاة. لكن والدتها، إذ رأت نفسها أزملة، ولا تملك شيئاً عزيزاً في هذا الوجود إلا تلك الأميرة اليافعة، تملكها خوف رهيب من فقدانها بحيث لم تكن تصحح شوائبها قط. وهكذا فإن الأميرة التي رأت نفسها تتحلّى بجمالٍ يفوق جمال سائر البشر، والتي قدّر لها تبوؤ العرش، أصبحت معتدّة جدّاً بنفسها وشديدة الغرور بمفاتيحها البازغة بحيث باتت تمقت الجميع.

وكانت أمها تدفعها، من خلال مُلاطفاتها ومجاملاتها، للاقتناع بأنّه ما من شيءٍ يمكنه أن يكون جديراً بها: فكانت تُشاهدُ دوماً مرتديّةً أزياء كازياء ربّات الأساطير من أمثال بالاس-أثينا أو ديانا، وتتبعها شريفات القصر الأكثر رفعةً مرتديات ثياب الحوريات. وأخيراً، ولكي تدفعَ بغرورها إلى أوجه، أطلقت عليها الملكة اسم آية الجمال. ثم أمرت أمهر الرسامين برسمها وأرسلت صورتها إلى ملوك كثر، كانت على صداقة وثيقة بهم. وعندما رأوا رسمها، لم يستطع أحدٌ مقاومة سطوة مفاتيحها. أصيب بعضهم بالسقم، وفقد بعضهم الآخر عقله، أمّا الأسعد حظاً فقد وصلوا إلى قصرها في صحّة جيّدة، ولكن كانوا ما إن تظهر عليهم حتى يصبحون أسرى سحرها.

لم يسبق لبلاط أن شاع فيه الغزل والأدب كمثل ذلك البلاط. كان عشرون ملكاً يتبارزون لينالوا إعجابها. وبعد أن أنفقوا مئات

الملايين لكي يقيموا لها فقط حفلة واحدة، كانوا يظنون أنهم نالوا  
 جزيلاً الاستحسان إذا حصلوا منها على عبارة إعجاب واحدة. كانت  
 الملكة مسحورة بمظاهر الولع والعشق المحيطة بها. لا يمر يوم إلا  
 ويتلقى القصر سبعة آلاف سونيتة<sup>(1)</sup> أو يزيد، وما يعادها من قصائد  
 الشكوى والغزل والأغاني يرسلها الشعراء من جميع أنحاء المعمورة.  
 كان كل ما يكتبه أدباء ذلك الزمان من نثر وشعر يتمحور فقط حول  
 آية الجمال. وكانت نيران الفرحة توقد على وقع هذه الأشعار مفرقة  
 متأججة أفضل مما على آية نار أخرى.

بلغت الأميرة سن الخامسة عشرة، ولا أحد كان يجروء على أن  
 يتقدم لطلب يدها ويحظى بشرف الزواج بها، ولم يكن أحد إلا  
 ويرغب في أن يصير زوجها. ولكن كيف السبيل للتأثير في قلب من  
 هذه الطينة؛ حتى لو شنقوا أنفسهم خمس مرات أو ستاً يومياً لكي  
 ينالوا إعجابها فإنها كانت ستعتبر ذلك مزحة سخيفة. كان عشاقها  
 يتحدثون عن قسوة قلبها التي لا ترحم، والملكة التي كانت تريد  
 تزويجها لم تكن تعرف كيف تتصرف لإقناعها بذلك.  
 كانت تقول لها أحياناً:

- ألا تريدن التخفيف قليلاً من هذه الكبرياء التي لا تُطاق  
 والتي تحدوك لتنظري بعين الاحتقار إلى كل الملوك الذين يأتون إلى  
 قصرنا: أريد أن أزوجك واحداً منهم، ألن تفعلي ذلك كزمتي لي؟  
 فتجيبها آية الجمال:

- أنا سعيدة جداً على هذه الحال. اسمحي لي يا سيدي أن أعيش  
 على سجيّتي مطمئنة. إذا حدث مرّة وفقدت هذه الطمأنينة فلن

(1) سونيتة: قصيدة من أربعة عشر بيتاً.

تكوني أنت نفسك مرتاحة.

أجابت الملكة:

- نعم، سأغتاظ إذا أحببت أحداً أقل من مقامك. ولكن انظري لهؤلاء الذين يطلبون يدك واعلمي أنه لا يوجد أحدٌ يضاهيهم منزلة في أيّ مكان.

كان هذا صحيحاً، ولكن الأميرة المعتزة كثيراً بنفسها، ظنت أنها تستحق ما هو أفضل. وشيئاً فشيئاً بدأت، من خلال معاندتها للبقاء عازبة، تتسبب بحزنٍ كبيرٍ لوالدتها، ما جعل هذه تندم، ولكن بعد فوات الأوان، على تماديها في تنفيذ كل رغبات ابنتها.

حارت في أمرها وقررت الذهاب بمفردها بحثاً عن جنية شهيرة تدعى جنية الصحراء، ولكن لم يكن من السهل رؤيتها لأن أسوداً كانت تحرسها. لا بل تكاد مقابلتها أن تكون أمراً مستحيلاً لو أن الملكة لم تعرف، ومنذ وقتٍ طويل، أنه يجب أن تُرمى للأسود حلوى مصنوعة من طحين الذرة البيضاء و«السكر نبات» وبيض التماسيح. عجنّت بنفسها تلك الحلوى ووضعتها في سلة صغيرة حملتها بذراعها. وبعدها مشت ردهاً من الزمن أحست الملكة بالتعب، فهي غير معتادة على ذلك، واضطجعت في أسفل إحدى الأشجار لترتاح من عناء المسير. ومن دون أن تدري، غفت، وعندما استيقظت، أبصرت سلتها فارغة من الحلوى. ولسوء الحظ، سمعت زئير الأسود الضخمة التي اشتمت أثرها فأتت نحوها محدثة جلبة كبيرة. هتفت بألم:

- يا ويلى! ماذا سيصير بحالي؟ ستلتهمني الأسود.

وراحت تبكي ولم تعد تقوى على القيام بخطوة واحدة سعياً

لإنقاذِ نفسها. استندت إلى الشجرة حيث رقدت، وإذا بها تسمع صوتاً يقول لها: «إشت، إشت، هم، هم». فتلفتت إلى كل الجهات، ثم رفعت بصرها إلى فوق ولمحت على الشجرة رجلاً صغيراً يأكل البرتقال، وكان طوله يبلغ ذراعاً واحداً.

قال لها:

- أوه! أيتها الملكة، أعرفك جيداً وأعرف الخوف الذي تشعرين به من أن تأكلك الأسود. لديك الحق في أن تخافي لأن الأسود التهمت الكثيرين غيرك وما يزيد الطين بلة أنه لم يعد لديك حلوى.  
قالت الملكة متنهدة:

- لم يبق لي إلا أن أستسلم للموت، وأسفاه كنت سأشعر بشقاء أقل لو أن ابنتي العزيزة تزوجت!  
هتف القزم الأصفر (هكذا كان يُسمى بسبب لون بشرته وشجرة البرتقال حيث يقيم):

- ماذا تقولين؟ ألدك ابنة؟ حقاً إن هذا ليسعدني لأنني أبحث لي عن امرأة براً وبحراً. اسمعي، إذا وعدتني بالزواج بها فسأحميك من الأسود والتمور والدببة.

نظرت إليه الملكة ولم يكن خوفها من وجهه الصغير المرعب يقل عن خوفها من الأسود. ظلت ساهمة ولم تجب بشيء.  
هتف بها قائلاً:

- ماذا؟ هل تترددين يا سيدي. يبدو أنك فقدت حبك للحياة! وفي الوقت نفسه لمحت الملكة الأسود في قمة إحدى التلال تُهرع نحوها. وكان لكل واحدٍ منها رأسانِ وثمانية أرجلٍ وأربعة صفوف

من الأسنان، وكان جلدها أقرسى من الحراشف وأحمر كالسختان<sup>(1)</sup>.  
لدى مرآها، ارتعشت الملكة المسكينة كالحمامة لدى رؤيتها صقراً  
كاسراً، وصرخت بكل قوتها:

- يا سيدي القرم، إن آية الجمال هي لك.  
قال بنبرة محتقرة:

- أوه! آية الجمال مفرطة الجمال، أنا لا أريدها، احتفظي بها  
لنفسك.

تابعت الملكة بنبرة مفجوعة:

- أيها السيد!، لا ترفضها، إنها أجمل أميرة في الكون.  
أجاب:

- حسناً، أقبلها على سبيل الإحسان، ولكن تذكّري الوعد الذي  
وعدتني به.

وللفور انفتحت شجرة البرتقال وارتمت الملكة داخلها بكل  
كيانها فانعلقت عليها قبل أن تدركها الأسود.

كانت الملكة في اضطراب عميم ففاتها أن ترى باباً صغيراً محفوراً  
في تلك الشجرة. وأخيراً لمحتة وفتحتة. كان يطل على سهل من  
القراص والأشواك، وتحيط به حفرة موحلة، وعلى مسافة أبعد قليلاً  
كان هناك بيت صغير سقفه منخفض جداً مكسو بالتبن: خرج منه  
القرم الأصفر بهيئة مريحة، كان ينتعل قبقاباً ويرتدي مسحاً أصفر.  
وبدا أصلع كبير الأذنين وأشبه ما يكون بصعلوك صغير.  
قال للملكة:

- أنا في غاية السرور أيتها السيدة حماي، أن ترى القصر الصغير

(1) سختان: جلد الماعز المدبوغ والملون..

حيث ستعيش معي آية الجمال. بإمكانها أن تطعم من هذا القراص والشوك حماراً يحملها على ظهره ويجول بها في نزهة. بإمكانها أن تحتمي تحت هذا السقف الريفي من وطأة الفصول وتشرّب من هذا الماء وتأكل من بعض الضفادع التي تتغذى فيه بشراهة. وأخيراً سوف تحظى بي نهراً وليلاً بقرّبها، جميلاً، دائم النشاط، ومكتمل الذكورة كما ترينني، لأنني سأغضب إذا كان ظلّها سيرافقها أفضل مني.

نظرت الملكة التّعيسة الحظّ دفعةً واحدةً إلى الحياة المثيرّة للشفقة التي يعدّها القزم ابنتها العزيزة. وبما أنها لم تستطع تحمّل هذه الفكرة المريعة فقد سقطت بطولها فاقدة الوعي وغير قادرة على الردّ بكلمة: ولكن فيما هي على تلك الحال أعيدت إلى سريرها سليمةً معافاةً مرتديةً قلنسوة رائعة للنوم وشعرها معقود بأجمل شريط. نهضت الملكة وتذكّرت ما حدث لها. لم تصدق شيئاً منه لأنها ألقت نفسها في قصرها وسط وصيفاتها، وابنتها إلى جانبها. لم يكن يبدو عليها أنها زارت الصحراء وواجهت أخطاراً كبيرة وأن القزم خلصها من ورطة محتومة لقاء تزويجها بابنتها آية الجمال. ومع ذلك فإنّ قبعته المزدانة بدانتيلاً نادرة والشريط في شعرها فاجأها بقدر ما فاجأها الحلم الذي خالت أنها رآته. ولشدة قلقها، أصابته كآبة عميقة فعجزت عن الكلام والأكل والنوم.

انشغل بال الأميرة عليها وكانت تحبّها كثيراً. توسّلت إليها مرّاتٍ عدّة لتقول لها ما بها لكنّ الملكة كانت تبحث دوماً عن ذرائع فتجيبها تارةً بأنّ ذلك عائدٌ لسوء صحّتها وطوراً أنّ أحد جيرانها كان يتهدّدُها بشنّ حربٍ كبيرة عليها. رأت آية الجمال أنّ إجاباتها

كانت مقنعة ولكنها أحست أن شيئاً آخر يشغل بال الملكة في الحقيقة وأنها تتفنن في التستر عليه. أحست بأن القلق يسيطر عليها فاتخذت القرار بالذهاب للقاء جنيّة الصحراء التي طبقت شهرتها وسعة معرفتها الآفاق. كانت راغبة هي أيضاً في طلب مشورتها لكي ترى ما إذا كان عليها أن تظل عازبة أو تتزوج لأن الجميع كانوا يحثونها بإصرار على اختيار عريس لها: عُنيّت هي نفسها بتحضير حلوى من شأنها التهدئة من روع الأسود. تظاهرت بأنها ستخلد للنوم باكراً وخرجت عبر درج سري ووجهها مغطى بمنديل أبيض يصل حتى قدميها. وهكذا سارت وحيدة إلى المغارة حيث تقطن تلك الجنيّة البارعة.

ولكن، حين وصلت إلى شجرة البرتقال المشؤومة التي سبق أن تحدثت عنها، رأتها مكسوة تماماً بالثمار والأزهار فأخذتها رغبة في أن تقطف منها. وضعت سلتها أرضاً وقطفت برتقالاً أكلت منه. وعندما أرادت استرجاع سلتها والحلوى داخلها، لم تجد شيئاً. شعرت بالكرب والحزن. وفجأة رأت قربها القزم الصغير المخيف الذي حدثكم عنه.

قال لها:

- ماذا دهك أيتها الصبيّة الحلوة، لماذا تبكين؟

أجابته:

- وا أسفاه! ومن لا يبكي في مثل حالتي؟ لقد فقدت سلتي وحلواي وهما كانتا ضرورتين جداً لي لكي أصل بسلام إلى جنيّة الصحراء.

قال هذا القرد الصغير:

- حسناً! ماذا تريدن أيتها الصبيّة الحلوة، أنا قريبها وصديقتها  
وبمثل براعتها إن لم أكن أكثر براعة.  
أجابت الأميرة:

- الملكة والدتي أصابها منذ بعض الوقت حزن مخيف يجعلني  
أخشى كثيراً على حياتها. يساورني الظنّ بأنني ربّما كنت السبب لأنّها  
تتمنى أن أتزوج. وأعرّف لك أنني لم أجد حتى الآن من هوَ جديرٌ  
بي. لهذه الأسباب مجتمعة عليّ أن أتحدّث إلى الجنيّة.  
قال لها القزم:

- لا تتكبدي مشقة الذهاب إليها. أنا أقدرُ منها على تقديم النصح  
لك في هذه المواضيع. الملكة أمك يُسجّيها أنّها وعدت بك للزواج.  
قالت وهي تقاطعه:

- الملكة وعدت بي للزواج! بالله عليك! لا شك أنّك مخطئ.  
كانت ستخبرني بذلك ولا يحقّ لها أن تورّطني دون أن تأخذ موافقتي.  
قال لها القزم جاثياً فجأةً على ركبته:

- أيتها الأميرة الجميلة، أمل أن يروق لك هذا الاختيار عندما  
أعلمك بأنني أنا من هوَ مقدرُ هذه السعادة الكبرى.

هتفت آية الجمال وهي تراجع خطواتٍ إلى الخلف:

- أمي تريدك صهراً لها! هل صارت يا ترى بمثل جنونك!  
قال القزم غاضباً:

- قلما أهتمّ لهذا الشرف على آية حال! ها هيّ الأسود تقرب  
وبثلاث نهشاتٍ من أنيابها ستنتقم لي من جرّاء احتقارك المصحف لي.  
وعلى الفور، سمعت الأميرة التعيّسة الأسود تفد مطلقاً زئيراً  
متواصلاً.



هتفت:

- ماذا سيصير بحالي؟ ماذا؟ هل سأنهي أيامي الحلوة على هذه

الشاكلة؟

نظر إليها القزم الشرير وضحك باحتقار قائلاً لها:

- على الأقل ستحظين بمجد أن تموتي عازبة. ثم إنك لن تكوني

عقدت زواجا غير متكافئ مع قزم بائس مثلي.

قالت له الأميرة وهي تجمع يديها الجميلتين:

- عفوك، لا تغضب، أفضل الزواج بكل أقزام الكون على أن

أقضي نحبي بهذه الطريقة المريعة.

أجاب:

- انظري إلي جيداً أيتها الأميرة قبل أن تعطيني كلمتك لأنني لا

أدعي اختطافك عنوة.

قالت له:

- لقد نظرت إليك في الحقيقة. الأسود تقرب وخوفي يزداد؛

أنقذني، ألا أنقذني وإلا فإنني سأموت خوفاً.

وبالفعل، لم تكذب أنني هذه الكلمات حتى سقطت مغمياً عليها،

ومن دون أن تعرف كيف، وجدت نفسها في سريرها مرتديةً أجمل

ملابس النوم ومرتزةً بأجمل الأشرطة وفي إصبعها خاتم صغير

مصنوع من شعرة واحدة صهباء. كان مثبتاً بقوة بحيث يستحيل

انتزاعه من إصبعها.

عندما رأت الأميرة كل هذه الأشياء وتذكرت ما حدث معها

الليلة الماضية، غرقت في كآبة عميقة فتفاجأ أهل البلاط وشعروا

بالقلق عليها. وأدركت الملكة خطورة الأمر أكثر من أي إنسان

آخر فسألتها آلاف المرات ما بها لكنها كانت تصرّ بعنادٍ على إخفاء مغامرتها. وأخيراً، عيل صبر الرعايا في ولايات المملكة لأنهم أرادوا أن يفرحوا بأميرتهم، فاجتمعوا وأرسلوا وفوداً للقاء الملكة، وللتوسل إليها لتختارَ زوجاً لابنتها في أقرب وقتٍ ممكن. أجابت بأن ذلك هو جل ما تتمناه، ولكن ابنتها عازفة عن الزواج؛ لذا نصحتهم بالذهاب لمقابلتها وإسداء النصيح إليها لعلها تتخلى عن موقفها ذلك. فانصاعوا لرغبتها وذهبوا في الحال. كانت آية الجمال قد خففت كثيراً من غلوائها منذ لقائها بالقزم الأصفر. لم تكن تتصوّر وسيلة أفضل لإنقاذها من تلك الوزطة إلا إذا اقترنت بملكٍ عظيم، وعندئذ لن يجرؤ ذلك القرد الصغير على منافسته على الفوز بقلب الأميرة. وهذا ما دفعها للتجاوب مع مطلبهم أكثر مما كانوا يأملون. ومع أنها تؤثر البقاء عازبة طيلة حياتها إلا أنها أعلنت موافقتها على الزواج بملك مناجم الذهب وهو رجل كلي القدرة، بهي الطلعة، كان يحبها بشغفٍ عميقٍ لبضع سنوات خلت، لكنه لغاية ذلك الوقت لم يستطع أن يثنيها عن موقفها.

من السهل إذا تصوّر مقدار فرحته عندما علم بهذا الخبر السعيد، وباستياء جميع خصومه لأنهم فقدوا إلى الأبد الرجاء الذي كان يغذي شغفهم: فإن آية الجمال لن تتمكن من الزواج بعشرين ملكاً هي التي شق عليها كثيراً أن تختار واحداً، لا سيما وأن غرورها لم يكن ليهادين، وأنها كانت مقتنعة تماماً بأنه لا أحد في العالم يليق بمقامها.

وأجريت الاستعدادات اللازمة لأعظم احتفال في الكون: وأرسل ملك المناجم أموالاً لا حد لها على متن السفن التي ملأت البحر. وبعث إلى القصور الأكثر أدباً وتأنقاً، وخاصة القصر الملكي

في فرنسا، بموفدين لبأتوا بالزينة الأكثر ندرّة لتزدان بها الأميرة. لكنّها، وأكثر من أيّة امرأة أخرى، لم تكن بحاجة لزينة لتبرز جمالها لأنّ جمالها كان كاملاً مكتفياً بذاته. أمّا ملك مناجم الذهب فصار يلازم الأميرة الفاتنة على الدوام لا سيّما وأنّ زواجه بها بات وشيكاً. كانت مصلحتّها تقتضي التعرّف إلى شخصيّته وطباعه عن كُتب فاكشفت لديه فضائل كثيرة، وذكاءً متوقّداً، وعواطف جارفة، وأحاسيس مرهفة؛ وباختصارٍ لمست لديه روحاً رائعة في جسدٍ كامل، وبدأت تبادله بعضاً من المشاعر التي يُحسّ بها نحوها. يا للحظّات السعيدة التي نَعما بها إذ أيقنا أنّ أمامها الوقت كلّه ليغرّفا بسخاء من ذلك الحنان الذي يجمعهما وهما في أحضان أجمل حديقة في الدّنيا: وغالباً ما كانت متع الوصال معزّزة بتلك التي تمنحها الموسيقى. وراح الملك العاشق الولهان ينظّم الأشعارَ والأغاني للأميرة. وهاكم أغنية وجدّتها هي جميلة جداً:

لدى رؤيتك، تتزيّن هذه الغابات بالأوراق،  
وتلتمع المروجُ بألوانها الفاتنة،  
وعلى وقع قدميكِ يعانق النسيمُ الأزهارَ فتفتّح،  
تحتدم زقزقة العصافير العاشقة بين الأغصان،  
وكلّ شيءٍ في هذه الخلوة السّاحرة يضحك،  
كلّ شيءٍ يتعرّف إلى ابنة الحبّ.

كان العاشقان في أوج السعادة. وخصوم الملك الذين كانوا يحسدونه على حسن طالعه، غادروا البلاط يائسين وعادوا إلى

ديارهم والحسرة تملأ قلوبهم، عاجزين عن أن يكونوا شهوداً على زواج آية الجمال. ودّعوها بطريقة مؤثرة جداً ما دفعها إلى أن ترثي لحالهم.

قال لها ملك مناجم الذهب:

- آه يا سيدي، ما هذا الاختلاس لحقي اليوم! تمنحين شفقتك لخلائ يتعزّون عن آلامهم بنظرة واحدة من عينيك.  
أجابت آية الجمال:

- تلومني على التعاطف الذي أبديه لأمرء تخلّوا إلى الأبد عن كل أمل بالفوز بي، وكنت سألومك على قسوتك لولا أنها برهان آخر على رهاقتك أخذه أنا بعين الاعتبار: ولكن يا سيدي، حالتهم مختلفة كلياً عن حالتك. يجب أن تشعر ببالغ السرور، لأنهم لا شيء لديهم يستطيعون أن يفتخروا به. فلا تتماد في غيرتك كثيراً.

فما كان من ملك مناجم الذهب، وقد احتار كلياً إزاء الطريقة المهذبة التي كانت تتعامل بها الأميرة مع أمر كان يمكن أن يتسبب لها بالحزن، إلا أن ارتمى عند قدميها وقبل يديها طالباً منها المغفرة ألف مرة.

وأخيراً وافى ذلك اليوم المنشود الذي طال انتظاره: كان كل شيء جاهزاً لزفاف آية الجمال، وأعلنت الآلات والأبواق عبر المدينة كلها إيدان ذلك الاحتفال الكبير. كُسيَت الشوارعُ بورقِ الجدرانِ وفُرِشت بالأزهار. وهُرِعَ الشعب المحتشد إلى ساحة القصر الكبيرة. لشدة فرح الملكة فارق النوم عينيها ونهضت منذ الفجر الباكر لكي تُعطي الأوامر الضرورية، وتختار الأحجار الكريمة التي يُفترض بالأميرة أن تتزيّن بها. وكان الألماس هو الطاغى: حذاؤها من

الألماس، وثوبها من الدِّياجِ الفضيّ المرقش بخيوط الشّمس الذهبية الباهظة الثمن. لا شيء كان أبهى من زينة الأميرة إلا جمالها الذي فاق الشّمس بهاءً: كان رأسها مزيناً بتاج نفيس وشعرها مسترسلاً حتى قدميها، وجلال قامتها بارزاً وسط كل أولئك النساء اللواتي رافقنها. وكان ملك مناجم الذهب يضاهيها اكتمالاً وجمالاً. كانت فرحته بادية على وجهه وفي جميع أفعاله. لا أحد قاربه إلا وعاد محملاً بعطاياه الكثيرة؛ كان وضع حول صالة الولايم ألف برميل ملآن ذهباً وأترع بليراتٍ ذهبيّة حقايب كبيرة من المخمل المطرز باللالئ. وكل واحد كان يستطيع أن يأخذ مائة ليرة تُعطى لكل من يمدّ يديه دون تمييز، ما جعل ذلك الاحتفال الجانبي، من بين العديد من الاحتفالات الأخرى المسلية والممتعة التي يُحفل بها ذلك الزفاف، يجتذب إليه أشخاصاً كثيرين قلما كانوا يهبون للمتعة الأخرى.

تقدّمت الملكة والأميرة لكي توافيا الملك. عندئذ رأتا ديكين روميين ضخمين يدخلان في الرواق الطويل حيث سارتا، وكانا يجزان صندوقاً في غاية الرّداءة، وخلفهما امرأة عجوز طويلة القامة طاعنة في السن ومهلهلة بقدر ما هي شنيعة القبح. كانت تتكئ إلى عكاز وترتدي ياقة مجمّدة من التفتا السوداء وعباءة من المخمل الأحمر وثوباً منفوخاً رثاً. قامت بثلاث دورات مع الديكين الروميين من دون أن تنبس بكلمة ثم توقفت وسط الرواق وهزت عكازها بطريقة متوعّدة؛ وهتفت:

- تبا لك أيتها الملكة! وتبا لك أيتها الأميرة! تريدان أن تنكثا بالوعد الذي أعطيتاه لصدريقي القمرم الأصفر دون عقابٍ على ما فعلتُها! أنا جنيّة الصّحراء: أفلا تعرفان أنه من دونه ومن دون

شجرة البرتقال التي يملكها، كانت أسودي الضخمة ستلتهمكما؟ لا نتحمل في مملكة السحر مثل هذه الإهانات. فكراً بسرعة بما يتوجب عليكما أن تفعلاه لأنني أقسم بغطاء رأسي، رأس الساحرة، أنك ستزوجه أو أحرق عكازي.

قالت الملكة وهي تبكي:

- آه! أيتها الأميرة، ماذا تقول، بماذا وعدت؟

فأجابت آية الجمال بألم:

- آه يا أمي! بماذا وعدت أنتِ نفسك؟

استاء ملك مناجم الذهب مما يجري ومن تلك العجوز الشريرة التي أتت لتعرض الطريق أمام إتمام فرحته. فاقترب منها والسيف في يده وغرزه في صدرها قائلاً لها:

- أيتها البائسة، ابتعدي عن هذه الأمكنة إلى الأبد وإلا لانتقمت من شرك بقتلك.

ما كاد يلفظ هذه الكلمات حتى طار غطاء الصندوق وحط على الأرضية محدثاً ضجة مرعبة وخرج منه القزم الأصفر ممتطياً قطعاً إسبانياً وأتى ليقف بين جنية الصحراء وملك مناجم الذهب.

قال له:

- أيها الشاب المتهور، لا تفكر بإهانة هذه الجنية العظيمة، لا دخل لك إلا بي وخطي، أنا خصمك وأنا عدوك. الأميرة الخائنة التي تريد الزواج بك أعطتني كلمتها وأعطيتها كلمتي. انظر وستجد في إصبعها خاتماً من شعرة من شعري. حاول أن تنتزعه منها وسترى عبر هذا المسعى الصغير أن قدرتك أقل من قدرتي.

قال له الملك:

- أيها المسخ البائس، هل لديك الجرأة على أن تقول إنك تهوى هذه الأميرة التي حظيت من السموات بهذا الجمال الباهر، وأن تدعي أنك تريد الزواج بها؟ هل فكرت بأنك قرد ووجهك البشع يُؤنف من النظر إليه. سأقتلك لكنك لست جديراً حتى بهذه الميتة.

فغضب القزم الأصفر المهان في صميم قلبه، وما كان منه إلا أن غرز المهماز في بطن هره فبدأ هذا يموء مواءً مرعباً ويقفز هنا وهناك خيفاً للجميع إلا الملك الشجاع الذي كان يُحاصر القزم عن قرب. عندئذٍ أخرج هذا الأخير سيفاً قصيراً كان متمنطقاً به ونزل إلى ساحة القصر متحدثاً للملك ومحدثاً ضجة غريبة.

تبعه الملك الغاضب بخطوات كبيرة. وما إن تواجهها وخرج أفراد الحاشية كلهم على الشرفات حتى أصبحت الشمس فجأة حمراء وكأنتها مدماة، ثم أتمت بحيث كادت الرؤية تنعدم. بدت الرعود والبروق وكأنتها تريد أن تدمر الأرض، وظهر الديكان الروميان بالقرب من القزم الشرير وكأنتها عملاقان أعلى من الجبل وقذا من منقاريهما وعيونهما ناراً متدفقة متأججة وكأنتها حمم لاهبة. إلا أن كل هذه الظواهر لم تكن قادرة على إحداث الرعب في قلب الملك الشاب الشهم. فقد أظهر بسالة نادرة طمأنت كل أولئك المهتمين بسلامته وربما تسببت بإحراج شديد للقزم الأصفر: لكن شجاعته خانته عندما رأى حال أميرته العزيزة: امتطت جنيّة الصحراء، ورأسها مكسو بأفاع طويلة، على طريقة تيسيفون<sup>(1)</sup>، ظهر عنقاء مغربة<sup>(2)</sup> مجنحة ثم أمسكت رحماً ورمت به الأميرة فتهاوت هذه بين ذراعي

(1) تيسيفون: إحدى إلهات الغضب والانتقام في الميثولوجيا الإغريقية.

(2) عنقاء مغرب أو عنقاء مغربة: طائر أسطوري نصفه نسر ونصفه أسد.

الملكة غارقة في دَمِهَا. كان وقع الرَّمح على تلك الأم الحنونَة أشدَّ إيلاماً منه على ابنتِها، فأطلقت صراخاً ونحيباً يفوقان الوصف. ففقدَ الملك شجاعته وُجُنَّ جنونه. تخلَّى عن المعركة وهُرِعَ إلى الأميرة لكي يُغيثها أو لكي يموت معها. لكنَّ القزم الأصفر لم يترك له الوقت للاقتراب منها بل اندفَع مع قطه الاسباني على الشرفة حيث كانت وانتزَعها من يدي الملكة وجميع النساء ثم قفزَ على سطح القصر واختفى مع فريسته.

وفي غمرة الحيرة والذهول، نظرَ الملك بيأسٍ مطلَقٍ من حوله وشعر بتعاسة كبيرةٍ لآنه لم يستطع أن يقدم أيَّ حلٍّ للمأساة العارمة التي كانت تحدث أمامه. وما زادَ الطين بلةً هو أنه شعَرَ أن عينيه حُجِبَ عنها الضوء واكتسبتا بالظلمة وأن قوّة هائلة حملته في الفضاء الرَّحْب. يا لانعدام الحظوة! أيها الحب، أيها الحب المتوحش، أبهذه الطريقة تعامل أولئك الذين يعترفون بك منتصراً؟

ولكنَّ الجنيّة الشريرة، جنيّة الصحراء التي أتت مع القزم الأصفر كي تساعده في اختطاف الأميرة، أعجبت بشجاعة الملك الشاب فرَقَّ قلبها العديم الإحساس وأرادت أن تجعله فريستها فاصطحبته إلى ظلمة كهفها المخيف حيث أثقلته بالسلاسل ثم ربطته إلى إحدى الصخور.

كانت تأمل أن يحمله الخوف من الموت على نسيان آية الجمال ويلزمه بأن يفعل ما تشاء. وما إن وصلت إلى كهفها حتى أعادت إليه بصره دون حرّيته، ثم، مستعيرة من فنّ السحر النعم والمفاتن التي حرمتها منها الطبيعة، بدت أمامه بهيئة حورية جعلتها الصدفة تأتي إلى تلك الأمكنة.



هتفت قائلة:

- ماذا أرى؟ هذا أنت أيها الأمير السّاحر... أيّ حَظٍّ سيِّءٍ تسبّب لك بهذا الضّنى واستبقاك في هذه الخلوّة الحزينة؟

أجاب الملك المخدوع بالمظاهر الكذّابة:

- واحسرتاه أيتها الحوريّة الجميلة، أجهل ماذا تريد مني جنيّة الغضب الجهنميّة التي قادتني إلى هنا. ومع أنّها حرّمتني نعمة النظر عندما اختطفتني ولم تظهر منذ ذلك الحين، فأنا لم يفتني أن أتعرف في صوتها إلى جنيّة الصّحراء.

هتفت الحوريّة الزّائفة:

- آه! أيها السيد، إذا كنت بين يدي هذه المرأة فلن تخرج من الورطة إلّا بزواجك بها. قامت بهذه الحيلة مع أكثر من بطلٍ وهي يستحيل أن تلين في موافقها أو تراجع عنها.

وفيما كانت الحوريّة تتظاهر بالتعاطف مع حزن الملك، لمح قدميها اللتين كانتا شبيهتين بقوائم عنقاء مُغرب: كانت تلك العلامة التي يُستدلّ بها دوماً على الجنيّة في مختلف تحولاتها لأنّها لا تستطيع تغيير تلك البرائن.

تظاهر الملك بعدم الانتباه وتحدّث إليها بنبرة حميمة. قال لها:

- لا أشعر بأيّ نفورٍ حيال جنيّة الصّحراء لكنّ الأمر الذي أستهجنه حقاً هو وقوفها إلى جانب القزم الأصفر ضدي وإبقائي مقيداً مثل مجرم. ماذا فعلتُ لها؟ ذنبي أنني أحببتُ أميرةً فاتنة. لكنني أشعر بأنني، إن هي أعادت إليّ حرّيتي، فإنّ امتناني لها سيُلزمني بالأحِبِّ سواها.

قالت الحوريّة بنبرة خائبة:

- هل تقول الصدق؟

أجاب الملك:

- لا تشكّي في ذلك. لا أعرف إطلاقاً فنّ التملّق. وأعترف لك أنّ جنّية تستطيع أن تُرضي غروري أكثر من أميرة عادية. لكنّي، وإن كنت أشعر بالحبّ حيالها، إلاّ أنّني لن أظهر لها إلاّ الحقد حتّى أعود حراً وسيّد نفسي.

انخدعت جنّية الصّحراء بهذه الكلمات، فالتحذت القرار بنقل الملك إلى مكان جميل بقدر ما كانت عزلته في تلك الأماكن مرعبة. وأزغمته على الصّعود في عرّبتها التي أوثقت إليها البجع بدّل طيور الخفّاش التي كانت تقودها عادةً، وطارّت من قُطب إلى آخر.

لكن ماذا صار بحال ذلك الأمير، عندما اجتاز على هذا النّحو فضاء الهواء الرّحب، ولمح أميرته الغالية في قصر من الفولاذ كلّه، وجدرانها التي تضيئها أشعة الشمس تصبّح كمرآيا متوهّجة تحرق كلّ من يقترب منها؟ رآها في غابة صغيرة، مضطجعة عند ضقة أحد الجدّاول، مسندة يداً إلى رأسها ويديها الأخرى بدت وكأنّها تمسّح دموعها. وإذا رفعت عينيها نحو السّماء مستغيثة بها، رأّت الملك يمرّ بصحبة جنّية الصّحراء التي استعملت فنّ السّحر وهي الخبيرة فيه لتبين على هيئة جميلة في عيني الملك الشاب، والتي بدّت في عيني الأميرة أروع شخص في العالم.

هتفت:

- ماذا! أليس يكفيني ما أنا عليه من تعاسة في هذا القصر المنيع الذي نقلني إليه القزم الأصفر المرعب؟ هل على شيطان الغيرة أن يأتي لمطاردتي حتّى هنا ليزيد من بليّتي؟ هل كان لزاماً عليّ أن

أخوضَ هذه التجربة الغريبة لأعلمَ بخيانة ملكٍ مناجم الذهب لي؟  
لقد ظنّ، وقد غُبت عن ناظره، أنه تبرأ من كلِّ العهود التي قطعها  
على نفسه تجاهي. ولكن من هي هذه المرأة العجيبة التي تنافسني على  
قلبه وبيزّ جاهلها المشؤوم جمالي؟

وفيها هي تتكلم على هذا النحو، شعرَ الملك العاشق بألمٍ مميتٍ  
لكونه أبعدَ بهذه السرعة عن حبيبته قبلة أمانه. ولو أنه لم يكن يعرف  
قدرة الجنّة حق المعرفة، لكانَ بذلَّ كلِّ مسعىٍ للتخلص منها، إما  
بقتلها أو بأيّ وسيلةٍ أخرى يملئها عليه حبه وبسالته: ولكن ما  
العملُ إزاء جنّة تملك كلَّ ذلك الجبروت؟ وحدهما الوقت والفضّة  
بوسعهما أن يحزّراه من قبضتها.

لمحت الجنّة آية الجمال وتحوّرت في عيني الملك لكي تنفذ إلى الأثر  
الذي خلقه مرآها في قلبه.  
قال لها:

- ما من شخصٍ مخوّل أكثر منّي لكي يقول لك ما تريد من معرفته.  
إنّ اللقاء غير المتوقع بأميرةٍ تعيسة كنت متعلقاً بها قبلَ تعلقي بك أثارَ  
انفعالي قليلاً. ولكنتك أسمى منها مقاماً بكثيرٍ في روعي، وأنا أفضل  
الموت على أن أخونك.  
قالت له:

- آه أيها الأمير، هل أستطيع الافتخار بأنني ألهمتك مشاعر جميلة  
ناحيي؟  
قال لها:

- الوقت سوف يقنعك يا سيّدي. لكن إذا أردت أن تقنعيني  
بأنني أحظى بجزءٍ قليلٍ من رأفتك فلا ترفضني أن تقدّم يد المساعدة

لآية الجمال.

قالت الجنّة مقطبةً حاجبها وناظرةً إليه شزراً:

- هل فكرت ملياً بما تطلبه؟ هل تريدني أن أستخدم علمي لمواجهة القزم الأصفر الذي هو صديقي المفضل، وأن أنتشل من بين يدي أميرة صلفة لا أستطيع النظر إليها إلا بصفتها عدوّتي؟  
تنهّد الملك دون أن يُجيب بشيء؛ فماذا كان بإمكانه أن يجيب ذلك الكائن الخارق النافذ البصيرة؟

وصلاً إلى مرّج واسع، منمّق بألف زهرة مختلفة ويحيط به نهر عميق وجداول عدّة تسيل من النوافير هدهد تحت أشجار ملتفة وارفة الظلال. وكان يُلمح في البعيد قصر بديع جدرانها من الزمرد الشفاف. وللحال خفّضت البجعيات التي كانت تقود الجنّة رؤوسها للمرور تحت إحدى الباحات المعتمدة التي كانت أرضها مرصوفة بالأماس وقيتها بالياقوت الأحمر. ومن كلّ جانب جاءت حشود من الناس لاستقبالها مرّحين مهلّلين بهتافات الفرح. وأخذوا ينشدون هذه الأغنية:

عندما يريد الحب أن يفوز بأحد القلوب  
فعبثاً تُبذل الجهود لمقاومته  
بل هي تزيد على مجده مجدداً  
لأن أكبر الظافرين هم فيه أول المنهزمين.

كانت جنّة الصحراء مفتونة لسماها الأغاني المحتفلة بغرامياتها. قادت الملك إلى أجمل جناح وُجد في تاريخ الجنّيات، وتركته هناك

بضعَ لحظات لكي لا يشعرَ بأنه أسير بشكل مطلق. شكٌّ في أن تكون  
ابتعدتَ وأدركَ أنها مختبئةٌ في مكانٍ ما تراقبُ ما يفعله، ما أرغمه على  
الاقترابِ من مرآةٍ كبيرةٍ فتوجهَ إليها قائلاً:

- أيتها المستشارَة الوفيّة اسمحي لي بأن أرى ما يمكن فعله لكي  
أبدو ظريفاً في عينيّ جنيّة الصّحراء الفاتنة لأنّ رغبتني في أن أروق لها  
تشغل بالي باستمرار.

وللحالِ سرّحَ شعره وطلّى جسمه بالذّرور ووضَعَ على وجهه  
خالاً اصطناعياً صغيراً<sup>(1)</sup>، ثمّ إذ رأى على إحدى الطّاولات ثوباً  
أجملَ من ثوبه، ارتداه على الفور.

أحسّت الجنيّة بأنّها في نشوةٍ من الفرح ولم تستطع تمالك نفسها.  
قالت له:

- أعلّمك بأنني آخذ بعين الاعتبار الجهود التي تبذلها لتروق لي.  
لقد وجدتَ السرّ حتّى دون أن تفتش عنه. أنت احكم بنفسك، إذا  
أردتَ سهّل لك كل شيء.

لم يوفّر الملك، الذي كانت له أسبابه، كلاماً مغسولاً لم يقله للجنيّة  
العجوز، ونال شيئاً فشيئاً الحرّية للذهاب والتّزّه على طولِ شاطئِ  
البحر. ولقد استخدمت الجنيّة سحرها الرّهب لتجعل البحر عاصِفاً  
بحيث لا يتجاسر قبطان على الإبحار فيه. وهكذا لم يكن عليها أن  
تحشى شيئاً للتّساهل الذي أبدته حيال سجينها. أحسّ الملك بعزاءٍ  
قليل لأنّه سيكون قادراً ولو لبعض الوقت على الحلم وحيداً دون أن  
تقطع خلوّته السجّانة الشريّة.

وبعدَ أن مشى طويلاً على الرّمْل، انحنى وكتبَ هذه الأشعار

(1) في الواقع قطعة قماش من الثفتا السوداء بحجم جناح الذبابة توضع كزينة على الوجه.

بِعَصَا كَانَ يُحْمِلُهَا فِي يَدِهِ:

وأخيراً، أستطيعُ البكاءَ بحريّة  
عساني أخفّف من آلامي  
واحسرتاه! غابت عن ناظري  
مفاتنُ الحسنةِ التي سحرتني.

أما أنتَ أيّها البحر العاصف، أيّها البحر الرّهيب  
أنت يا من تجعل ضفافك منيعَةً على الفانين  
وتتلاعب بأموالك الرّياحُ المسعورة  
تدفعك تارةً نحوَ الجحيم السّفليّة وطوراً إلى السّموات  
إنّ قلبي لأقلّ هدوءاً  
مّا يبدو لك.

يا آيةَ الجمال! آه! أيّها القدرُ الهمجّي  
فقدتُ حبيبتني  
أيّتها السّماء! سجنني يفرّقني عنها  
أيّتها السّماء لماذا تؤجّلين موتي؟

يا إلهَ الأمواج  
لقد سبقَ أن شعرتَ بقدرّة الحبّ،  
فاخرج من كهوفك العميقة  
وأضعف عاشقاً صارَ إلى اليأس.

وأثناء الكتابة، سمع صوتاً جَذَبَ انتباهه رغماً عنه، ولما رأى الأمواج تتضخّم، نظر إلى كلّ الجهاتِ وعندئذٍ لمَحَ امرأة ذات جمال خارق، متدثّرة بشعرها الطويل الذي تداعبُه النسائم ويعوم على صفحة الماء. كانت تحمِلُ في إحدى يديها مرآة وفي الأخرى مُشطاً، جسدها ينتهي بذيل سمكةٍ طويلٍ وزعانف. مكث الملك مندهشاً من ذلك اللقاء الخارق. وما إن استطاعت الكلام حتى قالت له:

- أعرف الحال المحزنة التي تعيش فيها لابتعادك عن أميرتك، والشغف الغريب الذي تكثه لك جنّية الصحراء. إذا شئت فسوف أنتشلك من هذا المكان المشؤوم الذي قد تبقى أسيره لمُدّة تزيد على ثلاثين عاماً.

لم يعرف الملك بماذا يجيب. ليس لأنه لا يرغب في الخروج من الأسرٍ لكنّه خشي أن تكون جنّية الصحراء قد اتخذت تلك الهيئة لكي تنصب له فخاً. وبما أنه كان متردداً، حدّست الحورية أفكاره وقالت له:

- لا تظنّ أنّ هذا فخاً أنصبه لك. نواياي طيبة جداً ولا يمكنني بالتالي أن أرغب في خدمة أعدائك: إنّ الطريقة التي انتهجتّها جنّية الصحراء والقزم الأصفر قد ألبّسني عليهما. أرى في كلّ يوم أميرتك التعيّسة الحظّ وأرى جمالها ومزاياها فأشفق عليها أكثر، وأعود وأكرّر لك: إذا وثقت بي أنقذتُك.

هتف الملك:

- لديّ ثقة مطلقة بكِ وسأفعل كلّ ما تأمريني به. لكن بما أنّك رأيت أميرتي فزويديني بأخبارها.

قالت له:

- سنخسر وقتاً كثيراً ونحن نتحدّث عنها. تعال معي. سوف  
أخذك إلى قصر الفولاذ وأترك على هذا الشاطئ هيئة تشبهك وكأنها  
أنت فتنتظلي الحيلة على الجنيّة.

وفي الحال قطعت قصباً بحريّاً وصنعت منه رزمة ضخمة ثم  
نفخت فوقه ثلاث مرّات وقالت:

- أيها القصب، يا صديقي، أمرك بأن تبقى مُمدّداً على الرّمْل دون  
أن ترحل عنه إلى أن تأتي جنيّة الصّحراء لأخذك.

أخذ القصب يكتسي بالجلد ليصبح صنوّ ملكٍ مناجم الذهب،  
الذي لم ير حتّى تلك اللّحظة شيئاً ممثلاً أذهله إلى هذا الحدّ. وألبس  
القصب ثياباً مطابقة لثيابه، وبدا شاحباً ومنهكاً وكأنّه غرق لتوه. في  
تلك الأثناء، أجلسّت الحوريّة الطيّبة الملك على ذيلها الطويل وأبحرا  
كلاهما في عرض البحر يغمرهما الشعور بالرّضا.

قالت له:

- أريد الآن أن أعلمك أنّ القزم الأصفر الشريّر حين اختطف  
آية الجمال، وضعها، بالرّغم من الإصابة التي تسببت لها بها جنيّة  
الصّحراء، خلفه على ظهره هزّه الإسبانيّ الرّهب ففقدت الكثير  
من الدّم واعتلت صحتها من جرّاء ذلك التزييف وفارقتها كلّ  
قواها وبقيت طيلة الطّريق فاقدة الوعي. ولكنّ القزم الأصفر لم  
يشأ التوقّف لإنقاذها إلّا حين وصل إلى قصره الفولاذيّ الرّهب  
ورأى أنّه في أمان. وهناك كان في استقباله أجمل أناس في العالم كان  
أحضرهم خصيصاً لذلك. وكلّ راح ينافس الآخر مسارعاً لنجدة  
الأميرة. ووضعت على سريره شرّاشفه من ذهب ومبرقش بلالئ



بضخامة الجوز.

هتف ملك مناجم الذهب مقاطعاً الحورية:

- آه! لقد تزوّجها. سيُغمى عليّ، سأموت.

قالت له:

- لا يا سيدي اطمئن، إنّ حَزَمَ آية الجمال حَمَاهَا من عنفِ هذا

القرزم المرعب.

قال الملك:

- أكْمِلي...

تابعت الحورية:

- ماذا لديّ لأقوله لكّ بعد؟ كانت في الغابة عندما مررت. رأيتك

مع جنيّة الصحراء التي كانت متبرّجة إلى حدّ بدت لها معه على جمالٍ

يفوق جمالها هي. لا تستطيع أن تتصوّر بأسها لظنّها أنّك وقعت في

حبّ الجنيّة.

فصرخ الملك:

- تظنّ أنّي أحبّها! أيتها السماء ارحميني! أيّ خطأ جسيمٍ تقترفه!

وماذا عليّ أن أفعل لأحررها منه؟

أجابت الحورية وعلى وجهها ابتسامة ظريفة:

- سلّ قلبك ينبئك بالخبر.

ما إن أنهت هذه الكلمات حتّى وصلا إلى القصر الفولاذي. كانت

جهة البحر هي المكان الوحيد الذي لم يكسّه القرزم الأصفر بتلك

الجدران الرهيبة التي تحرق كلّ من يقاربها.

قالت الحورية للملك:

- أعرف جيداً أنّ آية الجمال توجد على ضفة النبع نفسه حيث

رأيتها عندما عبرت. ولكن بما أنه لديك أعداء يجب محاربتهم قبل الوصول إليها فهالك سيفاً تستطيع بواسطته أن تفعل ما تشاء وتواجه الأخطار الكبرى شرط ألا تدعه يسقط من يدك. وداعاً، سأسحب وأختبئ تحت الصخرة التي تراها. إذا احتجت إلي لكي أقلك بعيداً برفقة أميرتك الغالية، فأنا جاهزة دوماً. لأن الملكة والدتها هي صديقتي المفضلة، ولأجل خدمتها جئت لأبحث عنك.

أنهت الحورية هذه الكلمات وأعطت الملك سيفاً قد من الماسة واحدة، وكان أشد سطوعاً من أشعة الشمس ما جعله يدرك مقدار نجوعه. وبما أنه لم يستطع إيجاد كلمات ملائمة تعبر عن امتنانه رجاها أن تعوض عن عجزه في التعبير بتصوّر ما يستطيع قلب مغرم أن يشعر به إزاء معروف كبير كذلك الذي أسدته له.

ولكن يجب قول شيء عن جنّة الصحراء. عندما أدركت أنّ حبيبها الغالي لم يعد أسرع للبحث عنه وذهبت إلى الشاطئ برفقة موكب من مائة فتاة محمّلات جميعهنّ بسلال كبيرة مليئة بهدايا رائعة للملك. منهنّ من حملن سلالاً كبيرة مليئة بالألماس ومنهنّ من حملن أواني ذهبية متقنة الصنع والعديد منها مليء بالعنبر الرمادي والمرجان واللآلئ. وبعضهنّ حملن على رؤوسهنّ حزاماً من الأقمشة تفوق نفاستها التصوير، وبعضهنّ الآخر حملن فواكه وأزهاراً لا بل حتى عصافير. مشّت الجنّة خلف ذلك الموكب الأنيق الحاشد، ولكن ماذا صار بحالها عندما رأت القصب البحري الذي اتخذ هيئة ملكٍ مناجم الذهب وبات شبيهاً به إلى حدّ التطابق؟ أمام ذلك المنظر، صُعقت الجنّة من الدهشة والألم. أطلقت صرخة مرعبة اخترقت فضاء السموات وارتعشت لها الجبال ووصلت أصداؤها

حتى منازل الجحيم. إن ربّات الغضب الأسطوريّات ميجارا وآكتو  
وتيسيفون لا يسعهنّ أن يتخذنّ سيّءاً مرعبة كتلك التي اتّخذتها  
الجنّيّة. ارتمت على جسد الملك وبكت وزعقت ومزقت إرباً خمسين  
من أجمل مرافقاتها اللّواتي واكبنّها، مضحيّةً بهنّ لأجل أرواح الموتى  
التي ستسهرّ على ذلك المتوفّى العزيز. ومن ثمّ، استدعت إحدى  
عشرة شقيقة لها كنّ جنّيات مثلها وتوسّلت إليهنّ مساعدتها لكي  
تصنّع ضريحاً لذلك البطل الشاب. لم تكتشف أيّ من الجنّيات خدعة  
القصّب البحريّ. وذلك الحدث من شأنه أن يُدهش الجميع لأنّ  
الجنّيات كنّ يعرفنّ كلّ شيء، لكنّ الحوريّة الماهرة فاقتهنّ معرفة.

وفيما هنّ يأتين بالرخام السّماقيّ واليشب والعقيق والرّخام  
والتمّائل وشعارات التّبالة والذهب والبرونز لأجل تخليد ذكرى  
الملك الذي اعتقدنه ميتاً، كان الملك يشكر الحوريّة المحبّة مستخلفاً  
إياها أن توليه رعايتها. فأخذت على نفسها عهداً بأن تفعل كلّ ما  
يوسّعها واختفت عن ناظره. لم يعد لديه ما يفعله إلاّ التوجّه نحو  
القصر الفولاذيّ.

وهكذا، مدفوعاً بحبّه، مشى بخطى حثيثة، متحرّياً بعينه المكان  
ليرى ما إذا كان سيلّمح أميرته المحبوبة: لكنّه ما كاد يمشي بعض  
الوقت خليّ البال حتى أحاط به أربعة مسوخ بهيات مرعبة كأبي  
الهلّ وانقضوا عليه بمخالبهم الحادة، وكادوا يمزّقونه إرباً لو لم  
يسعفه سيف الألماس كما أنبأته بذلك الحوريّة. ما إن لوح به لامعاً  
في أعين أولئك المسوخ حتى سقطوا عند قدميه بلا حراك: ثمّ طعن  
كلّ واحدٍ بضربة قاضية. وتوغّل في سيره فوجد ستّة تنانين مكسوة  
بحراشف لا يستطيع شيء اختراقها وكأنّها أصلب من الحديد. كانت

المواجهة مرعبة، لكنّ الملك حافظ على بسالته مستعيناً بسيفه القاطع الرّهب وشطر أجسام التنانين كلّها إلى شطرين. كان يأمل أن يكون بذلك قد تخطّى أهول المخاطر وإذا به يرى أمامه خطراً أكثر إزباكاً. جاءت للقائه أربع وعشرون حوريّة، كلّهن جميلات ورشيقات، حاملات أكاليل طويلة من الأزهار وكنّ يسدّدن الطريق أمامه.

قلن له:

- إلى أين تريد أن تذهب يا سيّد؟ نحن منتدبات لحراسة هذه الأمكنة. إذا تركناك تمرّ فسوف يحصل لك ولنا مأس غير متناهية. من فضلك لا تعاند. أو تريد أن تلتخ يدك الظافرة بدم أربع وعشرين فتاة بريئات لم يتسببن لك بأيّ أذى؟

أمام هذا المشهد، بقي الملك مذهولاً، حائراً في ما يتوجب عليه فعله: هو الذي عاهد نفسه على احترام الجنس اللطيف وعلى أن يكون الفارس المقاتل لكلّ إحجاف يرتكب بحق النساء. وها أنّه مجبر على التكبّ بهذا الوعد: لكنّ صوتاً سمعه شدّد من عزيمته فجأة.

قال له الصوت:

- اضرب بسيفك، اضرب ولا توفّر شيئاً وإلا خسرت أميرتك إلى الأبد.

وعلى الفور، ومن دون أن يجيب أولئك الحواري بشيء، ارتقى وسطهنّ وقطع أكاليل الأزهار التي يحمّلنها وهاجمهنّ دون رحمة وبددهنّ في لحظة: لا بدّ أنّه آخر حاجز يجده في طريقه. دخل إلى الغابة الصّغيرة حيث رأى آية الجمال. كانت عند ضفة النبع شاحبة سقيمة. اقترب منها وهو يرتجف. أراد أن يرمي عند قدميها لكنّها

ابتعدت عنه بسرعة واشمئزاز وكأنه كان القزم الأصفر.

قال لها:

- لا تدينيني دون أن تستمعي إليّ يا سيدتي. لست خائناً ولا مذنباً. أنا إنسان تعيس أثار استياءك مُكرهاً.

هتفت:

- آه منك أيها المتوحش، رأيتك تجتاز الفضاء برفقة امرأة ذات جمالٍ خارقٍ، فهل قمتَ بتلك الرحلة معها مُكرهاً؟

قال لها:

- نعم يا أميرتي، قمتُ بها مُكرهاً. فجنّية الصحراءِ الشريّة لم تكتفِ بتقييدي بالسلاسل إلى صخرة بل اختطفتني في عربةٍ إلى أقاصي الأرض حيث كنت سأقضي من السقم لولا نجدة حورية خيرة اقتادتني إلى هنا. أتيت يا أميرتي لأخلصك من اليدين اللتين تأسرانك فلا ترفضي نجدة أوفى العشاق جميعاً.

وارتمى عند قدميها تاركاً سيفه الرهيب يسقط لسوء الحظ بعد أن علق بفسطانها. كان القزم الأصفر مختبئاً خلف نبتة خس؛ وعندما رأى الملك يُفلت السيف من يده سارع للاستحواذ عليه وقد كان عارفاً بقدرته العجيبة.

أطلقت الأميرة صرخة مرعبة عند رؤيتها القزم لكنّ نحيبها وعويلها لم يزيدا إلا في غضب المسخ الصغير: وبكلمتين من كتاب الطلاس الذي كان يملكه جاء بعملاقين فقيدا الملك بالحديد والسلاسل الثقيلة.

قال القزم:

- الآن وقد بُتُّ قادراً على التحكّم بمصيرِ خصمي سأسمح له

بكلّ طيبةٍ خاطرٍ بالبقاءِ على قيدِ الحياةِ وسأمنحه حريّة الرّحيل عن هذه الأمكنة شريطةً أن تقبل بي الأميرة زوجاً دون تأخير.

فهتفَ الملك العاشق:

- آه! أفضل أن أموت ألف مرّة على أن يحدث هذا.

قالت الأميرة:

- أن تموت؟ يا ويلي! هل هناك أمرٌ أشدّ رعباً من ذلك يا سيدي؟

فأجابها:

- هل هناك ما هو أشدّ رعباً من أن تصبحي ضحيّة هذا المسخ؟

تابعت:

- لنمُت معاً إذاً.

- اتركني لي يا أميرتي هذا العزاء: أن أموت لأجلك.

قالت للقرمز:

- أوافق على تحقيق أمنيتك.

أردف الملك:

- أيتها الأميرة المتوحّشة أتجروين على الزواج به الآن أمام ناظري،

ستكون كريمةً عليّ إذاً هذه الحياة!

قال القرمز الأصفر:

- لا، لن أصبح زوجها أمام ناظريك لأنّ خصماً محبوباً من قبلها

يشكل خطراً كبيراً عليّ.

ولم يكذب ينهي هذه الكلمات، وبالرغم من بكاء آية الجمال

وصراخها، حتّى طعن الملك في صميم قلبه ومدّده عند قدميها. لم

تستطع الأميرة البقاء على قيد الحياة بعد وفاة حبيبها الغالي فسقطت

على جسده واتحدت روحها بروحه في وقتٍ وجيز. وهكذا قضى

هذان التعيسان العظيمان نَحَبْهما دون أن تستطيع الحورية التأثيرَ في مجرى الأمور لأنَّ قوَّةَ السَّحر تكمن في السَّيفِ الماسيِّ.

أما القزم الشرير فكانَ أحبَّ إليه رؤية الأميرة تفارق الحياة على أن تحتضنَها ذراعاً رجلٍ آخر. وحين علمت جنيَّة الصَّحراءِ بتلك الحادثة، دمَّرت الضَّرِيحَ الذي كانت قد شيَّدته، مُظهِرَةً لِذكري ملك مناجم الذهب حقداً يوازي الشَّغف الذي أثاره فيها شخصه.

والحورية المسعفة الأسيانة بعد حدوث تلك المصيبة الكبرى لم تستطع أن تنال من القدر سوى أن تحوِّلها إلى شجرتي نخيل. وهكذا غدا ذينك العاشقان الوفيان نخلتين رائعتين تتلامس أغصانها في عناق أبدِيٍّ ويمجري في أوصالهما نسغُ حبِّهما الخالد.

كمثل ذاك الذي يَعِدُّ قوى السَّماءِ  
وهو يغرَقُ في اللَّججِ بتقديم نفيس الأضاحي لها  
ولكنَّ عندما يرى نفسه على الشَّاطِئِ  
ينسى حتَّى الانحِناءَ أمامَ مذايِجِها احتراماً  
كذلك يَعِدُّ كلَّ واحدٍ بالكثيرِ وهو في قلبِ الخطرِ،  
لكنَّ المصيرَ الذي لا قُتَّةَ آية الجِمالِ  
يعلِّمُك ألا تعرِّضَ نفسك للخطرِ  
إذا لم يكن قلبك قادراً على الوفاءِ بوعوده.





## الضفدعة الخيرة

كان يا ما كان، كان هنالك ملكٌ يقاوم منذ وقتٍ طويلٍ حرباً شنتها عليه جيرانه. بعدَ معاركٍ عديدةٍ حوصرت عاصمةُ بلاده فَخشيَ على سلامةِ الملكةِ وتوسَّلَ إليها، نظراً لحَبْلِهَا، أن تنزِلَ في أحدِ الحصون التي بناها والتي لم يذهب إليها إلا مرةً واحدة. توسَّلت الملكة إليه باكيةً لتقنعه بأن يتركها بالقربِ منه. كانت تريد أن تشاركه قدره. وأخذت تولول بصوتٍ عالٍ عندما وضعها في عربته لِترحيلها. وأمرَ حراسه بمُرافقتها ووعدّها بأن ينسحب من المعركة بسريّة تامّة ما إن تسمح له الظروف بذلك ويذهب إلى زيارتها. علَّلها بهذا الأمل، لأنَّ القصرَ كان بعيداً جداً ومُحاطاً بغابةٍ كثيفةٍ وَيَسْتَحِيلُ الوصولُ إليه ما لم نكن نعرف الطّرقَ جيّداً.

انطلقت الملكة وهي متأثرة جداً لِتركها زوجها وسَطَ مخاطرِ الحرب. ساروا بها على مراحلٍ متتابعةٍ لئلا تُصاب بتوعكٍ إثر هذه الرّحلة الطّويلةِ المنهكة. وأخيراً وصَّلت إلى القصرِ قلقةً جداً وحزينة. بعد أن ارتاحت قليلاً، أرادت التنزّه في الجوارِ ولم تجد شيئاً يُسليها. التفتت إلى جميع الجهاتِ ورأت صحارى كبيرة أثارت فيها الأحزان أكثر من المتع. نظرت إليها بشجنٍ وقالت:

- يا للفرق بين المكان الذي أنا فيه وبين ذلك الذي عشت فيه طيلة حياتي! إذا بقيت هنا لوقتٍ أطولٍ فسأموت: لمن أتحدّث في هذه الخلوات؟ ولن أشكي همومي وشجونني؟ ثم ماذا فعلتُ للملك حتى ينفيني إلى هنا؟ يبدو لي أنّه يريدني أن أذوق كلّ المرارة التي يُحدِّثها غيابه بنفسي وإقصائي إلى قصرٍ كرهه كهذا.

بهذه الطريقة كانت تشتكي؛ ومع أنه كان يكتب لها كل يوم ويبلغها أخباراً جيّدة عن المعارك، كانت تزداد شعوراً بالأسى فاتخذت قرارها بالعودة إلى الملك. لكنّ الضباط الذين يجرسونها كانت قد أعطيت إليهم الأوامر بعدم إصطحابها إليه مجدداً إلا حين يبعث لها برسالة عاجلة. لذا لم تفصح عما كانت تخطّط له وأمرت بإنشاء عربية صغيرة لا تتسع إلا لها وحدها قائلة إنها تريد الذهاب أحياناً إلى الصيد. كانت تقود الأحصنة بنفسها وتتبع الكلاب من مسافة قريبة جداً بحيث إنّ الصائدين بالكلاب كانوا يجرون أقل سرعة منها: وبهذه الطريقة صارت حرة التصرف تماماً تذهب بعربيتها حينما تشاء. إلا أنّ صعوبة واحدة كانت تعترضها وتمثل في أنها تجهل طرق الغابة. لكنها كانت تؤمل نفسها بأن القوى السماوية ستقودها إلى برّ الأمان. وبعد أن قدمت لهم بعض الهبات البسيطة، قالت إنها تريد إقامة حفلة صيد كبيرة تدعو الجميع إليها؛ وإنها سوف تصعد في عربيتها، وعندئذ يذهب كل واحد في طريق مختلفة حتى لا تُترك أية خلوة للحيوانات الضارية. وهكذا انقسم المشاركون كل في طريق. أما الملكة الشابة التي كانت تريد في أقرب وقت رؤية زوجها فقد ارتدت لباساً مناسباً جداً. كانت قلنسوتها مكسوة بأرياش من ألوان مختلفة وسترتها مزدانة كلها بأحجار كريمة وجواهر، الفريد من نوعه، جعلها تبدو وكأنها ديانا<sup>(1)</sup> ثانية.

وفيا الآخرين مستغرقون في متعة الصيد، أطلقت العنان لأحصيتها وحثتها صارخة بها وهمزتها بوضع ضربات السوط. وبعد أن هرولت الأحصنة بسرعة كبيرة، انطلقت تعدو. شدت الملكة على شكيمتها وبدت العربة وكأنّ الرياح تجرّها ويشق على الناظر

(1) ديانا: سبق التعريف بها؛ هي في الميثولوجيا الإغريقية إلهة الصيد والينابيع والغابات.

أن يقتفي أثرها. ندمت الملكة على تهورها ذلك، ولكن بعد فوات الأوان. قالت:

- ماذا فعلت؟ كيف أمكنتي أن أتجراً على قيادة أحصنة عصية وخدي؟ واحسرتاه! ماذا سيصير بحالي؟ آه! إذا عرف الملك بالخطر الذي أتعرض إليه فماذا سيصير حاله، هو الذي يجبني كثيراً ولم يبعثني عن العاصمة إلا حفاظاً على سلامتي. لو أنه يعرف كيف استجبت لتصرفاته المرعية لي، وهذا الطفل الغالي الذي أحمله في أحشائي سيكون مثلي ضحية تهوري.

كان الهواء يحمل صدى شكواها الأليمة. توسلت إلى السماء ونادت الجنيات لنجدتها، ولكن السماء نسيتها والجنيات تحلت عنها، وانقلبت العربة ولم تقوَ على قذف نفسها منها بسرعة أرضاً لأن قدمها علق بين الدولاب ومحوره. ومن السهل تصور أن الأمر كان يحتاج لمعجزة لإنقاذها بعد ذلك الحادث الرهيب.

وأخيراً بقيت ممددة أرضاً عند أسفل إحدى الأشجار. اختفى نبضها وصوتها وغمر الدم وجهها. وبقيت طويلاً على هذه الحال. عندما فتحت عينيها رأت بالقرب منها امرأة عملاقة الحجم لا يغطيها سوى فروة أسد؛ كانت ذراعها وساقها عارية وكان شعرها معقوداً بجلد أفعى يابس، وفي يدها فأس حجرية تستعملها بمثابة عصاً تتكئ إليها، وعلى خصرتها جعبة مليئة بالسهام. عندما رأت الملكة هذا المشهد أيقنت أنها ميتة لأنها ظنت أنه يستحيل أن تنجو من هذا الحادث الخطير. قالت بصوت خفيض:

- لست متفاجئة أن يصعب على الإنسان تقبل الموت لأن ما نراه في العالم الآخر مخيف فعلاً!

لم تستطع العملاقة الامتناع عن الضحك وهي تستمع إلى ما

تقوله.

قالت لها:

- استعيدي رشدك. اعلمي أنك لا تزالين في عداد الأحياء. لكن مصيرك لن يكون أقل حزناً. أنا الجنة لبوة التي تقيم على مقرّبة من هنا. عليك أن تأتي لتُمضي حياتك معي.

نظرت إليها الملكة بحزن وقالت:

- إذا شئت تستطيعين أن تصطحبيني إلى قصري وأن تحددي للملك الفدية التي تريدونها لقاء ذلك فهو يحبني كثيراً ولن يرفض إعطائك نصف مملكته، فما قولك؟

أجابت:

- لا، أنا ثرية بما يكفي. يُسئمني منذ فترة قصيرة أنني أعيش وحيدة. أنت طريفة وبإمكانك تسليتي.

وحين أنهت هذه الكلمات، اتخذت هيئة لبوة ثم حملت الملكة على ظهرها واصطحبتها إلى عمق كهفها المخيف. وما إن وصلت إليه حتى عالجتها بمشروب دَعَكَتها به.

يا لِدَهْشَةِ الْمَلِكَةِ وَأَلْمِهَا الْكَبِيرِ حِينَ وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمَرْعَبِ! لا يمكن بلوغه إلا بعد التزول مسافة عشرة آلاف ذرّجة في جوف الأرض. لم يكن هناك من نور إلا نور المصابيح الضخمة التي تنعكس في بحيرة زبّقيّة اللون مملوءة بالمسوخ التي كانت ستُخيف بأشكالها ملكة أقلّ توجّساً. سُمع زعيق البوم والخفافيش وبعض الغربان وغيرها من الطيور المشؤومة. وكان يشاهد في البعيد جبلّ تسيلُ منه مياه شبه راكدة، إنّها جميع الدّموع التي ذرفها العشاق التّعساء، والتي جعلت منها قصص الحبّ الحزينة برّكاً. كانت الأشجار مجرّدة من الأوراق والشمار، والأرض مليئة بأزهار

الآذريون والأشواك والقراص. وكان الطعام متلائماً مع مناخ بلاد  
لعينة كتلك: بعض الجذور اليابسة وقسطلة الهند وثمار الورد البري.  
هذا كل ما كانت تعطيه تلك الأرض لتهدئة جوع التعساء الحظ  
الذين يقعون بين يدي الجنة لبوة.

وما إن تعافت الملكة وأصبحت في وضع يؤهلها للعمل، حتى  
قالت لها الجنة إنها تستطيع أن تبني لنفسها كوخاً لأنها ستظل طيلة  
حياتها معها. لدى سماعها هذه الكلمات، لم تقوَ الأميرة على حبس  
دموعها: صرخت قائلة:

- تبا لك! ماذا فعلت لك لتُبقيني هنا؟ إذا كانت نهاية حياتي،  
التي أشعر بدُنُوها، تسبب لك بعض المتعة، فلتهيني الموت: هذا كل  
ما أستطيع أن أمله من شفقتك. ولكن لا تحكمي عليّ بأن أعيش  
حياةً طويلة بائسة دون زوجي.

سخرت اللبوة من ألمها وقالت لها بأنها تنصّحها بأن تمسح دموعها  
وتحاول أن تروق لها. إذا اتبعت سلوكاً آخر فستكون أتعس إنسان  
على وجه الأرض.  
أجابت الملكة:

- ماذا عليّ أن أفعل إذاً لكي أحنن قلبك؟

قالت لها:

- أحب فطائر الذباب. أريد أن تجدي لي الوسيلة للحصول على  
ما يكفي من الذباب لأصنع فطيرة كبيرة جداً وشهية.  
قالت الملكة:

- ولكنتي لا أرى ذباباً هنا. وإذا صدف وجود ذباب فلن يكون  
الضوء كافياً لرؤيتها والإمساك بها. وافترضي أنني أمسكت بها فأنا  
لم أصنع بحياتي حلوى ومعجنات لذا فأنت توجّهين إليّ أوامر لا

أستطيع تنفيذها.

قالت اللبوة التي لا تزحم:

- لا يهمني. أريد ما أريد.

لم تُجِب الملكة بشيء. فكَّرت أنها، مهما فعلت الجنيّة المتوحّشة، لديها حياة واحدة تخسرّها، فماذا عليها أن تخشى في مثل حالتها؟ بدّل الذهب للتفتيش عن ذباب، جلّست تحت شجر الطقسوس وبدأت شكواها الحزينة.

قالت:

- كم سيكون ألمك عظيماً يا زوجي العزيز عندما ستأتي للبحث عني ولن تجدني! سيتبادر إلى ظنك أنني مت أو ختكت. في هذه الحالة أفضل عندي أن تبكي على فقدانك حياتي من أن تبكي على فقدانك حبي. ربّما سيجدون في الغابة عربتي المحطّمة وكل ما تزينت به لأروق لك، وحين ترى هذا المشهد لن تشك بموتي. وما أذرائي إذا كنت ستمنّح واحدة أخرى المكانة التي خصّصتها لي في قلبك؟ ولكن على الأقل لن أعرف بذلك لأنني لن أعود إلى الحياة.

وكانت ستواصل الكلام على هذا التحوّل لو لم تسمع فوق رأسها التّعيق الحزين لأحد الغربان. رفّعت عينيها وبفضل نور قليل يضيء الضفّة لمحت بالفعل غراباً كبيراً يحمل ضفدعة ويهمّ بالتهاّمها.

قالت:

- لا شيء من شأنه هنا التّخفيف من ألمي، ومع ذلك فإنني لن أتوانى عن إنقاذ ضفدعة مسكينة تعيش في حياتها كما أنا تعيش في حياتي.

وأمسكت بأول عصاً وجدتها في متناول يدها وجعلت الغراب يُفّلت طريدته. سقطت الضفدعة وبقيت لبعض الوقت فاقدة

رُشِدَهَا ثُمَّ اسْتَعَادَتَهُ. قَالَتْ:

- أَيْتَهَا الْمَلِكَةُ الْجَمِيلَةُ، أَنْتَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الْمُحْسِنُ الَّذِي صَادَفْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَمَكْنَةِ مِنْذُ أَنْ قَادَنِي فَضُولِي إِلَيْهَا.

أَجَابَتِ الْمَلِكَةُ:

- بَأَيَّةِ مَعْجَزَةٍ تَتَكَلَّمِينَ أَيْتَهَا الضَّفْدَعَةُ الصَّغِيرَةَ، وَمَنْ هُمْ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ هُنَا فَأَنَا لَمْ أَرَ أَحَدًا.

أَجَابَتِ الضَّفْدَعَةُ:

- كُلُّ الْمَسُوخِ الَّذِينَ تَحْفَلُ بِهِمْ هَذِهِ الْبَحِيرَةُ كَانُوا فِي الْعَالَمِ مِنْ قَبْلِ. بَعْضُهُمْ يُمَارِسُ الْحُكْمَ وَبَعْضُهُمُ الْآخَرُ مَقْرَبُونَ مِنْ حُكَّامِهِمْ، وَهُنَاكَ أَيْضًا عَشِيقَاتُ بَعْضِ الْمُلُوكِ اللَّوَاتِي كَلَفْنَ الدَّوْلَةَ دِمَاءً كَثِيرَةً: هُنَّ اللَّوَاتِي تَرِينَهُنَّ مَتَحَوَّلَاتٍ إِلَى عُلُقَاتٍ مَاصَّةٍ لِلدَّمَاءِ. الْقَدَرُ يَرْسُلُهُمْ هُنَا لِبَعْضِ الْوَقْتِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَرْجِعَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ إِلَى هُنَا وَقَدْ تَحَسَّنَ أَوْ تَحَلَّى عَنْ عَادَاتِهِ السَّيِّئَةِ.

قَالَتِ الْمَلِكَةُ:

- أَعْرِفْ جَيِّدًا أَنَّ الْأَشْرَارَ حِينَ يَجْتَمِعُونَ لَا يَعْمَدُونَ إِلَى تَحْسِينِ سُلُوكِهِمْ. وَلَكِنْ فِيمَا يَخْصُكَ يَا صَدِيقَتِي الضَّفْدَعَةُ، مَاذَا تَفْعَلِينَ هُنَا؟

أَجَابَتِ:

- الْفَضُولُ جَاءَ بِي إِلَى هُنَا. أَنَا شَبْهُ جَنِّيَّةٍ وَقَدَرْتِي مَحْدُودَةٌ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَقُوَّةٌ جَدًّا فِي بَعْضِهَا الْآخَرَ. إِذَا عَرَفْتَ الْجَنِّيَّةَ لَبُوءَ أَنِّي فِي مَمْلَكَتِهَا فَسَوْفَ تَقْتُلَنِي.

قَالَتِ الْمَلِكَةُ:

- كَيْفَ يُعْقَلُ مَا دُمْتَ جَنِّيَّةٌ أَوْ شَبْهُ جَنِّيَّةٍ أَنْ يَتَهَيَّأَ غَرَابٌ لِالْتِهَامِكَ؟

أَجَابَتِ الضَّفْدَعَةُ:

- بِكَلِمَتَيْنِ سَأْفَهُمُكَ كُلَّ شَيْءٍ. عِنْدَمَا تَكُونُ قَبَعْتِي الصَّغِيرَةَ  
 مِنَ الْوَرُودِ عَلَى رَأْسِي، وَفِيهَا تَكْمُنُ مَعْظَمُ قَدْرَتِي، لَا أَخْشَى شَيْئاً.  
 وَلَكِنْ لَسَوْءِ الْحَظِّ كُنْتُ تَرَكْتُهَا فِي الْمُسْتَنْقَعِ عِنْدَمَا أَتَى هَذَا الْغَرَابُ  
 اللَّعِينُ وَانْقَضَ عَلَيَّ: أَعْتَرَفَ لَكَ يَا سَيِّدَتِي أَنَّهُ لَوْلَاكَ لَكَانَ قُضِيَ عَلَيَّ.  
 وَبِهَا أَنَّنِي أَدِينُ لَكَ بِحَيَاتِي، إِذَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ فِعْلَ شَيْءٍ لَتَعَزِّبَتِكَ  
 وَسُلْوَانِكَ فَبِمَكَانِكَ أَنْ تَأْمُرَنِي بِمَا تَشَاءِينَ.  
 قَالَتِ الْمَلِكَةُ:

- وَأَسْفَاهُ! أَيَّتُهَا الضَّفدعة العزيزة، تَرِيدُنِي الْجَنِّيَّةَ الشَّرِيرَةَ الَّتِي  
 تَتَّخِذُنِي أُسِيرَةً أَنْ أَصْنَعُ لَهَا فَطِيرَةَ مِنَ الذَّبَابِ وَلَيْسَ هُنَالِكَ مِنْهُ. وَفِي  
 حَالٍ وُجِدَ لَيْسَ هُنَالِكَ ضَوْءٌ كَافٍ لِنَسْتَطِيعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ. وَهَنَّاكَ  
 خَطَرَ كَبِيرٍ يَحْدِقُ بِي: أَنْ أَمُوتَ تَحْتَ ضَرْبَاتِهَا.  
 قَالَتِ الضَّفدعة:

- دَعَانِي أَنْتَصِرَفَ. سَأَزُودُكَ بِهِ بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ.  
 دَعَاكَ عَلَى الْفُورِ قَلِيلاً مِنَ السَّكَّرِ وَفَعَلْتَ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ آلَافٍ  
 ضَفدعةٍ مِنْ أَصْدِقَائِهَا الشَّيْءَ نَفْسَهُ: ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى مَكَانٍ مَلِيءٍ  
 بِالذَّبَابِ. كَانَ لَدَى الْجَنِّيَّةِ الشَّرِيرَةَ هُنَّاكَ مَسْتَوْدِعٌ مِنْهُ، لَتُعَذِّبَ عَمْداً  
 بَعْضَ التَّعَسَاءِ. مَا إِنْ شَمَّ الذَّبَابُ السَّكَّرَ حَتَّى تَشَبَّثَ بِهِ، وَعَادَتْ  
 الضَّفَادِعُ الْمَجْتَهِدَاتُ عِنْدَ الْمَلِكَةِ. لَمْ يَسْبِقْ أَنْ تَمَّ اصْطِيَادُ ذَّبَابٍ بِهَذِهِ  
 الْكَمِيَّةِ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تُصْنَعْ فَطِيرَةَ كَمِثْلِ تِلْكَ الَّتِي صَنَعَتْهَا الْمَلِكَةُ  
 لِلْجَنِّيَّةِ لِنُبُوَّةٍ. عِنْدَمَا قَدَّمَتْ لَهَا الْفَطِيرَةَ، دُهِشَتْ كَثِيراً وَلَمْ تَفْهَمْ مِنْ  
 أَيْنَ جَاءَتِ الْمَلِكَةُ بِهَذِهِ الْمَهَارَةَ لِالْتِقَاطِهَا.

كَانَتِ الْمَلِكَةُ عَرْضَةً لِمَخْتَلِفِ عَوَامِلِ الْجَوِّ الْمَسْمُومِ الْمَحِيطِ بِهَا.  
 قَطَعَتْ بَعْضَ أَشْجَارِ السَّرْوِ لِتَبْدَأَ بِنَاءِ مَنْزِلِهَا الصَّغِيرِ. وَجَاءَتْ  
 الضَّفدعة تَقْدِّمُ لَهَا بِسَخَاءٍ يَدَ الْمَسَاعِدَةِ مُتَقَدِّمَةً كُلَّ الضَّفَادِعِ اللَّوَاتِي



ذَهَبَنَ لِلإِتْيَانِ بِالذَّبَابِ، وَسَاعَدَنَ جَمِيعاً الْمَلَكَةَ فِي تَشْيِيدِ بَيْتِ صَغِيرٍ،  
كَانَ هُوَ الْأَجْمَلُ فِي الْعَالَمِ. وَلَكِنْ مَا كَادَتْ تَنَامُ حَتَّى جَاءَ مَسُوخُ  
الْبَحِيرَةِ، الَّذِينَ حَسَدُواهَا عَلَى رَاحَتِهَا، لَتَعَذِيبِهَا مُحَدِّثِينَ أَفْطَحَ  
ضَوْضَاءَ سُمِعَتْ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ. نَهَضَتْ مَذْعُورَةٌ وَوَلَّتْ هَارِبَةً  
وَهَذَا مَا كَانَ الْمَسُوخُ يَنْشِدُونَهُ. وَعِنْدُنَا امْتَلَكَ الْمَنْزِلَ تَتَيْنَ كَانَ فِيهَا  
مَضَى طَاطِيَةً يَحْكُمُ إِحْدَى أَجْمَلِ مَمَالِكِ الْعَالَمِ.

أَرَادَتْ الْمَلَكَةَ التَّعْيِيسَةَ أَنْ تَلُومَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ، وَلَكِنَّ الْمَسُوخَ  
بَدَأُوا يَسْخَرُونَ مِنْهَا، وَيَصِيحُونَ مُسْتَهْزِئِينَ فِيهَا رَاحَتِ الْجَنِّيَّةِ لَبُوءَ  
تَقُولُ لَهَا إِنَّهَا إِذَا أَرْهَقَتْهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بُنُوحِهَا فَتَسْوِسُهَا ضَرْباً. عَلَيْهَا  
بِالصَّمْتِ وَطَلَبِ الْمُسَاعَدَةِ مِنَ الصَّفَدْعَةِ الَّتِي لَا مِثِيلَ لِنَخْوَتِهَا.  
فَبِكَيْتَا مَعاً لِأَنَّهَا مَا إِنْ تَضَعُ عِبَاءَهَا مِنْ الْوَرُودِ حَتَّى تُصْبِحَ قَادِرَةً عَلَى  
الضَّحْكِ وَالْبَكَاءِ مِثْلَ آيَةِ امْرَأَةٍ أُخْرَى.

قَالَتْ:

- أَشْعُرُ بِصَدَاقَةٍ كَبِيرَةٍ نَحْوَكِ وَسَاعِيدُ لِكَ بِنَاءِ مَنْزِلِكَ وَعِنْدُنَا  
سَيَتَوَلَّى الْيَأْسَ جَمِيعَ مَسُوخِ الْبَحِيرَةِ.

وَفِي الْحَالِ قَطَعَتِ الْأَخْشَابَ وَبُنِيَ الْقَصْرَ الصَّغِيرَ الرَّيْفِيَّ لِلْمَلَكَةِ  
بِوَقْتِ قَصِيرٍ وَأَوَتْ إِلَيْهِ فِي اللَّيْلَةِ نَفْسِهَا.

كَانَتِ الصَّفَدْعَةُ مَتَّبِعَةً لِكُلِّ مَا يَلْزَمُ لِلْمَلَكَةِ فَصَنَعَتْ لَهَا سَرِيرَةً  
مِنْ أَصْنَافِ الصَّعْتَرِ الْبَرِّيِّ. وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ الْجَنِّيَّةُ الشَّرِيرَةَ أَنَّ الْمَلَكَةَ لَمْ  
تَعُدْ تَنَامُ أَرْضاً أَرْسَلَتْ فِي طَلَبِهَا. قَالَتْ لَهَا:

- مَنْ هُمُ النَّاسُ أَوْ الشَّفَعَاءُ السَّمَاوِيُّونَ الَّذِينَ يَحْمُونَكَ؟ هَذِهِ  
الْأَرْضُ الْمَرْوِيَّةُ دَوْمًا بِمَطَرٍ مِنَ الْكَبْرِيتِ وَالنَّارِ لَمْ تَنْبِتْ قَطُّ وَلَا حَتَّى  
وَرَقَةً مَرِيمِيَّةً. وَمَعَ ذَلِكَ عَلِمْتُ أَنَّ الْأَعْشَابَ الْعَطْرِيَّةَ تَنْمُو تَحْتَ  
قَدَمَيْكَ!

قالت الملكة:

- أجهل السبب وإذا كنت أنسبه لشيء فإنها للطفل الذي أنا حبلى به والذي ربّما سيكون أقلّ تعاسة منّي.

قالت الجنيّة:

- لديّ رغبة في الحصول على باقة من الأزهار الأكثر ندرّة. حاولي أن تَري ما إذا كان طالعُ طفلك يزودك بها. وإذا لم تجلبها فسأوسّعك ضرباً لأنّ هذا هو ما أفعله غالباً وأفعله بامتياز.

أخذت الملكة تبكي. لم تكن مثل هذه التهديدات تليق بها. واستحالة العثور على أزهار جعلتها في يأس. عادت إلى منزلها الصّغير. وجاءت إليها الضّفدعة. قالت للملكة:

- كم أنت حزينة!

- وا حسرتاه! ومن بإمكانه ألا يكون كذلك يا صديقتي؟ تريد الجنيّة باقة من أجمل الأزهار. أين أجدها لها؟ رأيت تلك التي تنمو هنا، حياتي على المحك إذا لم أرضها.

قالت الضّفدعة بلطف:

- أيتها الأميرة الحبيبة، يجب السعي لإخراجك من الورطة التي وقعت فيها. هناك خفاش وهو وحده من استطعت الارتباط معه بصدّاقة. إنه مخلوق صالح وهو أسرع منّي. سأعطيه عباءتي من أوراق الورود وبفضلها سيجد لك الأزهار.

انحنت الملكة إجلالاً للضّفدعة، لأنّه لم يكن ممكناً تقبيل ضّفدعة. وذهبت لتتكلّم مع الخفاش. بعد بضعة ساعات عادت وهي تُخفي تحت جوانحها أزهاراً رائعة. حملتها الملكة بسرعة إلى الجنيّة الشريرة التي دُهِشت كثيراً بنجاح الملكة في منعها معتبرة أنّ في الأمر معجزة.

كانت تلك الملكة تحلم باستمرار بالوسائل التي تتيح لها الهروب.  
فأعربت عن رغبتها للصفدة الصالحة؛ وقالت لها:

- يا سيدي اسمحي لي قبل كل شيء أن أستشير عباءتي الصغيرة  
وسوف نتحرك معاً وفقاً لنصائحها.

وأخذت العباءة بعد أن كانت وضعتها على قشة، وأشعلت  
أمامها بعض أعواد العرعر، وزهر الكبر، وحبتي بازلاء صغيرتين،  
ونقّت فوقها خمس مرات ثم بعد انتهاء هذا الطقس تدرّت بعباءتها  
المصنوعة من الورود وأخذت تتكلم مثل عرّافة. قالت:

- القدر، سيد الأشياء كلها، يمنعك من الخروج من هذه الأمكنة.  
ستنجبين فيها أميرة أجمل من ملائكة الحب. ولا تشغلي بالك بالهموم  
فالزمن وحده سوف يعزيك.

خفضت الملكة عينيها وانحدرت بعض الدموع على خديها  
ولكنها صممت على الوثوق بكلام صديقتها.  
قالت:

- على الأقل، لا تركيني، كوني معي حين أضع ابنتي بما أنه حُكِمَ  
عليّ أن أنجبها هنا.

وتعهدت الصفدة الوفيّة بأن تكون بمثابة لوسينا<sup>(1)</sup> لها وواستها  
بقدر ما تستطيع.

ولكن، أنّ الأوان للكلام عن الملك. فيما كان أعداؤه يحاصرونه  
في العاصمة، لم يكن يستطيع أن يرسل باستمرار موفدين أو رسائل  
إلى الملكة. وفي تلك الأثناء، قام بهجمات عديدة فأجبرهم على

(1) لوسينا: هي في الميثولوجيا الرومانية إلهة التور، تحرس الأطفال عند ولادتهم. تقابلها  
عند الإغريق يونون.

الانسحاب. وقد أفرحه تطوُّر الأحداث لأنّه يستطيع أن يُرسلَ في طلب الملكة الغالية من دون خوف. كان يجهل المصيبة التي حلت بها، ولم يجرؤ أيُّ من ضباطه أن ينبئه بذلك. وجدوا في الغابة العربة محطمة والأحصنة شاردة وكلّ زينة المحاربة الأمازونية التي كانت تضعها للذهاب إلى لقاء الملك.

وبما أنهم يتقنوا من موتها وظنّوا أنّ وحشاً التهمها، لم يعد أمامهم إلاّ إقناع الملك بأنّها ماتت بغتة. عندما تلقى هذا التبا المشؤوم، شعر أنّه سيموت من شدة الألم. نتف شعره وذرف الدموع وأطلق صرخات تبعث على الإشفاق وبدأ يولول ويتحب. ومن ثمّ كان عليه أن يعاني كلّ الآلام المترتبة على الترمّل، ولم يوقر أيّاً منها.

بعد أن أمضى أياماً عدّة دون أن يرى أحداً ودون أن يرغب في أن يراه أحد، عاد إلى المدينة الكبيرة ملتزماً حداداً طويلاً حمّله في القلب وليس في الثياب. جاء لتعزيته جميع سفراء الممالك المجاورة له. وبعد إقامة المراسم المرافقة لهذه الأنواع من الفواجع، واطب على إعطاء فترة هدنة لرعاياه وإعفائهم من الحرب وتزويدهم بأسباب التجارة على نحو واسع.

كانت الملكة تجهل كلّ هذه الأشياء: اقترب موعد ولادتها وكان وضعها مكلّلاً بالنجاح فقد أعطتها السماء أميرة جميلة كما تنبأت الضفدعة بذلك وأسمياها موفيت. ونالت الملكة بكثير من المشقة السماح من الجنّة لبوة بأن تغذيها لأنه كان لديها رغبة كبيرة في التهام الطفلة لشدة ضراوتها وهمجيتها.

أصبحت موفيت، تحفة أيّامنا، في الشهر السادس، وكانت الملكة تنظر إليها بحنان مشوب بالشفقة وتقول باستمرار:

- آه لو أنّ الملك أباك رأك يا صغيرتي المسكينة فكم سيفرح وكم

سيحبك! لكنه ربّما في هذه اللّحظة بالذّات بدأ ينساني ويعتقد أنّنا  
كلّنا مدفونتان إلى الأبد في أهوال الموتِ أو ربّما كان هناك امرأة  
أخرى تشغل في قلبه المكنّاة التي كان يوليها لي.

وانهالت الدّموع الغزيرة من عيني الملكة من جزاء هذه الأفكار  
الحزينة. والضّفدعة التي كانت تحبّها من كلّ قلبها قالت لها ذات يومٍ  
عندما رأتها تبكي على هذا التّحو:

- إذا شئتِ يا سيّدي فسأذهب للبحثِ عن الملكِ زوجك؛ الرّحلة  
طويلة وأنا أمشي على مهلٍ ولكنني سأصل في التّهاية عاجلاً أم آجلاً.  
رحبت الملكة بهذا الاقتراح أيتها ترحيب فجمعت جهاً بيديها  
وهكذا فعلت بيدي موفيت لكي تعبر للضّفدعة عن امتنانها لها لأنّها  
اتّخذت القرار بالشّروع في تلك الرّحلة. وأكّدت لها أنّ الملك لن  
يكون ناكراً للجميل.

ثمّ أزدفت:

- ولكن ما التّفعل في أن يعرف أنّي في هذا المكان المشؤوم؟  
سيكون مستحيلاً عليه أن يخرجني منه.  
أجابت الضّفدعة:

- يا سيّدي، يجب أن نترك هذا التّدبير للسّماء وأن نفعل من جهتنا  
ما يتوجّب علينا.

وعلى الفور، تودّعتا: كتبت الملكة للملك بدمها على قطعة صغيرة  
من قماش الكتان لأنّه لم يكن هنالك لا حبزٌ ولا ورق. وتوسّلت إليه  
أن يصدّق كلّ ما ستقوله له الضّفدعة الفاضلة عنها.

واستغرقت الضّفدعة سنة وأربعة أيّام لتضعد العشرة آلاف درجة  
انطلاقاً من السّهل الأسود حيث تركت الملكة حتّى سطح الأرض.  
واستغرقت عاماً آخر وهي تجهّز موكبها لأنّها كانت من الكبر بحيث

تأنف زيارة بلاطٍ كبيرٍ بصِفَتِها ضفدعةٌ مستنقعاتٍ حقيرةٌ. أمرت بصنع محملٍ كبيرٍ لتضعَ عليه بيضتينِ بارتياحٍ. كان مكسواً كله بحراشفٍ سلحفاةٍ من الخارج ومبطناً بجلدِ عطاءةٍ فتيّةٍ. كان لديها خمسون وصيفةٍ من أولئك الملكات الخضراوات الصغيرات اللواتي يُنظِنَنَ في الحقول. وكلّ واحدةٍ منها كانت تعتلي ظهرَ حلزونٍ مع سرجٍ لا تمسكُ فيه، واضعةً ساقها على القربوس بكلّ أناقة. وفي الموكب أيضاً فترانٌ حقل يرتدين زيّ الخدام يتقدّمَنَ الحلازين التي عُهدت إليهن الحراسة الشخصية للضفدعة التي كانت لا أجل في عباءتها المصنوعة من الوردِ القرمزية النَّضرة دوماً والتي تلائمها أكثر من أيّ شيءٍ آخر. كانت غنجةً بطبيعتها: وضعت أحمر شفاهٍ ولصوقاً تجميليةً. ويمكن القول إنّها كانت متبرجةً على نسق سيدات تلك البلاد. ولكن إذا تعمّقنا في المسألة وجدنا أنّ أعداءها هم الذين كانوا يصفونها على هذا النحو.

واستغرقت رحلتها سبعة أعوام، وفي غيابها الطويل كابدت الملكة آلاماً ومشقات لا توصف. ولولا الجميلة موفيت التي تعزّيها في محنتها لكانت ماتت ألف ميّنة. كانت تلك المخلوقة الصغيرة الرائعة تسحر والدتها بكلّ كلمة تخرج من فمها. حتّى أنّها استطاعت تدجين الجنّة لبوة. وأخيراً بعد ستّ سنوات أمضتها الملكة في ذلك المكان المرعب، أرادت الجنّة فعلاً أن تأخذها إلى الصيد شرط أن تستولي على كلّ ما تصطاده.

يا لفرحة الملكة الكبيرة بأن ترى الشمس من جديد! لقد نسيت وجودها تماماً وظنّت أنّ نورها سيجعلها عمياء. أمّا موفيت، فكانت ماهرة جداً في الصيد رغم بلوغها الخامسة أو السادسة فقط من عمرها؛ ما من طريدة تستطيع الإفلات من سهامها. وهكذا توصلت

الملكة وابتتها إلى التلطيف ولو قليلاً من وحشيّة الجنيّة.  
 أما الضفدعة فقد سارت مجتازةً جبّالاً وودياناً، ليلاً ونهاراً.  
 وأخيراً وصلت بالقرب من المدينة الرئيسيّة حيث كان الملك  
 يُقيم. ومكثت مندهشةً لأنّها لم تر في كلّ مكانٍ إلاّ حفلات الرقص  
 والولائم ولم تسمع إلاّ الضحكات والأغاني. وكلّما اقتربت من  
 المدينة، ألفت مظاهر الفرح والابتهاج. كان موكبها المؤلّف من  
 حيوانات المستنقع يدهش الجميع. والكلّ تبعوها وأصبح الحشد  
 متعاطفاً حين دخلت إلى المدينة بحيث شقّ عليها كثيراً أن تصل إلى  
 القصر الذي كان كلّ ما فيه يشي بالرّوعة والبهاء. كان الملك المترمل  
 منذ تسع سنوات قد انصاع أخيراً لتوسّلات رعاياه وها هو يتأهب  
 للزواج بأميرة أقلّ جمالاً من زوجته في الواقع لكن لا ينقصها شيء  
 من الظرف.

نزلت الضفدعة الخيرة عن محلها ودخلت عند الملك مصحوبة  
 بكلّ موكبها. لم تحتج لأن تطلب مقابله لأنّ العاهل وخطيبته وجميع  
 الأمراء كانوا راغبين جداً في معرفة الهدف من زيارتها. قالت:  
 - مولاي، لا أعرف ما إذا كان الخبر الذي سأزقه إليك سيفرحك  
 أم سيحزنك. إنّ الزفاف الذي تنوي إقامته يقنعني بخيانتك للملكة.  
 قال الملك وهو يذرف بضعّة دموع لم يستطع كبتها:  
 - إنّ ذكرها لعزيرة دوماً عليّ ولكن يجب أن تعلمي أيتها  
 الضفدعة اللطيفة أنّ الملوك لا يفعلون دوماً ما يريدون. منذ تسع  
 سنوات وأفراد رعيتي يلحون عليّ بأن أتزوج مجدداً. أدين لهم بورثة  
 عرش وهكذا وقع اختياري على هذه الصبيّة الفاتنة.  
 - لا أنصحك بالزواج بها لأنّ تعدّد الزيجات فعلٌ شنيع جداً.  
 الملكة لم تمت. هذه رسالة منها مكتوبة بدمها عهدت لي بها. ولديك

ابنة صغيرة تدعى موفيت وهي أجمل من السموات كلها.

أمسك الملك الخزقة التي خزبت عليها الملكة بضع كلمات وقبلها ورواها بدموعه وأراها لكل المجتمعين قائلاً إنه يعرف جيداً خط زوجته وطرح ألف سؤال على الضفدعة فأجابت عليها بذكاء وبراعة. أظهرت الأميرة المخطوبة ومعها السفراء الذين أوكلت إليهم المشاركة في احتفال الزواج استياءً شديداً. قال الألع صيتاً بينهم:

- كيف يمكنك يا مولاي أن تثق بكلمات ضفدعة كهذه وتبطل زواجاً بهذه الأبهة؟ أيعقل أن تجرؤ حثالة المستنقع هذه على المجيء للكذب في بلاطك وتحظى بشرف استماعك إليها!  
أجابت الضفدعة:

- يا سيدي السفير اعلم أنني لست حثالة مستنقعات. وإذا كان الأمر يستوجب أن أستعرض معرفتي فهيا ليظهر الجن والجنيات! وعلى الفور ظهرت تلك الحيوانات الصغيرة البسعة، الضفدعة ومعها جميع الضفادع الصغيرة والفئران والحلازين والعظايا، سوى أنها لم تظهر في هيأتها الكريهة المعهودة بل تحولت إلى أشخاص ذوي قامات شائخة ومهيبية ووجوه جميلة وعيون أكثر التماعاً من النجوم. وكان كل واحد منهم يحمل على رأسه تاجاً من الحجارة الكريمة، وعلى كتفيه معطفاً ملكياً من المخمل المبطن بالفرو، له ذيل طويل يحمله أقزام وقزّمات. وفي الوقت نفسه صدحت الأبواق والصنوج والنايات والطبول مخترقة السماوات بأنغامها الجميلة الحريّة. وبدأ الجن والجنيات يؤدون رقصة باليه رشيقة حتى أنّ القفزة الصغيرة فيها كانت ترفعهنّ إلى قبة قاعة الاستقبال. وأصيب الملك والملكة المستقبلية بالدهشة عندما رأيا أولئك الراقصين يتحولون فجأة إلى أزهار راقصة هي أيضاً، إلى ياسمين ورنجس وبنفسج ومسك



رومي، وكأنتها مزودة بسيقانٍ وأقدام. غدا المشهد روضة متحركة  
تُبهِجُ بحركاتها وأريجها الأنف والعين.

وبعد لحظةٍ اختفت الأزهار وانبجست في مكانها نوافير ماء.  
كانت ترتفع بسرعةٍ ثم تنسكبُ متدفقة في قناة واسعة تشكلت  
في أسفل القصر، وامتلات القناة بسفنٍ شراعيةٍ صغيرة في غاية  
الجمال والأناقة، مذهبة ومزدانة بالرسوم، ما دفع الأميرة لأن تدعو  
سفراءها للدخول إليها ومرافقتها في نزهة صغيرة. فانصاعوا لرغبتها  
بكل سرور معتقدين أن كل ما يحصل هو من باب الترفيه وسينتهي  
بزفافٍ ميمون.

ما إن أبحروا حتى اختفت السفينة والقناة وجميع النوافير وعادت  
الضفادع ضفادع. سأل الملك عن مكان أميرته فقالت الضفدعة:

- يا مولاي، يجب ألا تتخذ زوجة إلا الملكة زوجتك. لو لم أكن  
صديقتها لما عرفلتُ الزواج الذي كنتُ على وشك القيام به. ولكن  
الملكة تتحلّى بفضائل كثيرة وابنتك موفيت لطيفة جداً وعليك ألا  
تضيع دقيقة واحدة وأن تسعى لتحريرهما من أسرهما.

قال الملك:

- أعترف لك يا سيدي الضفدعة: لو لم أظن زوجتي ميتة لما  
تورعت عن فعل كل ما أستطيع لرؤيتها مجدداً.  
أجابت الضفدعة:

- بعد الآيات التي قمْتُ بها ورأيتها بأَم عينيك، يبدو لي أنه  
يتوجب عليك أن تكون مقتنعاً بما قلته لك: غادر مملكتك مُصدراً  
الأوامر اللازمة لإدارتها في غيابك ولا تؤجل رحيلك. ها أنذا  
أعطيك خاتماً يزودك بالوسائل لترى الملكة وتتحدث إلى الجنية لبوة  
مع أنها أفضع مخلوقة في العالم.

وإذ غابت الأميرة التي كان ينوي الزواج بها عن ناظره، شعر الملك بأن شغفه نحوها بدأ يتضاءل فيما الشغف الذي كان يجذوه للملكة يتعزز من جديد ويزداد قوة.

رحل دون أن يرغب في أن يرافقه أحد وقدم هدايا مميزة للصفدة. قالت له:

- لا تدع شيئاً يثبط من عزيمتك، ستكون أمامك مصاعب رهبة عليك اجتيازها ولكنني أمل أن تنجح في مساعيك.

شعر الملك بالاطمئنان لهذه الوعود، ورحل دون أن يتخذ مرشداً له سوى الخاتم بهدف العثور على ملكته العزيزة. كانت موفيت تزداد جمالاً واکتمالاً على مرّ السنوات بحيث إنّ جميع مسوخ البحيرة الزّنبقيّة وقعوا في غرامها. كانت ترى تنانين مرعبة تأتي لتزحف عند قدميها. ومع أنّها لم تر سوى المسوخ فإنّ عينيها الجميلتين لم تستطعا الاعتياد عليهم. كانت تهرب منهم وتختبئ بين ذراعي والدتها. كانت تقول لها:

- هل سنظلّ وقتاً طويلاً هنا؟ ألن تنتهي مصائبنا؟

فتعلّلتها الملكة بالأمال الصّالحات وتواسيها رغم أنّها لم تكن تملك أيّ أمل في قرارة نفسها. إنّ رحيل الصفدة، وصمّتها العميق، والوقت الطويل المنصرم دون أن يصلها أيّ خبر عن الملك، كلّ هذا أشجاها إلى أقصى حدّ.

اعتادت الجنّية لبوة تدريجياً على اصطحابها إلى الصيد. كانت نهمّة وتحب الطرائد التي تصطادها لها، وكانت تُعطيها القوائم أو الرّأس على سبيل المكافأة. ولكنّ سماحها لها برؤية ضوء النهار مجدداً يُعتبر بحدّ ذاته نعمة كبيرة.

كانت الجنّية تتخذ هيئة اللبوة فتعلّلتها الملكة وابنتها ويغدون

هكذا وسط الغابات.

توقف الملك، الذي كان خاتمه دليلاً، في إحدى الغابات وراهما  
تغيران كالتسهم ولم تلحظ وجوده. ولكنها غابتا عن نظره ما إن هم  
باللحاق بهما.

وبالرغم من الآلام المستمرة التي قاستها الملكة فإن جماها لم يتغير  
وبدت له أكثر ظرفاً من أي وقت مضى. واشتعلت كل نيران حبه  
مجدداً وأيقن أن الفتاة اليافعة التي كانت برفقتها هي الأميرة العزيزة  
موفيت. وصمم على أن يلقي حثفه ألف مرة على أن يتخلى عن عزمه  
على رؤيتها.

وأرشدته الخاتم العجيب إلى المكان المظلم حيث تقيم الملكة منذ  
سنوات كثيرة. كان مندهشاً أشد الدهشة للتزول إلى جوف الأرض  
وكل ما رآه زاد في دهشته. لم تكن الجنية لبوة تجهل شيئاً؛ عرفت اليوم  
الذي وصل فيه الملك والساعة. وهل كانت ستورع عن القيام بشيء  
لكي تغير المقدّر؟ لكن هذا لم يمنعها من التصدي لكل ما يعرقل  
مخططاتها بكل ما أوتيت من قدرة.

بنت وسط البحيرة الزبقيّة قصرًا مائجاً من البلور وسجنت  
فيه الملكة التعيسة وابنتها. ثم خطبت في جميع المسوخ الذين كانوا  
عاشقي موفيت.

قالت لهم:

- ستخسرون هذه الأميرة الجميلة إذا لم تهتموا معي بالدفاع عنها  
لمواجهة فارس سيأتي لاختطافها.

وعدها المسوخ بالآيألوا جهداً وفعل كل ما يستطيعونه لمحاربتة.  
أحاطوا بقصر البلور من كل جهة وتمركز الأكثر رشاقة بينهم على  
السطح وحافات الجدران، وآخرون أمام الأبواب والباقون في البحيرة.

استشار الملك خاتمه الوفيّ وذهب أولاً إلى كهف الجنّية. كانت تنتظره في هيئة اللبوة. ما إن ظهرَ حتّى انقضت عليه فاستلّ سيفه بمهارةٍ لم تتوقّعها، وبما أنّها مدّت قائمتها لتسحّقه قطعاً هو من المفصل أي عند كوعها. أطلقت صرخة مرعبة وسقطت. اقترب منها ووضع قدمه في صدرها وتوعد بأن يقتلها. وبالرغم من غضبها الذي لا يُقاوم شعرت بالخوف.

قالت له:

- ماذا تريد مني؟ ما هو طلبك.

أجاب بفخر:

- أريد أن أعاقبك لأنك اختطفت زوجتي، وأن أرغمك على أن تردّيها لي أو أحنّك في الحال.

قالت:

- انظر إلى هذه البحيرة وتحقق بنفسك إذا كانت في قبضتي.

التفت الملك إلى الجهة التي دلّته عليها فرأى الملكة وابنتها في قصر البلور الذي كان يموج دون مجاذيف ولا دفة مثل سفينة شراعية على الصّفحة الزّبقيّة.

شعر أنّه سيموت من شدّة الفرح والألم. ناداهما بكلّ قوّته وسمعتاه ولكن ما السبيل إلى موافاتهما؟ وفيما هو يبحث عن وسيلة، اختفت الجنّية لبوة.

فركّض على طول ضفاف البحيرة: كلّما شعر بدنوّه من واحدة من الجهات واستعدّ لبلوغ القصر الشفاف كان القصر يبتعد عنه بسرعة خفيفة فتلاشى آماله باستمرار. خافت الملكة أن يُصاب بالإنهاك فأخذت تصرخ به وتستحثّه كي لا يفقد شجاعته، وتعلّمه أنّ الجنّية لبوة تريد أن تنهكه لكن لا شيء يقف في وجه الحبّ الحقيقيّ. وهنا،

مدّت الملكة وموفيت له أيديهما متوسّلتين. أحسّ الملك عندما رأهما بأنّ سهاماً جديدة تحترقه فصاح بكلّ قواه وأقسم بنهرني ستيكس والأكرون<sup>(1)</sup> بأنه سيُمضي بالأحرى باقي حياته في تلك الأمكنة المشؤومة على أن يرحل من دونها.

واستوجب الأمر أن يتحلّى بصبر كبير: هو الملك العظيم كان يمضي أحلك أيامه. كانت الأرض المليئة بالعوسج والأشواك بمثابة سريره، ولم يكن يقات إلا من الثمار البرية الأمر من العلقم مواصلاً معاركه مع مسوخ البحيرة. إنّ زوجاً مثله يفعل كلّ ما بوسعه كي يستعيد زوجته هو ينتمي حتماً إلى زمن الجنّيات وهذا يشير كفاية إلى زمن حكايتي.

ثلاث سنواتٍ مرّت ولم يستطع الملك أن يعلّل نفسه بأيّ أمل. كاد يأسه يبلغ أقصاه. مائة مرّة اتّخذ القرار بأن يرمي نفسه في البحيرة. وكان سيّرمني نفسه لو أنّ في ذلك المسعى الأخير علاجاً لآلام الملكة والأميرة. كان يركض كعادته تارة من هذه الجهة وطوراً من تلك عندما ناداه تنين مخيف قائلاً له:

- إذا أقسمت لي بتاجك وصورجانك ومِعْطَفِكَ الملكيّ، وبزوجتك وابنتك بأن تعطيني شيئاً ما أحبّ أن آكله وأطلبه منك عندما أشتّيه، فسأحمّلك على أجنّحتي. وبالرغم من كلّ المسوخ التي تملأ هذه البحيرة وتحرس هذا القصر البلّوريّ فإنني أعدك بأننا سنُخرج الملكة والأميرة موفيت.

هتف الملك:

- آه! يا تنين روجي العزيز، أقسم لك ولكلّ جنسك من معشر التنانين بأنني سأعطيك لتأكل بقدر ما تشاء وسأبقى إلى الأبد

(1) ستيكس والأكرون: من أنهار الجحيم في الميثولوجيا الإغريقية.

خادمك الصّغير.

أجاب التّين:

- لا تعدني إذا لم ترغب في أن تفي بوعدك، وإلاّ لحدثت مأسٍ عظيمةً جدّاً ستذكّرُها طيلة حياتك.

ضاعف الملك من وعوده للتّين. كان يتحرّق لهفة لتحرير ملكته العزيزة من أسرها: صعّد على ظهر التّين كما لو أنّه كان أجمل حصانٍ في العالم، وللحال تقدّم المسوخ بأنّجاهه ليعترضوا طريقه، وما عاد يُسمَع إلاّ فحيح الأفاعي الحادّة، ولا يُرى غير النار والبارود وملح البارود، التي تنهمر من كلّ حدب وصوب: وأخيراً وصل الملك إلى القصر. ضاعفت طيورُ الخفّاش والبوم والغربانُ جهودها لتسدّ عليه المدخلَ لكنّ التّين بمخالبه وأنيابه وذيله مزّق إرباً كلّ مَنْ تطاولَ عليه. والملكة من جهتها التي كانت تراقب المعركة الشرسة حطّمت الجدران برّفساتها وجعلت من حطامها أسلحةً لتساعّد زوجها العزيز. وفي النهاية كان الانتصار حليفهم واجتمع شملهم وزال السحر بدويّ رعدٍ سقط في البحيرة وجفّفها.

واختفى التّين الخدوم كما اختفى الآخرون ولم يعرف الملك كيف انتقل فجأةً مع الملكة وموفيت إلى عاصمة مملكته ووجدوا أنفسهم جالسين هناك في صالون رائع أمام مائدةٍ فيها ما لذّ وطاب. كانت دهشتهم عظيمةً وفرحتهم أعظم. هُرِعَ جميع رعاياهم ليروا الملكة والأميرة الشابّة التي، بفضل سلسلة من المعجزات، كانت مرتديّة أجمل الثياب المزدانة بأحجار كريمةٍ يخطف برّيقها الأنظار.

من السهل تخيّل الاحتفالات المتنوّعة التي أقيمت في هذا القصر الجميل. نُظمت الحفلات التنكريّة وسباقات الخيل والمباريات التي اجتذبت إليها أعظم أمراء العالم، وكانت نظرات موفيت الجميلة تسترعي انتباههم جميعاً. وبين أولئك الأحسن خلقة والأبرع برزّ

الأمير موفي وبزهم جميعاً ولم يكن يُسمع إلا الهتاف له. كان الجميع معجبين به، والشابة موفيت التي عاشت لغاية ذلك اليوم مع الأفاعي وتنانين البحيرة لم تستطع إلا أن تقدّر مزايا موفي. ولم يكن يمرّ يوم إلا ويقوم فيه بمبادرات جديدة لكي يروق لها لأنه كان يحبّها بشغف. وبما أنّه كان بين المتقدمين لطلب الزواج بها، وتأكيداً منه لصدق نواياه أعلم الملك والملكة بأنّ إمارته كانت ذات جمالٍ واتساعٍ لا يُستهان بهما.

قال له الملك إنّ موفيت باتت سيّدة مصيرها وتستطيع اختيار زوجها بنفسها وإنّه لا يريد أن يرغمها على فعل شيء، لا بل إنّه يبذل قصارى جهده ليروق لها، وهنا يكمن مصدر سعادته الوحيد. سرّ الأمير لهذا الجواب وعرف بعد لقاءات عدّة أنّ الأميرة كانت تهتمّ بأمره هي أيضاً.

وأخيراً أعلنت موقفها صراحة وقالت له إنّه لن يكون لديها زوج آخر سواه وإلا فإنّها لن تتزوج أبداً. طار موفي فرحاً حتى إنّه ارتدى عند قدميها واستخلفها بالعبارات الأكثر رقة أن تتذكّر الكلمة التي أعطته إياها.

وهرع على الفور إلى جناح الملك والملكة. وأعلمهما بآخر التطوّرات العاطفيّة بينه وبين موفيت وتوسّل إليهما أن يكون زفافهما في أقرب موعد. فوافقا بكلّ سرور. كان للأمير موفي مزايا كثيرة وبدا أنّه وحده جدير بالزواج بموفيت الرائعة. أراد الملك فعلاً أن يعقد خطبتها قبل عودة موفي إلى الإمارة لأنّه كان مضطراً إلى الرحيل للإشراف على الاستعدادات لحفل الزفاف. لكنّه لن يغادر قبل الحصول على ضمانات بإقامة العرس لدى عودته. لم تستطع الأميرة موفيت أن تقول له الوداع لأنّ دموعها المنهمرة حالت دون ذلك. كانت تستشعر بصورة غامضة أنّ أموراً محزنة سوف تحدث. والملكة

إذ رأت الأمير رازحاً تحت ألمه، أعطته صورة ابنتها واستحلفته ألا يكون حفل الاستقبال الذي سيأمر بإقامته مفرداً الأبهة، وألا يتأخر في العودة. قال لها:

- سيّدي لم يسبق لي أن شعرت بلذّة أن أطيّعك كما أشعر بها في هذه المناسبة. قلبي مهتمّ بها كثيراً ولا أستطيع أن أهمل ما من شأنه أن يجعلني سعيداً.

وانطلق بسرعة. ورثما يعود، شغلت الأميرة موفيت وقتها بسماع الموسيقى والعزف على الآلات التي تمرّنت عليها منذ بضعة أشهر وكانت تعزف ببراعة كبيرة. وذات يوم، وفيما كانت في غرفة الملكة، دخل الملك والدموع تنهمر من عينيه ثم احتضن ابنته بين ذراعيه، وهتف قائلاً:

- آه يا طفلي! يالي من أب عديم الحظ! أيّ ملك تعيس أنا! ولم يستطع أن يقول أكثر. اختنق صوته لفرط الشهقات. سألته الملكة والأميرة ما به وقد راعهما منظره. وأخيراً قال لهما إن عملاقاً هائلاً جاء لمقابلته مدّعياً أنه سفير التّين، تّين البحيرة الذي، وفقاً للوعد الذي انتزعه من الملك مقابل مساعدته له في محاربة المسوخ والانتصار عليهم، جاء يطالب بالأميرة موفيت لتكون أضحية له؛ لأنّه هو نفسه كان قد قطع عهداً خطيراً تلزمه بأن يُعطيه كلّ ما يريد. وفي ذلك الزّمان كان الناس يفون بوعودهم.

وإذ سمعت الملكة هذه الأخبار المشؤومة، أطلقت صيحات مرعبة وعانقت الأميرة بين ذراعيها وقالت:

- الأفضل أن تُتزعّ متي حياتي على أن أرضى بتسليم ابنتي لهذا المسخ. ليأخذ مملكتنا وكلّ ما نملكه. أيها الأب المعتوه، هل يمكنك الموافقة على هذا العمل الشائن؟ ماذا! ابنتي ستكون أضحية للتّين؟ لا! لا يمكنني أن أتحمّل الفكرة: أرسلوا لي هذا الوفد البربري. ربّما



يؤثر فيه حزني وتفجّعي.

لم يُجِب الملك بشيء، وذهب يتحدّث إلى العملاق ثم اصطحبَه أمام الملكة التي ارتمت عند قدميه هي وابنتها تستحلفانه أن يشفق عليهما ويقنع التّين بأخذ كل ما تملكانه لقاء إنقاذ حياة موفيت. لكنّه أجابها أنّ الأمر لا يتعلّق به إطلاقاً وأنّ التّين كان في منتهى العناد والنّهَم، وأنّه حين يقرّر أن يتناول وجبة لذيذة فلا أحد يستطيع ردّعه عن رغبته. ونصحهما بصفته صديقاً بتنفيذ الأمر طوعاً لأنّ ويلات أخرى أفضع بإمكانها أن تحدث. وعلى أثر هذه الكلمات فقدت الملكة وعيها وكان الأمر نفسه سيحصل للأميرة لو لم ترَ عليها لزاماً أن تسعف أمها.

انتشرت هذه الأخبار المحزنة في القصر وعرفت بها المدينة كلّها، ولم يكن يُسمَع إلاّ البكاء والتّحيب لأنّ موفيت كانت محبوبه جداً ولم يكن باستطاعة الملك أن يوافق على تسليمها للعملاق. والعملاق الذي انتظر أياماً عدّة بدأ يملّ الانتظار ويهدّد ويتوعّد بطريقة رهيبة. إلاّ أنّ الملك والمملكة قالاه:

- وما الأمر الأسوأ الذي يمكنه أن يحصل لنا؟ وحتى لو أتى تّين البحيرة والتهمنا كلينا فلن نكون أكثر تفجّجاً، لأنّه إذا التهم ابنتنا موفيت فنحن هالكان في جميع الأحوال!

وهنا قال لهما العملاق إنّه تلقى أخباراً من سيّده مفادها أنّ الأميرة إذا وافقت على الزواج بابن أخيه فسوف يقبل بأن تظّل على قيد الحياة. وأضاف أنّ ابن أخيه ذلك هو حقاً وسيّم وقوي، وأنّه أمير وبإمكانها أن تعيش سعيدة جداً معه.

لطف هذا الاقتراح قليلاً من ألم جلاتيها. تحدّثت الملكة إلى الأميرة لكنّها وجدتها بعيدة عن فكرة ذلك الزواج بُعد الموت عن الحياة. قالت لها:

- لا أقدر يا سيدي أن أحتفظ بحياتي لقاء الخيانة. لقد وعدتني  
للأمير موافي ولن أكون أبداً لأحدٍ غيره: دعوني أموت. إنَّ نهايةَ حياتي  
تؤمن الراحةَ لحياتِكما.

وأتى الملك. قال لابنته أعذب الكلام وأزقه ليجعلها تتراجع عن  
موقفها لكنها ظلت حازمة لا تلين. وأخيراً، صمّم على اقتيادها إلى  
أعلى قمة جبل حيث يفترض بتّين البحيرة أن يأتي لأخذها.

وحضّر كلّ شيءٍ لذلك القربان الحزين. إنَّ أضحى إيفيجينيا<sup>(1)</sup>  
وبسيكيه<sup>(2)</sup> لم تكن بمثل ذلك الشؤم: لم تكن تُرى إلاّ الملابس السوداء  
والوجوه الشاحبة الواجمة. كان هناك أربعمائة صبيّة من نخبة القوم  
لابسات أثواباً طويلة بيضاء ويتقلدن أكاليل السرو ومرافقتها: كُنَّ  
يُحْمَلْنَها على محفّ مكشوف من المخمل الأسود حتى يرى الجميع  
تحفة الخلق تلك. كان شعرها منشوراً على كتفيها ومضفوراً بالأشرطة  
السوداء، والتّاج على رأسها مضفوراً من أزهار الياسمين المزوجة  
ببعض الأذريون. كان يرضيها أم الملك والملكة اللذين تبعها رازحين  
تحت وطأة حزنهما المفجع؛ وكان العملاق المدجج بكلّ أنواع  
الأسلحة، يمشي إلى جانب المحفّ الذي يحمل الأميرة. كانت نظراته  
تلتهمها وبدا عليه أنّه كان أكيداً من أنّه سينال حصته منها. رجّع  
الهواء صدى التنهّدات والنّحيب وتبلّلت الطّريق بالدموع المذروقة.

(1) إيفيجينيا: في الميثولوجيا الإغريقيّة، هي ابنة آغاممنون وكليتمسترا، التي ضحى بها  
والدها لأرتيميس لكي ينال رضى الآلهة.

(2) بسيكيه: سبقت الإشارة إلى غرامياتها مع كوبيدون. هي في الميثولوجيا الإغريقية ابنة  
ملك أراد الاستجابة لإرادة الآلهة فترك ابنته على أعلى صخرة في قمة تلة حيث سيأتي  
خطيبها لاصطحبها وهو أفغوان مجنّح. إلاّ أنّ إله التّسيم يختطفها ويطحها على بقعة  
معشبة غير بعيد عن قصر منيف تتسلّل هي إليه وتجد في انتظارها وليمة باذخة. بعد  
تناول الطّعام تغفو، وهناك يتسلّل إليها عاشقها كوبيدون (إيروس).

هتفت الملكة:

- آه أيتها الضفدعة، لماذا تركتني وتخلّيت عني! واحسرتاه! لماذا أنجدتني في السهل المظلم فيما تحجبين عني معونتك الآن؟ ما كان أسعدني لو مت آنذاك! لما كنت رأيت على الأقلّ اليوم كلّ آمالي خائبة! ولما كنت رأيت موفيت الغالية تقدّم طعاماً للثنتين.

وفيما كانت ترسل شكواها، كان الموكب يواصل تقدّمه رغم إبطاء السائرين. وأخيراً وصلوا إلى قمة الجبل المشؤوم. وفي ذلك المكان، بدأت الصرخات والحسرات تتضاعف بقوة كبيرة ولم يكن هناك مشهد حريّ بالإشفاق كذلك المشهد. دعا العملاق الجميع لتوديع الأميرة والانصراف. وتوجب القيام بذلك لأنّه في ذلك الزمان كانت الأمور تجري وكأنّها قدر محتوم ولم يكن أحدٌ يبحث عن حلولٍ بديلةٍ لأيّ شيء.

ابتعد الملك والملكة وصعدا على جبلٍ آخرٍ يستطيعان منه مع كلّ أفراد الحاشية أن يروا ماذا سيصير بحال الأميرة. وبالفعل لم يدم مكوثهم طويلاً حتّى رأوا في الفضاء التين الذي كان يبلغ طوله نصف فرسخ وكانت له ستة أجنحة كبيرة. لم يكن يستطيع الطيران بسهولة لفرط ما كان جسده ثقيلاً مكسوّاً كلّه بحراشف ضخمة زرقاء وبألف نبلة ملتّهبة. كان ذنبه ملتقاً إلى خمسين حلقة ونصف الحلقة، وكلّ مخلبٍ من مخالبه بضخامة طاحونة هوائية، وكانت تشاهد في شدقه الفارع ثلاثة صفوفٍ من الأنياب الطويلة كأنياب الفيل.

ولكن، وفيما هو يتقدّم ببطء، كانت الضفدعة الوفيّة والعزيزة تعتلي صقراً مرتدية عباءتها المصنوعة من الورد، وطارَت بسرعةٍ إلى الأمير موفي، ومع أنّه كان داخل ديوانه، دخلت عليه دون استئذان

وقالت له:

- ماذا تفعل هنا أيتها العاشق العديم الحظ؟ هل تحلم بمفاتيح موفيت التي تتعرض في هذه اللحظة إلى الكارثة الأفظع: هاك بثلة ورد سأنفخ عليها وأصنع منها حصاناً نادراً كما سترى.

وفي الحال ظهرَ حصان أخضر كله بائتي عشرة قائمة وثلاثة رؤوس. الرأس الأول يقذف ناراً، والثاني قنابل والثالث كرات مدفع. أعطته سيفاً يبلغ طوله ثمان عشرة ذراعاً لكنه أخف من الريشة. وألبست الأمير ثوباً صنّع من الماسة واحدة، ومع أن ذلك اللباس كان أصلب من الصخر إلا أنه يسهل عليه حركته ولا يزعجه بشيء. قالت له:

- انطلق وأجر وطِرْ للدفاع عمّن تحبّها. الحصان الأخضر الذي أهبك إياه سوف يأخذك إلى مكان وجودها. وعندما تنفذها، قل لها إنني أريد حصتي في ذلك.  
هتف الأمير:

- أيتها الجنّية السخية، لا يمكنني الآن أن أعبر لك عن كلّ امتناني. لكنني أعلن نفسي خادماً الوفي لمدى الحياة.

وصعد على الحصان ذي الرؤوس الثلاثة، وللحال بدأ يعدو بقوائمه الاثني عشرة بسرعة ثلاثة أحصنة من أفضل أحصنة السباق، فوصل بوقت قليل إلى أعلى الجبل. هناك رأى أميرته العزيزة وحيدة، والتّين المرعب الذي كان يقترب منها ببطء. أخذ الحصان الأخضر يقذف النّار والقنابل وكرات المدفع التي فاجأت المسخ فعلاً. تلقى عشرين كرة في حلقه أصابت الحراشف وأتلفتها قليلاً. أما القنابل ففقت له عيناً. انتابه الغضب وأراد أن ينقض على الأمير، ولكن السيف البالغ طوله ثمان عشرة ذراعاً كان من نوعيّة

جَيِّدَةٌ وَيَسْتطِيعُ اسْتِعْمَالَهُ كَمَا يَشَاءُ فَيَغْرُزُهُ فِيهِ حَتَّى الْمَقْبُضَ أحياناً أَوْ  
يَسْتَعْمَلُهُ بِمِثَابَةِ سَوَاطِئِ. وَكَانَ الْأَمِيرُ سَتَهَشَّمَهُ مَخَالِبَ التَّنِينِ لَوْلَا دَرَعُ  
الْأَلْمَاسِ الَّذِي كَانَ لَا يُخْتَرَقُ.

عَرَفْتَهُ مَوْفِيَةً مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ لِأَنَّ الْأَلْمَاسَ الَّذِي يَكْسُوهُ كَانَ  
لَا مِعَا نَقِيّاً وَاعْتَرَاهَا خَوْفٌ مِمَّتْ، خَوْفُ الْعَاشِقَةِ عَلَى مَعشُوقِهَا. لَكِنَّ  
الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ بَدَأَ يَسْتَشْعِرَانِ بِبَصِيصٍ مِنْ أَمَلٍ فِي تِلْكَ الْحَلَكَةِ الَّتِي  
تَكْتَنِفُهَا. ذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْعَجَبِ رُؤْيَةَ حِصَانٍ بِثَلَاثَةِ رُؤُوسٍ وَاثْنَيْ  
عَشْرَةَ قَائِمَةً، يَقْذِفُ نَاراً وَهَباً، وَأَمِيرٌ يَأْتِي فِي اللَّحْظَةِ الْحَاسِمَةِ وَهُوَ  
يَرْتَدِي دَرَعاً مِنَ الْأَلْمَاسِ وَيَمْتَشِقُ سَيْفاً مَدْهَشاً، لِيُحَارِبَ التَّنِينَ  
بِكَثِيرٍ مِنَ الْبَسَالَةِ. وَضَعَ الْمَلِكُ قَبَعَتَهُ عَلَى صَوْلْجَانِهِ وَعَلَقَتْ الْمَلِكَةُ  
مَنْدِيلَهَا إِلَى طَرَفِ عَصَا لَكِي يُوْشِرُ لِلْأَمِيرِ وَيَشْجَعَاهُ. وَهَكَذَا فَعَلَ  
أَفْرَادُ الْمَوْكَبِ الْمُرَافِقِ لَهَا. وَالْحَقُّ، لَمْ يَكُنِ الْأَمِيرُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَشْجِيعٍ،  
كَانَ حُبُّهُ كَافِياً لِبَثِّ الْحَمِيَّةِ وَالْحِمَاسِ فِيهِ، وَكَذَلِكَ رُؤْيَتُهُ لِلْخَطَرِ  
الْمُحْدِقِ بِالْأَمِيرَةِ.

وَمَا الَّذِي لَمْ يَفْعَلْهُ لِإِنْقَاذِهَا! كَانَتْ الْأَرْضُ مَكْسُوءَةً بِالنَّبَالِ  
وَالْمَخَالِبِ وَالْقُرُونِ وَالْأَجْنِحَةِ وَالْحِرَاشِفِ، وَكَانَ دَمُ التَّنِينِ يَسِيلُ مِنْ  
كُلِّ أُنْحَاءِ جَسَدِهِ؛ كَانَ دَمُ التَّنِينِ أَزْرَقٌ وَدَمُ الْحِصَانِ أَخْضَرٌ، الْأَمْرُ  
الَّذِي أَحْدَثَ فَارِقاً لَوْنِيّاً فَرِيداً عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. سَقَطَ الْأَمِيرُ خَمْسَ  
مَرَّاتٍ لَكِنَّهُ كَانَ يُعَاوِدُ النَّهْوضَ دَوماً وَيَعِيدُ امْتِطَاءَ حِصَانِهِ عَلَى  
مَهْلٍ. ثُمَّ أَمْطَرَهُ بِوَابِلٍ مِنَ الْقَذَائِفِ وَالتَّنِيرَانِ الْيُونَانِيِّ<sup>(1)</sup>. وَأَخِيرًا فَقَدَ  
التَّنِينُ قِيَّوَاهُ وَتَهَاوَى فَعَرَزَ الْأَمِيرُ السَّيْفَ فِي أَحْشَائِهِ وَتَسَبَّبَ لَهُ بِإِصَابَةِ  
رَهِيئَةٍ. وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَصْعَبُ عَلَى الْمَرْءِ تَصْدِيقُهُ وَالَّذِي هُوَ مَعَ  
ذَلِكَ حَقِيقِيٌّ كَبَاقِي الْقِصَّةِ، هُوَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الشَّقِّ الْكَبِيرِ الَّذِي

(1) هي عبارة عن أسهم نارية من مميزات أنها توصل الاشتعال حتى في الماء.

أحدثه السيف فيه أميرٌ قلَّ نظيره جمالاً وفتنة. كان لباسه من المخمل الأزرق على خلفيّة من ذهب، والمطرز باللالئ، وعلى رأسه خوذة معدنيّة كالمحاربين الإغريق تظللها ريش بيضاء. فهُرِعَ فاتحاً ذراعيه ليقبل الأميرَ موفي. قال له:

- ما الذي لا أدين لك به يا محرري الشهم؟ لقد جئت وأخرجتني من أفطع سجن يمكن لحاكم أن يسجن فيه؛ حكمت عليّ به الجتية لبوة، ومنذ ستّة عشر عاماً وأنا أقاسي هناك، وكان تأثيرها عليّ من القوّة بحيث أنها أرغمتني، رغم إرادتي بالذات، أن ألتهم هذه الأميرة الجميلة: خذوني لأزمتي عند قدميها وأشرح لها معاناتي.

كان الأمير موفي متفاجئاً ومندهشاً من مغامرة مذهلة كتلك. وظلّ مرتاباً بكياسة ذلك الأمير. وسارع كلاهما لموافاة الجميلة موفيت التي شكرت من جهتها السماء ألف مرّة على كلّ تلك السعادة غير المتطرّة. كان الملك والملكة وأفراد الحاشية قربها وكلّ يتكلّم في الوقت نفسه ولا أحد يستمع للآخر. راح الجميع يبكي من شدّة الفرح كمّن يبكي من شدّة الألم. وأخيراً لكي يكتمل الاحتفال، ظهرت الضفدعة الطيبة في الفضاء على متن الصقر الذي علقت إلى قوائمه أجراس ذهبية صغيرة.

وعندما سمع الجميع الدنانات: درلن، دندن، رفعوا أبصارهم ورأوا عباءة الورود تلمع كالشمس والضفدعة جميلة كالفجر. تقدّمت الملكة نحوها وأمسكتها من قوائمها الصغيرة. وللحال تحوّلت الضفدعة إلى ملكة عظيمة ذات وجه في غاية الظرف والجمال. هتفت:

- جئت لأتوجّ وفاء الأميرة موفيت. لقد فضّلت تعريض حياتها للخطر على تغيير رأيها، وهذا مثال نادر في العصر الذي نعيش فيه

لكته سيتكرّر في العصور المقبلة.

- وعلى الفور أخذت إكليلين من الأس ووضعتها على رأسي  
العاشقين المتحائنين وضربت عصاها السحرية ثلاث مرّات  
وشوهدت عظام التنين ترتفع لتصير قوس نصر احتفالاً بتلك  
المغامرة المدهشة التي كتب لها النجاح.

ومن ثم سار ذلك الموكب الجميل الحاشد نحو المدينة وهو ينشد  
أناشيد الزفاف والقران ببهجة تعادل الحزن الذي اكتنف طقس  
التضحية بالأميرة.

لم يؤجل الزفاف إلا إلى اليوم التالي. ومن السهل تصوّر الأفرح  
التي تكلّل بها.

الملكة التي رويت لكم قصتها

ووصفت لكم أهوال الجحيم الذي كانت تعيش فيه

لم تحش أن يصيبها أيّ مكروه

بفضل معونة الصداقة والحب.

لقد أظهرت لها ضفدعتنا وفاءها وتفاني زوجها الملك في

مُساعدتها

وبفضل جهودهما المشتركة

استطاعا، بالرغم من اللبوة الضارية،

أن ينجياها من تلك الضفاف المشؤومة.

لقد ولّى زمان هؤلاء الأزواج الأوفياء والأصدقاء المتفانين

وعصرنا يفتقدهم تماماً

وحده عصر الجنّيات يعترّ بهم،

وهذا الوفاء الذي حدّثتكم عنه

هو خير دليل على قدّم القصة التي رويتها.



«ظبية الغابة» نقش غائر لكليمان-بيار ماريليه

Clément-Pierre Marillier, 1785



## ظبيّة الغابة

كانَ يا ما كان، كان هنالك ملك ومملكة يجمعهما قرانٌ سعيد. كانا متحابين ذاك الحب الرقيق الحنون. وكان أفراد رعيتيها يمحضونها حباً وإجلالاً متناهيين. لكن تلك السعادة كان ينقصها وريثٌ للعرش. والمملكة كانت مقتنعةً أنّ الملك سيحبها أكثر إن هي أنجبت له وريثاً. لذا، لا يأتي ربيعٌ إلا وتذهب للارتواء من مياه النبع البالغة العذوبة، تلك المياه التي يتوافد إليها الغرباء أيضاً بأعدادٍ وفيرة من جميع أنحاء العالم.

وكان هنالك نوافير عديدة في إحدى الغابات الكبيرة ويؤمها الناس للشرب منها، محاطة بالرخام والحجر السماقي<sup>(1)</sup>، وكان كل واحد لا يألو على نفسه جهداً لتجميلها. ذات يوم، وفيما كانت الملكة جالسةً على حافة النافورة قالت لجميع وصيفاتها أن يتعدن ويتركنها وحدها. ثم بدأت شكواها المعهودة. قالت:

- ما أتعس حظي، ليتني أرزق بولد! لأفقر النساء أولاد. منذ خمس سنوات وأنا أتوسل إلى السماء وهي لا تستجيب لي. أتراني سأموت قبل أن أحظى بهذه النعمة؟

وأثناء كلامها على هذا النحو، رأت مياه الينبوع تتحرك ثم ظهرت أنثى سلطعون ضخمة وقالت لها:

- يا ملكتي العظيمة، سيكون لك ما تشتهين. أنبئك إلى أنّ هناك قصرأً بديعاً بالقرب من هنا بنته الساحرات لكن يستحيل العثور

(1) الحجر السماقي ضرب من الرخام الصلب سمي كذلك بباعث من غلبة اللون الأحمر الشبيه بلون السماق عليه، ولكن هناك منه صف أسود وآخر أخضر.

عليه لأنه محاطٌ بغيومٍ كثيفةٍ جداً لا تستطيع عينُ إنسانٍ فإنِ اختراقها. إلا أنني خادمتكِ المتواضعة، وإذا شئتِ الوثوقَ بقدرَةِ أنثى سلطعون مسكينة، أقدمُ نفسي لإرشادكِ إليه.

استمعتُ إليها الملكة دون أن تقاطعها لشدة دهشتها من رؤية أنثى سلطعون تتكلم. قالت إنها توافق على ذلك العرض بكل سرور لكنها لا تعرف أن تمشي القهقري مثلها. ابتسمت أنثى السلطعون واتخذت في الحال هيئة عجوزٍ جميلة قصيرة القامة.

قالت لها:

- حسناً يا سيدي، لننسينَ المشي القهقري، أوافق على الأمر. لكنني أطلب منك خصوصاً أن تعامليني كواحدةٍ من صديقاتك لأنني لا أضمرُ لك إلا الخير والمنفعة.

خرجت من نافورة الماء دون أن تبتل، كانت ثيابها بيضاء مبطنةً بنسيج قرمزي وكان شعرها الرمادي معقوداً بشرائط خضراء. لم يسبق أن كانت عجوزٌ على هذا القدر من الأناقة. ألفت التحية على الملكة، ومن دون تأخر، أرشدتها إلى الطريق في الغابة. دُهِشت الأميرة لأنها جاءت إلى هناك ألف مرة لكنها لم تدخل قط إلى تلك الغابة. وآتى لها ذلك؟ كانت تلك طريق الجنّيات للذهاب إلى نافورة الماء وكانت في العادة مقفلة بالعوسج والأشواك. لكن، عندما ظهرت الملكة ومُرشدتها أزهرت أشجار الورد وتعانقت أشجار الياسمين والبرتقال لتؤلف من أغصانها تعريشة مظلمة بالأوراق والأزهار، واكتست الأرض بالبنفسج وغرّد ألف عصفورٍ من مختلف الأجناس وكلُّ ينافس الآخر تغريداً وغناءً.

لم تضحُ الملكة من دهشتها حتى انبهرت عيناها ببريق لا مثيل له آتٍ من قصرٍ مصنوعٍ كله من الألماس. جدرانُه وسطوحه وأسقفه

وأرضيَّاته وأدراجِه وشرفاته وحتَّى المصاطب، كلَّها من ألماس. لِفِرْطِ ذهولها لم تستطع الملكة الامتناع عن إطلاقِ صيحةِ إعجاب. سألت العجوزَ المتجَمِّلةَ مرافقتَها عما إذا كانَ ما تراه خيالاً أم حقيقة؟ أجابت:

- إنَّه الحقيقة بعينها يا سيِّدتي.

وللحالِ فُتِحَتْ أبوابُ القصرِ وخرَجَتْ منها سِتُّ جنِّيَّات، وأيِّ جنِّيَّات! كُنَّ الأجلِ والأروعِ في مملكتِهِنَّ حتَّى اليوم. أتَيْنَ جميعاً لِيُنْحَنِينَ احتراماً للملكة وتبجيلاً لها. وقَدِّمْتُ كلَّ واحدةٍ مِنْهُنَّ زهرةً مصنوعةً مِنَ الحجارةِ الكريمةِ ونَسَقَنْ منها باقةً، وكان في تلك الباقةِ وردةٌ وتوليبٌ وشقيقةُ نعيانٍ وحوضيَّةٌ وقرنفلةٌ وزهرة رَمَّان.

قُلْنَ لها:

- سيِّدتي، لا يمكن أن نَظْهَرَ لِكَ دلائلِ احترام أكبر من هذه المَتمثِّلةِ في سَماحِنَا لِكَ بالمجيءِ لرؤيتنا هنا. لكننا مسروراتٌ جدًّا بأن نُعلِنَ لِكَ أَنَّكَ ستَنجِيبِينَ أَميرَةً جميلةً اسمها «محبوبة». لا تنسِي عندما تنجيبينها دعوتنا لزيارتها لأننا نريد أن نمنحها جميع المواهب. ليس عليك إلا أن تأخذي الباقَةَ التي نقدِّمها لِكَ وتسمِّي كلَّ زهرةٍ باسمِها وأنت تفكرين بنا. كوني واثقةً من أننا سنحضرُ إلى غرفتكِ فوراً أن تلديها.

هلَّلتِ الملكة فرحاً وطوّقت أعناق السّاحرات. ودَامَ العناقُ والتقبيلُ لنصفِ ساعةٍ وأكثر. وبعد ذلك رجونا الملكة أن تدخلَ إلى قُصرِهنَّ الذي يفوقُ جماله الوصف. لقد اتَّخَذْنَ لِبِنائِهِ مهندسَ الملك-السَّمْسِ نفسَه، فبنى قصرًا هو كقصر الملك-السَّمْسِ سوى

أنّه أصغر منه<sup>(1)</sup>. شقّ على الملكة أن تتحمّل بريقه فكانت تغمضُ أجفانها كلّ دقيقة. ثمّ اقتدّنها إلى الحديقة. لم يسبق أن رأت مثل تلك الثمار الجميلة. كانت ثمار الشمس ضخمةً بحجم الرأس وليس بالإمكان أن نأكل حبة كرزٍ إلّا إذا قسمناها إلى أربعة، وطعمها من الرّوعة لدرّجة أنّ الملكة شعّرت بعدّ أن التهمتّها أنّها ستأنف من تناول الثمار الأخرى طيلة حياتها. وكان هناك بستان مليء بالأشجار الاصطناعيّة لكنّها مزوّدة بحياة وتنمو كالأشجار الأخرى.

لن أقول لكم الفرح العظيم الذي غمّر الملكة وحديثها المستفيض عن الأميرة الصّغيرة محبوبه وتشكراتها الملحفة للجنّيات اللطيفات اللّواتي زفّفنَ إليها ذلك الخبر السعيد. لن أفعل ذلك أبداً. لكنّ الملكة لم تغفل عن آية عبارة مودّة وامتنان. وأيضاً عبّرت عن كلّ امتنانها لجنّية التّبّع. مكثت الملكة حتّى المساء في القصر. كانت تهوى الموسيقى فسمعت هناك أصواتاً سهاويّة ومحمّلت بالهدايا. وبعد أن شكرت أولئك السيّدات العظيمات عادت إلى المنزل برِفقة جنّية التّبّع.

كان جميع أهل البيت في قلبي بالغ عليها بعدما فتشوا عنها في كلّ مكان. لم يكن بإمكانهم، بالتأكيد، تصوّر المكان الذي قصدته. كانوا يخشون أن تكون قد اختطّفت على يد بعض الغرباء الجسورين لأنّها جميلةٌ وشابّة. كان الجميع يتهلّلون فرحاً لعودتها. وبما أنّها كانت تشعر من ناحيتها بسرور غير متناهٍ نتيجة الآمال الخلابّة التي علّلت بها للتوّ، اتّصف حديثها بذكاءٍ وطرافةٍ سحرا للجميع.

تركتها جنّية التّبّع بالقرب من القصر. أغدقت عليها الملكة

(1) الملك-الشمس هو لقب ملك الفرنسيين لويس السادس عشر، والإشارة هنا إلى قصر فرساي القريب من باريس.

المجاملات والملاطفات لدى افتراقهما. وظلّت الملكة لثمانية أيام تردّ النّبع ولم تتوان عن العودّة إلى قصر الجنّيات برفقة صديقتها العجوز الغنجة، التي كانت بادئ الأمر تتخذ هيئة أنثى سلطعون ثمّ عادت لتأخذ هيئتها الطبيعيّة.

غادرت الملكة النّبع. ثمّ حبّلت ووضعت أميرة أسمّتها محبوبة. وفي الحال أمسكت الباقية التي قدّمت إليها هديّة من الجنّيات وسمّت جميع الأزهار واحدة تلو الأخرى فرأت الجنّيات يحضرنّ توّاً وكلّ منهنّ في عربيّة مختلفة: عربيّة من خشب الأبنوس تجرّها حمامات بيضاء وأخرى من العاج تجرّها غربان صغيرة، وعربيات أخرى أيضاً من خشب الأرز وخشب الصّبر. كان موكبهنّ ذاك يعبر عن التحالف والسّلام لأنهنّ كنّ حين يغضبنّ، يأتينّ في عربات تجرّها الثّنانين المجتحة والأفاعي التي تقذف النّار من أشداقها وعيونها، والأسود والسنوريات والفهود. كنّ يتنقلنّ على متن عرباتهنّ وهنّ يجلنّ الأرض من أقصاها إلى أقصاها بأقلّ ممّا يستغرّفه قول صباح الخير أو مساء الخير. وهذه المرّة كنّ في أفضل مزاج ممكن.

رأتهنّ الملكة يَدْخُلنّ غرفتها بفرح وجلال ويتبعهنّ أقرانهنّ وقزماتهنّ محمّلين بالهدايا. بعد أن عانقنّ الملكة وقبلنّ الأميرة الصّغيرة، بسطنّ ثياب الوليدة المصنوعة من قماش ناعم ومنّ الجودة بحيث يمكن استعماله لمائة سنة دون أن يتلف إذ كانت الجنّيات ينسجنه خلال أوقات فراغهنّ. أمّا الدانتيل فقد اشتغلنّها بإتقان يفوق ذاك الذي تحدّثت عنه بخصوص القماش، وقد رُسم عليه تاريخ العالم كلّه بالإبرة أو بالمغزل. وبعد ذلك، بسطنّ لها الأقمطة والأغطية التي طرزتها خصيصاً للأميرة ورُسم عليها ألف لعبة مختلفة يلهو بها الأطفال. ومُذّ وُجد مطرّزون ومطرّزات، لم يشهد

العالم أشياء بمثل تلك الرّوعة. لكن عندما ظهر مهّدُ الطّفلة صاحت الملكة إعجاباً لأنّ جماله فاق كلّ ما رأته حتّى ذلك الحين: كان مصنوعاً من خشب نادر ونفيس بحيث تبلغ كلفة الرّطل منه مائة ألف دينار. كان يحمله أربعة تماثيل صغيرة للملائكة الحبّ. وملائكة الحبّ هؤلاء كانوا تحفة مشغولة بفنّ يتجاوز رفعة المادّة التي صنّعوا منها وهي الألباس والياقوت، فنّ يفوق الوصف. وكان هؤلاء الملائكة تحرّكهم الجنّيات، فما إن يسمعون الطّفلة تصرخ حتّى يهدّدها وينتمونها. وكان في ذلك عونٌ كبيرٌ للمرضعاتِ والمربّيات.

حملت الجنّيات الأميرة الصّغيرة ووضعتها على رُكبهنّ. وقمّطنها وطبّعنَ على خدّها أكثر من مائة قبلةٍ لأنّها كانت منذ ذلك الحين جميلة ومحبوبة. لاحظنَ أنّها تحتاج للرّضاعة، وعلى الفور ضربنَ الأرض بعصاهن السّحرية فخرجت مرضعة وأرضعت تلك الطّفلة المكتنزة اللّطيفة. وبقيت هناك مسألة المواهب التي كانت الجنّيات سيمنحها إيّاها. فمنحتها الجنّية الأولى الفضيلة والثانية الذكاء والثالثة الجمال الخلاب والرّابعة الحظّ الميمون والخامسة الصّحة المديدة والأخيرة منحها نعمة أن تنجز كلّ أعمالها على أتمّ وجه.

ابتهجت الملكة وشكرتهنّ مراراً وتكراراً على الأفضال التي أعدّتها على الأميرة الصّغيرة. وعندئذٍ شوهدت أنثى سلطعون ضخمة تدخل إلى الغرفة والباب لا يكاد يتّسع لها.

قالت أنثى السلطعون:

- تبتاً لك! أيّتها الملكة الجاحدة النّائرة الجميل. ألا تتنازلين إذاً وتذكّريني؟ أيعقل أن تنسي بهذه السرعة جنّية التّبع والخدمات الجليلة التي أدّيتها لك باصطحابك إلى أخواتي؟ ماذا! دعوتهنّ جميعاً وغفلت عني أنا وخدي! منذ البدء استشعرتُ ذلك، وهذا ما دفعني

إلى اتّخاذ هيئةٍ أنثى سلطعون عندما تحدّثت إليك في المرّة الأولى،  
أردت أن أشيرَها هنا إلى أنّ صداقتك تراجع بدلَ أن تتقدّم.

اغتمّت الملكة اغتماً شديداً بسبب الخطأ الفادح الذي ارتكبه  
فقاطعتها وسألته المغفرة. قالت لها إنّها ظنّت أنّها سمّت زهرتها مع  
باقي الأزهار، وإنّ باقة الأحجار الكريمة هي التي خدعتها. قالت  
لها أيضاً إنّها غيرُ قادرة على نسيان المكْرُمات التي تدين لها بها وأنها  
توسّل إليها ألاّ تحرمها صداقتها وأن تحيط الأميرة الصّغيرة بعنايتها.  
كانت جميع الجنّيات يخشينَ أن تُنزلَ بها المصائب والنوائب فأزرنَ  
الملكة في مسعاها آملاّت في أن تُلنّ موقفها.

قلنَ لها:

- يا أختنا العزيزة، نرجو من جلالتك ألاّ تغضبي على ملكة لم  
تكن من نيتة لها في حملك على الاستياء! غادري، رجاءً، هيئة أنثى  
السلطعون هذه واطهري بكلّ سحر المعهود.

قلتُ لكم أنّفاً إنّ جنّية النبع كانت غنجة كثيراً. لئنّ مدائح  
أخواتها موقفها قليلاً.

قالت للملكة:

- حسناً، لن أنزل بالأميرة محبوبه كلّ الشرّ الذي ضمّرتُه لها.  
كنت أرغب، بالطبع، في حرمانها من الحياة ولا شيء كان بإمكانه  
ردّعي عن ذلك. ومع ذلك، أوّدها فعلاً أن أحذرك بأنّه ممنوع عليها أن  
تري ضوء النّهار قبل بلوغها الخامسة عشرة وإلاّ فستندم على ذلك  
أشدّ الندم أو ربّما سيكلّفها ذلك حياتها.

لم يغيّر بكاء الملكة وتوسّلات الجنّيات الشّهيرات شيئاً في الحكم  
الذي تلفّظته جنّية النبع للتوّ. تراجعت إلى الخلف لأنّها لا تريد أن  
ترك هيئة أنثى السلطعون.

ولدى مغادرتها الغرفة، طلبت الملكة الحزينة من الجنيات وسيلة لتحمي ابنتها من الشرور التي تتهددها. وفي الحال عقدن جلسة، وبعد أن تبادلن آراءً مختلفة، استقرت مشاورتهن على هذا الرأي: يجب بناء قصر بلا أبواب ولا نوافذ ويكون مدخله تحت الأرض. ويجب أن تنشأ الأميرة في هذا المكان حتى بلوغها العمر المحتوم.

كانت ثلاث ضربات من العصا السحرية كافية لتشييد ذلك الصرح الكبير. كان مبنياً في الداخل من الرخام الأبيض، وفي الخارج من الرخام الأخضر. وكانت السقوف والأرضيات من الألماس والزمرد منسقة على أشكال عصفير وأزهار وأشياء أخرى كثيرة طريفة.

وكل الأثاث كان مُنَجِّداً بالمخمل من مختلف الألوان ومطرزاً بأيدي الساحرات. وبما أتمن كنّ بارعات في نسج القصص فقد حكن لها أجمل القصص وأكثرها تميزاً، ولم يكن المستقبل فيها أقل حضوراً من الماضي. وكانت المآثر والأعمال البطولية لأعظم ملك في الدنيا تملأ سُجُفاً عديدة:

ظافراً يبدو ذاك الملك تارةً

كماردِ تراقيا<sup>(1)</sup>

يتصاعد الشرر من عينيه

ويحكي جرأته في القتال

و تارةً أخرى مطمئناً هادئاً

(1) ماردي تراقيا: أحد ألقاب آريس، إله الحرب في الميثولوجيا الإغريقية، دُعِيَ كذلك لأنّ الأسطورة تقول إنه كان يسكن في تراقيا، المنطقة البلقانية المعروفة، التي تشمل أجزاء من اليونان وتركيا وبلغاريا.



يحكم البلادَ بسلام عميم  
ويعذلُ يحسده عليه باقي البشر

هكذا يصوره أمهر الرسامين  
مخيفاً حين يحتلّ المدن  
وشهماً حين يصنع السلم.

تخيلت أولئك الجنّياتُ الحكيماُ هذه الوسيلة ليُعلّمَنَ الأميرة  
الشّابة بأسهلِ طريقةٍ الأحداثِ المختلفةِ حياةَ الأبطالِ والرّجالِ  
البارزين.

لم يكنْ بالإمكانِ الرّؤية في القصرِ إلّا على ضوءِ الشموعِ، ولكن  
كان هناكُ عددٌ كبيرٌ منها بحيثُ أنّ المكانَ كان مضيئاً وكأنّه في نهار  
دائم.

وجيءَ بالمعلّمينَ الذينَ كانت تحتاج إليهم لاكمالِ تربيتها. وكانت  
بفكرها وحيويّتها ولباقتها تستبقُ دوماً كلّ ما كانوا يُريدون تعليمها  
إياه. وكانوا في حالة إعجابٍ دائمٍ من الأشياءِ المدهشة التي تقولها في  
سنتها حيثُ الآخرون يعرفون بالكاد اسم مربيّتهم. وهكذا، لم يكن  
عبثاً أن أسبغت عليها الجنّياتِ المواهبَ الكثيرة.

إذا كان ذكاؤها يفتنُ كلّ من يقارُبها فإنّ جمالها لم يكن ذا تأثيرٍ أقلّ  
نفوذاً. كانت تسحرُ حتّى مُنعدمي الإحساس. ولم تكن أمّها المُلّكة  
لتفارقها لولا الواجبات التي تربطها بالملك. كانت الجنّياتُ الخيّراتُ  
يأتينَ لرؤيةِ الأميرةِ من وقتٍ لآخر، ويجلبنَ لها أشياءً نادرةً لا مثيل  
لها وملابسَ فاخرةً وأنيقة. ومنَ رآها ظنَّ أنّها ملابسُ عُرْسٍ جُهّزتْ

لأميرة شابة لا تقل لطفاً عن تلك التي أُمِّدَّت عنها<sup>(1)</sup>. لكن، من بين كلّ الجنيّات اللّواتي كنّ يمحضنّها أكبر الحبّ كانت الجنيّة توليب تحبّها أكثر منهنّ جميعاً ولا تنسى أبداً أن توصي الملكة بالأثرية ضوء النّهار قبل بلوغها سنّ الخامسة عشرة.

كانت تقول:

- شقيقتنا على النّبع متقيّمة جائرة. مهما يكن الاهتمام الذي نوليه لهذه الطّفلة، فهي سوف تؤذيها إن استطاعت لذلك سبيلاً، وهكذا يا سيّدي فمهما فعلت لن تكوني متيقّظة بما يكفي في هذا الشّأن.

كانت الملكة تعدها بأن تشهّر بشكل متواصل على مسألة هذه الأهميّة. ثمّ أخذ الوقت لخروج ابنتها من ذلك القصر يقترّب فأمرت برسمها. مُجِّلَ رَسْمُهَا إلى أعظم قصور الدّنيا. ولدى مرآها لم يكن هناك أيّ أمير إلّا ويعجب بها. ولكن، ثمة أمير تأثر جدّاً بصورتها فلم يعد بإمكانه مفارقتها. وضع رسمها في ديوانه واعتكف فيه وكان يتحدّث إليها وكأنّ الرّسم يَسْتَطِيع أن يُحسّ به ويسمعه. كان يبوح له بأمر العشق والوَلَه.

استعلم الملك الذي لم يعد يرى ابنه عن مشاغله وعن السّبب الذي يمنعه من الظّهور بمظهِرِهِ الفَرِح المَعهود. وتوجّه له بعض رجال الحاشية، الذين كانوا لا يحفظون سرّاً - وكثُر لهم هذه الطّباع - وقالوا له إنّهُ يُخشى أن يفقد الأمير عقله، لأنّه كان يظّل لأيام طويلة مُحتَبساً في ديوانه، وكانوا يسمعونهُ يتكلّم وحده وكأنّه برفقة أحدهم. استقبل الملك تلك الأحاديث ببالغ القلق، وقال للمقرّبين منه:

- هل يُعقل أن يكونَ ابني قد فقدَ عقله؟ كانَ على قدرٍ كبيرٍ من

(1) إلماحة متزلفّة من قبل الكاتبة إلى زواج ماري-أديلايد دوقة سافوا بدوق بورغنده، حفيد لويس الرّابع عشر، الذي احتُفِلَ به في 1697.

الذكاء! وكان مثار إعجاب دائم حتى الآن، ولم أجد في نظراته أي شيء يوحى بالخجل. يبدو لي فقط أكثر حزناً. يجب أن أتحدث إليه. ربّما أمكنني أن أفقه أي نوع من الجنون مسّه.

ثم أرسل في طلبه. أمرهم بالانسحاب، وبعد أسئلة عديدة وجهها إليه الملك وأظهر هو حياها سهواً أو أجاب عليها بشكل سيء، سأله الملك ماذا دهاه وما سبب التغير الكبير في مزاجه وشخصيته. وعندئذ، وقد اعتبر الأمير اللحظة مؤاتية، ارتمى عند قدميه وقال له: - صممت على أن تزوجني الأميرة دامسة. صحيح أن حسنات الاقتران بها تفوق تلك التي أعدك بها في مُصَاهِرَةِ الأميرة محبوبه، لكن يا مولاي أجد في محبوبه مفاتن لن أستطيع العثور عليها في الأخرى.

سأله الملك:

- وأين رأيت الفتاتين؟

أجابه الأمير محارب (هكذا سُمي منذ أن انتصر في ثلاث معارك حاسمة):

- أرسل إليّ الرّسمان اللذان يمثلان كلاً منهما. أعترف لك بأنني شُغفت بالأميرة محبوبه شغفاً بحيث إنه إذا لم تتراجع عن التعهد الذي أعطيته للأميرة دامسة، فالموت أهون عليّ، لا بل سأرضى بخسارة هذه الحياة إذا فقدت الرجاء بأن أكون لمن أحبّ. فأجابه الملك بلهجة صارمة:

- لهذا السبب إذاً يلذ لك أن تتوجه بالحديث إلى رسمها، ما يجعلك هزأة أمام كل رجال الحاشية؟ يظنون أنك فقدت عقلك. ولو كنت تعلم الأخبار التي تناقلوها لي عنك لكنت خجلت من ظهورك بهذا الضعف.

أجاب الأمير:

- لا أستطيع أن ألوم نفسي على هذا الحب المتأجج. عندما ترى رسم تلك الأميرة الفاتنة فسوف تفهم شعوري حيالها.

قال الملك بنفاد ضبر يشي بحزنه:

- أرسل أحداً ليحضر لي الرسم الآن!

كان الأمير سياسياً حزين أبهى أشد الأسي لو يكن واثقاً من أن لا شيء في العالم يضاهي جمال الأميرة محبوبة. هُرعَ إلى ديوانه ثم عاد إلى الملك الذي ذهل كابنه لدى رؤيته صورتها. قال له:

- هكذا إذا! يا عزيزي محارب، أوافق على تنفيذ أمينتك. إن وجود مثل هذه الأميرة اللطيفة في قصري سيزيدني شباباً. سأرسل في الحال بموفدين إلى قصر الأميرة دامسة لكي أعلمها بأنني تخليت عن تعهدي لها. وإذا ما اضطرت إلى خوض حربٍ ضروسٍ ضدها فإني خائضها لا محالة.

قبل الأمير يدي والده باحترام. وقبّل مراراً ركبتيه. عمّت الفرحة كيانه فعداً شخصاً آخر. حثّ أباه الملك على الإسراع في إيفاد رُسُلِهِ ليس للأميرة دامسة فحسب بل أيضاً للأميرة محبوبة. وتمنى عليه أن يختار الرجل الأكفأ والأثرى ليكون رسولاً لدى محبوبة، لأن عليه أن يضطلع بهذه المهمة الجليلة ويكون مقنعاً في طلب مبتغاه. وقع اختيار الملك على واحدٍ من رجاله اسمه تيان (وهو بالأصل اسم طائرٍ مولع بشمار التين). كان هذا شاباً نبيلاً في منتهى الفصاحة ويبلغ مجموع مدّاخيله مائة مليون دينار. وكان تيان يحبّ الأمير حباً جمّاً، فجهّز، كرمى له، الموكبَ الأجلّ والأكبر الذي يمكن تحيُّله. كان شديد الانهماك بالأمير، لأنّ هيام الأمير كان يزداد يوماً بعد يوم وكان لا ينفكّ يُلحّ عليه بالإسراع في الرّحيل، وقد أسرّ له قائلاً:

- فَكَّرَ بَأَنَّ حَيَاتِي رَهْنُ هَذِهِ الرَّحْلَةِ. سَأَفْقِدُ عَقْلِي إِذَا مَا خَطَرَ بِيَالِي  
أَنَّ وَالِدَ هَذِهِ الْأَمِيرَةِ التَّزَمَ بِتَعَاهُدٍ مَعَ أَمِيرٍ آخَرَ وَلَا يُرِيدُ الْإِخْلَالَ بِهِ  
لَأَجْلِي، وَأَنْتِي بِذَلِكَ سَأُخْسِرُهَا إِلَى الْأَبَدِ.

كَانَ تَيَّانُ يَطْمِئِنُّهُ كَسْبًا لِلوَقْتِ، لِأَنَّهُ كَانَ رَاغِبًا فِي تَجْهِيزِ مَوْكَبٍ  
عَلَى شَرَفِهِ، يَتَّسِمُ بِكُلِّ مَظَاهِرِ الْبَذْخِ وَالْأَثْمَةِ. أَعَدَّ مَوْكِبًا مِنْ ثَمَانِينَ  
عَرَبَةً فَاحِرَةً مَزْدَانَةً كُلَّهَا بِالذَّهَبِ وَالْأَلْمَاسِ وَكَانَتِ الرُّسُومُ الْمُنْمَنِمَةُ  
الْأَكْثَرُ إِتْقَانًا لَا تَدَانِي تِلْكَ الَّتِي تَزِينُهَا. وَكَانَتِ هُنَالِكَ خَمْسُونَ عَرَبَةً  
فَاحِرَةً أُخْرَى وَأَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ غِلَامٍ مُنْمَطِينَ صَهْوَاتٍ أَحْصَتْهُمْ  
وَمَنْظَرُهُمْ أَهْبَى مِنْ مَنْظَرِ الْأَمْرَاءِ. وَلَمْ تَكُنْ بَقِيَّةَ هَذَا الْمَوْكَبِ الْكَبِيرِ  
تَقَلُّعًا عَنْ مَقْدَمَتِهِ مِنْ حَيْثُ الْبَذْخِ وَالْأَثْمَةِ.

اسْتَأْذَنَ الرَّسُولَ الْأَمِيرَ بِالْإِنْصِرَافِ فَقَبَّلَهُ بِحَرَارَةٍ وَقَالَ لَهُ:

- تَذَكَّرْ يَا عَزِيزِي تَيَّانُ أَنَّ حَيَاتِي وَقَفَ عَلَى هَذَا الزَّوْجِ الَّذِي  
سَتَفَاوَضَ بِشَأْنِهِ. لَا تَأَلُّ جُهْدًا لِإِقْنَاعِهَا وَعُدَّ وَبِرْفَقَتِكَ الْأَمِيرَةَ  
اللَّطِيفَةَ مَحْبُوبَتِي.

وَلَقَدْ حَمَلَهُ بَهْدَايَا لَا تُحْصَى، كَانَتْ أَنْاقَتُهَا عَلَى قَدْرِ نَفَاسَتِهَا حَيْثُ  
كَلِمَاتُ الْحَبِّ مَحْفُورَةٌ عَلَى أَخْتَامِ مَاسِيَّةٍ وَسَاعَاتٍ مِنْ عَقِيقِ جَمْرِيٍّ  
مَزِينَةٍ بِأَحْرَفِ اسْمِ مَحْبُوبَةٍ، وَأَسَاوِيرَ مِنْ يَاقُوتِ أَحْمَرَ فِي شَكْلِ قُلُوبٍ.  
وَأَخِيرًا! كَمْ مِنَ الْهَدَايَا ابْتَدَعَ إِكْرَامًا لِعَيْنَيْهَا!

كَانَ الرَّسُولُ يَحْمِلُ فِي حَوْزَتِهِ رَسْمًا لِلْأَمِيرِ الشَّابِّ صَوْرَهُ فَتَانٌ  
شَدِيدَ الْمَهَارَةِ بِحَيْثُ كَانَ يَنْطِقُ وَيَتَفَوَّهُ بِكَلِمَاتٍ مَجَامِلَةٍ مَلِيئَةٍ طَرَافَةٍ.  
وَفِي الْوَاقِعِ لَمْ يَكُنْ يَجِيبُ عَلَى كُلِّ مَا يُقَالُ لَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعُوزُهُ ذَلِكَ.  
وَعَدَّ تَيَّانُ الْأَمِيرَ بِأَن يَفْعَلَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِإِنْجَاحِ مَهْمَتِهِ، وَأَضَافَ  
أَنَّهُ يَحْمِلُ فِي حَوْزَتِهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، فَإِذَا مُنَعَتْ عَنْهُ الْأَمِيرَةُ فَلَنْ يَتَوَرَّعَ  
عَنْ إِجْمَادِ الْوَسِيلَةِ لِيَكْسِبَ إِلَى جَانِبِهِ إِحْدَى وَصَيْفَاتِهَا، وَيَخْتَطِفَهَا.

هتَفَ الأمير:

- لا، لا يمكن القبول بهذا الأمر. تلك طريقة تفتقر إلى الاحترام وقد تتسبب بالإهانة لها.

وانصرف تيان دون أن يُعقَّب بأيِّ كلام. كانت الضجَّة التي يثيرها موكبُه تشي بقدمه. سُرَّ الملك والملكة لمجيئه. كانا يُبديان احتراماً كبيراً لسَيِّده وعلى دراية بماثر الأمير محارب. وكانا يعرفان أكثر من أيِّ شيء آخر مزاياه الشخصية، فلو أنهما فتشا العالم بأسره عن زوج لابنتيهما لما وجدا مَنْ هو أجدر منه بها. هيّا أحدَ القصور لاستقبال تيان ووجَّها كلَّ الأوامر اللازمة لكي يبدو البلاط في أُنهى حلَّة.

عقدَ الملك والملكة النِّية على أن يزورَ المبعوثُ الأميرة. لكنَّ الجنيَّة توليب جاءت للقاء الملكة وقالت لها:

- حاذري يا سيِّدتي من اصطحاب الرسول لزيارة ابنتنا (هكذا كانت تسمِّي الأميرة)، لا يجدرُ به أن يراها قبل بلوغها سنَّ الخامسة عشرة، ولا تُوافقي على إرسالها إلى الملك الذي يطلبها لابنه قبل أن يحينَ الموعد، لأنني متأكِّدة من أنها لو رَحلت قبل ذلك فإنَّ مكروهاً سيحصلُ لها.

قَبِلت الملكة توليب الطيِّبة ووعدتها بأن تتبع نصائحها. وذهبتا على الفور لزيارة الأميرة.

وصل الرِّسول. استغرق مرور موكبه ثلاثاً وعشرين ساعة لأنَّه يتضمَّن ستمائة ألف بغل كانت جريساتها وحوافرُها من ذهب وأسرَجتها من مُحمَّل وديباج ومزينة باللالئ. شكَّل مرورهم ازدحاماً غيرَ مسبوقٍ في الشُّوارع. هُرِعَ جميعُ النَّاسِ إلى رؤيتهم. وذهبَ الملك والملكة لاستقباله لفرط ما كانا مسرورين بقدمه. من غير المجدي

التحدّث عن الخطبة التي ألقاها والمراسم والاحتفالات من الجانبين إذ يمكننا تخيلها بسهولة. لكن، عندما سأهم الإذن بالذهاب لإلقاء التحيّة على الأميرة، رُفِضَ طلبُهُ ما جعله مذهولاً.

قال له الملك:

- إذا كنّا نرفض يا سيّد تيان أمراً مُحَقَّقاً كهذا، فإنّنا لا نفعل ذلك بسبب نزوة غريبة تعرض لنا. يجب أن نزوي لك الحادثة الغريبة التي حصلت لابتننا لكي تكون على علم بالأمر. لقد ناصبتُها جنيّة منذ ولادتها القداء وهدّدتها بحلول مصيبيّة كبيرة بها إذا رأت ضوء النهار قبل بلوغها سنّ الخامسة عشرة. لذا نحتسبها في قصر أجنحتّه البديعة موجودة تحت الأرض. كنّا عقّدنا النية على اصطحابك إلى هناك لكنّ الجنيّة توليب أمرتُنا بالأ نفع ذلك.

أجاب الرّسول:

- ماذا تقول يا سيّدي؟ هل عليّ أن أعود إلى الديار من دونها؟ ستكرّم بالسّماح لها بذلك لأجل سيّدي الملك وابنه. إنّها ينتظرانها بفارغ الصّبر. أيعقل أن تتوقّف عند هذه السّخافات التي يسمونها نبوءات الجنيّات؟ معي صورةٌ للأميرٍ مُحاربٍ وتلقّيت الأمر بأن أسلمها إياها. وهي تشبّهه لدرجة أنّك تظنه هو نفسه إذا ما نظرت إليه.

وللحال بسّط الرّسم الذي لم يُلقن إلاّ التحدّث إلى الأميرة، فنطق الرّسم بهذه الكلمات:

- يا محبوبية الجميلة، لا تستطيعين أن تتخيلي بأية حماسة أنتظرك. تعالي عمّا قريب إلى قصرنا لتزيّنيه بسحرك الذي لا يُضاهى.

وسكّت الرّسم. مكث الملك والملكة ذاهلين فتوسّلا في الحال إلى تيان بأن يُعطيها إياه ليرسّله إلى الأميرة. فسّر لذلك وكان لهما ما

حتى تلك الساعة لم تكن الملكة تحدّثت إلى ابنتها عمّا يجري. لا بل حَظَرَت على الوصيفات المقربَات منها أن يُقْلَنَ شيئاً عن مجيء الرّسول. لم يُنْصَعَنَ لأوامرِها وكانت الأميرة تعلم أنّ الأمر يتعلّق بمشروع زواج كبير. لكنّها كانت حذرة فلم تُفصح لأُمها عن شيء. وعندما أظهرت لها أمها رسم الأمير الناطق الذي توجه إليها بإطراء رقيق وظريف في آنٍ معاً، فوجئت بالأمر لأنّها لم تر من قبلُ لذلك مثيلاً؛ لم تُفاجأ فقط بما نطقَ به رسمُ الأمير فحسب بل ببشاشته وبهاءِ طَلَعته وتناسقِ ملاحه.

قالت الملكة وهي تضحك:

- هل يغضبك أن تزوّجي رجلاً يشبه هذا الأمير؟

أجابتها:

- مولاتي، لا يعودُ إليّ أمرُ الاختيار. سأرضى دوماً عمّن تختارانه لي، أنتِ وأبي.

أضافت الملكة:

- لكن افرضي أن اختيار القدر سيقع عليه، فهل ستكونين سعيدة

حسبَ ظنك؟

احمرّ وجهها. خفّضت عينيها ولم تُجِب بشيء. عانقتها الملكة وقبلتها مرّات عدّة. لم تستطع الامتناع عن دَرْفِ دموعها عندما فكّرت أنّها على وشكٍ فقدانها، إذ لم يعد أمامها إلا ثلاثة أشهر لكي تبلغ سنّ الخامسة عشرة. كتمّت استياءها وأطلعتها على المهمة التي اضطلع بها تيان الشهر، وقدمت لها الهدايا النادرة التي جلبها لها. تأملتها الأميرة وامتدحت بذوق رفيع الطابع الغريب الذي يميّزها لكنّها كانت تحتلس نظرات الإعجاب إلى رسم الأمير وبلدّة لم



تعهدّها حتى ذاك اليوم.

رأى الرسول أنّ إلحاحه باصطحاب الأميرة لن يُجدي نفعاً. كانوا يكتفون فقط بأن يعدوه بها بشكل لا يرقى إليه الشك. مكث قليلاً بالقرب من الملك ثم عاد من مهمته ليُعلم سيديّه بمفاوضاته.

وفور علم الأمير بأنّه لا يستطيع الأمل برؤية معشوقته الغالية إلا بعد ثلاثة أشهر، أذاعت شكواه الحزن في البلاط كلّه. امتنع عن النوم والأكل وأصبح كئيباً حالمًا وبدلت الهموم ألق سحتته إلى شحوب. كان يمضي أياماً طويلة مضطجعاً على أريكة في ديوانه يتطلّع إلى صورة أميرته. كان يكتب لها طيلة الوقت ويوجّه الرسائل لرسمها وكأنّه قادر على قراءتها. وأخيراً نال الوهن التدريجي من قواه وأصيب بمرض خطير ولم تكن معرفة سببه بحاجة إلى استشارة الأطباء والاختصاصيين.

يئس الملك. كان حبه لابنه يفوق كلّ وصف. أحسّ أنّه على وشك أن يفقده. يا للآلم الذي أصابه، وهل من ألم أشدّ من ألمه كأب! لم يكن يتصوّر أنّ ثمة دواءً بإمكانه شفاء الأمير. كان يتمنى وجود محبوبة إلى جانب ابنه وإلاّ فمصيره الموت. عندئذٍ، وفي لحظة يأس قصوى، اتخذ قراره بالذهاب للقاء الملك والملكة اللذين وعداه بابتهاج لكي يرجوهما بالإشفاق على حال الأمير وعدم إرجاء الزواج الذي لن يتم إذا أصرّ على موقفها بوجوب انتظار بلوغ الأميرة سنّ الخامسة عشرة.

كان هذا القرار جديداً من نوعه لكنّ الأمر سيكون أكثر غرابة إذا لم ينتشل الملك ابناً عزيزاً وغالياً من قبضة الموت. ومع ذلك وجد أنّ عائقاً كبيراً يحول دونّ هذا المسعى وهو سنّ المتقدمة التي لا تسمح له بالذهاب إلى هناك إلاّ على محمّل وهذه الوسيلة لا تلائم الحال

التي بلغها ابنه من نفاذ صبر، ما اضطره إلى إرسال تيّان المخلص للاضطلاع بهذه المهمة محملاً إياه الرسائل الأبلغ تأثيراً التي تستى لأب أن يكتبها، وهذا لكي يحث الملك والملكة على تحقيق مرامه.

في تلك الأثناء كانت محبوبة تنظر إلى رسم الأمير بلذّة تضارع لذّة الأمير في النظر إلى رسمها. في كلّ لحظة، تذهب إلى حيث وُضِعَ الرّسم لتتأمله. لم يكن يُجديها أن تُخفي مشاعرَها التي لم تكن تخفي على أحد، لا سيّما على وصيفيّها قرنفلّة وشوكلة<sup>(1)</sup> اللّتين لاحظتا تلك الهموم الصّغيرة التي بدأت تعذبها. كانت قرنفلّة تحبّ الأميرة كثيراً وتكنّ لها إخلاصاً كبيراً. أمّا شوكلة فتشعر دوماً بحسدٍ مضمّر من مزايا الأميرة ومقامها. والدّة شوكلة هي التي ربّت الأميرة، وبعد أن كانت مربّيها أصبحت كبيرة وصيفاتها. كان حريّاً بها أن تحبّها أكثر من أيّ شيءٍ في هذا الوجود لكتّها كانت تحبّ ابنتها شوكلة إلى حدّ الجنون. وإذا أحست بالحقد الذي تُضمّره ابنتها للأميرة، تواطأت معها.

المبعوث الذي أرسل إلى قصر الأميرة داميّة لم يستقبله أفراد الحاشية بحفاوةٍ لدى علمهم بالرسالة التي أوكلت إليه. فالأميرة داميّة، هذه الجبشيّة، كان يُحذوها حبّ غير مسبوق للانتقام. رأت أنّ تلك الرّسالة التي تعلن أنّ الأمير في حلّ من الزّواج بها تنمّ عن حقارة ووقاحةٍ لا حدود لها. كانت قد رأت رسم الأمير فشغفت به، وحين تتعاطى الجبشيّات بشؤون الحبّ فإنّهنّ يُجيبنَ بأغرب من النساء الأخريات.

(1) الشوكلة هي الشوكة أو العوسجة، وقد اخترنا هذا الاسم رغم ندرة استخدامه لتناغمه مع المفردة «قرنفلّة»، اسم الوصيّة الثانية. ويلاحظ القارئ سلبية الاسم «شوكلة» وإيجابية الاسم «قرنفلّة»، وهو تضادّ مقصود من لدن الكاتبة للإشارة إلى تناقض طبعي الوصيفتين.

قالت:

- ماذا تقول يا سيدي الرسول؟ أو يظن أميرك أنني لست ثرية أو جميلة بما يكفي؟ تستطيع أن تتجول في ولاياتي وتجد أنها مترامية الأطراف. اذهب إلى خزينة المملكة وسرى ذهباً أو فرماً تعطيه مناجم البيرو. وانظر أخيراً إلى سواد بشرتي، انظر إلى هذا الأنف الأفتس والشفتين المكتنزتين، أليس هذا هو الجمال بعينه؟

أجابها الرسول الذي كان يخشى القرع بالعصا أكثر من الخوف الذي يغترى أولئك المرسلين إلى الباب العالي<sup>(1)</sup>:

- ألوم سيدي على موقفه بقدر ما يحقّ لفردي من الرعايا أن يفعل. لو أن السماء نصّبتني على أكبر عرش في العالم لعرفت لمن أقدمه.  
قالت:

- هذا الكلام سينقذ حياتك. كنت صمّمت على أن أبدأ انتقامي بك. لكن ذلك سيكون ظلماً من جانبي فأنت لست السبب في تصرف أميرك الشائن. اذهب وقل له إنه من دواعي سروري أن يقطع علاقته بي لأنني لا أحب الناس الغشاشين.

كان جُل ما يتمناه الرسول هو رحيله بأسرع وقت ممكن. لكن الحبشية التي ألمها الأذى الكبير الذي سببه لها الأمير محارب لم تستطع مسامحته. صعّدت على متن عربية من العاج تجرّها ست نعامات، قادرة على اجتياز مسافة عشرة فراسخ في الساعة، وذهبت إلى قصر جنّية النبع التي كانت عزّابتها وصديقتها المفضّلة. روت لها ما جرى معها وتوسّلت إليها بإلحاح كبير أن تساعدتها في إرواء غليل ضغيتها. رقت الجنّية لألم ابنتها الرّوحية واستشارت الكتاب الذي يعرف كل شيء فأدرّكت في الحال أن الأمير محارب لم يترك الأميرة

(1) الباب العالي: قصر معروف في أسطنبول كان مركز حكم السلاطين العثمانيين.

دامسة إلا لأنه مغرم بالأميرة محبوبة التي كان يُحبّها بجنون وكان مريضاً من جرّاء لوعته وتلهّفه إلى رؤيتها. أجمت هذه المعلومة من غضبها الذي كان شبه خامد. وبما أنها لم ترّ الأميرة منذ ولادتها فإنّ هذا جعلها غافلة عن التسبّب لها بأذى لو لم تتوسّل إليها دامسة المنتقمة لتؤازرها في مشعاها.

هفت:

- ماذا تقولين؟ هل في نيّة هذه البائسة محبوبة أن تثير دوماً استيائي؟ لا، لن أسمح لها أيتها الأميرة الفاتنة. لا يا حلوتي، لن أحتمل أن توجه إليك مثل هذه الإهانة. السموات والعناصر جميعها معنيّة بهذه القضية. عودي إلى ديارك واتكلي على عزّابتك العزيزة. شكّرتها الأميرة دامسة وقدمت لها هدايا من أزهار وثمار فقبلتها بسرور كبير.

كان السّفير تيان يتقدّم بأقصى سرعته إلى المدينة الرئيسة حيث يقيم والد محبوبة. ارتمى عند قدمي الملك والملكة ذارفاً أحتر الدموع وقال لهما بعبارات مؤثّرة جداً إنّ الأمير محارب يُحتضّر وسيموت إن هما أرجا لقاء الأميرة به. لم يعد أمام الأميرة إلا ثلاثة أشهر لتبلغ سنّ الخامسة عشرة، ولا يمكن أن يحدث لها شيءٌ بغيضٍ في هذه المدّة القصيرة جداً. ثمّ إنه سمح لنفسه بتحذيرهما من وثوقهما بكلام الجنّيات السّخيفات لأنّه يسيء إلى الجلالة الملكيّة. وأخيراً ختم كلامه بخطبةٍ في منتهى البلاغة لا سيّما وأنّه منح موهبة الإقناع. بكى الملك والملكة إذ تصوّرا الحال التّعيسة التي آل إليها الأمير الشاب. قالوا للرّسول أن يمهلّهما بضعة أيّام ليحزما أمرهما ويتخذوا القرار الملائم. فأجابها إنّ لا يستطيع إمهاهما إلا بضعة ساعاتٍ لأنّ سيّده كان على آخر رمقٍ لظنّه أنّ الأميرة تكرهه وتتصدّ إرجاء سفرها. فما كان

من الملك والمملكة إلا أن طيباً خاطر الرسول قائلين له إنه هذا المساء سيُعلمانه بقرارهما الحاسم.

هُرَعَتِ الْمَلِكَةُ إِلَى قَصْرِ ابْنَتِهَا. رَوَتْ لَهَا كُلَّ مَا حَدَثَ. وَعِنْدَئِذٍ شَعَرَتْ مَحْبُوبَةً بِالْمِ يَعْتَصِرُ قَلْبَهَا مَا أَفْقَدَهَا وَعَيْهَا. وَإِذْ ذَاكَ أَدْرَكَتِ الْمَلِكَةَ عَمَقَ الْمَشَاعِرِ الَّتِي تَكْتُمُهَا لِلْأَمِيرِ.

قالت لها:

- لا تغتيمي يا عزيزتي. شفاؤه في يدك. لكنني قلقة فقط من التهديدات التي توعدت بها جنية النبع لدى ولادتك.

أجابتها:

- مولاتي، أظن أنه بإمكاننا بحيلة ما أن نخدع الجنية الشريرة. ألا أستطيع الرحيل مثلاً في عربة مغلقة تماماً محجوبة عن ضوء النهار، وتفتح فقط ليلاً ليقدم لنا الطعام. وهكذا أصل بخير إلى ديار الأمير محارب.

أعجبت الملكة كثيراً بهذا الاقتراح. أطلعت الملك عليه فاستحسنه أيضاً. سارع للإرسال بطلب تيان وأكد له أن الأميرة ستنتقل في أقرب فرصة ممكنة. فما كان عليه إلا العودة وتبليغ سيده هذه البشارة السعيدة. وإمعاناً منه في تسريع رحيله، سيغض الملك النظر عن تجهيزه بالموكب اللازم والثياب الفاخرة التي تليق بمقامه. طار الرسول فرحاً وارتمى عند أقدام جلالتي الملك والمملكة على سبيل الشكر. ثم انطلق دون أن يرى الأميرة.

لو أن الأميرة لم تُخطر للذهاب إلى الأمير بهذه السرعة لكان بدا لها افتراقها عن الملك والمملكة أمراً لا يُحتمل. لكن ثمة مشاعر تطفئ أحياناً على مشاعر أخرى وتثدها. جهّزوا لها عربة مصنوعة من المخمل الأخضر من الخارج ومزينة من الداخل بالديباج الفضي

المطرز بالوردِي. لم تكن فيها أية مرآة وكانت العربَة فسيحةً جدًّا ومُحكِّمة الإقفال وكأنَّها علبة. أوكلت إلى سيِّدٍ من نخبة الأشرافِ في المملكةِ مهمَّة فتح الأقفالِ التي أوصلت بها الأبواب.

من حولها كنت ترى ربّات الحُسن  
ومعهنَّ الضَّحكات والمتع واللَّهو  
وكذلك ملائكة الحبِّ  
سارعت بإجلالٍ تتبع خطاها.

كان منظرها مُهيِّباً  
وبرِّقتها السَّماوية  
كانت تجتذب الأمانى كلّها  
والبقية تأتي.

كانت تلتَمعُ بالسَّحر نفسه  
الذي كان لأديلايد<sup>(1)</sup>  
حين كان الزَّواج لها مُرشداً  
وقصدت تلك الأمكنة لتوطد السَّلام.

عُيِّنَ القليل من الضَّبَّاط مُرافقتها تجنُّباً لأيِّ إبطاءٍ قد تتسبَّب به  
حاشية كبيرة في سير الموكب. وبعد أن مُنحت أجمل حجارة كريمة في

(1) سبقت الإشارة إليها. يتعلَّق الأمر بزواج ماري-أديلايد، دوقة سافوا، بدوق بورغنده،  
حفيد ملك الفرنسيين لويس الرابع عشر، على أثر توقيع معاهدة سلام بين فرنسا  
ومنطقة ماري-أديلايد الأصلية، بلاد السافوا، التي كانت مستقلة عن فرنسا وتشكّل  
اليوم جزءاً منها.

العالم وبعض الملابس التّفيسَة للغاية، وبعدَ مراسمِ الوداع التي كادت تجعل الملك والمملكة وأفراد الحاشية يَحْتَنِقون لكثرة البكاء، اَحْتَبَسَت الأميرة داخل العربة المظلمة مع كبيرة وصيفاتها وشوكلة وقرنفلة.

ربّما كنّا نسينا أنّ شوكلة لم تكن تحبّ الأميرة محبوبة، لكنّها كانت تعشق الأمير مُحارب ما إن رأت رسمه التّاطق. وكان سهمُ الحبّ الذي أصابها قد جرحها في الصّميم. ولذا فلدى إيذان ساعة الرّحيل، قالت لوالدتها إنّها ستموت لو تمّ هذا الزّواج، وإنّ عليها أن تجدّ وسيلةً للحؤول دونه إذا أرادت أن تظلّ ابنتها على قيد الحياة. فقالت لها الأمّ ألاّ تحزن أبداً لأنّها ستسعى إلى التّخفيف من ألمها وجعلها سعيدة.

عندما أرسلت الملكة ابنتها الغالية إلى الأمير، أوصت تلك المرأة الشريرة بأكثر ممّا يفترض قوله لها.  
قالت لها:

- هذه الوديعَة الثّمينَة هي بين يديك. إنّها أعلى من حياتي. اهتمي بصحّة ابنتي ولتعتني خاصّةً بأن تحولي بينها وبين ضوء النّهار وإلاّ لضاع كلّ شيء من أيدينا. تعرفين ما هي الشّورور التي تهتددها. ولقد اتّفقتُ مع رسول الأمير محارب على أن يضعها في قصر لا ترى فيه النّور أبداً ما عدا نور الشّموع حتّى بلوغها سنّ الخامسة عشرة. وأعدّقت الملكة على كبيرة الوصيفات الهدايا لكي تحبّها أكثر على التّزام الدقّة. وعدّتها هذه بأن تشهّر على سلامة الأميرة وأن تعلّمها بما يجري فورَ وصولهنّ.

وهكذا اتّكلّ الملك والمملكة على رعاية كبيرة الوصيفات لابنتهما. ولم يعد هناك ما يقلقهما بخصوص ابنتها الغالية. وساهم هذا في التّخفيف من الألم الذي تسبّب به ابتعادها. لكنّ شوكلة كانت

تسأل كل مساء الضباط الموضوعين في خدمة الأميرة حين يفتحون  
العربة ليقدّموا لهم الطعم عن مدى اقترابهم من المدينة حيث الجميع  
بانتظار وصولهم. ولما علمت أنّ الموكب أوشك على الوصول  
حثت والدتها على تنفيذ خطتها قبل فوات الأوان. فلربّما كان الملك  
والأمير آتين لاستقبالهم. وعند الظهر، وفيما كانت الشمس تُضلي  
بنارها، قطعت بضربة واحدة من سكين كبيرة أحضرتها عمداً الطبقة  
العليا من العربة حيث كنّ محتبسات. وعندئذٍ، وللمرّة الأولى، رأت  
الأميرة محبوبة نور الشمس. نظرت إليها مُطلقة تنهيدة عميقة ثم  
خرجت من العربة متحوّلة إلى ظيية بيضاء وراحت تركض في الغابة  
المجاورة حيث تغلغلت في مكانٍ كثيف الأشجار وراحت تتحسّر،  
دون شهود، على هيئتها الفاتنة التي خسرتها للتوّ.

كانت جنيّة النبع تحرّك خيوط هذه المغامرة الغريبة. وإذا رأت  
أنّ كل أولئك الذين كانوا يرافقون الأميرة انقسموا إلى فريق يريد  
اللحاق بها، وآخر ينوي الذهاب إلى المدينة لإعلام الأمير محارب  
بالمأساة التي حدثت للتوّ، بدأت تتصرّف وكأنّها تريد أن تقلب  
نظام الطبيعة، فأبرقت وأرعدت زارعة الخوف في قلوب أشجعهم.  
وأبعدتهم بمعرفتها العجيبة أبعد ما يمكن عن مسرح الحدث لكي لا  
يزعجها وجودهم.

لم يتبقّ هناك إلا كبيرة الوصيفات وشوكلة وقرنفلة. جرّت قرنفلة  
في أثر سيّدها. وأخذت تصدّح باسمها فتردده الغابات والصخور  
مزوجاً بنحيبها. أمّا كبيرة الوصيفات وابنتها شوكلة فقد سرّتا لكونهما  
طليقتين ولم تترددا دقيقة واحدة لتنفّذا ما خطّطتا له. ارتدت شوكلة  
أفخر ملابس محبوبة. وكانت العباءة الملكيّة التي خيّطت لزوجها  
لا مثيل لجمالها، وقد زُين التاج بالماستين أكبر من حجم قبضة اليد



بمّرتين أو ثلاث، وقد صوّجَ لجانها من ياقوتة واحدة. والكرة التي تحملها في اليد الأخرى مصنوعة من لؤلؤة أضخم من حجم الرأس. كان كلّ هذا نادراً وحمله ثقيلًا. لكن توجب على شوكلة أن تقنع الآخرين بأنّها الأميرة وأنها لم تُهمَل شيئاً من الزينة الملكية. وكان موكب شوكلة مؤلفاً من أمها التي حملت وراءها ذيل عباءتها. سارتا نحو المدينة.

مشت الأميرة المزيفة بوقار، موفورة الثقة بأنهم كانوا آتين لاستقبالها. وبالفعل لم تكد شوكلة ووالدتها تتقدّمان حتى لمحتا جحفاً من الخيالة في وسطه محمّلان يلتمعان بالذهب والأحجار الكريمة، موضوعان على أفراس تزيّنها قنزعات طويلة من الريش الأخضر (لأنّ الأخضر هو اللون المفضل عند الأميرة). كان الملك على محمل والأمير المريض على الآخر، لكنهما لم يعرفا من تكون هاتان المرأتان المتوجهتان نحوهما. راح الفرسان المعجلون يعدون باتجاههما وظنّوا، نظراً لجمال ثيابهما، أنّهما شخصان مميّزان بكل تأكيد. ترجل الفرسان وتحادثوا معها باحترام.

قالت لهم شوكلة:

- هل تتفضّلان وتقولان لي لمن هذان المحمّلان؟

فأجابوها:

- سيّدي، إنّهما الملك والأمير ابنه اللذان جاءا للقاء الأميرة محبوبة. أضافت قائلة:

- هيا، أرجوكم اذهبوا وقولوا لهما إنّها هي بذاتها أمامهما. ثمّة جنيّة غيورة من سعادتني فرقت كلّ من كانوا يرافقونني بمائة ضربة رعد وبرق وخوارق مدهشة. لكن ها هي وصيفتي الحميمة وقد أوكلت إليها رسائل الملك أبي، وعهدت إليها حجارتني الكريمة.

وللحال قبل الفرسان أسفل ثوبها وذهبوا بأقصى سُرعتهم كي  
يُعلنوا للملك أن الأميرة كانت على وشك الوصول.  
هتف قائلاً:

- عجباً! كيف تأتي سيراً على القدمين في وضوح النهار! وأخبروه  
بها قالت لهم، فأضاف الأمير المتحرِّق شوقاً للقائتها:  
- اعترفوا بأنّها آية في الجمال، قولوا إنّها معجزة، إنّها كاملة  
الأوصاف!

لم يُجيبوه بشيء. تفاجأ الملك من صمتهم.  
قال:

- يظهر أنّكم عاجزون عن مدحها لفرطِ جاهلها، ولذا تفضّلون  
السكوت بالطبع.

قال الفارس الأكثر جسارة بينهم:

- مولاي، يبدو أنّ تعب السفر أنهكها وبدل ملاحظتها.  
مكث الأمير مندهشاً. لو أنّه كان أقلّ وهناً لَنزَلَ عن محمّله لنفاد  
صبره وإرضاءً لفضوله. نزل الملك عن محمّله وتقدّم مع أفراد الحاشية  
لموافاة الأميرة المزيّفة؛ لكن ما إن وقع نظره عليها حتّى صرخ بصوت  
عالٍ مترجعاً بضع خطوات.  
قال:

- يا للخطب! ماذا أرى! لقد خُدعنا!

فقالت كبيرة الوصيفات وهي تتقدّم منه بجرأة:

- مولاي، هذه هي الأميرة محبوبة، وفي حوزتي رسائل بعث بها  
الملك والملكة. وأسلمكما أيضاً صندوق الجواهر الذي حملوني إياه  
لدى رحيلي.

احتفظ الملك حيال كلّ ذلك بصمتٍ كئيب. والأمير المستند إلى

تِيَان اقترَب من شوكله. آه! أَيْتَهَا السَّمَاءُ! مَاذَا أَصْبَحَتْ حَالُهُ عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى تِلْكَ الْفَتَاةِ الَّتِي أَثَارَ طَوْلُ قَامَتِهَا الْخَارِقُ الْخَوْفَ فِي نَفْسِهِ. كَانَتْ مَلَابِسُ الْأَمِيرَةِ لَا تَكَادُ تَصِلُ إِلَى رِكَبَتَيْهَا، وَكَانَ نَحْوُهَا مَخِيفًا وَأَنْفَهَا مَعْقُوفًا كَمَنْقَارِ الْبَيْغَاءِ وَشَدِيدِ الْإِحْرَارِ. كَانَتْ أَسْنَانُهَا سُودَاءَ وَغَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ إِلَى حَدِّ رَاعِبٍ. وَأَخِيرًا، كَانَتْ قَبِيحَةً بِقَدْرِ مَا كَانَتْ الْأَمِيرَةُ مَحْبُوبَةً جَمِيلَةً.

مَكَثَ الْأَمِيرُ الَّذِي كَانَ تَفْكِيرُهُ مَأْخُوذًا بِأَمِيرَتِهِ مِنْدَهْشًا وَجَامِدًا أَمَامَ تِلْكَ الْفَتَاةِ. عَجَزَ عَنِ التَّفَوُّهِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِدَهْشَةٍ، وَفِيهَا بَعْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَى الْمَلِكِ قَائِلًا:

- لَقَدْ خُدَعْتُ! ذَاكَ الرَّسْمُ الرَّائِعُ الَّذِي سَلَبَنِي حُرِّيَّتِي لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْفَتَاةِ الَّتِي أَرْسَلُوهَا إِلَيْنَا. لَقَدْ سَعَوْا لِتَضْلِيلِنَا وَنَجَحُوا فِي ذَلِكَ. سَيَكْلِفُنِي الْأَمْرَ حَيَاتِي.

قَالَتْ شُوكَلَةُ:

- مَاذَا تَعْنِي بِذَلِكَ يَا مَوْلَايَ؟ هَلْ تَقْصِدُ أَنَّ سَعَيْنَا لِحْدَاعِكَ؟ اَعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ مَخْدُوعًا أَبَدًا إِنْ تَزَوَّجْتَنِي.

لَمْ يَكُنْ لَوْ قَاحَتِهَا وَاعْتَرَاظَهَا بِنَفْسِهَا مِثْلٍ. وَكَانَتْ أَمُّهَا تَزِيدُ عَلَيْهَا قَائِلَةً:

- آه! يَا أَمِيرَتِي الْحَلُوهُ! إِلَى أَيْنَ جِئْنَا؟ أَهَكَذَا تُسْتَقْبَلُ أَمِيرَةٌ مِنْ مَقَامِكَ؟ يَا لِلْغَدْرِ! يَا لِقَلَّةِ الْأَدَبِ! سَيَعْرِفُ الْمَلِكُ وَالذِّكُّ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ حِيَالَ هَذَا الْإِسْتِقْبَالِ.

أَجَابَ الْمَلِكُ:

- بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ سَنَبَادِرُ لِلتَّصَرُّفِ. لَقَدْ وُعِدْنَا بِأَمِيرَةٍ جَمِيلَةٍ وَهِيَ هِيَ يُرْسَلُ إِلَيْنَا هَيْكَلًا عَظِيمًا وَمُومِيَاءَ مَخِيفَةٍ. لَمْ أَعُدْ مُتَعَجِّبًا مِنْ إِحْتِفَازِهِ بِهَذَا الْكَنْزِ الْجَمِيلِ وَإِخْفَائِهِ لِمُدَّةِ خَمْسَةِ عَشْرَ عَامًا. كَانَ يَرِيدُ

التَّغْرِيرَ بِمَغْفَلٍ مَا. وَوَقَعَ الْقَدْرَ عَلَيْنَا. لَكِنْ بِإِمْكَانِنَا الْإِنْتِقَامَ لِشَرِّفِنَا.  
هتفت الأميرة المزيفة:

- يا للإهانة! كم أنا تعيسة الحظ لأنني جئت التزاماً مني بكلام هؤلاء الناس! أي خطأ في أن نرسم أنفسنا أجمل بقليل مما نحن: أليس هذا ما يحدث كل يوم؟ لو كان الأمراء يضرفون خطيباتهم لهذا السبب لما كان تزوج إلا قلة منهم.

أخذ الغضب بالملك والأمير كل ما أخذ فلم يُجيبا بشيء. صعد كل منهما مجدداً إلى محمله. ومن دون أية مراسم احتفالية، اجلس أحد حراس الملك الأميرة خلفه على الحصان، وكذلك فعلوا مع الوصيفة واقتيدتا إلى المدينة بأمر من الملك واخُبستتا في قصر الأسنة الثلاثة.

شعر الأمير محارب بالإرهاق نتيجة الخدعة التي دبّرت له، فكتم كل حزنه في قلبه. وعندما استرجع القوة ليَشكو حاله أخذ يستفيض في الكلام عن حظه المنكود. وما الذي لم يقله بهذا الشأن! كان لا يزال عاشقاً ولم يكن من موضوع لشغفه إلا مجرد صورة. ذهبت آماله أدراج الرياح وكل الأفكار الجميلة الساحرة بخصوص الأميرة محبوبة كانت أضغاث أحلام. أولى به أن يموت من أن يتزوج تلك التي ظن أنها هي. شعر أن ليس ليأسه حدود ولم يعد بإمكانه التسبب بالألم لأهل البلاط فعقد العزم، ما إن يستعيد عافيته، على الرحيل خفية والذهاب إلى مكان منعزل لقضاء ما تبقى من حياته التعسة.

لم ييخ بخبطه إلا لصديقه المخلص تيان. كان مقتنعاً أنه سيتبعه إلى كل مكان، ولقد اختاره لكي يتحدث إليه أكثر من أي شخص آخر عن الخدعة التي دبّرت له. ما إن بدأت حاله بالتحسن حتى رحل تاركاً رسالة طويلة للملك على الطاولة في ديوانه، يطمئنه فيها أنه سيعود قربه عندما يهدأ روعه قليلاً. لكنه توّسل إليه، ريثما يعود، أن

يخَطِّطُ لانتقامهما المشترك ويُبقي لديه الأسيرة القبيحة.

يَسْهُلُ تصوُّرُ الحزن الذي أصابَ الملكَ لدى تلقِيهِ تلكَ الرِّسالةِ. شعَرَ أنَّ افتراقَهُ عن ابنه الذي يحبُّه حبًّا جَمًّا سيتسبَّبُ بموته. وفيما كانَ الجميعُ منشغلاً بمواساته، كان الأميرُ وصديقه تيان يمضيان قدماً في رحلتيهما. بعد ثلاثةِ أيَّامٍ وجدا نفسيهما في غابةٍ شاسعةٍ قائمةٍ لكثافةِ أشجارها، وظريفةٍ جدًّا لنضارةِ أعشابها والجداول التي تجري فيها من كلِّ ناحية.

ترجَّلَ الملكُ عن حصانه، وقد أتعبَهُ السَّفَرُ الطَّويل، فهوَ كان ما يزال مريضاً، وارتمى على الأرضِ أسياناً واضعاً يديه تحت رأسه وغير قادرٍ على الكلام لشعوره بالوهن الشديد.  
قال تيان:

- مولاي، أثناء استراحتك، سأتيك ببعض الثمارِ ترطب بها حلقك وأستكشف قليلاً المكان الذي نزلنا فيه.  
لم يجبه الأميرُ بشيء. أشارَ له بإيحاءٍ من رأسه أنه يستطيع القيام بذلك.

مرَّ وقت طويل على تزكنا الطَّيبة في الغابة، وأقصد الكلامَ عن الأميرة التي لا مثيلَ لها. بكت كظبية يائسة عندما لمحت وجهها في مرآة الينبوع. قالت: «ماذا! هذه أنا! إنني أعيشُ أغربَ مغامرةٍ قُدِّرَ لمملكةِ الجنَّياتِ أن تدبِّرَها لأميرةٍ بريئةٍ مثلي! كم سيدومُ امتساخي؟ أين أختبئُ كي لا تلتهمني الأسود والدَّبَّية والدَّنَّاب؟ كيف بإمكانني أن أرعى العشب؟» وأخيراً طرَّحت على نفسها ألفَ سؤالٍ وشعرت بعاصفةٍ من الألم تجتاح كيانها. الشيء الوحيدُ الذي كان يُواسيها قليلاً هو أن جمالها كظبية يوازي جمالها كأميرة.

بعد أن أمضت الجوع، رَعَت محبوبه العشب بشهيةٍ كبيرةٍ ودَّهشت

من قدرتها على ذلك. ثم اضطجعت على فراش من الطحالب. دأهمها الليل فأمضته بخوفٍ لا مثيل له. سمعت الصوّاري تزارُ قربها وأحياناً كانت تنسى أنها ظبية وتحاولُ تسلقُ الأشجار. طمأنها ضوءُ النهار قليلاً. أعجبت بجماله وبدت لها الشمسُ أمراً رائعاً، ولم تكن تملّ من النظر إليها. كلّ ما سمعته عنها بدا أقلّ روعةً بكثير مما كانت تراه. هذه هي التعزية الوحيدة في ذلك المكان المُقفر. بقيت وحدها بضعة أيام.

لكنّ الجنيّة توليب، التي كانت تكنّ للأميرة مودةً كبيرة، تعاطفت مع ألمها رغم استيائها الشديد منها ومن أمها الملكة لأنهما لم تكترنا بها. قالت عندما حذرتها مراراً عن عدم وجوب رحيل الأميرة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة، لأنها ستجدُ نفسها في ورطة لا يستهان بها. ومع ذلك، لم تشأ أن تتركها وحدها في مواجهة فوران الغضب المسعور لجنيّة النبع، وكانت هي من قادّت خطوات قرنفلة إلى الغابة لكي تستطيع هذه الصديقة الحميمة أن تعزيها في محنتها.

كانت تلك الظبية الجميلة تتهادى على ضفة الجدول عندما عجزت قرنفلة عن متابعة المسير واضطجعت هناك لترتاح. كانت حزينة واحتارت في الوجهة التي يجب اتّخاذها لكي تعثر على أميرتها الغالية. لمحتها الظبية فوثبت بقفزة واحدة الجدول العريض والعميق مرتمية على قرنفلة وأخذت تداعبها دون توقف. دُهِشت قرنفلة من تصرف الظبية وتساءلت وهي في حيرة من أمرها: هل تصادق الحيوانات في هذه الأصقاع النَّاس وتحمّل في داخلها مشاعر بشرية أم أنّ هذه الظبية تعرفها؟ استغربت أن تبادل ظبية في الغابة للاحتفاء بها واستقبالها بكلّ ذلك اللطف والحنوّ.

تأملت ملياً ودُهِشت لدى رؤيتها دموعاً كبيرة تتدحرج من

عينها. أدركت أتمها الأميرة، صديقتها العزيزة. أمسكت قدميها وراحت تقبلهما باحترام وحنانٍ وكأنها تقبل يديها. تحدّثت إليها وعرفت أنّ شادن<sup>(1)</sup> (هَذَا هو الاسم الذي صارت تطلقه عليها كلما رأتها في هيئة ظبية) تسمعها ولكنها لا تستطيع أن تجيبها. وانهمرت الدموع غزيرةً من عيني شادن وقرنفلة وتضاعفت تنهّداً. عاهدت قرنفلة سيّدتها بأنّها لن تتركها أبداً، وأومات شادن بألف إشارة صغيرة من رأسها وعينها مفاؤها أنّها ستكون مرتاحةً جداً لأن تشاركها آلامها، وبقية معظم النهار سوية. خشيّت شادن من أن تكون المخلصة قرنفلة جائعة وتحتاج إلى شيء تأكله. اقتادتها إلى مكانٍ في الغابة حيث لاحظت وجود ثمار بريّة طيبة المذاق. تناولت منها كمّيّة كبيرة لأنّها تكاد تموت جوعاً. لكن بعد أن أنهت وجبّتها، انتابها قلق كبيرٌ والسبب أنّها لا تعرف أين بإمكانها إيجاد مكانٍ للتوم. فهما لا تستطيعان البقاء وسط الغابة معرّضتين لكل الأخطار المحتملة.

قالت لها قرنفلة:

- لكنّ ألا تخافين أيتها الظبيّة الفاتنة أن تمضي الليلة هنا؟  
رفعت الظبية عينها نحو السماء متنهّدة.

أردفت قرنفلة:

- لكنك تجوّلتِ حتّى الآن في قسم كبير من هذه العزلة الشاسعة.  
أفلا يوجد بيوت صغيرة لأحد الفحّامين أو الخطّابين أو التُسّاك؟  
أشارت شادن برأسها نفيّاً.

هتفت قرنفلة:

- آه! أيتها السّماء! هل سألقي حتّى الغد على قيد الحياة؟ وإذا  
حالفتني الحظّ وأمكنتني تجتّب الثّمور والذبّبة فأنا متأكّدة من أنّ

(1) الشّادن ولد الظبية، تُقال للذكور وللأنثى.

الخوف وحده كافٍ لقتلي. ولا تظنّي يا أميري الغالية أنّي نادمة على فقدان حياتي من أجلي أنا نفسي، فأنا أتحسّر على فقدانها لأجلك. يا ويلتاه، كيف أتركك في هذه الأمكنة دون أنيس يواسيك! هل من حزنٍ أكبر من هذا؟

أخذت شادن تبكي وتشهق وكأنها إنسان. أشفقت الجنيّة توليب عليها هي التي كانت تحبّها كثيراً. وبالرغم من أنّها عصّت وأمرها كانت هي حريصة مع ذلك على سلامتها فظهرت فجأة وقالت لها: - لا أريد أن ألومك. تشقيني الحال التي أراك فيها.

قاطعتها شادن وقرنفلة مرتمتين عند قدميها. الأولى قبّلت يديها وداعبتها طويلاً، والثانية توسّلت إليها لكي ترفق بالأميرة وتعيد لها هيئتها الطبيعيّة.

قالت توليب:

- الأمر لا يتعلّق بي. الجنيّة التي آذتها تملك الكثير من القدرة، لكنني أستطيع أن أقصر من مدة عقوبتها وألطف منها: ما إن يحلّ الليل حتّى تترك شادن هيئتها لتعود الأميرة، ولكن ما إن يلوح الفجر حتى تتحوّل من جديد وتجري راکضة وسط السهول والغابات كالظباء الأخرى.

كان أمراً لا يستهانُ به أن تخلع ثوب الطّبية أثناء الليل. عبرت شادن عن غبّطتها بقفزاتٍ ونطنطاتٍ أفرحت توليب.

قالت لهما:

- سيرا قُدماً في هذا الدّرب الضيق وستجدانِ كوخاً نظيفاً جدّاً بالنسبة لهذا المكان الرّيفيّ.

واختفت ما إن أنّهت كلامها. انصاعت قرنفلة لأوامرها وسارت وشادن في الطّريق أمامهما فوجدتا امرأة عجوزاً جالسةً تحبّك سلّة



من الأسلِ الرّفيع. حيّتها قرنفة قائلة:

- من فضلك يا جدّي هل يمكن أن أجدَ غرفةً صغيرةً في كوخك  
أنزوي فيها مع طبيّتي؟

أجابت:

- نعم يا فتاتي الحلوة، سأمنحك خلوةً ها هنا، ادخلي وظبيّتك.  
واقْتادَتْها في الحال إلى غرفةٍ جميلةٍ جدًّا محفوفةً بخشب الكرز. فيها  
سريران من قماش القنب الأبيض وشراشف ناعمةً جدًّا وشفافة.  
بدا كلُّ شيء في الغرفة بسيطاً للغاية وملائماً لذوقِ الأميرة التي  
استحسنتها كما لم تستحسن شيئاً في حياتها.

ما إن وافي الليل، خلعت محبوبه ثوبَ الغزالة. أمطرت عزيزتها  
قرنفة بالقبّلات شاكرة إياها على العاطفة التي دفعتها لتشاركها  
نصيبها من التعاسة ووعدها بأن تردّها الجميل ما إن تُنهي فترة  
عقوبتها وبأن توفر لها كل أسباب السعادة.

جاءت العجوز وقرعت على الباب برفق. ومن دون أن تدخل  
قدّمت لقرنفة ثماراً شهيةً أكلت منها الأميرة بلذةً كبيرة، ومن  
ثم خلدتا إلى النوم، وما إن طلّع الصّباح حتّى عادت محبوبه ظبية  
وأخذت «تُخرِمشُ» الباب لكي تفتح لها قرنفة. أظهرتا حسرةً كبيرةً  
لأنهما مضطرتان للافتراق ولو لوقتٍ طويل، وانطلقت شادن إلى  
الغابة الكثيفة الأشجار وأخذت تركض على جري عاداتها.

قُلْتُ أَنْفَاءً إِنَّ الْأَمِيرَ مُحَارِبٌ تَوَقَّفَ فِي الْغَابَةِ وَإِنَّ تَيَانَ صَدِيقَهُ أَخَذَ  
يَتَجَوَّلُ فِيهَا لِيَعْتَرَّ عَلَى بَعْضِ الثَّمَارِ. كَانَ الْوَقْتُ قَدْ تَأَخَّرَ عِنْدَ زِيَارَتِهِ  
لِبَيْتِ الْعَجُوزِ الصَّغِيرِ، الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْهَا. خَاطَبَهَا بِتَهْدِيدٍ وَسَأَلَهَا  
أَشْيَاءَ كَانَ يَحْتَاجُهَا لِأَجْلِ سَيِّدِهِ فَهَرِغَتْ وَمَلَأَتْ لَهُ سَلَّةً مِنْهَا وَأَعْطَتْهُ  
إِيَّاهَا.

قالت له:

- أخشى إن أنتَ أمضيتَ اللَّيلةَ هنا في العراء أن تتعرَّضَ لحادثٍ أو لمُكروه. أعرَضُ عليكَ غرفةً وضيعةً ولكنّها تقيكَ شرَّ الأسود. شكرها وقال لها إنّه كانَ برفقةَ صديقٍ له وإنّه سيقترِحُ عليه المجيءَ إلى هنا. وعرفَ كيفَ يقنعُ الأميرَ الذي تبعه للذهابِ إلى بيتِ هذه العجوز. كانت لا تزال عند عتبةِ بابها. قادتها بهدوءٍ إلى غرفةٍ شبيهةٍ بتلكَ التي تشغلها الأميرة، وكانت قريبة جداً منها ولا يفصلُ بينهما إلا لوح خشبيّ.

أمضى الأمير اللَّيلةَ معَ همومه المعهودة. وما إن لاحت أولى خيوطِ الشَّمسِ عند نوافذِهِ حتّى نهض، ولكي يخففَ من حزنِهِ خرجَ إلى الغابةِ قائلاً لِتِيانَ إنّه يريدُ التنزّهَ وحيداً. مشى طويلاً على غيرِ هدىٍ إلى أن وصلَ أخيراً إلى مكانٍ شاسعٍ مكسوٍّ بالأشجارِ والطّحالب. وللحالِ ظهرتَ منه ظبيّةٌ لم يستطعَ الامتناعَ عن اللّحاقِ بها. كانَ فيما مضى شغوفاً بالصّيدِ إلى أن شغلَ قلبُهُ بحبِّ الأميرة. أخذ يطاردُ شادن المسكينةَ مُطلقاً عليها السّهامَ وكادت تموتُ ذعرًا. لم تُصَبْ بأيّ جرحٍ لأنّها كانت تحتَ حمايةِ صديقتها تولىب، وبالفعلِ تطلّبَ الأمرُ معونةَ جنيّةٍ وإلّا كانت قضتَ أجلها تحتَ وِبالِ تلكَ السّهامِ المحكّمة. وهذّ أميرة الطّباءِ تعبٌ غيرَ مسبوقٍ لا سيّما وأنّها أوّلُ مطاردةٍ تتعرَّضُ لها. وأخيراً انعطفتَ في أحدِ المسالكِ لحسنِ الحظِّ وغابتَ عن أنظارِ الصّيّادِ الخطيرِ الذي ألّفى نفسه متعباً هو أيضاً فأقلّعَ عن مطاردتها.

وانقضى النّهارُ على هذا النحو واستقبلتْ شادنُ بفرحٍ إيذانَ العودَةِ إلى غرفتها فأتجهتْ إلى المنزلِ حيثَ تنتظرُها قرنفلةٌ بفارغِ الصّبر. ما إن دخلتْ إلى غرفتها حتّى ارتمتْ على السّريرِ لاهثةً ومُتعرِّقةً تماماً.

داعبتّها قرنفة كثيراً وتحرّقت لهُفةً لمعرفة ماذا جرى لها. ثم اقترب الليل وأذنت الساعة التي تعودُ فيها شادن أميرة. وعندئذٍ عانقت صديقَتها الأميرة وقالت لها:

- وا أسفاه، ظننتُ أن ليسَ لديّ ما أخشاه إلاّ جنّية النبع وضواري الغابات. طاردني اليوم صياد شاب لم تتسنّ لي رؤيته لأنني كنت مشغلة بالفرار. انهال عليّ ألف سهم وكان ينتظرني موتٌ محتوم. لا أعرف كيف نجوتُ بمعجزة.

أجابت قرنفة:

- يجب ألاّ تخرجي يا أميرتي. اقضي في هذه الغرفة المدّة المحتومة لعقوبتك. سأذهب إلى المدينة الأقرب لكي أشتري لك كتباً تتسلّين بها. سوف نقرأ معاً القصص الخرافيّة الجديدة التي كتبت عن الجنّيات ونؤلّف الأشعار والأغاني.

أجابت الأميرة:

- مهلك يا عزيزتي. يكفي أن أفكر بالأمير محارب لكي أشغل نهاري بمتعة. لكنّ القدرة نفسها التي تخيلني أثناء النهار إلى ظبية ترغمني على فعل ما تفعله الطّباء: أن أركض وأقفز وأكل العشب مثلها. وفي تلك الأثناء تبدو لي الغرفة غير محتملة.

كانت تعبّة من المطاردة فطلّبت شيئاً تأكله ثم في الحال أغمضت عينيها الجميلتين حتّى طلوع الفجر. فتحوّلت ظبية وعادت إلى الغابة.

أمّا الأمير فقد جاء في المساء لموافاة صديقه الأثير.  
قال له:

- أمضيتُ الوقت وأنا أركض خلف أجمل ظبية رأيتها. أفلتت منّي مائة مرّة بمهارةٍ عجيبة. كنت أستهدفها بسهامي الموجهة ولا

أفهم كيف استطاعت تداركها. فورَ طلوع النهار سأذهب للبحث عنها، وهذه المرة لن أخطئها أبداً.

وبالفعل، فإنّ هذا الأمير الشاب، وقد أراد التحرّر من أفكار بات يعتبرها وهمية، استحسن أن تشغله فكرة الصيد فاتّجه عند الصّباح الباكر إلى المكان نفسه حيث كان قد وجد الغزالة. لكنّها حاذرت بشدّة الدّهَاب إلى هناك لأنّها خشيت أن يحصل معها ما حدث قبل يوم. التفت الأمير إلى كلّ النواحي باحثاً عنها. مشى طويلاً فازداد نشاطه وسرّ لدى عثوره على تفّاح راق له لونه فقطف منه وأكل، ومن ثم استغرق في نوم عميق مُرْتَمياً على العشب الغضّ تحت الأشجار حيث تواعد، على ما يبدو، ألف عصفور.

وفي أثناء نومه، مرّت ظبيتنا الخائفة، المتلهفة للعثور على مكان ناءٍ، بالقرب من المكان الذي رقد فيه. لو انتبهت له من قبل لآذت بالفرار، لكنّها كانت قريبة جداً منه ولم تستطع الامتناع عن النظر إليه. غفوتها طمأننتها فتملّت من ملاحه بقدر ما تشاء. يا للآلهة! ماذا صار بحالها عندما عرفت الأمير؟ كان طيفه السّاحر يسكن فكرها ما يجعل نسيانه شاقاً في ذلك الوقت القليل. أيها الحبّ، ماذا تريد إذا؟ هل يجب على شادن أن تعرّض حياتها للخطر على يد عشيقها؟ أجل، كانت تُعرّض حياتها لهذا الخطر. لم يعد هناك من مجال للتفكير بسلامتها فاضطجعت على بعد خطواتٍ منه، لم تستطع عيناها المفتونتان برؤيته أن تشيحا عنه لحظة واحدة. كانت تنهّد وتطلق تآوهات خافتة. وأخيراً تجاسرت على الاقتراب منه أكثر وكانت تلامسه عندما استيقظ.

كانت دهشته كبيرة. لقد تعرّف على الظبية ذاتها التي كان قد أجهد نفسه في مطاردتها وبحث عنها طويلاً. وبدأ له أمراً نادراً وغريباً أن

يراها بمثل تلك الألفة البادية عليها في تلك اللحظة. ولكنها لم تنتظر أن يقبض عليها، بل هربت بكل ما لديها من قوة، وركض هو وراءها بكل ما لديه من قوة. بين الفينة والفينة، كانا يتوقفان لاستعادة أنفاسهما، ذلك أن شادن كانت ما تزال مرهقة من جزيها في العشيّة، وهو لم يكن أقل إرهاقاً منها. لكن أكثر ما كان يبطئ فرار شادن هو، ويا للأسف! هل يجب قوله؟، هو مشقة الابتعاد عن ذلك الذي جرّحها بسهام حبه أكثر من النبال التي رماها بها. كان يراها تلتفت غالباً إليه وكأنتها تسأله ما إذا كان يريد أن تقضي تحت ضرباته. وعندما أوشك أن يوافيها، قامت بجهود كبيرة لتلوذ بالفرار.

صاح بها:

- آه لو كان بإمكانك أن تسمعيني أيتها الظبية الصغيرة، لما تجبّيتني. أحبك. أريد أن أطعمك وأعتني بك فأنت ساحرة.

كان الهواء يذهب بكلماته فلا تبلغ مسامعها.

وأخيراً، وبعد أن جالت في كل أنحاء الغابة، لم يعد بإمكان ظيبتنا الرّكض فأبطأت خطاها، وضاعف الأمير من ركضه وأدركها بفرح لم يتصوّر أنه قادر عليه. رأى فعلاً كيف أنها فقدت كل قواها. اضطجعت كهيمّة صغيرة مسكينة شبه ميّنة ولا تنتظر إلا أن ترى حياتها تنتهي على يد غالبها. لكن، بدلاً من أن يعاملها بوحشية أخذ يداعبها.

قال لها:

- أيتها الظبية الجميلة لا تخافي، أريد أن أصطحبك معي وأن تتبعيني إلى كل مكان.

قطع عمداً أغصاناً من الأشجار وقتلها بمهارة ثم غطاها بالطحالب الخضراء ورّمى فيها بعض الورد التي نبتت في الجنّات

ثم أخذ الطيبة بين ذراعيه مُسنداً رأسه إلى عنقها وأضجعها برفق على سرير الأغصانِ ذاك. جلس قريبا مفتشاً بين الفينة والأخرى عن أعشابٍ طريةٍ قدّمها لها وأكلتها من يده.

تابع الأمير حديثه إليها رغم اقتناعه أنها لم تكن تسمعه. ومع ذلك، ومهما تكن مُستمتعة برؤيته، كانت قلقة من دنو الليل. قالت في نفسها: «ماذا سيحصل لو رأيتُ أتغير دفعةً واحدة؟ سيرتعب من رؤيتي ويهرب مني. وإذا لم يهرب، فما الذي لن أخشاه وأنا وحيدة هكذا في هذه الغابة؟» وأخذت تفكر باستمرار بوسيلة للهرب إلى أن أفسح لها المجال عن غير قصد: خاف أن تكون عطشانة فذهب ليرى أين بإمكانه أن يجد جذولاً ليقودها إليه. وفيما ذهب ليبحث، غافله بسرعة راکضةً إلى البيت الصغير حيث كانت قرنفة بانتظارها. وهناك ارتمت على سريرها. هبط الليل وعادت أميرة. أخبرت قرنفة عما جرى معها.

قالت لقرنفة:

- أو تُصدّقين يا عزيزتي أنّ أميرى محارب موجود في هذه الغابة. إنه هو الذي يُطاردني منذ يومين. وعندما أمسك بي، لم يكف عن مداعبتي. آه! كم أنّ الرسم الذي جلبوه لي أقلّ جمالاً منه في الحقيقة! إنه مائة مرة أجهل. ورغم الاضطراب الذي يكتنف الصيادين فهذا لم ينقص شيئاً من حسن طلعتي لا بل يزيد بهاءً لا يسعني أن أصفه لك. ألسنتُ تعيسة لا اضطرابي إلى الهرب من هذا الأمير، هو الذي اختاره لي أهلي زوجاً، هو الذي يحبني وأحبه؟ لم يكن ينقصني إلا أن تناصبني جنّة شريرة العدا يوم ولادتي وتعكر صفو كل أيام حياتي. وأخذت تبكي. واستأها قرنفة وأخذت تعللها بالأمل: عسى أن تتحوّل آلامها إلى ملذات.

عاد الأمير إلى طبيئته الغالية بعد عثوره على نبع ماء. لكنها لم تكن في المكان الذي تركها فيه. بحث عنها دون جدوى في كل مكان وأحس أنه ممتعض منها كما لو كانت كائناً عاقلاً.  
هتف:

- عجباً! ألن تكون لديّ إلا ذرائع لأشتكي من هذا الجنس اللطيف المخادع الغدار!

عاد إلى منزل السيدة العجوز مُفِعماً بالكآبة وروى لصديقه الحميم ما جرى له مع شادن متهماً إياها بنكران الجميل. لم يستطع تيان إلا أن يتسم حِيال غضب الأمير ومازحه ناصحاً إياه بأن يُعاقب الطيبة حالماً يقابلها مجدداً.  
أجاب الأمير:

- هذا هو الهدف من بقائي هنا. ومن ثم نرحل إلى مكانٍ أبعد. طلع النهار وعادت الأميرة معه طيبةً بيضاء. لم تكن تعرف ماذا ستفعل. هل تذهب إلى الأمكنة نفسها التي يتجول فيها الملك عادة أم تأخذ طريقاً معاكسةً تماماً لتتحاشاه. اختارت الأمر الثاني وابتعدت كثيراً. لكن الأمير الشاب الذي كان مرهفاً مثلها خن الحيلة التي ستقوم بها واكتشف مكانها في أعرق مكانٍ في الغابة. كانت في مأمن عندما لمحتة وفي الحال قفزت فوق جنبات الشوك. وكما لو أن خوفها منه ازداد توّجساً بسبب تحايلها عليه في اليوم السابق، هربت بأسرع من البرق ولكن أثناء تجاوزها أحد المسالك، كمن لها فصوص عليها بإحكام واخترق سهمه جنبها. أحست بألم رهيب ولم يعد بإمكانها الهرب فتهاوت أرضاً.

أيها الحب القاسي البربري، أين أنت؟ كيف ترك فتاةً بهذه الروعة تُجرح على يد حبيبها الرقيق! مأساة حزينة محتومة أبرمت بها جنته

النَّعِ قِصَّةُ الْحَبِّ هَذِهِ. اقْتَرَبَ الْأَمِيرُ مِنْ شَادِنَ وَشَعَرَ بِكَبِيرِ الْأَسَى  
عِنْدَمَا رَأَى الدَّمَّ يَسِيلُ مِنْهَا. قَطَفَ أَعْشَاباً وَلَفَّ بِهَا سَاقَهَا لِلتَّخْفِيفِ  
مِنْ أَلْمِهَا وَاتَّخَذَ لَهَا سَرِيرًا جَدِيدًا مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ثُمَّ أَسْنَدَ رَأْسَ  
شَادِنَ إِلَى رِكْبَتَيْهِ قَائِلًا لَهَا:

- أَلَسْتَ أَنْتِ السَّبَبُ آيَّتِهَا الطَّائِثَةُ الصَّغِيرَةَ فِي كُلِّ مَا حَصَلَ  
لَكَ؟ مَاذَا فَعَلْتِ لِكَ الْبَارِحَةَ لَكِي تَرَكِينِي. لَنْ تَفْعَلِي الشَّيْءَ نَفْسَهُ  
الْيَوْمَ، سَأَحْمَلُكَ.

لَمْ تَجِبْ شَادِنَ بِشَيْءٍ. وَمَاذَا تُرَاهَا تَقُولُ. كَانَتْ عَلَى خَطِئٍ وَلَا  
تَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمُخْطِئُونَ مُلْزَمِينَ بِالصَّمْتِ دَوْمًا. أَخَذَ  
الْأَمِيرُ يَدَا عِجْبُهَا دُونَ تَوْقُفٍ.  
قَالَ لَهَا:

- كَمْ يُؤَلِّمُنِي أَنَّي جَرَحْتُكَ بِسَهْمِي. سَتَكْرَهِينِي فِيهَا أُرِيدُ أَنْ  
تُحِبِّينِي.

مَنْ يَسْمَعُهُ يَظُنُّ أَنَّ جَنِيًّا خَفِيًّا يَلْهُمُهُ كُلُّ مَا يَقُولُهُ لِشَادِنَ. وَأَخِيرًا  
أَذْنَتْ سَاعَةُ الْعُودَةِ عِنْدَ مَضِيئَةِ الْعَجُوزِ. حَمَلَ صَيْدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ  
وَكَانَ مَرْتَبَكًا كَثِيرًا بَيْنَ حَمَلِهِ وَاقْتِيَادِهِ، أَوْ جَرِّهِ أحيانًا. لَمْ تَكُنْ شَادِنَ  
تَرْغَبُ إِطْلَاقًا فِي الذَّهَابِ مَعَهُ قَائِلَةً فِي نَفْسِهَا: «مَاذَا سَيَصِيرُ بِحَالِي؟  
هَلْ سَأَكُونُ بِمَفْرَدِي مَعَ هَذَا الْأَمِيرِ! آه! حَرِيٌّ بِي أَنْ أَمُوتَ!». كَانَتْ  
تُرْخِي بِكُلِّ ثَقَلِهَا عَلَيْهِ مَتَعَمِّدَةً إِذَاكَ فَتَصَبَّبَ عَرَقًا وَهَدَّهَ التَّعَبُ.  
وَمَعَ أَنَّ الْمَسَافَةَ لَمْ تَكُنْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَنْزَلِ الصَّغِيرِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحْسَنَ فِعْلًا  
بِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَسَاعِدَةِ أَحَدِهِمْ وَالْأَفْلَنْ يَسْتَطِيعُ الْوَصُولَ. ذَهَبَ  
بِحُثَا عَنْ صَدِيقِهِ الْوَفِيِّ تَيَانَ. وَقَبْلَ أَنْ يَتْرُكَ طَرِيدَتَهُ أَوْثَقَهَا بِشَرَائِطَ  
عَدَّةٍ إِلَى جَذَعِ شَجَرَةٍ لِيَحْوَلَ دُونَ هَرَبِهَا.

وَإِسْفَاهُ! مَنْ كَانَ لِيُظَنَّ أَنَّ أَجْمَلَ أَمِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ سَوْفَ تُعَامَلُ



يوماً بهذه الطريقة وعلى يد أمير متيّم بها؟ حاولت عبثاً أن تنزع عنها الشرائط لكنّ جهودها جعلت الشرائط أشدّ وثاقاً، وكانت على وشك أن تحنق نفسها بأنشوطة كان هو نفسها صنعها لسوء الحظّ. في تلك الأثناء خرجت قرنفلة لتتنشق قليلاً من الهواء بعدما ملّت من الاحتباس في غرفتها، ومرّت بالمكان حيث كانت الطيبة البيضاء تتخبّط. فماذا صارَ بحالها عندما رأت سيّدتها العزيزة! سارعت كالمجنونة لتفكّ الشرائط المعقودة في غير مكان. وأخيراً وصل الأمير برفقة تيان عندما كانت قرنفلة تهمّ باصطحاب الغزاة معها. قال لها الأمير:

- مع جزيل الاحترام الذي أكته لك يا سيّدي، اسمحي لي بأن أعترض على سرقتك للغزاة. لقد أصبّتها بسهمي. إنّها لي، أحبّها. أرجوك، أريد أن أكون سيّدها.

فأجابته قرنفلة بتهذيب (وكانت جميلة المنظر وظريفة الروح):

- سيّدي، الطيبة التي أمامك هي لي قبل أن تكون لك. أفديها بحياتي ولا أتخلّى عنها. وإذا أردت أن تتأكد من أنّها تعرفني، أسألك أن تُعطيها القليل من الحرّية لأثبت لك ذلك. هيّا يا صغيرتي، يا ظيبي البيضاء، عانقيني.

وطوّقت شادن عنقها.

- قبلي خدي الأيمن.

فامتثلت.

- ألمسي صدري جهة القلب.

فجعلت قدّمها هناك.

- تنهّدي.

فتنهّدت. لم يعد من مجال أمام الأمير ليشكّ بما قالت قرنفلة له.

قال لها بصدق:

- إنَّها لكِ لَكِنِّي أَعْتَرِفُ بِأَنِّي أَعِيدُهَا لِكَ عَلَى مَضَضٍ.  
وَذَهَبَتْ قَرْنَفَلَةٌ فِي الْحَالِ بِرَفَقَةٍ طَبِيبَتِهَا.

كانتا تَجْهَلَانِ أَنَّ الْأَمِيرَ يَسْكُنُ فِي الْمَنْزِلِ نَفْسَهُ الَّذِي التَّجَاؤَاتُ إِلَيْهِ.  
تَبَعَهُمَا مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَكَثَ مِنْذَهُلَا حِينَ رَأَاهُمَا تَدْخُلَانِ إِلَى مَنْزِلِ  
الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ. لَحِقَ بِهِنَّ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، وَمَدْفُوعاً بِفَضُولِهِ لِلتَّحَرِّيِ  
عَنِ الطَّبِيبَةِ الْبِيضَاءِ سَأَلَهَا مِنْ تَكُونِ تِلْكَ الْفِتَاةِ الشَّابَّةِ. فَأَجَابَتْ إِنَّهَا  
لَا تَعْرِفُهَا، وَإِنَّهَا اسْتَقْبَلَتْهَا فِي الْمَنْزِلِ مَعَ غَزَالَتِهَا، وَإِنَّهَا تَدْفَعُ لَهَا جَيِّدًا  
وَتَعِيشُ فِي وَحْدَةٍ كَبِيرَةٍ. اسْتَعْلَمَ تَيَّانُ عَنْ مَكَانِ غُرْفَتِهَا فَقَالَتْ لَهُ إِنَّهَا  
قَرِيبَةٌ مِنْ غُرْفَتِهِ وَإِنَّ حَاجِزًا بَسِيطًا يَفْصِلُ بَيْنَ غُرْفَتَيْهِمَا.

عِنْدَمَا انزَوَى الْأَمِيرُ فِي غُرْفَتِهِ قَالَ لَهُ صَدِيقُهُ الْحَمِيمُ إِنَّهُ الْمَخْدُوعُ  
الْأَكْبَرُ بَيْنَ الرِّجَالِ لِأَنَّ تِلْكَ الْفِتَاةَ كَانَتْ تَقِيمُ مَعَ الْأَمِيرَةِ مَحْبُوبَةٍ وَقَدْ  
رَأَاهَا فِي الْقَصْرِ إِتَّانَ اضْطِلَاعِهِ بِمَهْمَتِهِ.

قال له الأمير:

- أَيُّ ذِكْرِي مَشْؤُومَةٌ تَعِيدُ إِلَى خَاطِرِي؟ وَأَيَّةُ صَدْفَةٍ قَذَفْتَهَا إِلَى  
هَذَا الْمَكَانِ؟

أضاف تيان:

- هَذَا مَا أَجْهَلُهُ يَا سَيِّدِي. لَدَيَّ رَغْبَةٌ فِي أَنْ أَرَاهَا أَيْضًا. وَبِمَا أَنَّ  
لَوْحًا خَشَبِيًّا بَسِيطًا يَفْصِلُ بَيْنَنَا، فَإِنِّي سَأُحَدِّثُ فِيهِ ثَقْبًا.

قال الأمير بنبرة حزينة:

- هَذَا فَضُولٌ غَيْرٌ مُجْدٍ.

ذَلِكَ أَنَّ كَلِمَاتِ تَيَّانِ أَحْيَتْ آلامَهُ مَجْدِدًا. فَاتَّجَهَ إِلَى النَّافِذَةِ الْمَطْلَةِ  
عَلَى الْغَابَةِ، فَتَحَهَا وَطَفِقَ يَحْلِمُ. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، كَانَ تَيَّانُ يَعْمَلُ عَلَى  
فَتْحِ فَجْوَةٍ يَسْتَطِيعُ عُبْرَهَا رُؤْيَةَ الْأَمِيرَةِ. رَأَى الْأَمِيرَةَ السَّاحِرَةَ تَرْتَدِي

ثوباً من البروكار الفضيّ المزوج ببعض الأزهارِ المطرزةِ بالذهب  
والزمرد. انسدل شعرها خصلاتٍ كثيفةً على أجمل صدرٍ في العالم  
وكانت سحنتها تلمع بألوانٍ حيّة تزينها عيناها الفاتتان.

كانت قرنفة ساجدةً على ركبتيها أمامها تضمّد ذراعها التي يسيل  
منها الدم بغزارة. وبدت كلاهما مرتبكتين بتضميد ذلك الجرح.  
قالت لها الأميرة:

- دعيني أموت. سيكون الموت أجمل وأرق من هذه الحياة البائسة  
التي أعيش. نعم! أن أكون ظبيةً طيلة النهار، أن أرى ذلك الذي  
قدّرتُ له دونَ أن أكلّمه، دونَ أن أروي له قصتي المشؤومة. آه ليتك  
سمعت الكلمات المؤثرة التي قالها لي وأنا ظبية. ما أعذب نبرة صوتهِ!  
ما أتبلّ تصرّفاته وما أجملها! ينبغي أن ترثي لحالي أكثر مما تفعلين الآن  
لأنني لست في وضع يؤهّلني أن أوضح له ما جرى لي.

لا يستطيع أحدٌ أن يصف مقدار الدهشة التي أصابت تيّان لما  
سمِعته ورآه. هُرِعَ عند الأميرِ واجتذبه عن النافذة وهو يهلل فرحاً  
وابتهاجاً.

قال له:

- يا سيّدي تعال وارم بنظرةٍ عبرَ هذا اللّوح الخشبيّ، سوف ترى  
عندئذٍ النسخة الأصلية من الرّسم الذي فتتك.

نظر الملك من الثقب وتعرّف في الحال إلى أميرته. كان سيّجن من  
الفرح لولا أنّه كان يفكر في خشية بأن ما يراه في تلك اللحظة ربّما  
كان نتيجة سحر ما: إذ كيف يمكن التوفيق بين ذلك اللّقاء المذهل  
وبين شوكلة ووالدتها اللتين كانتا محتجرتين في قصر الأسنة الثلاثة  
واللتين اتّخذتا الأولى اسم محبوبه والثانية لقب وصيفتها؟

إلا أنّ شغفه كان دليلاً له بحمسه. فلإنسان ميل طبيعي يدفعه

للاقتناع بما يتمناه. وفي مثل هذه الظروف يجب جلاء جميع الأمور الغامضة وإلا فالموت عن حرقه ونفاد صبر. ذهب الأمير في الحال وقرع برفق باب الغرفة حيث الأميرة. لم تكن قرنفة تشك في أنها المرأة العجوز تطرق الباب لأنها كانت تحتاج إلى مساعدتها في تضييد ذراع سيدها فسارعت لفتح الباب وبقيت مندهشة برؤية الأمير الذي أتى ليرتمي عند قدمي محبوبه. الفرحة التي عمّت كيانهما لم تسمح لهما بخوض حديث متماسك. ومهما يكن الاهتمام الذي أظهرته لأستعلم عما قاله لها في هذه اللحظات الأولى، إلا أنني لم أجد أحداً استطاع أن يشفي غليلي. ارتبكت الأميرة في إجاباتها لكن الحب، وهو غالباً وسيط البكم، كان ثالثهما؛ فجعلهما يعتقدان أنه لم يسبق لعاشقين أن قالوا كلمات بهذا العمق، أو على الأقل بهذه اللطافة وبهذه الرقة. جعلت الدموع والتنهدات وعهود الحب، لا بل حتى الابتسامات الساحرة، من ذلك اللقاء لقاء لا ينسى. تصرم الليل على هذا النحو وطلع النهار دون أن يتغير شيء في هيئة محبوبه أو تتحول إلى ظيية. انتبهت إلى زوال اللعنة وجئت فرحاً. شاركت الأمير تلك اللحظة السعيدة وأخذت تروي عليه قصتها بأناقة وفصاحة طبيعيتها تفوق فصاحة أمهر الخطباء.

هتف الأمير قائلاً:

- ماذا! أيعقل يا أميرتي الفاتنة أن أكون أنا الذي تسبب في جرحك عندما كنت ظيية بيضاء! ماذا أفعل لأكفر عن جرم هذه الخطورة؟ هل يرضيك أن أموت ألماً أمام ناظريك؟

أضناه الحزن وبأن استياؤه على وجهه. تألمت محبوبه لألمه أكثر مما ألمها جرحها. طمأنته أن ذلك لم يكن بالأمر المهم، وأنها لا تستطيع إلا أن تستحسن شراً أعقبه كل ذلك الخير.

كانت الطريقة التي تكلمت بها من اللطف بحيث لم يعد يستطع الشك بحسن نواياها. ومن جهته، أراد أن يوضح موقفه من كل الأمور فروى لها الخدعة التي دبرتها شوكلة ووالدتها مضيفاً أنه يجب الإسراع في تبليغ والده الملك بالنبا السعيد وهو عثوره على الأميرة. إذ كان الملك على أهبة الاستعداد لشن حرب رهيبه لرد الإهانة التي وُجّهت إليه. توّسّلت إليه محبوبه أن يكتب رسالةً إليه على وجه السرعة ويبعثها مع تيان. وعندما كان يهّم بالإنصياح لأمرها، دوت أصوات أبواق وصنوج وطبول في الغابة. لكأنها جلبة حشد كبير من الناس يعبرون من أمام المنزل. نظر الأمير من النافذة وتعرّف إلى ضباط من جيشه وراياته وحمله الرايات. أمرهم بالتوقف والتريث ليوافيهم.

لدى رؤيته جيشه سرّ الأمير بهذه المفاجأة الرائعة وكان كل الجنود مقتنعين بأنه سيتولى قيادتهم وينتقم من والد محبوبه.

كان الملك والد الأمير يقودهم بنفسه بالرغم من كبر سنّه، مرفوعاً على محمل من المحمل مطرّز بالذهب. وكان المحمل متبوعاً بعربة مكشوفة تجلس فيها شوكلة ووالدتها. عندما رأى الأمير محارب المحمل هرع للقاء والده. مدّ له الملك ذراعيه وقبّله معبراً له بألف طريقة عن حبه الأبوي.

هتف الملك:

- أين كنت يا بُني العزيز؟ أيعقل أن تجعلني نهب الأمل الذي سببه لي غيابك؟

قال الملك:

- يا مولاي، اسمعني من فضلك.

نزل الملك في الحال عن محمله ثم اختلّيا في مكانٍ منزوٍ وأعلمه

ولده باللقاء السعيد الذي جمعه بالأميرة، وبدناءة شوكلة.

سُرَّ الملك بما سمعه ورفع يديه وعينه نحو السماء ليشكرها. وفي تلك اللحظة رأى الأميرة محبوبة في أبهى حلة وأجمل من الكواكب مجتمعة. كانت تمتطي حصاناً رائعاً يتقدم رافعاً قائمته الأماميتين ومستنداً إلى الخلفيتين؛ تزين رأسه مائة ريشة وتوشي سرجه أكبر الألباسات في العالم. وكانت الأميرة ترتدي زي صياد. وقرنفة التي تتبعتها لم تكن أقل تزيئاً منها. وكل ذلك بفضل رعاية الجنية توليب التي رتبت كل شيء بأناقة وذوق، بدءاً من منزل الخشب الذي بنته على شرف الأميرة واتخذت فيه هيئة العجوز التي قدمت لنزلائها الأطياب لأيام عدة. كما أن الجنية هي نفسها التي، ما إن تعرّف الأمير إلى جيشه وذهب إلى لقاء أبيه الملك حتى دخلت إلى غرفة محبوبة ونفخت على ذراعها لتسفي جرحها ثم قدمت لها الثياب الفاخرة التي سترتها في حضرة الملك. ولقد مكث هذا الأخير حياها مذهولاً بحيث شقّ عليه أن يصدق أنها من بني البشر. قال لها اللطف الكلام الذي يمكن قوله في مناسبة كتلك وتوسّل إليها أن تحمل المسرة إلى قلوب رعاياه فتولّى ملكة عليهم دونها إبطاء.

وأردف:

- ذلك أنني اتخذت قراري بتسليم مملكتي إلى الأمير محارب لكي أجعله يليق بك أكثر.

فأجابته محبوبة بكل التهذيب المتوقع من أميرة تلقت تربية رفيعة. ثم، إذ التفتت إلى السجّيتين اللتين كانتا في العربة تشران وجهيهما بأيديهما، أثرت أن تسأله العفو عنهما وأن توضع العربة التي تستقلانها تحت تصرفهما لإيصالهما حيثما تشاءان. استجاب الملك لأمنيها معجباً بحلمها ومثياً على أخلاقها.

وَأُعْطِيَتِ الْأَوَامِرُ لِلجَيْشِ بِأَنْ يَعُودَ عَلَى عَقْبِيهِ. صَعَدَ الْأَمِيرُ عَلَى الْحِصَانِ مُرَافِقاً أَمِيرَتَهُ الْجَمِيلَةَ.

وَاسْتُقْبِلَا فِي الْمَدِينَةِ الرَّئِيسِيَّةِ بِزَغَارِيدِ الْفَرَحِ، وَبَدَأَتِ الْاسْتِعْدَادَاتُ لِيَوْمِ الْعُرْسِ الَّذِي اِزْدَادَ أَتْمَةً بِحَضُورِ الْجَنِّيَّاتِ السَّتِّ الصَّالِحَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُحْبِبْنَ الْأَمِيرَةَ وَقَدَّمْنَ لَهَا أَغْلَى الْهِدَايَا الَّتِي يُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا. وَمِنْ بَيْنِهَا ذَلِكَ الْقَصْرِ الرَّائِعِ حَيْثُ كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ الْمَلِكَةُ أُمُّ الْأَمِيرَةَ لَزِيَارَتِهِنَّ وَالَّذِي لَاحَ فِي الْفَضَاءِ وَقَدْ حَمَلَهُ خَمْسُونَ أَلْفَ مَلَائِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الْحَبِّ ثُمَّ وَضَعُوهُ فِي سَهْلٍ جَمِيلٍ عَلَى ضَفَّةِ نَهْرٍ. لَيْسَ يُمْكِنُ التَّقَدُّمُ بِهِدَايَا أَثْمَنَ مِنْ تِلْكَ.

تَوَسَّلَ تَيَانُ إِلَى مُعَلِّمِهِ لِتَحَدِّثَ إِلَى قَرْنَفَلَةَ، وَيَجْمَعَهُ بِهَا عِنْدَمَا يَتَزَوَّجُ الْأَمِيرَةَ. فَوَافَقَ الْمَلِكُ عَلَى طَلْبِهِ دُونَ تَرَدُّدٍ. وَارْتَاخَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ اللَّطِيفَةُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الَّذِي تَرَافَقَ مَعِ وَصُولِهَا إِلَى مَمْلَكَةِ غَرِيبَةٍ. أَمَّا الْجَنِّيَّةُ تَوَلَّيْبُ فَقَدْ كَانَتْ أَكْثَرَ سَخَاءً مِنْ أَخَوَاتِهَا وَقَدَّمَتْ لِلْأَمِيرَةَ أَرْبَعَةَ مَنَاجِمٍ ذَهَبٍ فِي الْهِنْدِ لِكَيْ تَمْنَعَ عَلَى زَوْجِهَا فِرْصَةَ الْإِدْعَاءِ أَنَّهُ أَغْنَى مِنْهَا. وَدَامَ عُرْسُ الْأَمِيرِ شَهُوراً عَدِيدَةً. وَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَ يُقَامُ حَفْلٌ جَدِيدٌ. وَتَغْنَى النَّاسُ جَمِيعاً بِمَغَامِرَاتِ الظُّبْيَةِ الْبَيْضَاءِ.

الأميرة المتحرقة شوقاً  
للخروج من تلك الأمكنة المظلمة  
حيث أرادت جنية حكيمة  
أن تحجب عنها ضياء السموات،  
المحزن التي واجهتها وتحولها إلى ظبية  
أبانت عن الأخطار المحدقة بالصبيبة اليافعة  
حين تجرأت ولما يصلب عودها بعد

على مجابهة العالم وشروره.

آه أنت يا من أغدق عليك الحبّ مفاتنَ دون حساب،  
ووهبك الغوايةَ التي تأسرُ القلوب؛  
للجمال جبروتٌ كالقدر،  
وليس في مستطاعك صدّه.

تحسب أنك تدرأ عنك خطرَ الحبّ  
بأن تجعل من نفسك معشوقاً لا عاشقاً،  
لكن اعلّم أنّ من يهب الحبّ  
ينتهي به الأمر لا ريبَ إلى أن يُعطى له ويُزاد.





«ظبية الغابة» للرّسام غوستاف ستال

Gustave Staal, 1860



«القطة البيضاء»، لرسام مجهول

## القطة البيضاء

كان يا ما كان، كان هناك ملك لديه ثلاثة أبناء حسني الحلقة وشجعاناً. خشي الملك أن تتملكهم الرغبة في الحكم قبل وفاته، لا بل سرّت بعض الشائعات مفادها أنهم كانوا يسعون لكسب موالين لهم لكي يخلعوه عن العرش.

أحسّ الملك بأنه يتقدّم في السنّ ولكنّ فكره وقدراته لم تتراجع ولم يكن راغباً في أن يتنحى عن منصب يشغله بجدارة كبيرة. فكّر إذاً أنّ الوسيلة الفضلى للعيش مرتاحاً هو أن يُلهمهم بوعود، وعند لزوم الحال سيرف دوماً كيف يتملّص منها.

دعاهم إلى ديوانه، وبعد أن حدّثهم بكثير من اللطف قال لهم: - يا أبنائي الأعزاء، إنّ سني المتقدّمة، كما ترون، لم تعد تسمح لي أن أُولي شؤون دولتي الاهتمام نفسه الذي كنت أولها إياه فيما مضى. أخشى أن يعاني رعاياي من جزاء أيّ تقاعس في واجباتي تجاههم. لذا أريد أن أضع تاجي على رأس أحد منكم؛ ولكن من العدل، لقاء هذه المكافأة العظيمة، أن تبخثوا عن وسائل لإرضائي وتسليتي، لا سيّما وأنني أرمي إلى الإنسحاب والعيش في الرّيف. ويبدو لي أنّ كلباً لبقاً وجميلاً ووفياً سيكون لي نغم الرّيف. ولن أختار ابني الكبير بدلاً من الأوسط أو الأصغر. أعلن لكم أنّ من يجلب لي من ثلاثكم أجمل كلب فسيكون ورثي في الحال.

ذهلّ الأمراء الثلاثة لما علموا برغبة والدهم في اقتناء كلب صغير. لكنّ الابن الأوسط والأصغر عادا فاستحسنا ذلك، لا بل تقبلا بسرور المهمة التي أوكلت إليهما بالذهاب والتفتيش

عن كلب. أما الابن الأكبر فكان يهاب والده ويخجل من المطالبة بحقوقه. وأخيراً استأذن الثلاثة بالانصراف من الملك. أعطاهم مالاً وأحجاراً كريمةً وأضاف أن عليهم بعد سنة العودة دون تخلف في اليوم نفسه والساعة نفسها جالين معهم كلابهم الصغيرة. قبل الانطلاق في رحلتهم، ذهبوا إلى أحد القصور وكان على بُعد فرسخ فقط من المدينة. اضطحبوا معهم إليه أصدقاءهم المقربين وأقاموا ولائم كبيرة. وهناك تعاهد الإخوة الثلاثة على صداقة أبدية، وعلى التصرف إزاء المهمة التي أوكل بها إليهم والدهم دون غيرة ولا حسد متبادلين، وعلى أن يُشرك الأوفر حظاً بينهم أخويه في الحظوة التي سينالها. ولدى انطلاقهم اتفقوا على التلاقي عند عودتهم في القصر نفسه ومنه يذهبون سوياً إلى الملك. لم يرغبوا في أن يرافقهم أحد وغيروا أسماءهم إمعاناً في التخفي.

وسار كلُّ منهم في طريقه. خاض الأخوان الكبير والأوسط مغامرات كثيرة لكنني لن أهتم إلا بمغامرات الابن الأصغر. كان ظريفاً ومرحاً ومبتهجاً، جميل الوجه، مهيب القامة، متناسق الملامح، منتظم الأسنان، وكان يمتلك بإتقان مدهش جميع المهارات التي يفترض بأمر امتلاكها. كان يغني بطلاوة ويعزف على القيثارة والون<sup>(1)</sup> برشاقة تأخذ الأبواب ويتقن الرسم. بكلمة واحدة، كان كامل الأوصاف. أما شجاعته فتقارب التهور.

لم يمض يوم إلا واشترى فيه كلاباً من جميع الأصناف كبيرة وصغيرة، سلوقية وكلاب حراسة من نوع الدراويس وبوليسية وأخرى لصيد الوحوش والطرائد، وكلاباً طويلة الوبر وقصيرة القوائم. ما إن يقتني كلباً جميلاً حتى يجد آخر أجمل منه فيتخلى عن

(1) الون: صنح يُضرب بالأصابع.

الأول ويحتفظ بالثاني، فهو يستحيل عليه أن يصطحب وحده ثلاثين أو أربعين ألف كلب لا سيما وأنه لم يكن يريد برفقته لا أشرافاً ولا حراساً ولا خداماً. وهكذا سارَ قُدماً في طريقه على غير هدى إلى أن دأمه الليل في إحدى الغابات وكانت السماء ترعد وتمطر.

فاتخذ أول طريق وجده، وبعد أن سارَ طويلاً، لمَح نوراً خافتاً، فأيقنَ أنّ هنالك منزلاً قريباً يستطيع اللجوء إليه حتى يوم الغد. وظلَّ مهتدياً بالنور الذي رآه حتى وصلَ أمامَ باب أحد القصور، وكان أروع قصر رآه في حياته. كان من ذهبٍ ومكسُوراً بالعقيق الأحمر، وينير بضوئه المتوقد الصافي الجوارَ كله. إنه الضوء الذي رآه الأمير من مسافة بعيدة جداً: كانت جدرانُه من الخَزَفِ الصّينيّ الشفاف الممزوج بألوانٍ عدّة ورُسِمَتْ عليها قصصُ جميع الجنّيات منذ ولادة الكون: مغامرات «جلد الحمار»<sup>(1)</sup>، و«الأميرة رهيبة»<sup>(2)</sup>، و«شجرة البرتقال»<sup>(3)</sup>، و«الحسناء النائمة في الغابة»<sup>(4)</sup> و«الأفعوان الأخضر»<sup>(5)</sup> ومائة قصةٍ أخرى. ظلَّ الأمير مفتوناً بالتعرّف إلى الأمير عفريت<sup>(6)</sup> الذي كان أحد أعمامه غير المباشرين<sup>(7)</sup>. منعه المطر والطقس السيئ من التريث أكثر في المكان إذ ألقى نفسه مبتلاً فيه حتى العظم. هذا عدا أنه لا يستطيع الرؤية في الأمكنة التي لا يصلها وهج العقيق الأحمر.

(1) «جلد الحمار»: حكاية خرافية فرنسية كتبها شارل بيرو عام 1694.

(2) «رهيبة أو فتاة الرماد»: حكاية خرافية لماري-كاترين دونوا، من حكايات هذا الكتاب.

(3) من الحكايات الخرافية لماري-كاترين دونوا.

(4) «الحسناء النائمة في الغابة»: حكاية خرافية لشارل بيرو.

(5) «الأفعوان الأخضر»: حكاية خرافية لماري-كاترين دونوا.

(6) بطل حكاية خرافية لماري-كاترين دونوا، من حكايات هذا الكتاب وتحمل اسمه عنواناً.

(7) أي أنه ابن عم أحد والدي الشخص المعني، وهو ما تدعوه الكاتبة حُرْفِيّاً: «عم على الطريقة البروتانية»، نسبة إلى منطقة البروتاني الفرنسية.

عادَ إلى البابِ المذهبِ ورأى قائمَةَ ظبيّ معلّقةً إلى سلسلةِ كلّها من الماسِ. أعجبتَه تلكَ الزينةُ الفاخرةُ وشعَرَ بالأمانِ الذي يعيشُ في كنفه سكَانُ القصرِ لأنّه يسهلُ على السّارقينَ المجيءَ وانتزاعَ السّلسلةِ الماسيّةِ وأحجارِ العقيقِ، لأنّهم لو فعلوا ذلكَ لا غنّوا إلى الأبدِ.

جذبَ قائمَةَ الظبيّ وللحالِ سمعَ رنينَ جرسٍ بدا له أنّه من ذهبٍ أو من فضةٍ تبعاً للصوتِ الذي رجّعه. وبعدَ قليلٍ فُتِحَ البابُ، لم يرَ شيئاً أمامه إلاّ دزينةً من الأيدي تُمسِكُ بمشاعلِ. ذُهلَ للمشهدِ وتردّدَ في الدّخولِ إلى أن أحسَّ بأيديٍ أخرى تدفعه بقوةٍ من الخلفِ فدخَلَ يُساوِرُهُ شعورٌ عارمٌ بالقلقِ واضعاً يدهُ على مقبضِ سيفه تحسباً لكلِّ مكروهٍ. ولكن، حينَ ولجَ غرفةَ الملابسِ المطعّمةِ بالحجرِ السّماقيّ واللازوردِ، سمعَ صوتينِ ينشِدانِ هذه الكلماتِ بنبرةٍ ساخرةٍ:

لا تكن مُرتاباً بالأيدي التي تراها  
ولا تحسّ في هذا المكانِ  
إذا كان قلبك يريد التهرّب من الحبِّ  
إلاّ مفاتنَ وجهٍ جميلِ.

لم يستطع الظنّ سوءاً بهذه الدّعوة. شعَرَ أنّه مدفوعٌ باتجاهِ بابٍ من المرجانِ. فُتِحَ البابُ ما إن اقتربَ منه. ثمّ دخلَ إلى صالونٍ مزدانٍ بعزقِ اللؤلؤِ ومن بعدهُ إلى غرَفِ عدّةٍ مزيّنةٍ بطرقٍ مختلفةٍ وحافلةٍ بالرّسومِ والحجارةِ الكريمةِ لدرّجةٍ أنّ الدهشةَ لم تفارقه قطّ خلال تجواله. كانت آلاف الشّموعِ معلّقةً من قبةِ الصّالونِ وحتّى الأسفلِ وينيرُ ضوءُها قسماً من الأجنحةِ الأخرى المليئة هي أيضاً بالثرياتِ والشّامعدِ المزخرفةِ والرّفوفِ المكسوّةِ بالشّموعِ. وكلّ ما حوله كانَ

مَنْ الرُّوعَةَ بِحَيْثُ تَظَنُّهُ مِنْ صُنْعِ الْخِيَالِ.

وبعد أن مرّ بستينَ غرفة، أوقفته الأيدي التي كانت تسيره. رأى كنبه كبيرة مُريجة اقتربت وحدها من المدفأة. وفي الوقت نفسه، أضرمت النار في الموقد. راحت الأيدي التي كانت في غاية الجمال، بيضاء، وصغيرة، ومكتنزة، ومتناسقة مجرّده من ثيابه لأنه كان مبتلاً كما قلت سابقاً، خشية أن يُصاب بالزكام. وقُدّم له قميص جميل وكأنه مخصّص للزفاف، ومبذل مذهب ومطرز بالزمرّد على شكل أرقام. قرّبت الأيدي المجرّدة من الأجساد طاوله باتجاهه وقد وُضعت عليها أدوات الزينة وكانت ولا أجمل. سرّحت الأيدي شعره برقة ولباقة، وجعلته يشعر بالراحة والرضا ثم ألبسته من جديد ثياباً مختلفة عن ثيابه وأكثر ثراءً بكثير. كان معجباً بصمت بكل ما يجري رغم قشعريرة الخوف التي تتابه بين الفئنة والأخرى ولم يستطع التحكم بها تماماً.

وبعد أن وُضعت الذرور على خديه وصُفّف شعره مجدداً وعُطّر وزُين وأُصلح هندامه، وجُعِلَ أشدّ جمالاً من أدونيس، اقتادته الأيدي إلى صالة رائعة مزدانة ببديع الزخارف الذهبية والأثاث. وشوهدت على جدرانها قصص القطط الأكثر شهرة: روديلاردوس المتدلّي من قائمته وسط مجلس الجرازين، وهرّ الماركيز كاراباس ذو الجزمتين، والقط الذي يكتب والهرة التي أصبحت امرأة، والسحرة الذين صاروا هزّرة، وحفلات السعوذة بجميع طقوسها<sup>(1)</sup>. والحق، لم يكن هنالك ما هو أشدّ فريدة من تلك اللوحات.

(1) تلميحات إلى حكايات لافونتين وشارل بيرو. يظهر الهرّ روديلاردوس في حكايات عديدة للافونتين، منها «مجلس الجرازين» و«الهرة التي أصبحت امرأة»؛ أمّا هرّ الماركيز كاراباس فهو بطل حكاية شارل بيرو الشهيرة «القطّ العارف أو القطّ ذو الجزمتين».

ثم وُضِعَتْ لوازم المائدة لشخصين مع سكين وملعقة وشوكة من ذهب لكل منهما. وأدهشته كمية الأواني المصنوعة من البلور الصخري والأحجار الكريمة النادرة. لم يكن الأمير يعرف لمن وُضِعَ ذينك الطبقان. وفجأة رأى قطعاً تجتمع مؤلفة فرقة موسيقية صغيرة لتعزف على شرف الحاضرين. كان أحد القطط يمسك كتاباً دُونت فيه نوتات موسيقية مذهشة، وآخر يحمل مدرجاً من ورق يضبط به وحدة الإيقاع، فيما القطط الأخرى تمسك بقيانر صغيرة. وفجأة أخذت جميعها تموء على نغمات مختلفة ملائمة أوتار القيانر بأظافرها. وكانت تلك أغرب موسيقى سمعها حتى ذلك الحين. خال الأمير نفسه في الجحيم لو لم يجد ذلك القصر أجمل من أن يوحى بفكرة مماثلة. وضحك حتى التوت حاصرته لرؤية الوضعيات والإيحاءات المختلفة التي يتخذها أولئك العازفون الجدد.

وراح يفكر في أشياء كثيرة حصلت معه في ذلك القصر إلى أن رأى أمامه هيئة صغيرة بطول ذراع أشبه ما تكون بدُمية متدثرة بوشاح طويل أسود للحداد، ويرافقها هران يلبسان مغطفاً أسود مُتمنطقان بسيف على خاصرتيهما ووراءهما موكب حاشد من الهررة يحمل بعضهم مصائد للجرذان مليئة بها وبعضهم الآخر فتراناً في أقفاص.

ظل الأمير في ذهول وحيرة حيال ما يراه. اقتربت الهيئة السوداء ونزعت وشاحها فرأى تحته أجمل هرة بيضاء صغيرة أمكن لها أن توجد. بدت يافعة جداً وحزينة جداً وأخذت تموء مواء ناعماً وفاتناً يرق له القلب. قالت للأمير:

- يا ابن الملك، أهلاً وسهلاً بك، جلالتي من معشر القطط، وإنه لمن دواعي سروري أن أراك.



قال الأمير:

- مولاتي القطة، كنتِ كريمةً جداً في استقبالكِ لي لكنك لا تبدين لي هرةً عاديةً. إن قدرتكِ على الكلام، والقصرَ البديع الذي تملكينه يُثبتان بشكل قاطع أنك مخلوق استثنائي.

أجابت القطة البيضاء:

- يا ابنَ الملك، أتوسّل إليك، كفّ عن مجاملتي. أنا كائن بسيط في أحاديثي وتصرفاتي طيب القلب. ثم أردفت:

- هيتا قدموا الطعمَ وليصمتِ العازفون، فالأميرُ لا يفهم ماذا يقولون.

سألها:

- وهل يقولون شيئاً يا سيّدي؟

تابعت:

- بالطبع، لدينا هنا شعراء يتميرون بذكاءٍ غير متناهٍ، ولو بقيت قليلاً بيننا لأقتنعت بما أقوله لك.

قال الأمير متودّداً:

- ليس عليّ إلا أن أسمعكم لأقتنع. ولكن يا سيّدي عليّ التّشديد بأنني انظر إليك بصفتك هرةً نادرةً جداً.

وجيءَ بالعشاء. كانت الأيادي المجرّدة من الأجساد تقوم بأوامرِ الخدمة. ووضعت على الطاولة نوعين من الحساء، واحداً للأمير وآخر للهرة. رؤية الحساءين جعلت الأميرَ يأنف من تناول حسائه لا سيّما وأنه تصوّر أنّ الطاهي نفسه أعدّهما. لكنّ الهرة الصّغيرة حدّست من سيّما الأمير تفكيره، فأكدت له أنّ طعامها يُطهى على حدة، وأنه يستطيع أن يأكل ممّا يُقدّم له وأن يكون على يقينٍ من أنّ طبّاخها أعدّوا له حساءً بفراخ الحمام..

امثل الأمير في الحال لأنه شعر أنّ الهرة الصغيرة الجميلة لا تنوي أن تحذّعه، ولاحظ أنها كانت تحمل في إحدى قوائمها بطاقة معدنية أشبه ما تكون بميدالية. تفاجأ من الأمر، وتوسّل إليها أن تُريه الرّسم الموجود داخلها معتقداً أنّه رسم المعلم ميناغروبيس<sup>(1)</sup>، لكنّه رأى صورة شاب في غاية الجمال بحيث يشقّ على المرء أن يصدّق أنّ الطّبيعة استطاعت خلق أحدٍ بمثل جماله. كان يشبهه كثيراً وكأنّه هو نفسه. تنهّدت الهرة والتزّمت الصّمت العميق مستغرقة في أحزانها فأحسّ الأمير أنّ سرّاً غامضاً خارقاً يُعذبها. إلّا أنّه لم يجرؤ على استجلاء الأمر مخافة أن يسيء إلى القطة أو يُجزئها. روى لها كلّ الأخبار التي يعرفها وألفاها على علمٍ بكلّ ما يجري في قصور الأمراء وأحداث أخرى مهمّة في العالم.

بعد العشاء دعت القطة ضيفها للدخول إلى قاعة استقبال مزودة بمسرح فيه فرقة مؤلّفة من اثنتي عشرة قطة واثني عشر قرداً يؤدّون رقصةً باليه. كان بعضهم مرتدياً على طريقة المسلمين وبعضهم الآخر على طريقة أهل الصين. وقاموا بوثباتٍ وحركاتٍ بهلوانيّة كثيرة وتبادلوا أحياناً الخرمشات. وهكذا انتهت السهرة. تمتت القطة البيضاء ليلة سعيدة لضيفها. اقتادته الأيدي التي كانت أرشدته حتى ذلك الحين إلى جناح مقابل للجناح الذي رآه. كان ظريفاً أكثر منه بديعاً وتفترشه أجنحة الفراشات التي شكّلت بألوانها المتنوعة ألف زهرةٍ مختلفة. وكان مزيناً أيضاً بأرياش عصفير نادرة لم يسبق له أن رآها إلّا في هذا المكان. أمّا الأسرة فمن القماش الشفاف ومزدانة بشرائط كثيرة معقودة. كانت المرايا الكبيرة تحيط بالجدران من

(1) تلميح إلى قطّ هرم في إحدى حكايات لافونتين الشعرية، منحه فيها هذا الاسم. سبقت الإشارة إليه.

السَّقْفِ حَتَّى الْأَرْضِ وَإِطَارَاتِهَا الذَّهَبِيَّةَ نُحِتَتْ عَلَيْهَا رَسُومٌ صَغِيرَةٌ  
لِللَّائِكَةِ الْحَبِّ.

حَلَدَ الْأَمِيرُ إِلَى فَرَاشِهِ دُونَ أَنْ يَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ لِأَنَّهُ مَا مِنْ وَسِيلَةٍ  
لِلتَّحَدُّثِ إِلَى الْأَيْدِي الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُهُ. غَفَا قَلِيلًا وَمَا لَبِثَ أَنْ  
اسْتَيْقِظَ عَلَى ضَجَّةٍ غَامِضَةٍ. وَفِي الْحَالِ اجْتَذَبَتْهُ الْأَيْدِي مِنْ سَرِيرِهِ  
وَأَلْبَسَتْهُ ثِيَابَ الصَّيْدِ. نَظَرَ إِلَى بَاحَةِ الْقَصْرِ وَلَمَحَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ هَرٍّ،  
بَعْضُهَا يَقُودُ كِلَابَ صَيْدٍ مِنْ رَسَنِهَا وَبَعْضُ الْآخَرِينَ فَيُفْخِخُ فِي الْأَبْوَاقِ.  
وَجَرَى اجْتِهَالٌ عَظِيمٌ. كَانَتْ الْقَطَّةُ الْبَيْضَاءُ ذَاهِبَةً إِلَى الصَّيْدِ وَتَرِيدُ  
أَنْ يَأْتِيَ الْأَمِيرَ مَعَهَا. قَدِمَتِ الْأَيْدِي الْمُسَعِفَةُ لِلْأَمِيرِ حِصَانًا خَشَبِيًّا  
يَعْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ وَيَمُشِي الْهُوَينِي بِشَكْلِ رَائِعٍ. وَجَدَ صَعُوبَةً مَا فِي  
اعْتِلَائِهِ قَائِلًا إِنَّ الْأَمْرَ يَحْتَاجُ إِلَى الْكَثِيرِ لِيُصْبِحَ فَارِسًا هَائِمًا مِثْلَ دُونَ  
كَيْخَوْتِهِ<sup>(1)</sup>. لَكِنْ مَقَاوِمَتَهُ لَمْ تُفِذْهُ بِشَيْءٍ إِذْ رُفِعَ وَأُجْلِسَ عَلَى الْحِصَانِ  
الْخَشَبِيِّ الَّذِي كَانَ سَرَّجُهُ مَوْشَى بِالذَّهَبِ وَالْأَمْلَاسِ.

كَانَتِ الْقَطَّةُ الْبَيْضَاءُ تَمْتَطِي قَرْدًا وَكَانَ الْأَجْمَلُ وَالْأَبْرَعُ. تَحَلَّتْ  
عَنْ وَشَاحِهَا الطَّوِيلِ الْأَسْوَدِ، وَارْتَدَّتْ خَوْذَةً أَضْفَتَ عَلَيْهَا هَيْئَةً  
حَازِمَةً أَثَارَتِ الْخَوْفَ فِي فِئْرَانِ الْجَوَارِ. لَمْ يَسْبِقْ لِحَفْلَةِ صَيْدٍ أَنْ كَانَتْ  
بِهَذِهِ الرِّوَعَةِ. كَانَتِ الْقَطَطُ تَرْكُضُ أَسْرَعَ مِنَ الْأَرَانِبِ الْبَرِيَّةِ وَعِنْدَمَا  
تَسْتَوِي عَلَى الطَّرِيدَةِ تَأْمُرُهَا الْقَطَّةُ الْبَيْضَاءُ بِأَنْ تَأْخُذَ حِصَّتَهَا مِنْ  
الصَّيْدِ أَمَامَهَا فَتَتَصَارَعُ فِيهَا بَيْنَهَا مَتَوَسِّلَةً بِحَيْلٍ بَارِعَةٍ وَمَسْلِيَّةٍ جَدًّا  
لِانْتِزَاعِ قِسْمَتِهَا. وَلَمْ تَكُنِ الطَّيُورُ مِنْ جِهَتِهَا بِمَأْمَنٍ لِأَنَّ الْقَطَطَ  
الصَّغِيرَةَ كَانَتْ تَتَسَلَّقُ الْأَشْجَارَ، وَكَانَ السَّيِّدُ الْقَرْدُ يَحْمِلُ الْقَطَّةَ  
الْبَيْضَاءَ حَتَّى أَعْشَاشِ الْعُقْبَانِ لِيَضَعَ فِي مَتَنَاوِلِهَا صَغَارَهَا رَغْمَ كُلِّ  
مَا تَمْلِكُ مِنْ مَهَابَةٍ وَرَثَّتِهَا عَنْ آبَائِهَا.

(1) بطل رواية الكاتب الاسباني ميغيل دو ثربانتيس: التليل البارع دون كيكخوته المانشي.

انتهت حفلة الصيد. أخذت القطة البيضاء بوقاً بطول إصبع لكنه يُطلق صوتاً رناناً وعالياً يُمكن سماعه عن مسافة عشرة فراسخ بسهولة. ما إن نفخت البوق مرتين أو ثلاثاً حتى أحاطت بها جميع قطط البلاد. بعضها ظهرَ في الفضاء راكباً على متن عرباتٍ مجنحة، وبعضها الآخر في قوارب عبرَ النهر مقتربةً من الضفاف. وأخيراً لم يسبق أن اجتمع مثل ذلك الحشد من القطط. كانت ترتدي أزياء مختلفة. ثم عادت القطة البيضاء إلى القصر برفقة ذلك الموكب الفخم وتوسلت إلى الأمير لكي يأتي برفقتها. رغبَ في ذلك فعلاً مع أنه أحسَّ أن ذلك العَدَدَ الغفيرَ من القطط يشبه احتفال السحرة، إلا أن القطة الناطقة أدهشته أكثر من كلِّ ما تبقى.

ما إن عادت إلى القصر حتى ألبست وشاحها الطويل الأسود. تناولت العشاء مع الأمير. كان جائعاً وتناول طعامه بشهية كبيرة. وجيء له بالمشروبات المنعشة فتجرَّعها بلذَّة وللحال أنسته تلك المشروبات الكلب الصغير الذي يُفترض به أن يجلبه للملك. لم يعد يفكر إلا في أن يموء مع القطة البيضاء أي أن يظل برفقتها. كان يمضي أيامه منتقلاً من حفلة إلى أخرى ومن سلوى إلى أخرى. تارة يصطاد السمك أو الحيوانات وطوراً يشاهد الحفلات الراقصة وألعاب الفروسية وشتى أنواع اللهو والترفيه. وغالباً ما كانت القطة الجميلة تؤلف الأشعارَ والأغاني القصيرة بأسلوب مشبوب العاطفة؛ لكن قلبها عرف الحب. لكن أمين سرها وهو قط هرمٍ يكتب بخط رديء ولن يفيد معه أن تحفظ أعمالها لأن قراءتها مستحيلة.

نسي الأمير حتى مملكته. واصلت الأيدي التي تحدت عنها خدمته. وأحياناً كان يتمنى لو كان قطاً لكي يستطيع أن يمضي أيامه وسط تلك الصحبة الجميلة. كان يقول للهرة البيضاء:

- واأسفاه! كم سأ تألم عند رحيلي عنك. أحبك حباً جماً! إنا أن  
تجعلني نفسك فتاة أو تجعليني هراً.

راقت لها أميته كثيراً ولم تجبه إلا بكلمات غامضة لم يفقهها.  
ومرت السنة بسرعة لا سيما وأن الأمير أمضاها مبتهجاً متمتعاً  
بصحة جيدة دون هم أو ألم. لم تنس القطعة البيضاء موعد عودة الأمير  
إلى والده. وإذا لاحظت أنه سها عنه ذكرته به قائلة:

- هل تعلم، لديك ثلاثة أيام فقط لكي تبحث عن الكلب الصغير  
الذي طلبه والدك. ثم إن أخويك وجداً كلاباً جميلة جداً.

عندئذ عاد الأمير إلى رشده متعجباً من تهاونه وهتف قائلاً:

- أي سحر خفي جعلني أتغافل عن الأمر الأهم بالنسبة إلي؟  
إن مجدي في خطر وثروتي أيضاً. أين سأجد كلباً فريداً من نوعه  
يجعلني أكسب الملك؟ أين أجد حصاناً سريعاً يؤهلني اجتياز كل  
هذه المسافات بسرعة؟

انشغل باله وحزن حزناً شديداً.

قالت له القطعة البيضاء بصوت يتعمد الغنج والدلال:

- يا ابن الملك لا تحزن، أنا صديقتك. يمكنك أن تبقى هنا يوماً  
آخر، ومع أن المسافة التي تفصل هذا المكان عن بلادك تبلغ خمسمائة  
فرسخ، فإن الحصان الخشبي البارح سيحملك إليها في أقل من اثنتي  
عشرة ساعة.

قال لها الأمير:

- أشكرك يا قطتي الجميلة لكن لا يكفي فقط العودة إلى والدي  
بل يجب أن أحمل إليه كلباً صغيراً.

قالت له القطعة البيضاء:

- خُذ، هذه بَلْوَطَة وفيها كَلْبٌ هو أَجَمَل من الشُّعْرَى<sup>(1)</sup>.

أجابه الأمير:

- آه يا سَيِّدَتِي القَطَّة، جلالتكِ تسخر مني.

فقلت له:

- قَرِّبِ البَلْوَطَة من أذنكِ وستسمعه يَنْبَح.

فَعَلَّ ما قالت له وعلى الفور بدأ الكلب الصَّغِير يَنْبَح. شَعَرَ الأمير أَنَّهُ في قَمَّة السَّعَادَة لأنَّ كَلْباً يَقْطُنُ بَلْوَطَة صغيرة يُفْتَرَضُ به أن يكونَ في غَايَة الصَّغَر. أَرَادَ أن يفتَحَها لأنَّه رَغِبَ في رؤيته لكنَّ القَطَّة البيضاء قالت له إنَّ الكلب قد يُصَاب بالبرْدِ أثناء الطَّرِيق، لذا من الأفضل له أن ينتظرَ حتَّى يجتمع بوالده الملك. أمْطَرها بعباراتِ الشكر وودَّعها بحنان قائلاً:

- أوْكَدْ لِكَ أن الأيَّامَ بَدَتْ لي قصيرةً جدًّا برفقتكِ حتَّى إنني نادِمُ بشكل ما على ترككِ هنا. ومع أنَّكِ ملكة وجميع القطط التي تتغزل بكِ أذكى وألطف من قططنا، إلَّا أَنِّي مع ذلك أصِرُّ على دعوتكِ للمجيءِ معي.

لَمْ تَجِبِ القَطَّة على هذا الاقتراح إلَّا بتنهيدة عميقة، وتوادعا.

وصَلَ الأمير إلى القصر حيث حُدِّدَ موعد اللقاء قبل أخويه اللذين تبعاه بوقتٍ قصير. دُهِشَا لرؤيتهما في الباحة حصاناً خشبياً يقفز ويتفوق على تلك التي في ميادين الخيل والفروسية.

تقدَّم الأمير نحوهما وتبادلوا القبلات مرَّاتٍ عدَّة وبدؤوا يتحدَّثونَ عن مجرَّياتِ رحلاتهم لكنَّ أميرنا أخفى عن أخويه حقيقة

(1) هنا لعب على الكلام، لأنَّ نجمة الشُّعْرَى أو الشُّعْرَى اليمانية Canicule، تشكِّل النَّجم الرَّئيس في كوكبة الكلب الأكبر. وهي تُدعى أيضاً Sirius، ومنها جاء اسم القِيظ أو الصيِّهود في الفرنسية la canicule.

مغامراته وأراهما كلباً شقيماً يتقن قلب السّفود، قائلاً إنّ وجدّه في غاية الظرف وإنّه الكلب الذي أحضره للملك. وعلى الرّغم من الصّدقة التي تجمع بينهم، شعر الأخوان الكيران بفرح خفيّ للخيار السيء الذي قام به أخوهما الصّغير واطمأنّا لأنّه لن يكون منافساً لهما على العرش.

في اليوم التالي، انطلقوا معاً في العربة نفسها. كانت لدى الأخوين الكبيرين كلابٌ صغيرة موضوعة في سلال، في غاية الجمال والتّعمّمة بحيث لا نجرؤ على لمسها. كان الأخ الأصغر يحمل الكلب المسكين مقلّب السّفود الذي كان متسخاً بشكل يثير القرف. عندما وصلوا إلى القصر، هرع الجميع لاستقبالهم بالترحاب ودخلوا إلى جناح الملك. احتار الملك أيّ كلب يختار من الكلّيين الصّغيرين اللذين أحضرهما له ابناه الأكبران لأنّهما كانا متساويين في الجمال. وأخذ الأخوان يتداولان بشأن أولوية الخلافة عندما أسكتها الأخ الأصغر وهو يسحب من جيبه البلوطة التي أعطته إياها القطّة البيضاء. فتحّها بسرعة فرأى الجميع كلباً صغيراً ممدداً على القطن ويستطيع أن يدخل خاتماً دون أن يمّس جوانبه. وضعه الأمير في الحال على الأرض فشرع يؤدي رقصة السربندة مستخدماً صنّاجات اليد<sup>(1)</sup> برشاقة أشهر راقصة إسبانية. كان من ألوان مختلفة ووبره وأذناه تلامس الأرض. مكث الملك مندهشاً صامتاً يحار في ما يقوله أمام جمال ذلك الجرو الصّغير.

ومع ذلك لم تكن تحدوه أية رغبة في التخلي عن تاجه، وكان أصغر زخرف فيه أعلى عنده من كلاب الكون قاطبة. عندئذ قال

(1) صنّاجات: قطع خشبية صغيرة ومجوّفة بشكل أسطواني تُربط في الأصابع وتقرع الواحدة بالأخرى.

لأبنائه إنه كان راضياً عن جهودهم وإنهم نجحوا فعلاً في تنفيذ أول  
 أمينة طلبها منهم. لذا يريد أيضاً أن يواصل امتحان مهاراتهم قبل  
 أن يسلم العرش لأحدهم ويفي بوعدِهِ. وهكذا فإنه يُمهّلهم عاماً  
 كاملاً ليبحثوا براً وبحراً عن قطعة قماش رقيقة جداً بحيث تستطيع  
 أن تمر بثقب إبرة. بدا على ثلاثتهم الحزن الشديد لأنهم مُزغمون على  
 السعي والتفتيش من جديد. وافق الأميران اللذان كان كلبهما أقل  
 جمالاً من كلب أخيهما الأصغر على الانطلاق في تلك الرحلة. ورَحَلَ  
 كل واحدٍ منهم متخذاً جهة مختلفة دون أن يتبادلوا عهدَ الصداقة  
 كما في المرة الأولى، لأنّ مزايا الكلب مقلب السفايد أشاعت بينهم  
 شيئاً من البرودة.

اعتلى أميرنا حصانه الخشبيّ مجدداً، دون أن يبحث عن مُعين إلاّ  
 ما يمكن أن يأمله من صداقة القطّة البيضاء فانطلق على وجه السرعة  
 عائداً إلى القصر حيث استقبلته أفضل استقبال. وجدّ جميع الأبواب  
 مفتوحة والتوافذ والسطوح والأبراج، مضاءة بمائة ألف مصباح. بدا  
 منظرها رائعاً. الأيدي التي تفانت في خدمته المرة السابقة تقدّمت  
 نحوه وأمسكت بلجام الحصان الخشبيّ البارِع واقتادته إلى الحظيرة  
 فيما كان الأمير يتّجه إلى غرفة القطّة البيضاء.

كانت مضطجعة في سلّة صغيرة على بطانية من الساتان الناصع  
 البياض. وكانت القبّعة التي تضعها على رأسها أثناء النوم مفكوكة  
 وبَدَت الهرة تعبّة. لكن، عندما لمحت الأمير، أخذت تثبّ وتقفز بلا  
 كللٍ لكي تعبّر له عن السعادة التي تشعر بها لرؤيته. قالت له:

- مهما تكن لديّ أسبابي المشروعة لأملّ عودتك يا ابن الملك  
 فإنّي أعترف لك أنّي لم أكن أجروء على تعليل نفسي بهذا الأمل. أنا  
 متشائمة عادةً في الأمور التي أتمناها، لذا مجيئك يُفاجئني.



داعبها الأمير ممتناً لها لطفها وشكرها ألف مرّة، ثم روى لها كيف تكلّلت رحلته بالنجاح. ربّما كانت تعرف ذلك أكثر منه. قال لها أيضاً إنّ الملك يريد قطعة قماش شفافة بإمكانها أن تمرّ عبر ثقب الإبرة، وأضاف أنّ العثور عليها أمرٌ مستحيل لكنّه لن يتوانى عن البحث عنها أملاً أن توّازره في مسعاه. اتخذت القطعة هيئة جديّة وقالت له إنّ تلك مسألة يجب التفكير فيها؛ لكنّ لديها، ولحسن الحظ، في قصرها، قطعاً تنسج ببراءة تامّة وأنها هي أيضاً ستمدّ يد المساعدة وتعتجلّ في إنجاز هذا العمل. بإمكانه أن يطمئنّ إذ لا ضرورة قد تستدعي الذهاب إلى البعيد للبحث عن شيء يمكنه إيجاده بسهولة في مشغل قصرها أكثر من أيّ مكانٍ آخر في العالم.

ظهرت الأيدي. كانت تحمل مشاعل. تبعها الأمير مع القطعة البيضاء، وولج بهواً بديعاً يمتدّ بمُحاذاة نهر كبير حيث كانت تُطلق مفرّقات نارية مدهشة. كان سيّمْ إحراق أربع قطعٍ جرّت محاکمتها بطريقةٍ شكليةٍ بعد أن وُجّه إليها الاتهام بأنّها أكلت اللحم المشويّ الذي حُصّص لعشاء القطعة البيضاء والجبنة والحليب. لا بل هي متهمّة حتّى بالتآمر عليها مع مارتافاكس وليرميث وهما جرذان مشهوران في المنطقة بعد أن خلّدتهما الشاعر لافونتين في أشعاره. إلى هذا، عُرف أنّ تلك المسألة كانت بأكملها ملفّقة وأكثر الشهود فيها كانوا شهود زور. أيّاً يكن الأمر، أفنّع الأمير القطعة بأن تعفو عنهم. لم تتسبّب المفرّقات النارية بالأذى لأحدٍ ولم يسبق أن شوهدت أسهم نارية بمثل ذلك الجمال وتلك الرّوعة.

ومن ثمّ قدّمت وجبة طعام منتصف الليل<sup>(1)</sup>، وكان كلّ شيءٍ في منتهى النظافة وسرّ الأمير بالطعام أكثر من المفرّقات النارية لأنّه

(1) وجبة طعام تُقدّم بعد حفلة راقصة أو سهرة.

كان جائعاً جداً. وكان حصانه الخشبي قد حمله بسرعة كبيرة لا تظاهيها سرعة حصان أو عربة في العالم كله. ومرت الأيام كتلك التي سبقتها مرفقة بحفلاتٍ سمر وسهر لا تنتهي، أتحت بها القطة البيضاء ضيفها. ربّما كان أول آدمي يتسلّى إلى هذا الحدّ مع الهِرّة دون أيّة صحبةٍ أخرى.

كانت القطة البيضاء تملك روحاً ظريفة وكانت أليفة المعشر وملمّة بجميع المعارف. وذلك كان يثير دوماً عجبَ الأمير فيقول:  
- لا، ليسَ أمراً عادياً التميّز الفريد الذي يسمُ شخصيتك! إذا كنتِ فعلاً تحبيني أيتها القطة الساحرة قولي لي بأية معجزةٍ أتيج لك أن تفكرني وتتكلّمي بهذه الحكمة الرائعة التي تؤهلك الدخول إلى الأكاديميات الشهيرة التي تجمع كبار المفكرين؟  
أجابته:

- توقّف عن طرح الأسئلة يا ابن الملك، ليسَ مسموحاً لي أن أجيبَ عليها. واذهب بتخميناتك إلى حيث تشاء فلن أعترض. كفاك أن أكون رقيقة معك وأراعي جانبك بكلّ حنانٍ ومحبة.  
ومرّت تلك السنة الثانية كسابقتها دون أن يشعرُ الأمير بمرورها. لم يكن الأمير يتمنى شيئاً إلاّ وتأتيه به الأيدي الخدوم في الحال، من الكتب والحجارة الكريمة واللوحات والميداليات القديمة. كان يكفيه أن يقول أريد هذه الحلية من خزنة مملكة المغول أو ملك الفرس، أو ذلك التمثال من كورنثيا أو من اليونان، فيرى أمامه كلّ ما يشتهي في الحال دون أن يعرفَ لا من جاءه به ولا من أين. وكان لهذا سحره أيضاً إذ يشعر المرء بالراحة والسعادة لرؤيته أجمل كنوز الأرض في حوزته.

كانت القطة البيضاء تُعنى دوماً بالسهر على مصالح الأمير.

أُنذرتَه أَنْ موعِدَ رحيله قَدْ دَنَا وَأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطْمِئِنَّ لِجِهَةِ قِطْعَةِ القِمَاشِ التي كان يفتش عنها وأنها صنعت له قطعة مُدهشة مُضيفةٌ أنها تريد هذه المرة أن تُعدَّ له موكباً يليق بأصله العريق. ومن دون أن تنتظر جواباً، أزعمتَه على النَّظرِ إلى الباحةِ الكبيرة للقصر. رأى عربةً من الذهب مكشوفة، مملّعة بلونِ النَّارِ ورُسمَ عليها ألف شعار أنيق يُرضي الفكرَ والنَّظرَ معاً. وأوثقَ إليها اثنا عشرَ حصاناً أبيض كالثَّلجِ وُضِعَت أربعةٌ أربعةً في مقدِّمة العربة وكُسيَت بِسُروجِ من المخملِ بلونِ النَّارِ مطرزةً بالألماسِ ومزدانةً بصفائح الذهب. وكانت بطانة العربة تشبهها. ثم تبعتها مائة عربة أوثقت إلى كلِّ منها ثمانية أحصنة اغتلاها أسياذُ نبلاءٍ يرتدون ثياباً رائعة. كذلك كانت العربة مواكبةً بألف حارسٍ ثيابهم مطرزة بشكل كامل لدرجة أن القماش لم يعد مرتباً. والأمر الأكثر إدهاشاً هو صورة القطة البيضاء التي وُضِعَت في كلِّ مكانٍ سواء على شعارات العربة أو على ملابس الحراس أو علقت إلى شريط على صدور أولئك الذين يشاركون في الموكب وكأنها رُتبة جديدة مُشرِّفة.

قالت للأمير:

- اذهب إلى قصر والدك الملكِ مُحاطاً بهذه المظاهر الفخمة التي تُضفي على مهابتك مهابة. اذهب حتى يراك فلا يجرب عنك التاج الذي تستحقه وأعطيك هذه الجوزة لكن لا تكسرِها إلا بحضوره. ستجد فيها قطعة القماش التي طلبتها مني.

قال لها:

- أيتها القطة البيضاء، أعترف أنك غمرتني بلطفك. وإذا شئت، فأنا أفضل أن أمضي حياتي معك على نيل كل الخطوات التي أعد نفسي بها في أمكنة أخرى.

أجابته:

- يا ابن الملك أنا مقتنعة بطيبة قلبك وهي عُملة نادرَة بين أقوياء هذا الزمان، فهم يريدون أن يحبّهم الجميع ولا يريدون أن يُحِبُّوا أحداً. أنت تثبت أن للقاعدة العامة استثناءاتها. أقدر لك هذه العاطفة الحارة التي تُبديها لِقِطَّةٍ بيضاء صغيرة غير نافعة بشيء إلاّ بصيّد الفئران ربّها.

قَبَّلَ لها الأمير قائمتها ورَحَلَ.

يَصعب علينا تصوّر السرعة التي سارَ بها لو لم نكن نعرف مسبقاً أنّ الحصان الخشبيّ اجتازَ في ظرفٍ أقلّ من يومين مسافةً تُزبو على الخمسمائة فرسخ التي تفصله عن القصر. إنّ القُدرةَ نفسها التي حفزت الحصانَ الخشبيّ حثّت الأحصنة الأخرى، ولم يستغرق اجتياز الطّريق إلاّ أربعاً وعشرين ساعة. لم يتوقف الموكب في أيّ مكان بل ظلّ سائراً حتّى وصل إلى قصر الملك حيث سبق شقيقا الأمير أخاهما الأصغر. وإذ لم يرياه، أخذوا يُهلّانٍ لتهاوُنِه ويقول أحدهما للآخر بصوتٍ خافت:

- هذا فال خير، إمّا أنّه توفّي وإمّا أنه مريض. ولن يُشكّل بالتالي منافساً لنا في هذه المسألة الهامة التي سنُتخسّم.

وعلى الفور، بسّطوا القماشة التي جلبها كل منهما، وكانت بالفعل رقيقة جداً بحيث تمرّ عبر ثقبِ إبرةٍ ثخينٍ لكنها تعصى على الدّخول في ثقبِ الإبرة التي اقترحها وأحضرها القضاة بأمر من الملك من خزانة المدينة حيث كانت موضوعةً بعناية ومقفلًا عليها.

وأثار ذلك خصاماً طويلاً وجدلاً كبيراً. كان أصدقاء الأميرين وخاصة أصدقاء الابن الأكبر يقولون إنّ قماشته هي الأجل وإنّ ما يفعلُه الملك مراوغةٌ صريحةٌ فيها الكثير من اللبابة والتعنّت. أمّا أتباع

الملك فكانوا يُسانِدونه قائلين إنه ليس مجبراً على الالتزام بشروط لم يقرّها، إلى أن قطع خصامهم ذلك صوت أبواق جميل وصنوج ومزامير مغلّنة ووصول أميرنا وسط موكب فخم. أثارت رؤية الموكب دهشة الملك وولّديه.

بعد أن حيّا الابن الأصغر والدّه وقبّل أخويه، أخرج من علبة مكسّوة بالياقوت الجوزة التي أعطته إياها القطة وكسرها معتقداً أنّه سيجد فيها القماشة التي طالما امتدحتها القطة ولكنه وجد بدلاً منها حبة بندق فكسرها أيضاً لكنه دُهِس لعثوره على نواة كرز. تبادل الجميع النظرات فيما بينهم وضحك الملك بصوت خافت ساخراً من ابنه ومن سهولة انخداعه، لظنه أنّ في الجوزة قطعة قماش. ولكن لماذا لا يصدّقه وهو قدّم له من قبل كلباً يسكن في بلوطة؟ كسر الأمير نواة الكرز فوجدّها مليئة بلبّها. وهنا علت ضجة مدوّية في الغرفة حيث سُمعت جملة واحدة:

- الأمير الصغير غرّر به.

لم يردّ بشيء على الدّعابات الخبيثة التي تفوّه بها أفراد الحاشية. فتح لبّ نواة الكرز فوجد حبة قمح ثم وجد فيها حبة ذرة بيضاء. يا للهول! بدأ يخشى أن يكون قد غرّر به فعلاً فقال مغمماً:

- خدعتني أيتها القطة البيضاء، خدعتني!

وللحال أحسّ بمخلّب قطّ يחדش يده بقوة وبدأ الدّم ينزف منها. لم يكن يعرف إذا كان ذلك الخدش هو المدّهِ بالسّجاعة أم لتثييط عزمته. ومع ذلك فتح حبة الدّرة وكم كانت دهشة الحاضرين كبيرة عندما سحب قطعة قماشٍ طولها أربعمئة ذراع في غاية الرّوعة وعليها رُسِمَت جميع العصافير والحيوانات والأسماك والأشجار والفواكه والنباتات والصّخور ونوادير البحر وأصدافه والشمس والقمر

والنجوم والكواكب والأجرام السماوية وكان هنالك أيضاً صورُ الملوك والحكام الآخرين الذين كانوا ولاة ذلك الزمان، وصور نسائهم وعشيقاتهم وأولادهم وأفراد رعاياهم حتى أصغر صعلوكٍ فيهم. وكلُّ في بلاده يمثل الدَّورَ الذي يقوم به مرتدياً لباسه وفق طرازه المحلي. شحَبَ وجه الملك عندما رأى قطعة القماش تلك؛ صار وجهه شاحباً بقدر ما كان وجه الأمير أحمر من جرّاء انفعاله بعدَ عناءِ التفتيشِ الطويل. جيءَ بالإبرة وأدخِلت قطعة القماش في ثقبها وأخرجت ستّ مرّات. لأذ الملكُ والأميران الكبيران بالصمت رغم أن جمال القطعة النادر انتزعَ منهم بين الفينة والأخرى صيحات الإعجاب الشديد.

أطلق الملك تهيدةً عميقة والتفت إلى أولاده قائلاً:

- لا شيء يستطيع مواساتي في شيخوختي بقدر هذا الاحترام الذي تظهِرونه لي. أمل إذاً أن تخوضوا تجربة أخرى. اذهبوا من جديد في رحلةٍ لمدة سنة ومن جاءني بأجمل فتاةٍ ليقترنَ بها فله العرشُ لدى إقامة زفافه. أجدهُ أمراً ضرورياً أن يتزوَّج من سيخلفني. اتعهد لكم أنني لن أُرجم بعدئذٍ تقديمَ المكافأة التي وعدتُ بها.

استاء الأمير استياءً شديداً من موقف الملك المجحف بحقه لأنَّ الكلب الصَّغير وقطعة القماش كانا يستحقَّانِ عشرَ ممالك بدلاً من واحدة، لكنّه كان ابناً أصيلاً ولم يشأ أن يخالف إرادة والده. ومن دون تأخير، صعَدَ في عربتته وتبعه كلُّ أفرادٍ موكبه متّجهاً إلى قِطته الغالية البيضاء. كانت تعرف موعداً وصوله: اليوم والساعة. وكان كلُّ شيءٍ في طريقه مفروشاً بالأزهار، ووضعت المباحرة الكثيرة من كلِّ جانب، وتصاعد الدخان العطر منها، وخاصةً في القصر. كانت القطة جالسة على سجادة فارسية في سرادق من قماشٍ ذهبي،

موضوع في بهو تستطيع منه أن تتحَيَّن عودته. استقبلته الأيدي المتفانية في خدمته، وتسَلَّقت جميع القطط المزاريب احتفاءً به وراحت تموء مواءً يائساً.

قالت له:

- حسناً يا ابن الملك ها قد عدتَ غير مكَلَّلٍ بتاج.

فأجابها:

- سيّدي، إنّ النعمَ التي أَعَدَقْتَهَا عَلَيَّ جَعَلْتَنِي مؤهلاً لِنَيْلِهِ لَكِنِّي مَقْتَنِعٌ أنّ الملكَ يَشَقُّ عَلَيْهِ التَّخَلِّيُّ عَنْهُ أَكْثَرَ ممَّا يَرُوقُ لِي أَنَا الحِصُولُ عَلَيْهِ.

قالت:

- لا يهَمُّ. يجب ألا نألَوْ جَهْداً في سبيل الفوزِ به. وسأُساعدُكَ في هذا الشأن. بما أنّه يتوجّب عليك أن تأتيَ بفتاةٍ جميلةٍ إلى قصر أبيك فإنّي سأبحثُ لك عن واحدةٍ تؤهِّلُكَ لِكَسْبِ الرّهان. والآن، لنبتَهج. لقد أمرتُ بتنظيمِ معركةٍ بحريّةٍ بينَ قَطَطِي والجُرذانِ الرهيبَةِ الموجودةِ في المنطقة. ربّما كان هذا سيُشبِّطُ من عزيمةِ قَطَطِي لأنّها تخشى الماء. ولكن، يتوجّب عليها التّأقلمُ مع جميعِ الطّروفِ وإِجادةِ كلِّ المهامّ قدرَ الإمكان.

أعجَبَ الأميرُ بالحكمةِ التي تتحلّى بها سيّدةُ القططِ وامتدّحها كثيراً وظلَّ يرفقتها على شرفَةٍ تطلُّ على البحر. كانت القطط تستقلُّ مراكبِ مؤلّفةٍ من قطع كبيرة من الفلّين وأبحرتْ على متنها بارتياح كبير. فيما كانت قوارب الجراذين مؤلّفة من قشورٍ مجموعَةٍ من البيض. تواصلتْ المعركةُ بِشِراسَةِ: ارتمّت الجردان في الماء وسبّحت أفضل من القطط فانحصرت وانهمزمت عشرين مرّة. لكنّ ميناغرويس أميرال أسطول القطط أنزل بجِنسِ الجراذين هزيمة نكراء. ولم تشأ

القطّة البيضاء أن يُمحي الجردانِ المساكين عن بُكرة أبيهم. كان لديها خطة سياسية تقوم على أن يبقى في البلاد جردان وفتران وإلا فإنّ رعاياها سيّعيشون عاقلين عن العمل وذلك سيء إليهم.

أمضى الأمير تلك السنة أسوأ بالسنوات الأخرى أي في صيد الأسماك والطيور واللّهو لا سيّما وأنّ القطّة البيضاء كانت تجيدُ لعب الشطرنج. لم يستطع الامتناع من وقتٍ لآخر عن توجيه الأسئلة مُجدداً إليها لكي يعرف أصل المعجزة التي جعلتها هرة ناطقة. سأها ما إذا كانت جنيّة أو أنها تحوّلت إلى هرة بفعل سحر ما. ولكن، بما أنها كانت متكتمة في أقوالها فإنّ إجاباتها كانت تأتي بشكلٍ موارب ودون معنى فعرف الأمير أنها لا تريد أن تتقاسم سرّها وإيّاها.

لا شيء يمضي بسرعة كالأيام التي يعيشها المرء وسط الهنأة وبعيداً عن الأحزان، ولو لم تكن الهرة مهمّمة بتذكير الأمير بموعد عودته إلى البلاط فمن المؤكّد أنّه كان سينسى الأمر. نبّهته قبل يوم من رحيله إلى أنّ عليه أن يصطحب معه أجمل الأميرات في العالم لأسيّما وأنّ ساعة زوال السحر المشؤوم للجنّيات قد دقت. لذا كان عليه أن يتخذ قراره بقطع رأسها وذبنها ورميها في النار بسرعة. فبادرها الأمير هاتفاً:

- أنا أيتها البيضاء! يا حبي! أنا! أو تظنين أنّي على هذه الهمجية لأكون قادراً على قتلِك؟ يا لقساوتك! لا شك أنّك تريدين أن تمّتحني مقدار وفائي لك. لكن كوني على ثقة أنّي غير قادرٍ على الإخلال بالصدّاقة والعرفان اللذين أدين بهما لك!  
فأجابت قائلةً:

- لا يا ابن الملك، لا آخذ عليك أيّ مأخذ ولا أتهمك بنكران الجميل. أعرف قدرك. ولكن، لا أنا ولا أنت نستطيع أن نغيّر مشيئة



القدر. افعل ما أتمناه عليك وسوف نعود أنا وأنت سعيدين من جديد، وسوف ترى. أقسم لك بشر في أنني صديقتك حقاً.

اغرورقت عينا الأمير الشاب بالدموع مرتين أو ثلاثاً، بمجرد التفكير في أنه يجب قطع رأس هرته الصغيرة وهي منتهى الجمال والظرف. قال أيضاً كل ما يمكن تخيله من الكلمات الرقيقة لكي تغيبه من هذه المهمة. فأجابته بإصرار إنها تريد أن تموت على يده، وإنها الوسيلة الوحيدة لكي يحول دون حصول أخوته على التاج. وأخيراً طلبت منه بإصرار كبير فاستل سيفه مرتجفاً ويدي مترددة، قطع رأس صديقتيه الطيبة وذنبها. وعندئذ رأى أجمل تحول يمكن تخيله. استطال جسد القطة البيضاء متحولاً إلى فتاة فائقة الجمال وليس لجمالها حد. كانت عيناها تسحران القلوب وعذوبتها آسرة، قامتها مهيبة وعلى سياتها التبل والتواضع، روحها ودود وحركاتها جذابة. وكان لطفها يفوق الوصف.

حين رآها الأمير، اندهل واعترته دهشة لذيذة وشعر وكأنه واقع تحت تأثير سحر ما. عجز عن الكلام. لم تكن عيناها متسعيتين بما يكفي ليجيل النظر فيها ولم يكن لسانه من الطلاقة بحيث يستطيع أن يعبر عن دهشته. ولكن الأمر كان مختلفاً تماماً لدى رؤيته عدداً لا يحصى من السيدات والسادة يمسون جميعاً على أكتافهم بجلود القطات والقطط التي كانوا في السابق وقد جاؤوا ليسجدوا عند قدمي الملكة ويعبروا لها عن فرحتهم برؤيتها من جديد في حالتها الطبيعية. استقبلتهم بالبشر والطيبة اللذين يعبران بشكل وافٍ عن شخصيتها. وبعد أن أحاطه أصدقاؤها لبعض الوقت، أمرتهم بأن يتركوها وحيدة مع الأمير.

وعندئذ قالت له:

- لا تظنّ يا سيدي أنني هرّة في الأصل أو أن نسبي كان غامضاً بين بني البشر. كان أبي ملكاً حاكماً على ستّ ممالك، وكان يحبّ أمي حبّاً جماً ويترك لها الحرية لتفعل ما تشاء. وكان لديها الشغف بالسفر. عندما كانت حبلِي بي، قرّرت الذهاب لزيارة جبل كانت سمعت عنه أشياء مذهلة. وأثناء المسير، قيل لها إنّ هناك قصرأ قديماً قريباً من المكان الذي تمرّ به تملكه الجنّيات. كان أجمل قصر في العالم أو كان يعتبر هكذا على الأقلّ وفق تقليدٍ شائع لأنه لا أحد يستطيع الدخول إليه. ولكن كان من المعروف بكلّ تأكيد أنّ أولئك الجنّيات كانت لديهنّ في بستانهنّ أفضل أنواع الثمار والأذها وأشهاها. وعندئذ ساورت أمي رغبة جامحة في تذوّقها فاتجهت إلى البستان. وصلت أمام باب ذاك القصر البديع الذي كان يلتصق كله بالذهب واللازورد ولكنها عبثاً قرّعت الباب. لم يظهر أحد، وبدا أنّه قصرٌ مات جميع ساكنيه. فزاد الغموض الذي يلفّ المكان من رغبته تلك وأرسلت الحراس لكي يأتوا لها بسلام ويتسلّقوا الجدران فيقدروا على القفز داخل البستان. وكانوا على وشك إتمام مهمّتهم لولا أنّ الجدران علّت فجأةً بسحر ما. وعُلقت السّلام الواحد إلى الآخر وكانت تتحطّم تحت ثقل أولئك الذين يتسلّقونها أو كانوا يفقدون أعضاءهم من جزاء السّقطات أو يُقتلون.

«اعترى الملكة بأس مطبق. كانت ترى أمامها أشجاراً كبيرة مثقلة بالفواكه الشهية التي تُغريها بالتهامها: إمّا تأكل منها أو تموت رغبة. لذا نصّبت خياماً فخمة جداً أمام القصر وبقيت هناك لسّة أسابيع مع كلّ أفراد الحاشية. لم تكن تنام ولا تأكل بل تتنهّد باستمرار غير متحدّثة إلاّ عن ثمار البستان الممتنعة عليها. وأخيراً أصابها مرضٌ خطير ولم يستطع أيّ كان أن يجلب دواءً يشفيها من ذلك المرض،

لأنَّ الجَنِيَّاتِ اللُّوَاقِي لا يَزْحَمْنَ بَقِيْنَ مَحْتَجِبَاتِ مَذْأَقَامَتِ بِالْقَرَبِ مِنْ قَصْرِهِنَّ. أَصَابَ ضَبَّاطَ الْمَلِكَةِ حَزَنٌ لا يُوَصِّفُ عَلَى حَالَتِهَا. لَمْ يَكُنْ يُسْمَعُ إِلَّا الْبِكَاءُ وَالْحَسْرَاتُ فِيمَا كَانَتْ الْمَلِكَةُ الْمُحْتَضِرَةَ تُطَالِبُ الَّذِينَ يَخْدُمُونَهَا بِإِحْضَارِ الْفَوَاكِهَ لَهَا. لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَرِيدُ مِنَ الْفَوَاكِهِ إِلَّا تَلْكَ الْمَمْتَنَعَةَ عَلَيْهَا.

«وَذَاتَ لَيْلَةٍ غَفَّتْ قَلِيلاً وَرَأَتْ لَدَى اسْتِيقَاضِهَا امْرَأَةً عَجُوزاً صَغِيرَةً بِشَعَةِ مُهْلَهَلَةٍ الْجَسْمِ، جَالِسَةً عَلَى كَنَبَةٍ عِنْدَ أَسْفَلِ سَرِيرِهَا. فَوَجِئَتْ بِوُجُودِهَا وَتَعَجَّبَتْ كَيْفَ أَنَّ وَصِيفَاتِهَا سَمَّخْنَ لَامْرَأَةً مَجْهُولَةً بِالِاقْتِرَابِ مِنْهَا. عِنْدئذٍ قَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ: «جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، نَجِدُ تَصَرُّفَكَ فِي غَايَةِ الْوَقَاحَةِ نَظْراً لِهَذَا الْإِصْرَارِ عَلَى أَنْ تَأْكُلِي مِنْ ثَمَارِنَا. وَلَكِنْ، بِنَا أَنَّ حَيَاتِكَ الْغَالِيَةَ فِي خَطَرٍ، فَقَدْ وَافَقْنَا أَنَا وَأَخَوَاتِي عَلَى أَنْ نَمْنَحَكَ بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَأْخُذِي وَطَالَمَا بَقِيَتْ هُنَا شَرْطُ أَنْ تَقْدَمِي لَنَا هِبَةً». هَتَفَتْ: «آه يَا جَدَّتِي الطَّيِّبَةَ قَوْلِي مَاذَا تَرِيدِينَ، أَعْطِيكَ مَمَالِكِي وَقَلْبِي وَرُوحِي شَرْطُ أَنْ أَحْصِلَ عَلَى ثَمَارِ مَنْ الْبَسْتَانِ، لَا أَسْتَطِيعُ شِرَاءَهَا بِسَعْرِ أَغْلَى مِنْ ذَلِكَ». قَالَتْ: «نَرِيدُ أَنْ تَمْنَحَنَا جَلَالَتِكَ الْفَتَاةَ الَّتِي تَحْمِلِينَهَا فِي أَحْشَائِكَ. عِنْدَمَا تَوْلَدُ، سَنَأْتِي لِأَخْذِهَا وَنُرَبِّبُهَا فِي كَنَفِنَا وَلَنْ تَنْقُصَهَا الْفَضَائِلَ وَالنَّعْمَ وَالْمَعَارِفَ، بَلْ سَنَمْنَحُهَا أَفْضَلَهَا. وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، سَتَكُونُ ابْنَتِنَا وَسَنَجْعَلُهَا سَعِيدَةً. لَكِنْ اْعَلَمِي أَنَّ جَلَالَتِكَ لَنْ تَرَاهَا ثَانِيَةً إِلَّا حِينَ يَحِينُ مَوْعِدُ زَوَاجِهَا. إِذَا وَافَقْتِ عَلَى اقْتِرَاحِنَا فَسَأَشْفِيكَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَأَصْطَحِبُكَ إِلَى بَسْتَانِنَا. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ فَسَوْفَ تَرَيْنَ أَمَامَكَ بِوَضُوحٍ مَا يَكْفِي لَكِي تَخْتَارِي مَا يَحِلُّو لَكَ. أَمَّا إِذَا كَانَ اقْتِرَاحِي لا يَعْجَبُكَ فَكُلِّ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهُ لَكَ: عَمَّتِ مَسَاءً يَا جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ، أَنَا ذَاهِبَةٌ لِأَنَامِ». أَجَابَتْ الْمَلِكَةُ: «مَهْمَا كَانَتْ شُرُوطُكَ قَاسِيَةً فَيَأْتِي أَوْافِقُ عَلَيْهَا

لأنها أفضل من الموت الذي ينتظرنى. أنا أكيدة أنني لن أعيش إلا يوماً واحداً بعد وسأفقد طفلي بموتي. اشفينى أيتها الجنية العارفة بالأسرار ولا تركينى لحظة واحدة دون أن تمنحني الامتياز الذي خصصتني به للتو».

«لمستها الجنية بعضاً ذهبية صغيرة وهي تقول لها: «لتشف جلالتك من كل الآلام التي تستبقها في هذا السرير». وأحست الملكة في الحال أنّ ثوباً ثقيلاً وخشناً جداً يُنزع عنها وكأنها كانت تزرع تحتها وأن ذلك الثوب كان في بعض الأماكن أثقل من غيره. يبدو أنّها المواضع التي كان فيها المرض على أشده. أمرت بمناداة جميع وصيفاتها وقالت لهنّ بوجهٍ بشوش إنّ صحته باتت ممتازة وإنها تريد التهوّض لأنّ أبواب القصر المسحور المحكّمة الإقفال والمحصّنة ستفتح لها وستأكل الثمار الشهية وتأخذ منها بقدر ما تشاء.

«ظنّت جميع الوصيفات أنّ الملكة تهذي وأنها تهجس بالفواكه المستهارة. وبدل أن يستجبنَ لطلبها، أخذنَ يبكينَ وذهبنَ لإيقاظ جميع الأطباء ليجيئوا ويعاينوا حال الملكة. جعلَ تريثهنّ الملكة تأس. طلبت أن تُحضر لها ثيابها على عجل فرُفضَ طلبها. فأصابها غضب شديد. قيل لها إنّها لا تزال تحت تأثير الحمى. لكن حين دخل الأطباء وجسّوا لها نبضها وقاموا بإجراءتهم المعهودة، لم يستطيعوا أن يُنكروا أنّها كانت في صحّة ممتازة. انتبهت وصيفاتها إلى فداحة الخطأ الذي ارتكبته بسبب تفانيهنّ من أجلها. حاولنَ أن يُصحّحنه بالباسها ثيابها على عجل طالبات المغفرة منها. هدأ روع الجميع، وسارعت الملكة للحاقٍ بالجنية العجوز التي كانت لا تزال في انتظارها.

«ودخلت الملكة إلى القصر حيث كان كل شيء كاملاً ما يجعله أجمل قصرٍ في العالم.»

وأضافت القطة البيضاء:

- بإمكانك أيها الأمير أن تصدق ذلك بسهولة لأنه القصر الذي نحن فيه. كانت جنيّتان واقفتين عند الباب أصغر سنّاً بقليل من تلك التي رافقت والدتي. وبادرتا لاستقبالها بالترحاب. توسّلت إليهما أن تأخذاها بسرعة إلى البستان نحو التعريشات التي توجد فيها أفضل الثمار. قالتا لها: «جميعها شهية ونستطيع مناداتها فتأتي إلينا إلا إذا كنتِ تجدين متعة في قطافها». قالت الملكة: «أتوسّل إليك، أريد أن أتمتع برؤية هذا السحر العجيب». عندئذٍ، وضعت المرأة العجوز أصابعها في فمها وصقرت ثلاث مرّات ثم هتفت: «مشمش، درّاق على أنواعه، كرز، خوخ، إجاص، قراصية، شمام، عنب مسكي، برتقال، حامض، كشمش، فراولة، توت،... لبي ندائي أيتها الفواكه!». قالت الملكة: «لكنّ الفواكه التي سمّيتها لتوك تنضج في مواسم مختلفة!». قلن لها: «ليس الأمر مماثلاً في بساتيننا. لدينا كلّ الفواكه الموجودة على الأرض وهي دائماً ناضجة ولذيذة ولا تفسد أبداً.

«وللحال، جاءت الفواكه متدحرجة زاحفة كيفما اتفق لكن دون أن تفسد أو تتسخ. انقضت الملكة عليها مثلهفة لإشباع رغبتها والتهمت أولى الفواكه التي وقعت تحت يدها بقضمة واحدة.

«بعد أن أشبعت رغبتها قليلاً، توسّلت إلى الجنيّات طالبة أن يدعنها تذهب إلى العرائش لكي تتمتع بالنظر إلى الثمار قبل قطافها». قالت الجنيّات الثلاث: «نوافق بالطبع، لكن لا ننسي الوعد الذي وعدتنا به إذ لم يعد مسموحاً لك النكث به». أجابت: «أنا مقتنعة بأنّ الأمور ستجري على ما يُرام معكّن، ويبدو لي هذا القصر جميلاً جداً. ولو أنّني لا أحبّ زوجي الملك كثيراً لبقيتُ فيه. لذا، لا تحشين شيئاً، لن أخلّ بوعدتي». فتحت الجنيّات لها كلّ أبواب حدائقهنّ وجميع

الجنان المسورة وهنّ في غاية السرور، بقيت هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال غير راغبة في الخروج أبداً لشدة ما وجدت الفواكه لذيذة. وقطفت منها لتخزينها. وبما أنها لا تفسد أبداً فقد شحنت منها حمولة أربعة آلاف بغل اقتادتها معها. وأعطتها الجنّيات إضافة إلى الفواكه سلالاً من الذهب مرهفة الصنع لكي تضع الثمار فيها وأشياء أخرى نادرة ونفيسة الثمن. ووعدنّ والدتي بأن يعملنّ على تربيتي كأميرة وأن يجعلنني كاملة ويخترن لي عريساً ملائماً، وأنهنّ سيُعلمنّها بموعد عرسي ويأملنّ فعلاً أن تأتي لحضوره.

«سرّ الملك كثيراً لعودة الملكة. وعبر أفراد الحاشية كلهم عن فرحتهم. وأقيمت الحفلات الراقصة والتنكرية وسباقات الخيل والمآدب حيث قدّمت الفواكه التي جلبتها الملكة وكأنها أطيب نادرة. وكان الملك يؤثر تناولها على كل ما يُقدّم له. لم يكن يعلم شيئاً عن المعاهدة التي عقدتها زوجته مع الجنّيات. كان يسألها غالباً عن البلاد التي ذهبت إليها وأتت منها بتلك الأشياء اللذيذة جداً. وكانت تجيبه تارةً أنها مجلوبة من أحد الجبال المنيعة وتارةً أخرى من ذلك الوادي أو من ذلك البستان أو تلك الغابة الكبيرة. تعجّب الملك من هذا التناقض في أقوالها. وخطر له أن يسأل مرافقها عن مصدر الفواكه لكنّ الملكة كانت حطرت عليهم أن يتحدثوا لأحد عن المغامرة التي خاضتها فالترّموا الصمت. وأخيراً، ساور القلق الملكة بشأن وعدها للجنّيات، وإذ رأت أن زمن وضعها اقترب، انتابتها كآبة مخيفة. كانت تطلق التهنّيدات بشكل متواصل وتغيّرت تصرّفاتا بشكل ملحوظ ما أثار قلق الملك وحثّها على أن تُفصّح له عن سبب حزنها. وبعد جهد جهيد وأخذ وردّ، أخبرته كل شيء عن مغامرتها مع الجنّيات وبأنها وعدتهنّ بأنها ستمنحهنّ الطفلة التي ستنجبها.

هتف الملك: «ماذا! ليس لدينا أولاد، وتعرفين رغبتى الجارفة العارمة في أن أرزق بولد. وها إنك في سبيل الحصول على تَفَاحَتَيْنِ أو ثلاث يصل بك الأمر إلى حدٍّ وهبِ ابنتك؟ لا شك بأنك لا تكفين لي أيِّ حُبٍّ!». وعندئذٍ أمطَرَهَا بِالْمَلَامَةِ فَشَعَرَتْ أُمِّي أَنَّهَا سَتَمَتِ الْمَاءَ. لكنّه لم يكتفِ بذلك بل احتَبَسَهَا فِي أَحَدِ الْأَبْرَاجِ وَوَضَعَ حِرَاساً مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِكَيْ يَمْنَعَ عَلَيْهَا أَنْ تَرَى أَحَدًا أَوْ تَتَعَاطَى مَعَ أَحَدٍ إِلَّا الضَّبَّاطِ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي خِدْمَتِهَا مُسْتَبَدِّلاً بِهِمْ أَوْلَادَكَ الَّذِينَ رَافَقُوهَا إِلَى قَصْرِ الْجَنِّيَّاتِ.

«أثارَ تدهور العلاقة بين الملك والملكة استياءَ الحاشيةِ الشديد. سادَ الحزنُ البلاطَ وتخلَّى الجميعُ عن الملابس الفاخرة ليرتدي الثياب التي تليقُ بجوِّ الحزن العام. والتزَمَ الملكُ من جهته موقفاً مفرطاً في تشدده وقسوته. لم يعد يرى زوجته. وعندما ولدتني جاء بي إلى القصر لكي يربيني فيما هي بقيت سجينه بُرجها وتعاستها الفائقة. كانت الجنّيات على علم بما حصلَ وساءَ هنَّ الأمر. أرذَنَ الحصولَ عليّ وكانني ملكٌ لهنَّ أو كأنَّ احتفاظَ والدي بي سرقة ارتكبت بحقهن. وقبل أن يسعينَ للانتقام، أرسلنَ فداً كبيراً إلى الملك ليُبلِغَنَّهُ بضرورة أن يخلي سبيل الملكة، ويرجونه أيضاً أن يسلمني إلى الوفد لكي يعملنَ على تربيّتي في كنفهن. كان أعضاء الوفد أقزماً مشوهي الخلقة وليست لديهم الموهبة في إقناع الملك بإرادة الجنّيات. رفض مطالبهم رفضاً قاطعاً، ولو لم يرحلوا على وجه السرعة لكانَ حصلَ ما هو أسوأ من ذلك.

«عندما علمت الجنّيات بنوايا أبي، استنكرنَ موقفه أيّما استنكار وأنزلنَ بممالكه الست كلَّ الشرورِ الممكنة التي يعرفنها. أرسلنَ تينياً مرعباً ملاً بِسُمِّهِ كُلِّ مَكَانٍ يمرُّ به؛ والتهم النَّاسَ والأطفالَ وقضى

على الأشجار والنبات بِنَفْسِهِ الحارق.

«وَجَدَ الْمَلِكُ نَفْسَهُ فِي وَرْطَةٍ لَا خَلَاصَ مِنْهَا. اسْتَشَارَ جَمِيعَ حُكَمَاءِ مَمْلَكَتِهِ عَمَّا يُمْكِنُ فَعَلَهُ لِكَيْ يُجَنَّبَ رِعَايَاهُ الْكُورَاثَ الَّتِي أَلَمَتْ بِهِمْ وَيُرْزَحُونَ تَحْتَ وَطْأَتِهَا. نَصَحُوهُ بِأَنْ يَرْسَلَ فِي طَلَبِ أُمَهْرِ الْأَطْبَاءِ فِي الْعَالَمِ وَإِحْضَارِ أَنْجَعِ الْأَدْوِيَةِ لِمُعَالَجَةِ رِعَايَاهُ.

«وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، أَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُفْرِجَ عَنِ الْمَجْرِمِينَ الْمَحْكُومِينَ بِالْإِعْدَامِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا رَغْبَتَهُمْ فِي مُحَارَبَةِ التَّنِينِ. اسْتَحْسَنَ الْمَلِكُ هَذِهِ النَّصَائِحَ فَعَمِلَ عَلَى تَنْفِيزِهَا وَلَمْ يُسْفِرْ ذَلِكَ عَنْ آيَةٍ نَتِيجَةَ مُرْضِيَةٍ لِأَنَّ الْوَفِيَّاتِ اسْتَمَرَّتْ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ الْوُقُوفَ فِي وَجْهِ التَّنِينِ الَّذِي كَانَ يَلْتَهُمْ كُلٌّ مِنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ. عِنْدئِذٍ لَجَأَ الْمَلِكُ إِلَى إِحْدَى الْجَنِّيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ رَاعِيَتَهُ مِنْذُ نِعُومَةِ أَظْفَارِهِ. كَانَتْ قَدْ صَارَتْ عَجُوزًا طَاعِنَةً فِي السَّنِّ وَلَمْ تَعُدْ تَقْوَى عَلَى التَّهْوِضِ. ذَهَبَ إِلَيْهَا وَعَاتَبَهَا أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَنَّهَا تَرَى اضْطِهَادَ الْقَدْرِ لَهُ وَلَا تَقْدَمُ لَهُ الْمَعُونَةَ. قَالَتْ لَهُ: «وَكَيْفَ تَرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ وَقَدْ أَثَرْتَ غَضَبَ شَقِيقَاتِي اللَّوَاتِي يَتَسَاوَيْنَ مَعِي فِي الْقُوَّةِ. ثُمَّ إِنَّهُ يَنْدُرُ أَنْ تُعَادِي بَعْضُنَا بَعْضًا. فَكَّرْ بِالْأُخْرَى فِي تَهْدِئَةِ رُوعِهِنَّ بِمَنْحِهِنَّ ابْنَتَكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ مِلْكُهُنَّ. ثُمَّ لِمَاذَا وَضَعْتَ الْمَلِكَةَ، هَذِهِ الْمَرْأَةَ اللَّطِيفَةَ، فِي ذَاكَ السَّجْنِ الْخَانِقِ؟ مَاذَا فَعَلْتَ لَكَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ لِكَيْ تَعَامِلَهَا بِهَذَا السَّوِّءِ؟ خَذْ قَرَارًا بِأَنْ تَفِيَّ بِالْوَعْدِ الَّذِي قَطَعْتَهُ الْمَلِكَةَ هُنَّ. أَوْكَدْ لَكَ أَنَّهُنَّ سَيَغْمُرُنَّكَ بِالْخَيْرَاتِ.»

«لَمْ يَجِدِ الْمَلِكُ، الَّذِي كَانَ يُحِبُّنِي كَثِيرًا، وَسِيلَةَ أُخْرَى لِإِنْقَاذِ مَمَالِكِهِ وَتَخْلِيصِهَا مِنَ التَّنِينِ الْمُشْرُومِ. قَالَ لِصَدِيقَتِهِ الْجَنِّيَّةِ إِنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الْأَخْذِ بِكَلَامِهَا وَإِنَّهُ يَرُغِبُ فَعَلًا فِي تَسْلِيمِي لِلْجَنِّيَّاتِ بَعْدَ أَنْ أَكَّدَتْ لَهُ أَنَّهُنَّ سَيَغْمُرُنِّي بِالْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَيَعَامِلُنَنِي كَأَمِيرَةٍ وَقَالَ أَيْضًا إِنَّهُ سَيُطْلَقُ سَرَّاحَ الْمَلِكَةِ وَيُرْجَعُهَا إِلَى الْقَصْرِ، وَإِنَّهَا مَا عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تُحَدِّدَ لَهُ إِلَى



مَنْ يَعْهَدُ بِأَمْرِي لِاصْطِحَابِي إِلَى قَصْرِ الْجَنِّيَّاتِ. قَالَتْ لَهُ: «يَجِبُ أَنْ تَحْمِلَهَا فِي مَهْدِهَا إِلَى جَبَلِ الْأَزْهَارِ وَتَضَعَهَا هُنَاكَ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْقَى فِي الْجَوَارِ لِتَكُونَ شَاهِداً عَلَى الْاِحْتِفَالِ الَّذِي سَيُقَامُ عَلَى شَرَفِهَا». أَجَابَهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ سَيَذْهَبُ فِي غَضُونٍ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ إِلَى الْجَبَلِ بِرَفَقَةِ الْمَلِكَةِ، وَإِنَّ عَلَيْهَا أَنْ تُحْطِرَ شَقِيقَاتِهَا السَّاحِرَاتِ بِالْأَمْرِ لِيَفْعَلْنَ مَا هُوَ مَنَاسِبٌ.

«مَا إِنْ عَادَ إِلَى الْقَصْرِ حَتَّى أُرْسَلَ فِي طَلْبِ الْمَلِكَةِ، وَشَاءَ أَنْ يَعْوِضَ بِمِظَاهِرِ الْحَنُوقِ وَالْأَبْتِهَةِ عَنْ غَضَبِهِ وَغَيْظِهِ حِينَ أَمَرَ بِاعْتِقَالِهَا. كَانَتْ مُحْبَبَةً جَدًّا وَهَيْئَتُهَا مُتَبَدِّلَةً تَمَامًا بِحَيْثُ شُقَّ عَلَيْهِ التَّعَرُّفُ إِلَيْهَا لَوْلَا أَنَّ قَلْبَهُ حَدَّثَهُ بِأَنَّهَا هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَ يُحِبُّهَا بِشُغْفٍ. تَوَسَّلَ إِلَيْهَا دَائِمًا أَنْ تَنْسِيَ الْإِسَاءَةَ الَّتِي ارْتَكَبَهَا بِحَقِّهَا مُؤَكِّدًا لَهَا أَنَّهَا الْمَرْءَةُ الْأَخِيرَةَ الَّتِي يَعَامِلُهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ. أَجَابَتْهُ بِأَنَّهَا اجْتَذَبَتْ الشَّرَّ بِسَبَبِ تَهَوُّرِهَا حِينَ وَعَدَتْ الْجَنِّيَّاتِ بِمَنْحِهِنَّ ابْتِغَاءً، وَأَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَشْفَعُ بِهَا لَهَا هُوَ الْأَلْمُ الَّذِي تَكَابَدَهُ. أَعْلَمَهَا أُخِيرًا بِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَسَلِّمَنِي إِلَيْهِنَّ. اعْتَرَضَتْ الْمَلِكَةَ عَلَى هَذَا الْمَسْعَى. يَبْدُو أَنَّهُ مُقَدَّرٌ لِي أَنْ أَكُونَ دَوْمًا مَوْضِعَ خِلَافٍ بَيْنَ وَالِدِيَّ. وَبَعْدَ أَنْ انْتَحَبَتِ وَالِدَتِي وَبَكَتْ دُونَ أَنْ تَنَالَ مَا تَتَمَنَّا (لَأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ رَأَى الْعَوَاقِبَ الْمَشْؤُومَةَ الْمُرْتَبَّةَ عَلَى عَدَمِ تَسْلِيمِي لِلْجَنِّيَّاتِ، وَكَيْفَ أَنَّ أَفْرَادَ رَعِيَّتِنَا كَانُوا يَمُوتُونَ بِاسْتِمْرَارٍ ضَحَايَا الْأَخْطَاءِ الَّتِي اقْتَرَفَتْهَا الْعَائِلَةُ الْمَلِكِيَّةُ)، رَضَخْتُ أُخِيرًا لِلْأَمْرِ وَأَقِيمَتِ الْاسْتِعْدَادَاتُ لِلْاِحْتِفَالِ.

«وُضِعَتْ فِي مَهْدٍ مَصْنُوعٍ مِنْ عَرَقِ اللَّوْلُؤِ وَمَزِينٍ بِأَنَاقَةٍ وَفَنَّ رَفِيعِينَ، وَكَانَتْ أَكَالِيلُ الْأَزْهَارِ وَالْكَشَاكِشِ تَتَدَلَّى مِنْ جَوَانِبِهِ. أَمَّا الْأَزْهَارُ فَمَصْنُوعَةٌ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ الْمُنَوَّعَةِ الْأَلْوَانِ الَّتِي تَعْرَسُ فِيهَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ فَتَشْعَشَعُ مَبْهَرَةً كُلِّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا. وَكَانَتْ رَوْعَةٌ مَلَابِسِي تَفُوقُ رَوْعَةَ الْمَهْدِ حَيْثُ إِنَّ جَمِيعَ شَرَائِطِ

أَقْمِطِي صُنَعْتَ مِنَ اللَّالِئِ الضَّخْمَةِ. وَكَانَتْ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ أَمِيرَةً مِنَ الْأَسْرَةِ الْمَلِكِيَّةِ يَرْفَعُنِي عَلَى مَحْمَلٍ خَفِيفٍ جَدًّا. وَكُنَّ يَضَعْنَ زِينَةً مُخْتَلِفَةً الْوَاحِدَةَ عَنِ الْأُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لِهِنَّ أَنْ يَرْتَدِينَ أَلْوَانًا أُخْرَى غَيْرَ الْأَبْيَضِ رَمْزًا لِبَرَاءَتِي، وَرَافَقَنِي جَمِيعُ أَفْرَادِ الْحَاشِيَةِ، كُلُّ حَسَبٍ مَوْقَعِهِ.

«وفيمَا كانوا يصعدونَ إلى الجبل، سُمِعَتْ سَمْفُونِيَّةٌ عَذْبَةٌ تَقْتَرِبُ مِنَ الْمَكَانِ. وَأَخِيرًا ظَهَرَتِ الْجَنِّيَّاتُ وَكُنَّ سِتًّا وَثَلَاثِينَ. كُنَّ تَوْسَلْنَ إِلَى صَدِيقَاتِهِنَّ الصَّالِحَاتِ لِكِي يَرِافِقْنَهُنَّ. وَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ جَالِسَةً فِي صَدْفَةٍ مِنَ اللَّوْلُؤِ أَكْبَرَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي خَرَجْتَ بِهَا فِينُوسُ مِنَ الْبَحْرِ<sup>(1)</sup>. وَكَانَتْ أَحْصَنَةُ بَحْرِيَّةٌ لَا تَتَقَنَّ السَّيْرَ عَلَى الْبَرِّ تَجْرَهُنَّ بِأَبْهَةِ عَظِيمَةٍ وَكَأَنَّهِنَّ الْمَلَكَاتُ الْأَوَّلُ فِي الْكُونِ لَكُنَّهِنَّ كُنَّ عَلَى آيَةِ حَالٍ طَاعِنَاتٍ فِي السَّنِّ وَفِي غَايَةِ الْقُبْحِ. حَمَلْنَ أَغْصَانِ زَيْتُونٍ لِكِي يُلْمَحْنَ لِلْمَلِكِ أَنَّهُنَّ يُقَدَّرْنَ خُضُوعَهُ لِهِنَّ. وَعِنْدَمَا حَمَلْتَنِي دَاعِبْنِي بِحَنَانٍ فَائِقٍ وَبَدَوْنَ وَكَأَنَّ جِلَّ مَا يَطْمَحْنَ إِلَيْهِ هُوَ أَنْ يَجْعَلَنِي سَعِيدَةً.

«كَانَ التَّيْنُ الَّذِي سَاعَدُهُنَّ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنَ وَالِدِي يَسِيرَ خَلْفَهُنَّ مَوْثِقًا بِسَلْسَلٍ مِنَ الْأَمْسِ. أَخَذْتَنِي بَيْنَ أَذْرَعِيهِنَّ وَدَاعَبْنِي كَثِيرًا وَمَنْحَنِّي فِضَائِلَ عَدِيدَةً ثُمَّ بَدَأْنَ رَقِصَةَ الْجَنِّيَّاتِ. وَكَانَتْ رَقِصَةُ مَبْهَجَةٍ جَدًّا. لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَتَخَيَّلَ كَيْفَ أَخَذَتْ أَوْلِيكَ السَّيِّدَاتِ الْمَسْنَاتِ يَقْفِرْنَ وَيُنْتَظِنْنَ. ثُمَّ اقْتَرَبَ التَّيْنُ الَّذِي كَانَ قَدْ التَّهَمَ الْعَدِيدَ مِنَ النَّاسِ زَاحِفًا وَجَلَسَتْ فَوْقَهُ الْجَنِّيَّاتُ الثَّلَاثُ اللَّوَاتِي وَعَدَّتْهُنَّ أُمِّي بِي. وَضَعْنَ مَهْدِي وَسَطَّهُنَّ وَضَرَبْنَ التَّيْنَ بَعْصًا فَبَسَطَ فِي الْحَالِ أَجْنِحَتَهُ الْكَبِيرَةَ الْمَحْرَشِفَةَ الْمَلْتَمِعَةَ بِأَلْفِ لَوْنٍ غَرِيبٍ. وَهَكَذَا

(1) فِي الْمِثُولُوجِيَا الرُّومَانِيَّةِ، تُولَدُ إِلَهَةُ الْجَمَالِ فِينُوسُ (تَقَابَلَهَا أْفْرُودِيْتُ عِنْدَ الْإِغْرِيْقِ) مِنْ زَيْدِ الْبَحْرِ، وَيَقُودُهَا إِلَهُ التَّسِيمِ إِلَى الْيَابِسَةِ حَيْثُ تَأْتِي وَاقِفَةً عَلَى صَدْفَةٍ.

اتَّجَهَنَ إِلَى الْقَصْرِ. وَإِذْ رَأَيْتِي أُمِّي فِي الْفِضَاءِ مَوْضُوعَةً عَلَى مَتْنِ ذَلِكَ التَّيْنِ الْمَسْعُورِ، لَمْ تَسْتَطِعِ الْاِمْتِنَاعَ عَنِ إِطْلَاقِ صَرَخَاتِ حَادَّةٍ فَبَدَأَ الْمَلِكُ يُؤَاسِيهَا مُؤَكِّدًا لَهَا بِأَنَّ صَدِيقَتَهُ الْجَنِّيَّةَ أَعْطَتْهُ وَعَدًّا بِأَنَّ مَكْرُوهَهَا لَنْ يَصِيبَنِي وَبِأَنَّي سَيُعْتَنِي بِي كَمَا لَوْ كُنْتُ فِي قَصْرِهِ بِالذَّاتِ. وَهَذَا رُوعَهَا مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُؤَلِّمًا جَدًّا بِالنِّسْبَةِ لَهَا: أَنْ تَحْصِرَنِي لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَأَنْ تَكُونَ مَعِيَ السَّبَبَ الْوَحِيدَ فِي خَسَارَتِي لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَرْغَبْ فِي ثَمَارِ الْبَسْتَانِ لَكُنْتُ بَقِيْتُ فِي مَمْلَكَةِ أَبِي وَلَمَّا حَلَّتْ بِي كُلُّ الْمَصَائِبِ الَّتِي سَأُحَدِّثُكَ عَنْهَا لِاحِقًا.»

وَأُردفت:

- لِيَكُنْ مَعْلُومًا لَدَيْكَ يَا ابْنَ الْمَلِكِ أَنَّ حَارِسَاتِي الْجَنِّيَّاتِ تَعْمَدُنَ بِنَاءَ بَرَجٍ لِيُسَكِّنَنِي فِيهِ حَيْثُ هُنَاكَ أَلْفُ جَنَاحٍ بَدِيعٍ لِكُلِّ فَصُولِ السَّنَةِ وَفَرَشْنَهُ بِأَثَاثٍ رَائِعٍ وَزُودْنَهُ بِكُتُبٍ مَهْمَةٍ وَلَكِنْ لَا يُوْجَدُ بَابٌ فِي ذَلِكَ الْبَرَجِ وَكَانَ يَتَوَجَّبُ الدَّخُولَ إِلَيْهِ دَوْمًا عَبْرَ التَّوَافِذِ الشَّاهِقَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ حَدِيقَةٌ جَمِيلَةٌ فِي الْبَرَجِ مَزْدَانَةٌ بِالْأَزْهَارِ وَالتَّوَافِيرِ وَعِرَائِشِ النِّبَاتَاتِ الَّتِي تَقِي مِنَ الْحَرِّ فِي أَيَّامِ الْقَيْظِ الشَّدِيدِ. وَفِي ذَلِكَ الْمَكَانِ عَمِلْتُ الْجَنِّيَّاتِ عَلَى تَرْبِيَّتِي بِعُنَايَةٍ فَاقَتْ كُلَّ مَا وَعَدَنَ بِهِ الْمَلِكَةُ. كَانَتْ ثِيَابِي عَلَى آخِرِ طَرَازٍ وَفِي غَايَةِ الرُّوعَةِ بِحَيْثُ إِنَّ مَنْ رَأَى ظَنَّنَ أَنَّهُ يَوْمَ عَرَسِي. وَلَقَّتَنِي الْجَنِّيَّاتُ كُلَّ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ سَنِّي وَأَضْلِي التَّبِيلَ وَلَمْ أَعْدَبْهُنَّ كَثِيرًا لِأَنَّي كُنْتُ أَدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِسَهُولَةٍ قَصُوى: كُنْتُ فِتَاةً رَقِيقَةً وَتِلْكَ الرِّقَّةُ رَاقَتْ لَهْنًا كَثِيرًا، وَبِمَا أَنَّنِي لَمْ أَرَّ سِوَاهُنَّ كُنْتُ أَعِيشُ أَيَّامِي بِهِنَاءَةٍ وَكُنْتُ سَأُظَلُّ هَكَذَا بِقِيَّةِ حَيَاتِي لَوْ كَانَ مَقْدَرًا لِي أَنْ أَبْقَى هُنَاكَ.

«كَرَّ يَأْتِيَنَ دَوْمًا لِرُؤْيَايَ مَعْتَلِيَّاتِ ظَهَرَ التَّيْنِ الْغَضُوبِ الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ. لَمْ تَكُنِ الْجَنِّيَّاتُ يَحْدِثُنِي أَدْبًا لَا عَنِ الْمَلِكِ وَلَا عَنِ

الملكة. كُنْ يُسَمِّنِي ابْتَهَنُّ وَاَعْتَقْدُنِّي كَذَلِكَ. لَا أَحَدَ مَعِي فِي الْبَرَجِ لِيُونَسَ وَحَدَّثِي إِلَّا بَيْغَاءَ وَكَلْبَ صَغِيرٍ أُعْطَيْتَنِي إِيَّاهُمَا وَكَانَا يَتَحَلَّيَانِ بِمَلَكَةِ الْفَهْمِ وَيَتَكَلَّمَانِ بِطَلَاقَةِ مَدْهَشَةٍ.

«كَانَ أَحَدُ جَوَانِبِ الْبَرَجِ مَبْنِيًّا عَلَى طَرِيقِ مَجْوَفَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْأَخَادِيدِ وَالْأَشْجَارِ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا، وَلَمْ أَرْ أَحَدًا عَلَيْهَا مِنْذُ احْتَبَسْتَنِي. لَكِنْ ذَاتَ يَوْمٍ كُنْتُ مَتَكِّئَةً إِلَى التَّافِذَةِ أَتَحَدَّثُ إِلَى بَيْغَائِي وَكَلْبِي فَسَمِعْتُ ضَجَّةَ غَامَظَةٍ. التَّفَّتْ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ فَرَأَيْتُ فَارِسًا شَابًا يَتَوَقَّفُ لِيَسْتَمَعَ إِلَى حِوَارِنَا. لَمْ أَرْ مِثْلَهُ إِلَّا فِي الرِّسُومِ وَلَمْ أَشْعُرْ بِالِاسْتِيَاءِ مِنْ ذَلِكَ اللَّقَاءِ الْمَفَاجِئِ وَلَمْ أَبْهَ قَطُّ بِالْخَطَرِ النَّاجِمِ عَنِ رُؤْيِي لِذَلِكَ الْكَائِنِ الْجَمِيلِ. كَلَّمَا أَمَعَنْتُ النَّظَرَ فِيهِ شَعُرْتُ بِمَتْعَةٍ مَتَزَايِدَةٍ. انْحَنَى لِي إِحْتِرَامًا وَتَبَادَلْنَا التَّنَطُّرَاتِ. بَدَأَ لِي أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْهِ إِيجَادُ وَسِيلَةٍ لِيَسْمِعَنِي صَوْتَهُ لِأَنَّ نَافِذَتِي كَانَتْ شَاهِقَةً. خَشِيْتُ إِنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنْ تَسْمَعَهُ الْجَنِّيَّاتُ لِأَنَّهُ كَانَ عَارِفًا أَنَّنِي فِي قَصْرِهِنَّ.

«وَهَبَطَ اللَّيْلُ دَفْعَةً وَاحِدَةً أَوْ بِالْأَحْرَى هَبَطَ اللَّيْلُ دُونَ أَنْ نَشْعُرَ بِمُرُورِ الْوَقْتِ. ضَرَبَ عَلَيَّ بَوْقُهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَأَنْهَجَنِي بِبِضْعَةِ الْخَانَ بَوْقِيَّةٍ ثُمَّ رَحَلَ دُونَ أَنْ أَعْرِفَ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ لِأَنَّ الظَّلَامَ كَانَ دَامِسًا. وَظَلَلْتُ أَحْلَمُ، وَلَمْ أَشْعُرْ حَتَّى بِاللَّذَّةِ الَّتِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِهَا دَوْمًا وَأَنَا أَتَحَدَّثُ إِلَى كَلْبِي وَبَيْغَائِي. وَكَانَا يَقُولَانِ لِي أَجْمَلُ الْأَشْيَاءِ فِي الْعَالَمِ لِأَنَّ حَيَوَانَاتَ الْجَنِّيَّاتِ تَصْبِحُ ذَكِيَّةً. لَكِنِّي كُنْتُ مَنشُغَلَةٌ جَدًّا بِأَحْلَامِي وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ ضَبْطِ النَّفْسِ. لَاحِظَ الْبَيْغَاءُ ذَلِكَ، كَانَ مُرْهَفًا وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَجُولُ فِي رَأْسِهِ.

«لَمْ أَتَوَّانَ عَنِ الْاسْتِيقَازِ مَعَ الصَّبَاحِ. هُرِعْتُ إِلَى نَافِذَتِي وَبَقِيْتُ مِنْدَهِيئَةً أَنْدِهَاشًا لِذِيذًا لِأَنِّي لَمَحْتُ فِي أَسْفَلِ الْبَرَجِ فَارِسِي الشَّابَّ. كَانَ يَرْتَدِي مَلَابَسَ بَدِيعَةٍ. كَلَّمَنِي عَبْرَ بَوْقٍ كَانَ يَحْمِلُ صَوْتَهُ إِلَيَّ،

وقال لي إنه لم يعد باستطاعته الامتناع عن رؤيتي من ذلك اليوم وحتى باقي أيام حياته لأن ذلك الامتناع يعني بالنسبة له الموت. سُرِزْتُ جداً لإطرائه وفي الوقت نفسه ساوَرَنِي القلق. لم أجرؤ على الردّ عليه لأنّه كان عليّ أن أصرخ بكلّ قواي فأجازف بأن تسمّعني الجنّيات قبل أن يصلّ صوتي إليه. رميته ببعض الأزهار وتلقّفها بمحبّة وكأنّها نعمة لا تُقدّر بثمن. قبلها مرّات عدّة وشكرني. وسألني فيما بعد إذا كنت أريد أن يأتي كلّ يوم في السّاعة نفسها ليقف تحت نافذتي. إذا كنت موافقة فلأرم له شيئاً ما. كان لديّ خاتم من الفيروز فانتشلته بسرعة من إصبعي ورميته له بكثير من اللّهفة مشيرةً له بأن يرحل في الحال، لأنني سمعت من الجهة الأخرى الضجّة التي تُحدثها الجنّية كاسرة التي كانت تمتطي تيّنها لتجلب لي غدائي.

«أول شيءٍ قالته لدى دخولها إلى غرفتي: «أشعر هنا بصوت رجل. فتش الغرفة أيها التّنين». آه، لو تعرف ماذا صار بحالي، تجمّدت أو صالي من الخوف. خفت أن يعبر من النّافذة الأخرى ويتبع الفارس الذي بدأت أهيّم به. قلت لها: «لكن يا أمّي الطيّبة (لأنّ الجنّية العجوز كانت تريدني أن أدعوها كذلك) لا بدّ أنّك تمزحين عندما تقولين إنّك تشمين صوت رجل، وهل للصوت رائحة؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فمن هو ذاك الشّجاع الباسل الذي يُغامر بتسلّق هذا البرج؟». أجابتنّي الجنّية: «ربّما كان ما تقولينه صحيحاً يا ابنتي. أنا مسرورة لرؤيتك تتكلّمين بهذا المنطق، وأشعر أنّ الحقد الذي أبيتّه للرّجال يصوّر لي أحياناً أنّهم لم يُعفوني من شرّهم». أعطتني طعامي ومكوّك حياكة قائلةً لي: «بعد تناولك الطّعام لا تنسي أن تغزلي لأنك لم تنسجي شيئاً البارحة وهذا سيُغضب شقيقاتي». أمّا أنا فكان بالي منشغلاً بالرجل المجهول، ممّا منع عليّ أن أوصل عملي.

«ما إن رَحَلْتُ حَتَّى رَمَيْتُ مَكْوَكَ الحِياكَةِ بهيئة عاصية وصعدتُ على السطح لأستكشفَ الرِّيفَ من بعيد. كنت أملكُ منظاراً ممتازاً ولا شيءَ يحدُّ من رؤيتي المنظر. التفتُ إلى كلِّ الجهاتِ ورأيتُ فارسي على أعلى جبل. كان يرتاح تحت خيمةٍ فخمةٍ من القماشِ الذهبيِّ مُحاطاً بحاشيةٍ كبيرة. أيقنتُ أنه ابن أحدِ الملوكِ المجاورينَ لقصرِ الجنّيات. وبها أنّي خشيتُ إن عادَ هوَ إلى البرجِ أن يكتشفه التّين الرّهيب، أمسكتُ ببغائي وأمرته بأن يطيرَ حتّى ذلك الجبلِ ليلتقيَ بالفارس الذي كان قد تحدّثَ إليّ وأن يتوسّلَ إليه من قبلي ألا يعودَ إلى البرجِ لأنني أخشى أن تتبّه حارساتي لوجوده وينصبنَ له فخاً.

«اضطلعَ البيغاءُ الذكيّ بمهمّته. ودُهِشَ الجميعُ لرؤيته يطير على جناح السّرعَة ثم يحط على كتف الأمير ويهمس له في أذنه. أحسّ الأمير بالفرح والحزن في آنٍ لتلك الرّسالة. كان الاهتمام الذي أبدية له يرضي غروره. لكنّ الصّعوبات التي تعترض طريقه وتحوّل دون لقاءه بي كانت تُثقلُ كاهله دون أن تنبيه عن مشروعه بنيلِ حظوته لديّ. طرحَ على البيغاءِ مائة سؤالٍ وأمطره البيغاءُ أيضاً بهائة سؤالٍ لأنّه كان فضولياً بطبعه وأرسلَ معه الملكُ خاتماً لي بدّلَ خاتمي الفيروزيّ. وكان أيضاً خاتماً فيروزيّاً لكنّه أجمل بكثير من خاتمي، منحوتاً على شكل قلب ومطوّقاً بحبّات الألباس. أضاف: «يُسْتَحْسَنُ بي أن أعتمدك رسولاً. هذا هوَ رسمي أعطيك إياه ولا تظهره إلا لسيدتك الرّائعة». علّق تحت جناحه رسمه وجلّب الخاتم في منقاره.

«انتظرتُ عودةَ رسولي الأخضر الصّغيرِ بفارغ الصّبر وكان ذلك الشّعور جديداً تماماً بالنسبة إليّ. قال لي إن من أرسلته إليه كان ملكاً عظيماً، وقد استقبله بأفضل طريقة ممكنة، وإنّ جلّ ما يريد في هذه

الحياة هو حُبِّي. حتى لو كان مجيئه إلى أسفل البرج محفوفاً بالمخاطر فإنه قد يتخلى عن كل شيءٍ إلا عن رغبته في رؤيتي. أثارت هذه الأخبار حيرة عميقة في داخلي فأخذتُ في البكاء. حاولَ البيغاء والكلب الصغير مواساتي بقدر ما يستطيعان لأنها كانا يحبّانني حبّاً جمّاً. ثم أعطاني البيغاء خاتم الأمير وأراني رسمه. أعتَرِفُ أنّه لم يسبق لي أن ساورني مثل ذلك الشعور بالارتياح الذي شعرتُ به آنذاك عندما تسنى لي أن أرى عن كذب ذلك الذي لم أره إلا من بعيد. بدا لي أكثر ظرفاً ممّا تصوّرت. وجّلت في خاطري أكثر من فكرة، بعضها فرح وبعضها الآخر حزين. وأمضيت وقتي مسترسلةً في أفكارٍ. لاحظت الجنيات اللواتي جئنَ لزيارتي انشغال بالي. قالت الواحدة للأخرى إنه يبدو عليّ السأم لذا يجب التفكير جيداً في العثور على زوج لي من سلالة الجنّ. وأخذنَ يحدثنني عن أزواج كُثُر واستوقفهنّ الملك القزم الذي يُدعى ميغونيه، وكانت مملكته تقع على مسافة خمسمائة فرسخ من قصرهنّ لكنّ ذلك لم يعن شيئاً لي. سمعَ البيغاء هذه النصيحة المهمّة وجاء يُعلمني بها قائلاً لي: «آه يا سيّدتى العزيزة، كم أرتي لحالك إذا أصبحتِ الملكة ميغونيت زوجة ميغونيه! إنه قرد مخيف. أنا نادم على قول ذلك لكنّ الملك الذي يحبّك قد لا يتّخذه خادماً يفتح الباب للضيوف». سألتها: «وهل رأيتَه من قبلُ أيّها البيغاء؟». أجابني: «أعتقد ذلك فقد رُبيتُ معه على أحد الأغصان». سألتها: «على غصن؟ كيف ذلك؟». فأجابني: «كما قلتُ لك، فله قائمتان كقائمتي صقر!

«أحزنتي هذا الخبر بشكل غريب. كنت أنظر إلى صورة الملك الساحر الشاب وفكرت: لم يزود البيغاء برسمه إلا ليحملني على رؤيته. ورُخت أقيم مقارنةً بينه وبين ميغونيه واستقرّ لديّ أن الموت

كان أجدَر بي من الاقتران بميغونيه المسخ.

«لم أتم طيلة الليل. كان البيغاء والكلب الصغير يتحدثان إليّ. غفوت قليلاً عند الصباح، وبما أنّ كَلْبِي كان لديه حاسة شمّ فائقة، اشتّم وجود الملك عند أسفل البرج. أيقظ البيغاء قائلاً: «أراهن أنّ الملك هنا». أجابه البيغاء: «اصمت أيها الثرثار، تبقى مفتوح العينين وصائح السّمع لأنك تستاء من راحة الآخرين». قال الكلب الطيب: «قل ما تشاء، أعرف أنّه هنا في أسفل البرج». أجابه البيغاء: «وأنا أعرف جيّداً أنّه ليس هنا! ألم أبلغه من قبل سيّدتي أنّ المجيء محظور عليه؟». فهتّف الكلب: «آه! فعلاً أقنعتني بكلامك وبحججك الدّامغة. إنّ الرّجل المغرّم لا يستشير إلاّ قلبه!». وعلى هذا بدأ يشدّ جناحي البيغاء بقوة ما حمّله على الغضب. استيقظت على صيحات البيغاء والكلب. أفصح لي عن سبب خلافهما فهزّعتني إلى نافذتي أو بالأحرى طرّت إليها. رأيت الملك الذي كان يؤشّر لي ويقول لي عبر بوقه إنّّه لم يعد يستطيع العيش من دوني، وإنّه يستحلّفني أن أجدّ وسيلة للخروج من بُرجي أو أن أسمح له بالدخول إليه. وكان يشهد جميع الأرباب والعناصر على أنّه سيتزوّجني في الحال وسيجعلني أكبر ملكات الكون.

«أمّرت البيغاء بأن يطيرَ إليه ويقول له إنّ أمنيته تبدو شبه مستحيلّة. إلاّ أنّني سوف أبذل كلّ ما في وسعي لأحقّق له ما يتمناه وفاءً منّي للوعد الذي قطعته لي. ثمّ استحلّفته ألاّ يأتي كلّ يوم لأنّ الجنّيات سيلاحظن ذلك وليس في الإمكان أن يؤمّن جانيهنّ.

«انسحب وهو في قمّة الفرّح للأمل الذي علّته به. ووجدتني في وضع يتسمّ بحرّج فائق لدى تفكيري بما وعدته به للتوّ. كيف الخروج من ذلك البرج حيث لا أبواب ولا مُغيث إلاّ البيغاء والجزو



الصَّغِير؟ ثُمَّ إِنِّي كُنْتُ فِي رِيْعَانِ الشَّبَابِ وَأَفْتَقِرُ إِلَى الْخَبْرَةِ وَإِلَى الشَّجَاعَةِ! عِنْدئذٍ اتَّخَذْتُ قَرَارِي بِعَدَمِ الْقِيَامِ بِأَيِّ مَسْعَى لَنْ أُنْجَحَ فِيهِ. وَأُرْسَلْتُ الْبَيْغَاءَ لِيَقُولَ لِلْمَلِكِ ذَلِكَ. أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ عَلَى مَرَأَى مِنْهُ. ثُمَّ كَلَّفَهُ بِأَنْ يَقْنَعَنِي بِالذَّهَابِ عِنْدَهُ لِأَكُونَ شَاهِدَةً عَلَى مَوْتِهِ أَوْ أَنْ أَقْبَلَ بِحَبْتِهِ. فَهَتَفَ الرَّسُولُ ذُو الرِّيشِ الْأَخْضَرَ قَائِلاً: «مَوْلَايَ إِنَّ سَيِّدَتِي تَمْلِكُ الرَّغْبَةَ وَلَكِنْ تَفْتَقِرُ إِلَى الْقَدْرَةِ».

«عِنْدَمَا أَعْلَمَنِي بِكُلِّ مَا جَرَى شَعَرْتُ بِلَوْعَةٍ أَكْبَرَ. جَاءَتِ الْجَنِيَّةُ كَاسِرَةً (هَذَا هُوَ لِقَبْهَا، لَفَرَطُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ عَنَفٍ) وَأَلْفَتْ عَيْنِي مَتَوَرِّمَتَيْنِ مَحْمَرَّتَيْنِ. قَالَتْ إِنِّي بِكَيْتٍ وَإِذَا لَمْ أُخْبَرْهَا عَنِ السَّبَبِ فَسَوْفَ تَحْرِقُنِي بِالنَّارِ. كَانَتْ تَهْدِيدَاتِهَا دَوْمًا عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الرَّعْبِ. أَجَبْتُهَا وَأَنَا أَرْتَجِفُ بِأَنِّي تَعَبْتُ مِنَ الْغَزْلِ وَأَحْتَاجُ إِلَى قِمَاشٍ مَشْبُوكٍ لِكِي أَصْطَادَ الْعَصَافِيرِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَأْتِي لِتَنْقُرَ الْفَوَاكِهِ مِنْ بَسْتَانِي. قَالَتْ لِي: «إِنَّ مَا تَتَمَنَّىهُ يَا بَنِيَّتِي لَا يَسْتَحِقُّ دَمَوْعَكَ. سَأَتِيكَ بِقِمَاشٍ مَشْبُوكٍ بِقَدْرِ مَا تَشَائِينِ». وَأَعْطَنِي إِيَّاهُ فِي الْحَالِ. لَكِنَّمَا حَذَّرْتَنِي قَائِلَةً إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ التَّفَكِيرَ أَقَلَّ بِالْعَمَلِ وَأَنْ أَصُوبَ الْإِهْتِمَامَ عَلَى جَمَالِي لِأَنَّ الْمَلِكَ مِيغُونِيهِ سَيَصِلُ عَمَّا قَرِيبٍ. ارْتَجَفْتُ غَضَبًا لِهَذَا الْخَبَرِ السَّيِّئِ وَلَمْ أَجِبْ بِشَيْءٍ».

«مَا إِذَا غَادَرْتُ حَتَّى بَدَأْتُ أَصْنَعُ شِبَاكًا بِوِاسِطَةِ تِلْكَ الْحِبَالِ وَقَدْ أَتَقَنْتُ صَنْعَهَا مَعَ أَنِّي لَمْ أَرْ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلِ. صَحِيحٌ أَنَّ الْجَنِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تَزُوْدُنِي بِهَا يَكْفِي وَكَانَتْ تَقُولُ لِي دُونَ تَوْقُفٍ: «وَلَكِنْ يَا بَنِيَّتِي، إِنَّ عَمَلَكِ شَبِيهُهُ بِعَمَلِ بِنْلُوبٍ<sup>(1)</sup> فَهُوَ لَا يَتَقَدَّمُ وَأَنْتِ لَا تَتَوَقَّفِينَ عَنِ مَطَالِبَتِي بِتَزْوِيدِكَ بِالْمَوَادِّ». قُلْتُ لَهَا: «وَلَكِنْ يَا أُمِّي الطَّيِّبَةُ، أَنْتِ

(1) بنلوب: زوجة أوليس، بطل الأوديسة، زعمت أمام خطابها في غيابها بأنها لن تزوج سواه قبل أن تكمل نسج بساط لأبني زوجها، وكانت تحل التسيج كلما اكتمل.

تتكلّمين كيفما يَحلّو لكِ، ألا ترين أنّي لا أعرف كيف أصنع الشباك  
 وأنّني أفسد كل شيءٍ وعليّ معاوذة العمل من جديد؟ ثم هل أنتِ  
 خائفةٌ من أن تصيبكِ الحيوط التي تجلبينها لي بالإفلاس؟». كان  
 مظهري البريء يبهجها مع أنها كانت ذات طبع غليظ وقاس جداً.  
 «أرسلتُ البيغاءَ ليقول للملك أن يأتي ذات مساءٍ تحت نوافذ  
 البرج وأنه سيجد السلمَ ويعرف البقية عندما سيأتي. وبالفعل،  
 أحكمتُ وضع السلمَ لأنني صممتُ على الرّحيل معه. لكنّ الملك،  
 عندما رآه، صعّد إليّ بعجلٍ ولم ينتظر حتّى أنزل إليه ثم دخل إلى  
 غرفتي حيث كنت هياتُ كل شيءٍ للرّحيل.

«أبهجني مرآه كثيراً فنسيتُ الأخطارَ المحدقة بنا. جدّد الملك كلَّ  
 وعوده واستخلفني أن أقبله زوجاً دون أيّ تأخير: أخذنا البيغاءَ  
 والكلب الصّغيرَ كشاهدين على زواجنا. ولم يسبق أن أقيم مثل ذلك  
 الزواج بين شخصين في مثل منزلتنا الرّفيعة هكذا ببساطة ودون أبهة  
 وصخب. ولم يسبق لقلبين أن كانا سعيدين مثل قلبينا.

«غادرتني الملك قبل طلوع التّهار. روّيت له خطة الجنّيات  
 الجهنّميّة التي تقوم على تزويجي بالملك الصّغير ميغونيه. وصفتُ  
 له هيئته فارتعب منه مثلي. لدى رحيله، بدت لي السّاعات طويلة  
 كالسنين. هُرعتُ إلى النّافذة وتبعته بنظراتي بالرّغم من الظّلمة. وكم  
 كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت في الفضاءِ عربيّة تجرّها سمندلات<sup>(1)</sup>  
 مجنّحة وتطوف بسرعة لا تستطيع العينُ تعقبها! كانت تلك العربيّة  
 مرافقة بالحراس الذين يمتطون نعامات. لم يتسنّ لي الوقت لانظرَ  
 ملياً إلى النّرد الذي يجتاز الفضاءَ وخلته آنذاك جنيّة أو ساحراً.

(1) السّمندل: دوية كان القدماء يعتقدون أنها تعيش في التّار، وهي في الحقيقة تنزّر بالتّار  
 ولكنها تقذف فيها سائلاً بارداً يطفئها في حال عدم كونها ناراً قويّة.

«بعد وقتٍ قصير، دخلت الجنة كاسرة إلى غرفتي وقالت لي: «أتيك بأخبار جيدة. وصل حبيبك منذ بضع ساعات فتحضري لاستقباله. خذي هذه الثياب والمجوهرات». صحت بها: «ومن قال لك إني أريد أن أتزوج؟ لا أنوي ذلك إطلاقاً فأعيدي الملك ميغونيه إلى حيث أتى. لن أضع دبوساً واحداً في شعري كزمتي له ولا يهمني سواء وجدني قبيحة أم جميلة. لا أريده». أجابتنى الجنة: «كفى أيتها المتمردة الصغيرة، إنك لا تملكين ذرةً دماغٍ واحدة! لا أسمح لك بأن تستهزئي بي وإلا...». فأجبتها وقد احمررت تماماً لغضبي من النعوت التي وصفتني بها: «وماذا ستفعلين بي؟ وهل هناك أسوأ من الظروف التي نشأت فيها وحدي في برج لا رفقة لي سوى ببغاء وكلب وأرى في كل يوم مرّات عدّة الهيئة المخيفة لتنين مقيت؟». قالت الجنة: «يا لك من جاحدة، هل تستحقين كل هذه العناية والجهد اللذين أحطناك بهما؟ سبق أن قلت ذلك لأخواتي، قلت لهنّ إنهنّ لن يلقين جزاء جهدهما إلا نكران الجميل». وانطلقت لتخبرهنّ بما حدث ومكثنّ مندهشاتٍ جميعاً لذلك الخلاف الذي حصل.

«لامني الببغاء والجرو الصغير كثيراً على تصرّفي ذاك قائلين لي إنني سأشقى كثيراً إذا تماديتُ في عصياني. شعرت بالفخر الكبير لامتلاكي حبّ ملكٍ كبيرٍ وجعلني ذلك الفخر أمقتُ الجنّيات وأستخفّ بنصائح صديقيّ الصغيرين التّعيسين. لم أبدل ملابسني وتظاهرت بأنّي أتعمّد تسريح شعري بشكلٍ سيئ لكي يجذني ميغونيه قبيحة. جرى لقاءنا على الشرفة وقد جاء إليها على متن عربته النارية. مُدّ وُجد الأقرام لم يكن هناك قرَم أقصر من قامته. كان يمشي على قائمته مثل نسر وعلى ركبته معاً إذ لا عظامٍ في ساقيه، مستنداً إلى عكازينٍ من الألماس. كان طول معطفه الملكيّ

نصف ذراع وكان يجر جر أكثر من ثلثه. كان رأسه ضخماً مثل مثل صاع، وأنفه كبيراً جداً بحيث يحمل عليه دزينة عصافير، وكانت زقزقاتها تبهججه. لحيته مشرّبة وقد اتخذتها صغار الكناريّ أعشاشاً لها. وكانت أذناه ترتفعان فوق رأسه بطول ذراع لكنه أخفاهما تحت تاج عالٍ حادّ الطرف وضعه لكي يبدو أكثر طولاً. كان اللهب المتصاعد من عربته يحرق الثمار ويجفف الأزهار ويُنضب ينابيع البستان. وافاني فاتحاً ذراعيه ليضمّني فبقيت متصلّبة في وقتي. اضطرّ سائسه الأوّل أن يرفعه ليصل إلى مستواي لكنه ما إن اقترب مني حتى هربتُ إلى غرفتي وأغلقت بابها ونوافذها فعادَ ميغونيه إلى الجنّيات وهو أشدّ غيظاً.

«سألته المعذرة ألف مرة لفظاظتي، ولكي يهدّئن من روعه، قرّرتُ أن يأخذنه ليلاً إلى غرفتي حين أنام وأن يوثقن قدّميّ ويديّ ويضعنني معه في عربته النارية ليصطحبني معه على هذا النحو. بعد أن اتخذن هذا القرار تعمّدن عدم تأنيبي على الفظاظة التي ارتكبتها مكتفيات بالقول إنّه يجدر بي التفكير في تصحيحها. بقيّ البيّغاء والكلب الصّغير مندهشين من ذلك اللطّف الكبير. قال كلبّي: «تعرفين يا سيّدي، قلبي لا ينبئنني إلاّ بالسوء. إنّ سيّداتي الجنّيات كائنات غريبة والعنف ميزتهنّ». كنت أستهزئ بهذه النّصائح وانتظرتُ زوجي العزيز الذي كان متلهّفاً لرؤيتي بفارغ الصّبر وجاء دون تأخير. رميتُ له بالسلم المصنوع من الحبال المشبوكة وقد اتخذت قراري بالعودة معه. صعّد السلم بخفة وأتحفني بكلماته اللطيفة التي لا أجرؤ على تذكّرها من جديد.

«رُحنا نتكلّم بهدوءٍ وارتياحٍ وكأنا كنا في قصره بالذات. وفجأة رأينا نوافذ غرفتي تُقتحم والجنّيات يدخلن على متن تنيهنّ الرّهب

ويتبعهم ميغونيه في عربته التارية وحراسه جميعاً برفقة نعاماتهم. لم يخف الملك واستل سيفه غير مفكر إلا بحمايتي من ذلك الهجوم الفظيع. وأخيراً هل يفترض بي أن أقول ما حدث يا سيدي الأمير؟ دفعت الجنيات المتوحشات التين لمهاجمتنا والتهم على مرأى مني الملك بلقمة واحدة.

«كنت في ذروة اليأس من مصيري المشؤوم فارتيمت في شدة ذلك المسخ الرهيب راغبة في أن يلتهمني مع الملك الذي كان كل ما أهواه في هذه الدنيا. كان التين راغباً في ذلك كل الرغبة لكن الجنيات اللواتي يتفوقن عليه وحشية منعه من ذلك هاتفات: «يجب أن نتركها حية لتكابد آلاماً أشد وأقسى. ليست الميتة السريعة إلا نعمة لهذه المخلوقة الوضيعة». لمستني بعصاهن ورأيت نفسي على الفور في هيئة هرة بيضاء. واقتدني إلى هذا القصر الرائع الذي كان ملك والدي وحولن جميع أسياد وسيدات المملكة إلى هرة ولم يتركن لأولئك الذين لا نستطيع رؤيتهم إلا الأيدي. وهكذا حولتني إلى الهيئة البائسة التي وجدتني فيها وجعلتني أعرف كيف ولدت ومن هما والدي ووالدتي اللذان كانا توفياً. قلن لي إنني لن أتحرر من هيئتي كقطة إلا على يد أمير يشبه تماماً زوجي الذي فتنتي».

ثم أردفت:

- أنت يا سيدي من تشبهه، لديك الملامح نفسها والمرأى نفسه ونبرة الصوت نفسها. لقد صعبت فور رؤيتك. كنت على علم بكل ما يجري لي ولا زلت حتى الآن كذلك. أصبحت نهاية آلامي وشيكة.

قال الأمير مرتعياً عند قدميها:

- وآلامي أنا أيتها الملكة الجميلة هل ستكون طويلة؟

قالت الملكة:

- مولاي، إنني أحبك أكثر من حياتي. يجب أن ترحل فوالدك بانتظارك. سنرى كيف ستكون مشاعره حيالي وهل سيوافق على تحقيق أمنيتك.

ثم خرجت. مد لها الأمير يده فصعدت معه إلى إحدى العربات. وكانت تفوق بجملها جميع العربات التي تسنى له ركوبها حتى ذلك اليوم. وكان الموكب كله فريداً من نوعه؛ كانت حوافر الأحصنة من زمرد ومساميرها من ألماس. وكان لقاء الأمير بالملكة لا مثيل له، لا أقصد الأحاديث الظريفة التي دارت بينهما فقط. كانت الملكة فريدة بجملها وبذكاؤها أيضاً، وكان الأمير الشاب مساوياً لها في الكمال، وكانت أفكارهما متشابهة في طرافتها وعمقها.

عندما اقتربا من القصر حيث كان الأخوان الكبيران ينتظران أخاهما الأصغر، دخلت الملكة في صخرة صغيرة من البلور ازدانت جميع جوانبها بالذهب والياقوت وأحاطت بها الستائر من كل جهة حاجبة إياها عن الرؤية. وكانت محمولة على أيدي شبان أقوياء البنية أنيقى الملابس. ظل الأمير في العربة. ثم لمح أخويه اللذين كانا ينتزهاً برفقة أميرتين رائعتي الجمال. ما إن رأياه حتى تقدما لاستقباله وسألاه ما إذا كان اصطحب عشيقته معه. قال لهما إنه كان تعيساً جداً لأنه طيلة سفره لم يلتق إلا ببفتيات في غاية القبح، وإن الشيء الوحيد النادر الذي جلبه كان هرة صغيرة بيضاء. أخذوا يضحكان لسذاجته. قال له:

- أحضرت هرة! تُراك تخاف أن تأكل الفئران قصرَك؟  
فأجابها الأمير أنها على حق ولم يكن يفترض به أن يقدم مثل تلك الهدية لوالده. وعلى هذا ساروا في اتجاه المدينة.  
صعد الأميران الأكبر سنّاً مع الأميرتين اللتين أحضراهما في عربات

من ذهب ولازورد، وزُيِّت رؤوس أحصنتهم بالرياش والقنازع. لا شيء كان أكثر بهاءً من ذلك الموكب، وتبعها أميرنا الشاب وخلفه الصخرة البلورية التي كان الجميع ينظر إليها بإعجاب. وهُرعَ أفراد الحاشية ليعلموا الملك بوصول الأمراء الثلاثة. فسألهم:

- هل أخضروا معهم سيّداتٍ جميلات؟

فأجابوه:

- يستحيل تصوّر مَنْ يفوقهنّ جمالاً.

بدا الملك مستاءً من هذا الجواب. هُرعَ الأميران إلى الملك برفقة الأميرتين الرّائعتي الجمال. استقبلهما الملك بالترحاب ولم يكن يعرف لأيّ منهما يقدم عرشه. نظرَ إلى أخيهما الأصغر وقال له:

- أتيت هذه المرّة وخدك؟

فأجابه الأمير:

- سترى جلالتك في هذه الصخرة هرة صغيرة بيضاء تموء بنعومة وتتصرّف بغنج ودلال.

ابتسم الملك وذهب بنفسه لكي يفتح الصخرة. لكن، ما إن اقترب منها حتى جعلت الملكة بحركة منها جميع جوانبها تتداعى، وبانت هي كالشمس التي حجبها غيمةٌ لبعض الوقت. كان شعرها مشوراً على كتفيها منسدلاً خصلاتٍ كثيفة حتى قدميها. وكان رأسها مطوّقاً بالأزهار وثوبها من قماش أبيض شفاف، ومبطّن بالتفتا الوردية اللون. نهضت وانحنت بإجلالٍ أمام الملك الذي لم يستطع لشدة إعجابه بها إلا أن يهتف قائلاً:

- هذه هي الأميرة التي لا مثيل لها والتي تستحق أن تأخذ تاجي.

قالت له:

- مولاي، لم آتِ إلى هنا لأنتزِعَ منك العرش لا سيّما وأنك تشغله بجدارة مذهلة. ولدتُ أميرة وارثة لست ممالك. اسْمَح لي أن أقدمَ مملكة لكلِّ منك ومن ولدك الآخرين. ولا أسألك على سبيل المكافأة إلاّ صداقتك وزواجي بهذا الأمير الشاب، وسنكتفي بمالك ثلاث.

أطلقَ الملك وأفراد الحاشية صيحاتِ الفرح والاندھاش التي ملأت الأرجاء طويلاً. وأقيمَ الزفاف على الفور وكذلك زواج الأميرين الآخرين. وأمضى القصر كلّه شهوراً عدّة في الاحتفال والتلذذِ بأطياب الولائم التي أقيمت. ومن بعدها انطلق كلُّ منهم ليحكّم مملكته. وُخلدَت ذكرى القطة البيضاء الجميلة بفضلِ طبيعتها وسخائها وأيضاً بفضلها النادرة وجمالها الفتان.

سُرَّ هذا الأمير الشاب  
عندما اكتشفَ أن قطته أميرة عظيمة  
جديرة بمدحِه وأمانه  
ومستعدة لتُشاركه رعايته وحبّه.  
حين تنوي عينانٍ ساحرتان أن تأسرا عاشقاً  
تصعب مقاومتُها  
لا سيّما إذا ساهمَ الامتنان والعرفان  
في تأجيج نار الحب!  
ما عساني أفعلُ بتلك الأمِّ ورغبتها المجنونة  
التي جعلت القطة البيضاء تعاني أمرّ العذابات.  
ضَحّت بابنتها إكراماً لشارٍ مشؤومة  
وجعلتها تحت سَطوة جنيّة عاتية.



أَنْتُنَّ أَيْتِهِنَّ الْأَمْهَاتُ اللَّوَاتِي لَدَيْكُنَّ فَلذَاتُ أَكْبَادٍ مَفْعَمَةٌ بِالسَّحْرِ  
إِيَّاكُنَّ وَالتَّصَرَّفَ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمَّ أَوْ مَحَاكَاتَهَا.



«القُمْرِيّ واليَمَامَة»، نقش غائر لَكَلِيمَان-بِيَار مَارِيلِيَه

Clément-Pierre Marillier, 1785

## القُفْرِيّ واليَمَامَة

كان يا ما كان، كان هناك ملك وملكة متحابّان حبّاً جمّاً، وكان قرانها بمثابة قدوة لكلّ العائلات، ويندر أن نجد في مملكتها، التي تدعى مملكة الصّحارى، زوجين على خلاف فيما بينهما.

أنجبت الملكة أطفالاً أكثرَ لكن لم يعش لها إلا فتاة واحدة وكانت على جمالٍ فائق. وإذا كان ثمة شيء يعزّيها عن فقدان أولادها فهو الجمال والسّحر اللّذين كانت ابنتها الوحيدة تتحلّى بهما. ربّاهما الملك والملكة بصفتها أملهما الوحيد المتبقي. لكنّ سعادة الأسرة الملكيّة لم تدم إلا قليلاً. كان الملك قد ذهب إلى الصّيد على متن حصان جموح فسمع بعض الطلقات الناريّة فأرعبته الضجّة والرصاص ومضى منطلقاً كالبرق. أراد الملك أن يكبح جماحه على حافة إحدى الهوآت فسبأ الحصان ورمى الملك عن ظهره، وكانت السقطة من القوّة بحيث قُتل الملك قبل أن يتسنّى لأحدٍ إغاثنه.

وأغرقت هذه الأخبار المشؤومة الملكة في أعماق الحُجج اليأس. لم تستطع التخفيف من ألمها وكان أعنف من أن تقاومه. ولم تعد تفكر بشيء إلا بتنظيم شؤون ابنتها لكي تقضي هي أجلها مرتاحة الضمير ولو قليلاً. كان لديها صديقة تدعى الجنيّة سائدة لأنّها كان لديها سيادة عظيمة على الممالك جميعاً وكانت ماهرة متوقّدة الذكاء. كتبت الملكة رسالة إلى الجنيّة وهي على فراش الموت قالت لها فيها إنّها تتمنى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيها، لذا عليها الإسراع في المجيء إن هي رغبت في أن تجدها على قيد الحياة، ثم إنّ لديها أشياء في غاية الأهميّة تريد أن تقولها لها.

بالرغم من انشغال الجنّة سائدة بأمرٍ كثيرةٍ فإنّها ألغتها جميعاً  
وصعدت على متن جملها الناريّ الذي كان يمضي أسرع من نور  
الشمس. وصلت إلى قصر الملكة التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر.  
تحدّث إليها عن أشياء تتعلق بإدارة المملكة وتوسّلت إليها أن  
تضطلع بها وتُغني بالأميرة الصّغيرة إخلاصاً:  
وأضافت الملكة:

- إذا كان شيء يعزّيني عن همّ تركها يتيمة وهي لا تزال في سنّ  
صغيرة فهو رجائي بأن تمنحها أمارات الصداقة التي منحني إياها  
على الدوام، وأن تجد فيك أمّاً بإمكانها أن تجعلها أسعداً ممّا كنت  
فعلت، وأن تختاري لها زوجاً لطيفاً لكي لا تحبّ أبداً سواها.  
قالت الجنّة:

- ها أنتِ تتمين خير الأمانى أيتها الملكة العظيمة. لن أنسى شيئاً  
في ما يخصّ ابتك، لكنني استشرت طالعها الفلكي. يبدو لي أنّ القدر  
مستاء من الطبيعة لأنّها أغدقت عليها كلّ الحسن لدى تكوينها.  
واختار القدر أن يُكتب لها العذاب. ويجدر بجلالتك أن تعرف أنّه  
يُصدر أحياناً أحكاماً قاضية يستحيل التحرّر منها.  
عقبت الملكة:

- على الأقلّ، لطفي من حكم القدر ولا تنسي أن تفعلي شيئاً  
لتدارك قساوته. غالباً ما يمكننا تجنبّ مأسٍ عظيمة إذا أعملنا انتباهنا  
وحذرنا.

وعدت الجنّة الملكة بأن تحقّق لها كلّ ما تتمناه، وبعد أن قبلت  
ابنتها العزيزة إخلاصاً ما لا نهاية له من المرّات، أسلمت الرّوح بشيء  
من الاطمئنان.

كانت الجنّة تقرأ الطالع بالسهولة نفسها التي نقرأ بها اليوم

الحكايا الجديدة التي تُطَبَّع في كلِّ يوم<sup>(1)</sup>. رأت أن ما يتهدد الأميرة هو الشَّغف المحتوم الذي يَكُنُّه لها أحد العمالقة، ومملكته ليست بعيدة عن مملكة الصَّحارى. كانت تدرك أنه يجب أن تفعل ما بوسعها لتجنَّب اللِّقاء به ولم تجد وسيلة أفضل من أن تخفي الأميرة في أحدِ أقاصي الأرض، أبعد ما يكون عن المملكة التي يحكمها العملاق، وحيث لا يمكن لشيء أن يُعكِّرَ صفوَ إقامتهما هي والفتاة.

ما إن تسنى للجنّية سائدة أن تختار وزراء أكفاء لتعهد لهم بإدارة الدولة، وما إن سنت قوانين صائبة لم يتسنَّ لحكام اليونان أن يُصدِّروا مثلها أو يُدانوها أهمّية حتّى دخلت ذات ليلة إلى غرفة إخلاص، ومن دون أن توقظها حملتها على متن جملها الناريّ ثم انطلقت باتجاه بلاد خصيبة حيث يعيش النَّاس دون طموح ولا عناء. كانت البلاد أشبه بوادٍ خصب كوادي تمبي<sup>(2)</sup> حيث لا يوجد إلا رعاة وراعيات يسكنون في أكواخ بنوها بأيديهم.

كانت تعرف أنه إذا تجاوزت الأميرة سنّ السادسة عشرة دون أن ترى العملاق فستعود منتصرة إلى مملكتها. ولكن إذا رأته في وقتٍ أبكر فستكون معرّضة لآلام كبيرة. كانت تحرص بعناية قصوى على أن تخفيها عن أعين الجميع، ولكي تبدو الأميرة أقلَّ جمالاً، ألْبستها ثوبَ راعيةٍ وقبعةً فضفاضة تنسدل على وجهها. ولكن، كالشمس التي تخترق بسهامها المشعة الغمام، كان جمالها، بالرغم من تسرّها، مشعشعاً بادياً للعيان. وبالرغم من كلّ العناية التي أوّلتها إياها الجنّية لتخفي جمالها فإنَّ الجميع كان يتحدث عن إخلاص بصفتها

(1) غمزة في اتجاه حكايا الجنّ ونصوص أدب الناشئة التي شهدت في فترة ظهور حكايات دونوا هذه عصرها الذهبي.

(2) أحد الوديان الخصيبة في منطقة تيساليا في اليونان، معروف بجماله وطبيعته الساحرة، غناه قدامى الشعراء، وكان في اليونان القديمة مركزاً لعبادة أبولون.

آية من الجمال وقد أسبغت عليها السماء كل نعيمها وهي بذلك تسحر القلوب قاطبة.

لكن جماها لم يكن مصدر روعتها الوحيد. لقد حببها الجنية سائدة بصوتٍ بديع وبموهبة العزف على جميع الآلات بمهارة بحيث كانت قادرة، مع أنها لم تتعلم الموسيقى، أن تلقن دروساً لربّات الموسيقى ولأبولون ربّ الفنون نفسه.

وهكذا لم تكن تضجر قط. شرحت لها الجنية الأسباب التي حدثت بها لترتيبها وسط تلك الظروف الغامضة محتجبة قدر الإمكان عن الأنظار.

وبما أنها كانت حادة الذكاء فإنها أنصاعت لمشيئة الجنية بكثير من الحكمة فأعجبت هذه بامتثالها ونباهتها رغم سنّها الصغيرة. مضت أشهر عديدة لم تذهب خلالها الجنية إلى مملكة الصحارى لأنها لم تكن تقوى على الافتراق عن الأميرة إلا مكرهة. لكن وجودها كان أمراً ضرورياً هناك إذ لم يكن أحد يتحرك إلا بأمر منها؛ كذلك تلكاً الوزراء في القيام بواجباتهم كما ينبغي. انطلقت وهي توصي الأميرة بالأ تفارق المنزل حتى عودتها.

كان لتلك الأميرة الجميلة حروف صغير تحبه كثيراً، وكان يروق لها أن تصنع له أكاليل من الزهر، وأحياناً تزينه بشرائط معقودة. أسمته «شاطر»، وذلك لكثرة حيله ومكره. كان أمهر من كل خراف القطيع. كان يسمع صوت سيده وأوامرها فيطيعها حزناً؛ تقول له: «يا شاطر، اذهب واجلب لي العرناس<sup>(1)</sup>»، فيهرع إلى غرفتها ويحضره لها وهو يقوم بألف وثبة. كان يقفز من حولها ولا يأكل إلا العشب الذي تجلبه له وكان سيموت عطشاً إذا لم يشرب من

(1) عرناس: ما يُلَفّ عليه القطن أو الصوف ليغزل.

راحتيها. كان يُغلق الباب ويعين النغم عندما تغني سيّدته وهو يشغو بطريقة منتظمة. كان شاطر ودوداً ومحّبياً وكانت إخلاص تتحدّث إليه باستمرار وتلاطفه بلّمساتها الحنون.

ولكنّ شاطراً أعجب بنعجة جميلة في الجوار بقدر إعجابه بأمرته. فكلّ خروفٍ يبقى خروفاً، وأعجفُ نعجةٍ كانت في عيني شاطر أكثر جمالاً من ملائكة الحبّ. كانت إخلاص تلوّمه دوماً على غنجه الكثير وتقول له:

- أيها المتهوّر الصّغير، لم لا تبقى قربي؟ أنت عزيز جداً عليّ فأنا أحمل قطيعي كلّه كرمي لك فيما أنت لا تفارق تلك النعجة الجربي لأجلي!

أوثقته بسلسلة من أزهار. عندئذٍ بدا وكأنّه يجرّد فجذب السلسلة مراراً حتّى قطعها. قالت له إخلاص بغضب:

- آه منك، قالت لي الجنيّة مراراً إنّ الرّجال عنيدون مثلك ويهربون من أخفّ القيود وإنّهم المخلوقات الأكثر تمرداً في الوجود. وبها أنّك تريد أن تتمثّل بهم أيها الشقيّ شاطر فاذهب وابحث عن نعجتك الجميلة، وإذا التهمك الذّئب فأنت تستحقّ ذلك؛ وربّما لن أقدر على نجدتك.

لكنّ الخروف العاشق لم يُصغ إلى نصائح إخلاص. أمضى نهاره مع نعجته العزيزة بالقرب من الكوخ حيث تعمل الأميرة وحيدة. سمعته يشغو بصوت عالٍ طالباً النّجدة فعرفت أنّه في موقف عصيب. نهضت مضطربة وخرجت من المنزل فرأت ذبّاً يأخذ معه شاطراً المسكين. لم تفكّر بكلّ ما قالته لها الجنيّة قبيل رحيلها. ركضت خلف غاصب خروفها وهي تهتف: «اقبضوا على الذّئب!»، كانت تطارده وهي ترميه بالحجارة لكنّه لم يفلت طريدته. لكن، ويا للأسف، حين

مرّت بالقرب من غابة، خرج منها ذئب آخر، وكان عملاقاً مخيفاً. عندما رآته الأميرة تولاها الذعر ورفعت عينيها نحو السماء مستغيثة ثم خفضتها نحو الأرض متوسلة إليها علها تنشق وتبلعها. فلم تصغ إليها لا السماء ولا الأرض. كانت تستحق العقاب لأنها لم تصدق الجنيّة سائدة.

فتح العملاق ذراعيه لكي يحول دون مرورها، ولكنه رغم هيئته المرعبة وغضبه المستشيط أحس بتأثير جمالها. قال لها بصوت أقوى من الرعد:

- قولي لي ما هي مرتبك السماوية، لا تظني أنه سهل خداعي، لست من بني البشر. قولي لي فقط ما اسمك، هل أنت ابنة جوبيتر أم زوجته؟ من هم إخوتك؟ من هن أخواتك؟ منذ زمن بعيد وأنا أبحث عن أنثى سماوية لأنزوجهما، وما قد وجدتك لحسن الحظ. شعرت الأميرة أنّ الخوف لجمها وأن الكلمات تنسحق على لسانها.

وعندما رأى أنها لا تجيب على أسئلته المحتفية بها، قال لها:

- بالنسبة لكائن سماوي، أنت تفتقرين إلى الفطنة!  
ثم لم يضيف كلمة واحدة، فتح كيساً كبيراً وأدخلها فيه.  
أول شيء لمحته داخل الكيس في القعر هو الذئب الشرير والخروف المسكين. لم يقم العملاق بجولته للاشيء...

قالت الأميرة للخروف وهي تقبله:

- ستموت معي يا عزيزي شاطر. وهذه تعزية صغيرة. لذا من الأفضل أن نهرب سوياً.

جعلتها هذه الفكرة الحزينة تبكي بمرارة. كانت تتنهد وتشهق بصوت عالٍ. راح شاطر يشغو والذئب يعوي فأيقظت تلك الجلبة



كلباً وهراً وديكاً وبتغاء من نومهم. وبدأوا من جهتهم يطلقون صراخاً يائساً، وتعالَت في خُرج العملاق ضوضاءٌ غريبة. وأخيراً، وقد استاءَ من سماع صراخ تلك المخلوقات قرّر أن يقتلها جميعاً، لكنّه اكتفى برَبطِ الكيسِ ورُميه في أعلى شجرة بعد أن وضع عليها علامة ليستطيع الاستدلال عليها وأخذه. كان يريد الذهابَ لمبارزة عملاقٍ آخر وكلّ ذلك الصّراخ كان يزعجه.

أمّا الأميرة فقد حدّثها قلبها أنّ العملاق، وإنّ مشى قليلاً، فإنّ خطواته تجعله يتعد كثيراً بحيث لا يستطيع أسرع حصان اللّحاق به. سحبت مقصّها وقصّت قماش الخرج ثمّ دَفَعَتْ خارجاً خروفها العزيز شاطراً والكلب والهَرّ والديك والبتغاء ثمّ خرجت خلفهم وأبقت الذئب في الداخل لكي تعلّمه ألا يعود لالتّهام الخراف الصّغيرة. كان الليل مُظلماً مدلهماً وشعرت الأميرة بالغرابة لوجودها وحيدة وسط تلك الغابة دون أن تعرف الوجهة التي عليها اتّخاذها، والسّماء والأرض محتجتان عنها والخوف يلازمها من مصادفة العملاق.

كانت تمشي بأسرع ما يمكن وكادت تتعثّر مئات المرّات، لكنّ الحيوانات كلّها التي أعتقتها، وقد امتنّت لها امتناناً عظيماً، أرادت البقاء معها وتقديم المساعدة لها أثناء الرّحلة. كان للهَرّ عينان متطايرتان شرراً وتضيئان الليل مثل مشعل، والكلب ينبج ليقوم بالحراسة والديك يصيح ليخيف الأسود، والبتغاء يرطن بصوت عالٍ جدّاً بحيث تخال لدى سماعه أنّ عشرين شخصاً يتحدثون في الوقت نفسه، ما كان يبعد السّارقين لكي يتركوا السّبيل مفتوحاً أمام مسافرتنا الجميلة، وكان الخروف الذي يتقدّمها يبضع خطوات يضمن لها عدم السّقوط في الحفرِ الكبيرة التي كان يشقّ عليه هوّ

نفسه الخروج منها.

سارت إخلاص على غير هدى موكلة أمرها إلى صديقتها الجنية الطيبة مؤملة النفس بنجدة ما مع أنها لامت نفسها كثيراً لأنها لم تلتزم بأوامرها. لكنها كانت تخشى أحياناً من أن تتخلى عنها. كانت تتمنى أن يقودها حسنٌ طالِعها إلى المنزل السري الذي تربت فيه. وبما أنها كانت تجهل الطريق إليه، لم تجرؤ على أن تمتي نفسها بالعثور عليه إلا إذا حالفها الحظ.

وَجَدَت نفسها، عند طلوع النهار، على ضفة نهر يروي أظرف مرج في العالم. نظرت من حولها ولم ترَ لا كلباً ولا هراً ولا ديكاً ولا بيتغاً. وحده شاطر كان برفقتها. قالت:

- يا ويلي! أين أنا؟ لا أعرف هذا المكان الجميل فماذا سيصير بحالي؟ من سيهتم بي؟ آه، يا خروفي الصغير، لكم تكلفني غالباً! لو لم أركض خلفك، لكنت ما أزال في منزل الجنية سائدة ولما خفت من العملاق ولا من أية مصادفة أخرى بغیضة.

كان يبدو على شاطر أنه يستمع إليها وهو يرتجف وكأنه يعترف بخطئه. وأخيراً كفت الأميرة المحبطة والمنهكة عن لومه وجلست على ضفة الماء. وبما أنها كانت تعبئة وكان ظلّ بعض الأشجار يقبها من قبض الشمس، أطبقت أجفانها بنعومة وتهاوت على العشب مستغرقة في نوم عميق.

لم يكن من حارس لها سوى شاطر الوفي. لمسها واجتذبتها من ثيابها. وكم كانت دهشتها كبيرة حين استفاقت ولا حظت على بعد عشرين خطوة منها شاباً يافعاً مختبئاً خلف بعض الأدغال! كان يختبئ ليراها دون أن يرى من قبلها. كان جمال جذعه ووجهه وجلال هيئته وفخامة ثيابه، كان هذا كله يدهش الأميرة فنهضت فجأة مصممة

على الابتعاد. ولكن لا أدري أيّ سحر ردّعتها. رَمَت ذلك الغريبَ  
بنظراتٍ وَجِلَّة. لم يُثر فيها العملاق خوفاً أكبر ولكن للخوف الآن  
أسباب مختلفة. كانت نظراتها وحركاتها تشي بالمشاعر التي تُحرِّكُ  
قلبيها منذ تلك اللحظة.

وكانا سيبقيان هكذا صامتين لوقتٍ طويل يتبادلانِ التّظرات  
لولا أن سمعَ الأمير صوتَ أبواقٍ ونُبأخٍ كلابٍ تقترب. لاحظَ أنّها  
متفاجئة.

قال لها:

- لا تخشي شيئاً أيتها الرّاعية الجميلة، أنتِ في أمانٍ في تلك  
الأمكنة. عسى أن يكون أولئك الذين يرونك هنا في أمانٍ أيضاً!  
قالت له:

- مولاي، أطلبُ حمايتك، أنا فتاة مسكينة يتيمة وليسَ لديّ ما  
أفعله إلا أن أكون راعيّة. من فضلك ائمني بقطيعٍ وسأهتمّ به.  
قال لها مبتسماً:

- طوبى للخرافِ التي تَسوقينها إلى المراعي! ولكن يا راعيّتي  
اللّطيفة إذا شئت سأحدّث والدتي الملكة عن الأمر وإنّه ليسرّني أن  
أقدّم لك اليوم خدماتي.

قالت إخلاصاً:

- عفوك يا سيّدي، أستميحك المعذرة للجرأة التي حدّثتك بها.  
لم أكن لأفعل ذلك لو أنّني عرفت مقامك!

استمع إليها الأمير بدهشةٍ عظيمة. وجد لديها الذكاء والأدب  
اللّذين كانا يليقان بجهاها الفريد ويكملانه. ولكن ثيابها البسيطة لا  
تليق بها أبداً ولا مهنة الراعيّة. حاولَ أن يجعلها تقوم بخيارٍ آخر. قال  
لها:

- أَلَا تَرَيْنَ أَنَّكَ تَعْرِضِينَ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ وَحِيدَةً هَكَذَا فِي الْغَابَاتِ  
أَوْ فِي الْأَرْيَافِ وَلَا رَفِيقَ لَكَ إِلَّا خِرَافِكِ الْبَرِيئَةَ؟ وَهَلْ تَحْتَمِلِينَ  
الْوَحْدَةَ وَأَنْتِ عَلَى هَذِهِ الرَّهَافَةِ فِي التَّصَرُّفِ؟ مَنْ يَدْرِي عَلَى آيَةِ حَالٍ،  
رَبِّهَا سَتَجْتَذِبُ لَكَ مِفَاتِنِكَ الَّتِي سَيَذِيعُ صَيِّتِهَا فِي هَذِهِ الْأَصْقَاعِ  
مَتَاعِبَ كَثِيرَةً! أَنَا نَفْسِي، أَيَّتُهَا الرَّاعِيَةُ الْجَدِيدَةُ بِالْحَبِّ كُلِّهِ، قَدْ يَجْلُو لِي  
أَنْ أَتْرِكَ الْقَصْرَ لِأَتَبَعَ خُطَاكَ. وَسِيحِذُوا الْآخَرُونَ حَذْوِي.

قَالَتْ لَهُ:

- كَفَّ يَا سَيِّدِي عَنِ إِطْرَائِي فَأَنَا لَا أَسْتَحِقُّ ذَلِكَ. لَقَدْ وُلِدْتُ فِي  
قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ وَلَمْ أَعْرِفْ إِلَّا الْحَيَاةَ الرَّعْوِيَّةَ، وَأَمَلْتُ أَنْ تَتْرَكْنِي أَحْرَسَ  
قَطْعَانَ الْمَلِكَةِ بِسَلَامٍ فِي حَالٍ تَفْضَلْتُ وَعَهَدْتُ لِي بِهَا. لَا بَلْ سَأَتَوَسَّلُ  
إِلَيْهَا أَنْ تَضْعَنِي فِي عَهْدَةٍ رَاعِيَةٍ مَتَمَّرَسَةٍ أَكْثَرَ مِنِّي. وَبِمَا أَنَّنِي سَأَلَا زِمَهَا  
فَلَنْ أَشْعُرَ بِالسَّامِ.

لَمْ يَسْتَطِعِ الْأَمِيرُ أَنْ يَجِيبَهَا. فَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَبْعُوهُ لِلصَّيْدِ، ظَهَرُوا  
عَلَى أَحَدِ النَّجُودِ.

قَالَ لَهَا عَلَى عَجَلٍ:

- أَتْرَكِي أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الْفَاتِنَةُ. لَا أُرِيدُ أَنْ يَتَقَاسَمَ مَعِيَ الْآخَرُونَ  
سَعَادَةَ أَنْ أَرَاكَ. اذْهَبِي إِلَى آخِرِ هَذَا الْمَرْجِ، هُنَاكَ مَنزَلٌ يُمْكِنُكَ  
الْمَكُوثُ فِيهِ بِأَمَانٍ مَا إِنْ تَقُولِي أَنَّكَ أَتَيْتِ مِنْ قِبَلِي.

شَعَرَتْ إِخْلَاصَ بِالْأَلْمِ لِإِفْتِرَاقِهَا عَنْ ذَلِكَ الشَّابِّ النَّبِيلِ،  
وَأَسْرَعَتْ لِتَتَّجِعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي دَهَّأَ عَلَيْهِ عَهْدُ (لَأَنَّ هَذَا كَانَ اسْمَ  
الْأَمِيرِ).

شَيَّعَهَا بِنظراتِهِ وَتَنَهَّدَ بِحَنَانٍ ثُمَّ صَعَدَ عَلَى ظَهْرِ حِصَانِهِ مُتَقَدِّمًا  
فَرِيقَهُ لَكِنْ دُونَ أَنْ يَتَابِعَ الصَّيْدَ. حِينَ دَخَلَ عَلَى الْمَلِكَةِ وَجَدَهَا  
غَاضِبَةً جَدًّا مِنْ رَاعِيَةٍ عَجُوزَ تَسِيءَ رِعَايَةَ قَطِيعِهَا. رَاحَتِ الْمَلِكَةُ

تؤنبها وتأمرها بالأثريةا وجهها بعد اليوم.

وجَدَ عَهْدَ الظرف ملائماً لتنفيذ خطته. أخبر والدته أنه التقى بفتاة شابة ترغب بشدة أن تعمل لديها ويبدو عليها أنها فتاة شريفة ولا تهوى الانتفاع. سرت الملكة بقول ابنها ووافقت على توظيف الراحية دون أن تراها وقالت للأمير أن يعطي الأوامر باصطحابها مع الرعاة الآخرين إلى مراعي المملكة. سرت بتوفيرها على الفتاة عناء المجيء إلى القصر لأن لهفته وغيرته ومشاعر من هذا القبيل جعلته يخشى أن ينافسه أحد على قلبها، علماً أنه لا أحد يستطيع أن يبرهه لا في المقام ولا في الجدارة. لكنه كان يخشى النبلاء أقل من الوضعاء لأنه فكر أنها قد تميل إلى راع بسيط أكثر مما تميل إلى أمير وريث للعرش.

من الصعب رواية الخواطر التي سأورتها: أخذ يلوم قلبه هو الذي لم يستهوه شيء حتى ذلك الحين، ولم يعثر على فتاة جديدة به! هل يمنح نفسه لفتاة غامضة الأصل ولا يستطيع أن يبوخ بحبه لها دون أن يشعر بالعار؟ أراد أن يجارب حبه مقتنعاً أن الامتناع عن رؤيتها هو الحل الأمثل وخصوصاً بعية التصدي لعاطفة ناشئة. تجنب رؤية الراحية من جديد واهتم فقط بالصيد واللهم. صار ما إن يرى خرافاً حتى يشيح ببصره وكأنه التقى بأفاع. وبعد مرور وقت قليل بدا له السهم الذي أصابه أقل إيلاماً. ولكن، ذات يوم استعر فيه القيظ، تعب عهد من الصيد لزم من طويل، وألقى نفسه عند ضفة النهر، فتبع مجراه في ظل أشجار الغبراء التي تشبك أغصانها بأغصان الصفصاف وتجعل المكان ندياً ممتعاً. استغرق في حلم عميق. كان وحيداً ولم يعد يفكر بكل أولئك الذين كانوا في انتظاره. وفجأة سمع صوتاً سماوياً صعقه جماله؛ توقف ليستمعه وفوجئ كثيراً بسماع هذه الكلمات:

وا حَسْرَتاه! عاهدتُ نفسي أن أعيش دون حَبِّ  
 لكنَّ الحَبِّ يلدِّ له أن يجعلني أنكثُ بعهدي،  
 أشعر أن جرحاً عميقاً يَمزُقني،  
 باتَ الأميرُ عَهْدَ مالكا لقلبي.  
 في يوم ليس ببعيدٍ رأيتُه في هذه الخلوَّة  
 منصرفاً إلى الصَّيد وسط هذه الغابات  
 ثمَّ جالساً تحت الظلالِ الرطبية  
 كان يغني واصفاً مخاوفه.  
 لم أرَ في حياتي جمالاً كجماله.  
 مكثتُ طويلاً جامدةً حائرة؛  
 من يدِ ملاكِ الحَبِّ رأيت السَّهام تنطلق  
 لتستقرَّ في قعرِ روعي.  
 الألم الذي أحسَّه له حلاوته  
 وأعرف أنني لن أشفى أبداً  
 من النار التي تحرقني.

تغلَّب فضوله على لذة الاستماع إلى الأداء الرَّائع للأغنية فتقدَّم  
 على وجه السرعة. صعقه اسم «عَهْد» لأنَّه اسمه. ولكنَّ، قد يكون  
 اسماً لأحد الرعيان. لذا لم يكن يعرف إذا كانت تلك الكلمات موجهة  
 له أو لأحدٍ آخر. ما كاد يصعد على تلة صغيرة مكسوَّة بالأشجار  
 حتَّى لمَح إخلاص الجميلة في أسفلها: كانت جالسة على ضفة أحد  
 الجدائل وكان تدفقه المنذفع يحدث دمدمة لذيذة جداً وكأنها تريد أن  
 تتناسب مع صوتها. وكان خروفها الوفي مضطجعاً قربها على العشب  
 فخوراً بأنَّه خروفها المفضل. وكانت إخلاص تلكره من وقتٍ لآخر

بِعَصَاهَا لِكِرَاتٍ خَفِيفَةٍ، وَتَدَاعِبُهُ بِرِأَةِ الْأَطْفَالِ؛ كَلَّمَا لَمَسَتْهُ قَبْلَ يَدِهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَاتٍ مَفْعَمَةً ذِكَاءً. قَالَ الْأَمِيرُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

- آه! كَمْ سَتَكُونُ سَعِيداً لَوْ أَنَّكَ تَعْرِفُ قِيَمَةَ اللَّمَسَاتِ الَّتِي تَغْدِقُهَا عَلَيْكَ! لَكِنْ بَرِّبِكُمْ أَلَمْ تَزِدْ هَذِهِ الرَّاعِيَةَ جَمَالاً مَذِ التَّقِيَّتِيهَا؟ أَيُّهَا الْحَبِّ! أَيُّهَا الْحَبِّ! مَا تَرِيدُ مِنِّي؟ هَلْ يَفْتَرِضُ بِي أَنْ أَحِبَّهَا أَمْ عَلَيَّ الْاِمْتِنَاعُ عَنْ ذَلِكَ؟ لَقَدْ تَجَبَّبْتُهَا بِإِصْرَارٍ لِأَنِّي اسْتَشْعَرْتُ كُلَّ الْخَطَرِ النَّاجِمِ عَنْ رُؤْيَيْتِهَا. أَيُّهَا السَّمَاءُ! مَا أَكْبَرَ التَّأثيرِ الَّذِي تَرَكَهُ فِي لِقَائِي الْأَوَّلِ بِهَا! سَعَى عَقْلِي لِأَنْ يُنَجِّدَنِي فَهَرَبْتُ مِنْ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ الْجَدِيدَةِ بِأَنْ تُحِبَّ. لِلْأَسْفِ هَا إِنِّي أَلْتَقِي بِهَا، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ هُوَ الرَّاعِي السَّعِيدُ الْحَظُّ الَّذِي اخْتَارَتْهُ!

وَفِيهَا كَانَ يَفَكِّرُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، نَهَضَتْ الرَّاعِيَةُ لِتَجْمَعَ قَطِيعَهَا، وَتَعْبَرَهُ بِهِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ مِنَ الْمَرْجِ حَيْثُ كَانَتْ قَدْ تَرَكَتْ زَمِيلَاتِهَا. خَشِيَ الْأَمِيرُ أَنْ يَفُوتَ تِلْكَ الْفُرْصَةَ دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا. فَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا بِخَطَوَاتٍ عَجَلَى قَائِلاً لَهَا:

- أَيُّهَا الرَّاعِيَةُ اللَّطِيفَةُ، أَلَا تَرِيدِينَ أَنْ أَسْأَلَكَ عَمَّا إِذَا كَانَتْ الْخِدْمَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي أَدَيْتَهَا لِي قَدْ أَعْجَبَتْكَ؟  
لَدَى رُؤْيَيْتِهِ، احْمَرَّتْ إِخْلَاصٌ وَبَدَتْ بَشَرَتِهَا مَتَلَوَّنَةٌ بِالْوَانِ زَاهِيَّةً،  
قَالَتْ لَهُ:

- سَيِّدِي، كُنْتُ سَأُوجِّهُ لَكَ شُكْرِي الْمَتَوَاضِعَ لَوْ كَانَ يَلِيقُ بِفِتَاةٍ مَسْكِينَةٍ مِثْلِي أَنْ تَشْكُرَ أَميراً مِثْلَكَ. لَكِنْ بِمَا أَنَّنِي لَمْ أَفْعَلْ، فَالسَّمَاءُ تَشْهَدُ عَلَيَّ أَنَّنِي لَسْتُ جَاحِدَةً الْبَتَّةَ، وَأَنَّنِي أَتَضَرَّعُ إِلَيْهَا لِتَعْمَ السَّعَادَةِ أَيَّامَكَ.

أَجَابَهَا:

- إِخْلَاصٌ، لَوْ كَانَ صَحِيحاً أَنَّكَ مُتَأَثِّرَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ بِهَذَا

المعروف لَكَانَ سَهْلَ عَلَيْكَ أَنْ تُعَبِّرِي عَنْ ذَلِكَ لِي.

أجابت في الحال:

- مهلك! ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك يا سيدي؟

- تستطيعين أن تقولي لي لِمَنْ كُنْتِ تَغْنِينَ هذه الأغنية؟

فأجابت:

- بما أنني لم أكتب كلماتها يَضَعُبُ عَلَيَّ أَنْ أَوْضِحَ لَكَ شَيْئاً فِي هَذَا

المضمار.

وفيا هي تتكلم، أخذ يراقبها، رآها تحمر. كانت مُرتبكة وتخفض

بصرها.

قال لها:

- لماذا تُخْفِينَ عَنِّي مِشَاعِرَكَ يَا إِخْلَاص؟ وَجْهَكَ يَشِي بِمَكْنُونَاتِ

قلبك، هل تحبين أحداً؟

صَمَتَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا بِإِمْعَانٍ أَكْبَرَ.

قالت:

- سيدي، الأمور القليلة التي تهمني لا تستحق أن يستعلم أمير

كبير مثلك عنها. وإني لمعتادة دوماً على التزام الصمت برفقة نعجاتي،

لذا عليك أن تعذرني إذا كنت لا أجيب.

وَابْتَعَدَتْ بِسُرْعَةٍ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ بِأَنْ يَسْتَمْهَلَهَا.

الغيرة تُوَجِّحُ أحياناً نارَ الحُبِّ. ونار الغيرة التي اضطرت في قلب

الأمير كانت مستعرة لا شيء يطفئها. أخذ يكتشف مفاتيح جديدة

في تلك الصبية لم يلاحظها في أول مرة رآها فيها. لكن الطريقة التي

تركته فيها، وكلماتها أيضاً، جعلته يعتقد أنها مرتبطة بأحد الرعاة.

فتولَّى كيانه حزنٌ عميق. لم يجرؤ على اللحاق بها مع أنه كان راغباً جداً

في التحدُّثِ إليها. اضطجعَ في المكان نفسه الذي تركته فيه. وبعد أن



حاول تذكر الكلمات التي أنشدتها للتوّ، كتبها على لوح الكتابة لديه وتفحصها بانتباه. قال:

- لكنّ المدعوّ «عَهْد» هذا الذي يَشغَلها لم تره إلا منذ بضعة أيّام: هل يُعقل أن يكون اسمي مثله ولا أملك حظّه؟ كم نظرت إليّ ببرودة! بدت لي اليوم أقلّ اكتراناً من اليوم الذي صادفتها فيه لأول مرّة. وكان همّها الوحيد أن تجدّ ذريعة لكي تبتعد عني.

أحزنته هذه الأفكار بشكل محسوس لأنّه لم يفهم كيف أنّ راعيّة بسيطة بإمكانها ألاّ تكثرث لأمر كبير.

وما إن عاد الأمير إلى القصر حتّى أمر بإحضار فتى شاب لطيف من أصل نبيل. سأله أن يرتدي ثياب راع ويتظاهر بسوق قطيعه كلّ يوم إلى مراعي الملكة لكي يرى ما تفعله إخلاص دون أن تشبهه بأمره. كان ميرتان (هذا كان اسمه) متحمّساً لأن يؤدي خدمة لسيده ولم يشأ أن يفوت فرصة تتسم بالأهميّة بالنسبة إليه. فامتثل لأوامره في اليوم التالي وذهب إلى السهل. ولم يكن حارس المراعي ليستقبله لو لم يكن يحمل أمراً من الأمير يقول فيه إنّه راعيه وقد أوكل إليه بحراسة قطيع خرافه.

وفي الحال سُمح له بالانضمام إلى الفريق الرعويّ. كان أنيق التصرف وراق في الحال للرعايات. لكنّه وجد أنّ إخلاص تتسم بنفحة كبرياء لا تتفق مع وضعها ولا تتناغم، نظراً لجهاها وذكائها وفضائلها، مع الحياة الريفيّة والرعوية التي تعيشها. عبثاً لحقها إذ كان يجدها دوماً وحيدة في عمق الغابات منصرفة إلى غنائها الحزين. لم ير أيّ راع يجرؤ على الاقتراب منها. حاول ميرتان أن يتقرّب منها ويلفت انتباهها لكنّه عرف من خبرته أنّها لا تريد الارتباط بأحد.

كان في كلّ مساء يُطلع الأمير على سير الأمور. وكلّ ما كان يعرفه

عنها كان يزيد في يأسه.

سأله الفتى الشاب:

- لا تخدعناك المظاهر يا سيدي، ربّما كانت هذه الفتاة الجميلة تحبّ أحد أبناء بلادها.

أجاب الأمير:

- لو كان ذلك صحيحاً فلم لا ترغب إذاً في العودة إلى بلادها؟

أضاف ميرتان:

- ومن يدري، ربّما كان هناك أسباب تمنعها من رؤية وطنها من جديد. ربّما كانت غاضبة من عشيقها...

هتف الأمير:

- آه تذكرت! إنها تُغني بحنانٍ شغوفٍ الكلمات التي سمعتها.

أضاف ميرتان:

- هذا صحيح: على كلّ الأشجار حَفَرَت اسميها، وبما أنها لا أحد يُعجبها هنا فلا شك أنّ مَنْ يُعجبها هو في مكانٍ آخر.

قال الأمير:

- امتحنْ مشاعرها تجاهي. قل لها عني خيراً، أو حدّثها عني بالسوء وعندئذٍ يُمكنك أن تعرف بماذا تفكّر.

لم يلبث ميرتان أن فتش عن مناسبةٍ للتحدّث إلى إخلص.

قال لها:

- ماذا بك أيتها الرّاعية الجميلة؟ تبدين كئيبة بالرغم من كلّ الأسباب التي تملكينها لتكوني أسعد من أية فتاةٍ أخرى؟

قالت:

- وأي شيء يدعوني لأكون سعيدة؟ ها أنا ملزمة فقط بحراسة الخراف. بعيدة عن بلادي ولا أعرف أية أخبارٍ عن أهلي، هل يبدو

لك كل هذا مُبهجاً إلى هذه الدرجة؟

أجاب:

- لا، لكنك أطف فتاة في العالم. تتمتعين بذكاء كبير وتغنين بشكل رائع ولا شيء يُضاهي جمالك.

قالت وهي تطلق تنهيدة عميقة:

- حتى لو كنتُ أملك كل هذه المحاسن فإنها قلما تؤثر بي!

أضاف ميرتان:

- ماذا! أنتِ تطمحين إلى السموّ إذا! تظنين أنه يجب أن تولدي

ملكة على العرش لتعيشي سعيدة؟ حذار أن تقعي في مثل هذا الخطأ!

أنا صديق الأمير عهد وبالرغم من تباين ظروفنا، أتقرب منه أحياناً

وأراقبه محاولاً أن أعرف ماذا يدور في دخليته وأدرك أنه ليس سعيداً

مع أنه أمير!

- ماذا تقول؟ لكن ما الذي يعكّر صفو أيامه؟

أردف ميرتان:

- إنه الغرام المحتوم.

قالت وقد بدا عليها القلق:

- إنه مغرم، لكم أرثي لحاله! لكن ما بالي!...

ثم أضافت وقد احمرت خجلاً:

- إنه جدير بالحب أو أولى بك أن تقول إنه لا يُمكن إلا أن يُحب.

قال:

- لكنّه لا يظنّ ذلك أيتها الرّاعية الجميلة. وإذا كنتِ تريدين فعلاً

أن تطمئنيه من هذه النّاحية فقولِي له رأيك لأنّه يثق بكلامك أكثر من

أي شخص آخر.

قالت:

- لا يليق بي أن أتدخل في الشؤون الخاصة لهذا الأمير الكبير، لا بل عليّ تعمّد عدم التدخل فيها. إلى اللقاء ميرتان.

ثم أضافت وهي تغادره فجأة:

- إذا كنت تريد أن نبقي صديقين فلا تُحدّثني عن أميرك ولا عن غرامياته.

وابتعدت وقد بدا عليها الاضطراب الشديد. لم تكن مستخفة بفضائل الأمير. منذ اللحظة الأولى التي رآته فيها لم تستطع أن تمحو صورته من فكرها، ولولا السحر الخفي الذي كان يستبقها هناك رغماً عنها لحاولت كل ما بوسعها للعثور على الجنية سائدة. وفي الواقع، لا نستطيع إلا أن نستغرب أيضاً موقف الجنية البارعة العاملة بكل شيء لأنها لم تأت لإحضارها. لكن الأمور لم تعد بيدها. فما إن التقى العملاق بالأميرة حتى باتت أسيرة قدرها لبعض الوقت، ويجب أن يتم ما كتبت لها. كانت الجنية تكتفي فقط بالمجيء لرؤيتها عبر شعاع شمس تعجز عينا إخلاص عن التحديق إليه بإمعان فلا تراها.

ولاحظت تلك الأميرة اللطيفة بمرارة أنّ الأمير أهملها وأنّه لم يسع إلى رؤيتها لو أنّ الصدفة لم تقذه إلى المكان الذي تغني فيه. كانت مُستاءة جداً من نفسها لأنها تكنّ له تلك المشاعر. وإذا كان ممكناً أن يجب المرء ويكره في الوقت نفسه، فيمكنني القول إنّها كانت تكرهه لأنها كانت تحبه أكثر من اللزوم. كم من الدموع ذرقت سرّاً! كان الحروف شاطر شاهداً عليها. وغالباً ما كانت تُسرّ له بهومها كما لو أنّه كان قادراً على فهم ما تقوله. وعندما كان يقفز في السهل مع التعجبات كانت تهتف به:

- حاذر يا شاطر! حاذر أن تتأجج نار الحب لديك فهو أسوأ

الشّرور جميعاً، لكنّ، إذا كنتِ مُحِبَّةً فماذا تفعلُ أيّها الخروف الصّغير المسكين؟

واسترسلت في لوم نفسها لأنّها تكنّ مشاعرَ لأمير غير مبالٍ بها وراودتها رغبةٌ جارفةٌ في نسيانِهِ عندما صادفته في مكانٍ نديّ. كان مستغرقاً في أحلامه بالرّاعيّة التي تهرب منه إلى أن غالبه الوسن فرقدَ على العشب. رأتَه فازدادَ ميلها له مستمداً من رؤيته قوّة جديدة. لم تستطع الامتناعَ عن تذكّر الكلمات التي قالها ميرتان عن المرحلة المضطربة التي يمرّ بها الأمير؛ وحين أعلّمها أنّه مغرّم، لا أحدَ يعرفُ مدى القلق الذي انتابها بدورها! ومهما يكن الحذر الذي آلته على نفسها كبيراً فإنّ وجهها المصطبغَ بحمرة الانفعال وشحوب القلق كان أصدق تعبير عمّا يعتمل في دخيلائها. لاحظ ميرتان تبدلَ سيحنتها، وكانت له أسبابه في مراقبتها بدقّة، وهُرِعَ لِيُعْلِمَ سيّدَه بملاحظاته.

لم يتحمّس الأمير لما قاله وصيفه. لم يكن يرى إلاّ اللامبالاة في تصرّف الرّاعيّة حياله وكان يردّ ذلك إلى عهد السّعيد الحظّ الذي تمواه والذي أنشدت له الأغنيّة. ومنذ اليوم التّالي، ذهبَ للبحث عنها. ما إن لمحتة حتّى لاذت بأذيال الفرار وكأنتها رأت نمرأاً أو أسداً؛ كان الهرب هو الحلّ الوحيد الذي تداري به شقاءها. ومنذ الحديث الذي جرى بينها وبين ميرتان، أدركت أنّ عليها السّعي الدؤوب لانتزاعِ حُبّه من قلبها، وأنّ تجنّب رؤيته هو السبيل الوحيد لتحقّيق ذلك.

لكن ماذا صارَ بحالِ عهدٍ عندما رأى الرّاعيّة التي يحبّها تُسارعُ إلى الابتعادِ عنه بنفورٍ غريب؟ كان ميرتان قريبه.  
قال له:

- أرأيت، أرأيت النتيجة الحميدة لمساعيك: إخلاص تکرهني  
ولا أجرؤ على اللحاق بها لأبوح لها بمشاعري.  
أجاب ميرتان:

- لديك الكثير من التقدير لفتاة ريفيّة كهذه. وإذا شئت يا سيدي  
فسامُرُها من قبلك أن تأتي إليك هي بنفسها.  
هتف الأمير:

- آه يا ميرتان! لو تعلم أن هنالك فرقاً بين العاشق والصديق  
المؤمن على أسراره! لا أفكر إلا بأن أروق لتلك الفتاة اللطيفة وأجد  
أن لديها من الأدب ما لا يتفق مع التصرفات القسرية التي تنوي أنت  
اتخاذها. أفضل أن أتعذب على أن أجزنها.

ما إن أنهى هذه الكلمات حتى صار في الجهة المقابلة وانتابته كآبة  
عميقة تؤثر في من يراه وخصوصاً في إخلاص الحساسة.

ما إن غاب عن نظرها حتى عادت على عقبيها لكي تتلذذ  
بوجودها في المكان الذي غادره لتوه. قالت:

- هنا توقف، وهنا نظري إلي. ولكن ويا للأسف في كل هذه الأمكنة  
لا يُقابلي إلا بعدم الاكتراث؛ يبدو أنه يأتي إليها ليحلّم دون رقيب  
بمن يحبها، ولكن ما بالي... هل يحق لي أن أتدمر؟ ما الذي يدفعه  
ليتعلق بفتاة يحسبها أدنى منه مرتبة؟

كانت ترغب أحياناً في أن تحكي له قصتها ولكنّ الجنيّة سائدة  
كانت حظرت عليها بشكل مُطلق أن تفصح لأحد عن سرّها، وكان  
امثالها يتغلب على مصالحها بالذات، لذا اتخذت القرار بأن تلتزم  
الصمت.

وبعد بضعة أيام، عاد الأمير إلى المكان نفسه. تجبّبته بعناية وحرز  
لذلك، فأوكل إلى ميرتان بأن يلومها على تهرّبها. تظاهرت بأنها لم تتب

للأمر، ولكن بما أنه لاحظ ذلك فسْتَحْتَرَسَ في المرّة المقبلة لِتَصْرَفَاتِهَا. سُرَّ ميرتان لِكَلَامِهَا وأَحْطَرَ بِهِ سَيِّدَهُ. وفي اليوم التالي، أتى لموافاتها. عندما اقترب منها، بدت مُحْرَجَةً. وعندما حَدَّثَهَا عن مشاعره، زاد حرجها وارتباكها. ومهما تكن رغبتها جارفة في تصديقه كانت خائفة من أن يُحْيَبَ ظنّها وأن يُحْكَمَ عليها وفق ما يراه ويتلذذ بإبهارها بتصریح بالحب لا يتلاءم مع وضعها كراعِيَةٍ فقيرة. أغاظتها هذه الفكرة فأزاد كبرياؤها وتلقّت إفصاحه عن حبه وبرودة تامة عززت من شكوكه وارتياحه. قال لها:

- أنتِ مغرّمة برجل آخر! لكنني أشهد السماء على أنني إذا عرفته فسأصّب عليه جام غضبي عليه.

أجابت:

- لا أطلب منك الرّحمة لأحدٍ يا سيدي. لو عَلِمْتُ بمشاعري لَعَرَفْتُ أن لا علاقة لها بما تنسبه لي.

ما إن سمع الأمير هذه الكلمات حتى استعاد قسماً من رجاء. لكن ذلك الرجاء ما لبث أن بددته تتمة حوارهما لأنها قالت له إنها لا تبالي بالحب، لا بل إنها لن تحب أبداً في حياتها. وكلماتها الأخيرة هذه تسببت له بألم لا يُطاق لكنه تمالك نفسه وتحامل على ألمه قدر الإمكان.

إما أنه الإكراه الذي فرّضه على نفسه، أو أنه شطط شغفه الذي تفاقم بسبب الصعوبات التي تعترضه، سقط الأمير صريع المرض وكان الأطباء يجهلون سبب علته فيسوا من إمكانيّة شفائه وأصبحت حياته في خطر. بيد أن ميرتان، الذي لازم بأمر من الأمير إخلاص، أعلمها بالأخبار المحزنة فاستمعت إليه باضطراب وانفعال يصعب وصفها.

قال لها:

- ألا تعرفين دواءً نافعاً للحمى ولأوجاع الرّأس والقلب؟  
- أعرف دواءً، إنّهُ مزيج من الأعشاب والأزهار، ولكن كل شيء متعلّق بطريقة تحضيرها.

أضاف:

- ألا يمكنكِ المجيء إلى القصر لأجل ذلك؟

قالت وقد احمرّ وجهها:

- لا، أخشى فعلاً ألاّ أنجح.

أردف ميرتان:

- لكن ماذا دهاك! أو تقدّرين على التّهاونِ معنا في أمر فيه منفعة أميرنا؟ أعرف أنّك قاسية جداً ولكنك أفسى مائة مرّة ممّا تصوّرتك. كانت مآخذ ميرتان تُدخِل السرور إلى قلب إخلاص وكانت مسرورة لكونه يلحّ عليها لرؤية الأمير.

ولكي تفوز بهذه الأمانة، ادّعت أنّها تعرف دواءً قادراً على التّخفيف عن الأمير لكنّها في الحقيقة لم تكن تعرف أيّ دواء. ذهب ميرتان لزيارة الأمير. أخبره بما قالته الرّاعية ووصف له اللهفة التي أظهرتها متمنية أن يتعافى. قال له عهد:

- تسعى إلى إرضائي لكنني أسامحك. على أية حال أودّ أن أقدر على التّفكير (حتى لو كنت مخطئاً) بأنّ هذه الفتاة تُكِنّ مودة ما لي. اذهب إلى الملكة وقل لها إنّ إحدى راعيّاتها تملك سرّاً عجيبياً وإنّ بإمكانها شفائي وخذ منها الإذن باصطحابها: اركض ميرتان، طرّف في الحال لأنّ اللّحظات تبدو لي دهوراً.

لم تكن الملكة قد رأت الرّاعية بعد عندما حدّثها عنها ميرتان. قالت له إنّها لا تؤمن بالمعرفة التي تدّعيها الصّغيرات الجاهلات



وإن اصطحابها إلى القصر هو ضربٌ من الجنون.

قال لها:

- ولكن يا سيّدي، أحياناً يمكننا أن نجدَ الشفاء في بعض الأعشاب أكثر مما نجده في جميع كتب إسكليبيوس<sup>(1)</sup>. الأمير يتألم كثيراً ويتمنى أن يُجربَ كل ما تقترحه هذه الفتاة.  
قالت الملكة:

- حسناً. لكن إذا لم تشفه فسأعاملها بقسوة بحيث لا تجرؤ بعد اليوم أن تدعي الحذق.  
عاد ميرتان إلى سيّده وأعلّمه بمزاج الملكة السيّء وأنه يخشى أن تُقاسي إخلاص بسببه.  
هتف الأمير:

- أفضل الموت على ذلك. عُذ على عقبيك وقل لوالدتي إنني أتوسل إليها أن تدعَ هذه الفتاة الجميلة بالقرب من أغنامها البريئة، ثم أردف:  
- ليسَ عليها أن تتحمّل هذا العناء! أشعر أنّ هذه الفكرة تزيد من ألمي.

هُرِعَ ميرتان إلى الملكة يقول لها من قِبَل الأمير ألا تدعَ إخلاص تأتي إلى القصر. ولكن بما أنّ الملكة كانت بطبيعتها سريعة المبادرة فقد أعاظها ترّدّد ولدها وتقلّبه. قالت:

- لقد أرسلتُ في طلبها. إذا شفت ولدي فسأعطيها شيئاً ما على سبيل المكافأة، وإذا لم تشفه فأنا أعرف ماذا عليّ فعله. عُذ إليه وحاول أن تُسليّه، إنه في كآبة تُحزني.

أطاعها ميرتان لكنّه أحترسَ جيّداً من أن يعرف سيّده عن المزاج

(1) إله الطب لدى الإغريق القدامى.

السيء للملكة لأنه سيموت هماً لقلقه على الرّاعية.

كانت مراعي الملكة قريبة من المدينة، لذا لم تتأخر الرّاعية في الوصول إليها، هذا دون أن ننسى أنها كانت مدفوعة بشغفٍ يُجدوها للإسراع أكثر. عندما وصلت إلى القصر أُعلِمت الملكة بذلك لكنها لم تُكلّف نفسها عناء رؤيتها بل اكتفت بأن تطلب منها الاحتراس مما ستبادر إلى فعله؛ وإذا لم تشف الأَميرَ فستضعها في كيس مقفل وترميها في النهر. عندما سمعت الأميرة الجميلة هذا التهديد شحبت وجهدت الدّم في عروقها.

قالت في نفسها:

- تبتألي! إنني لأستحقّ مثل هذا العقاب لكذبي وادّعائي معرفة التداوي بالأعشاب. ورغبتني في رؤية عهد ليست عاقلة بما يكفي لتهرع السماء لحمايتي!

خففت رأسها برقة وسالت دموعها دون أن تجيب.

أولئك الذين كانوا حولها أعجبوا بها. بدت لهم فتاة من السماء وليس شخصاً من البشر.

قالوا لها:

- وممّ تخافين أيتها الرّاعية اللطيفة؟ إنك تحمِلين في عينيك الحياة والموت. وإن نظرة واحدة من نظراتك يُمكنها أن تديمَ عمرَ أميرنا الشاب. تعالي إلى غرفته، جفّفي دموعك واستعملي دواءك دون خشية.

إن الطريقة التي تكلموا بها والرغبة العارمة التي دفعتها لرؤيته قد أعادت إليها الثقة بنفسها من جديد: توسّلت إليهم أن يدعوها تدخل إلى الحديقة لتقطف بيدها كلّ ما كان ضرورياً لها. أخذت أساً ونفلاً وأعشاباً وأزهاراً أهدت بعضها إلى كوييدون رسول الحب وبعضها

الآخر لوالدته فينوس. أخذت ريشات يمامة وقطرات قليلة من دم ذكر حمام، واستغاثت بجميع القوى السماوية والجنّيات. ثم قالت، وهي ترتجف كما ترتجف اليمامة عندما ترى صقراً، إنّ بإمكانهم اصطحابها إلى غرفة الأمير. كان مضطجعاً في سريره، شاحب الوجه، سقيم العينين. لكن ما إن لمحها حتى تبدّل لون وجهه إلى الأفضل ولاحظ ذلك بفرح عميم.

قالت له:

- سيدي، منذ أيام وأنا أنذر النذور لتعود إليك صحتك. لا بل إنّ ورعي دفّعتني لأن أقول لأحد رعيانك إنّني أعرف بعض الأدوية الناجعة، وإنني سأحاول التخفيف من آلامك بكل سرور. لكنّ الملكة قالت لي إنه إذا تخلّت عني السماء ولم أستطع شفاءك فإنّها تنوي إغراقني في النهر. أحكم بنفسك يا سيدي على المخاطر التي تحدق بي وكن مقتنعاً أنّي أهتمّ بشفائك حرصاً على سلامتك أكثر من حرصي على سلامتي.

قال لها:

- لا تخشي شيئاً أيتها الرّاعية الفاتنة. الأمنيات الجميلة التي تتمينها لحياتي ستجعلها عزيزة عليّ وسأبذل جهدي للمحافظة عليها. كنت لا أبالي بأيّامي: وآتى لي أن أكون سعيداً حين أتذكر الأغنية التي سمعتك تنسدينها لعهد! هذه الكلمات المشؤومة وبرودتك أحالتني إلى الوضع التّعيس الذي ترينني فيه، ولكّنتك أيتها الرّاعية الجميلة تأمرينني بالعيش، لنعش إذاً، لنعش من أجلك فقط. لم تستطع إخلاص أن تخفي إلاّ بمشقة اللذة التي شعرت بها لهذا القول اللطيف. ومع ذلك، ولأتمها خافت أن يسمع أحد ما كان يقوله لها الأمير، سألته ألم يكن من الأفضل أن تضع له ضمادات

الأعشاب التي قطفَها على رأسه وحولَ معصميه. مدَّ لها ذراعيه بحنان فوضعت له بسرعة إحدى الضمادات خوفاً من أن يلاحظ أحد الحاضرين ما كان يدور بينهما. وهتفَ الأمير بعد بضعة لحظات إنَّه لم يعد يشعر بالألم. وكان ما يقوله صحيحاً: أخضرَ أطباؤه ومكثوا مندهشينَ من المفعول السريع لذلك الدواء. وعندما رأوا الرَّاعية التي عاجلتها، عدلوا عن تفاجئهم وقالوا إنَّ نظرة واحدة من نظراتها أشدَّ نجوعاً من الأدوية كلها.

كانت الرَّاعية غير متأثرة بكلِّ المدائح التي تُقال لها، ما دفع المادحين لاستغراب تصرفها ووصفه بالأبله، غير مُدركين أنَّ له أسبابه. انزوت في ركن من الغرفة واحتجبت عن الجميع إلا عن مريضها. كانت تقرب منه من وقت لآخر لكي تلمس رأسه أو تجسَّ نبضه، وخلال تلك اللحظات القليلة كانا يقولان أحدهما للآخر آلاف الأشياء الجميلة التي يملها انعطاف قلبيهما.

قالت له:

- أمل يا سيدي أنَّ الكيس الذي أمرت الملكة بتحضيره لإعراقني لم يعد صالحاً لذلك الاستعمال المشؤوم. يبدو أنَّ صحَّتك التي هي غالية جداً عندي آيلةٌ إلى التحسُّن.

أجاب:

- الأمر متعلِّق بك يا إخلاص اللطيفة. افردني لي مكاناً صغيراً في قلبك فأرتاح ويكتب لي عمر جديد.

نهض الأمير وذهب إلى جناح الملكة. عندما قالوا لها إنَّه سيدخل إلى غرفتها لم تشأ تصديقهم. تقدَّمت فجأةً للقائه ومكثت مندهشةً فعلاً لرؤيته أمام باب غرفتها.

هتفت:

الانبعاث العجيب؟

أجابها:

- لَطِيبَتِكَ وحنانِكَ يا مولاتي. أرسلتِ في طلبِ أمْهَرِ فتاةٍ في العالم. أتوسَّلُ إليكِ أن تُكافئِها بطريقةٍ متناسبةٍ مع الخدْمَةِ التي أدَّتْها لي.

أجابت الملكة بنبرةٍ قاسيةٍ:

- ليسَ الأمرُ مستعجلاً. إنَّها مجردُ راعيةٍ بسيطةٍ تعتبر نفسها محظوظةً لكونِها تحرسُ خرافي.

وفي تلك اللحظة وصلَ الملك. ذهبوا ليُعلنوا له الخبرَ السَّعيدَ لشفاء الأمير. دخلَ على الملكة. أوَّلُ شيءٍ لفتَ نظره هوَ إخلاصُ بجماها الذي يُشبهُ الشَّمسَ السَّاطعةَ بألف شعاع، جماها الباهر الذي جعله مذهولاً لبعضِ الوقتِ غيرَ قادرٍ على سؤالِ الحاضرينَ مَنْ هيَ تلك الفتاة الرَّائعةُ ومنذ متى تسكنُ فتياتِ السَّماءِ قصره.

وأخيراً أفاق من ذهوله واقتربَ منها. وإذ عرف أنها السَّاحرة التي شَفَّتْ ولدَه للتو، قبلها وقال متظافراً إنَّ حالته سيئةٌ للغاية واستحلفها أن تُبادر إلى شفائه هوَ أيضاً.

دخل، وتبعته إخلاص. لم تكن الملكة قد رأتها بعد. لا يمكن وصف دهشتها لدى دخول الفتاة. أطلقت صرخة عظيمة وتهاوت أرضاً موجَّهة إلى الرَّاعية نظراتٍ غاضبة. مكثَ عهد وإخلاص مرتعبين. لم يعرف الملك ما سبب تلك التوبة المفاجئة وأظهر جميع أفراد الحاشية استياءهم لما جرى. وأخيراً عادت الملكة إلى رُشدِها. سألتها الملك مرَّات عدَّة ما الذي دهاها لكي تتصرَّف على هذا النحو فأخفت اضطرابها وقالت إنه مجرد إرهابٍ فحسب. لكنَّ الأمير

كان يشعر بالقلق إزاء تصرف والدته فهو يعرفها جيداً. تحدّثت إلى الراحبة بشيء من الطيبة قائلة لها إنّها تريد أن تبقىها قربها لكي تعني بزهور حديقته. شعرت الأميرة بفرح عندما فكرت أنّها ستبقى في مكان يتيح لها أن ترى عهد في كل يوم.

إلا أنّ الملك أرغم الملكة على الدخول إلى مكتبه وسألها بلطف عن سبب الهلع الذي انتابها لدى رؤية الفتاة.  
هتفت قائلة:

- آه يا مولاي. رأيت حلماً مُرعباً. لم أر في حياتي هذه الراحبة الشابة لكنّ خيالي صوّرها لي بوضوح كليّ وما إن لمحتّها حتّى عرفتها. رأيتها في الحلم تتزوّج ابني. وأخشى أن تتسبب لي هذه الفلاحة البائسة بألم كبير.  
قال لها الملك:

- وهل تثقين بالأحلام وهي من نسج الخيال! أنصحك بالألّا تركني إليها. أرسلي الراحبة لتخرس لك قطعانك ولا تحزني لأجل أشياء موهومة.

أغضبت نصيحة الملك الملكة. كانت أبعد من أن تمثّل لها ولم تعد تنوي إلاّ تحزّي مشاعر ابنها تجاه إخلاص.

اغتم الأمير كلّ الفرص لرؤية الفتاة. بما أنّها كانت تعني بالأزهار فإنّها كانت غالباً في الحديقة ترويهما. ويبدو أنّها كلّما لمستها ازدادت لمعاناً وجمالاً. كان شاطر يرافقها وكانت تتحدّث إليه أحياناً عن الأمير مع أنّه لم يكن بمقدوره أن يجيبها. وعندما يقرب منها الأمير تظّل مرتبكة، وكانت عينها تسيان بأسرار قلبها بما يكفي. كان الأمير مفتوناً بها وكان يقول لها كلّ ما يقوله عاشق حنون بوحى من قلبه.

أما الملكة فلم يعد بإمكانها النوم لتشبهها بحلمها ولخشيتها من تأثير جمال إخلاص الذي لا يُضاهى. كانت تستيقظ مع الفجر؛ وتحتجى أحياناً خلف سياج الحديقة وأحياناً أخرى في عمق مغارة لكي تسمع ما كان ابنها يقوله للفتاة الجميلة. لكنهما كانا يلتزمان الحذر في لقاءاتهما فيتحدثان بصوتٍ خفيضٍ جداً ما حدا بالملكة للتصرّف فقط بموجب ظنونها. وكان قلقها يتفاقم، ولم تكن تنظر إلى ابنها الأمير إلاّ باحتقار، وتهجس ليلاً ونهاراً بفكرة أنّ تلك الرّاعيّة ستعتلي العرش.

كان عهدُ يُراقب تصرّفاته ويضبطها قدرَ الإمكان. ولكن الجميع لاحظوا مع ذلك أنّه يحبّ إخلاص. سواء كان يمتدحها على دارج عادته بالتعبير عن إعجابه بها، أو يلومها عن قصدٍ فإنّه في الحالتين كان يتصرّف كرجلٍ مهتمٍّ بأمرها. وإخلاص من جهتها، لم تكن تستطيع الامتناع عن التحدّث عن الأمير إلى صديقاتها. وبما أنّها كانت تغني غالباً الكلمات التي ألّفتها لأجله ظلّت الملكة مندهشةً لدى سماعها صوتها الرّائع وجمال كلمات الأغنية.

كانت الملكة تقول:

- ماذا فعلتُ لكِ أيتها القوى السّماوية العادلة. ماذا فعلت لكي أعاقب في الأمر الذي يمسنني في الصّميم؟ يا ويلتاه! كنت أريد تزويج ابني من ابنة أخي وها إنّي أرى، والألم يكاد يميّتي، أنّه متعلّق براعيّة بائسة ستجعله أكثرَ عصياناً لأوامري.

وفيا كانت الملكة تُندب حظّها وتفكر في ألف طريقة لكي تُعاقب إخلاص على جمالها وفتنتها، كان الحبّ يزداد توهجاً في قلبي عاشقينا اليافعين. وإذا اقتنعت إخلاص بصدق الأمير، فإنّها لم تستطع أن تُخفي عنه أصلها الشّريف ولا مساعرها تجاهه. سحره هذا الاعتراف

الرقيق وهذا البوح الحميم، وفكر أنه لو كان في مكان آخر غير حديقة الملكة لكان ارتمى عند قدميها ليشكرها على إجلاء ذلك السر. ألمه أن يكون مكرهاً على كتمان شغفه. أحب إخلاص الرأعية وازداد حبه لها عندما عرف مقامها. وإذا كان صدق بسهولة هذا الأمر الغريب، أي أن يرى أميرة عظيمة متشرّدة في أرجاء العالم تارة تعمل كراعية وطوراً كبُستانية، فذلك لأنه في تلك الأزمنة كان هذا النوع من المغامرات شائعاً جداً. ثم إنه كان يجد في تصرفاتها وحركاتها دليلاً على صدق أقوالها.

عاهد الأمير عهد المفعم بالحب والاحترام الأميرة على وفاء أبدي. وهكذا فعلت هي أيضاً. وتواعدا على الزواج ما إن يوافق الأهل على قرانها. لاحظت الملكة قوة ذلك الشغف الناسي. وذات يوم جاءت وصيفتها، وكانت تسعى لإرضائها من خلال إثبات ظنونها، تقول لها إن إخلاص كانت تُرسل شاطراً كل صباح إلى جناح الأمير حاملاً سلتين ممتلئتين أزهاراً وكان ميران يقناده. فقدت الملكة صبرها لدى سماعها هذه الأخبار. وانتظرت بنفسها مرور شاطر المسكين. وبالرغم من توصلات ميران، اقتادت الخروف إلى غرفتها ومزقت السلال والأزهار إرباً وفتشت بينها فوجدت في قرنفة كبيرة غير متفتحة قصاصة ورق صغيرة كانت إخلاص أدخلتها بلباقة كبيرة. وكانت في تلك الرسالة توجه ملامة رقيقة إلى الأمير لخوفها من المخاطر التي يتعرض إليها كل يوم أثناء ممارسته هواية الصيد. وقد جاء فيها ما يلي:

وسَطَ المَلدَاتِ التي أنعمُ بها  
أشعرُ بالخطر



لَأَتِكَ يَا أَمِيرِي تَذْهَبُ كُلُّ يَوْمٍ لِلصَّيْدِ فِي تِلْكَ الْأَمْكِنَةِ.  
 حَبَابًا بِالسَّيِّئِ قَلْبِي لِي أَيْ سَحَرٍ تَجِدُ فِي مَطَارِدَتِكَ  
 ضَوَارِي الْغَابَاتِ تِلْكَ؟  
 حَرِيٌّ بِكَ أَنْ تُوَجَّهَ سِهَامَكَ إِلَى الْقُلُوبِ الْحَنُونَةِ  
 الْمُنْقَادَةِ لَكَ:  
 حَرِيٌّ بِكَ تَجَنَّبُ غَضَبِ الدَّبَّيَّةِ وَالْأَسْوَدِ.»

وَفِيهَا كَانَ غَيْظَ الْمَلِكَةِ حَيَالِ الرَّاعِيَةِ يَبْلُغُ مِنْهَا مَبْلُغًا، ذَهَبَ مِيرَتَانِ  
 لِيُعْلِمَ سَيِّدَهُ بِالْحَادِثَةِ الْبَغِيضَةِ الَّتِي حَصَلَتْ مَعَ الْخُرُوفِ. هُرِعَ الْأَمِيرُ  
 الْقَلِقُ إِلَى جَنَاحِ وَالِدَتِهِ لَكُنْهَافًا كَانَتْ ذَهَبَتْ لِلِقَاءِ الْمَلِكِ.  
 قَالَتْ لَهُ:

- أَرَأَيْتَ يَا مَوْلَايَ الْمَشَاعَرَ النَّبِيلَةَ لِابْنِكَ. إِنَّهُ يَحِبُّ تِلْكَ الرَّاعِيَةَ  
 التَّعْسِيسَةَ الَّتِي أَقْنَعْتَنَا بِأَنَّهَا تَعْرِفُ عِلَاجًا نَاجِعًا لِشِفَائِهِ. يَبْدُو أَنَّهَا  
 تَعْرِفُ سِرَّ الدَّوَاءِ لِأَنَّ الْحَبَّ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهَا. لَمْ تَرُدَّ لَهُ صِحَّتَهُ إِلَّا  
 لِكَيْ تَصِيْبَهُ بِشُرُورِ أَكْبَرِ. وَإِذَا لَمْ نَحْتِطْ لِلْمَصَائِبِ الَّتِي تَهْدِدُنَا فَإِنَّ  
 حَلْمِي الَّذِي أَخْبَرْتُكَ بِهِ سَيَتَحَقَّقُ.  
 قَالَ لَهَا الْمَلِكُ:

- أَنْتِ صَارِمَةٌ بِطَبِيعَتِكَ. تَرِيدِينَ أَلَّا يَفَكَّرَ ابْنُكَ إِلَّا بِالْأَمِيرَةِ الَّتِي  
 اخْتَرْتَهَا لَهُ زَوْجَةً. لَيْسَ الْأَمْرُ سَهْلًا، لِذَا عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَلَّى بِشَيْءٍ مِنْ  
 التَّسَامُحِ حَيَالِ سَنَّهُ.  
 هَتَفَتِ الْمَلِكَةَ:

- لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أُحْتَمِلَ دِفَاعَكَ الدَّائِمَ عَنْهُ. كُلُّ مَا أَطْلَبُهُ مِنْكَ  
 يَا مَوْلَايَ هُوَ أَنْ تُوَافِقَ عَلَيَّ إِبْعَادِهِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ لِأَنَّ غِيَابَهُ سَيَحُلُّ  
 الْمَشْكَلَةَ.

كان الملك يُحِبُّ السَّلَامَ. وَيُذْعِنُ لِكُلِّ مَا تَطْلُبُهُ الْمَلِكَةُ الَّتِي عَادَتْ فِي الْحَالِ إِلَى جَنَاحِهَا.

وَجَدَتْ فِيهِ الْأَمِيرَ وَكَانَ يَنْتَظِرُهَا بِقَلْقٍ بِالْغ.

قَالَتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يُبَادِرَهَا بِالْكَلامِ:

- يَا بُنَيَّ، أَرَانِي أَبُوكَ الْمَلِكُ رِسَالَةَ بَعْثِهَا شَقِيقِي الْمَلِكُ لَتَوِّهِ، وَيُرِيدُكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى قَصْرِهِ لِكِي تَتَعَرَّفَ عَلَى الْأَمِيرَةِ الَّتِي اخْتَبَرْتَ زَوْجَةَ لِكَ مِنْذُ الطَّفُولَةِ وَتَتَعَرَّفَ هِيَ إِلَيْكَ. أَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُحْكَمَ بِنَفْسِكَ عَلَى مَزَايَاهَا وَأَنْ تُحِبَّهَا قَبْلَ أَنْ تُتَّحِدَا لِلْأَبَدِ؟  
قَالَ لَهَا الْأَمِيرُ:

- لَا أَطْلُبُ شَيْئاً مُمَيَّزاً لِنَفْسِي. لَمْ يَعْذِرْ عُرْفاً أَنْ يَزُورَ الْمُلُوكَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَأَنْ يَسْتَشِيرُوا قُلُوبَهُمْ بَدَلاً مِنْ اعْتِبَارِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ حَافِزاً لِلْمُصَاهَرَةِ. سِوَاءَ كَانَتْ الْفَتَاةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا جَمِيلَةً أَمْ قَبِيحَةً، ذِكِّيَّةً أَمْ غَيْبِيَّةً فَالْأَمْرُ سِوَاءَ.

هَتَفَتْ الْمَلِكَةُ وَقَدْ تَفَجَّرَ غَضَبُهَا فَجَاءَ:

- أَفْهَمَ مَا تَزْمِي إِلَيْهِ أَيُّهَا الْفَتَى الْمَتَهَوِّرُ. أَنْتَ مُغْرَمٌ بِرَاعِيَةِ غَيْرِ جَدِيرَةٍ بِكَ وَتَخَافُ أَنْ تَتْرَكَهَا. وَلَكِنَّكَ سَتَرَكَهَا وَإِلَّا جَعَلْتَهَا تَقْضِي نَحْبَهَا أَمَامَ عَيْنِكَ. لَكِنَّكَ إِذَا رَحَلْتَ دُونَ تَأْخِيرٍ أَوْ مِمَاطَلَةٍ وَعَمَلْتَ جَهْدَكَ لِنَسْيَانِهَا فَسَاحْتَفِظْ بِهَا بِالْقَرْبِ مِنِّي وَسَاحْتَبِهَا بِقَدْرِ مَا أَكْرَهَهَا الْآنَ.

شَحِبَ وَجْهَ الْأَمِيرِ وَكَانَتْهُ مَشْرِفَ عَلَى الْمَوْتِ. شَاوَرَ نَفْسَهُ بِشَأْنِ الْقَرَارِ الَّتِي يَجِبُ اتِّخَاذُهُ. قَلْبُ الْمَسْأَلَةِ مِنْ كَافَّةِ وَجُوهِهَا وَلَمْ يَكُنْ يَرَى إِلَّا غَيُومًا سَوْدَاءَ تَلُوحُ فِي الْأَفْقِ. كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ وَالِدَتَهُ كَانَتْ أَشَدَّ الْمَلِكَاتِ قَسُوءَ وَانْتِقَاماً فَخَشِيَ أَنْ تَغِيْظَهَا مَقَاوِمَتَهُ لَهَا وَأَنْ تُعَانِي عَشِيقَتَهُ الْمَحْبُوبَةَ مِنْ جِزَاءِ ذَلِكَ. وَأَخِيرًا، وَقَدْ حَثَّتْهُ وَالِدَتَهُ عَلَى الْبَتِّ

في الأمر والقول ما إذا كان ينوي الرّحيل أم لا، أعلن موافقته كما يوافق رَجُلٌ على اجتراع كأس السم الذي سيقتله.

وعدّ والدته بالرحيل ثم خرج من غرفتها ودخل إلى مخدعه منتقبض القلب وهو يشعر أنه على شفير الموت. أسرّ إلى ميرتان الوفي بالمصيبة التي لحقت به. وأراد أن يُخبر إخلاص عمّا جرى وذهب للبحث عنها نافد الصبر. أحياناً كانت تلوذ إلى أحد الكهوف هرباً من أشعة الشمس الحارقة في الحديقة. أمامه كان هناك مرج صغير من العشب الأخضر على ضفة شلال متساقط من أعلى إحدى الصخور. في ذلك المكان الهانئ أزلت جدائل شعرها الأشقر المتموج المائل إلى الفضة، والأرق من الحرير؛ وضعت قدميها العاريتين في الماء فحملتها وشوشته العذبة على الاسترخاء بعد تعب العمل واستسلمت تدريجاً للوسن الجميل. رغم أن عينيها كانتا مغمضتين إلا أنّهما احتفظتا بكل سحرهما. وكانت أهدابها الطويلة السوداء تبرز بياض بشرتها. بدا وكأنّ إلهات الجمال وآلهة الحب يرفرفون فوقها، وكان التواضع والعذوبة يزيدان على جمالها جمالاً.

وهناك في تلك الخلوة، عثر عليها الأمير العاشق. تذكر أنّها كانت نائمة أيضاً حين رآها أول مرة، لكنّ المشاعر التي ألهمته مذ ذاك ازدادت ولهاً وأحسّ أنّه يُعطيها نصف حياته ليعيش نصفها الآخر قريباً. نظر إليها لبعض الوقت بلذّة أنسته همومه إلى حين. ثم جال نظره على مفاتيحها فلمح قدمها الأشدّ بياضاً من الثلج. لم يستطع أن يشيح ببصره عنها لشدة إعجابها بها. اقترب منها ساجداً على ركبتيه ثم أمسك بيدها فأفاقت في الحال وبدت مستاءة لأنّه رأى قدمها فخبأتها وهي تحمّر خجلاً مثل وردة حمراء تفتحت مع انبثاق الفجر. لكنّ ذلك اللون ما لبث أن شحب لأنّها لاحظت حزناً شديداً

على وجه الأمير. قالت له مرتعبة:

- ما بك يا سيدي؟ أرى من عينيك أنك في غاية الحزن.

قال لها وهو يذرف دموعاً لم يقوَ على تداركها:

- آه يا أميرتي الغالية، مَنْ يقدر في مثل هذه الحال على غير الحزن؟ سيفرقون بيننا، عليّ أن أرحل، أو أعرضَ أياّمك لكلّ الأخطار التي قد تنجم عن غضب الملكة. فهي عرفت بالحبّ الذي يجمعني بك. لا بل إنها رأت الرسالة الصّغيرة التي كتبتها لي، إحدى وصيفاتها قالت لي ذلك. لم تبدِ أية رغبة للتعاطف معّ المي، لا بل ترغمني على الذهاب إلى الملك أخيها بكلّ ظلم وإجحاف.

هتفت الأميرة:

- ماذا تقول أيها الأمير؟ أنت على أهبة أن تتركني وتظنّ أن ذلك ضروريّ للإبقاء على حياتي؟ كيف بإمكانك أن تتصوّر مثل هذا المسعى؟ دغني أموت أمام ناظريك على أن أعيش بعيدة عنك فهذا أسهل عندي.

لا يمكن لمثل هذا الحديث الرقيق المستعطف إلا أن تقطعه غالباً الشّهقات والدموع. لم يكن هذان العاشقان اليافعان يعرفان بعدُ تباريح الغياب ولم يحترسا لها، وذلك ما أضاف هموماً جديدة على تلك التي اعترضتها حتى ذلك الحين. تعاهدا ألف مرّة على الوفاء والحبّ الأبدي. ووعد الأمير إخلاص بالعودة بأقصى سرعة. قال لها:

- لا أرحل إلاّ لأفهم خالي وابنته بأن يعدلا عن فكرة مصاهرتي، لن أعمل إلاّ على إسخاط تلك الأميرة التي يخطّطون لتزويجي بها. وسأنجح في ذلك.

قالت إخلاص:

- إذا لا تدعها تراك وإلا لأعجبتهما مهما حاولت أن تنفّرها منك.  
وراحا كلاهما يبكيان بمرارة وألم. تبادلًا نظرات مفعمة بالأسى  
وتعاهدًا كلٌّ من جانبه وبشغفٍ كبير، وكان ذلك بمثابة عزاءٍ لهما،  
على أن يظلاّ على مشاعرهما الرقيقة والجامحة في آن.

مرّ الوقت أثناء ذلك الحديث الرقيق بسرعة كبيرة وكان الليل قد  
ادلهمّ قبل أن يفكرا بالافتراق. لكنّ الملكة أرادت أن تستشير الأمير  
بالنسبة للموكب الذي سيرافقه فعجّل ميران بالمرحىء للبحث عنه.  
وجده ساجداً أمام عشيقته ممسكاً بيدها في يديه. ولدى رؤيته تصلّب  
العاشقان بحيث عجزا عن الكلام. قال لسيدته إنّ الملكة تطلبه ويجب  
الانصياع لأوامرِها. كذلك ابتعدت الأميرة من جهتها.

وجدت الملكة الأمير في غايّة الكآبة، متبدّل الملامح فأدركت في  
الحال من كان السبب. لم تشأ أن تُحدّثه عن الأمر، يكفيها أن يزحل.  
وبالفعل، تمت التّحضيرات بسرعة كبيرة بدا معها وكأنّ الجنّيات  
يتدخلن في سير الأمور. وهو لم يكن منشغلاً إلاّ بما يتعلّق بشغفه.  
أراد أن يبقى ميران في القصر لكي يمده كلّ يوم بالأخبار عن  
أميرته. ترك لها أجمل جواهره في حال احتاجت إليها وجعلته فطنته  
غير غافل عن أيّ شيء في مثل ذلك الظرف الخطير من حياته.

وأخيراً توجب عليه الرّحيل. لا يمكن التّعبير عن اليأس الذي  
تولّى عاشقينا اليافعين. لم يكن شيء يستطيع التخفيف من وطأة  
ذلك اليأس إلاّ الأمل بالتلاقي من جديد قريباً. عندئذٍ أدركت  
إخلاص فداحة بلّيتها: أن تكون ابنة الملك، أن تمتلك ولايات  
مترامية الأطراف، وأن تجد نفسها بين يدي ملكة متوحّشة تُبعد ابنها  
خشية أن يقع في حبّها هي التي لم تكن دونه في شيء والتي تملك كلّ  
المؤهلات ليسعى إثرها أهمّ ملوك الكون. لكنّ القدر شاء ذلك.

سُرَّتِ الْمَلِكَةُ لَغِيَابِ ابْنِهَا، وَلَمْ تَعُدْ تَتَفَكَّرُ عِنْدئِذٍ إِلَّا بِمِصَادِرَةِ الرِّسَائِلِ الَّتِي تُبْعَثُ لَهُ وَقَدْ نَجَحَتْ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفَتْ أَنَّ مِيرْتَانَ كَانَ الْمُؤْتَمَنَ عَلَى أَسْرَارِهِ. فَأَعْطَتْ الْأوامِرَ بِتَوْقِيفِهِ مَلْفَقَةً حَجَّةً كاذِبَةً وَأرسلته إلى سجن في أحد القصور حيث كان يقاسي آلام الاعتقال. استاء الأمير من هذه الأخبار كثيراً وكتب إلى الملك والملكة يسألها إطلاق سراح صديقه المفضل. ولكن كان ذلك جزءاً يسيراً من فصل عذابه الطويل.

ذات يوم، أفاقَتِ الأَمِيرَةُ مِنْذُ الفجرِ وَدَخَلَتْ إلى الحديقة لتقطِفَ الأزهارَ الَّتِي تُسْتخدَمُ عادةً لِزِينَةِ الْمَلِكَةِ فرأت شاطراً الوفي لا يكاد يتقدّم إلى الأمام حتّى يعود على عقبيه مرتعداً. وعندما أرادت أن تعرف ما الذي يُثير خوفه إلى هذا الحدّ، بدأ يجتذِبُها من ثوبها لكي يَمْنَعَهَا مِنْ الاقتراب (فهو كان مفعماً بالذكاء). سمعت حفيف أفاع حاداً. وفي الحال طوّقتها الضفادع والأفاعي والعقارب والنواشر<sup>(1)</sup> والحيات التي أخذت تنشب في الهواء لكي ترتمي عليها وتلسّعها لكنّها ارتدّت إلى حيث كانت عاجزة عن التقدّم.

بالرغم من الرعب الذي اغترأها لم تستطع إلا أن تعترف بذلك الأمر الخارق الذي نسبته هي إلى خاتم مرصع بالجواهر أعطها إياه حبيبها. كيفما التفتت رأت تلك الحيوانات السامة تُهرع نحوها مائة الممرات ومنتشرة على الأزهار وتحت الأشجار. لم تعرف إخلاص الجميلة ماذا يجدرُ بها أن تفعل. رأت الملكة عند نافذتها تضحك من خوفها. وأدركت حينئذٍ أنه لا يمكنها أن تعِدَ نفسها بأن يأتي أحدٌ لإنقاذها بأمر من الملكة.

قالت بشجاعة:

(1) ناشر: أفعى صغيرة سامة.

- عليّ أن أموت. فهذه المسوخ المرعبة التي تحيط بي لم تأتِ وخذها هنا. إنّ الملكة هي التي أمرت بإحضارها؛ تريد أن تتفرّج على نهاية حياتي البائسة التي كانت حتّى هذه اللحظة حياة ممعنة في التعاسة فلا أكنّ لها أيّ حبّ؛ وإذا كنت أتحمّس على فقدانها فلتشهد السماء على سبب تحسّري هذا ولتنصّفني.

وعلى هذا تقدّمت، لكنّ جميع الأفاعي وشركاءها راحت تتراجع مبتعدة عنها. كلّما مشت نحوها كانت تلك الزواحف المميّنة تنسحب من الحديقة بطريقة أدهشت الأميرة بقدر ما أدهشت الملكة، منذ وقتٍ طويل كان يجري تحضير تلك الأفاعي والحيوانات الخطرة لإهلاك الرّاعية بلّسعاتها.

فكرت الملكة أنّ ابنها لن يكون متفاجئاً بأمر موتها لأنّه سيغزى إلى سبب طبيعيّ وستكون بمنأى عن ملامته، لكنّ بعد فشل خطتها أرادت اللّجوء إلى وسيلة أخرى.

كان هنالك عند آخر الغابة جنيّة لا يمكن الوصول إليها لأنّ لديها فيلة تجول حول الغابة دون توقّف وتلتهم المسافرين التّعساء الحظّ وخيولهم حتّى الحوافر لشدة نهمها. وقد أجزت الملكة اتفاقاً مع الجنيّة: إذا صادف ووصل أحدهم من قبلها بفعل معجزة إلى قصرها، فعليها تزويده بشيء ما يميت ليخمله إليها.

نادت على إخلاص ووجهت إليها أوامرها بالرحيل. كانت سمعت من زميلاتها جميعاً عن مخاطر الدّهاب إلى تلك الغابة. لا بل إنّ راعية عجوزاً أخبرتها أنّها استطاعت الخروج من هناك لحسن الحظّ بفضل نجدة خروف صغير اصطخبته معها. لأنّ تلك الفيّلة مهما تكن غضوباً فإنّها عندما ترى حملاً تصبح وديعة مثله؛ وتلك الرّاعية نفسها قالت لها إنّه أوكل إليها جلب حزام حارقٍ إلى الملكة.

خافت أن تُزغَمها الملكة على ارتدائه فأحاطت به الأشجار التي احترقت مُبطلَةً تأثيره وهكذا فقد الحزام قدرته على التسبب بالأذى الذي كانت تتوقَّعه الملكة.

عندما استمعت الأميرة إلى هذه الحكاية، لم تصدق أنها ستشكل فائدة بالنسبة لها في يوم من الأيام. لكن عندما أصدرت الملكة أوامرها، وهي بمثابة حُكم مبرم، توصلت إلى السماء لتُساعدَها. اصطحبت شاطراً معها وأطلقت إلى الغابة المحفوفة بالأخطار. ابتهجت عندئذ الملكة وقالت للملك:

- لن نرى بعدَ اليوم عشيقه ولِدنا اللعينة. أرسلتُها إلى مكانٍ حيث ألف واحدة مثلها لا تشكل ربعَ وجبةٍ لطعام الفيلة.  
قال لها الملك إن لديها روحاً انتقاميةً جامحةً ولا يمكنه إلا أن يتحسّر على أجمل فتاةٍ رآها حتى اليوم:  
أجابته:

- أحقاً؟ أنصحك إذاً بأن تحبها وأن تذرِفَ الدموعَ على موتها كما يذرف عهد البائس الدموعَ على غيابها.  
في تلك الأثناء، لم تكد إخلاص تصل إلى الغابة حتى رأت نفسها مُحاطةً بالفيلة. لكن تلك الحيوانات العملاقة المُخيفة ابتهجت برؤية الخروف الجميل الذي كان يمشي بجرأةٍ أكبر من سيده، وبدأت تُداعبه برقةٍ بواسطة خراطيمها المروعة مثلما تلامس سيده خروفاً بيدها. دُعرت الأميرة من أن تفصل الفيلة مَصيرها عن مصير الخروف فحملته بين ذراعيها رغم وزنه الثقيل. كيفما التفتت كانت تشهره دوماً وهكذا تقدّمت بسرعة نحو القصر المنيع لتلك الجنية العجوز.

وصلت إلى القصر بكثيرٍ من العناء والخوف. بدا لها ذلك المكان



مهملاً بشدة، ولم تكن الجنة التي تسكنه أقلّ تعرّضاً للإهمال. أخفت الجنة بعضَ اندهاشها من رؤيتها في قصرها، لأنّ أحداً لم يتمكن من الولوج إليه منذ زمنٍ بعيد.

سألتهَا:

- عمّ تبخّثينَ أيتها الفتاة الجميلة؟

أعلمتها الأميرة بنبرة متواضعة بتوصيات الملكة وتوسّلت إليها أن تعطيها حزام الصداقة لتسلّمها إياه.

قالت:

- لن يُرفَضَ لملكك طلب. لكنّه لكِ بالطبع.

أجابت:

- لا أعرف يا سيّدي.

- لكنني أنا أعرف.

واستلّت من صندوقها حزاماً مُحملياً أزرق تتدلّى منه جيوب عدّة تُستخدَم لوضع صرّة نقود ومقصّات وسكين، ثمّ قدّمت لها تلك الهدية الجميلة.

قالت لها:

- خذي، هذا الحزام يجعلك محبوبّة شرط أن تضعيه فوراً وصولك

إلى الغابة.

شكرتها إخلاص وانطلقت محتمةً بشاطر الذي كان ضروريّاً لها أكثر من أيّ وقتٍ مضى. احتفلت بها القبيلة وسمّحت لها بالمرور بالرغم من ميولها المتوحّشة. لم تنسَ أن تضعَ حزام الصداقة حول شجرة. وفي الحال بدأت الشجرة تشتعل ويتأجج لهيها متطاولاً نحو السموات. ثمّ نزعَت الحزام وحملته من شجرة إلى شجرة حتّى فقدَ مفعوله. ومن ثمّ وصلت إلى القصر وهي تكاد تموت تعباً.

عندما رأتها الملكة، مكثت مندهشة جداً ولم تستطع إلا التعبير عن غضبها. قالت لها:

- أنتِ مُحْتَالَةٌ. لم تذهبي عندَ صديقتي السَّاحِرَةِ، أليسَ كذلك؟  
أجابت إخلاص الجميلة:

- عُذراً سيّدي، أجلب لكِ حِزامَ الصِّداقة الذي طلبته.  
أضافت الملكة:

- ألم تضعيه؟

- إنه أئمن من أن تضعه راعية فقيرة مثلي!  
قالت الملكة:

- لا بأس! لا بأس! أقدمه لكِ لقاءَ الجهدِ الذي بذلته. لا تنسي أن تتخصري به. ولكن قولي لي، ماذا صادفتِ في طريقك؟  
قالت:

- صادفتُ فيلةً ذكيةً للغاية وتتحلّى باللباقة ورؤيتها متعة للنظر. يبدو أنّ هذه الغابة مملكتها، وبعضها أكثر سيادة من البعض الآخر. شعرت الملكة بغیظ عارم بيد أنّها تداركت نفسها لكي تكتمه. لكنّها أملت بأن يُحرق الحِزام الرّاعية دون أن يستطيع شيء في العالم حمايتها. قالت بصوتٍ خفيض:

- إذا كانت الفيلة أعفتك من الموت فإنّ الحِزام سينتقم لي. سترين أيتها التّعيسة الصِّداقة التي أكنّها لكِ والمكافأة التي ستلقينها لأنك عرفت كيف تروقين لابني!

انزوت إخلاص في غرفتها الصّغيرة وراحت تبكي غياب أميرها الغالي. لم تكن تجرؤ على الكتابة له لأنّ للملكة جواسيس في الرّيف وهم يصادرون الرّسائل التي تُبعث لابنها. قالت:

- وا أسفاه يا عهد ستسمع قريباً بأخبار مُحزنة عني. لم يكن يجدرُ

بك أن ترحل وتركني لغضب أمك المسعور. كان عليك أن تدافع عني أو ألفظ بين يديك أنفاسي الأخيرة بدل أن أكون العوبة في قبضة سيطرتها وطغيانها، ولا عزاء لي.

ذهبت عند طلوع النهار إلى الحديقة لتعمل كالعادة. وجدت هناك أيضاً ألف حيوان سأم ووقاها خاتمها شرها. وضعت الحزام المخملي الأزرق. وعندما رأتها الملكة تقطف الأزهار بذلك الهدوء وكأنه مجرد خيط يطوق خصرها، شعرت بامتعاض غير مسبوق. هتفت:

- آية قدرة تحمي هذه الراعية؟ بسحرها تفتن ولدي، وبفضل أعشاب بسيطة تُعيد له صحته، والحيات والنواشر تزحف عند قدميها دون أن تلسعها، وعند مرآها تصبح الفيلة مهذبة ولطيفة. والحزام الذي يفترض به أن يجرقها بقدرة الجنيات يُزيئها ليس أكثر. علي إذا أن ألقأ إلى وسائل أكثر حسماً وفعالية.

وفي الحال، أرسلت إلى المرفأ قائد حرسها الذي كانت تثق به كثيراً ليرى ما إذا كان هناك سفن متأهبة للانطلاق إلى مناطق نائية جداً، فوجد سفينة تستعد للإقلاع عند بداية الليل. ابتهجت الملكة كثيراً، وأرسلت من يتحدث مع القبطان ويعرض عليه شراء أجل جارية في العالم. استحسنت التاجر العرض مُعرباً عن رغبته في شرائها. جاء إلى القصر ومن دون علم إخلاص لمحها في الحديقة فذهل أمام مفاتن تلك الفتاة الفريدة. أما الملكة التي كانت في غاية البخل وتعرف كيف تستفيد من كل شيء فقد باعته بسعر باهظ.

كانت إخلاص تجهل كل شيء عن المكائد الجديدة التي تُحصر لها فانزوت باكراً إلى غرفتها الصغيرة لكي يلد لها أن تحلم بعهد دون رقيب، ولكي تُجيب على إحدى رسائله التي استلمتها مؤخراً: قرأتها مراراً مأخوذة برقة كلماتها. وعندئذ رأت الملكة تدخل إلى غرفتها،

فهي تملك مفتاحاً يصلح لجميع الأقفال في أبواب القصر. كانت متبوعة بحارسين أحرسين وبقائد حراسها. وضع لها الأخرسان منديلاً على فمها وأوثقا يديها واختطفهاها. أراد الخروف شاطر أن يلحق بسيدته العزيزة فانقضت الملكة عليه ومنعته من ذلك لأنها كانت تخشى أن يسمع نغاؤه. أرادت أن يجري كل شيء بصمت وفي الخفاء. وهكذا اقتيدت لإخلاق، وحيدة دون معين لها، إلى السفينة التي تنتظر وصولها للإقلاق في رحلتها. وهكذا تركت الأميرة لقدرها المشؤوم لأن الجنيّة سائدة كانت عاجزة آنذاك عن أن تُنهي إرادة القدر لصالحها. وكل ما استطاعت فعله هو أن تتعقبها إلى كل مكان متدثرة بغمامة سوداء تحجبها عن الأعين. وفي تلك الأثناء كان الأمير عهد المأخوذ بشغفه لإخلاق يتصرف بفضاظة لا تهاون فيها حيال الأميرة التي اختيرت له كزوجة على الرغم من أنه كان الأكثر أدباً بين الرجال. وغالباً ما كانت تشكو تصرفاته إلى والدها الذي لم يكن يتورع عن التشاجر مع ابن أخته لسوء تصرفه. وهكذا أجلّ الزواج إلى أمد غير معروف.

عندئذ وجدت الملكة أن الظرف كان مناسباً لتكتب إلى الأمير رسالة تقول فيها إن إخلاق تصارع سكرات الموت. شعر الأمير بألم لا يُطاق؛ لم يعد يريد المُجاملة والبقاء في قصر خاله لأن ذلك بات يُكلفه ليس فقط حياته بل حياة عشيقته فانطلق كالبرق.

ومهما تكن السرعة التي سافر فيها فقد وصل متأخراً جداً لا بل بعد فوات الأوان. توقعت الملكة عودته فأمرت، قبل مجيئه ببضعة أيام، بإشاعة نبأ مرض إخلاق. وأحاطت نفسها بنساء يعرفن متى يتكلمن ومتى يصمتن بموجب ما يتلقينه من أوامر. ثم أذيع خبر موتها فيما بعد. ودفن بدلاً منها تمثالاً من شمع. عمدت الملكة إلى

وَسَائِلَ عَدِيدَةٍ لِإِقْنَاعِ الْأَمِيرِ بِتِلْكَ الْمَيْتَةِ، وَمِنْ بَيْنِهَا إِخْرَاجَ مِيرْتَانَ مِنْ السَّجَنِ لِحُضُورِ جَنَازَتِهَا. وَأَعْلَنَ عَنْ مَوْعِدِ الْجَنَازَةِ عَلَى الْمَلَأِ وَأَتَى الْجَمِيعَ لِحُضُورِهَا وَهُمْ يَتَحَسَّرُونَ لِفَقْدَانِ تِلْكَ الْفَتَاةِ الرَّائِعَةِ. أَمَّا الْمَلِكَةُ، وَهِيَ الْمَاهِرَةُ فِي لِبْسِ قِنَاعِ الْكُذْبِ، فَتَظَاهَرَتْ بِالتَّأَثُّرِ لِتِلْكَ الْخُسَارَةِ نِيَابَةً عَنِ الْأَمِيرِ.

وَوَصَلَ الْأَمِيرُ وَهُوَ عَلَى قَلْقٍ لَا يُوَصِّفُ. عِنْدَمَا دَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَادَرَ إِلَى سُؤَالِ أَوَّلِ مَنْ صَادَفَهُمْ عَنْ أَخْبَارِ عَزِيزَتِهِ الْغَالِيَةِ إِخْلَاصًا. فَقَالُوا لَهُ إِنَّهَا تُوَفِّيَتْ وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى مَعْرِفَةٍ وَلَا عَلَى عِلْمٍ بِمَجْرِيَاتِ الْأُمُورِ. وَلَدَى سَمَاعِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْمَشْهُومَةُ شَعْرًا بِالْمِصَاعِقِ وَسَقَطَ عَنْ صَهْوَةِ حِصَانِهِ أَبْكَمَ هَامِدَ النَّبْضِ. تَجَمَّعُوا حَوْلَهُ وَعَرَفُوا أَنَّ الْأَمِيرَ فَهْرِعَ كُلُّ وَاحِدٍ لِنَجْدَتِهِ وَحَمْلُوهُ شَبَهَ مَيْتٍ إِلَى الْقَصْرِ.

أَحْسَرَ الْمَلِكُ بِالْإِشْفَاقِ عَلَى حَالِ ابْنِهِ وَكَانَ مَتَعَاظِفًا مَعَ أَلَمِهِ. وَاسْتَعَدَّتِ الْمَلِكَةُ مِنْ جِهَتِهَا لِمُجَابَهَةِ الْأَمْرِ. ظَنَّتْ أَنَّ الزَّمْنَ وَفَقْدَانَ الْأَمْلِ بِالْحَبِّ سَيَسْفِيَانِهِ. لَكِنْ لَا شَيْءَ كَانَ يَنْسِيهِ أَلَمُهُ أَوْ يَحْمِلُ الْعِزَاءَ إِلَى نَفْسِهِ. وَبَدَلَ أَنْ يَتَضَاعَلَ حُزْنُهُ كَانَ يَزْدَادُ مَعَ مَرُورِ كُلِّ دَقِيقَةٍ. أَمْضَى يَوْمَيْنِ دُونَ أَنْ يَرَى أَحَدًا أَوْ يَتَكَلَّمَ مَعَ أَحَدٍ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى غُرْفَةِ الْمَلِكَةِ شَاحِبَ الْوَجْهِ، زَائِعَ الْعَيْنَيْنِ دَامِعَهُمَا. قَالَ لَهَا إِنَّهَا هِيَ الَّتِي تَسَبَّبَتْ فِي وَفَاةِ عَزِيزَتِهِ إِخْلَاصًا وَلَكِنَّهَا سَوْفَ تُعَاقَبُ عَمَّا قَرِيبَ عَلَى فَعْلَتِهَا تِلْكَ لِأَنَّهَا سَتَتَسَبَّبُ فِي مَوْتِهِ هُوَ أَيْضًا. ثُمَّ أَصْرَّ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي دُفِنَتْ فِيهِ.

لَمْ تَسْتَطِعِ الْمَلِكَةُ أَنْ تُثْنِيَهُ عَنْ مَرَامِهِ وَقَرَّرَتْ أَنْ تَقُودَهُ بِنَفْسِهَا إِلَى غَابَةِ مَزْرُوعَةِ بِأَشْجَارِ الشَّرْبِينِ حَيْثُ أُقِيمَ الْقَبْرُ. عِنْدَمَا وَجَدَ الْأَمِيرُ نَفْسَهُ أَمَامَ الضَّرِيحِ الَّذِي تَرَقَدُ فِيهِ عَشِيقَتُهُ إِلَى الْأَبَدِ، قَالَ أَشْيَاءَ مُفَعَّمَةً بِالْحَبِّ وَالرَّقَّةِ لَمْ يَقْلُهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ قِسَاوَةِ الْمَلِكَةِ،

انفجرت باكية. وأحس ميرتان بالتفجع بقدر سيده. وكل الذين سمعوه قاسموه بأسه. وأخيراً وفجأة، ممتلئاً حزناً وغيظاً وقهراً استل سيفه مقترباً من الرخام الذي كان يحجب ذلك الجسد الجميل، وهم يقتل نفسه لو لم تمسك الملكة وميرتان بذراعه.

قال:

- لا، لا شيء في العالم سيثني عن الموت وموافاة أميرتي العزيزة. فوجئت الملكة بالتسمية التي أعطها للراعية. ولو لم تكن تعرف أنّ ابنها كان صادقاً في كل ما يقوله لظنته يهذي أو أصيب بمس من الجنون.

سألته لماذا سمى إخلاص بالأميرة. فأجابها لأنها كانت أميرة، وأن مملكتها تدعى مملكة الصحارى وهي ورثتها الوحيدة، وأنه لم يكن ليتحدث عن الموضوع لكن التحفظ لم يعد له أية أهمية.

قالت الملكة:

- مهلك يا ابني! ما دامت إخلاص من أصل مُساو لأصلك فلا تحزن لأنها لم تمت. عليّ أن أعترف لك بأنني بعثتها إلى تجار الرقيق؛ عسى أن يخفف هذا من آلامك.

هتف الأمير:

- كفأك كذباً! تتكلمين هكذا لكي تثيني عن قتل نفسي. لكنني صممت على الأمر ولا شيء يمكنه أن يردعني عنه.

أضافت الملكة:

- يجب إذاً أن ترى ذلك بأعينك.

وعلى الفور، أمرت بأن يُخرج تمثال الشمع. اعتقدت بادئ الأمر أنها جثة أميرته الحبيبة فانهار صريع الألم وشق على الحاضرين انتشاله من كبوته. عبثاً حاولت الملكة طمأنته أنّ إخلاص لم تمت فهو لم يعد

قادرًا على تصديقها بعد كلِّ ما فعلته من شرور. لكنَّ ميرتان عرف كيف يقنعه بتلك الحقيقة نظراً للمودة التي يكنُّها له وليقينه أنَّه غير قادرٍ على أن يكذبَ عليه.

شعرَ ببعضِ العزاءِ لأنَّ أسوأ كارثة بين الكوارث جميعاً هي الموت. استعادَ أمله برؤية معشوقته من جديد. ولكن أين البحث عنها؟ لا أحدَ يعرف التجارَ الذين اشتروها ولا وجهتهم. وهنا برزت مشقة هائلة؛ لكنَّ الحبَّ الكبير يتجاوز كلَّ العوائق. كان يفضل أن يموت وهو يُطارِد خاطفي عشيقته على أن يعيش من دونها.

عابَ ألف مرّة على الملكة قسوتها التي لا تُحتمَل. ثمَّ أضاف أنَّها ستجد مُتسعاً من الوقتِ كي تندمَ على فعلتها تلك، وأنَّه سيرحل مصتماً على عدَم الرجوع أبداً. أرادت الملكة أن تتخلَّص من معشوقة ابنها لكنها بذلك خسرت ابنها أيضاً. ارتمَّت تلك الأمُّ المفجوعة معانقةً ابنها مُغرقة وجهه بدموعها واستحلفت بشيخوخة والده وبعاطفتها حياله ألا يتخلَّى عنها، لأنَّه إذا حرَمَها من عزاء رؤيته فسيَسبب بموتها، وأنَّه أملها الوحيد. ثمَّ إنَّ الدول المجاورة للمملكة وأعداءها سيستغلُّون فرصة غيابه ليستولوا عليها. استمع إليها الأمير برودة واحترام لكنَّه لم يستطع أن ينسى أبداً القسوة التي عاملت بها إخلاص فجميع ممالك الأرض لن تعني له شيئاً دون أميرته. وظلَّ متصليلاً في موقفه وإصراره الثابت على الرّحيل في اليوم التالي.

حاول الملك أن يستبقيّه دون جدوى. أمضى ليلته يوجّه أوامره إلى ميرتان وعهد له بالخروف الوفي لكي يهتمَّ به. أخذ معه كميّة كبيرة من الأحجار الكريمة وأعطى ميرتان بعضها وقال له إنَّه الوحيد الذي سيُعلمُه بأخباره شرط أن يكتبها عن الجميع لأنَّه كان يتعمّد

إشعارَ والدته بتباريح الفراق وانشغال البال.

اعتلى عهد الملهوف على حبيته حصانه قبل طلوع النهار، مُسَلِّماً أمره للقدر ومتوسلاً إليه أن يُساعده على إيجاد معشوقته. لم يكن يعرف الوجهة التي عليه اتّخاذها. لكن، بما أنّها رحلت على متن سفينة فقد ظنّ أنّ عليه ركوب البحر للحاق بها. ذهب إلى المرفأ الأشهر ومن دون أن يُرافقه أيّ من خدامه ومن دون أن يعرفه أحد، استعلم عن المكان الأبعد التي تؤمّه السفن ومن ثمّ عن كلّ السواحل والشواطئ والموانئ التي تبلغها. ثمّ أبحرَ على أملٍ ألا يكون الشقاء دوماً مألّ ذلك الشغف الصادق والجارف الذي يحركه.

ما إن اقتربت السفينة من البرّ حتّى صعدَ على متن قاربٍ وجال به الشاطئ صارخاً في كلّ اتجاه:

- إخلاص، يا إخلاص الجميلة، أين أنتِ؟ أبحثُ عنكِ وأناديكِ عبثاً: هل ستظّلين لوقتٍ طويلٍ بعيدةً عني؟  
لكنّ حسراته وشكواه لا تلبث أن تتلاشى في الفضاء. فعاد إلى السفينة وقلبه مفعم بالألم وعيناه مليئتان بالدموع.

وذات مساء رمى البحارة المرساة خلف صخرة كبيرة فنزل على جري عادته من السفينة ليتجوّل على الشاطئ. وبما أنّ البلاد كانت مجهولة والظلمة دامسة رفض البحارة مرافقته خوفاً من أن يصيبهم مكروه. أما بالنسبة للأمر الذي لم يكن يهتم كثيراً بحياته، فقد أخذ يمشي على غير هدى، متعثراً وناهضاً من تعثره مرّات عديدة. وأخيراً لمَح ضوءاً ساطعاً آتياً من إحدى النيران. كلّما اقترب منه، سمع ضجّة تتعالى وضربات مطارق تدوي بشكلٍ مخيف. لم يشعر بالخوف بل أسرع ليَرى مصدرَ الضجّة فوجد مصهراً كبيراً يعمل في العراء وكانت جميع أفرانه مشتعلة لدرجة تحسب معها أنّ الشمس



تَسْطَعُ هُنَاكَ. وَكَانَ ثَلَاثُونَ عَمَلًا قَابِعِينَ وَاحِدَةً فِي مَتَّصَفٍ جِبَاهِهِمْ  
يَعْمَلُونَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ فِي صِنَاعَةِ الْأَسْلِحَةِ.  
اقْتَرَبَ عَهْدٌ مِنْهُمْ قَائِلًا:

- إِذَا كُنْتُمْ قَادِرِينَ عَلَى الشُّعُورِ بِالشَّفَقَةِ أَنْتُمْ الْعَامِلِينَ وَسَطَ  
الْحَدِيدِ وَالنَّارِ، قُولُوا لِي إِذَا رَأَيْتُمْ صَدْفَةً فِي هَذَا الْمَكَانِ إِخْلَاصَ  
الْجَمِيلَةِ الَّتِي اقْتَادَهَا بَعْضُ التَّجَارِ أُسِيرَةً، وَأَيْنَ اسْتَطِيعَ أَنْ أَجِدَهَا.  
اطْلُبُوا مِنِّي كُلَّ مَا أَمْلِكُهُ وَأَعْطِيهِ لَكُمْ بِكُلِّ طَيِّبَةٍ خَاطِرٍ.  
مَا كَادَ يُنْهِي خُطْبَتَهُ الصَّغِيرَةَ حَتَّى عَادَتِ الضَّجَّةُ الْهَادِرَةَ إِلَى كَانِ  
قَدْ أَسْكَنَهَا بِحُضُورِهِ قَلِيلًا وَأَصْبَحَتْ أَقْوَى مِنْ ذِي قَبْلِ.  
قَالَ:

- الْوَيْلُ لَكُمْ! لَا تَأْبَهُونَ لِأَمِّي أَيُّهَا الْمُتَوَخَّشُونَ، لَا يَجِدُرُ بِي أَنْ  
أَنْتَظِرَ شَيْئًا مِنْكُمْ.  
وَأَرَادَ فِي الْحَالِ أَنْ يَرْتَدَّ عَلَى عَقْبِيهِ، لَكِنَّهُ سَمِعَ مُوسِيقَى عَذْبَةٍ  
سَخَّرَتْهُ. نَظَرَ إِلَى الْمَصَاهِرِ وَرَأَى أَجْمَلَ طِفْلِ يَسْتَطِيعُ الْخِيَالَ تَصَوُّرَهُ:  
كَانَ أَشَدَّ لَمَعَانًا مِنَ النَّارِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا. عِنْدَمَا رَأَى الْأَمِيرَ جَمَالَهِ  
وَالْعُصْبَةَ عَلَى عَيْنِيهِ وَالسَّهَامَ الَّتِي يَحْمِلُهَا، أَدْرَكَ أَنَّهُ كَوَيْدُونَ الَّذِي  
هَتَفَ لَهُ قَائِلًا:

- تَوَقَّفْ يَا عَهْدُ، تَتَأَكَّلُكَ نَارٌ طَاهِرَةٌ وَلَا اسْتَطِيعُ بِالتَّالِي أَنْ أَرْفُضَ  
نَجْدَتَكَ: أَنَا الْحَبُّ الْعَفِيفُ، أَنَا الَّذِي أَصَبْتُكَ بِسَهْمِي عِنْدَمَا رَأَيْتَ  
إِخْلَاصَ الْفَتِيَّةِ. وَأَنَا الَّذِي أَحْمِيهَا مِنَ الْعَمَلِاقِ الَّذِي يُطَارِدُهَا. الْجَنِيَّةُ  
سَائِدَةٌ هِيَ صَدِيقَتِي الْحَمِيمَةَ. وَلَقَدْ تَضَامْنَا سُوِيَّةً لَكِي نَحْمِيهَا لَكَ.  
وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَبْرَهِنَ عَنِ عَشْقِكَ قَبْلَ أَنْ تَعْتُرَّ عَلَيْهَا.  
هَتَفَ الْأَمِيرُ:

- أَمْرُكَ أَيُّهَا الْحَبُّ! أَمْرُكَ! اطْلُبْ مَا تَشَاءُ وَسَاطِئِعُكَ.

أجاب الطفل:

- إرم بنفسك في هذه النار وتذكر أنك إذا لم تحب امرأة واحدة  
وبتفانٍ فسوف تهلك.

فأجاب عهد:

- ليس هنالك ما يُخيفني.

وفي الحال رمى بنفسه في المصهر ففقد وعيه ولم يعد يعرف أين هو  
ولا من هو.

نام ثلاثين ساعة، وحين استيقظ رأى أنه تحوّل إلى أجمل قُمريّ<sup>(1)</sup>  
في العالم، وبدل المصهر الرهيب وجد نفسه في عش صغير من الورد  
والياسمين وزهر العسل. دُهِشَ دهشةً ليس لها مثيل: كانت قائمته  
المسزولتان<sup>(2)</sup> والألوان المختلفة لريشه وعينه الناريّتان، كل ذلك  
كان مدهشاً حقاً. تمرأى في جدول وأراد أن يرثي حاله فوجد أنه فقد  
ملكة الكلام رغم احتفاظه بملكة الفهم والإدراك.  
رأى في هذا التحوّل ذروة مصائبه. ففكر:

- آه منك أيتها الحب العذار! أهذه هي المكافأة التي تُجازي بها أكثر  
العاشقين كما لآ؟ هل يجب أن أكون طائشاً وخوّاناً وماكراً لكي أجد  
حظوة لديك؟ صادفتُ الكثيرين من هؤلاء الخونة الذين كللتهم  
بالمجد فيما أسقيت المتفانين والأوفياء المخلصين لعهودهم.  
ثم أردف:

- ما الذي يمكن أن أعلل النفس به من هيئة غريبة كهيتي؟  
ها أنا قُمريّ: آه ليتني أستطيع الكلام كما تكلم فيما مضى العصفور

(1) القُمريّ: اسم صنف من الحمام، اخترناه على قلة شيوع اسمه لكونه ذكراً، في حين  
تُستخدم المفردتان «حمامة» و«بمامة» لكلا المذكر والمؤنث.

(2) المسزول: يُقال هذا التعت للطائر الذي يغطي الريش حتى قائمته.

الأزرق (الذي أحببت طيلة حياتي قصته)<sup>(1)</sup>، لَكُنْتُ طِرْتُ بعيداً  
وعالياً وبحث في جميع الأصقاع عن معشوقتي الغالية مستعلماً عن  
مَكانها، مسائل كل من أصادفهم حتى أجدها. لكن، ليس لدي  
القدرة لألفظ اسمها. والحل الوحيد المتاح لي اللجوء إليه هو أن  
أرمي بنفسي في هاوية ما وأقضي فيها.

مأخوذاً بهذه الفكرة المشؤومة، طارَ على جبل عالٍ وأراد أن يرمي  
منه إلى الأسفل لكنَّ جناحيه حملاه رغماً عنه. دُهِسَ لذلك لأنه لم  
يكن قطُّ قُمرياً. كان يجهل ما الفائدة من ريشه واتخذ القرار بانتزاعه  
كله، ومن دون تردد، بدأ ينزع عنه ريشه.

منزوعَ الريش، حاول أن يجرب قفزةً جديدة من أعلى صخرة،  
وحينئذٍ أتت فتاتان صغيرتان فجأة. عندما رأتا ذلك القُمريَّ التاعس  
قالت الواحدة للأخرى:

- من أين جاء هذا الطائر التاعس؟ هل هو مفلت من البرائن  
الحادة لطير كاسر أم من شديق ابن عرس؟  
أجابت الأصغر سنّاً:

- أجهل من أين هو آتٍ لكُنِّي أعرف أين سيذهب.  
وأمسكت بالطائر الوديع. ثم أردفت:

- سيذهب ليُرافق خمسة طيورٍ من نوعه؛ أريد أن أصنع منها  
فطيرةً للجنة سائده.

عندما سمعها الأمير قُمريّ (وقد صار هذا هو اسمه طالما كان  
على هيئة طائر) تتكلم على هذا النحو، لم يقم بأية حركة للهرب بل  
اقترَب منها لكي تتكرم عليه بقتله سريعاً. لكنَّ الفتاتين وجدَّتاها

(1) إشارة إلى العصفور الأزرق، «بطل» حكاية بهذا العنوان لماري-كاترين دونوا ماثلة في  
أول هذا الكتاب.

وادعاً وأليفاً جداً فقررتا الاهتمام به. وضعت الفتاة الأجل في سلة  
مغطاة حيث كانت تضع أشغال التطريز، ثم تابعتا نزهتهما.  
قالت الواحدة للأخرى:

- يبدو أن سيّدتنا، منذ بضعة أيام، منشغلة بأمور كثيرة فهي  
تصعد في كل لحظة على جملها الناري وتذهب نهاراً وليلاً من قطب  
لآخر دون توقّف.  
قالت رفيقتها:

- إذا كنتِ متكتّمة فسأقول لكِ السبب، لأنها شاءت أن تكشفه  
لي.

أجابتها الأخرى:

- هيّا قولي لي ولن أتكلّم. كوني واثقة من كتمي السرّ.  
أردفت:

- اعلمي إذا أنّ أميرتها إخلاص، التي تحبّها كثيراً، يُطاردها  
عملاق ويسعى للزواج بها: لقد احتبسها في برج؛ ولكي تحوّل الجنيّة  
دون هذا الزواج، عليها أن تدلّل مصاعب جمّة.

كان الأمير يستمع إلى حوارهما من داخل سلّته. حتّى ذلك الحين،  
خال أن لا شيء يمكنه أن يزيد وضعه سوءاً لكنه أدرك، وبألم مبرح،  
أنّ هناك ما هو أسوأ. بإمكانكم أن تتصوّروا مدى ألمه بعد كلّ ما  
رويته لكم عن آلامه والظروف الصعبة التي يواجهها. اعتراه بأسٍ  
مطبق لأنّه ألقى نفسه قُمرياً فيما كانت أميرته بأمرّ الحاجة إليه كي  
ينقذها. ثمّ إنّ خياله الثريّ أمعن في تعذيبه؛ كان يصوّر له إخلاص  
أسيرة البرج المشؤوم، والعملاق المخيف يضرب من حولها حصاراً  
خانقاً وعليها أن تكابد سوراته عنفه وغضبه. خشي أن يدفعها

خوفها للزواج به. ثم بعد حينٍ خشي أيضاً ألا تخاف وتعرض حياتها للخطر التاجم عن الغضب المسعور الذي قد ينتاب مثل ذلك العاشق. من الصعب بمكانٍ وصف الحال التي كان فيها.

كانت الفتاة اليافة التي تحملها في سلتها عائدة مع صديقتها إلى قصر الجنية التي كانتا في خدمتها. ووجدتاها تنزه في ممر قاتم في حديقتهَا. خرّتا ساجدتين أمام قدميها ثم قالتا لها:

- أيتها الملكة الكبيرة، هذا قُمريُّ وجدناه. إنه رقيق وأليف، ولو كان لديه ريشاته لكان جميلاً جداً. لقد صمّمنا على إطعامه في غرفتنا ولكن إذا وافقت فهو يستطيع أحياناً أن يُسلِّيك في غرفتك.

أخذت الجنية السلّة حيث كان محتبساً وأخرجته منها، ثم استغرقت في تأملات عميقة حول غرائب هذا الوجود. غريب فعلاً أن ترى أميراً مثل عهد محوَّلاً إلى قُمريِّ مصيره أن يُشوى يوماً أو يُطبَّخ حَساءً. ومع أنها هي التي أشرفت على ذلك التحوّل بملء إرادتها، إذ لا شيء كان ليحصل دون أوامرها، فلقد أثر فيها ذلك التحوّل كثيراً. داعبت القُمريِّ، ومن جهته فعل كل ما بوسعه ليلفت انتباهها ويحتن قلبها فتعمد إلى مواساته في خضّم تجرّيته الحزينة تلك. انحنى أمامها على طريقة الحمام وهو يُرجع قائمته إلى الوراء وأخذ ينقرها بحنان، ومع أنه كان ما يزال زغلولاً<sup>(1)</sup> إلا أن خبرته كانت تفوق خبرة أجداده وسائر طيور الحمام.

حملته الجنية سائدة إلى غرفتها وأغلقت الباب ثم قالت له:

- أيها الأمير، عرفتك بالرغم من حالتك التعسة هذه، واعلم أنني أحبك كزُمى لابنتي إخلاص التي تهتم بأمرك قدر اهتمامها بنفسها.

(1) الزغلول هو صغير الطير.

لا تتهم أحداً سِوَايَ بتحويلك إلى قُمْرِيَّ. أدخلتك إلى المصهر لكي أمتحنَ صدقَ حبِّك: حبِّك طاهرٌ ومتأججٌ، ويجدرُ بك أن تُشرفَكَ هذه التجربة.

استمع الأمير قُمْرِيَّ إلى قول الجنيتة وخفضَ رأسه ثلاث مرَّات علامة على امتنانه لها.  
أردفت:

- عندما تلقت الملكة والدتك المال والأحجار الكريمة لقاءً متاجرتها بالأميرة أرسلتها فوراً ودون رحمة إلى التجار الذين اشتروها فحملوها معهم على متن إحدى السفن وأبحروا بها إلى شرق الهند وهم واثقون كل الثقة بأنهم سيبيعون بدورهم هذا الكنز الثمين لقاءً ثروة طائلة. لم يُغيّر بُكاؤها وتوسلاتها شيئاً من تصميمهم. عبثاً قالت لهم إن الأمير عهد سوف يفتديها بكل ما يملكه في العالم. وكلما أبرزت لهم المنفعة التي يمكن أن يجنوها من الأمير، أسرعوا في الهرب منه لئلا يعرف باختطافهم لها ويأتي فيحرمهم تلك الغنيمة.

«وأخيراً، بعد أن جالوا نصف العالم، داهمتهم عاصفة هوجاء. كادت الأميرة الرَّاخِحة تَحْت وطأة الألم وتعب الإبحار أن تقضي نحبها. خافوا أن تموت فلعجؤوا إلى أول مرفأ. ولكن عند نزولهم إلى البرّ رأوا عملاقاً ذا ضخامة مرعبة يتبعه عمالقة آخرون عديدون، وكلهم كانوا يرغبون في رؤية الأشياء الأكثر نُدرة التي يحملونها على متن سفينتهم. دخلَ العملاق وأول ما لفت انتباهه هو الأميرة الشابة؛ عرف أحدهما الآخر في الحال. هتف قائلاً: «هذه أنتِ أيتها السافلة الصغيرة! إنها السماء إذاً، السماء العادلة والرحيمة التي تُعيدك إليّ. هل تذكرين اليوم الذي وجدتك فيه وكيف قصصت

كيسي؟ تَبَّأ لي إذا أعدتِ الكِرَّةَ مجدِّداً».

«ثمَّ أمسكها كما يُمسك نسرٌ فزوجاً. وبالرغم من مقاومتها وتوسلات التجار، حملها بين ذراعيه راكضاً بأقصى سرعته إلى بُرجه الكبير.

«يقع ذلك البرج في جبل عالٍ. السحرة الذين بنوه فعلوا كلَّ ما بوسعهم لكي يجعلوه جميلاً وغريباً. لا أبواب فيه ويتم الدخول إليه عبر النوافذ الشاهقة. جدرانه المصنوعة من الألماس تلمع كالشمس وتتميز بصلابة لا شيء يخترقها. وفي الواقع، إنَّ أئمن ما قدمه الفن أو احتوته الطبيعة لا يداني ذاك القصر. عندما أمسك العملاق المسعور بإخلاص الفاتنة، قال لها إنه يُريد أن يتزوجها؛ سيجعلها أسعد شخص في الكون، ويمنحها جميع الكنوز التي يملكها، ويمن عليها بحبه. عليها أن تتهج لأنَّ حُسن طالعها اقتادها إليه. أفهمته بدموعها ونحيبها وحسراتها فداحةً يأسها. وبما أنني كنتُ أهمل إخلاص سراً بالرغم من القدر الذي أراد تدميرها، أُوحيَت للعملاق بمشاعر رقيقة لم يشعر بها في حياته قط: بدَّل أن يغضب، قال للأميرة إنه يُمهلهَا سنة لتفكر بعرضه، وخلالها لن يُعتفها أو يضغط عليها أبداً. ولكن إذا لم تتخذ إبان تلك المهلة قرارها بالموافقة فسيترزوجها رغماً عنها ويأمر بقتلها بعد ذلك. وهكذا تستطيع أن تحتكم إلى الموقف الذي يُناسبها أكثر.

«بعد أن خيَّرها بين أسوأ الأمور، احتبس معها في أعلى الأبراج أجمَل فتيات العالم يُلازمُنها لكي يُخفِّضَ عنها ذلك الحزن العميق الذي كانت تغرق فيه. كما طوق البرج بعمالقة ليمنعوا أيّاً كان من الاقتراب. وبالفعل، فلو تجرأ أحدٌ على فعل ذلك لنال عقابه على

الفور على يد أولئك الحراس المتوحشين الذين يُثرون في النفس هلعاً لا يوصف.

«وأخيراً، أدركت الأميرة أنه يستحيل تقديم النجدة لها وأنه لم يتبق لها إلا يومٌ لاختتام السنة، فتحضرت لرمي نفسها من أعلى البرج في البحر. تلك هي الحال التي آلت إليها الأميرة أيها القمريّ. الحلّ الوحيد الذي أجده هو أن تطيرَ إليها حاملاً في منقارك هذا الخاتم الصغير. ما إن تضعه في إصبعها حتى تصبح يمامة فتهربا سوياً.

كان القمريّ متلهفاً للرحيل أيما تلهف. لم يكن يعرف كيف يفهمها ذلك. جذبها من طوقها ومن صدرها المكشكش الفضفاض، ثم اقترب من التوافذ ناقرأ بمنقاره على الزجاج وكلّ هذا يعني في لغة الحمام: «أتوسّل إليك يا سيّدي أن ترسليني مع خاتمك المسحور لكي أعزّي وأواسي أميرتنا الجميلة». سمعت صوته وفهمت ما يرمي إليه واستجابت لرغبته. قالت له: «اذهب وطرّ أيها القمريّ الساحر. هذا هو الخاتم الذي سيُرشدك. احرص على ألا تفقده فلا أحد سواك في هذا العالم يستطيع أن يُخرج إخلاص من سجنها».

كما قلت، لم يكن لدى الأمير قُمريّ ريشٌ لأنه نتف ريشه في غمرة يأسه العام. دعكته الجنيّة بخلاصة عجيبة أزجعت له رياشاً في غاية الروعة والجمال، لا بل أجمل بما لا يُقاس من حمام فينوس. ابتهج لرؤيته جسمه يكتسي بالريش من جديد. وإذ حلّق في الفضاء سريعاً، وصلَ عند طلوع الفجر إلى أعلى البرج الذي كانت جدرانها الأماسيّة تلمع أشدّ سطوعاً من الشمس. كان هنالك حديقة فسيحة وفي وسطها شجرة برتقالٍ مثقلة بالأزهار والأثمار. أثارَت الحديقة إعجابه، ولكن الأمير قُمريّ كان منشغلاً بأشياء أكثر أهمية.



جثم على شجرة البرتقال وحل في منقاره الخاتم. عندما دخلت  
 الأميرة، انتابه قلق رهيب. كانت ترتدي ثوباً طويلاً أبيض، وكان  
 رأسها مكسوّاً بوشاح أسود مطرز بالذهب ينسد على وجهها  
 ويتجرجر خلفها من كل جانب. لو لم يتعرف القمري العاشق إلى  
 نبل قامتها وهيئة مظهرها اللذين يتصفان بالكمال ويجعلانها فريدة  
 بين النساء، لكان شك بأنها هي. جلست تحت شجرة البرتقال، ثم  
 رفعت وشاحها دفعة واحدة. بقي لبعض الوقت منبهرًا.  
 هتفت:

- أيتها الحسرات المريرة! أيتها الخواطر الحزينة! ما جدواك؟ لقد  
 أمضى قلبي اللتاع سنة كاملة بين الخشية والرجاء؛ لكن ها إن النهاية  
 دنت اليوم! ما هي إلا بضعة ساعات وأموت أو أتزوج العملاق:  
 وأسفاه! أمن الممكن أن تتخلى عني الجنيّة سائدة أو الأمير عهد؟  
 ماذا فعلت لهما لكي يتخليا عني؟ لكن ما نفع كل هذه الأفكار، ألا  
 يجدر بي أن أنفذ الخطة النبيلة التي رسمتها؟

ثم نهضت بهيئة مفعمة بالجسارة لكي ترمي بنفسها. لكنّها في  
 تلك الأثناء، وبما أن أقل ضجة كانت تُرعبها فقد سمعت القمري  
 يتحرك على الشجرة. رفعت نظرها لترى مصدر الضجة. وللحال  
 طار صوبها ووضع في حجرها الخاتم الصغير العجيب. فوجئت  
 الأميرة بمداعبات ذلك العصفور الجميل وريشه الرائع وأكثر من  
 ذلك كله بالهدية التي قدمها لها للتو. تفحصت الخاتم ولاحظت عليه  
 بعض النقوش الغريبة. كانت لا تزال تحملها عندما دخل العملاق إلى  
 الحديقة دون حتى أن تسمعه.

بعض النساء اللواتي كنّ يخدمنها ذهبن ليُعلمن ذلك العاشق

الرَّهيبَ بيأس الأميرة وبأنها ترغب في قتل نفسها بدلاً أن تتزوجه. عندما عرّف أنها أرادت الصعود في الصبيحة الباكرة إلى أعلى البرج، خشي من تلك الكارثة المشؤومة. كان قلبه الذي لم يعرف حتى ذلك الحين إلا الأهمجية، مفتوناً بعيني تلك الفتاة اللطيفة الساحرتين، وكان يُحبها برهافة. أيتها السماء! ماذا صار بحالها عندما رآته! خشيت أن يحول دون تنفيذ مخطّطها. وكان القمريّ المسكين مرتعباً مثلها من ذلك العملاق المخيف. وفي غمرة الاضطراب الذي كانت فيه، وضعت الخاتم في إصبعها، وفي الحال، ويا للعجب! تحوّلت إلى يمامة وحلقت عالياً مع قمرها الوفيّ.

لم يسبق للعملاق أن فوجئ على هذا النحو. وبعد أن رأى عشيقته تتحول إلى يمامة وتجتاز الفضاء الشاسع، مكث جامداً لبعض الوقت ثم أطلق صراخاً وزعيقاً اهتزت لهما الجبال ولم ينته إلا بنهاية حياته في أعماق البحر حيث غرق بدلاً من الأميرة الساحرة، ولم يكن في ذلك إلا مطلق العدل. ابتعدت اليمامة إذاً بسرعة كبيرة مع دليلها. ولكن بعد أن قطعاً مسافة طويلة وزال الخطر عنهما انحدرا برفق من السماء إلى غابة مكتظة بالأشجار بديعة المنظر تزينها مروج من العشب الأخضر والأزهار. كانت إخلاص لا تزال تجهل أن القمريّ هو عشيقها الأمير. وكان هو حزيناً جداً لأنه لم يستطع أن يعلمها بذلك. وعندئذٍ، شعر أنّ يداً خفية تفك عقدة لسانه فاغتبط وقال حالاً للأميرة:

- أيتها اليمامة الرائعة، ألم ينبئك قلبك بأنك برفقة قمرّي يحترق دوماً بالنار التي أضرمتها في قلبه؟  
أجابت:

- إن قلبي كان يهفو إلى السعادة التي تحققت لي لكنه لم يجرؤ على تصديق ذلك: فمن كان قادراً على تصوّر ما جرى! كنت على وشك الهلاك تحت تأثير طالعي المشؤوم الغريب ثم جئت لتتشلني من بين براثن الموت أو بالأحرى من قبضة وحش أخشاه أكثر من الموت نفسه.

ابتهج الأمير لأنه سمع اليمامة تتكلم وألفاها لا تزال على عهد الحب كما كان يشتهي؛ قال لها كل ما يُمليه عليه أرق الشغف وأكثره اضطراباً. روى لها ماذا جرى منذ غيابه المحزن وخصوصاً ذلك اللقاء المدهش برسول الحب كوبيدون في المصهر وأيضاً بالجنّية في قصرها. سرّت الأميرة لمعرفتها أن الجنّية صديقتها المفضّلة لا تزال تسهر على مصالحتها.

قالت لعهد:

- تعال نذهب إليها يا أميري العزيز ونشكرها على كل ما فعلته لأجلنا. سوف تُعيد لنا هيئتنا الأصليّة ونعود بعدها إلى مملكتك أو مملكتي.

أجابها:

- إذا كنت تُحبّيني بقدر ما أحبك، فسوف أقترح عليك اقتراحاً يُمليه الحب عليّ ولا شيء سواه. ولكن لا تقولي لي يا أميري العزيزة إنني غريب الأطوار.

أجابت:

- لا ترفع من قدر ذكائك على حساب قلبك. تكلم دون خشيّة. سأستمع إليك دوماً بسرور.

أضاف:

- أودّ لو أنّنا لا نغيّر هيئتنا وأن نبقى كما نحن قُمريّاً ويّامة وفي قلبينا يضطرم الحبّ نفسه الذي كان يُحرق عهد وإخلاص. أنا مقتنع بأننا بابتعادنا عن هموم الحكم، بلا مجلس نعقده ولا حرب نشنّها ولا مقابلات نُجريها، سنُعفى من القيام بهذا الدور المزعج المتواصل على مسرح هذا العالم الكبير. وهذا ما يُسهّل علينا أن نعيش أحدنا للآخر في كنف خلوتنا اللطيفة.

هتفت اليّامة:

- آه! ما أعظم ما تنشده وما أنبله! رغم صغر سنّي كابدت ويا للأسف مشقّات كثيرة. اضطهدني القدر الغيور من جمالي البريء وأمعن في اضطهادي. يسّرني أن أبتعد عن كلّ مجد زائف، وألا أعيش إلا لأجلك. نعم يا أميري العزيز، أقبل اقتراحك. لنختر بلداً ظريفاً ونمض فيه أجمل أيامنا قُمريّ ويّامة. لنعش حياة بريئة لا طموح فيها ولا رغبات إلا تلك التي يُلهمها حبّ عفيف.

هتف رسول الحبّ النازل من أعلى جبل الأولمب:

- أنا الذي سأدلكما على هذه البلاد. إن خياراً مُفعماً بالحبّ كهذا ليستحقّ رعايتي.

- ورعايتي أيضاً! قالت الجنّية سائدة التي ظهرت فجأة. جئت لأبحث عنكما لأستبقّ الوقت وأستمع برؤيتكما.

سُرّ قُمريّ ويّامة بلقاء رسول الحبّ والجنّية بقدر ما فوجئا به. قالت إخلاص للجنّية:

- سنضع نفسينا تحت إمرك.

وقال عهد لرسول الحبّ:

- لا تتركنا. لا تتخلّ عنا.

قال رسول الحبّ:

- تعالاً إلى بافوس<sup>(1)</sup>، حيث لا يَزَالُونَ يَكْتُونُ الاحْتِرَامَ لَوَالِدَتِي،  
ويكْرَمُونَ الطَّيُورَ الَّتِي كُرِّسَتْ لَهَا.  
أجابت الأميرة:

- لا، لا نسعى إلى الاختلاطِ ببني البشر. طوبى لمن يتخلّى عنهم!  
ما نحتاجه فقط هو خلوة رائعة.

وللحال ضرّبت الجنة الأرض بعصاها. وصوّب رسول الحبّ  
إلى الأرض سهماً مذهباً. فرأيا على الفور أجملَ قفرٍ في الطبيعة مزيناً  
بأفضل ما يكون بالأشجار والأزهار والمروج والينابيع.  
هتف رسول الحبّ:

- ابقيا هنا لملايين السنين. وتعهّدا على وفاءٍ أبديٍّ بحضورِ هذه  
الجنة البديعة.

هتف قمرّي:

- أقسمُ بذلك لييامتي!

وهتفت يمامة:

- أقسمُ بذلك لقمرّي!

قالت الجنة:

- لا يمكن أن يُبارك زواجكما رسولٌ من السماء أكثرَ اقتداراً  
على جعله زواجاً سعيداً. وأعدكما أنّه إذا تولاكما السّام يوماً من هذا  
التحوّل فلن أتخلّى عنكما وسأعيدُ إليكما هيئتكما الأولى.

شكر قمرّي ومامة الجنة، لكنّها أكّدا لها أنّها لن يستدعيها أبداً  
لأجل هذه الغاية وأنّها قاسيا في حياتها محناً كثيرة. توسّلا إليها فقط

(1) تقع بافوس في جزيرة قبرص، وفيها معبد لفينوس شهير.

أن تُحَضَّرَ لهما الخروف شاطراً، هذا إذا لم يمت.

قال رسولُ الحب:

- غَيْرَ هَيْئَتِهِ، أَنَا الَّذِي حَكَمْتُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ خَرُوفًا. لَقَدْ أَثَارَ شَفَقَتِي، أَعَدْتُهُ إِلَى الْعَرْشِ الَّذِي كُنْتُ خَلَعْتُهُ عَنْهُ.

عندما سَمِعْتُ إِخْلَاصَ مَا قَالَهُ رَسُولُ الْحَبِّ لَمْ تَعُدْ مَتَفَاجِئَةً مَنِ الْمُبَادَرَاتِ الْجَمِيلَةَ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُ بِهَا لِأَجْلِهَا. وَاسْتَحْلَفْتُ رَسُولَ الْحَبِّ أَنْ يُطَلِّعَهَا عَلَى أَخْبَارِ الْخُرُوفِ الَّذِي كَانَ غَالِيًا جَدًّا عَلَيْهَا. أَجَابَ بِتَهْذِيبٍ:

- سَأَتِي لِأَنْقُلَ إِلَيْكُمَا أَخْبَارَهُ. الْيَوْمَ ثَمَّةُ الْكَثِيرِ مِمَّنْ يَنْتَظِرُونِي وَيَنْشُدُونَ مَجِيئِي فِي أَمَاكِنَ عَدَّةٍ حَتَّى إِنِّي لَا أَعْرِفُ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ أَتُوجَّهُ أَوَّلًا. وَدَاعَا أَيُّهَا الزَّوْجَانِ السَّعِيدَانِ اللَّطِيفَانِ. بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَبَاهِيَا بِأَنَّكُمَا الْأَكْثَرَ حِكْمَةً فِي مَمْلَكَتِي.

بَقِيَتِ الْجَنِيَّةُ سَائِدَةً لِبَعْضِ الْوَقْتِ مَعَ الْعَرِيسِينَ الْمَتَزَوِّجِينَ حَدِيثًا. قَالَتْ إِنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ امْتِدَاحِهَا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ عَلَى احْتِقَارِهَا لِأَبَاطِيلِ هَذَا الْعَالَمِ. لَكِنْ مِنَ الْمَوْكَّدِ أَنَّهَا اخْتَارَتْ أَفْضَلَ سَبِيلٍ لِهِنَاءِ الْعَيْشِ. وَأَخِيرًا غَادَرْتَهُمَا وَعَرَفْنَا مِنْهَا وَمِنْ رَسُولِ الْحَبِّ أَنَّ الْإِمِيرَ قُمْرِيًّا وَالْأَمِيرَةَ يَهَامَةَ أَحَبَّتَا أَحَدَهُمَا الْآخَرَ حُبًّا وَفِيًّا أَبَدِيًّا.

إِنَّهُ قَدَّرَ الْحَبَّ الطَّاهِرَ:

بَعْدَ أَنْ اعْتَرَضَتْ الْهَمُومُ وَالْأَحْزَانُ وَالْعَقَبَاتُ

طَرِيقَ هَذَيْنِ الْعَاشِقِينَ الْكَامِلِينَ

رَأَيْنَا أَنَّ الْحَبَّ الَّذِي يُوَثِّقُنَا بِقِيُودِهِ الْوَثِيرَةِ

لَهُ طَرَقَ شَتَّى لِيَقُودَنَا إِلَى السَّعَادَةِ

والشَّمسُ إذْ تُعَكِّرُ صَفْوَةَ هَذِهِ السَّبِيلِ، تُثَبِّتُنَا فِي عِزْمِنَا.  
أَيُّهَا الْقُلُوبُ الْفَتِيَّةُ، قَدْ تَرَعَمَكَ مَحْنٌ قَاسِيَةٌ عَلَى ذَرْفِ  
أَمْرِ الدَّمُوعِ وَالْحَسَرَاتِ  
وَلَكِنْ، حِينَ يَكُونُ الْحَبُّ طَاهِرًا!، فَإِنَّ الْأَلَامَ  
وَالْهَمُومَ هِيَ الضَّامِنَةُ لِأَرْوَاعِ الْمَلذَّاتِ جَمِيعًا.





## الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز

كان يا ما كان، كان هناك أميرة لم يبق لها من عَظَمَتِهَا السَّابِقَةِ إِلَّا ظِلَّةُ العَرشِ، والعلبة التي تحوي سَكِينَهَا وَشَوْكَتَهَا وملعقتها. كانت الظلَّة من المخمل المُطْرَزِ باللآلئ والعلبة من ذهب مزدان بالأماس. احتفظت بهما بقدر ما سمحت لها الظروف. لكن العوز والفقر اللذين عرقت بهما، كانا يُرغمانها من حين لآخر على أن تنزع لؤلؤة أو ألماسة أو زمردة لتبيعهما سراً وتُطعم أفراد حاشيتها. وكانت الأميرة أرملة وأماً لثلاث بنات يافعات رائعات الجمال وكان عليها أيضاً أن تهتم بتنشئتهن. لكنها ما لبثت أن أدركت أنها إذا تولت تربيتهن في جو من العظمة والأبهة اللتين تليقان بمقامهن فسوف يشعرون فيها بعد بمرارة أكبر عندما يُداهمهم الفقر. فالتحذت القرار بأن تبيع القليل مما تبقى لديها وترحل بعيداً مع بناتها الثلاث للإقامة في منزل في الريف، وإنفاق المبلغ الذي يتلاءم وثروتهم الصغيرة. ولدى مرورهن في غابة محفوفة بالمخاطر، سرق اللصوص مال الأميرة فلم يبق لها شيء تقريباً. أصاب الأميرة المسكينة غم لا يُوصف من جرّاء تلك المصيبة وأدركت أنه يتوجب عليها أن تكسب رزقها بعرق جبينها أو تقضي جوعاً. كانت تهوى فيما مضى الطعام اللذيذ وتتقن صنْع أشهى الصلصات. ولم تكن تذهب إلى أي مكان من دون أوانيها الذهبية، وكانوا يقصدونها من أماكن بعيدة لزيارتها وتذوق الأطباق التي تعدّها. لكن تلك الهواية التي كانت تسليها فيما مضى باتت اليوم مصدر رزقها. اختارت الإقامة في منزل جميل

جداً بالقرب من إحدى المدن الكبيرة وطفقت تُعدّ اليخانات الشهية. وكان الناس في تلك البلاد يهونون المآكل اللذيذة فأخذوا يتوافدون إليها. وذاع صيت الطاهية البارعة ولم يعد زبائنها يتركون لها متسعاً من الوقت ليرتاح. في تلك الأثناء كبرت بناتها الثلاث وكان صيْتُ جَاهِلِنَّ سَيَذِيعُ كما ذاعَ صيْتُ الصَّلصَاتِ التي تُحَضَّرُهَا أمهن لو لم تُخْفِهِنَّ هي في إحدى الغرف غير آذنةٍ لهنَّ بالخروج منها إلا نادراً.

وذات يوم جميل مشرق، دخلت إلى منزلها امرأة عجوز قصيرة القامة بدا عليها التعب والإرهاق. كانت تتكى إلى عصاً وكان جسدها محدوياً تماماً ووجهها مليئاً بالتجاعيد.

قالت:

- جئتُكِ خصيصاً لكي تصنعي لي وجبةً لذيذة لأنني أريد قبل ذهابي إلى العالم الآخر أن أتلذذَ بأطيب هذا العالم.

أخذت كرسياً من القش وجلست بالقرب من الموقد وقالت لها أن تُسرِعَ في إعدادِ الطعام. لم يكن بإمكان الطاهية أن تُعدَّ كلَّ شيء بمفردها فنادت على بناتها الثلاث. كانت الأولى تُدعى صهباء والثانية سمراء والثالثة شقراء. وقد أعطتهن هذه الأسماء نظراً للون شعرهن. كنَّ يرْتدين زيَّ الفلاحات مع صدرِيَّاتٍ وتنانيرٍ من ألوانٍ مختلفة. كانت الصغرى أجملهن وأرقهن. أمرت الأم إحدهن بأن تذهب للإتيان بحمائم صغيرة من القفص والأخرى بأن تدبج بضع فراريج، والثالثة بأن تصنع الحلوى. وأخيراً، وفي وقتٍ قصيرٍ جداً، أعددن للعجوز المائدة وكانت في منتهى النظافة والأناقة: وُضعت شرشفاً ومناديل ناصعة البياض وأواني فخارية لامعة صقيلة وقدمن لها أطباقاً عدّة. كانت المشروبات لذيذة، وأيدي الصبايا الرائعات تغسل الأكواب في كل لحظة. وكل ذلك فتح شهية العجوز القصيرة

القائمة فأكلت هنيئاً وشربت مريئاً ومن فرطِ انتشائها قالت أشياء كثيرة وجدتها الأميرة ظريفة جداً رغم أنها تظاهرت بـعدم الاهتمام بها.

وانتهت المائدة في جوٍّ من الجذل كما بدأت. نهضت العجوز وقالت للأميرة:

- يا صديقتي العزيزة، لو كان لديّ مالٌ لدفعتُ لك. ولكن منذ زمن طويل وأنا مفلّسة. بحثت عنك وقصدتِك لأتناولَ طعاماً لذيذاً: كلُّ ما أستطيع أن أعدك به هو أن أبعثَ لك بزبائن أفضل مني.

ابتسمت الأميرة وقالت لها بلطف:

- اذهبي يا جدتي الطيبة. لا تقلقي أبداً، أشعر دوماً أنني نُقدت جيداً عندما أُدخلُ السرور إلى قلبِ زبائني.

وقالت لها الابنة الشقراء، وكانت تُدعى «شقراء»:

- سُعِدنا جداً بِخدمتِكِ وإذا أرذتِ تناولِ العشاءِ عندنا فسنعِدّ لك عشاءً ألدّ.

فهتفت العجوز:

- آه! ما أسعد حظَّ الإنسان الذي حباه الله اللطف والود! ولكن، ليكونَ معلوماً لديكُنَّ أنكنَّ سوف تَنلُنَّ مكافأةً على ذلك. كنَّ واثقات أن أولَ أمنيّةٍ تتمنّينها، دونَ أن تفكرنَّ بي، سوف تتحقّق. وفي الحالِ اختفت فأدركنَّ أنها كانت جنيّة.

فاجأتهنَّ أقوال الجنيّة، لا سيّما وأنها كانت أولَ جنيّة يصادفنها، لكنّها أثارت أيضاً الخوف في نفوسهنّ، وبقيْنَ لخمسة أو ستة أشهر يتحدّثنَ عنها. وكلّما رغبنَ في شيء، فكُرُنَّ بها فلا تتحقّق أية أمنيّة فغضبُنَّ منها. ولكن ذات يومٍ، وفيما كانَ الملكُ ذاهباً إلى الصيّد، مرَّ

بالتَّاهِيَةِ لَكِي يَرَى مَا إِذَا كَانَتْ بَارِعَةً كَمَا يُقَالُ عَنْهَا. وَلَدَى اقْتِرَابِ  
مَوْكِبِهِ مِنَ الْحَدِيقَةِ مُحَدَّثاً جَلْبَةً كَبِيرَةً، سَمِعَتْهُ الْأَخْوَاتُ الثَّلَاثُ اللَّوَاتِي  
كَنَّ يَقْطِفْنَ نَهَارَ الْفِرَاوِلَةِ.

قالت الابنة الثانية، وكان اسمها «صهباء»:

- آه! لو كنت سعيدة الحظّ فأتزوّج الأميرال<sup>(1)</sup>. وعندئذٍ أعدكُنَّ  
بأنني سأقتلُ بمغزلي وبمكوك الحياكة خيوطاً كثيرة أصنع منها قماشاً  
كثيراً فلا يحتاج إلى شراء أشرعة لسُفنه.

وقالت الثالثة، وكان اسمها «سمراء»:

- ليت طالعي يكون حسناً فأتزوّج شقيق الملك. أعدكُنَّ أنني  
سأنسجُ له بإبرتي قطعاً كثيرة بحيث يمتلئ قصره منها.  
وأضافت شقراء:

- وأنا، إذا ما تزوّجني الملك فسأنجبُ له في ظرفٍ تسعة أشهر  
صبيّين جميلين وفتاة جميلة تنسدل شعورهم خصلات مفتولة  
وتساقط منها أحجار كريمة نفيسة وتزيّن جباههم نجمة لامعة  
وتطوّق عنقهم سلسلة ذهبيّة فاخرة.

كان أحد أصدقاء الملك قد اقترب ليُخبر الطاهية بمجيئه فسَمِعَ  
كلاماً في الحديقة. اقترب دون أن يُحدِّث ضجّة وتفاجأ بالحوارِ  
الذي دار بين الفتيات الجميلات الثلاث. ذهب بسرعة ليُخبر الملك  
بما سمعه فيسئله ويضحكه. وأفلح في ذلك فأمر الملك بأن يتم  
إحضارهنَّ إليه.

وعلى الفور ظهرنَّ وفي حرّكاتهنَّ ظرفٌ وأناقة. ألقين التحيّة  
على الملك بكثير من الاحترام والتواضع. وعندما سألهنَّ ما إذا كان  
صحيحاً الحوار الذي دار بينهنَّ عن الرجال الذين يرغبن في الإقترانِ

(1) أي قائد السفن أو الأساطيل، مختصر شائع عالمياً للتسمية العربية «أمير البحر».

بهم، علا الاحمرار وجوههم وخفضن نظراتهم. فحثهن أكثر على الاعتراف واستجبن. وفي الحال هتف قائلاً:

- بالطبع، لا أعرف أية قدرة تؤثر بي لكني لن أخرج من هنا قبل أن أتزوج الشقراء الجميلة.

وقال شقيق الملك:

- مولاي، أستأذنيك أن تسمح لي بالزواج بهذه السمراء الجميلة. وأضاف الأميرال:

- وامنحني رضاك أيضاً لأن الصهباء تعجبني كثيراً.

سُرَّ الملك بأن يخذوا اثنان من كبار مملكته حذوه وقال لهما إنه يوافق على خيارهما. سأل والدتهن ما إذا كانت موافقة. فأجابت أنها لم تكن تحلم بمثل تلك الفرحة. قبلها الملك وكذلك فعل الأمير والأميرال. عندما استعد الملك لتناول الغداء، رأى طاولة تنزل من المدخنة وعليها لوازم ذهبية للمائدة وكل ما يمكن تحيئه من الأطباق اللذيذة الشهية. ولكن الملك تردد في تناول الطعام. خشي أن يكون اللحم مُعداً وفق طقوس السحرة في أعيادهم. وأثارت تلك الطريقة في تقديم السفرة عبر المدخنة بعض الريبة في نفسه.

جُهزت المائدة، ولم تكن تُرى إلا الأوعية والأواني الذهبية المصنوعة بإتقان يفوق الذهب جمالاً. وفي الوقت نفسه ظهر قفير من النحل في خلايا من البلور وبدأ في عزفٍ أعذبٍ موسيقى يمكن تصورها. ثم امتلأت القاعة كلها بالدبابير والذباب وكل أنواع الحشرات التي راحت تخدم الملك بلباقةٍ مدهشة. وقدمت له آلاف الحشرات الشراب دون أن تجرؤ واحدة منها على السقوط في الكوب، واتصف أداؤها باتزان وانضباط مذهسين. وأدركت الأميرة وبناتها أن كل ما يحصل لا يمكن عزوه إلا للعجوز القصيرة القامة فأخذن

بِإِرْكَانِ السَّاعَةِ الَّتِي تَعْرِفُنَ إِلَيْهَا فِيهَا.

استغرق الغداء وقتاً طويلاً بحيث أنّ الليل داهم المولمين وهم لا يزالون جالسين إلى المائدة. أظهرَ الملك قليلاً من الحياء؛ بدله أنّ ملائكة الأُنس اتَّخذت مكان ملائكةِ الحبِّ في ذلك الزواج. ثمَّ نهَضَ وقال:

- لِنْتَهُ الحَفْلَةُ من حيث كان يُفْتَرَضُ بها أن تبدأ.

وَاسْتَلَّ خَاتِمَهُ من إصْبَعِهِ ووضَعَهُ في إصْبَعِ الشَّقْرَاءِ، وَكَذَا فَعَلَ الأمير والأُميرال. ضَاعَفَتِ النَّحْلَاتُ من غنائها. وَرَقَّصَ الحاضرون وابتهجوا، وَقَدِمَ كُلُّ مرافقي الملك في الصَّيْدِ لِإِلْقَاءِ التَّحِيَّةِ عَلَى الفَتاةِ الشَّقْرَاءِ الَّتِي صارت ملكة وعلى أمها الأُميرة. أمَّا زوجة الأُميرال فلم يُحْتَقَلْ بها كثيراً ممَّا أشْعَرَهَا بالإحباط: أفليست الأخت البكر للشمراء والشَّقْرَاءِ ويُفْتَرَضُ بها بالتالي أن تجد الشريك الأرفع مقاماً؟ أرسَلَ الملك كبيرَ المرافقين لكي يُعْلِمَ الملكة والدته<sup>(1)</sup> بما جرى ولكي يأتِيَ بأَجْمَلِ العَرَبَاتِ لِاصْطِحَابِ الملكة الشَّقْرَاءِ وشقيقتيها. كانت الملكة الأمّ من أكثر النساءِ قساوةً وخبثاً. عندما عرفت أنّ ابنها تسرَّعَ في الزواج وخصوصاً من فتاةٍ مجهولة السَّببِ، وأنّ أخاه الأمير فعلَ مثله، انتابها غضبٌ مسعورٌ بحيث روَّعت القصرَ كلّه. سألت كبيرَ المرافقين ما السَّببُ الذي دعا الملكَ لِعَقْدِ ذلك الزواج الذي لا يليق بمقامه. قال لها إنّ السَّببَ هو الأملُ بِإِنْجَابِ صَبِيَّينِ وبنْتِ في تسعة أشهر، سيولد كلُّ منهم بشعرٍ يسترسل في خصلاتٍ، ونجمةٍ على الجبين وسلسلةٍ من الذهبِ حوْلَ العنق. كما أنّ أشياءً أخرى

(1) تظَلَّ زوجة الملك المتوفى تتمتع بلقب «الملكة» حتّى بعد ترمّلها وانتقال التاج إلى ابنها البكر. وعندما يتزوج الابن تُدعى زوجته أيضاً ملكة. وللتفريق بين الملكين في هذه الحكاية تحمل أم الملك لقب «الملكة الأم»، وزوجته لقب «الملكة الشابّة». لا يخفى ما في تكرار الصيغتين من إملال، ولكننا اضطررنا إلى تبنيهما دفْعاً للبس.

غاية في التدرّة سحرته. ابتسمت الملكة الأمّ باحتقار وسخرت من سرعة ابنها في تصديق ما يُقال له. وقالت في ذلك الشأن كلماتٍ مُهيّنة تعبر عن غَضَبِها المسعور.

وصلت العربات أمام المنزل الصغير. دعا الملك حماته للحاق به ووعدّها أنّه سيتمّ معاملتها بكثير من المراعاة. لكنّها فكّرت في الحال أنّ البلاط هو أشبه ببحرٍ مضطربٍ دوماً.  
قالت له:

- مولاي لقد اخترتُ ما يكفي حياة القصور ولا أنوي أن أتخلى عن الرّاحة التي لم أحصل عليها إلاّ بعدَ عناءٍ كبير.  
أجاب الملك:

- ماذا؟ هل تريدان أن تواصلني عملاً في استضافة الناس وتقديم الطّعام لهم؟  
قالت:

- لا، ستقدّم لي شيئاً لأعتاش منه.  
أضاف:

- تقبلي على الأقلّ أن أمدك بأفرادٍ حاشيةٍ وضباط.  
قالت له:

- عفوك سيدي. عندما أكون وحدي لا أكون مُحاطة بأعداء يضمرون لي شراً. ولكن إذا أحاطني الخدام فأخشى أن أجد بينهم من يُعاديني.

أعجب الملك بذكاء المرأة وقناعتها لأنّها كانت تفكر وتتكلّم مثل الحكماء.

وفيما كان يحدّث حماته على المجيء معه، خبّأت زوجة الأميرال في جوف عربتها جميع الأوعية الجميلة والأواني الذهبية الموجودة

في خزانة أمها ولم تترك منها شيئاً. لكنّ الجنيّة التي كانت ترى كلّ شيء، ولا أحد يراها، حوّلتها إلى أوانٍ خزفيّة. وعندما وصلت زوجة الأميرال إلى بيت عريسها وأرادت حملها إلى مخدعها، لم تجد شيئاً جديراً بأن تحتفظ به.

قبل الملك والملكة الشابة الأميرة الحكيمّة أمّ الفتيات الثلاث بحنانٍ وأكدّا لها أنّها يمكن أن تتصرّف عندما تشاء بكلّ ما يملكانه. وغادرا البيت الريفيّ وجاءا إلى المدينة تتقدّمهم الأبواق والمزامير والصنوج والطبول التي سُمعت تصدح من بعيد. وقدّم وُصفاءُ والدة الملك لها النصيح بالعمل على إخفاء مزاجها السيئ لأنّ ذلك سيُزعج الملك ويمكن أن تترتب عليه عواقب وخيمة. فأرغمت نفسها على تمالك أعصابها ولم تُظهر إلاّ الودّ لكتبتها وقدّمت لها الجواهر ووجهت إليهما عبارات الشناء على كلّ ما تفعلانه دون تمييز. كانت تجمّع الملكة الشقراء والأميرة السمرّاء علاقة متينة ولكن زوجة الأميرال الصهباء كانت تكرههما كرهاً مميّتاً<sup>(1)</sup>.

قالت هذه الأخيرة في نفسها:

- يا لحظّ شقيقتي السعيد! الصغرى ملكة والوسطى أميرة ملكيّة وزوجاهما يحبّانها بشغف. وأنا، أنا الأخت البكر التي تفوقهما جمالاً بمائة مرّة لم أحظّ إلاّ بزواج أميرالٍ ولا يُحبّني كما أستحقّ.

وكانت الغيرة التي تشعّر بها حيال شقيقتها تدفعها للوقوف إلى جانب والدة الملك؛ كانّ جليّاً أنّ الحنان الذي تُبديه هذه الأخيرة لكتبتها مصطنعٌ ليس إلاّ، وأنّها كانت تتحجّن بلهفةٍ فرصة سانحة

(1) ينبغي التذكير بأنّ هذه الكراهية تتلاءم واللون الأصهب لهذه الفتاة، فاللون المذكور يرمز في حكايا الجنّ لكلّ ما هو خبيث وذو مفعول ضارّ، ويلاحظ القارئ آثاره في حكايات أخرى من هذا الكتاب.



لايذائهما.

حبّلت الملكة والأميرة، ولكن، لسوء الحظ، سُنت في تلك الأثناء على المملكة حربٌ كبيرة. توجّب على الملك الرّحيل لكي يقود جيشه. وأرغمّت الملكة الشابة وأختها الأميرة على البقاء تحت سلطة والدة الملك وتوسّلتا إليها أن توافق على أن تعودا للإقامة عند والدتهما لثروّحا عن نفسيهما خلال ذلك الغياب القاسي لبعليهما. لكنّ الملك نفسه شاء عدم الموافقة على ذلك. استحلف زوجته بالبقاء في القصر وأكد لها أنّ والدته ستعاملهما هي وشقيقتها بلطفٍ كبير. وبالفعل، توسّل إليها بإلحاح شديد أن تحبّ كتّتها وأن تُغني بها. وأضاف أنّ أكثر ما يتمنّاه هو أنّ تنجب له زوجته أطفالاً حسني التكوين وأنّه ينتظر الأخبار بفارغ الصّبر. ابتهجت تلك الملكة الشريرة بأن يعهد لها ابنها بزوجته، ووعدته بالأّ تعنى إلاّ بسلامتها وأكّدت له أنّه يستطيع الرّحيل خليّ البال. وهكذا رحل غير راغب إلاّ في الرجوع في أقرب وقتٍ ممكن ما كان يدفعه إلى حتّ جيوشه على القتال كلّما سنحت له الفرصة. وكان النّصر حليفه دوماً ما دفعه للإسراع في تصريف شؤونه. ووضعت الملكة قبل عودته صبيّين وبتاً كما رأتهم في أمّنتها، وأنجبت شقيقتها الأميرة في اليوم نفسه صبيّاً جميلاً لكنّها توفّيت على الفور.

كانت زوجة الأميرال الصّهباء منشغلة جدّاً بإيجاد وسيلة لاإيذاء الملكة الشابة. وعندما رأت أطفالها الرّائعي الجمال فيما هي لم تُرزق بأيّ طفل، تفاقم غيظها. واتّخذت القرار بأن تتكلّم سريعاً إلى والدة الملك لأنّه ليس لديها الكثير من الوقت لتضيّعه.

قالت لها:

- مولاتي، منحّنتي شرفاً عظيماً حين تكرّمت عليّ بنعمك.

وَأَتَخَلَّى طَوْعاً عَن مَّصَالِحِي لَكِي أَخْدَم مَّصَالِحِكَ وَأُرْعَاهَا. أَذْرِكُ كُلَّ الْاِسْتِيَاءِ الَّذِي تَشْعُرِينَ بِهِ مُدَّ عَقْدَ الْمَلِكِ وَالْأَمِيرِ قِرَاناً لَا يَلِيْقُ بِمَقَامِهَا. ثُمَّ هَا قَدْ وُلِدَ أَرْبَعَةُ أَطْفَالٍ سَيِّدِيْمُونَ الْخَطَأَ الَّذِي ارْتَكَبَاهُ. أَمْنَا الْمَسْكِيْنَةَ هِيَ امْرَأَةٌ قَرْوِيَّةٌ فَقِيْرَةٌ لَمْ يَعْدهُ لَدَيْهَا مَا تَأْكُلُهُ عِنْدَمَا فَكَّرَتْ أَنْ تُصَبِّحَ طَاهِيَةً. صَدَّقِيْنِي يَا سَيِّدَتِي، مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ نَقْضِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ وَنُخْرِجَهُمْ مِنَ الْوُجُوْدِ قَبْلَ أَنْ يَجْلُبُوا لِكَ الْعَارِ.

قالت الملكة وهي تُقبِّلها:

- آه يا عزيزتي يا زوجة الأميرال ما أحسنك! كم أحبُّكَ لأنَّك بهذا الإنصاف، ولأنَّك تشاطرينني انزعاجي واستيائي المحقِّين! سبق لي أن صممتُ على تنفيذ ما اقترحتِه، ولم يبقَ عليّ سوى أن أجد الطَّريقة.

أجابت الصَّهباء:

- لا يشغلنَّ ذلكَ بالك. لقد أنجبتِ كلبتي جرَّوينِ وجروءة، وجميعهم لديهم نجمة على الجبينِ وسلسلة حول الرِّقبة. يجب أن نعملَ على إقناع الملكة بأنَّها أنجبت هذه الحيوانات الصَّغيرة، فيما يُؤخذ الصبيَّانِ والفتاة وابن الأميرة ويُقضى عليهم.

هتفت:

- خطتِك تروق لي كثيراً. سبق أن أعطيتُ الأوامرَ في هذا الشأنِ إلى بهتان، وصيفتها، حتَّى تأتي بجِراءِ الكلاب الصَّغار.

قالت زوجة الأميرال:

- ها هي، لقد أحضرتُها.

وفي الحال فتحت كيساً كبيراً كان قربها وأخرجت منه ثلاثة جِراءٍ من فصيلة الدَّرواس. لفتها الملكة الأم والصَّهباء في أقمطة وكانَّ

الجراء أطفال؛ وكانت الأقمطة مُزَيَّنة كُلِّها بالدانتيل والذهب،  
ووضعتها في سلَّةٍ مغطَّاةٍ ثمَّ ذهبت تلك الملكة الشريرة إلى الملكة  
كَتَّتها مصحوبة بشقيقتها الصَّهباء.

قالت لها:

- أتيت لأشكرِكِ على وَرثَةِ العرش الرَّائِعِي الجَمالِ الذين  
أُنَجِّبْتهم لابني: هاكِ رؤوساً جميلة لتضعي فوقها تاجاً. لا أتفاجأ من  
أنكِ وَعَدْتِ زوجكِ بِصِبْيَيْنِ وبنْتِ تزِينِ جباههم نجمة على الجبين  
وشعورهم طويلة وحول أعناقهم سلسلة ذهبية. خذي، أطعمهم  
لأنه ليس هناك امرأة ترضى بأن تُرضعِ جِراءِ كلاب.

أَحَسَّتِ الملكة الشابَّة المسكينة، التي كانت لا تزال منهكة من آلام  
الوضع، بأنَّ ذلك الألم الجديد الذي تثيره فيها رؤيةِ جِراءِ الكِلابِ  
الثلاثة سوف يميتهما، وكذلك الضجَّة اليائسة التي كانت تُحْدِثها تلك  
الدراويس على سَريرها. راحت تبكي بِمَرارةٍ ثمَّ جمعت يديها وقالت:  
- ويلُّ لي ماذا أرى! سيَدِّتي لا تُضيفي مَلامَةً على نَفْجِعي لأنَّه لا  
يمكنه أن يكون أكبر. لو أنَّ السَّماءَ قد سَمَحَتْ بِموتِي قبل أن يحلَّ  
بي هذا العار وأراني أمًّا لهذه المسوخ الصَّغيرة، لَكُنْتُ اعتبرت نفسي  
سعيدة جدًّا: يا لمُصِيبتي! ماذا سأفعل؟ سيكرهني الملك بقدر ما  
أحَبَّتي.

خفت التهنيدات والشهقات صوتها، وفقدت القدرة على الكلام.  
وأمضت الملكة الأمُّ زهاءَ ثلاث ساعات عندَ سريرها مستمتعة  
بتوجيه الشَّتائم المتواصلة إليها.

ثمَّ انصرفت الملكة الأمُّ، أمَّا شقيقة الملكة، التي تظاهرت بأنَّها  
تُشاطِرُها آلامها فقالت لها إنَّها ليست الأولى التي تحلُّ بها مثل تلك  
المصيبة. لا بدَّ أنَّ الجنيَّة العجوز التي وَعَدَّتْهم بِنِعَمٍ كثيرة هي التي

قَامَتْ بِذَلِكَ الْعَمَلِ الْخَبِيثَ؛ لِذَا تَنَصَّحُهَا بِالْعُودَةِ عِنْدَ أُمِّهَا الْمُسْكِينَةَ  
مِصْطَحِبَةَ أَوْلَادِهَا الْجِرَاءِ الثَّلَاثَةَ لِأَنَّهُ لَا يَلِيْقُ بِهَا أَنْ تَرَى الْمَلِكَ وَهِيَ  
فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْمَعِيْبِ. لَمْ تُجِبْهَا الْمَلِكَةُ الشَّابَّةُ إِلَّا بِدُمُوعِهَا. أَيَّ حَالٍ  
كَانَتْ هِيَ فِيهَا بِسَبَبِ حِمَاتِهَا وَشَقِيْقَتِهَا! كَانَ مَرَاَهَا قَادِرًا عَلَى إِثَارَةِ  
الشَّفَقَةِ فِي أَوْسَى الْقُلُوبِ! أَرْضَعَتْ تِلْكَ الْكِلَابَ الْبَائِسَةَ مَعْتَقِدَةً أَنَّهَا  
وَالِدَتُهُمْ.

أَمَرَتِ الْمَلِكَةُ الْأُمُّ الْوَصِيْفَةَ بُهْتَانَ بِأَنْ تَأْخُذَ أَطْفَالَ الْمَلِكَةِ الشَّابَّةِ  
وَإِبْنَ شَقِيْقَتِهَا الْأَمِيرَةَ وَأَنْ تُخَنِّقَهُمْ وَتَدْفِنَهُمْ تَحْتَ سَابِعِ أَرْضِ بَحِيْثٍ  
لَا يُعْرَفُ عَنْهُمْ شَيْءٌ. وَفِيْمَا كَانَتْ عَلَى وَشِكِّ تَنْفِيْذِ الْمَهْمَةِ مَحْسُكَةً  
بِالْحَبْلِ الَّذِي سَيْلَتَفَّ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، نَظَرَتْ إِلَيْهِمْ مَذْهُوْلَةً بِجِبَاهِهِمْ  
الْعَجِيْبِ وَمَزَايَاهُمْ الْخَارِقَةَ وَتِلْكَ النَّجُومِ الَّتِي تَلْمَعُ عَلَى جِبَاهِهِمْ  
فَلَمْ تَجْرُؤْ عَلَى وَضْعِ يَدَيْهَا الْمَجْرِمَتَيْنِ عَلَى أَطْفَالِهِمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ التَّقَاءِ.  
جَذَبَتْ قَارِبًا إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَوَضَعَتْ فِيهِ الْأَوْلَادَ الْأَرْبَعَةَ فِي  
الْمَهْدِ نَفْسِهِ وَبَعْضَ السَّلَاسِلِ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيْمَةِ حَتَّى إِذَا قَادَهُمْ  
الْقَدْرُ بَيْنَ يَدَيْ إِنْسَانٍ مُحْسِنٍ يُعْنَى بِهِمْ، وَجَدَ مَكَافَأَتَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيْقَةِ.  
دَفَعَتْ رِيْحٌ قَوِيَّةَ الْقَارِبِ فَابْتَعَدَ سَرِيْعًا عَنِ الشَّاطِئِ، وَغَابَ عَنِ  
نَظَرِ بُهْتَانَ. وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ عَلَتْ الْأَمْوَاجُ وَاحْتَجَبَتِ الشَّمْسُ  
وَإِنْهَالَ الْمَطْرُ مَدْرَارًا وَدَوَّتْ آفَافُ الرَّعُودِ فَوْقَ كُلِّ تِلْكَ الْبَطَاحِ. لَا  
شَكَّ أَنَّ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ غَمَرَتْهُ الْمِيَاهُ؛ شَعَرَتْ الْوَصِيْفَةُ بِالسَّرُورِ لَدَى  
تَفْكِيرِهَا أَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَبْرِيَاءَ الْمَسَاكِيْنَ لَا قَوَا حَتْفَهُمْ؛ وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ  
تُخَشَى دَوْمًا أَنْ يَحْصَلَ شَيْءٌ خَارِقٌ يُنْقِذُهُمْ.

كَانَ الْمَلِكُ فِي قَلْقِي دَائِمٍ عَلَى زَوْجَتِهِ الْعَزِيْزَةِ وَيُرِيدُ الْإِطْمِئْنَانَ  
عَلَى حَالِهَا. اسْتَطَاعَ الْحُصُولَ عَلَى هِدْيَةٍ لِبَعْضِ الْوَقْتِ وَعَادَ عَلَى  
وَجْهِ السَّرْعَةِ. وَصَلَ بَعْدَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً مِنْ وِلَادَةِ زَوْجَتِهِ.

وعندما علمت الملكة الأم بذلك ذهبت لموافاته وهي تتصنع الألم وأبقته طويلاً بين ذراعيها مبللة وجهه بالدموع. تظاهرت بأن ألمها يمنعها من الكلام. ارتجف الملك خوفاً لشعوره بأن هناك كارثة كبيرة وقعت، ولم يجرؤ على السؤال عما يحدث. وأخيراً استجمعت الملكة أمه قواها وأخبرته أن زوجته أنجبت ثلاثة كلاب: وفي الحال جلبتهم له بهتان. ثم ارتمت زوجة الأميرال باكية متحبة عند قدمي الملك وهي تتوسل إليه بالأمر بقتل الملكة زوجته وبأن يكفي بإرسالها إلى والدتها، لأن زوجته نفسها مصممة على الأمر، وستلقى هذه المعاملة وكأنها عملٌ رحيم.

وجد الملك نفسه في غمرة الحيرة والضياغ وشعر بنفسه يضيق حتى الاختناق. نظر إلى جرائ الدراويس ولاحظ مدهوشاً تلك التجمعة التي تتوسط جباههم واللون المختلف الذي يطوق رقابهم. تهاوى على إحدى الكنبات وأخذت آلاف الأفكار تتصارع في رأسه دون أن يستقر على قرار. لكن والدته الملكة كانت تضغط عليه وتؤلبه على زوجته البريئة فأمر بنفيها. وعلى الفور وضعت على محمل مع كلابها الثلاثة من دون أية مراعاة لها واقتيدت إلى عند أمها حيث وصلت على آخر رمق.

نظرت السماء بعين الشفقة إلى القارب حيث كان الأمراء الصغار الثلاثة مع الأميرة الصغيرة. لكن الجنية التي تحميمهم جعلت بدل المطر حليياً في أفواههم الناشئة. لم تؤثر فيهم تلك العاصفة الهوجاء التي هبت على نحو مفاجيء. وأخيراً ظلوا في عرض البحر سبعة أيام وسبع ليال كانوا إبانها أكثر هدوءاً مما لو كانوا في قنال صغيرة. وعندئذ صادفهم أحد مراكب القراصنة. انبهر القبطان، مع أنه كان لا يزال على مسافة بعيدة، ببريق النجوم الباهرة التي تزين جباههم؛

ولكنه تأثر بشكل خاص بالجمال الرائع للأطفال الأربعة. ثم إن الرغبة في الاحتفاظ بهم أزعمته على الرجوع إلى بيته ليهبهم إلى زوجته التي لم تُرزق بأولاد وترغب منذ وقت طويل في أن تكون أمًا. شعرت الزوجة بقلق كبير لرؤيته عائداً بهذه السرعة لأنه كان ينوي القيام برحلة طويلة. لكنها طارت فرحاً عندما سلمها تلك الكنوز الثمينة. أعجبا بالنجوم والسلسلة الذهبية التي لم يكن بالإمكان نزعها من أعناق الأطفال وشعورهم الطويلة. لكن الأمر بلغ حد العجب المطلق عندما كانت تلك المرأة تمسح شعورهم التي تتساقط منها في كل لحظة لآلئ وياقوت وألماس وزمرد من مختلف الأحجام وجميعها في غاية الروعة. تحدثت عن الأمر لزوجها الذي تفاجأ مثلها.

قال لها:

- لقد سئمت مهنة القرصان. إذا استمرت شعور هؤلاء الأطفال في إمدادنا بالجواهر فلن أذهب لأجوب البحار وستكون ثروتي موازية لثروة أعظم القباطنة.

ابتهجت زوجة القرصان، وكانت تُدعى قرصانة، بالقرار الذي اتخذته زوجها. وازداد حبها لأولئك الأطفال الأربعة. سمّت الأميرة الصغيرة نجمة الجمال وأخاها البكر منيراً والثاني سعيداً. أما الابن البكر للأميرة خالتهم فسئمته عزيزاً. كان يفوق الذكّرين الآخرين جمالاً مع أنه لم تكن لديه لانهجمة على جبهته ولا سلسلة حول عنقه، وكانت قرصانة تحبه أكثر من الآخرين.

وبها أنها لم تكن تستطيع أن تُطعمهم من دون اللجوء إلى مرضعة فقد توصلت إلى زوجها الذي كان يحب الصيد كثيراً ليُمسك لها

بشوادِن<sup>(1)</sup> لا تزال رُضِعاً. وجد الوسيلة لذلك لأن الغابة حيث كانا يسكنان كانت فسيحة جداً. عندما حصلت قرصانة على الشوادن، وَضَعَتْهَا لِحْجَةً الرِّيحِ فَاشْتَمَّتِ الطَّبَّاءُ رَائِحَتَهَا وَهَرَعَتْ لِإِرْضَاعِهَا. فحَبَّأَتْهَا قَرْصَانَةً وَوَضَعَتْ بَدَلاً مِنْهَا الْأَطْفَالَ الَّذِينَ لِأُمَّهُمْ حَلِيبُ الطَّبَّاءِ بِامْتِيَازٍ. وَكَانَتْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَأْتِي أَرْبَعَ ظَبَاءَ سُوءَةٍ إِلَى مَنْزَلِ قَرْصَانَةٍ بِحَثٍّ عَنِ الْأَمْرَاءِ وَالْأَمِيرَةِ الَّذِينَ حَسَبْتَهُمْ هِيَ شَوَادِنُ. وَهَكَذَا مَضَتْ السَّنَةُ الْأُولَى مِنْ طِفْوَلَةِ الْأَمْرَاءِ. كَانَ الْقَرْصَانُ وَزَوْجَتُهُ يُحِبُّونَهُمْ بِشَغْفٍ كَبِيرٍ وَأَوْلِيَاهُمْ كُلَّ رِعَايَتِهِمَا. كَانَ الْقَرْصَانُ قَدْ تَلَقَّى فِي صَغُرِهِ تَرْبِيَةً رَاقِيَةً وَأَصْبَحَ قَرْصَاناً بِفِعْلِ غَرَابَةِ الْقَدَرِ وَلَيْسَ لِمَلِيلٍ فِيهِ إِلَى هَذِهِ الْمِهْنَةِ. تَعَرَّفَ عَلَى زَوْجَتِهِ عِنْدَ إِحْدَى الْأَمِيرَاتِ حَيْثُ كَانَتْ تَلَقَّتْ أَيْضاً تَرْبِيَةً حَسَنَةً وَثِقَافَةً رَفِيعَةً. وَمَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تَعِيشُ فِي مَكَانٍ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِالْقَفْرِ، وَكَانَا يَعْتَاشَانِ مِنَ السَّرَقَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْقَرْصَانُ خِلَالَ جَوْلَاتِهِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْسَ أَصُولَ التَّصَرُّفِ الْخَاصَّةَ بِالْمَجْتَمَعِ الرَّاقِي. كَانَا سَعِيدَيْنِ جَدّاً لِأَنَّهَا لَمْ يَعُودَا مُجْبَرَيْنِ عَلَى التَّعَرُّضِ لِكُلِّ الْمَخَاطِرِ الَّتِي تَسِمُ مِهْنَةَ الْقَرْصَانِ. وَأَصْبَحَا ثَرِيئَيْنِ دُونَ الْقَرْصَنَةِ. وَفِي مَعْدَلٍ كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَانَتْ تَتَسَاقَطُ، كَمَا قُلْتُمْ لَكُمْ أَنْفَاءً، مِنْ شَعُورِ الْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ وَإِخْوَتِهَا أَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ كَبِيرَةٍ الْحَجْمِ فَتَذْهَبُ قَرْصَانَةٌ لِبَيْعِهَا فِي الْمَدِينَةِ الْأَقْرَبِ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يُثْنِي عَلَى أَطْفَالِهَا الْأَرْبَعَةِ.

وَعِنْدَمَا انْقَضَتْ سِنَوَاتُ طِفْوَلَتِهِمُ الْأُولَى، انْكَبَّ الْقَرْصَانُ بِجَدِيدَةٍ عَلَى تَنْشِئَةِ الْمَوَاهِبِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي حَبَّبَتْهُمْ بِهَا السَّمَاءُ. لَمْ يَكُنْ يَخْمَنُ أَنَّ هُنَاكَ أَسْرَاراً كَبِيرَةً خَفِيَّةً تَحِيطُ بِمَوْلِدِهِمْ وَيَلْقَائِهِ بِهِمْ. أَرَادَ، مِنْ خِلَالِ اهْتِمَامِهِ بِتَرْبِيَتِهِمْ، أَنْ يَشْكُرَ السَّمَاءَ عَلَى تِلْكَ التَّعَمَّةِ الَّتِي مَنْحَتْهُ إِتْيَاهَا.

(1) جمع شادن، وهو صغير الظبية.

وعندما أصلح من هيئة منزله وزوّده بوسائل الرفاهية، استدعى أساتذة أكفاء لتلقينهم مختلف العلوم فاستوعبوا بسهولة أذهبتهم. لم يتحدث القرصان وزوجته إطلاقاً عن المغامرة التي خاضها الأطفال الأربعة. كان الجميع يظنون أنهم أولادها مع أن جميع تصرفاتهم أظهرت نبالة محتدم. كانوا متضامنين جداً فيما بينهم وكانوا يتعاملون حياءً بعضهم البعض باحترام وتهذيب، ولكن الأمير كان يكنّ للأميرة نجمة الجمال مشاعر أكثر اندفاعاً من الأميرين الآخرين. ما إن تتمنى الفتاة شيئاً حتى يُحاول المستحيل لإرضائها. لم يكن يكاد يُفارقها. عندما تذهب إلى الصيد، كان يُرافقها، وعندما تمتنع عن الذهاب، يجد دوماً الأعذار ليحذو حذوها. وكان أخوها منير وسعيد يتحدثان إليها بحنان واحترام أقل. لاحظت ذلك الفرق بين تصرفها وبين تصرف عزيز فكنت له محبة خاصة.

وكلما تقدّم عزيز ونجمة الجمال في السن ازدادت عاطفتها المتبادلة رسوخاً، وكان ذلك الشعور ممتعاً بادئ الأمر.

كانت نجمة الجمال تقول له:

- يا أخي الحنون لو أن تمنياتي لك تكفي لتجعلك سعيداً، فستصبح واحداً من أعظم الملوك في العالم.

وكان يجيبها:

- يا أختي! لا تضني عليّ بالسعادة التي أشعر بها قربك. أفضل أن أقضي ساعة معك على كل ما تمنينه لي من ترفيات! وعندما كانت تقول الشيء نفسه لأخويها كانا يُجيبان، أسوة بالجميع، بأن ذلك سيكون أقصى ما يتمنيانه. وكانت تمتحن مشاعرهما بقولها:

- أجل، أودّ أن تكونا على عرش أعظم مملكة في العالم حتى لو لم



أرَكمَا أبدأ.

ويجيبان على الفور ساخرين:

- أنت على حق يا أخت، الملك أفضل بالطبع من رؤيتك.

- إذا أنتم لا تهتمكما رؤيتي كثيراً!

- يكفيننا فقط أن تصلنا أخبارك.

وحالما تجد نفسها وحيدة، كانت تمنع في التفكير في فوارق العاطفة هذه. صحيح أنها كانت تحب أخويها منيراً وسعيداً لكنها لم تكن تتمنى أن تبقى معها طيلة حياتها. أما إذا فكرت بعزير فكانت تنهار باكية ما إن يخطر على بالها أن والدهم سيرسله ذات يوم ليحج البهار أو ليلتحق بالجيش. وهكذا فإن الحب المتلبس قناع ذلك الانعطاف الفطري الجميل ترسخ في قلبي هذين الشابين اليافعين. ولكن في عمر الرابعة عشرة، بدأت نجمة الجمال تلوم نفسها على الظلم الذي خالت أنها تلحقه بأخويها لأنها لا تكن لهما الحب نفسه. تخيلت أن العناية التي يوليها إياها عزير وبإدراته الحنون هي السبب فمَنَعته من أن يسعى لإيجاد الوسائل التي تحببه إليها. كانت تقول له بلطف:

- لقد عرفت كيف تجد الطريقة لأحبك أكثر منها فجعلتني

أشعر بفارق كبير بينك وبينها.

آية سعادة كأن يشعر بها عندما تكلمه على هذا النحو! وبدل أن يخفف هذا القول من حماسه، كان يزيدا فيسعى للتودد إليها في كل يوم بلطف أكبر.

كانا يجهلان إلى أين ستؤدي بهما عاطفتها ولا يعرفان ما طبيعتها. وذات يوم جيء لنجمة الجمال بكتب جديدة عديدة. أمسكت بأول كتاب وقع تحت يدها، وصادف أنه يروي قصة عاشقين يافعين

كانا يظنان في البداية أنّها أخوان ومن ثمّ تعرّف إليهما أقاربهما وبعد صعوباتٍ جمة، تزوّج الفتى والفتاة.

بما أنّ عزيزاً كان يُحسن القراءة، ويفهم برهافة كلّ ما يقرؤه، ويعبّر عن أفكاره برهافةٍ أيضاً، طلبت منه نجمة الجمال أن يقرأ إلى جانبها فيما تُكمل هي تطريز قطعةٍ من التسيج كانت راغبةً في إنهاءها. فقرأ تلك القصة بقلق بالغ ورأى فيها مرآة تعكس مشاعره كلّها. وكذلك فوجئت نجمة الجمال بالقصة وبدا لها وكأنّ الكاتب يدرك كلّ ما كان يدور في نفسها. وكلّما أمعنَ عزيز في القراءة شعر أنّها تمسه أكثر. وكلّما استمعت إليه الأميرة، رقّ قلبها أكثر. ورغم الجهد الذي بذلته انهمرت الدموع من عينيها وغمرت خديها، وسعى عزيز من ناحيته ليتمالك نفسه لكنّ شحوب وجهه وتبدّل نبرة صوته كانا يعبران عن دخليّاته. لقد شعرَ عزيز ونجمة الجمال بكلّ الألم والعذاب.

هتفَ يقول وهو ينظرُ إليها بحُزنٍ تاركاً الكتاب يسقط من يده:

- آه يا أختي! آه يا أختي ما كان أسعدَ هيبوليت لأنّه لم يكن شقيق

جولي!<sup>(1)</sup>

أجابته:

- لن تُكتبَ لنا مثل هذه الفرحة رغم أنّها أقصى أمانينا.

ما إن أنّهت كلماتها هذه حتّى أدركت أنّها قالت أكثر مما يُفترض بها قوله، فبدت مُرتبكة. وإذا كان هناك شيء يُمكنه أن يُجمل العزاء إلى قلب الأمير فهو الحال التي رآها فيها. ومنذ ذلك الحين غرق الاثنان في حزنٍ عميقٍ دون أيّ تعليلٍ إضافيٍّ، محاولين بصمتٍ أن يُدرِكا جزءاً

(1) هيبوليت وجولي هما بطلا رواية ماري-كاترين دونوا الحاملة عنوان: حكاية هيبوليت، الكونت دوغلا، وكان يجمعهما عشقٌ حالٌ دونه عائقٌ مشابه لهذا الذي يحول دون عشق نجمة الجمال وعزيز.

مما كان يدور في خلدَيهما، متوَحِّينَ أن يُخْفِيا على الجميع سرّاً أرادا إغفالَهُما بالذات ولم يعودا للتطرّق إليه. ومع ذلك فَمِنَ الطبيعيّ جدّاً أن يتعلّلا بالأمل، وما كان يدفَع الأميرة لتستمرّ في رجائها ذاك هو أنّ عزيزاً لم يكن يملك لا نجمة على جبهته ولا سلسلة حول عنقه، أمّا شعره الطويل وهَبّة إسقاط الأحجار الكريمة منه لدى تسريحه، فكان يملكهما مثله مثل ابني خالته.

وذات يوم ذهبَ الأُمراء الثلاثة إلى الصيّد. وظلّت نجمة الجمال في المنزل واختلّت في مخدَع صغير كانت تهوى اللّجوء إليه لأنّه مُعتم وتستطيع أن تحلم فيه بحرّيّة أكثر من أيّ مكانٍ آخر. لم تكن تصدر عنها أيّة ضجّة. لم يكن يفصل بين ذلك المخدَع وغرفة قرصانة إلاّ حاجز خشبيّ. ظنّت قرصانة أنّ نجمة الجمال ذهبت إلى النزّهة مع إخوتها. وعندئذٍ سمِعتها نجمة الجمال تقول لزوجها:

- ها إنّ نجمة الجمال أصبَحَت بِعمر الزّواج، لو كُنّا نعرِف مَنْ هي لَسَعِينا لأن نَجِدَ لها زوجاً يليق بِمَقامِها. أو لو كان بِمَقدورنا أن نعتقَد أنّ هؤلاء الذين نعتبرُهم إخوتها ليسوا كذلك حقّاً لزوَّجناها أحدهم فأين بوسعها أن تجد أفضلَ منهم؟  
قال القرصان:

- عندما عثرتُ عليهم، لم أهدِ إلى شيء يعرف بهم. لكنّ الأحجار الكريمة التي كانت موضوعة في مَهدهم كانت تُشير إلى أنّهم ينتمون إلى أناس أثرياء. ولكن يبدو لي مستبعداً أن يكونوا توائم جميعاً لأنّ أعمارهم تبدو متشابهة وليس مألوفاً أن تنجب امرأة أربعة توائم.  
قالت قرصانة:

- أشكّ أيضاً أنّ يكون عزيز شقيقهم فهو ليس لَدَيْهِ لا نجمة على جبهته ولا سلسلة في عنقه.

أجاب زوجها:

- هذا صحيح، لكنّ اللآلئ تتساقط من شعره مثله مثل الآخرين،  
وبعدَ كلِّ الثرواتِ التي جمعناها بفضلِ هؤلاء الأولادِ الأعزّاء لم يبقَ  
لي ما أتمناه سوى أن أكتشف أصلهم.

قالت قرصانة:

- لِنترك الأمرَ لمشيئةِ السماءِ فهي التي أعطتنا إياهم، وعندما يجينُ  
الوقت ستجعلنا نعلّم ما خفيَ علينا.

كانت نجمة الجمال تُصغي بانتباه كليٍّ إلى ذلك الحوار. وشعرت  
بفرحةٍ لا تُوصف لِعلمِها أنّها يمكن أن تأمل أن تكون من أصل  
نبيل؛ فبالرغم من كلّ الاحترام الذي تكته لأبويها، كانت تشعر دوماً  
بالألم والتعاسة لأنها ابنة أحد القراصنة. ولكن ما أشعرها بفرحةٍ  
أكبر هو احتمال ألا يكون عزيز أخاها. كانت تتلهّف شوقاً لِتُحدّثه  
عن الموضوع وتُخبرهم هو وأخويها الآخرين بهذه القصة الخارقة.

صعدت على فرسٍ أحمر اللون، وكان شعراً عُرِفَه الأسود مزداناً  
بأبازيمٍ من الألماس، لأنّها ما كان عليها إلا أن تُسرح شعرها مرّةً واحدةً  
لكي تُزيّن بالألماس موكبَ صيّدٍ بكامله. كان سرّجها المخمليّ  
الأخضر موشىّ بالألماس ومطرزاً بالياقوت. اعتلت ظهر الحصان  
على وجه السرعة، وذهبت إلى الغابة لتبحث عن إخوتها. أعلمتها  
ضجّة الأبواقِ والكلابِ بمكان وجودهم فوافتهم في الحال. لدى  
رؤيتها، ترك عزيز أخويه وجاء لموافاتها بأسرعٍ منهما.

هتف بها:

- يا للمفاجأة الجميلة يا نجمة الجمال! وأخيراً جئتِ إلى الصيّدِ  
أنتِ التي لا نستطيع أن نُلهيك لحظة عن المسرات التي تُمدّك بها  
الموسيقى والعلوم.

أجابت:

- لديّ أشياء كثيرة أريد أن أخبركم إيّاها. وأتيت للبحث عنكم لأنني أريد أن نكون وخذنا.

قال وهو يتنهد:

- آه يا أختي! ماذا تريد مني اليوم؟ منذ زمنٍ بعيدٍ لم تطلبني شيئاً مني.

احمرّت خجلاً وخفّضت عينيها جالسةً على حصانها حزينةً حالمةً دون أن تُجيبه.

وأخيراً وصلَ أخوها. أيقظتها رؤيتها وكأنها انسلت من سبات عميق فترجّلت وسارت في المقدّمة فلحقوا بها جميعاً. وعندما أصبّحت في وسط مرجة صغيرة مظلمة بالأشجار، قالت لهم:  
- لنجلس هنا وخذوا علماً بما سمعته للتوّ.

وروت لهم بكلّ دقة الحوار الذي جرى بين القرصان وزوجته، والذي كان مفاده أنهم لم يكونوا أولادهم. دُهِشَ الأمراء الثلاثة كثيراً لما سمعوه وتباحثوا فيما بينهم عما يجدرُ بهم فعله. أراد الأول أن يرخل سراً فيما رفض الثاني فكرة الرّحيل، وأعرّب الثالث عن رغبته في الرّحيل ولكن ليس قبل أن يُبلغ القرصان وزوجته بذلك. علّل الأول السبب الذي يدعوه للرّحيل خفيةً قائلاً إنه الوسيلة الأضمن لأنّ أبويها يجنيان مكاسبَ جمةً من الأحجار الكريمة المتساقطة من شعورهم، الأمر الذي قد يدعوها لاحتجازهم وإبقائهم في عُهدتهما. وقال الثاني إنه إذا توجّب الرّحيل عنهما فيجب على الأقلّ معرفة مكان مُحدّدٍ للذهاب إليه والطبقة التي يتمون إليها. ثم إن لقب المتسكّعين الشاردين ليس مُستحبّاً. فيما أضاف الثالث أنّ الافتراق عنهما هكذا دون نيل رضاها جحودٌ وإنكارٌ للجميل.

لكنّ البقاء معهما وسط الغابة حيث لا يمكنهم أن يعلّموا شيئاً عن أصلهم يتّصفُ في الوقتِ نفسه بغباءٍ كبيرٍ، وأنّ الموقف الأصحّ هو التحدّث إليهما ونيل الموافقة بالرحيل منهما. فاستحسنوا جميعاً هذا الرأى وفي الحال امتطوا أحصنتهم وذهبوا للقاء القرصان وزوجته. امتلأ قلب عزيز بكلّ السرور الذي يبثّه الرّجاء في قلب عاشقٍ معذب: جعله حبه يحدس بما سيكون عليه المستقبل: لم يعد يعتبر نفسه شقيقَ نجمة الجمال. عاد حبه الملجوم للانطلاق من جديد وصوّر له مباحج كثيرة ساهرة. وهكذا ذهب الأولاد لموافاة القرصان وزوجته بوجوه يشوبها السرور والقلق في آنٍ معاً.

قال لهما منير (وكان الناطق بلسان الأربعة):

- لم نأت لنتنكر عليكما العاطفة والامتنان والاحترام وكلّ تلك المشاعر التي ندين لكم بها. لقد علمنا أنّكما عثرتم علينا في عرض البحر وأنكما لستم أبويننا، ومع ذلك فإنّ إشفاقكما علينا وتنجيتنا من الموت، والتربية الرّفيعة التي منحتمونا إيّاها، وكلّ هذه الرّعاية والحنان اللذين تحيطاننا بهما، هذا كلّه يجعلنا مرتبطين بكما بوثاق متين لا شيء بوسعه فكّه. جننا إذاً لكي نجدد لكم شكرنا الصادق والعميق ونتوسّل إليكما أن تخبرانا عن تلك الحادثة الغريبة وأن تنصّحانا بما يجب أن نفعله لكي نهتدي وفق آرائكما الحكيمة متجنّبين الأخطاء والعواقب.

دُهِشَ القرصان وزوجته من اكتشاف الأولاد سرّاً أخفياهم عنهم بعناية كبيرة.

قالا:

- اطّلعتم على الحقيقة بشكل وافٍ ولم يعد بإمكاننا أن نخفي عليكم أنّكم لستم أولادنا وأنّ القدر وحده هو الذي وضعكم

بين أيدينا. لا نعرف شيئاً عن مُلابساتِ ولا دَتِكُمْ ولكنّ الأحجارِ الكريمةَ التي تزيّن مَهْدَكُم تشير إلى أنّ أهلكم هم إمامن الأشراف أو من الأثرياء. وفي الواقع، ماذا بمقدورنا أن ننصحكم؟ إذا اختكمتكم إلى العاطفة التي نكنّها لكم لبقيتكم معنا دون شكّ وكنتم العزاء لشيخوختنا بصحبتكم اللطيفة. وإذا كان القصر الذي بنيناه في هذه الأمكنة لا يُعجبكم أو إذا كانت هذه الخلوة تحزنكم فسندهب حيثما شئتم شرط أن يكون ذلك بعيداً عن أيّ بلاط، لأنّ تجربة طويلة جعلتنا نأنف أجواء القصور، وسيُخامركم بدوركم الشعور نفسه إذا ما علمتم بالاضطرابات المستمرة التي تعم الحاشية فيها، والخبث والحسد والنزاعات والشُرور والزيف. وسوف نقول لكم المزيد عنها، لكنكم ستظنون أنّ لِنصائحنا غرضاً مُبيّناً. وربّما هي كذلك يا أولادي، فنحن نرغب باستبقائكم في هذه الخلوة الهائلة رغم أنّكم أسياد مصيركم وتستطيعون مغادرتها ساعة شئتم. وفكروا دوماً أنّكم معنا في ميناء الأمان، وأنكم تُبحرون وسط اليمّ الهائج. نريدكم أن تعلموا أنّ المشقات تطغى دوماً على المسرات، وأنّ الحياة قصيرة وغالباً ما نغادرها في أوج عطائنا، وأن كلّ الأشياء العظيمة في هذا العالم مظاهر بَرّاقة مُخادعة تُبهرنا بفعل قدر غريب؛ أمّا الخيرُ الأعظم والأكثرُ رسوخاً فهو القناعة والتمتع بالسكينة، والتعقل.

وكان القرصان سيسترسل أكثر في وَعْظِهِ لو لم يقاطعه الأمير.

قال له:

- أبي العزيز، نرغب بشدة في أن نكتشف شيئاً عن ولا دَتِنَا لذا لا نريد أن ندفن أنفسنا في عمق هذه الصحراء. الحكمة التي تعظنا بها ممتازة وأودّ لو نكون قادرين على العمل بموجبها، ولكنّ ثمة قدر ما يُنادينا من حيث لا ندري للرحيل. اسمحاً لنا بأن نستجيب لقدّرنا.

سنعودُ لرؤيتكما وإبلاغكما بكلِّ ما جرى معنا.

وعندئذ أخذ القرصان وزوجته ييكيان فرَّق قلب الأُمراء لحالهما وخصوصاً قلب الأُميرة نجمة الجمال التي كانت عطوفاً بطبيعتها والتي ما كانت لتترك الصَّحراء لو كانت واثقة من أنَّ عزيزاً سيظلَّ معها.

أُتخذَ القَرار بالرحيل ولم يعد أمامهم إلاَّ إعداد العدة للإبحار، لأنَّهم كانوا يأملون بالعثور في البحر على إلهام ما ينير طريقهم ويُسهِّل عليهم ما يريدون معرفته. وأدخلوا في مركبهم الصَّغير حصاناً لكلِّ منهم. وبعد أن سرَّحوا شعورهم حتَّى كادوا يحدِّثون فروة رؤوسهم لكي يتركوا لوالدَّتهم أكبرَ قدر من الأحجار الكريمة، توَّسَّلوا إليها أن تُعطيهم بالمقابل سلاسل الألباس التي كانت في مَهديهم. فذهبت لإحضارها من مَخدَعها حيث احتفظت بها بعناية وعلقتها جميعاً إلى ثوب نجمة الجمال وقبَّلتها باستمرار مبتلَّةً وجهها بدموعها.

لم يحدث لفراق أن كانَ بمثل ذلك الحزن. أو شكَّ القرصان وزوجته أن يقضياً الماء، وهذا الألم لم يكن نابعاً من منفعة شخصيَّة، لأنَّها جمعا ثروة طائلة ولا يريدان أكثر. صعَّد منير وسعيد وعزيز ونجمة الجمال إلى المركب. كان القرصان قد أمرَ بصنْعِه بشكل متين وجميل: كان الصَّاري مصنوعاً من خشب الأبنوس والأرز. وكانت الحبال من الحرير الأخضر الممزوج بالذهب، والأشربة من القماش الذهبي والأخضر، وطلاء المركب بديعاً. بدأ المركب بالإبحار، ولو رآه أنطونيوس وكليوباترا<sup>(1)</sup>، لا بل لو رآه مرافقو فينوس<sup>(2)</sup> جميعاً،

(1) إشارة إلى وصول القائد السياسي الروماني أنطونيوس إلى مصر على رأس أسطول حربي، وإلى غرامياته مع ملكة مصر القديمة كليوباترا.

(2) لم يكن لفينوس مرافقون مخصوصون، لكن قد تقصد الكاتبة عموم الكائنات البحرية، بما أنَّ فينوس ولدت بحسب الميثولوجيا الإغريقيَّة من زبد البحر.



لخَفَضُوا رايَتهم احتراماً له. كانت الأميرة جالسة في ديوان نفيس في مؤخرَة السَّفينة وكان أخواها وابن خالتها جالسينَ قَربها أكثرَ سطوعاً من الكواكب، وكانت النجوم التي تُزَيِّنُ جباههم تُرسلُ أشعةً مبهرة. قرَّروا الذَّهابَ إلى المكان نفسه حيث عثر القرصان عليهم، إلى أن بَلَغوه فعلاً. وتحضَّروا في ذلك المكان لِيقَدِّموا تَضحيَّةَ كبيرةٍ للسماء والجَنِّيات لكي يَفوزوا بِالِحماية ولِيُرْشَدُوا إلى مَكانٍ ولادَتهم. أمسَكوا بِيامةٍ لِذَبِحِها ولكنَّ الأميرة أشفقت عليها ووجدتها جميلة جداً فأرادت إنقاذ حياتها. ولكي تَقِيها شرورَ حادثٍ مماثلٍ، أَطَلَقَتْ سَراحها.

قالت لها:

- طيري يا عصفورة فينوس الجميلة. وإذا احتجتُ إليك يوماً ما فلا تنسي العملَ الخَيْرَ الذي صنَعته لك.

وَطَارَت الِيامة. بعدَ أن انتهت التقدمة شرَّعوا في الغناءِ بشكلٍ ساحرٍ وبِداً وكانَ الطَّبيعةَ بِأَكْمَلِها أثرت الصَّمْت العميقَ لِتَسْمَعَهُم: لم تكنَ أمواجُ البحرِ ترتفعُ إطلاقاً. ولم تكنَ الرِّيحُ تهبُّ. وحده النسيمُ العليلُ كانَ يُطَيِّرُ شعَرَ الأميرة وَيُسَعِّثُ وشاحها قليلاً. وعلى الفور، خرجت من الماء حوريةٌ تغني بِشكلٍ بديعٍ حتَّى أنَّ الأميرة وأخويها أعجبوا بها. وبعدَ أن أنشدت بعضَ الأغاني، التفتت نحوهم وهتفت بهم:

- لا تقلقوا بعد الآن. دَعُوا مَرَكِبكم بِأخذكم حيثما شاءَ وترجَّلوا منه حيثما توقَّف، وليستمرَّ كلُّ المتحايينَ في حَبِهم.

شعرَ عزيزٍ ونجمَة الجِمالِ بِفرحٍ خارقٍ لما قالته الحورية للتوّ. لم يشكَّا لحظةً واحِدةً في أنَّ الكلامَ يَخْصُّهما، وبِنظرةٍ واحِدةٍ تفاهَمَ قلباهما دونَ أن يلاحظَ منيرٌ وسعيد شيئاً. كان المركبُ يُبحرُ على هوى

الرياح والأمواج. وكان إبحارهم دون مشقة، الطقس جميل والبحر هادئ دوماً. وظلّوا في البحر ثلاثة أشهر كاملة تحدّث خلالها الأمير العاشق عزيز مع الأميرة غالباً.

قال لها ذات يوم:

- أيتها النجمة الساحرة! قلبي مفعم بالأمال! لست أخاك. هذا القلب الذي يعترف بسطوتك عليه والذي لن يعترف بسطوة أخرى أبداً، لم يولد ليرتكب الآثام، وإنه لذنبٌ عظيم أن أحبك كما أفعل لو كنت أختي حقاً. لكنّ الحورية المحسنة التي جاءت لتقدّم لنا النصح أكّدت لي صواب ما كنت أشعرُ به في خلدي.

أجابته:

- آه يا أخي لا تثق كثيراً بشيءٍ لا يزال غامضاً جداً ولا نستطيع إدراك كنهه! ماذا سيصير بحالنا إذا أثّرنا غضب السماء بمشاعر قد لا تروق لها؟ كانت كلمات الحورية غامضة ومنحناها نحن المعنى الذي يروق لنا لرغبتنا الشديدة في ذلك.

قال الأمير مكتئباً:

- تمتنعين عن تصديقها ليس احتراماً للسماء بقدر ما هو نفور

متي!

لم تُجبه نجمة الجمال بشيءٍ بل رفعت عينيها نحو السماء ثم أطلقت تنهيذة عميقة لم يستطع أن يفسر سببها إلا لصاحه.

كانوا في الفصل حيث النهارات طويلة حارقة. نحو المساء، صعدت الأميرة وإخوتها إلى سطح السفينة ليروا غروب الشمس في حضن الأمواج. جلست وقربها جلس الأمراء ثم أخذوا آلاتهم الموسيقية وشرعوا في غنائهم الجميل. وفي تلك الأثناء دفعت المركب ريحٌ منعشة وبدا وكأنه يُبحر بخفة أكبر وسارع للانعطاف حول

رغن من البرّ داخل في البحر ويخفي جزءاً من أجمل مدينة في العالم. ولكنّ المدينة بانّت فجأةً وأدهشَ منظرُها شباناً اللطفاء. كانت جميع القصورِ من رُخام، وسطوحها من ذهبٍ وجدرانها من الخزفِ التّيفيس. وكان بريق أوراق الأشجار الخضراء يمتزج بمختلف ألوان الرّخام والذهب والخزف. تمتى الأمراء أن يدخلَ مركبهم في المرفأ لكتهم استبعدوا أن يجدوا مكاناً لهم لأنّه كان مزدحماً بمراكبٍ أخرى كثيرة راسية فيه وبانّت صواربها وكأنتها غابة عائمة.

تحققت رغباتهم، اقتربوا من الضفّة، وبلحظة واحدة امتلأ الشاطئ بالناس الذين لمحو السفينة البديعة: ذلك أنّ السفينة التي بناها ملاحو الأرغوس<sup>(1)</sup> لاستعادة الجزّة الذهبية لم تكن على ذلك البهاء. كانت النجوم اللامعة على جباه الأولاد الرّائعي الجمال تسحر الأنظار كلّها. وهرع الناس يزقون هذا الخبر للملك. كانت شرفة القصر الكبيرة تطلّ على البحر؛ لم يستطع الملك تصديق الخبر فذهب إلى المرفأ مسرعاً. رأى الأميرين منير وعزيز يجملان الأميرة بين أذرعهم ويضعونها أرضاً ومن ثم أخرجت أحصنتهم وكانت أسرجتها الفاخرة تتماشى مع كلّ الأبهة التي تُحيط بذلك الموكب. وصعد منير على حصانٍ أدهمٍ أشدّ سواداً من السبج، فيما كان حصان سعيد رمادياً وحصان عزيز أبيض كالثلج وحصان الأميرة أغبس اللون. أعجب الملك بهم أربعتهم على أحصنتهم التي سارت بفخر مبيّدة كلّ من كانوا يُحاولون الاقتراب.

سمع الأمراء الناس من حولهم يقولون: «هوذا الملك!» فرفعوا

(1) إشارة إلى الأسطورة الإغريقية التي تصف كيف أنخر جايسون مع مجموعة من الأبطال لإحضار الجزّة الذهبية. وقد صاروا يُدعون الأرغونوتيين، نسبة إلى السفينة التي حملتهم وكان اسمها آتيا من اسم بانيتها: آرغوس.

أَبْصَارَهُمْ نَحْوَهُ وَوَجْدُوهُ مَلِيئًا بِالْجَلَالِ وَالْهِيبَةِ فَانْحَنَوْا لَهُ بِاحْتِرَامٍ كَبِيرٍ وَمَرَّوْا بِهَدْوٍ وَهُمْ يَرْنُونَ إِلَيْهِ. أَمَّا الْمَلِكُ فَانْذَهَلَ بِجَمَالِ الْأَمِيرَةِ الَّتِي لَا يُضَاهِي وَبِبَشْرَةِ الْأَمْرَاءِ الشَّبَّانِ الْمَمْتَلِئَةِ صِحَّةً. وَأَمْرًا قَائِدَ الْحَرَسِ بِأَنْ يَذْهَبَ وَيُقَدِّمَ لَهُمُ الْحِمَايَةَ اللَّازِمَةَ وَجَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا فِي بِلَادِ غَرْبِيَّةٍ عَنْهُمْ عَلَى مَا يَبْدُونَ. تَلَقَّوْا الشَّرْفَ الَّتِي أَوْلَاهُمْ إِيَّاهُ الْمَلِكُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالْإِمْتِنَانِ وَقَالُوا لَهُ إِنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَّا إِلَى مَنْزِلٍ بَعِيدٍ عَنْ أَعْيُنِ الْمُتَطَقِّلِينَ، وَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَعْدِ فَرَسِيخٍ أَوْ فَرَسِيخِينَ مِنَ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُمْ يَهُونُ التَّنَزُّهُ كَثِيرًا. وَفِي الْحَالِ، قَدَّمَ لَهُمُ الْقَائِدُ الْحَرَسِ بَيْتًا جَمِيلًا تَتَوَقَّرُ فِيهِ وَسَائِلُ الرَّاحَةِ لَهُمْ وَلِأَفْرَادِ مَوَكِبِهِمْ.

تَأَثَّرَ الْمَلِكُ بِرُؤْيَةِ الْأَوْلَادِ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ رَأَاهُمْ لِتَوَّهِ، وَفِي الْحَالِ ذَهَبَ إِلَى غُرْفَةِ الْمَلِكَةِ وَالِدَتِهِ لِيُخْبِرَهَا عَنِ الْآيَةِ الْمَتَمَثِّلَةِ فِي النُّجُومِ الَّتِي تَلْمَعُ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَكُلِّ مَا أَعْجَبَهُ فِي مَرَاهِمِ. ذُهِلَتِ الْمَلِكَةُ الْأُمُّ وَسَأَلَتْهُ دُونَ تَصْنَعٍ عَنْ أَعْمَارِهِمْ فَأَجَابَهَا أَنَّ أَعْمَارَهُمْ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ أَوْ السَّادِسَةِ عَشْرَةَ. لَمْ تُظْهِرْ قَلْقًا لَكِنَّهَا خَافَتْ خَوْفًا مُرْبِعًا أَنْ تَكُونَ وَصَيْفَتِهَا بَهْتَانٌ قَدْ خَانَتْهَا. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ الْمَلِكُ يَجُولُ الْغُرْفَةَ بِخَطِيئَةٍ كَبِيرَةٍ وَيَقُولُ:

- مَا أَسْعَدَ الْأَبَ الَّذِي لَدَيْهِ أَبْنَاءٌ بِهَذَا الْكَمَالِ وَبِنْتُ بِهَذَا الْجَمَالِ!  
أَمَّا أَنَا الْمَلِكُ الْعَدِيمُ الْحَظَّ فَأَنَا أَبٌ لِثَلَاثَةِ كِلَابٍ. هَا هُمْ وَرَثَةُ عَرْشِي  
جَدِيرُونَ بِالْمُلْكِ حَقًّا!

كَانَتِ الْمَلِكَةُ الْأُمُّ تَسْتَمِعُ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَالْقَلْقُ يَعْتَصِرُهَا. فَالنُّجُومُ اللَّامِعَةُ لِأَوْلَادِهَا الْغُرْبَاءِ وَأَعْمَارِهِمْ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِلَةٍ كَبِيرَةٍ بِأَحْفَادِهَا الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ سَعَتْ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُمْ. وَسُرْعَانَ مَا تَبَادَرَتْ إِلَيْهَا الشُّكُّ بِوَصَيْفَتِهَا بَهْتَانٌ. فَلَرَبَّمَا خَدَعَتْهَا وَأَنْقَذَتْ أَوْلَادَكَ

الأولادَ بَدَل أن تقتلهم. لكنَّ الملكة الأمَّ كانت تملكُ دوماً القدرةَ على ضبطِ نفسها، لذا لم تُظهر شيئاً مما يجول في ذهنها، ولم تشأ حتى أن تُرسلَ في ذلك التَّهَارِ أحداً لِيَسْتَعْلِمَ لها عن أشياء كثيرة كانت راغبة في معرفتها. ولكن في اليوم التالي طلبت من أمين سرِّها الذَّهابَ إلى هناك بِحُجَّةِ إعطاءِ الأوامرِ لِتأمينِ الرَّاحَةِ لهم في المنزل الذي أقاموا فيه، وأن يتحقَّق لها من كلِّ شيءٍ وخصوصاً من وجودِ نجومٍ على جباههم.

وانطلقَ أمين السرِّ في الصُّباح الباكر. ووَصَلَ إلى المنزل فيما كانت الأميرة تُسْرُحُ شعرها وتسوِّي زينتها. في ذلك الزَّمان، لم يكن هناك لدى العطارين مسحوق لتبديل لونِ البشرة. من هي بيضاء كانت تبقى بيضاء، ومن هي سوداء تبقى سوداء. رأهم يُسْرَحُونَ لها شعرها الأشقرَ الأرقَّ من خيوطِ الذَّهبِ والمنسَدِلِ خصلاتٍ حتى يلامسَ الأرض. كان هنالك سِلالٌ عديدة من حوِّها لكي لا يضيعَ أيُّ من الأحجارِ الكريمة المتساقطة منه. كانت التَّجمَّة على جبينها ترسل أشعةً تبهرُ العيون، وضاهت السِّلْسِلَةُ المطوَّقة عنقها روعةَ الألباسِ النفيسة المتدحرجة من أعلى شعرها. شقَّ على أمين السرِّ أن يُصدِّقَ كلَّ ما تراه عيناه. ولكنَّ الأميرة اختارت أكبرَ لؤلؤة له متوسِّلةً إليه أن يحتفظَ بها كذكرى منها. إنَّها اللؤلؤة نفسها التي كان ملوك إسبانيا يُقدِّرونها كثيراً ويُسمِّونها «بيرغرينا»، أي رحالة، لأنَّ مالكتها كانت كذلك.

دُهِشَ أمين السرِّ من سخاءِ الأميرة وشعر بالارتباكَ لدى تلقيه تلك الهدية الثمينة فاستأذنها بالانصراف مُلقياً التحيَّة على الأمراء الثلاثة الذين مكث معهم وقتاً طويلاً لِيَسْتَعْلِمَ عن جزءٍ مما كان يُريدُ معرفته. وعادَ ليُخبرَ الملكة الأمَّ بما علِمه، فتيقنَتْ من صحَّةِ الشُّكوكِ

التي راودتها سابقاً. قال لها إنَّ عزيزاً، وهو الأجل، لم يكن لَدَيْهِ نَجْمَةٌ ولكنَّ الأحجار الكريمة تتساقط من شعره كما من شعر إخوته؛ وإتَّهم آتُونَ من مكانٍ بعيدٍ جدًّا، وإنَّ والديهم لم يَمْنَحاهم إلا مهلة قصيرة لرؤية البلدان الأخرى. أثار هذا القِسم من الحديث حيرة الملكة الأم قليلاً وخالت لبعض الوقت أنهم ليسوا أولاد الملك.

تردّدت بين الخوف والرَّجاء. وفي تلك الأثناء كان الملك الذي يهوى الصيد يمرّ بالقرب من منزلهم فقال له قائد الحرس الذي كان يرافقه إنَّه أسكن نجمة الجمال وإخوتها في ذلك المنزل بأمرٍ منه.

أجاب الملك:

- نصحتني الملكة والدي بآلاً أراهم. تخشى أن يكونوا آتين من بلدٍ تفسى فيه وباء الطاعون وأن ينقلوا العدوى معهم.

أجاب القائد:

- تلك الشابة الغريبة خطيرة جداً في الواقع، لكني يا مولاي أخشى عينيها أكثر من الوباء الذي يمكن أن تنقله.

قال الملك:

- إذا أردت الصدق، فأنا أوافقك الرأي.

وإذ دَفَع بحصانه إلى الأمام، سمع أصوات آلات موسيقية وغناء. فتوقّف قريباً من قاعة استقبالٍ فسيحة كانت نوافذها مفتوحة. أعجبَ بعذوبة تلك السمفونية فاقرب.

أرغمت جلبة الأحصنة الأمراء على النظر. ما إن رأوا الملك حتى حيّوه باحترام وسارَعوا للخروج واقتربوا منه بوجوه ملؤها البشاشة مُظهِرين له علامات خضوع كثيرة حتى إنهم قَبَلوا ركبتيه. وقبّلت الأميرة يديه. تصرّفوا معه وكأُتهم يعترفون به أباً لهم. داعبهم بحنانٍ وأحسّ بقلبه منفعلاً دون أن يعرف السبب. قال لهم أن يأتوا إلى

قصره لأنه يريد التحدّث إليهم وتعريفهم إلى والدته. شكروه على كل التّكريم الذي أبداه لهم وقالوا له إنهم لن يتوانوا عن الذهاب إلى القصر فوراً لانتهاه من تهيئة ملابسهم وموكبهم.

تركهم الملك ليكمل رحلة الصّيد التي كان قد بدأها. وأرسل لهم بلطف نصف الطرائد التي استطاع اصطيادها وحمل النصف الآخر إلى والدته الملكة.

قالت له:

- ماذا! أيُعقل أن تكون فُزْتَ فقط بهذه الطرائد القليلة؟ تصطاد عادةً أكثر بثلاث مرّات مما فعلت هذه المرّة.

أجاب الملك:

- صحيح، لكنني قدّمت بعضاً من الطرائد لهؤلاء الغرباء الجميلين. أشعر نحوهم بانعطافٍ شديدٍ يُفاجئني أنا نفسي. وإذا كنتِ أقلعتِ عن خوفكِ من العدوى فسأتي بهم لأسكنهم في القصر. غضبتِ الملكة الأمّ كثيراً واتهمته بأنّه لا يُراعي مشاعرها ولا ممتّه على تعريض نفسه للخطر بهذه الخفّة.

ما إن ترّكها حتّى أرسلت في طلب الوصيّة بهتان. اختلّت بها في مخدعها وأمسكتها بيدٍ من شعرها وباليد الأخرى وجّهت خنجراً إلى عنقها وقالت لها:

- أيتها البائسة، لا أعرف أية بقيّة من طيبة تمّنعني من قتلك: لقد خنتني! لم تقتلي الأطفال الأربعة الذين عهدتُ بهم لك لكي تتخلّصي منهم! اعترفي على الأقلّ بجريمتك ورُبّما سوف أسامحك.

ارتعدت بهتان وشلّها الخوف فارتّمت عند قدميها ورّوت لها كيف سارت الأمور. قالت لها إنّها تعتقد أنّه من المستحيل أن يكون الأطفال على قيد الحياة لأنّ عاضفة رهيبّة كانت قد هبّت، وكاد البرد

يَسْحَقُهَا. وفي التَّهَيَّاةِ طَلَبْتَ مِنْهَا أَنْ تُمَهِّلَهَا بَعْضَ الْوَقْتِ، وَعِنْدَئِذٍ سَتَجِدُ الْوَسِيلَةَ لِلتَّخْلُصِ مِنْهُمْ الْوَاحِدَ تَلُو الْآخَرَ دُونَ أَنْ يَرْتَابَ أَحَدٌ بِالْأَمْرِ.

لم تكن الملكة الأم راعبة إلا في القضاء عليهم. هداً روعها قليلاً وقالت لها ألا تضيع لحظة واحدة. وبالفعل، وإذ رأته هتان العجوز نفسها في مأزقٍ خطير، لم تهمل شيئاً مما يتعلق بخطتها. تحيَّنت الوقت الذي ذهب فيه الأمراء الثلاثة إلى الصيد ثم حملت تحت ذراعها غيتاراً وجلست قبالة نوافذ الأميرة وراحت تغني هذه الكلمات ترددها وتتنوع عليها:

أيتها القلوب الفتيّة، استجيبِي لِسِحْرِ الْحَبِّ  
وأنتِ في عمر الرِّبيعِ  
لأنَّ الجمالَ يُمحي  
وشتاءُ العمرِ  
يأتي لِيُذِبِلَ زهورَ الصِّبا  
يَمُضُّنَا الْأَمَّ  
حين نسترجع ذكري  
المفاتن التي فقدناها!  
يتولانا اليأس  
ونبذلُ لكي نثيرَ الإعجاب  
جهوداً بلا طائل.

أيتها القلوب الفتيّة، استسلمي للسحر  
فالحبُّ واجبٌ في ربيعِ العمرِ



الجمال عابر  
والشيوخوخة، زمن الصقيع،  
تأتي لتُذبل كل الأزهار.  
ما أشدَّ ألامنا  
عندما نسترجع ذكرى  
مفاتن فقدناها  
وما أشدَّ ياسنا!  
عبثاً نحاول أن نُثير الإعجاب  
بجهودٍ لا طائل منها.

وَجَدتْ نجمة الجمال هذه الكلمات طريفة جداً. اقتربت من حافةِ  
الشَّرفة لِتَرى مَنْ تلك التي كانت تُغنيها. ما إن ظهَرتِ الأَميرةَ حتَّى  
انْحَنَت بهتان أمامها، وكانت متأنفةً للغاية، بإجلالٍ كبير. حيثها  
الأَميرة. وبِما أنَّها كانت مَبتهِجَةً المزاج، سألتها ما إذا كانت الكلمات  
التي سمِعَتها للتو كُتِبَت لأجلِها.  
أجابت بهتان:

- نعم أيتها الفتاة الفاتنة، إنها لأجلك، ولكن، حتَّى لا تكونَ من  
أجلك، جئت أقولُ لك رأياً عليكِ ألا تتوايَ عن الاستفادة منه.  
- وما هوَ هذا الرأي؟ سألتها نجمة الجمال.  
فأضافت:

- ما إن تَسَمَّحي لي بالصُّعود إلى غرفتك فسوفَ تعرفينه.  
أجابتها الأَميرة:

- تستطيعين المجيء.

وللحال عرَّفَت العجوز بنفسِها بشيء من مهابة ساكني القصور

التي لا نَفَقْدُها ما إن نَعائِشُها مرّةً واحِدَةً.  
قالت بهتان من دون أن تَضَيِّعَ دَقِيقَةً واحِدَةً خوفاً من أن يُقَاطِعَها  
أحد:

- يا فتاتي الحلوّة، لقد جعلتكِ السّماء في غاية اللّطفِ والجمال.  
منحتكِ نَجْمَةً لامِعَةً على جبينك، ومواهبَ أخرى يتحدّث عنها  
الجميع، ولكن لا يزالُ يَنْقُصُكِ شيءٌ ضروريٌّ بِشَكْلِ أساسيٍّ. عليك  
أن تسارعي لامتلاكه وإلاّ فإنّي أرثي لحالك.  
أجابت:

- وماذا يَنْقُصُني؟

أجابت العجوز المحتالة:

- الماء الذي يرقص. لو استطعتُ الحصولُ عليه لما رأيتِ شعرةً  
واحِدَةً بيضاءً على رأسي ولا تجميعةً على جبیني ولَكانَ لَدَيَّ أجملُ  
أسنانٍ في العالم ومَلامح طفوليّة ساحرة. وأسفاه! لم أعرف هذا السرّ  
إلاّ بعدَ فواتِ الأوان بعدَ زوالِ مِفاتِني. خذي بنصيحتي يا طفلي  
العزيرة فإنّك ستكوّنُ تعزيرةً لي لأنّني أشعرُ نحوكَ بِحنانٍ غريب.  
سألتها نجمة الجمال:

- ولكن من أين أحصلُ على هذا الماء الذي يرقص؟

أجابت مرآية:

- إنّها في الغابة الساطعة. لديك ثلاثة إخوة: ألا يُجَبِّك أحدهم  
ما يكفي ليذهبَ ويَجلبُها لك؟ وإلاّ فلن يكونوا إخوةً جديرين بهذا  
الاسم.

قالت الأميرة:

- إخوتي يُجَبِّونني كثيراً. وهناك واحدٌ فيهم لا يرفضُ لي طلباً.  
وبالطّبع، إذا كان هذا الماء يملكُ المفعول الذي تقولينه فسوفَ

أَعْطَيْكَ مِكَافَأَةً مُتَنَاسِبَةً مَعَ قِيَمَتِهِ.

انصرفت العجوز الخبيثة على وجه السرعة مشرورة لنجاحها في إقناع الصبية. قالت لنجمة الجمال إنها ستأتي لزيارتها مراراً. عاد الأمراء من الصيد. كان الأول مُحضراً ظنياً والثاني أرنباً برياً والثالث إيلاً. وضعوا كل الطرائد أمام قدمي أختهم. نظرت إلى ذلك التكريم بلا مبالاة. كانت منشغلة بما حدثتها عنه الوصيفة بهتان. لا بل بدت قلقه البال. وعزيز الذي كان همه الوحيد مراقبتها لاحظ انشغالها ما إن اختلى بها لمدة ربع ساعة. قال لها:

- ما بك يا عزيزتي نجمة الجمال؟ ألا يُعجبك البلد الذي نحن فيه؟ إذا كان لا يتلاءم وذوقك فلنرحل عنه الآن. أم تُراكِ تجدين أن تجهيزاتنا ليست كبيرة بما يكفي أم أن أثنائنا ليس جميلاً، ولا الطعام لذيذاً كما تستهين. تكلمي، من فضلك، فأنا رهن إشارتك وكل شيء سيكون كما تتمنين.

أجابت:

- الثقة التي أوليتني إياها لأقول لك ما يجري في خلدي تُلزمني بأن أقول لك إنني لن أقدر على العيش إذا لم أحصل على الماء الراقص. إنه في الغابة الساطعة. لن أخشى شيئاً معه ولن آبه لو طأة السنين. فعقب عزيز:

- لا تكتبي أبداً يا نجمتي اللطيفة. سأرحل وسأجلب لك منها أو ستعلمين بموتي أن من المستحيل الحصول عليها. قالت له:

- لا، أفضل التخلي عن كل محاسن الجمال، أفضل أن أكون مُريعة المنظر على أن أخاطر بحياتك الغالية لدي أكثر من أي شيء آخر.

أَسْتَحْلِفُكَ بَعْدَ التَّفْكِيرِ بِالماءِ الَّذِي يَرِيقُص. وَإِذَا كُنْتَ أَمْلِكُ قُدْرَةَ  
عَلَيْكَ فَأَنَا أَمْنَعُكَ مِنَ الذَّهَابِ لِإِحْضَارِهِ.

تَظَاهَرَ الأَمِيرَ بِإِطَاعَتِهَا وَلَكِنْ مَا إِنْ رَأَاهَا مَنْشَغَلَةً حَتَّى صَعَدَ عَلَى  
حِصَانِهِ الأَبْيَضِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَسِيرُ إِلَّا قَمْصاً<sup>(1)</sup>. أَخَذَ مَالاً وَثِيَاباً  
فَإِخْرَةَ. أَمَّا الأَمَاسُ فَلَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ لِأَنَّ شَعْرَهُ كَانَ يُزَوِّدُهُ بِهِ  
بِمَا يَكْفِيهِ وَإِذَا أَعْمَلَ المِشْطَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَسَاقُطُ الأَمَاسُ مِنْ شَعْرِهِ مَا  
يَكْفِيهِ أحياناً لِجِنِيِّ ثَرْوَةِ طَائِلَةٍ. وَبِالفعلِ كَانَ العَدَدُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مُخْتَلِفاً  
لِأَنَّ وَفْرَةَ تَسَاقُطِ الجِوَاهِرِ مُرْتَبِطَةٌ بِحَالِ الأَمِيرِ النَّفْسِيَّةِ وَالصَّحِيَّةِ. لَمْ  
يَصْطَحِبْ مَعَهُ أَحَدًا لِيَكُونَ أَكْثَرَ حَرِيَّةً، وَحَتَّى لَا يَضْطَرَّ لِلتَّرَاجُعِ  
أَمَامَ تَحْذِيرَاتِ خَادِمِ مَفْرَطِ الحَرْصِ وَمُتَخَوِّفٍ فِي حَالِ بَدَتِ المِغَامِرَةَ  
خَطِرَةَ وَتَسْتَوْجِبُ المِجَازِفَةَ.

وَعِنْدَمَا حَانَ وَقْتُ العِشَاءِ وَلَمْ تَرَ الأَمِيرَةَ لِأَخِيهَا عَزِيزٍ أَثْرًا، تَوَلَّاهَا  
القَلْبُ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ لِالشَّرْبِ وَلَا الأَكْلِ بِلِ أصدْرَتْ أَوَامِرَهَا بِالمُضِيِّ  
لِلْبَحْثِ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. لَمْ يَكُنِ الأَمِيرَانِ يَعْرِفَانِ شَيْئًا عَنِ المَاءِ  
الرَّاقِصِ؛ قَالَا لَهَا إِنَّهُ لَا لَزُومَ لِقَلْقِهَا: لَيْسَ فِي إِمكانِهِ الِابْتِعَادَ كَثِيرًا؛  
لَا بُدَّ أَنَّهُ تَوَقَّفَ فِي الغَابَةِ وَاسْتَغْرَقَ طَوْعاً فِي أَحْلَامٍ لَا تَنْتَهِي. فَهَدَأَ  
رُوعَهَا قَلِيلاً حَتَّى مُتَّصِفِ اللَّيْلِ. وَعِنْدئذٍ عَيْلَ صَبْرُهَا وَاعْتَرَفَتْ  
لِأَخْوِيهَا وَهِيَ تَبْكِي بِأَنَّهَا كَانَتْ السَّبَبَ فِي ابْتِعَادِ عَزِيزٍ عِنْدَمَا عَبَّرَتْ  
لَهُ عَنِ لَهْفَتِهَا الشَّدِيدَةِ فِي الحِصُولِ عَلَى المَاءِ الرَّاقِصِ المَوْجُودِ فِي الغَابَةِ  
السَّاطِعَةِ؛ لَا بُدَّ أَنَّهُ ذَهَبَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ. لَمَّا سَمِعَا مَا قَالَتْهُ، صَمَّامَا عَلَى  
إِرسَالِ فِرْقَةٍ لِلْبَحْثِ عَنْهُ، وَكَلَّفَتْ هِيَ الرِّجَالَ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُ إِنَّهَا  
تَسْتَحْلِفُهُ أَنْ يَعودَ.

إِلَّا أَنَّ الوَصِيفَةَ الشَّرِيرَةَ بَهْتَانِ كَانَتْ مُتَحَرِّقَةً جَدًّا لِمَعْرِفَةِ مَا

(1) قَمْصاً: قَمَصَ الفَرَسُ: رَفَعَ قَائِمَتِيهِ الأَمَامِيَّيْنِ مَعْتَمِداً عَلَى قَائِمَتِيهِ الخَلْفِيَّيْنِ.

ستؤول إليه النصيحة التي أسدتها إلى الأميرة. عندما علمت أن عزيزاً كان انطلق للبحث عن الماء الراقص شعرت بفرح كبير، وأيقنت أنه سبق بمسافات كثيرة أولئك الذين لحقوا به، ولم تستبعد أن يحصل له مكروه. هُرعت إلى القصر معللة النفس بذلك الأمل، وأخبرت الملكة الأم بما جرى.

قالت لها:

- لا شك يا سيدي أنهم الأمراء الثلاثة وشقيقتهم: لديهم نجوم على جباههم وسلاسل ذهبية حول أعناقهم، وشعورهم ذات جمال فتان ويتساقط منها في كل حين أحجارٌ كريمة. كما رأيت الأميرة متزينة بالجواهر التي كنت قد وضعتها في مهدها مع أنها لا تُساوي تلك المتساقطة من شعرها بحيث بت متيقنة من أنهم عادوا بالرغم من كل المحاذير التي حسبت أنني اتخذتها لأحول دون عودتهم. ولكن يا سيدي سأخلصك منهم. وبما أنها الوسيلة الوحيدة التي تبقت لي لكي أصحح خطئي، أتوسل إليك فقط أن تمنحني وقتاً. ها إن أحد الأمراء انطلق للبحث عن الماء الراقص، وسوف يقضي نحبه ولا شك في هذه المغامرة. وهكذا أعد لهم خططاً عديدة لإهلاكهم.

قالت الملكة الأم:

- سوف نرى ما إذا كان النجاح سيكفل مساعيتك ولكن فكّري أنّ هذا وحده يمكنه أن ينجيك من سيف غضبي القاطع.

انصرفت بهتان مذعورة أكثر من أي وقت مضى وأعملت من جديد تفكيرها عساها تجد كل ما يمكنه أن يتسبب في إهلاكهم.

كانت الخطة التي وضعتها لإهلاك الأمير عزيز مُحكمة تماماً لأن الماء الراقص لا يُعترف بسهولة. والمصائب التي نزلت بأولئك الذين ذهبوا للبحث عنه ملأت أصدأؤها الدنيا، ولم يستطع أحد أن يعرف

الطريق المؤدية إليه. كان حصانه الأبيض يسيرُ بسرعةٍ مذهلةً وكان يَهْمزُه دوماً لأنه يريد العودة بسرعة إلى الأميرة نجمة الجمال ويقدم لها ما وعدت نفسها به من رحلته وإدخال السرور إلى قلبها. وهكذا سار ثمانى ليالٍ متتابعة دون أن يرتاح إلا في الغابات تحت أول شجرة يُصادفها ولم يكن يقات إلا الثمار التي يجدها في طريقه، وكان على مضض يترك لِحِصانه الوقت ليرعى العشب. وأخيراً في نهاية المطاف، وجد نفسه في بلادٍ هواؤها حارق، وهذا الأمر ألمه بشدة ليس لأن الشمس أكثر توهجاً فحسب بل لأنه لم يكن يعرف ما هو مراد ذلك؛ وعندئذٍ لمَح ناراً عند قمة الجبل: كانت تتصاعد من الغابة الساطعة، حيث تشتعل جميع الأشجار دون أن تفنى مُرسلةً لهباً إلى أماكن بعيدة جداً، فكان الرّيف من حولها قاحلاً مقفراً. ثم سمع في تلك الغابة حفيف الأفاعي وزئير الأسود، ما أدهش الأمير كثيراً لأنه بدا له أن أي حيوان لا يستطيع العيش في ذلك المصهر عدا السمندل<sup>(1)</sup>.

بعد أن رأى ذلك المنظر المريع نزل عن صهوة حصانه مفكراً بما يتوجب عليه فعله وقال لنفسه أكثر من مرة إنه هالك لا محالة. وعندما اقترب من تلك النار الكبيرة، كاد يموت عطشاً. وجد نبعاً يتدفق من الجبل ويجري في بركة كبيرة من الرخام. ترجل أرضاً واقترب منه وانحنى لكي يغرف الماء في إناء صغير من الذهب كان قد جلبه لكي يضع فيه الماء الذي تشده الأميرة. وعندئذٍ أبصر يمامة تكاد تغرق في ذلك النبع. كانت ريشاتها مبللة كلها وتتخبط للخروج من هناك، لكن قواها أنهكت فغرقت في عمق البركة. أشفق عزيز عليها وأنقذها رافعاً إياها من قائمتيها. كانت قد عبت الكثير من الماء فانتفخت به. ثم دفاها وجفف جناحيها بمندبلٍ ناعم. أنجدها

(1) السمندل» سبق التعريف به؛ دوية يفرز جلدها مادة سائلة تطفى النار.

بكلِّ تَفَانٍ، ولم يمرَّ وقت قصير حتَّى عادت اليَّامَة مبتهجةً بعدما هدَّها الإحباط.

قالت له بصوتٍ عَذْبٍ رقيقٍ:

- يا سيِّد عزيز، لمَ لا تتكرَّم وتساعد حيواناً أكثر امتناناً مِنِّي؟ ليست هذه المرَّة الأولى التي تنجدي فيها عائلتك، فضلكم سابق عليّ، وكم سأكون مسرورة إن استطعتُ أن أردَّ لك الجميل! لا تظنني غافلةً عن الهدفِ الذي تنشده من رحلتك. لا بدَّ أنك تميِّز بشجاعة كبيرة لتجرؤ على القيام بهذه الرِّحلة فأنت لا تعرف عدد الذين هلكوا فيها. الماء الرَّاقص هو ثامن عجائب الدُّنيا للنِّساء، فهو يزيد الجمال ويجدِّد الشَّبَابَ ويجلب الثروة. ولكن إذا لم أرشدك إليه فلن تستطيع بلوغ منبعه لأنَّه ينبس حارّاً من وسطِ الغابة ليتدفَّق في الهاوية: والطريق تعترضها الأغصان المشتِّعة المتساقطة من الأشجار، ولا أرى وسيلةً أخرى للذهابِ إليه إلاَّ تحت الأرض. استرخ إذا هنا خليّ البال وسأرى ما يُمكنني فعله.

وفي الحال ارتفعت اليَّامَة في الهواء ذهاباً وإياباً ثمَّ انخفضت لتطير من جديد مراراً وتكراراً إلى أن مالَ النَّهار وعندئذٍ قالت للأمر إنَّ كلَّ شيءٍ باتَ جاهزاً. أمسك اليَّامَة المُسعفة وقبَّلها وداعبها وشكرها ثمَّ تبعها على حصانه الأبيض الجميل. ما كاد يسيرُ مائة خطوة حتَّى رأى صَفَيْنِ طويلين من الثَّعالبِ والغرائر والخلدان والحلازين والنمل وجميع أنواع الحيوانات التي تختبئ تحت الأرض. وكانَ هناك الكثيرُ منها ولم يفهم ما هي القدرة التي جعلتها تجتمع على هذا التحو.

قالت اليَّامَة:

- اجتمعَت بِأمرِّي، لذا ترى هنا هذا القومَ الصَّغير الذي هُرِعَ من

دياميس الأرض لمساعدتك. سيكون مدعاة سروري أن تشكرهم.  
حياتهم الأمير وقال لهم إنه يريد أن يسطحهم إلى مكان أقل  
قحطاً ويُقدّم لهم القوت بكل طيبة خاطر. فشرّت الحيوانات لعرض  
الأمير.

ترك عزيز حصانه هناك عند مدخل الممرّ، ثم انحنى نصف  
انحناءة وسار مع الليمامة الطيبة التي قادته بنجاح حتى ينبوع  
الذي كان يُحدث هديراً صاخباً فسرّ الأمير أنه على وشك الصمم  
لو لم تُقدّم له الليمامة اثنتين من ريشاتها البيضاء ليسدّ بها أذنيه. كان  
مُتفاجئاً من رؤية تلك المياه تزفص بالرشاقة نفسها التي يرقص بها  
فافييه وبيكو<sup>(1)</sup>: رغم أنها كانت رقصات قديمة كرقصة البوكان  
أو رقصة العروس أو السربندة<sup>(2)</sup>، خلقت عَصافير كثر في الفضاء  
مُشدّة الألحان لترقص المياه على إيقاعها. غرّف الأمير ملء إنائه  
الذهبي منها وجرع جرعتين جعلتاه أجمل مائة مرّة مما كانه وأشعرتاه  
بانتعاش لذيذ كاد ينسيه أنّ الغابة الساطعة هي إحدى أكثر مناطق  
الدنيا سخونة.

وقفل عائداً على الدرب نفسها التي جاء منها. كان حصانه قد  
ابتعد لكن ما إن سمع صوته يُناديه حتى جاء مُسرِعاً فاعتلاه الأمير  
برشاقة وكله فخرٌ بحيازته على الماء الراقص.

قال للليمامة التي كان يُمسكها:

- أيتها الليمامة اللطيفة، لا أعرف من أين أتيت بهذه القدرة  
العجيبة! كل ما أعرفه أنني ممتنٌ لكثيراً للخدمات التي قدّمتهالي. وبها

(1) فافييه Favier وبيكو Picot: راقصان شهيران من مُعاصري المؤلف.

(2) البوكان: رقصة قديمة بطيئة، حملت اسم مصمّمها. رقصة العروس: رقصة سريعة  
وحيوية تصاحبها إيماءات. السربندة: رقصة إسبانية بسيطة ثلاثية الإيقاع، سبق التعريف  
بها.



أَنَّ الحَرِيَّةَ هِيَ أعْظَمُ كَنْزٍ، فَهِيَ أَنَا أُعِيدُ إِلَيْكَ حَرِيَّتَكَ لِكِي أَرْدَ لِكَ  
الْجَمِيلِ الَّذِي أُسَدِّتِهِ لِي.

وعلى هذه الكلمات، أطلقها فطارت مُتَحَدِّيةً ونافرةً كما لو كانت  
قد بَقِيَتْ مَعَهُ رَغْماً عَنْهَا.

فقال لها:

- إجحافك هذا يُظْهِرُ أَنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْكَ إِلَى الْيَمَامَةِ  
فَالْإِنْسَانُ مُتَقَلِّبٌ وَالْيَمَامُ وَفِيَّ.

عندئذٍ أجابته اليمامة من أعالي الفضاء:

- وأنت! هل تعرف مَنْ أكون؟

تعجّب الأمير من أن تُرَدَّ اليمامة عليه بهذا الشكل. أدرك مدى  
براعتها ونباهتها فغضبَ لِأَنَّهُ سَمَحَ لَهَا بِالذَّهَابِ. قال:

- رُبَّمَا كَانَتْ مَفِيدَةً لِي، وَبِفَضْلِهَا كُنْتُ سَاعِرِفُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً  
بِوَسْعِهَا أَنْ تُوفِّرَ لِي سُبُلَ الرَّاحَةِ.

ومع ذلك عادَ واقتنعَ في سريرته أَنَّهُ يَجِبُ أَلَّا نَنْدَمَ أَبْدأً عَلَى إِحْسَانِ  
فَعَلْنَاهُ. ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ انْتَبَهَ أَنَّهَا سَبَقَتْهُ إِلَى الْإِحْسَانِ عِنْدَمَا مَهَّدَتْ  
أَمَامَهُ الطَّرِيقَ لِیَحْوِزَ عَلَى الْمَاءِ الرَّاقِصِ. كَانَ إِناؤُهُ الذَّهَبِيِّ مُحْكَمَ  
الإغلاقِ بِحَيْثُ إِنَّ الْمَاءَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَسَرَّبَ مِنْهُ أَوْ يَتَبَخَّرَ. وَكَمْ  
كَانَ سُرُورُهُ عَظِيمًا عِنْدَمَا تَمَثَّلَ السَّعَادَةُ الَّتِي سَتَلْقَى بِهَا نَجْمَةُ الْجَمالِ  
ذَلِكَ الْمَاءِ، وَسَعَادَتُهُ هُوَ بِرُؤْيَتِهَا مِنْ جَدِيدٍ. ثُمَّ لَمَحَ بِضَعَّةَ فِرْسَانِ  
يَأْتُونَ إِلَيْهِ مُسْرِعِينَ وَيَتَنَادُونَ مُطْلَقِينَ بِاتِّجَاهِهِ صَرَخَاتٍ عَالِيَةً وَهُمْ  
يَدْلُونَ عَلَيْهِ وَاحِدَهُمْ لِلآخِرِ. لَمْ يَشْعُرْ بِالْخَوْفِ لِأَنَّهُ كَانَ مَقْدَامًا وَلَا  
يَخَافُ بِسَهُولَةٍ مِنَ الْمَخَاطِرِ. وَمَعَ ذَلِكَ شَعَرَ بِبَعْضِ الْعَمِّ لِأَنَّ أَمْرًا  
مَا كَانَ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ. دَفَعَ حِصَانَهُ بِفِظَاظَةٍ نَحْوَهُمْ لَكِنَّهُ فُوجِئَ  
بِرُؤْيَةِ بَعْضٍ مِنَ خَدَّامِهِ يَقْدَمُونَ لَهُ رَسَائِلَ صَغِيرَةً كَلَّفَتْهُمُ الْأَمِيرَةَ

بإيصالها وترجوه فيها ألا يعرّض حياته لمخاطر الغابة الساطعة: قبل الكلمات التي خطتها الأميرة نجمة الجبال بيدها مطلقاً تنهياتٍ متتالية وسارِعَ بالعودة إليها لأنه بذلك سينتشلها من أفضع ألم أمكن لها أن تُكابده.

وَجَدَهَا عِنْدَ وَصُولِهِ جالسةً تحت الأشجار وعلى سيمائها يلوح الكرب وانشغال البال. عندما رآته ساجداً عند قدميها حارت كيف تستقبله. أرادت أن تؤنّبهُ لأنه رحلَ مُعارضاً وأمرها. ثم أرادت أن تشكره على الهدية الرائعة التي يقدمها لها. قبلت أخاها الحبيب موجّهة إليه ملامة لطيفة.

بيد أنّ الوصيفة العجوز بهتان، التي هجر التوم أجفانها، عرفت بفضل جواسيسها أنّ عزيزاً عاداً أجمل مما كان لدى رحيله، وأنّ الأميرة مسحت وجهها بالماء الرّاقص فأصبح جهاها يفوق الوصف، وبات يصعب على أيّ كان أن يقاوم نظرة واحدة من نظراتها. أثار الخبر في بهتان تعاسة كبيرة لأنها ظنّت أنّ الأمير سيقتضي نخبه في تلك المغامرة الخطيرة التي خاضها. لكنّ الوقت لم يكن ملائماً للقنوط. تحيّنت ذهاب الأميرة من دون إخوانها إلى معبد صغير لديانا. اقتربت منها وقالت بهيئة مفعمة بالوّد:

- كم أنا سعيدة يا سيدي لرويتي النتيجة الباهرة لنصائحي! يكفي أن ينظر المرء إليك ليُعرف أنّك تملكين الآن الماء الرّاقص. ولكنني سأتجرأ وأقدم لك نصيحة أخرى: عليك أن تمتلكي التفاحة التي تُغني فتلك آية أخرى أيضاً تجملُ الروح وتُعطينا القدرة على فعل كلّ شيء: هل تريدان أن تُقنعي أحداً بأمر ما؟ ما عليك إذاً إلا أن تمسكي التفاحة التي تغني. هل تريدان أن تتكلمي وسط الناس، وتكتبي الشعر والنثر، وتُسلي الآخرين، أو تضحكيهم، أو

تبكيهم؟ للتفاحة كل هذه المزايا وهي تغني بشكل جميل وبصوت عالٍ بحيث يُسمع صوتها من على مسافة ثمانية فراسخ دون أن تُسبب لنا الإزعاج.

هتفت الأميرة:

- لا أريدها. لقد أوشكت أن تقضي على أخي بهائك الذي يرقص. نصائحك خطيرة جداً.

أجابت بهتان:

- ماذا تقولين يا سيدي! هل تغضبين من أنك ستكونين الشخص الأكثر علماً وذكاءً في العالم؟ حقاً إنك لا تُدركين أهمية الموضوع.

أردفت نجمة الجمال:

- صحيح! ولكن ماذا سأجني لو أن أخي عاد جثةً محمولةً أو على وشك الموت؟

قالت العجوز:

- أخوك هذا لن يذهب. شقيقاك الآخران يُفترضُ بهما أيضاً خدمتك بدورهما والمغامرة أقل خطورة.

أضافت الأميرة:

- لا يهم. لن أسمح لنفسي بتعريضهما للأخطار.

قالت بهتان:

- في الحقيقة إنني أرثي لحالك لأنك تريدان أن تُضَيِّعي هذه الفرصة الفائقة الأهمية بالنسبة إليك. ولكن فكّري في الأمر جيداً. إلى اللقاء يا سيدي.

وانصرفت في الحال وهي على قلق بالغ بالأب يؤثر ما قالته في الأميرة. بقيت نجمة الجمال عند قدمي تماشال ديانا، حائرةً من أمرها. كانت تحب شقيقها لكنها تحب نفسها أيضاً وتشعر أن لا شيء يمكنه

أن يُمدّها بلذّةٍ مماثلة كلّذّةِ الحياة على التفاحة التي تغني.

تنهَّدت طويلاً وأخذت في البكاء. عادَ منيرٌ مِنَ الصَّيدِ. سمعَ ضجّةً في المعبدِ فدخَلَ إليه ورأى الأميرةَ تغطّي وجهها بوشاحِها لأنّها كانت خجولةً من أن تكونَ عيناها مبلّلتين بالدموع. كان قد لاحظَ دموعها ثم اقتربَ منها واستحلفها لتقولَ له ما السبب الذي دعاها للبكاء. امتنعتَ عن مُصارحتِهِ مجيئةً إنّها تخجلُ من نفسها. ولكن كلّما امتنعتَ عن قولِ سرّها له ازدادَ رغبةً في معرفته.

وأخيراً قالت له إنّ العجوزَ نفسها التي نصّحتها بإرسالِ أخيها لإحضارِ الماءِ الرّاقصِ قالت لها للتوّ إنّ التفاحةَ التي تغني هيَ أعظمُ تأثيراً لأنّها تمدّدُ بكاءٍ عظيمٍ ويُصبِحُ الإنسانُ بفضلِها عبقرتاً! ليتها تستطيع الحصولَ على مثلِ تلكِ التفاحة. لكنّها تخشى أن يكونَ إحضارها محفوفاً بالأخطار.

قال لها شقيقها وهو يتسم:

- لا تخافي عليّ، لأنّي لا أريدُ أن أسدي لكِ هذه الخدمةَ الجليلة. ما بالك! أو ليس لديكِ ما يكفي من الذكاء! تعالي تعالي يا شقيقتي، وكُفّي عن البكاء.

تبعته نجمةُ الجمالِ حزينةً من الطريقة التي تلقى بها شقيقها قولها هذا. أدركتُ أيضاً استحالة امتلاكها التفاحة التي تغني. قدّم العشاء، وجلسَ أربعتهم على الطاولة. لم يكن باستطاعتها أن تأكل. وعزيز، عزيز اللطيف الذي لم يكن يهتمّ إلاّ بها راح يقدّم لها أفضلَ شيءٍ موجودٍ في المائدة ويحثّها على تذوقه. عند أول لقمة تناولتها شعرت بقلبها منقبضاً واغرورت عيناها بالدموع. تركت المائدة باكية. نجمة الجمال تبكي! أيتها السماء! أيّ انشغالٍ بالِ بالنسبة لعزيز! سألت عمّا بها فأجابها منير عن السبب وهو يسخر بطريقة جارحة من

شقيقته. فألها ما قاله وذهبت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب غير راغبة في مكالمة أحد طيلة السهرة.

ما إن خلد منير وسعيد إلى النوم حتى صعّد عزيز على متن حصانه الأبيض الرّائع دون أن يُعلم أحداً بوجهته. ترك فقط رسالة لنجمة الجمال وأمر بأن تُسلم لها لدى مُوضيها. وطيلة الليل، سار على غير هدى غير عارف أين يجد التفاحة التي تغني.

عندما استيقظت الأميرة من نومها، سلّمت لها رسالة الأمير. من السهل تصوّر القلق الذي انتابها والحنان الذي اعتَمَلَ في قلبها. هُرعت إلى غرفة شقيقها لتقرأها أمامها فشاركها خوفها، لأنهم كانوا أخوة متضامين. وعلى الفور، أرسلوا جميع أفراد حاشيتهم إثره لإرغامه على العودة دون خوض تلك المغامرة التي لا بُدَّ أنّها رهيبة. في تلك الأثناء، لم ينسَ الملكُ الأطفال الحسان المقيمين في الغابة. كانت قدماه تقودانه دوماً في ذلك الاتجاه. وعندما يُمّر بالقرب منهم ويَراهم، يتوجّه إليهم باللمامة لِعَدَمِ مجيئهم إلى قصره فاعتذروا منه في البدء قائلين إنهم أرسلوا أفراد حاشيتهم في مهمّة وتطرّقوا إلى غياب شقيقهم قائلين له إنهم سيغنّمون الفرصة لدى عودته لزيارته وتقديم كل عبارات الشكر والاحترام له.

كان الأمير عزيز مفعماً بالعشق للأميرة ومتلهّفاً ليجد لها مطلبها بأقصى سرعة. صادف عند طلوع النهار رجلاً حسن التكوين مستريحاً في ظلّ الأشجار ومنصرفاً إلى قراءة كتاب. اقترب منه بتهديب وقال له:

- عُذراً لمقاطعتك. أريد أن أسألك هل تعرف أين توجد التفاحة

التي تغني؟

رفع الشاب نظره وابتسم بلطف قائلاً:

- وهل تريد الحصولَ عليها؟

- نعم، إن كانَ هذا ممكناً؟

- آه يا سيدي! أنتَ لا تعرفُ كلَّ الأخطارِ المُحدقةِ بهذه المهمةِ:  
هذا الكتاب يتحدّث عنها وقرأته تُخيف.

قال عزيز:

- لا يُهمّ، الخطرُ ليسَ قادراً على تشييط عزيمتي. قل لي فقط أين  
بإمكانني العثور عليها.

أضاف ذلك الشاب:

- الكتاب يشير إلى أنها في صحراء شاسعة في ليبيا وأنه بالإمكان  
سماعها تغني عن بعدِ ثمانية فراسخ وأن التين الذي يُحرسها التهم  
خمسة ألاف شخص تجاسروا على الذهاب للحصولِ عليها.

أجاب الأمير وهو يبتسم بدوره:

- أنا الأول بعد الخمسة ألاف.

ثم حياه واستأنف المسيرَ ناحية صحاري ليبيا. كان حصانه  
الجميل المُجنح يسير بسرعة الريح بحيث اجتاز مسافات شاسعة  
بسرعة لا تُصدّق.

عبثاً أصغى، لم يسمع غناء التفاحة آتياً من أية جهة. أنهكه طولُ  
الطريقِ وذلك السفر غير المجدي. وعندئذ لمحَ يمامة مسكينة تسقط  
أمامه. كانت على وشك الموت. من تراه أصابها؟ التفت من حوله  
فلم يرَ أحداً؛ ظنَّ أنها ربّما كانت من يمام فينوس، وأن كوييدون،  
ذاك الشرير الشقي الذي يهوى الرماية بسهامه، قد صوّب إليها  
عندما هربت من القفص. أشفق عليها فترجلَ عن حصانه ثم أخذها  
ومسحَ ريشاتها البيضاء المُلطّخة بدمٍ أحمر. وسحبَ من جيبه زجاجة  
ذهبية يحمل فيها بلسماً شافياً للجراح. ما إن مسح به جناح اليمامة

المريضة حتى فتحت عينيها ورفعت رأسها باسطة جناحيها مهتمة ريشاتها بمنقارها ثم نظرت إلى الأمير وقالت له:

- صباح الخير يا عزيز الجميل. قدرك أن تُنقذ لي حياتي، وأنا مقدرة ربّما لكي أُرَدِّ لك جميلك. جئت للحصول على التفاحة التي تغني. المغامرة تليق بك لأنّ التفاحة يجرسها تين مرعب، له اثنتا عشرة قائمة وثلاثة رؤوس وستة أجنحة وكلّ جسده من البرونز. قال لها الأمير:

- آه يا عزيزي اليامة! يا لفرحتي برويتك من جديد وفي وقت أنا في أمس الحاجة فيه لنجدتك! لا ترفضني طلبي هذا يا جميلتي الصغيرة، فلسوف أموتُ أماً إذا ما كان عليّ أن أحتملَ عارَ العودة دون التفاحة التي تغني. وبها أنّي حصلت بفضلك على الماء الذي يرقص، أمل أن تساعدني أيضاً لكي أنجح في مسعاي هذا. قالت اليامة بنبرة ملؤها العطف:

- أنت تهزّ مشاعري، اتبغني، أريد أن أطيّر أمامك وأمل أن يسير كلّ شيء على ما يُرام.

سمّح لها الأمير بأن تتقدّمه. بعد أن سارا طيلة النهار، وصلا بالقرب من جبل من الرّمْل.

قالت اليامة:

- يجب أن تحفّر هنا!

ودون تلكؤ، أخذ الأمير يحفر تارةً بيديه وتارةً بسيفه. وفي ظرف بضع ساعات وجد خوضةً ودرعاً وبقية لأمة<sup>(1)</sup> المحارب، مع العدة الكاملة اللازمة لحصانه، وهذه كلّها مصنوعة على هيئة مرايا. قالت اليامة:

(1) لأمة أو شكة: لباس الحرب أو مجموع آلات الوقاية المعدنية كالدرع والخوذة.

- تسلّخ ولا تحشّ إطلاقاً التّين. عندما سيّرى نفسه في كلّ هذه المرأيا سيّصاب بالدّعرِ لأنّه سيّخال كلّ تلك التنانين مسوخاً مثله فيلوذ بالفرار.

استحسنّ عزيز كثيراً ذلك المسعى وتسلّخ بالمرأيا وسارا هو واليهامة طيلة اللّيل. وإذ بها يسمعان لحناً رائِعاً. توّسل الأمير إلى اليهامة أن تعيّن له مصدر ذلك الصّوت.

قالت:

- لا بدّ أنّها التفاحّة، فهي وحدها بوسعها أن تُصدِرَ لحناً بهذه العذوبة فهي قادرة على أن تعزِفَ وحدها كلّ مقطوعات الموسيقى على تنوّعها ومن دون أن تلمس أيّة آلة موسيقيّة. واصلاً اقتراهما من مصدر الصّوت. فكّر الأمير في قرارة نفسه أنّه يريد فعلاً أن تغني له التفاحّة شيئاً ما يتوافق والحال التي يوجد فيها، فسَمِعَ في الحال هذه الكلمات:

يستطيع الحبّ أن يفوزَ بالقلبِ الأكثرِ نفوراً  
فلا تكفّوا أبداً عن الحبّ  
أيها الممثلون لِشرائعِ الجمالِ الطّاعي  
أحبّوا، ثابروا في حبّكم وستسعدون!

هتفَ يُجيب على هذه الكلمات:

- آه! يا لنبوءة السّاحرة! بوسعي الأمل بأن أكونَ ذاتَ يومٍ أسعدَ حظّاً ممّا أنا عليه الآن. ها هيّ التفاحّة تؤكّد أقوال السّاحرة.  
لم تقل اليهامة شيئاً. لم تكن ثرثارة بطبعها ولا تقول إلّا ما يجب قوله فقط. كلّما تقدّم في سيره ازدادَ جمال الموسيقى وشعرَ أنّه، على



الرَّغَمَ من استعجاله لإنهاء مهمته، مسحورٌ بذلك الجمال وغير قادرٍ  
إلا على التوقف قليلاً والاستماع إلى النغمات الرائعة. لكن رؤية التين  
الرهيب الذي انبثق فجأة بقوائمه الاثني عشرة، ونخالبه التي تتعدى  
المائة، ورؤوسه الثلاثة، وجسمه البرونزي، انزعته من غفلته. اشتم  
التين رائحة الأمير من مسافة بعيدة جداً وكان ينتظره لكي يلتهمه كما  
فعل بالآخرين جميعاً الذين جعل منهم ولائم ممتازة. كانت عظامهم  
تتكسد حول شجرة التفاح، التي علقت إليها أجل تفاعه، وترتفع  
عالياً فتحجبها عن الرؤية.

تقدم الحيوان المرعب قافزاً وكسا الأرض بزبدٍ مسموم حارق.  
كان يُخرج من شدقه الجحيمي ناراً وتنانين صغيرة يقذفها مثل  
سهام في أعين الفرسان المتسكعين الذين يريدون الفوز بالتفاحة  
وفي أذانهم. لكنه، حين رأى هيئته المرعبة مضاعفة مئات المرات في  
المرايا التي تزدان بها لأمه الأمير، دُعر بدوره. توقف ناظراً بازدياء  
إلى الأمير المحمل بالتنانين ولم يعد يُفكر إلا بالفرار متجهاً إلى أحد  
الكهوف العميقة. وإذا لاحظ عزيز الأثر الذي أحدثته لأمته في التين  
تبعه حتى مدخل الكهف وسد منفذه بسرعة ثم سارع للعودة إلى  
شجرة التفاحة التي تغني.

صعد على كومة العظام التي تطوق الشجرة، ثم نظر إليها مندهشاً.  
كانت الشجرة من العنبر وتفاعاتها من الزبرجد؛ أما التفاحة الأروع  
بينها جميعاً التي كان ينسدها بكل كيانه رغم الأخطار المحدقة به،  
فظهرت في أعلى الشجرة مكونة من ياقوتة واحدة مكللة بتاج من  
الألماس. طار الأمير فرحاً لأنه يستطيع أن يقدم إلى نجمة الجمال  
كنزاً بهذا الكمال والتدرة، وسارع إلى كسر غصن العنبر. متشجعاً  
يحسن طالعه، صعد على حصانه الأبيض لكنه لم يجد اليقظة. عندما

أدركت أنّ وجودها لم يعد ضرورياً، طارت بعيداً في السماء. لكنّ الأمير لم يضع وقته في حشراتٍ غير مُجديةٍ لأنّه كان يسمع حفيف التّين ويخشى عودته إلى شجرة التفاح، فسارع للعودة إلى أميرته وفي حوزته التفاحة العجيبة.

كان النوم قد هجر عيني الأميرة منذ غيابه. راحت تلوم نفسها باستمرار على رغبتها في أن تتفوق بذكائها على الآخرين. كانت تخشى أن يُصاب عزيز بمكروه أكثر من خشيتها على حياتها. هتفت وهي تُطلق تنهيداتٍ حارة:

- آه! يا لي من تعيسة، هل كان عليّ أن أطمع في هذا المجد الباطل؟ ألم يكن يكفيني أن أفكر وأقول أشياء لا تسيء إلى أحد؟ سأنال العقاب الذي أستحقّه إذا فقدت من أحبه بسبب كبريائي! وأأسفاه، أو تكون السماء مستاءة من المشاعر التي لا أستطيع كبتها حيال عزيز، فشاءت انتزاعه مني على نحوٍ مأساويّ؟

وأخذت الأفكار السوداء تتزاحم في رأسها، وحدثها قلبها المتألم بألف سوءٍ قد يحصل لعزيز. وفجأةً، عند منتصف الليل، سمعت موسيقى رائعة. فنهضت ووقفت إلى النافذة لتسمعها بشكل أفضل. كان جماها يفوق الوصف. أحياناً تخاله أبولون يعزف بصحبة ربّات الآداب والفنون والعلوم، وأحياناً أخرى تظنها فينوس ومعها ربّات الجمال ورُسُل الحب. كانت الموسيقى تقترب دوماً ونجمة الجمال تستمع إليها.

وأخيراً وصل الأمير. كان القمر مُشعاً ساطعاً. توقفت تحت شرفة الأميرة التي عادت إلى داخل غرفتها. وعندئذٍ لمحت في البعيد فارساً، وللحال غنت التفاحة:

نظرت الأميرة بسرعة متلهفة لمعرفة مَنْ بإمكانه الغناء المتقن على ذلك النحو. تعرّفت إلى أخيها عزيز فكادت من لهفتها ترمي بنفسها من النافذة لتكونَ قربه في الحال. ونادت بأعلى صوتها فاستيقظ الجميع وجاءوا ليفتحوا الباب لعزيز فدخل بسرعة خاطفة. كان يحملُ في يده غصنَ العنبر الذي علقت إليه التفاحة العجيبة. ولأنه سمَّ رائحتها طيلة الوقتِ فإن ذكاهُ اشتدَّ لدرجة أن لا أحدَ في العالم كان يستطيع مضاهاته ذكاهُ.

تقدّمت نجمة الجمال نحوّه بعجلةٍ كبيرة. ثمّ قالت له وهي تبكي من الفرح:

- وهل تعتقد أنني سأشكرك يا أخي العزيز؟ لا، ما نفع أعجب الأشياء ما دمّت تعرّض حياتك للخطر لحيازتها من أجلي.  
قال لها:

- كلّ أخطار هذا العالم تهون في سبيل أن أرضيك ولو قليلاً. خُذي يا نجمة الجمال. خذي هذه الثمرة الفريدة. لا أحدَ في العالم يستحقّها أكثر منك. ولكن ما تراها ستضيف إلى صفاتك الكاملة بالأصل؟

جاء منير وسعيد ليقطعا على أخيها حديثه. سرّاً كثيراً لرؤية الأمير فرّوى لهما رحلته وظلّ يتحدث عنها حتى طلوع النهار. كانت بهتان الشريرة قد عادت إلى منزلها الصغير بعدما حدثت والدة الملك عن خطتها. كانت تشعر بقلق بالغ يمنعها من التّوم بسلام. سمعت غناء التفاحة العذب الذي لا يمكن لشيء مضاهاة جماله. وأيقنت أنّ الأميرة استطاعت الحصول عليها! بكت

وانتَحَبَتْ وخذشت وجهها وفتت شعرها. كان أُلها فظيماً لأُنها،  
بدل أن تسيء إلى الأُولادِ الحِسانِ بنصائحها الخبيثة، كانت تسدي  
لهم خدمات باهرة.

ما إن طلعَ التَّهَارُ حتَّى علِمَت بعودَةِ الأمير. ذهبت لزيارة والدة  
الملك.

قالت لها الملكة الأم:

- حسناً يا بهتان، هل تحملين لي أخباراً سارة؟ هل قضى الأُولاد  
نحبهم؟

قالت وهي ترمي عند قدميها:

- لا يا سيدي. ولكن أتمنى على جلالتك ألا تفقدي صبرك.  
لا تزال لديّ وسائل كثيرة لأخلصك منهم.

قالت الملكة الأم:

- آه! أيتها التَّعيسة، أنتِ لم تأتي إلى هذا العالم إلا لتخونيني. أنتِ  
تُجَنِّبَنهم الموت.

اعترضت العجوز قائلة العكس. وعندما هدأت من روعها  
قليلاً، عادت إلى منزلها لتفكر ملياً في ما يجب أن تفعله.

ظلت غائبةً عن الأنظار لبضعة أيام ترصد خلاها تحركات  
الأميرة إلى أن وجدتها تنزّه وحيدةً في إحدى طرقات الغابة الأميرة  
منتظرةً عودة أشقائها.

قالت لها العجوز الوضيعة وهي تقرب منها:

- السَّماء تنعم عليك بالخيرات. يا نجمة الجبال الفاتنة، علمت  
أنك حصلت على التفاحة التي تغني. وبالطبع لو استطعت الحصول  
على هذه الآية لكنت أسعد الناس. ويجب أن أعترف لك، أنا لديّ  
اهتمام خاص بكل ما يتعلّق بمصالحك. لذا لا أستطيع الامتناع عن

إسداء نصيحة جديدة لك .

هتفت الأميرة وهي تتعد عنها:

- مهما يكن الخير الذي ستعودُ به علي نصائحك، احتفظي بها .

لأنها لن تستطيع التعويض عن القلق الذي تسبب لي به .

أجابت العجوز مبتسمة:

- ليس القلق سيئاً إلى هذا الحد! ثمّة قلق جميل .

أضافت نجمة الجمال:

- اصمتي، إنني أرتجف حين أفكر بما حصل .

قالت العجوز:

- صحيح أنّ حالتك تُحسدين عليها لكونك الفتاة الأجل

والأذكى في الكون. أقدم لك اعتذاراتي .

فأجابتها الأميرة:

- ضربة أخرى من ضرباتك! أعلم بما فيه الكفاية الحال التي

قادني إليها غياب شقيقي .

ثم أضافت:

- يجب بالرغم من ذلك أن أقول لك إنه لا يزال ينقصك

العصفور الصغير الأخضر الذي يبوح بكل سرّ، ويُعلمك بكلّ

الظروف التي أحاطت بولادتك والحظوظ السيئة والجيدة التي

ستصادفيتها في حياتك. ليس هنالك من أمرٍ إلاّ ويكشفه لك. وحين

سيقول الناس إنّ نجمة الجمال لديها الماء الراقص والتفاحة التي

تغني، فهم سيقولون في الأوان ذاته إنها ينقصها العصفور الصغير

الأخضر الناطق بكلّ الأسرار، وهذا ما يكاد يعني أنّها لم تحصل على

شيء .

وبعد أن قالت العجوز ما يدور في ذهنها، انصرفت. بدأت

الأميرة الحزينة الحاملة تتهدّ بمرارة وحسرة وتقول:

- هذه المرأة على حقّ، ففيم ستفيدني كلّ هذه الحسنات التي أتلقاها من الماء والتفاحة ما دمت أجهل من أنا ومن هم أهلي وما هو القدر الذي جعلنا أنا وإخوتي نواجه غضب الأمواج العاتية؟ لا بدّ أنّه حصل شيء خارق أثناء ولادتنا لئترك على هذا النحو، وأنّ السماء قدّمت لنا رعايتها لننجو بعد كلّ هذه الأخطار. يا لسروري العظيم عندما أتعرّف إلى أبي وأمي فأحبّهما إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة وأكرّم ذكرهما إذا كانا متوفّين!

وعلى هذا انهالت الدموع من عينيها بغزارة وغمّرت وجتيها أشبه ما تكون بقطرات الندى التي تُزّين في الصباح الزنابق والورود. سارع عزيز، الذي كان دوماً متلهّفاً لرؤيتها أكثر من شقيقها منير وسعيد، للعودة إليها بعد الصيد. كان راجلاً وقوسه تتدلّى بتهاونٍ من خاصرته ويده متسلّحة ببعض السهام وشعره مرفوعٌ إلى الخلف. كانت لديه هيئة محارب رائع لا يملّ النظر إليه. ما إن لمحت الأميرة حتّى ولّجت ممراً قائماً فلا يرى علامات الألم على وجهها. ولكن لا تكاد المعشوقة تبتعد حتّى يوافيها العاشق متلهّفاً. اقترب منها عزيز. ما كاد ينظر إليها حتّى عرف أنّها الماء. فانشغل بأله وتوسّل إليها بإصرار أن تُعلّمه السبب فتمنّعت بالحاح. وأخيراً وجّه رأس أحدٍ سهامه إلى قلبه وقال لها:

- أنت لا تحبّيني يا نجمة الجمال. لم يتبقّ لي إذاً إلا الموت.

أخافتها الطريقة التي قال بها هذه الكلمات ففقدت القدرة على إخفاء سرّها. لكنّها لن تقولهُ إلا بشرط ألاّ يُضحّي بحياته لكي يُحقّق لها رغبتها. ووعدّها بأن ينفذ كلّ ما تطلبه منه وطمانها قائلاً إنّها لا ينوي القيام بتلك المغامرة.

وعندما انزوت في غرفتها وخلد الأmirان إلى غرفتيهما، ذهب ليُخرج حصانه من الإسطبل ثم صعد على صهوته وانطلق دون أن يكلم أحداً. استاءت العائلة لخبر رحيله استياءً شديداً. آنذاك أرسل الملك في طلبهم، وكان يفكر بهم دوماً، مُليحاً عليهم بالمجيء لتناول الغداء معه. فأجابوه إن شقيقهم رحل للتو وإنهم لا يمكنهم أن يهنأ لهم بال من دونه، وأتهم سيدهبون لزيارته في القصر حالماً يعود. لم تكن الأميرة لتعزى. ولم يعد للماء الراقص ولا للتفاحة التي تغني أي معنى بالنسبة لها. فمن دون عزيز، لا شيء يُسليها.

ورحل الأمير سائحاً في الدنيا. سأل كل من صادفهم أين بإمكانه العثور على العصفور الصغير الأخضر الناطق بكل الأسرار. لكن الجميع كانوا يجهلون الأمر إلا شيخ جليل صادف ودعا للدخول إلى منزله. أشار إلى موقع محدد على الكرة أمامه قائلاً له إن العصفور موجود في مناخ متجلد على قمة صخرة شاهقة ثم رسم له خارطة الطريق المؤدية إليه. شكره الأمير وأعطاه، على سبيل الامتنان، كيساً صغيراً من اللآلي الضخمة التي تساقطت من شعره ثم استأذنه بالانصراف متابعاً رحلته.

وأخيراً عند طلوع الفجر، لمح الصخرة الشاهقة الشديدة الوعورة وعلى قمته العصفور المنتبى الذي يتكلم كالعرافين. أدرك أنه بقليل من المهارة يستطيع الإمساك به لأنه لا يبدو جفولاً وكان يروح ويجيء قافزاً بخفة من صخرة إلى صخرة. ترجل الأمير عن حصانه وتسلق بصمت ذلك التل الصخري رغم وعورته متخيلاً مقدار السرور الذي سيُدخله إلى قلب الأميرة نجمة الجمال. اقترب من العصفور الأخضر لا بل أوشك أن يمسك به. وفجأة انفجت الصخرة ورأى نفسه يسقط في قاعة فسيحة ثم يتجمد مثل تمثال. لم يكن يستطيع لا

الحراك ولا التشكي من مغامرته المخزنة؛ ومن حوله ثلاثمائة فارس كانوا قد تحولوا إلى تماثيل بعدما خاضوا المغامرة نفسها. وكان الأمر الوحيد الذي يقدرون على القيام به هو أن يتبادلوا النظرات.

بدا الوقت طويلاً طويلاً لِنَجْمَةِ الجمال. وإذا لم ترَ عودةً لِعَزِيزٍ أصابها مرضٌ خطير. عرف الأطباء أنه مجرد كآبة عميقة تتأكلها. وكان شقيقها يُجَبِّئُهَا حَبًّا حَبًّا. حَدَّثَهَا عن سبب حزنها فاعترفت لها أنها تلوم نفسها ليلاً نهاراً على غياب عزيز وأنها تشعر أن ذلك سُمِيئُهَا إذا لم تعرف شيئاً عن أخباره. أثر حزنها فيها، وقرّر منير الذهابَ والبحث عن أخيه على ذلك يساعدها على الشفاء.

انطلق الأمير. عرف مكان العصفور الشهير فذهب إليه ووجده واقترب منه معللاً نفسه بالأمال ذاتها كالأخرين. وفي تلك اللحظة انشقت الصخرة وابتلغته وسقط في القاعة الكبيرة. وأول شيء استوقف نظره كان عزيز لكنه لم يستطع التحدث إليه.

كانت نجمة الجمال تتأمل قليلاً إلى الشفاء وتأمل في كل لحظة أن ترى عودة أخويها. لكن آمالها باءت بالفشل وازدادت كآبتها وتفاقت مستمدة قوة جديدة. لم تعد تكف عن الشكوى وتلوم نفسها ليلَ نهار على المصيبة التي ألمت بشقيقها. والأمير سعيد الذي باتت شفقتة عليها تُعادل قلقه على الأميرين اتخذ بدوره القرار للذهاب والبحث عنهما. وقال ذلك لِنَجْمَةِ الجمال. أرادت في البدء أن تُعَارِضَ لكنه احتج قائلاً إنَّ من الصواب أن يُعَرِّضَ نفسه للخطر كيما يعثر على الشخصين الأعزَّ بالنسبة له في هذا العالم. وعلى هذا رحلَ مودعاً الأميرة بكلماتٍ لطيفة: وبقيت وحدها فريسة الألم الأكثر تبريحاً.

وعندما علمت الوصيفة بهتان أن الأمير الثالث كان في طريقه



للبحث عن أخويه، سُرت وابتهجت ابتهاجاً عظيماً وأخبرت الملكة الأم بالامر وأكدت لها أكثر من أي وقت مضى الهلاك الوشيك لجميع أفراد تلك العائلة التعيسة. وبالفعل فإن سعيداً خاض التجربة نفسها التي خاضها عزيز ومنير. بلغ الصخرة ووجد العصفور الجميل وسقط في القاعة متحولاً إلى تمثال وهناك تعرّف على شقيقه الأميرين دون أن يستطيع التحدّث إليهما. وكانوا جميعاً موضوعين في كوى من بلور بلا نوم أو طعام مسحورين بطريقة حزينة: كانت لديهم فقط الحرية في أن يحلموا ويتحسروا على مغامرتهم.

لم تكن نجمة الجمال تتعزّى. وإذ لم تر عودة لأشقائها، لامت نفسها على أنها تأخّرت كثيراً عن اللحاق بهم. ومن دون تردّد، أعطت الأوامر لكل أفراد حاشيتها بأن ينتظروها لمدة ستة أشهر وإذا لم تعد هي وإخوتها خلال ذلك الوقت فعليهم إبلاغ نبا موتهم إلى القرصان وزوجته. ثم تنكرت في ثياب رجل لأنها ارتأت أن ذلك سيكون أقلّ خطورة عليها أثناء رحلتها. رأتها بهتان ترحل ممتطية صهوة حصانها الجميل وعندئذ عمّ السرور قلبها وذهبت إلى القصر لكي تُعلم والده الملك بذلك الخبر السار.

تسلّحت الأميرة فقط بخوذة ولم تكن ترفع واقيتها قط لأنّ جماها كان مرهفاً مكتملاً، وما كان أحد ليصدّق أنها من الفرسان كما أرادت أن توحى به. وحلّ فصل الشتاء على البلاد التي يسكن فيها العصفور الصّغير الناطق بكلّ الأسرار، ولم تكن تتلقّى في أيّ فصلٍ أيّ شعاع من الشمس المحيية.

أجست نجمة الجمال ببردٍ غريب يلفح كيائها ولكن لا شيء كان يستطيع أن يُثنيها عن مسعاها. وعندئذ رأّت يمامة بيضاء باردة كالثلج الذي اضطجعت فوقه. وبالرغم من لهفتها للوصول إلى الصخرة، لم

تشأ أن تتركها تموت بل ترجلت عن حصانها وأمسكتها بين يديها ودقاتها بأنفاسها ثم وضعتها في حُضْنِهَا. كانت اليامة الصغيرة المسكينة جامدة بلا حراك. ظنتها نجمة الجمال ميتة وأسفت لموتها. فأمسكتها قائلة لها وهي تنظر إليها وكأنها تستطيع أن تسمعها:

- ماذا أفعل أيتها اليامة اللطيفة لأنقذ حياتك؟

فأجابتها العصفورة:

- يا نجمة الجمال، إنَّ قِبلَةَ رقيقَةٍ من فَمِكِ لَهي أَجملُ ختامٍ يتوجُّ ما استهلَّه إحسانُكِ ومروءتُكِ.

قالت الأميرة:

- ليس قِبلَةَ واحِدَةٍ بل مائة إذا اقتضى الأمر.

وقبلتها فاستعادت اليامة شجاعتها وقالت بفرح:

- عرفتك بالرغم من تنكرك. اعلمي أنكِ تقومين بشيءٍ مستحيلٍ إذا لم أقدم لك مساعدتي. افعلي إذا ما أنصحتك به. عندما تصلين أمام الصخرة، بدل أن تسعي لتسلقها ابقِي في أسفلها وابدئي بغناء أجمل وأعذب أغنية تعرفينها. عندئذٍ سيستمع إليك العصفور الأخضر الناطق بكل الأسرار وسيعرف مصدر الصوت. وبعدئذٍ تتظاهرين بالتوم: سأبقى قربك وعندما يراني سينزل عن قمة الصخرة لينقرني، وفي تلك اللحظة يمكنكِ الإمساك به.

تعللت الأميرة بهذا الأمل وابتهجت. سرعان ما وصلت إلى الصخرة وهناك رأت أحصنة أشقائها ترعى العشب. أحى ذلك المنظر آلامها كلها. فجلست وبكت طويلاً وبمرارة. لكن العصفور الأخضر الجميل كان يقول أشياء في غاية الجمال تحمل العزاء إلى قلوب التّعساء فلا يسمعها قلب محزون إلاّ ويبتهج. فمسحت دموعها وأخذت تغني بصوت عالٍ وبأداء متقن فسرت الأمراء في

عمق الصّالة المسحوّرة بسماحها.

وعندئذٍ شعروا ببعض الأمل بنجاتهم. كان العصفور الصّغير الأخضر الناطق بكلّ الأسرار يسمّع الصّوت ويتحرّى عن مصدره فلمح الأميرة التي نزعَت خوذتها لتنام براحة أكبر واليامة التي تُخلّق فوقها. وعندما رأهما، نزلَ عن صخرته وأتى لينقر اليامة، ولكنه لم يكد ينتزعُ منها ثلاث ريشاتٍ حتّى أمسكت به الأميرة.

قال لها:

- تبا لك! ماذا تريدن مني؟ ماذا فعلتُ لك حتّى أتيت من بعيد لتسبّبي بتعاستي؟ أطلقني سراحى أفعلُ لك كلّ ما تتمنّيه.

قالت له نجمة الجمال:

- أحبّ أن تعيد لي إخوتي الثلاثة، لا أعرف مكانهم ولكن أحصيتهم ترعى بالقرب من هذه الصّخرة، وهذا يحميني على الاعتقاد أنّك تحتجزهم في مكانٍ ما.

قال لها:

- لديّ تحت جناحي الأيسر ريشة قرمزية. انتشليها واستخدمها لتفتحي الصّخرة.

قامت الأميرة على نحو السّرعة بما أمرها به فرأت للحال بروقاً وسمعت صوتَ رياحٍ ورعودٍ ممتزجة فأصابتها رعدة لا توصف. وبالرغم من خوفها، ظلّت تمسكُ العصفورَ الأخضر لئلا يهرب منها وتابعت وضعَ ريشتها القرمزية على الصّخرة وفي المرّة الثالثة انشقت الصّخرة من القمّة إلى الأسفل، ودخلت الأميرة بهيئة ظفيرة إلى القاعة حيث كان الأمراء الثلاثة مُحْتَجِزِينَ مع الفرسان الآخرين: هُرَعَت باتجاه عزيز فلم يتعرّف عليها بشبابها وخوذتها ومن ثم لم يكن السّحر قد زال بعد فكان عاجزاً عن الكلام والحراك. لاحظت

الأميرة ذلك فسألت العصفور الأخضر عما يجب أن تفعله، فأجابها أن عليها أن تمسح بالريشة القرمزية أعين كل من تريد أن تُزيل عنهم السحر وكذلك أفواههم. نفذت ما قال لها مؤديةً هذه الخدمة للملوك وحكام عديدين وطبعاً لأمرائنا الثلاثة.

وامتناناً منهم لصنيعها العظيم ارتموا جميعاً عند قدميها وسموها محرر الملوك. لاحظت عندئذ أن إخوتها لم يتعرفوا إليها في ثيابها الذكورية فنزعت عنها خوذتها بسرعة وضممتهم وأمطرتهم بالقبلات وسألت الأمراء الآخرين بتهديب كبير عما جرى لهم. فروى لها كل واحد منهم ما كان قد حدث له وعرضوا عليها مرافقتها أنى شاءت. فأجابتهم بأنها وإن كانت قوانين الفروسية تُعطيها بعض الحق للتصرف بالحرية التي أعادتها إليهم، إلا أنها لا تريد أن تمارس ذلك الحق. وعلى هذا انصرفت مع الأمراء الثلاثة لكي يتحدّثوا فيما بينهم عما حصل منذ افتراقهم.

قاطعهم العصفور الأخضر الصغير الذي ينطق بكل الأسرار متوسلاً إلى نجمة الجمال أن تطلق سراحه. فتشت للحال عن الياמה لكي تسألها رأيها ولكنها لم تجدها. أجابت العصفور إتهاماً لم تتكبد كل تلك المشقة وكل ذلك العناء لكي تتخلى عنه بهذه السهولة وتفترط بمتعة الحصول عليه. صعدوا أربعتهم على أحصنتهم وتركوا الملوك والأمراء راجلين لأن أحصنتهم قضت نحبها منذ مائتي سنة، أو ثلاثمائة سنة.

بعد أن أزاحت والدة الملك عن صدرها كل الهموم التي كان ظهور الأولاد الحسان قد سببها لها، ألحت من جديد على الملك وبإصرار لكي يتزوج ثانية بعد أن اختارت له أميرة من قريباتها. وبما أنه يُفترض أن يُبطل الزواج بالملكة التعيّسة شقراء التي كانت لا تزال

تسكنُ عند والدتها في منزلها الريفي الصغير مع الكلاب الثلاثة التي سمّتهم «حزن» و«غم» و«هم»، تجسداً لكل الأحزان التي عانتها بسببهم، أرسلت الملكة الأم في طلبها. فصعدت إلى العربة مصطحبة الكلاب معها وهي ترتدي السواد متلفعة بوشاح طويل يصل حتى قدميها.

حتى في حالتها هذه، ورغم هزالها ونحوها، بسبب فقدان الشهية للطعام وقلة النوم، بدت أجمل من كوكب النهار. رق الملك لحالها ولم يجروا على النظر إليها، ولكنه كان يخشى أيضاً أن يكون ورثته جراء كلاب، فارتضى أن يفعل أي شيء لتجنب تلك المصيبة.

حدّد موعد الزفاف. وتوسّلت صهباء زوجة الأميرال (وكانت لا تزال تمقت شقيقتها القديمة الحظ) إلى والدة الملك أن تدعو الملكة شقراء إلى الحفل. أعدت كل شيء ليكون الحفل كبيراً مهيباً. أعرب الملك عن رغبته في مجيء ضيوفه الغرباء لحضور الزفاف وأمر قائد حرسه بالذهاب إليهم ودعوتهم مباشرة أو إخطارهم بالمجيء في حال غيابهم.

ذهب قائد الحرس لإحضارهم ولم يجدهم. ولكنه كان يعرف مقدار فرحة الملك برويتهم فأوكل إلى أحد معاونيه مهمة انتظارهم واصطحابهم دون تأخير. وجاء اليوم السعيد، يوم الزفاف المنتظر. وعند وصول نجمة الجمال برفقة أشقائها الثلاثة، دعاهم معاون إلى حفل الزفاف وروى لهم قصة الملك الذي اقترن فيها مضي بفتاة فقيرة رائعة الجمال، مفعمة بالذكاء ولكنها أنجبت له ثلاثة جراء كلاب فطردوا من القصر مع أنه كان يحبها كثيراً وأمضى خمسة عشر عاماً دون أن يستمع لوالدته وأفراد حاشيته الذين كانوا يلحون عليه دوماً بالزواج من جديد، إلى أن قرّر أخيراً الاقتران بأميرة من البلاط. ثم

حَثَّهم على المجيء بسرعةٍ لثلاثٍ يفوتهم شيءٌ من حفل الزَّفافِ ذاك. كانت نَجْمَةُ الجِمالِ قد ارتدت ثوباً مُخْمَلِيّاً ورديّ اللونٍ مُزداناً كلّه بألماساتٍ برّاقة. وجعلتْ شعرها ينسدلُ خصلاتٍ كبيرةٍ على كَتِفَيْها وعقدته بالشّرائط. وكانت النجمة على جبينها تُرسلُ نوراً باهراً، وبدت السلسلة الملائمة لعنقها مصنوعة من معدنٍ أثمن من الذهب نفسه. وأخيراً لم يكن لجمالها مثيلٌ بين الفانين، وكذلك كان أشقاؤها، وخصوصاً الأمير عزيز الذي كان لديه شيءٌ ما يجعله مميّزاً عن سواه. وصعدوا ثلاثتهم في عربةٍ من الأبنوس والعاج يُجرّها اثنا عشر حصاناً أبيض، وكانت منجّدة من الدّاخل بقماش ذهبيّ، والوسائدُ من القماش نفسه مُوشاة بالأحجار الكريمة. وكان باقي الموكب على الجِمالِ نفسه. وعندَ قدوم نَجْمَةِ الجِمالِ وإخوتها، سُرَّ الملك وأتى لاستقبالهم مع جميع أفرادِ حاشيته عند أعلى الدَّرَج. وكان في حوزتهم التّفاحة المغنّية، التي راحت تُغني صادحةً بأنغام رائِعة، والماء الرّاقص الذي شرعَ بالرقص، والعصفور الأخضر الصّغير الناطق بكلّ الأسرار، الذي راح يتكلّم بأفضل من العرّافين. انحنوا أربعتهم حتّى رُكبتِ الملك ثمّ أمسكوا بيده وقبلوها باحترامٍ وحنان. وقبلهم بدوره قائلاً لهم:

- أنا ممتنٌ لكم أيها الغرباء اللطفاء لمجيئكم اليوم: إنّ حضوركم يسرّني كثيراً.

أنهى كلماته هذه واصطحبهم إلى قاعة استقبال كبيرة حيث كان الموسيقيّون يعزفون على جميع أنواع الآلات، وامتدّت المادب حافلة بكلّ ما لذّ وطاب.

جاءت والدّة الملك برفقة كتّتها القادمة وزوجة الأميرال صهباء وجميع سيّدات القصر، وبينهنّ الملكة التّعيسة الموثقة إلى عنقها برسن

طويل من الجلد وخلفها الكلاب الثلاثة الموثقة بالطريقة نفسها. واقتيدت إلى منتصف قاعة الاستقبال حيث كان هناك مرّجل مليء بالعظام وباللحم الفاسد أمرت والدة الملك بوضعه لعشائهم.

عندما رأت نجمة الجمال والأمراء تعاسة تلك المرأة، انهالت الدموع من أعينهم مع أنهم لا يعرفونها، إنا لأن انقلاب حظّ أمجاد العالم أثر فيهم وإنا لأن رابط الدم حرّك عاطفتهم. ولكن ماذا كانت حال والدة الملك الشريرة عندما رأت عودة الأمراء التي لم تكن تتوقعها والمعاكسة لخطتها؟ ألقت نظرة مسعورة على الوصيصة بهتان التي كانت جلّ أمانيتها أن تنشق الأرض وتبتلعها.

قدّم الملك الأطفال الحسان إلى والدة قائلاً لها ألف شيء رائع عنهم. وبالرغم من القلق الذي تملكها تحدّث إليهم بوجه باسم ورمقتهم بنظرات لطيفة كما لو أنّها كانت تستلطفهم، لأن التصنّع والكذب كانا شائعين منذ ذلك الوقت. وكانت الوليصة مبهجة بالرغم من أنّ الملك كان متألماً لرؤية زوجته تأكل مع جراء الكلاب وكأنّها أحقر الكائنات. لكنّه إذ صمّم على إرضاء والدة التي أجبرته على الزواج من جديد سمح لها بأن تأمر بكلّ شيء.

عند نهاية المأدبة، وجه الملك الكلام لنجمة الجمال فقال:

- أعرف أنّك تملكين ثلاثة كنوز عجيبة أهتنيك عليها وأتوسل إليك أن تخبرينا كلّ ما توجب فعله للحصول عليها.  
قالت:

- سمعاً وطاعة يا مولاي. قيل لي إنّ الماء الرّاقص سوف يجعلني جميلة وإنّ التفاحّة التي تغني سوف تمدني بالذكاء. أردت الحصول عليها لهذين السببين. أمّا العصفور الصّغير الأخضر الناطق بكلّ الأسرار فالسبب الذي دعاني للحصول عليه مختلف: ذلك أنّنا لا

نعرف شيئاً عن ولادتنا المشؤومة. نحن أولاد تحلّى عنا أهلنا ولا  
نعرف أحداً منهم. فأملتُ أن يُبَيِّننا هذا العصفور العجيب عن أمرٍ  
يشغل بالنا ليلاً ونهاراً.

أجابَ الملك:

- إذا أردنا أن نَحْتَكِمَ لأصليكم من هيئتكم فلا بُدَّ أن أصلكم  
نبيلٌ جداً. ولكن قولي لي بصدقٍ من أنتم؟  
قالت له:

- يا مولاي، أنا وإخوتي أزوجانا أن نسألَ العصفور الأخضر  
الصغير حتى عودتنا. ولدى وصولنا، تلقينا أوامرك بالمجيء لحضور  
زفافك. كل ما استطعتُ أن أفعله هو أن أحملَ إليك هذه الطرف  
الثلاث لتسليتك.

هتف الملك:

- أنا مسرور جداً. لا تُرجئنَ هذا الأمرَ الظريف.  
قالت والدة الملك غاضبةً:

- أنت تستمتع بكلّ التفاهات التي تُعرضُ عليك. إنهم مسوخٌ  
جاؤوا في صحبة طرائفهم! الحق إنَّ الأسماء وحدها تدلّ على أن ليس  
هناك ما هو أكثر سخفاً. وأنا لا يرضيني أن يتمكّن غرباء ينتمون بكلّ  
وضوح إلى عامة الشعب من تضليلك. ما هذه إلا الأعيب من باب  
الشعوذة والتحايل. ولولاك لما أعطي لهم شرف الجلوس إلى مائدتي.  
عندما سمعت نجمة الجمال وإخوتها كلام الملكة الأم اعترى  
وجوههم اليأس والحيرة ولم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون إزاء تلك  
الإهانة التي وُجّهت إليهم على مرأى من أفراد الحاشية كلهم. لكن  
الملك أجابَ والدته أن ما فعلته مُهين ومعيب وتوسّل إلى الأولاد ألا  
يعيروا الأمر اهتماماً ومدّ لهم يده علامة على صداقته. أخذت نجمة



الجمال طستاً من البلور الصخري وسكبت فيه الماء الراقص كله، وللحال شوهد ذلك الماء يتحرك ويقفز وفق الإيقاع ويروح ويحيى ويرتفع مثل بحر صغير هائج ويتلون بألف لون ويحرك طست البلور على طول المأذبة أمام الملك. ثم طار منه بعض الرذاذ ملامساً وجه قائد الحرس الذي يدين له أولئك الأولاد بمساعدتهم لدى وصولهم إلى البلاد. كان رجلاً يتحلى بفضائل نادرة نادرة قباحتها: لا بل إنه كان أعور. ما إن لامسه الماء حتى أصبح جميلاً حتى ليستحيل التعرف إليه، وشفيت عينه. كان الملك يحبه كثيراً فسرّ أشد السُرور لما حصل له بقدر ما استاءت والدته الملكة لأنها لم تكن تطيق سماع التصفيق الذي قوبل به الأمراء. وبعد أن تلاشت الضجة وضعت نجمة الجمال على الماء الراقص التفاحة التي تغني والمصنوعة من ياقوتة واحدة والمتوجة بالألماس مع غصنها العنبري؛ فبدأت التفاحة تعزف موسيقى رائعة ومتناسقة توازي عزف مائة موسيقي. ابتهج الملك لذلك مع كل أفراد حاشيته. ثم أخرجت نجمة الجمال من كمها قفصاً ذهبياً صغيراً مُتقن الصنع كان فيه العصفور الصغير الأخضر الناطق بكل سر. لم يكن ذلك العصفور يتغذى إلا من مسحوق الألماس، ولا يشرب إلا ماء اللؤلؤ المقطر. وضعته برفق على التفاحة التي صممت احتراماً له لكي تفسح له المجال للكلام. كانت ريشاته في غاية النعومة حتى أنها تهتز إذا ما أغمضنا أعيننا وفتحناها بالقرب منه؛ وكانت متلونة بكل درجات الأخضر. توجه إلى الملك وسأله عما يريد معرفته.

أجاب الملك:

- نتمنى أن نعرف جميعاً من هم هؤلاء الأولاد: هذه الفتاة الجميلة وهؤلاء الفرسان الثلاثة.

أجاب العصفور الأخضر بصوتٍ قويٍّ واضحٍ:  
 - آه أيتها الملك! إنها ابنتك واثنانٍ من هؤلاء الأمراء هما ابناك  
 والثالث الذي يُدعى عزيز هو ابن أخيك.  
 وهنا روى بكلِّ فصاحةٍ القصةَ كلّها من دون أن يُهمَلَ أدنى  
 تفصيل.

انهارَ الملك باكِياً والملكة شقراءَ المحزونة تركتَ مرّجلاًها وعظامها  
 وكلاهما واقتربتُ بهدوء. بكت فرحاً، بكت حبّاً لزوجها وأولادها:  
 إذ كيف لها أن تشكَّ بصحة هذه القصة عندما رأت جميع العلاماتِ  
 الفارقة التي تسمَح لها بالتعرّف إليهم؟ نهض الأمراء الثلاثة ونجمة  
 الجمال عند نهاية القصة وجاؤوا للارتقاء أمامَ قدمي الملك وقبلوا  
 ركبتيه وقبلوا يديه ومدّ لهم ذراعيه وعانقهم وهو يشدّهم إلى صدره.  
 ولم تكن تُسمع إلاّ التهنّيدات ممزوجةً بصيحاتِ الفرح. نهض الملك  
 ورأى الملكة زوجته التي ظلّت تقف مُرتعدةً بالقرب من الحائطِ  
 مهانةً ذليلةً فتوجّه نحوها، وداعبها مقرّباً لها الكنبه لتجلسَ بالقربِ  
 منه وأرغمها على الجلوسِ عليها.

وقبلَ أولادها قدميها ويديها ألف مرّة. تصعب رؤية مشهد مؤثّر  
 ومثير للعطفِ كذلك المشهد. وكلُّ راح يبكي في سرّه رافعاً يديه  
 وعينيه إلى السماء ليَشكرها على أنها أجلت مثل تلك الحقائق الهامة  
 الغامضة. وشكّر الملك الأميرة التي كانت تنوي الزواج به وترك لها  
 مجموعة كبيرة من الأحجار الكريمة. ولكن أيّ عقابٍ مُشين كان  
 سيُنزلُ بالملكة الأم وزوجة الأmirال والوصيفة بهتان لو أنّه انصاع  
 لضغينته؟ أخذ يردد ويذبح غضباً. وعندئذ استحلّفته زوجته الملكة  
 الشّهمة وأولادها وعزيز أن يهدأ وأن يُنزلَ بهنّ حُكماً يكون قدوة  
 للآخرين أكثر منه قاسياً. أمرَ بسجن والدته الملكة في أحد الأبراج.

أما زوجة الأميرال وبهتان فقد رَمَاهما في مَجْبَأٍ قاتمٍ رطبٍ حيث كانتا تأكلان مع الجراء الثلاثة التي، لِعَدَمِ رُؤْيَتِهَا سَيِّدَتَهَا اللَّطِيفَةَ، أخذت تعضهما في كل لحظة. وهناك أنهيتا حياتهما التي كانت طويلة بما يكفي لتسمَحَ لهما بالتَّدم على كلِّ الجرائم التي اقترفتاها.

ما إن اقتيدتِ الملكة الأم وزوجة الأميرال وبهتان، كلُّهُنَّ إلى المَكَانِ الذي عَيَّنَهُ الملك، حتَّى عاودَ الموسيقِيُّونَ الغناءَ والعزفَ على آلاتهم. كانت الفرحة لا مثيلَ لها. وشعرتِ نجمة الجمالِ وعزيز بالفرحة أكثرَ من الحاضرينَ مجتمعينَ لأنَّها أَلْفِيَا نفسيهما على وَشَكِ الزَّواجِ. وبالفعل، وجد الملك أنَّ ابن أخيه كان هو الأَجْمَلُ والأذكى بين جميع شبَّانِ القصر، فقال له إنَّه لا يريد أن يَمُرَّ يوم بهذه الأهميَّة دون زفاف وإنَّه يُعطيهِ يد ابنته. طارَ الأميرُ فَرِحاً وارتمى عندَ قَدَمَيْهِ وشعرتِ نجمة الجمالِ برضاً غامراً.

ولكنَّ الأميرة العجوز، والدة الملكة، التي كانت تعيش في كَفِّ الوحدة منذ سنواتٍ طويلة، توجَّبَ عليها أن تُشاركَ الجموع فرحتها. فجأةً دخلت عليها الجنيَّة القصيرة القامة نفسها التي أتت لِتناولِ الغداءِ عندها قبل سنواتٍ واستقبلتها أفضلَ استقبال، ورَوَّت لها ما حَدَّثَتْ في القصر.

وأردفت:

- لنذهبُ إلى العرس، سأخبركِ أثناءَ الطَّريقِ كيف سِهَرْتُ على رِعايةِ أفرادِ أُسرتكِ.

صَعَدَتِ الأميرة الممتنة في عَرَبَتِهَا التي كانت تلمع بالذهب وباللآزورد، تتقدَّمها الأبواق والطُّبول، ويتبعها ستمائة حارسٍ شخصيٍّ بدؤوا من الأشراف. رَوَّت للأميرة كلَّ حكايةِ أحفادِها وقالت لها إنَّها لم تتخلَّ عنهم قطَّ وإنَّها، سواء في هيئة حوريةٍ أو يمامةٍ،

أولتهم رعايتها بالفِ طريقة.

وأضافت:

- هل رأيتِ؟ لا يضيع المعروف أبداً.

أرادت الأميرة الطيبة أن تقبل في كلّ دقيقة يديّ الجنيّة لتُظهِرَ لها امتنانها. لم تجد عبارات تصفُ بها فرحها. وأخيراً وصلتا. استقبلهما الملك بحرارة وودّ كبيرين. وهُرِعت الملكة شقراء والأولاد الحسان لإظهار الودّ لتلك المرأة الوقور. وعندما عرفوا كلّ ما فعلته الجنيّة لهم وأنها اتّخذت هيئة اليامة لترشدهم، فاضوا بعبارات الشكر والامتنان. ولكي ينعم الملك بكلّ الرضا والسرور، أخبرته الجنيّة أنّ حماة التي اعتبرها دوماً فلاحه فقيرة كانت في الحقيقة قد وُلدت ملكة حاكمة. ربّما كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كان ينقص كي تكتمل سعادة ذلك الملك. واختتمّ الحفل بزفاف نجمة الجمال والأمير عزيز. وأرسل في طلب القرصان وزوجته لمكافأتهما على التربية النبيلة التي منحها للأطفال. وأخيراً، وبعد مشقّات كثيرة، كان الجميع في تمام الرضا.

الحبّ، وليمت الرّقاء حسداً وقهراً،

هو أصلُ المجد

فهو يُجرّك القلوب الشّهمة

لكي تتحدّى الخطرَ وتسعى إلى النصر

الحبّ هو الذي خلّد في العالم كلّه

ذكرى الأمير عزيز

وهو الذي جعله يُحرزُ شتى المآثر

التي زينت قصّته.

ما إن يتغزل رجلٌ بأنثى  
عليه أن يستعدَّ لإرضاءِ جميعِ نزواتِها  
لكنَّ القلبَ الذي ينشدُ الحبَّ والمجد  
لا يخشى أشدَّ الأهوالِ خطراً.



## الأمير ذيب

كان يا ما كان<sup>(1)</sup>، كان هناك ملك وملكة يعيشان في همّ وغمّ لأنهما لم يُرزقا بطفل. لم تعد الملكة يافعة، مع أنّها لا تزال جميلة، ولم تعد تجرؤ على أن تعدّ نفسها بأيّ طفل. وذلك كان يُشعرها بأسى بالغ. كانت على أرقٍ دائم، والحسرة لا تفارقها، تسأل باستمرارٍ معونة السماء والجنّيات جميعاً.

وذات يوم ذهبت تنزّه في غابة صغيرة. قطّفت بضعة بنفسجات وورود، وأيضاً حبّات قليلة من الفراولة. ولكن ما إن تناولت بعضاً منها حتّى تملكها نعاسٌ شديدٌ فرقدت عند أسفل شجرةٍ واسترسلت في نوم عميق.

حكمت، أثناء نومها بأنّها ترى ثلاث جنّياتٍ يعبّرنَ الفضاء ويتوقّفن فوق رأسها.

نظرت إليها الأولى بشفقةٍ وقالت:

- انظرا: تلك ملكة لطيفة. فلنوّد لها خدمة جليّة فنهبها طفلاً.

قالت الثانية:

- بكلّ سرور، هبّيها واحداً بما أنّك أختنا البكر.

فأردفت الأولى:

- أهبها طفلاً ذكراً، الأجل والألطف والأحبّ في العالم.

وأجابت الأخرى:

- وأنا، سأجعلها ترى هذا الابن موقفاً في مشاريعه، ظافراً على

(1) تتضمّن ترجمة الحكاية التالية تصرفاً بسيطاً يتمثّل في اختيار اسم بطلها. انظر الفقرة المخصّصة لترجمة أسماء الأعلام في تمهيد هذا الكتاب.

الدوام، مليئاً بالذكاء ومتسلحاً بالعدل.

وجاء دور الثالثة لكي تهبها شيئاً ما فانفجرت ضاحكةً وغمغمت شيئاً بين أسنانها لكن الملكة لم تفهم حرفاً مما قالت. ذاك هو الحلم الذي رآته. حين أفاقت منه بعد لحظات، لم تر شيئاً لا في الفضاء ولا في الحديقة. قالت في نفسها:

- يا حسرة، ليس لدي حظ ميمون ولا أمل أن يتحقق حلمي: لكن كم سيكون شكري عظيماً للسماء والجنّيات الخيرات لو كان لدي طفل!

ثم قطفت الأزهار من جديد وعادت إلى القصر أكثر فرحاً مما هي في العادة. لاحظ الملك ذلك وتوسل إليها أن تفشي له سر تلك السعادة المفاجئة. فامتعت فازداد إلحاحاً.

عندئذ قالت له:

- ليس الأمر يستحق فضولك. إنه مجرد حلم ولكن لا تلمني إذا أظهرت بعض الضعف وآمنت به قليلاً.

روت له أنها رأت أثناء نومها ثلاث جنّيات في الفضاء وقد تحدثن إليها لكن الثالثة بينهن انفجرت ضاحكةً، دون أن تستطيع هي سماع ما كانت تتمم به.

قال الملك:

- هذا الحلم يمّدي مثلك بالسرور. ولكنني قلق من هذه الجنّية المرحّة لأن أغلب الجنّيات ماكرات وعندما يصحكن فهذا لا يُعتبر فإلاً حسناً.

أجابت الملكة:

- بالنسبة إليّ، أعتقد أنّ هذا لا يعني لا خيراً ولا شراً. فكري منشغلّ بالرغبة في إنجاب طفل ويختلق بهذا الخصوص أوهاماً



وأوهاماً. تُرى ماذا سيحدث في حالٍ تحقق ما كنت أحلم به؟ هل سيكون ابني متمتعاً بكل ما هو خيرٌ له؟ عسى السماء أن تُنعم عليّ بهذه التعزية.

وأخذت في البكاء. طمأنها زوجها أنها غالية جداً عليه حتى لو لم يُرزقا بطفل.

وبعد أشهر عديدة، لاحظت الملكة أنها حبل. وأُعلن النبا في أرجاء المملكة كلُّها لكي يتمنى لها الرعايا خلاصها بالسلامة. وعلى جميع المذابح أُحرقت القرابين لكائنات السماء لكي تحفظ لها ذلك الكثر الثمين. واجتمعت الولايات وانتدبت موفدين للذهاب إلى المملكة وتمنئة جلالتيهما؛ كما ذهب جميع الأمراء ذوي القربى، والأميرات، والسفراء لحضور ولادة الملكة. وكان جهاز ذلك الوليد الغالي ذا جمالٍ رائع؛ وجيء بمرضعة ممتازة. ولكن كل تلك الفرحة الشاملة تحولت إلى حزن عندما وُلد بدلاً من أمير جميل، ذئب صغير! أطلق الجميع صرخاتٍ أحدثت في نفس الملكة رُعباً كبيراً. سألت عن سبب ذلك الصراخ ولم يقل لها أحد شيئاً لئلا تقضي نحبها المأ. على العكس، أكدوا لها أنها باتت أماً لصبيٍّ جميل وأن عليها أن تبتهج وتفرح.

ولكن الملك تولاّه حُزن لا يوصف. أمرهم بأن يوضع الذئب في كيسٍ ويُرمى في قعر البحر لكي يمحو نهائياً تلك الفكرة البغيضة المحزنة من رأسه. لكنّه ما لبث أن أشفق عليه مفكراً أنّه ليس من العدل أن يقوم بتلك الفعلة قبل أن يستشير الملكة. فأمر بتغذيته ولم يذكر شيئاً أمام زوجته بانتظار أن تتعافى كلياً لئلا يُميته حزنها. كانت تطلب في كل يوم أن ترى ابنها فيقال لها إنه لا يزال طريّ العود ويُستحسن عدم نقله إلى غرفتها. وذلك كان يهدئ روعها.

أما الصَّغِيرِ ذِيبِ (وقد صار هذا هو اسمه) فقد كان يتغذى بِصَفْتِهِ ذِئْبًا تَحْدُوهُ رَغْبَةٌ جَامِحَةٌ فِي الْحَيَاةِ. تَوَجَّبَ أَنْ تُكْرَسَ لَهُ سِتُّ حَاضِنَاتٍ. وَهَؤُلَاءِ كُنَّ يُقَدِّمْنَ لَهُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ أَطْعَمَةً طَيِّبَةً وَمَشْرُوبَاتٍ مُنْعِشَةً. وَالْمَلِكَةُ الْمُتَلَهِّفَةُ لِمُدَاعِبَةِ وَلَدِهَا قَالَتْ لِلْمَلِكِ إِنَّهَا بَاتَتْ فِي حَالٍ جَيِّدَةٍ وَتَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ بِنَفْسِهَا حَتَّى غَرَفْتَهُ وَإِنَّمَا لَمْ يَعِدْ بِإِمكَانِهَا الْعَيْشَ دُونَ أَنْ تَرَى ابْنَهَا. أَطْلَقَ الْمَلِكُ تَنْهِيدَةَ أَلِيمَةَ وَأَمَرَ بِأَنْ يُؤْتَى بِوَرِيثِ الْعَرْشِ. كَانَ مَقْمَطًا كَطْفَلٍ فِي أَقْمِطَةٍ مِنَ الدِّيَابِجِ الْمَذْهَبِ. أَخَذَتْهُ الْمَلِكَةُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا وَرَفَعَتْ الدَّانِيَلَا الْمُكْشَكَشَةَ الَّتِي تَغْطِي رَأْسَهُ. وَيَلُّ لَهَا! مَاذَا صَارَ بِحَالِهَا لَدَى رُؤْيَيْهَا ذَلِكَ الْمَنْظَرَ الْمَشْهُومَ؟ أَحْسَتِ أَنَّهَا عَلَى وَشِكِّ الْمَوْتِ. وَرَمَتِ الْمَلِكُ بِنِظْرَاتٍ حَزِينَةٍ عَاجِزَةً عَنِ الْكَلَامِ.

قال لها:

- لا تحزني أيتها الملكة. لا أحملك أي خطأ في المصيبة التي حلت بنا. إن ذلك صنعة تلك الجنية الشريرة. إذا وافقت فسأنفذ الخطة الأولى التي خطرت لي وهي إغراق هذا المسخ الصغير.

قالت له:

- آه يا مولاي. لا تستشرنني في هذا الفعل الشنيع، فأنا والدة هذا الذئب العديم الحظ. أشعر أن قلبي يُرفق به. رُحماك! دعنا لا نتسبب له بأي أذى فهو تكفيه مصيبة أنه وُلِدَ ذِئْبًا بَدَلًا أَنْ يُولَدَ إِنْسَانًا.

أثّر بكاؤها في الملك أيما تأثير، وكذلك الحجج التي قدّمتها فوعدها بأن يفعل ما تتمناه. وبدأت السيدات اللواتي كنَّ يُرَبِّينَ ذِيبَ الصَّغِيرِ يُعْنِينَ بِهِ أَكْثَرَ بَعْدَ أَنْ عَامَلْنَهُ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ كَحَيَوَانٍ مَلْعُونٍ مُعَدًّا لِأَنْ يَكُونَ عَمَّا قَرِيبٍ طَعَامًا لِلْأَسْمَاكِ. صَحِيحٌ أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ قِبَاحَتِهِ، كَانَ لَهُ عَيْنَانِ تَلْفَتَانِ الْأَنْظَارِ مَفْعَمَتَانِ بِالذِّكَاةِ. وَجَرَى

تَعْوِيده على أن يَمُدَّ قَائِمَتَهُ الصَّغِيرَةَ لِمَنْ يُلْقُونَ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ وَوُضِعَتْ لَهُ أَسَاوِرٌ مِنَ الْأَمَاسِ، وَكَانَ يَقُومُ بِكُلِّ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ بِظَرْفٍ كَبِيرٍ.

لم تستطع الملكة الامتناع عن حبّه. كانت تحمله غالباً بين ذراعيها وتجده جميلاً في سريرة قلبها، لأنها لم تكن تجرؤ على المجاهرة بذلك خشية أن تُعْتَبَرَ مجنونة. لكنّها كانت تعترف لصديقاتها أنّ ابنتها يبدو لها لطيفاً، وكانت تزينه بشرائط وردية لا حصر لها. نُقِبَت أذناه، وَزُوِّدَ بِرِبَاطٍ يُمَسِّكُ بِهِ لِتَعْلِيمِهِ الْمَشِيِّ عَلَى قَائِمَتَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ، وَالْبَسَ حِذَاءَ وَجَوَارِبَ حَرِيرِيَّةٍ مُثَبَّتَةً إِلَى الرِّكْبَتَيْنِ لِتَبْدُو سَاقَاهُ أَطْوَلَ.

وَكَانَ يُضْرَبُ بِالسُّوْطِ عِنْدَمَا يَعْوِي كَالذَّنْبِ، وَهَكَذَا جُرِّدَ، قَدَرَ الْإِمْكَانِ، مِنَ الْعَادَاتِ الذَّنْبِيَّةِ.

وَذَاتَ مَسَاءٍ، كَانَتِ الْمَلِكَةُ تَنْتَزِعُهُ وَهِيَ تَحْمِلُهُ عَلَى كَتِفَيْهَا. جَاءَتْ إِلَى الشَّجَرَةِ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَتْ قَدْ نَامَتْ تَحْتَهَا وَحَلَمَتْ فِي ظِلِّهَا بِكُلِّ مَا أَخْبَرْتُهُ سَالِفاً. اسْتَحْضَرَتْ ذَكَرِي ذَلِكَ الْحَلْمَ بِقُوَّةٍ وَقَالَتْ:

- هَذَا هُوَ إِذَا الْأَمِيرَ الرَّائِعَ الْجَمَالَ، الْكَامِلَ، السَّعِيدَ الْحَظَّ الَّذِي كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْجِبَهُ! أَيُّهَا الْحَلْمُ الْمَخَادِعُ! أَيُّهَا الرُّؤْيَا الْمَشْهُومَةُ! أَيُّهَا الْجِنِّيَّاتِ، مَاذَا فَعَلْتُمْ لِكُنَّ حَتَّى تَسْخَرْنَ مِنِّي عَلَى هَذَا التَّحْوِ؟

وَإِذْ تَمْتَمَتْ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ رَأَتْ سِنْدِيَانَةَ أَمَامَهَا تَكْبُرُ فِجَاءً وَتَخْرُجُ مِنْهَا سَيِّدَةٌ مَتْرَيْنَةٌ بِأَجْمَلِ حَلَّةٍ. نَظَرَتْ إِلَيْهَا السَّيِّدَةُ بَوْدٌ وَهِيَ تَقُولُ لَهَا: - لَا تَحْزَنِي أَيُّهَا الْمَلِكَةُ الْكَبِيرَةُ لِأَنَّكَ أَنْجَبْتِ ذَنْباً. أَوْكَدَ لِكَ أَنَّهُ سَيَأْتِي وَقْتُ تَجْدِيدِهِ فِيهِ جَدِيداً بِالْحَبِّ.

تَعَرَّفَتْ إِلَيْهَا الْمَلِكَةُ فَهِيَ إِحْدَى الْجِنِّيَّاتِ الثَّلَاثِ اللَّوَاتِي مَرَّرْنَ فِي الْفِضَاءِ أَثْنَاءَ نَوْمِهَا وَتَوَقَّفْنَ مَتَمَّنِّيَّاتٍ لَهَا أَنْ تُرَزَّقَ بِوَلَدٍ.

أَجَابَتْ:

- يَصْعَبُ عَلَيَّ أَنْ أَصَدِّقَكَ يَا سَيِّدَتِي. فَمَهْمَا يَكُنْ ابْنِي ذَكِيًّا فَمَنْ ذَا

الذي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِبَّهَ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ؟

فأجابتها الجنّية مرّة أخرى:

- لا تحزني أيتها الملكة الكبيرة لأنك أنجبتِ ذئباً، أوكد لك أنه سيأتي وقت تجدينه فيه جديراً بالحب.

ودخلت من جديد إلى الشجرة التي غارت في الأرض لكأنها لم تكن موجودة في ذلك المكان.

دُهشت الملكة لهذه الرؤيا الجديدة وسُرت لأن تهتمّ الجنّيات بجلالة الأمير ابنها. ثم عادت بسرعة إلى القصر لكي تتحدّث مع الملك عن الأمر. لكنّه فكّر أنها تخيّلت تلك الوسيلة لكي تجدّ ابنها أقلّ قباحة.

قالت له:

- أرى من سيئاتك أنك لا تُصدّقني. ولكن الأمر الذي أخبرتك إياه للتوّ حقيقيّ، صدّقني.

قال الملك:

- إنه لأمرٌ محزن أن يحتمل المرء سخرية الجنّيات. ماذا بوسعهن أن يفعلن ليَجعلنَ وَلَدنا شيئاً آخرَ غيرَ ذئب؟ لا أفكر في الأمر إلاّ وأجد نفسي رازحاً تحت وطأة الألم.

انصرفت الملكة أكثر حزناً مما كانت عليه. ظنّت أنّ وعود الجنّية سوف تخفّف من حزن الملك. ومع ذلك لم يبدُ عليه أنه كان يستمع إليها. انصرفت مصمّمة كلّ التصميم على ألاّ تقول له منذ ذلك اليوم فصاعداً شيئاً عن ابنها وأن تترك للسماء أمرَ مواساة زوجها.

أخذ ذئب يتكلّم كما يفعل جميع الأطفال. كان يتمتم قليلاً وكانت الملكة تستمتع بسماعه رغم خشيتها من ألاّ يكون منضبطاً في كلامه. أصبح ضخم الجثة ويمشي على قائمته الخلفيتين. كان يرتدي سترات

طويلة تكسو ساقيه، وقلنسوة على الطريقة الانكليزية من المخمل الأسود لكي تغطي له رأسه وأذنيه وجزءاً من خطمه. كان طويل الأنياب، منتفش الوبر، فخور النظر، ومن حضوره تنبعث سطوبة مطلقة. كان يتناول طعامه في معلف من ذهب حيث يُحضر له الكما والبوط والفطر والعشب. وكانت تتم العناية بنظافته وتهذيبه. فُطِرَ على ذكاء عالٍ وشجاعة لا تُقهر. وكان الملك يعرف طباعه وبدأ يحبه أكثر مما فعل حتى ذلك الحين. جاء له بمعلمين أكفاء لكي يلقنوه كل ما يستطيعونه. لم يكن ينجح في أداء الرقصات المتصيفة بحركات معقدة؛ أما في رقصة الرجل والرقصة الثلاثية<sup>(1)</sup> اللتين يتطلبان أدائهما سرعة وخفة فكان مدهشاً. وفي ما يُخص الآلات الموسيقية، كان يعرف أن القيارة والون<sup>(2)</sup> لا يلائمانه، ولكنه كان يهوى الغيتار ويعزف على المزمار بإتقان. كان يصعد على ظهر الحصان بمهارة ورشاقة عجيبين، ولا يمر يوم إلا ويذهب فيه إلى الصيد منقضاً، بأسنانه أحياناً، على الوحوش الأكثر ضراوة وخطورة. كان مدربوه يجِدُونَ لديه ذكاء متوقداً وقدرة مذهشة متزايدة على فهم العلوم. لكنه شعر بمرارة إزاء قباحة هيئته الذئبية، وما تُثيرها من سخرية فَتَجَنَّبَ الظهورَ في المحافل العامة.

أمضى حياته في لا مبالاة هائلة إلى أن كان ذات يوم عند الملكة ودخلت عليها سيّدة ذات مرأى نضر، متبوعة بثلاث فتيات رائعات الجمال. ارتمت السيّدة عند قدمي جلالتها وتوسلت إليها لكي تستقبلها في قصرها، لأن وفاة زوجها ومصائب كبيرة أحالتها إلى الفقر المدقع. وأضافت أنه لا يخفى على الملكة أصلها النبيل، وكانت

(1) الرقصة الثلاثية: رقصة من رقصات القرن السابع عشر بثلاث حركات.

(2) الون: صنج يُضرب بالأصابع.

تأمل أن تشفقَ عليها فعجلة الدهر دارت وجعلتها في ذلك الوضع المزري. عندئذِ رَقَّ قلب الملكة لرؤية المرأة وبناتها مُرَمَّياتٍ عند قدميها فقَبَلَتْهُنَّ وقالت لهنَّ بأنَّها تستقبلهنَّ بكامل السرور. كانت الابنة البكر تدعى إيسمان والثانية زيلونيد والصغرى مارتيزي. ووعَدَتْهُنَّ الملكة بأنَّها سوف تعتني بهنَّ، وقوت من عزيمة الوالدة ثم أضافت أنَّ بإمكانها الاعتماد على صداقتهما، والبقاء في القصر مع بناتها حيث سيُحطَنَ بكبير الرعاية والاهتمام. انسَحَرَتِ الأمُّ بسَخاءِ الملكة وطيبتهما فقَبَلت يديها ألف مرَّة وغمرها شعور عارم بالطمأنينة لم تعرفه منذ أمدٍ بعيد.

شاعَ خبر جمال إيسمان في القصر وفتنَ بها فارس شابٌّ يُدعى كوريدون وكان جميلاً مُشرفاً مثلها. وأحسَّ في الوقت نفسه بانجذاب سريٍّ أحدهما تجاه الآخر. كان الفارس ودوداً إلى حدِّ بعيد، ومتألِّقاً، ومحبوباً من الجميع. وبما أنَّ هذه العلاقة كانت تعود بالفائدة على إيسمان، رنَّتِ الملكة راضيةً إلى الاهتمام الذي يوليه الفارس لإيسمان وكيف أنَّها كانت تُبادله الاهتمام نفسه. وأخيراً بدأ يجري الكلام عن زواجهما، وأنَّهما مخلوقانِ أحدهما للآخر. ولم يكن كوريدون يتوانى عن إقامة الحفلات الراقية وإظهار كلِّ أمارات المودة والحنان التي يهواها قلبُ مَسَّه الحبِّ.

إلا أنَّ الصبيَّ ذيبٌ أعجبَ بإيسمان ما إن رآها لكنَّه لم يجرؤ على أن يبوخَ لها بحبِّه. قال وهو ينظر إلى نفسه في المرأة:

- آه آه منك يا ذيب، هل يُعقل وأنت بهذه الهيئة الشنيعة أن تجرؤ على الأمل بأن تبادلكِ إيسمان الجميلة الحبِّ؟ يجب أن تقتلع منك هذا الشعور لأنَّه من بين المصائب جميعاً تبقى المصيبة الكبرى أن تُحبَّ دون أن تكون محبوباً.

كان يتعمد تجنّب رؤيتها، وبما أنّه لم يكن يفكر إلاّ بها فقد غرق في كآبة مرعبة: أصبح نحيلاً حتى بانّت عظامه؛ ولكنّ قلقة تفاقم عندما علم أنّ كوريدون يسعى علناً للزواج بإيسان، وأنها تُبدي له الكثير من التقدير، وأنّ الملك والملكة سيحتفلان بزفافهما في وقت قريب.

لدى سماعه هذه الأخبار، شعر أنّ حبه يزداد وأنّ أمّله يتناقص: بدّله أنّ إثارة إعجاب إيسان غير المبالية كانت أمراً صعباً، لكنّ أكثر صعوبة من ذلك إثارة إعجاب إيسان المقدرة لكوريدون. وأدرك أيضاً أنّ صمته يوشك أن يتسبّب بهلاكه. وأخذ يبحث عن فرصة ملائمة ليحدّث إيسان عن مشاعره، إلى أن رآها ذات يوم، جالسة تحت شجرة جميلة تغني بعض الكلمات التي ألفها حبیبها لها، فاقترَب منها والانفعال يهّزه، ثمّ جلسَ قريباً وسألها ما إذا كان صحيحاً ما يُقال عن زواجها الوشيك بكوريدون. أجابته إنّ الملكة أمرتها بأن تستجيبَ لاهتمامه وإنّه يجب أن يستتبع ذلك مشروعُ زواج. قال لها وهو يلفظ صوته:

- إيسان، أنت لا تزالين يافعةً جداً. لم يخطر لي أنّهم سيفكروَن بتزويجك. لو عرفتُ ذلك لاقترحتُ عليكِ الزواج بالابنِ الوحيدِ لملكٍ كبيرٍ يُحبُّك وسيكون في غاية السعادة بأن يُسعدك ويتزوجك. غمّر الشحوبُ وجهَ إيسان لدى سماعها هذه الكلمات. كانت لاحظت أنّ ذيب، الذي كان بطبعه جفولاً، يتحدث إليها بمتعة، ويُعطيها كلّ الكمأ الذي كان يعثر عليه في الغابة ويقدم لها الأزهار التي كانت تُزيّن قبّعتَه عادةً. خافت خوفاً عظيماً من أن يكون هو الأمير الذي يُحدّثها عنه. فأجابته:

- مولاي، أنا مسرورة جداً لأنّي أجهل مشاعر ابن هذا الملك

العظيم. ربّما كانت عائلتي التي تطمّح إلى الجاه أكثر منّي ستجبرني على الزواج به. ولكنني أسرّ لك أنّ قلبي مقدرٌ لكوريدون ولن يتغيّر أبداً.

أجابها:

- ماذا تقولين! ترفضين أميراً مُتوّجاً يفعل ما بوسعهِ ليروق لك؟  
قالت له:

- ليس هنالك شيء إلا وأرفضه في سبيل من أحبّ لأنّ حبّه أهمّ لي من الطموح. وأستخلفك يا سيّدي، بما أنّك تعرف هذا الأمير، أن تُلزّمه بأن يتركني بسلام.  
فَهتَفَ ذيب وقد نَفَدَ صَبْرَهُ:

- آه! يا لك من فتاة متهورّة! تعرفين جيّداً الأمير الذي أتحدّث عنه! هيئته لا تروق لك. لا تريدن أن تحملي اسم «السيدة ذئبة». لقد تعهدت بحبّ أبديّ لفارسك. ومع ذلك فكّري، فكّري بالفرق بيني وبينه. صحيح أنّني لست أدونيس<sup>(1)</sup>، لكنني ذئب مهيب. والجبروت يستحقّ بعض التقدير، وهو منبعّ لمسرّات كثيرة. إيسان، فكّري في الأمر، لا تخيبي أملي.

وإذ قال هذه الكلمات، بدّت عيناه ملتهبّتين واصطكّت أنيابه محدّثة صريراً ارتعشت له الفتاة المسكينة.

انصرف ذيب، وكانت إيسان في غمرة الاضطراب؛ راحت الدموع تنهمر من عينيها كالشلال. ثم وافاها كوريدون. لم يعرف العاشقان، حتّى ذلك اليوم، إلاّ حبّهما الرقيق المتبادل، ولم يعترض مساره شيء، وكانا يعدّان نفسيهما بأنّه سيّتوّج بزفاف قريب. فماذا صار بحال ذلك العاشق الشابّ عندما رأى الألم الذي يعترّي

(1) أدونيس: هو في الميثولوجيا الإغريقيّة فتى بالغ الوسامة عشقته أفروديت.



عشيقته الجميلة؟ ألحّ عليها في السؤال. وأخيراً أخبرته عن السبب  
فأثار ذلك الخبر اضطراباً عارماً في نفسه.

قال لها:

- لستُ قادراً على أن أُنبي سَعَادَتِي على حِسَابِ سَعَادَتِكَ. يُقَدِّمُ  
إِلَيْكَ عَرشَ وَعَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلِيهِ.

هتفت:

- أن أقبَلَه! أيتها السماء الرّحيمة! أنتَ تريدين أن أنساكَ وأتزوَّج  
مسخاً؟ يا للهول! ماذا فعلتُ لك لتقدّم لي النّصائح التي تتنافى  
والحبّ الذي يجمع قلوبنا؟

أحسنَ كوريدون بقلبه منقبضاً فلم يستطع أن يُجيبها. لكنّ الدّموعَ  
التي سألت من عينيه كانت أصدق تعبير عما يعتمل في نفسه. بادرت  
إيسمان، وقد ألمها كثيراً سوءَ حظّها العائر، إلى القول مراراً إنّ حبّها  
له لن يتغيّر وإنّ تقدّم لها جميع ملوك الأرض. تأثّر كوريدون بوفائها  
وقال لها مرّاراً أن تتركه لألمه القاتل، وأن تقبل العرض الذي يُقدّم  
لها.

وفيما كان هذا الجدال يدور بينهما، ذهب ذيب إلى غرفة الملكة  
يقول لها إنّ الأمل بشفائه من العشق الذي يكتنه لإيسمان أرغمه على  
الصّمت؛ عبثاً حارب شعوره هذا، لكنّها كانت على وشك الزّواج،  
ولذا يشعر بعدَم قدرته على تحمّل هذه المُصيبة، ويرغب في الزّواج  
بها أو الموت. تعجّبت الملكة كثيراً لسماعها الذّئب يتكلّم عن عشقه.  
أجابته:

- هل تفكّر بما تقوله؟ من سيرغب بك يا بُنيّ وأيّ أطفالٍ تُؤمّل  
نفسك بهم؟  
أجابها:

- إيسان في غاية الجمال ولا يُمكنها أن تنجب أطفالاً قبيحين.  
وإذا كانوا يُشبهونني فإنّي صممتُ على تولّي أمرهم، فهذا أفضل من  
أن أراها بين ذراعي رجلٍ آخر.  
أردفت الملكة:

- وهل تنبّهت إلى أنّك ترغب في فتاة أصلها دون أصلك.  
أجاب:

- أتحسبن أنّ ملكة على شيء من الرّهافة تقبل بأن تزوج ذنباً  
تعيساً مثلي؟  
أضافت الملكة:

- أنت مخطئ يا بُني. الأميرات يملكن أقل من سواهن الحرّية في  
الاختيار. سنرسم لك صوراً تظهر فيها أجمل من ملاك الحب نفسه،  
وعندما يُعقد الزواج وتصير زوجتك في حوزتنا، نرغمها على البقاء  
معنا.

قال:

- لست قادراً على القيام بهذه الخدعة. لا أستطيع أن أجعل  
زوجتي تعيسة فهذا يحملني على اليأس.  
هتفت الملكة:

- أو تظنّ أنّ تلك التي تُريدها لن تكون تعيسة أيضاً معك؟ من  
يحبّها جديراً بأن يُحبّها. وإذا كان الفرق فاضحاً بين الملك وفرد من  
أفراد رعيته فإنّ الفرق فاضح أيضاً بين ذيب وأجمل رجل في العالم.  
أجاب ذيب وقد استاء من الحجج التي تُقدّمها له الملكة:

- تبتالي يا سيدي. ألا يفترض بك أن تهوّن عليّ مُصيبي أكثر من  
أيّ شخص آخر: لماذا ولدتني ذنباً؟ أليس من الظلم أن تلوّمني على  
أمر لست مسببته؟

أضافت الملكة وقد رَقَّ قلبها كثيراً:

- لا ألومك على شيء: أريد فقط أن أقول لك إن تزوجت امرأة لا تحبك فستكون مُعذِّبها وستسقى أنت نفسك: لو عرفت كم يتعذب الأزواج من جراء هذه الزيجات المكروهة لما جازفت بالقيام بهذه الخطوة أبداً: أليس من الأفضل لك أن تبقى وحدك بسلام؟  
قال لها:

- يتوجب عليّ لذلك أن أكون أقلَّ عشقاً يا سيدي. أحبّ إسمان. إنها فتاة رقيقة وأظنّ أنّ ملاحظتها والتّاج الذي ينتظرها سيُليّنان من موقفها. أيّاً يكن، إذا كان قدري ألاّ أحبّ فأمل على الأقلّ أن أمتلك امرأة أحبّها.

وجدته الملكة متشبّهاً كثيراً بغرامه ذلك، ما أفقدها القوّة على ثنيه عنه. وعدته بأنّ تساعده في ما يتمناه، وفي الحال أرسلت في طلب والدّة إسمان. كانت تعرفها فهي امرأة طمّاعة وكانت لتضحّي ببناتها من أجل مكاسب دون الحكم أهميّة. ما إن قالت لها الملكة إنّها تتمنى أن يقترن ذيب بإسمان حتّى ارتمت عند قدميها مؤكّدة لها أنّ ما عليها إلاّ أن تعين يوم الزفاف.  
قالت لها الملكة:

- لكنّ قلبها مرتبط. لقد أمرناها بأن ننظر إلى كوريدون على أنّه الزوّج المقدّر لها.

أجابت المرأة العجوز:

- حسناً يا سيدي سنأمرها بأن ننظر إليه في المستقبل على أنّه ليس كذلك.

أضافت الملكة:

- لا يستشير القلب العقل دوماً. عندما يُصمّم القلب على شيء

فمن الصَّعب إخضاعه.

أجابت المرأة العجوز:

- إذا كان قلبها مصتماً على تنفيذ رغباتٍ مُنافيةٍ لرغباتي فسأقتلعه منها دون رحمة.

عندما رأت الملكة تصميمها أدركت أنه يمكنها الاعتماد عليها في إقناع ابنتها وحثها على الطاعة.

وبالفعل هرعت الأم إلى غرفة ابنتها. عندما علمت الفتاة المسكينة أن الملكة أرسلت في طلب والدتها، انتظرت عودتها بقلق بالغ. ومن السهل تصور تفاقم قلقها عندما قالت لها بلهجة قاسية وحازمة إن الملكة اختارتها زوجة لابنها وإنما تحظرُ عليها التحدث إلى كوريدون منذ ذلك الحين فصاعداً وإته إذا لم تُطعها فسوف تُخنيها. لم تجرؤ إيسمان على أن ترد بشيءٍ إزاء هذا التهديد. لكنّها بكت بكاءً مرّاً، وشاع الخبر بأنها ستزوّج ذيب لأن الملكة حملت الملك على الموافقة، وأرسلت إليها أحجاراً كريمة لتزين بها عند مجيئها إلى القصر.

رازحاً تحت وطأة اليأس، جاء كوريدون لموافاتها واستطاع الوصول حتى جناحها الخاص بالرغم من كل الموانع التي اعترضت طريقه. ألقاها مضطجعة على سرير للراحة، ووجهها غارق في دموعها. ارتمى على ركبتيه قربها وأخذ يدها.

قال لها:

- يا لحسرتي أيتها الفاتنة إيسمان! إنك تبكين مصائبى.

أجابته:

- لكن مصائبك مصائبى. أنت تعرف يا عزيزي كوريدون ما هو الحكم الذي سيتخذ بي. لا أستطيع تجتنب الإكراه الذي يفرضونه عليّ إلا بالموت. أجل، وسأقدر على الموت، وأؤكد لك، فأنا أفضل أن

أَموتَ على أن أكونَ لِسِواكَ.

قال لها:

- لا، عِيشِي، ستَكُونِينَ مَلِكَةً ولَعَلَّكَ سَتَعْتادِينَ على هذا الأميرِ المَخيفِ.

- ليسَ هذا في مَقْدورِي، لا أَتَصوّرُ شَيْئاً في العالَمِ أَشَدَّ هَوَلاً من زَوجِ مِثْلِهِ. إنَّ تاجَهُ لَن يُلَطَّفَ أبداً من آلامِي.

أضَاف:

- إنَّ السَّماءَ سَتَقِيكَ شَرّاً هذا القَرارِ المَشوومِ يا إِيسمانَ اللّطيفَةِ! لا يَلِيقُ مِثْلُ هذا القَرارِ إلّا بِي.

أجابَت:

- إذا مَتَّ فلَن أَعِيشَ بَعْدَكَ. وأشعرُ بيبعضِ العِزاءِ عِندَما أَفكّرُ أنَّ المَوتَ سَيَجْمَعُنَا على الأَقْلِ مَجْدداً.

كانا مُستَرسِلينَ في حَدِيثِهما وإِذا بذيَبِ يَدخُلُ الغُرفةَ بَغتَةً. بَعْدَ أن أَخبرَتَهُ المَلِكَةُ بِما فَعَلتَهُ لِأجلِهِ، هَرَعَ إلى إِيسمانَ لِيُعبّرَ لها عن فَرَحَتِهِ. وَلَكِن حُضُورَ كورِيدونَ أَثارَ فيهِ اسْتِياءً عارِماً. كانَ ذا طَبَعِ غِيبورِ وِجُوجِ. أَمْرَهُ بِنِزْرَةٍ فيهِا الكَثيرِ من طِباعِ الذُّبِ أن يَخْرُجَ وألّا يَعودَ لِلظَّهورِ في القِصرِ.

هتفت إِيسمانَ وهِيَ تَسْتوقِفُ ذلكَ الَّذِي تَحَبُّهُ:

- وَلَكِن ماذا تَظُنُّ أَيُّها الأميرُ؟ هل تَظُنُّ أَنَّكَ قادِرٌ على مَحْوِهِ من قَلبِي؟ لا، إِنَّهُ مَحفورٌ فيهِ عَميقاً: لا تَغفُلُ عن شِقاكَ أنتَ يا من تَسبَّبَ بِشِقاكِي: هو وحده العَزيزُ الغالي عَلِيّ. أمّا أنتَ فلا تثيرِ في إلّا الخَوفَ.

قال ذِيبُ:

- وأنا، أَيُّها المَهجِيةُ، لَيسَ لَدَيّ إلّا الحَبُّ تَجاهَكَ. لا يُجَدِّدُكَ

نفعاً أن تُظهري لي كلَّ حقدِكِ فهذا لن يمنعكِ من أن تكوني زوجتي  
لا بل إنه سيزيد في عذابكِ.

شعرَ كوريدون باليأسِ لأنَّه تسبَّبَ لِعَشيقَتِهِ بذلك الشَّقَاءِ الجَدِيدِ،  
وخرجَ في اللَّحظةِ التي دخلتِ والدَّةُ إيسمان لتلوم ابنتها على تصرُّفها  
المُشين. طمأنتِ الأمُّ الأميرَ على أنَّ ابنتها سوف تنسى كوريدون إلى  
الأبدِ وأنَّه لا يجوزُ أبداً أن يُصارَ إلى تأجيلِ عرسِ رائعِ كعرسِهما. قال  
ذيب، وكان يوافقها الرأيَ تماماً، إنَّه سيُحدِّدُ موعدَ الزَّفافِ بالتشاورِ  
مَعَ الملكةِ لأنَّ الملكَ تركَ لها أمرَ الاهتمامِ بتلكِ المناسبةِ العظيمةِ. في  
الواقعِ، لم يشأَ الملكُ التَّدخُلَ لأنَّ ذلكَ الزَّواجُ بدأ له بغيضاً ومُثيراً  
للسخريةِ لا سِيباً وأنَّه كانَ مستاءً من أنَّ يستمرَّ النسلُ الذَّبيبيُّ في  
البيتِ الملكيِّ. وكانَ حزيناً مغتماً جداً للخضوعِ الأعمى الذي تبديه  
الملكةُ لابنتها.

كانَ ذيبٌ يَخشى أن يتراجعَ أبوه الملكُ عن موقفه المؤيِّدِ على  
مضضٍ لذلكِ الزَّواجِ. ما دفعه للإسراعِ في إعدادِ تحضيراتِ العرسِ.  
أمرَ بِخياطةِ سروالٍ له وجواربِ نصفيةٍ وصديريَّةٍ معطَّرةٍ. طُرِّزَ  
معطفه بالأحجارِ الكريمةِ، ووُضعتِ على رأسه لمةٌ شعرٍ مستعارٍ  
شقرَاءِ شقرةِ الأطفالِ وقبعةٌ مكسوَّةٌ بالريشِ. لم يسبقَ أن شوَّهَ أحدٌ  
على شاكلتهِ ولولا المصيبةِ المقترنةِ بزواجهِ لما كانَ بالإمكانِ النَّظرُ إليه  
دونِ ضحكٍ. ولكن، يا للأسفِ، قلِّما كانتِ تغتري إيسمان الرِّغبةُ في  
الضَّحكِ. عبثاً وَعَدوها بمظاهرِ الأبهةِ والعظَمَةِ لأنَّها كانتِ تحتقرُها  
جميعاً ولا تستشعرُ إلا بالنَّحسِ وسوءِ الطَّالعِ اللذينِ لا بدَّ أنَّهما يسمانِ  
حياتها.

رأها كوريدون أثناءَ مرورها إلى المعبدِ: لكأَنَّها ضحيَّةٌ جميلةٌ تُساقُ  
إلى الذَّبْحِ. ابتهجَ ذيبٌ لرؤيتها وتوسَّلَ إليها أن تُبَعِدَ عنها شبحَ ذلكِ

الحزن العميق الذي تبدو رازحة تحته ثقله لأن كل ما يطمح إليه هو أن يجعلها سعيدة لا بل أن تحسدها جميع ملكات الأرض على سعادتها، وأضاف:

- أعترف أنني لست جميلاً، ولكن يُقال إن جميع الناس لديهم بعض التشابه مع الحيوانات. أشبه أنا أكثر من أي واحد آخر ذئباً. هذا هو شبيهي بين الحيوانات: لا يجدرُ بكِ بسبب ذلك أن تجديني أقل لطفاً، ولا تنسي أن قلبي مليء بالمشاعر ويكمن لكِ عشقاً كبيراً. لم تجبه إسمان بل نظرت إليه باحتقار ثم رفعت كتفيها استهزاء تاركةً لظنونه التخمين بكل ما كانت تشعر به حياله من قرف. كانت والدتها تتعقب خطاها موجهةً إليها ألف تهديد.  
قالت لها:

- أيتها البائسة! هل تريدان إذاً أن يتسبب هلاكك بهلاكنا؟ ألا تخشين أن يتحول حب الأمير إلى غضب مسعور؟  
لم تُعرِ إسمان، المستغرقة في همها، انتباهاً لهذه الكلمات. كان ذيب يُمسكها من يديها ولم يستطع الامتناع عن القفز والرقص هامساً لها في أذنها بألف كلمة حلوة. وأخيراً بعد أن انتهى حفل الزفاف وبعد أن هتف الجمع ثلاث مرّات «يحيا الأمير!، تحيا الأميرة!»، اصطحب الزوج زوجته إلى القصر حيث أعدت وليمة بديعة. جلس إليها الملك والملكة، وجلست العروس قبالة ذيب الذي كان يلتهمها بنظراته لشدة إعجابه بجمالها. لكنّها كانت مستغرقة في حزن عميق فلم تر شيئاً مما يجري من حولها، ولا كانت تسمع الموسيقى ولا الجلبة الصاخبة التي تحدثها.

جذبتها الملكة من ثوبها وقالت لها في أذنها:  
- يا بنيتي، أتركي هذه الوحدة القائمة إذا أردت أن تروقي لنا.

يبدولي لَكَأَنَّهُ يَوْمُ جَنَازَتِكَ وَلَيْسَ يَوْمَ عَرَسِكَ.

قالت لها:

- يا مولاتي، لَيْتَ السَّمَاءُ تَجْعَلُهُ آخِرَ يَوْمٍ فِي حَيَاتِي! لَقَدْ أَمَرْتَنِي بِأَنْ أَحَبَّ كَوْرِيْدُونَ. لَقَدْ مَنْحَتْهُ قَلْبِي بِخِيَارِ مَنْكَ. وَلَكِنْ يَا لِلْأَسْفِ! إِذَا كُنْتُ غَيَّرْتُ رَأْيَكَ بِخُصُوصِهِ فَأَنَا لَمْ أَتَغَيَّرْ مِثْلَكَ.

أجابت الملكة:

- لَا تَتَكَلَّمِي هَكَذَا، فَهَذَا يَجْعَلُنِي أَحْمَرَ خَجَلًا وَغِيظًا. تَذَكَّرِي الشَّرْفَ الَّذِي أَوْلَاكَ إِتَاهَ ابْنِي بِزَوْاجِهِ بِكَ، وَالْإِمْتِنَانَ الَّذِي تَدِينِينَ لَهُ بِهِ.

لَمْ تُجِبْ إِسْمَانَ بِشَيْءٍ، بَلْ خَفَضَتْ رَأْسَهَا بِعَذُوبَةٍ وَاسْتَعْرَقَتْ فِي حُلْمِهَا السَّابِقِ.

كَانَ ذَيْبٌ حَزِينًا جَدًّا حَيَالِ التَّفَوُّرِ الَّذِي تَبَادِرُهُ بِهِ زَوْجَتَهُ. حَتَّى إِنَّهُ تَمَنَّى لِلْحِظَّةِ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ. وَأَرَادَ أَنْ يُبْطِلَ ذَلِكَ الزَّوْاجَ فِي الْحَالِ وَلَكِنْ قَلْبُهُ كَانَ يَنْهَاهُ عَنِ ذَلِكَ. بَدَأَتْ الْحِفْلَةَ الرَّاقِصَةَ، وَتَأَلَّقَتْ فِيهَا أُخْتَا إِسْمَانَ اللَّتَانِ لَمْ تَكُونَا آبِهَتَيْنِ كَثِيرًا بِأَحْزَانِ شَقِيْقَتَيْهِمَا، بَلْ كَانَتَا تَتَخَيَّلَانِ بِفَرَحِ الْحِظْوَةِ الَّتِي سَيَأْتِي بِهَا لِهَمَّا ذَلِكَ الْقِرَانَ. رَقِصَتْ الْعُرُوسُ مَعَ ذَيْبٍ وَكَانَ شَيْئًا مَرْعِبًا حَقًّا أَنْ تَرَى هَيْئَتَهُ وَأَكْثَرَ مِنْهَا رُغْبًا أَنْ تَكُونَ زَوْجَتَهُ. عَمَّ الْحُزْنَ أَجْوَاءَ الْقَصْرِ وَغَابَتْ عَنْهُ كُلُّ بَهْجَةٍ. لَمْ تَدْمِ الْحِفْلَةَ إِلَّا وَقْتًا قَصِيرًا. وَاقْتِيدَتْ الْأَمِيرَةَ إِلَى جَنَاحِهَا. وَبَعْدَمَا نَزَعَتْ وَصِيْفَاتِهَا الثِّيَابَ عَنْهَا، انْسَحَبَتِ الْمَلِكَةُ. انْدَسَّ الْعَاشِقُ ذَيْبٌ فِي الْفِرَاشِ سَرِيعًا. قَالَتْ لَهُ إِسْمَانُ إِنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ رِسَالَةً. دَخَلَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ وَرَاءَهَا مَعَ أَنَّ ذَيْبَ كَانَ يَصْرُخُ بِهَا أَنْ تَنْهِيَهَا بِسُرْعَةٍ لِأَنَّ الْوَقْتَ لَمْ يَكُنْ وَقْتًا مَرَاسِلَةً.

وَيْلٌ لَهَا! عِنْدَمَا دَخَلَتْ إِلَى تِلْكَ الْغُرْفَةِ رَأَتْ فَجَاءَةً وَيَا لَهَوْلِ مَا



رأت: كوريدون تعيسَ الحظَّ! كان أفعَ إحدى وصيفاتها لكي تفتح له باب الدَّرَج السَّرِيّ فدخَلَ منه.

قال لها وهو يمسِكُ خنجرًا في يده:

- لا تظنّي أيتها الأميرة الفاتنة أنّي أتيتُ إلى هنا لكي ألوّمك على تخليّكِ عني: لقد تعهدتِ لي في بداية حُبنا أنّ قلبك لن يتغيّر أبداً. ومع أنّك وافقتِ على التخليّ عني إلا أنّي ألوّم السماء بدلاً منك. ولكن لا أنتِ ولا هي لتقدرا على جعلي أحمَل مثل هذه المصيبة الأليمة. خسرتكِ أيتها الأميرة، ولم يعد لحياي معنى.

لم يكذبني هذه الكلمات حتى أغمَد الخنجر في قلبه.

لم يتسع الوقت لإسمان كي يُجيبه أو تردعه.

هتفتُ بألم:

- لقد متّ يا كوريدون العزيز. لم يعد لديّ ما أفعله في هذا العالم.

كلّ أبتة وعظّمة ستكون مقبّية بالنسبة إليّ. ولن أقدر على تحمّل ضوء النهار.

لم تقل إلا هذا. ثم استلّ الخنجر نفسه الذي كان لا يزال بخار الدّم الساخن يتصاعد منه، دم كوريدون، وطعته في صدرها فسقطت جثة هامدة.

كان ذيب ينتظر إسمان الجميلة بفارغ الصبر. لاحظ أنها تأخّرت في العودة. ناداها بكلّ قواه فلم تُجِب. تولاه غضب شديد ونهض مرتدياً مبذل النّوم ثم ركض باتجاه باب الغرفة فخلّعه ودخل: يا لدّهشته عندما رأى إسمان وكوريدون جثتين هامدتين. أو شك أن يموت حزناً وغضباً؛ كانت مشاعره يُخالطها الحبّ والحقد، ما تسبّب له بعذاب كبير. كان يحبّ إسمان ولكنه يعرف أنها لم تقتل نفسها إلا لتخلّص دفعة واحدة من رباط الزواج الذي يجمعها به. هُرِعَ

الحراس يجبرون الملك والملكة بما جرى في جناح الأمير. وتصاعد العويل والتّحيب في أرجاء القصر. كانت إيسان محبوبه وكان كوريدون محترماً. لم يشأ الملك أن يتدخل في أمور ذيب كما تفعل الملكة وترك لها أمر مواساته.

وضعت في السرير وامتزجت دموعها بدموعه. وعندما كفّ لبعض الوقت عن نحيبه وشكواه مفسحاً لها المجال لكي تتكلم حاولت إيفاهمه أنّه محظوظ لكونه تخلص من فتاة لن يسعها أن تحبه أبداً لأن قلبها ملك رجل آخر، ومن المستحيل أن يمحي العشق الكبير من قلب العاشق. يجدر به إذاً أن يكون سعيداً لأنه خسرّها.

هتف:

- لا يهّم، كنت أود امتلاكها حتى لو كانت غير وفيّة لي. لا أستطيع الادّعاء أنّها كانت تسعى لخداعي أو تتظاهر بالتودد إليّ. لقد أظهرت لي دوماً هلّعها واشمئزازها منّي. أنا السبب في موتها وكم ألوم نفسي على ذلك!

رأته الملكة في غاية الحزن فأحاطته بالأشخاص الذين يستلطفهم، وانصرفت إلى غرفتها.

عندما خلّدت إلى النوم، تذكّرت كلّ ما حصل لها منذ رأت حلم الجنيات الثلاث. قالت:

- ماذا فعلتُ لهنّ لكي يُنزِلنّ بي كلّ هذه المصائب المريعة؟ كنت أمل أن أرزق بابن لطيف وفاتن. فجعلته ذنباً ومسحاً حقيقياً: لقد فضّلت إيسان المسكينّة الموت على العيش معه. ولم يحظّ الملك بلحظة سعادة واحدة منذ ولادة هذا الأمير العديم الحظ. وبالنسبة لي يمضني الحزن كلّما رأيته.

كانت مستغرقة في أفكارها تلك عندما أبصرت نوراً باهراً في

غرفتها. رأت قرب سريرها الجنينة التي خرجت من جذع الشجرة في الغابة. قالت لها:

- أيتها الملكة! لماذا لا تريدن تصديقي؟ ألم أؤكد لك أنك ستلقين السرور والرضا لأنك رزقت بذئب؟ هل تشكين بصدق كلامي؟  
قالت:

- ومن لا يشكّ به! لم أر حتى الآن أي شيء يتطابق مع كلامك! ليتك تركتني حتى آخر عمري دون وريث بدل أن ترزقيني بابن كهذا!  
أجابتها الجنينة:

- نحن ثلاث شقيقات. اثنتان منا صالحتان والثالثة تُفسد دوماً الخير الذي نفعله. هي التي رأيتهما تضحك أثناء نومك. لولانا لكانت ألامك أطول أمداً لكن ستكون لها نهاية.  
- عندما تنتهي حياتي! أو حياة ذئب!  
أردفت الجنينة:

- لا أستطيع أن أعلمك بأكثر من هذا. سُمح لي فقط بأن أواسيك فأضع في قلبك بعض الرجاء.  
واختفت في الحال. بقيت الغرفة مفعمة برائحة عطرة لذيذة. وأملت الملكة بتغيير ما لصالحها.  
ومكث ذئب في حداد كبير. أمضى أياماً عدّة في غرفته وهو يُجربسُ على الورق حشرات مريرة على فقدان الحبيبة. لا بل إنه أراد أن تحفر هذه الكلمات على قبر زوجته:

أيها القدر القاسي، أيها الحكم المبرم!  
إيسان ها أنت تنحدرين إلى ظلمات الليل الأبدي:

عينك، اللتان لهما أن تفتتا القلوب قاطبة،  
عينك هاتان أغمضتا إلى الأبد.  
أيها القدر القاسي، أيها الحكم المبرم.  
إيسمان ها أنت تنحدرين إلى ظلمات الليل الأبدي.

دُهِشَ الجميع عندما أدركوا أنّ ذيب يحتفظ بذكرى رقيقة حيال  
فتاة أظهرت له نفوراً هائلاً. ثم بدأ شيئاً فشيئاً يتردد إلى مجمع  
السيدات وهناك التقى زيلونيد شقيقة إيسمان التي كانت تضاهيها  
فتنة وتشبهها كثيراً، ما أثار إعجابه الشديد. عندما تحدّث إليها وجدّ  
لديها ذكاءً وحيوية. وظنّ أنّه إذا كان هناك امرأة تستطيع تعزيبته  
عن خسارة إيسمان فهي الشابة زيلونيد. كانت تُظهر له الكثير من  
الاحترام والودّ ولم يكن يُحطّرُ بِبِالِهَا قَطُّ أنّه يُريد أن يتزوَّجها؛ لكنّه مع  
ذلك اتَّخذ قراره. وذات يوم كانت الملكة وحيدة في غرفتها فذهب  
إليها مبتهجاً أكثر من العادة. قال لها:

- مولاتي، جئتُ أطلب منك خدمة متوسلاً إليك في الوقت نفسه  
إلاّ تُثنيني عن قراري فلا شيء في العالم بوسعِهِ أن ينتزع منّي الرّغبة في  
الزّواج من جديد. أعطيني موافقتك ومعونتك، أستحلفك بذلك:  
أريد أن أتزوَّج بزِيلُونِيد. تحدّثي عن ذلك إلى والدي حتّى لا تُبِتَّ  
هذه المسألة بسرعة.

قالت الملكة:

- آه! يا بُنَيّ، قل لي ما الذي تخطّط له؟ هل نسيت اليأس الذي  
أصاب إيسمان وميتها المأساوية؟ كيف تستطيع أن تأمل بأنّ شقيقتها  
سوف تحبّك أكثر؟ هل أنت جدير بالحبّ أكثر من ذي قبل، هل  
صرت أقلّ ذنبية؟ أو أقلّ إثارة للرّعب؟ كُنْ متعلّلاً يا بُنَيّ، لا تُعرّض

نفسك كل يومٍ لمخاطرٍ جديدة. مَنْ له هيئتك، عليه بالاحتجاب عن الأنظار.

أجاب ذيب:

- أوافقك يا سيدي لكتني أريد الزواج لكي أحتجب عن الأنظار. أريد شريكة. طيور البوم تجد رفيقة لها والضفادع والأفاعي أيضاً فهل أنا دون هذه الحيوانات المقيتة؟ لكتك تسعين إلى إتعاسي، ويبدو لي مع ذلك أنني ذئب يتحلّى بمزايا أكثر من كل تلك البهائم التي سميتها.

قالت الملكة:

- يا بُني العزيز تشهد السماء على الحب الذي أكنّه لك والحزن الذي يتولاني عندما أراك! عندما أحتك على اللجوء إلى العقل فهذا ليس لأني أسعى إلى إتعاسك. أريدك أن تحصل على زوجة وأن تكون قادرة على حبك بقدر ما أحبك. لكن هناك فارقاً بين مشاعر الزوجة ومشاعر الأم.

قال ذيب:

- أخذت قراري. أتوسل إليك يا سيدي أن تتحدثي منذ اليوم إلى الملك وإلى والدة زيلونيد، لكي يُصار إلى الإسراع في زواجي. أعطته الملكة كلمتها، ولكن عندما حدثت الملك بذلك، قال لها إن لديها ضعفاً غريباً تجاه ابنها لكنه أكيد من أن كارثة ستقع من جراء ذلك الزواج المدبر بشكل سيء. ومع أن الملكة كانت توافقه الرأي إلا أنها لم تُفصح عن ذلك لأنها أرادت أن تفي بوعدها لابنها. فما كان منها إلا أن حثت الملك على الموافقة فقال لها والتعب يخالجه إنها تستطيع أن تفعل ما تشاء، وإذا نتج عن ذلك ما لا تُحمد عقباه عليها ألا تلوم إلا نفسها.

عادت الملكة إلى جناحها ووجدت فيه ذيب الذي كان ينتظرها بفارغ الصبر. قالت له إنه يستطيع أن يعلن عن مشاعره لزيلونيد، وإن الملك يوافق على ما تتمناه شرط أن توافق هي نفسها لأنه لا يريد أن تتسبب السلطة التي يتقلدها بإتعاس الآخرين.

قال لها ذيب متبجحاً:

- أوكد لك يا سيدي أنك الوحيدة التي تفكر بي بهذا الاحتقار. لا أرى أحداً إلا ويمتدحني مُشيراً إلى الفضائل العديدة التي أتحملي بها.

قالت الملكة:

- هكذا هم أفراد الحاشية، ذاك هو شرط الأمراء. الناس قسبان: المداحون والممدوحون. فكيف بالإمكان أن يتعرف الإنسان على أخطائه في مثل هذه المتاهة؟ آه كم سيكون كبار القوم سعداء لو أن لديهم أصدقاء يتعلقون بشخصهم أكثر مما بشروتهم!

أجاب ذيب:

- لا أعرف يا سيدي إذا كانوا سيشعرون بالسعادة لسماعهم حقائق بغیضة. لا أحد يحب ذلك أياً تكن المرتبة التي يتصف بها. بماذا يُفيدني مثلاً أن تُفهميني دوماً أنه ليس هنالك فارق بين ذئب وبينني وأنني أثير الرعب وعلي الاحتجاب عن الأعين؟ ألا أدين لهؤلاء الذين يُلطّفون تعاستي ويكذبون عليّ لصالحني ويتسترون على العيوب التي تُمعنين أنت في كشفها لي؟

هتفت الملكة:

- آه منك أيها العرور! كيفما التفتنا وجدناك دوماً وفي كل مكان. نعم يا بُني أنت جميل، أنت وسيم، أنصحك بأن تواصل تقديمك الهبات لمن يُرضون غرورك.

قال ذيب:

- سيدي، لست بغافل أبداً عن عيوبي لا بل أشعر بها أكثر من أيّ كان. لكنني لا أملك القدرة على أن أكون أطولَ قامَةً أو أجملَ هيئةً، ولا أن أتخلى عن وجه الذئب لأتمتع برأس رجل مزين بشعر طويل. أوافق على أن يوجه إليّ اللوم فيما يتعلق بسوء المزاج والظلم والبخل، أي كلّ الأشياء التي بوسعها أن تُصحح ولكن فيما يخص شخصي فأنت توافقين على أنني أدعو للرتاء وليس للوم.

وإذ رأت الملكة أنه مكتئب قالت له إن باستطاعته رؤية زيلونيد والاتفاق معها ما دام مُصرّاً على الزواج كلّ ذلك الإصرار. كان متلهّفاً لإنهاء المحادثة مع والدته. فما كان منه إلا أن هرعَ لرؤية زيلونيد فدخَلَ غرفتها دون مُراعاة لقواعد الأدب. وإذ وَجدها في ديوانها، قتلها وقال لها:

- يا أختي الصغيرة. جئتُ أتبتك بخبرٍ سيروق لك بالتأكيد: أريد أن أزوّجك.

قالت له:

- سيدي، أن أتزوج على يدك فهذا قمة ما أطمح إليه!

قال:

- إنه أحد أكبر أسياذ الملكة لكنه ليس جميلاً.

قالت:

- لا يهمّ. أمي قاسية جداً معي وسأكون سعيدة جداً إذا تغيّرت ظروف حياتي.

أضاف الأمير:

- هذا الذي أحدثك عنه يشبهني كثيراً.

نظرت إليه زيلونيد بانتباه وبدت متفاجئة.

قال لها:

- تلزمين الصّمت يا أختي الصّغيرة، هل تفعلين هذا فرحاً أم حزناً؟

أجابت:

- سيدي، لا أذكر أنني رأيت أحداً في البلاط يشبهك.  
قال:

- ماذا! ألا يمكنك أن تحزري بأنني أحدثك عني؟ نعم يا طفلي العزيزة، أحبك وأتيت لأعرض عليك أن تشارِكيني قلبي وعزشي.  
هتفت زيلونيد بنبرة أليمة:  
- أيتها السماء! ماذا أسمع؟  
قال ذيب:

- ما سمعته أيتها الجاحدة، ويُفترض به أن يسعدك ويرضيك أكثر من أي شيء في العالم. هل كنت تأملين يوماً أن تصيري ملكة؟ إنه تنازل كبير مني أن أزنو إليك. فكّري بأن تستحقي حبي ولا تقلدي إيسهان في نزعها الجنوني.  
قالت له:

- لا، لا تخش أن أنني أيامي كما فعلت هي ولكن يا سيدي، هناك الكثير من الفتيات اللواتي هن أكثر ودّاً وطموحاً مني. فلم لا تختار لك واحدة تقدّر بشكل أفضل الشرف الذي تخصني به؟ أعترف لك أنني لا أتمنى إلا حياة هادئة ومنعزلة. دعني أكون سيّدة مصيري.  
هتف:

- لا تستحقين البتة الإكراه الذي أفرضه عليك لأرفعك على العرش. لكن قدراً محتوماً يرغمني على الزواج بك.  
لم تجب زيلونيد بشيء إلا بدموعها.



غادرها مفعماً بالألم وذهب لزيارة حماته ليفصح لها عن نيته الاقتران بزيلونيد عسى أن تحثها على الاستجابة طوعاً لرغبته. روى لها ما جرى بينهما والنفور الذي أبدته حيال زواج يثرها ويثري عائلتها. كانت الأم الطماعة مدركة تماماً للحسنات المترتبة على مثل تلك الزيجة. عندما انتحرت إيسمان كان حزنها على مصالحها أكثر منه على خسارتها ابنتها. شعرت بفرح عظيم أن يعرب ذيب القدر عن رغبته بمصاهرة جديدة لعائلتها. أرتمت عند قدميه وقبلته وشكرته ألف مرة على ذلك الشرف الذي يؤثر بها تأثيراً عميقاً.

وأكدت له أن زيلونيد سوف تنصاع إليه وإلا فإنها ستطعنها بالخنجر أمام عينيه.

قال ذيب:

- أعترف لك أنه يصعب علي أن أكرهها على شيء. لكنني إذا كنت أريد الانتظار لكي تمنحني فتاة قلبها فسأنتظر طيلة حياتي. جميع الجميلات يجذبنني قبيحاً لكنني مع ذلك صممت ألا أتزوج إلا فتاة جميلة.

أجابت العجوز الماكرة:

- معك حق يا سيدي. يجب إرضائك. وإذا كُنْ مستاءات فهذا لأنهن لا يعرفن مصالحهن الحقيقية.

وقوت من عزيمة ذيب. قال لها إن الأمر منته إذا وإنه سيصم أذنيه عن بكاء زيلونيد وتوسلاتها. عاد إلى عشيقته وقدم لها سلالاً من الذهب مليئة بالجواهر فلم تجرؤ على رفضها لأن والدتها كانت حاضرة. لكنّها أبدت عدم اكتراثها بكل ما يُقدّم لها، ولم تهتم إلا لخنجر غمده مزدان بالألماس. أمسكته مرّات عدّة ووضّعته في حزامها لأن السيدات في تلك البلاد كنّ يحملنّه بشكلٍ عاديّ.

ثم قالت:

- هل أنا مخطئة أم أنه الخنجر نفسه الذي اخترق أحشاء أختي المسكينة.

قيل لها:

- لا نعرف يا سيدي ولكن إذا كنتِ تعتقدين ذلك فيجب إذاً ألاّ تترّيه.

قالت:

- على العكس، أمتدح شجاعته. طوبى لتلك التي تملك شجاعة مثلها.

هتفت مارتيزي:

- آه منك يا أختي! ما هذه الأفكار المشؤومة التي تدور في ذهنك! هل تريد الموت؟

أجابت زيلونيد بلهجة حازمة:

- لا! إنّ المذبّح لا يليق بضحية كهذه، ولكن تشهد السماء على أن....

ولم تستطع أن تقول أكثر. خنقت دموعها شكواها وصوتها. أعلم ذيب بالطريقة التي تلقت بها زيلونيد هديته فاستاء جداً منها وأوشك أن يُبطل زواجه بها ويمتنع عن رؤيتها طيلة حياته. ولكن، إنا حباً بها وإنا تعظيماً لنفسه، لم يشأ أن يفعل ذلك وصمم على مواصلة خطته السابقة بأقصى سرعة ممكنة. وأوكل إليه الملك والملكة أن يُعنى بذلك الاحتفال الكبير. فأمر بأن يكون بديعاً، ولكن يبقى في كل ما يفعله شيء من ذوق الذئب الخاص جداً: أُجريت حفلة الزفاف في غابة فسيحة حيث وُضعت طاولات محملة بلحم الطرائد لكل الحيوانات الضارية والمتوحشة لتأكل وتشارك في

وإلى ذلك المكان بالذات ذهبت زيلونيد التي رافقتها والدتها وشقيقتها لثوافي الملك والملكة وابنها الذئب وجميع أفراد البلاط تحت أشجار كثيفة الأغصان حيث سيقام زفاف العريسين الجديدين ويتعاهدان فيه على حبٍّ أبديّ. لم يشقّ على ذيب إطلاقاً أن يتعهد بذلك، ولكن كان واضحاً لزيلونيد أنها تنصاع للأمر بنفورٍ وشمزازٍ كبيرين. ولكن هذا لا يعني أنها لم تزغم نفسها على تمالك أعصابها وإخفاء جزءٍ من استيائها. تظاهر الأمير بأن كل شيء على ما يرام متصوّراً أنها في النهاية ستخضع للواقع المحتوم ولن تفكر إلا في إرضائه. وهذه الفكرة أرجعت له كل المزاج الرائق الذي فقده. وخلال الوقت الذي استغرقه البدء بالاحتفال، سارع ليتنكر بزيّ فلكيّ يرتدي ثوباً طويلاً. كان هناك سيدتان فقط من أشرف القصر تشاركان في الحفل التنكري. وأراد أن يبدو مُشابهاً لهما بحيث يصعب تفريقه عنهما. ولم يكن سهلاً والحالة هذه التفريق بين نساءٍ جميلاتٍ وذئبٍ قبيحٍ مثله.

كانت واحدة من تينك المرأتين مؤتمنة على أسرار زيلونيد. ولم يكن ذيب غافلاً عن ذلك، وقد أعدّ تنكره ذاك على سبيل الفضول. بعد أن استهلّت الحفلة برقصة باليه، ولكن بشكلٍ وجيز، فلا شيء يُتعب الأمير مثل تلك الرقصة، اقترب من عروسته وقام لها ببعض الإشارات باتجاه أحد الفلكيين المتنكرين ما أقنع زيلونيد بأن صديقتها كانت قربها وتدلّها على ذيب.

قالت:

- يا مصيبتني! أعرف، إنه ذاك المسخ الذي أعطني إياه السماء الغاضبة زوجاً لي، ولكن إذا كنت تحبيني فسُطّهر الأرض منه هذه

الليلة.

فهم ذيب مما قالته أن الأمر متعلق بمؤامرة عليه. فقال لزيلونيد بصوت خفيض جداً:  
- أنا رهن أو امرك.

أضافت:

- أمسكي إذاً هذا الخنجر الذي أرسله لي. عليك الاختباء في غرفتي وأن تساعديني على ذبحه.

لم يُجِبها ذيب إلا بكلمات قليلة خوفاً من أن تعرف رطانتها التي كانت شديدة الخصوصية. أمسك الخنجر برفق وابتعد عنها لبعض الوقت.

عادَ فيها بعد دون قناع يتوَدَد إليها واستقبلته بحرج ظاهر لأنها كانت تخطط لقتله. وفي تلك اللحظة، لم يكن أقل قلقاً منها. كان يقول في نفسه:

- هل من المعقول أن تكون فتاة جميلة وفي مُقْتَبَلِ العُمرِ شريفة على هذا النحو؟ ماذا فعلتُ لها لكي ترغَبَ في قتلي؟ صحيح أنني لست جميلاً وأنني أكلُ بطريقة غير مرتبة وأن لدي بعض العيوب ولكن من ليس لديه عيوب؟ أنا رجل في هيئة حيوان. لكن كم من الحيوانات في هيئة أناس! زيلونيد تلك التي وجدتها في غاية الروعة أليس لها طباع نمرّة أو لبوة؟ آه! كم المظاهر خداعة!

كان يغمغم كل هذا بين أسنانه عندما سألتها ما به.

- أنت حزين يا ذيب. أو تكون نادماً على زواجك بي؟

قال لها:

- لا، لا أتغير بسهولة. كنت أفكر بوسيلة لإنهاء الحفل الراقص عمّا قريب. أشعرُ بالتعاس.

ابتهجت الأميرة لرؤيته شاعراً بالتعاس مفكرةً أتها ستنفذ خطتها بعناءٍ أقل. انتهت الحفلة. واضطُحِبَ ذيب وزوجته في عربةٍ فخمة. كان القصر كله مُضاءً بالمصابيح على شكلِ ذئاب، وأقيمت طقوس قبل أن يخلد الذئب والعروس للنوم. لم تكن زيلونيد تشكُّ البتة في أنّ الوصيصة المؤتمنة على أسرارها كانت خلف الستائر، فاندست في الفراش ومعها خيطٌ من الحرير تحت مخدتها أرادت استخدامه لتنتقم به لموتِ إيسمان، ولإكراهها هي على القبولِ بذلك الزواج المريع. خيم سكون تام، وتظاهر ذيب بالنوم وأخذ يشخر فيهتز لشخيره أثاث الغرفة كله.

قالت زيلونيد:

- وأخيراً نمت أيتها الذئب القبيح! ها قد وافت الساعة لمعاقتك على حبك المشؤوم. سوف تموت في هذه الليلة الظلماء. ونهضت على مهل وهُرعت إلى جميع الزوايا تُنادي على وصيفتها ولكنها لم تكن هناك لأنها لم تكن على علمٍ بمخطط زيلونيد. هفت بصوتٍ خافت:

- أيتها الصديقة الجاحدة! تخلّيت عني بعد أن أعطيتني موافقتك. ها قد نكثت بوعدك. لكن شجاعتي لن تخونني عند لزوم الحال. قالت هذه الكلمات ومررت برفق خيط الحرير حول عنق ذيب الذي لم يكن ينتظر إلا ذلك لكي يرتمي عليها. انقضت عليها وغرز أنيابه الطويلة في عنقها فأهرقت الروح بعد وقت قليل.

لا يمكن لكارثة كهذه أن تمر دون أن تحدث صدىً مدويًا. هرع أفراد القصر ورأوا بدهشة ما بعدها دهشة زيلونيد المحترصة. كانوا يريدون إنقاذها ولكنهم وقف أمامهم بهيئة مسعورة ليحول دون ذلك. أرسل في طلب الملكة، وعندما حضرت روى لها ما حدث

والسبب الذي حمّله على قتل تلك الأميرة التّعيسة.  
لم تستطع الملكة الامتناع عن التحسّر عليها.  
قالت:

- سبق أن حدّرتك من المعبات النَّاتجة عن مثل هذا الزّواج. عسى  
هذه النتيجة أن تُساعدك على الأقلّ للشّفاء من هذه الرّغبة المحمومة  
التي تغتريك للزّواج. لا يحظى المرء دوماً برؤية حفل زفافٍ ينتهي  
بجنازة.

لم يُجيب ذيب بشيء. كان مستغرِقاً في حلم عميق. خلد إلى الفراش  
دون أن يتمكن من التّوم. واستسلم لتأمل متواصلٍ في المآسي التي  
تعرضه. عاب على نفسه سراً التّسبب بوفاة أكثر شخصين أحبهما  
حتّى اليوم. كان الشّغف الذي كنهّ لهما يستفيق في قلبه كلّ لحظةٍ  
ليُعذّبه.

قال لنيل شابّ كان هو يثق به:

- كم أنا عديم الحظّ! لم أعش قط لحظة سعادة في حياتي. إذا  
تحدّثت عن العرش الذي سأعتليه، قالوا إنّه لأمر مؤسف أن يُنصب  
مسخّ ملكاً على مملكة بهذه الرّوعة. وإذا كنت أنقاسم عرشي مع فتاةٍ  
فقيرةٍ سعّت هذه الأخيرة إلى إيجاد الوسائل لِموت أو لِقتلني بدّل  
أن تعتبر نفسها سعيدة الحظّ. وإذا فتشت عن بعض السّلوى لدى  
والدي أو والدتي فإنهما يمقتانني وينظران إليّ غاضبين مستاءين. فما  
الذي يجدرّ بي فعله في خِصَم اليأس الذي يتملكني؟ سوف أهجرُ  
القصرَ وأذهب إلى أبعد غابةٍ وأعيش الحياة التي تليق بذئب يملك  
البأس والذكاء مثلي. لن أوّدي دور المتأثّق بعد اليوم. لن أجدّ أبداً  
هناك حيواناتٍ تلوّمني على أنّي أقبح منها. سيكون سهلاً عليّ أن  
أكون ملكهم لأنّ لديّ العقل وسوف يساعدي لإيجاد الوسيلة

للسيطرة عليهم. سأعيش بهناء معهم أكثر مما أعيش في هذا القصر، ولن أبتلي بالزواج ببهيمة تطعن نفسها أو تُريد خنفي. هاه! لنهرب، لنهرب بعيداً في الغابات ولنحتقر عرشاً يظنونني غير جدير به.

أراد صديقه المؤمن على أسراره أن يثنيه عن قرار عجيب كهذا. ومع ذلك رآه رازحاً تحت الضربات المتواصلة التي يكلها له فأله السيء ما جعله يُقلع عن الضغط عليه بالبقاء. وذات ليلة أهملت فيها إقامة الحراسة حول قصره، هرب دون أن يراه أحد حتى عمق الغابة حيث بدأ يفعل كل ما يفعله زملاؤه الذئاب.

تأثر الملك والملكة لذلك الرحيل الذي كان حافزه اليأس وحده. أرسلوا صيادين للبحث عن ابنيهما: ولكن كيف بالإمكان التعرف إليه؟ أسروا حيوانين مسعورين أو ثلاثة واقتادوها في ظل أخطار جمة، لكنها عاثت خراباً كبيراً في القصر فاتخذ القرار بعدم اللجوء إلى تلك الوسيلة. وكذلك صدر قرار بمنع قتل أي ذئب خشية أن يكون الأمير هو الضحية.

كان الذئب، لحظة رحيله، قد وعد صديقه المفضل بأن يكتب له أحياناً. أخذ معه لوحاً للكتابة. وبالفعل كان الحراس، من وقت لآخر، يجدون أمام باب المدينة، رسالة كلماتها مكتوبة بشكل مبهم موجهة إلى ذاك النبيل الشاب. وكانت تلك الرسائل تعزي الملكة لأنها تطمئننها أن ابنيها كان ما يزال حياً يرزق.

كانت والدة إيسان وزيلونيد متأثرة جداً لموت ابنتيها. بموتيهما، ذهب جميع أحلامها بالأبوة والعظمة أذراج الرياح. عاب الآخرون عليها طمعاها، فلولاها لكانتا لا تزالان على قيد الحياة، وأيضاً إكراهها لهما على الزواج بذيبي تحت طائلة التهديد. لم تعد الملكة تعاملها بطيبة كما في السابق فاتخذت القرار بالذهاب للعيش في الريف برفقة

مارتيزي ابنتها الوحيدة. كانت تلك تفوق أختيها جمالاً بأضعاف، وكانت تجمّع اللطف إلى الفتنة وتثير إعجاب كل من يراها. ذات يوم وفيما كانت تنزهه في الغابة برفقة خادمتين (لأن منزل والدتها لم يكن بعيداً عنها)، رأت فجأة على مسافة عشرين خطوة منها ذئباً ذا حجم هائل. دُعرت المرأتان اللتان ترافقانها فتخلتا عنها ولاذتا بالفرار. وتولّى مارتيزي خوف شديد سمّرها في مكانها وأفقدتها القدرة على الهرب.

كان ذلك ذيب نفسه وقد تعرّف إليها على الفور وأدرك هو من خلال ارتعاشها أنها ستموت رُعباً. لم يشأ أن يُخيفها أكثر. لكنه تريث وقال لها:

- يا مارتيزي، لا تخشي شيئاً فأنا أحبك كثيراً ولا يسعني الإساءة إليك. إن شئت أن أحسن صنيعاً معك فالأمر منوط بك. تعرفين ما عانيته بسبب شقيقتيك. ذاك جزاء مثلث لعاطفتي. أعترف أنني استحققت حقدّهما بسبب عنادي وإصراري على امتلاكهما رغماً عنهما. وعلمتُ مُد سكنتُ هذه الغابات أن لا شيء في العالم ينبع من الحرية أكثر من الحب. أرى جميع الحيوانات سعيدة لأنها لا تُكره نفسها على فعل شيء. لم أكن أعرف آنذاك قوانينها في الحياة، الآن بتّ أعرفها وأشعر فعلاً أنني أفضل الموت على الزواج بالإكراه. إذا كانت السماء الساخطة عليّ قد استكانت أخيراً، وإذا كانت مشيئتها أن تجعلك تشعرين بالودّ نحوي، فأنا أعترف لك يا مارتيزي أنني سأكون سعيداً لو اتفق حظي مع حظك. ولكن يا حسرة! ماذا دهاني لأفصح لك عن رغبتني: هل تريدنّ المجيء برفقة مسخٍ مثلي للعيش داخل كهفٍ مظلم؟

وفيما كان ذيب يتكلّم، استطاعت مارتيزي أن تستعيد رباطة



جأشها وأجابته:

- عجباً يا سيدي! أيعقل أن أراك في هذه الحال وهي قلما تتلاءم مع أصلك النبيل؟ الملكة والدةك تمضي أيامها بالبكاء والتحسر على مصيرك البائس.

قال ذيب وهو يقاطعها:

- لم يعد بائساً! لقد اتخذت قراري، صحيح أنني دفعت الثمن باهظاً ولكن الأمر انتهى الآن. لا تظني أيتها الصبية مارتيزي أن الإقامة في قصر لامع هو مصدر الغبطة العظمى، لأن هناك أشياء أكثر سحراً وأعود وأكرر ذلك: بإمكانك أن تدليني عليها إذا كنت في مزاج يسمح لك بأن تعيشي في البرية إلى جانبي.  
قالت:

- ولماذا لم تعد تريد العودة إلى المكان حيث أهلك وأحبابك؟  
هتف:

- أحبائي؟ لا، لا، لا أحد يحب الأمراء الرأحين تحت مصائبهم. يسعى الآخرون للانتفاع إلى ما لا نهاية من الأمراء، وإذا لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً فإتهم يجعلونهم مسؤولين عن سوء طالعهم ويحتفروهم أكثر من الجميع.  
ثم أضاف:

- ولكن ماذا دهاني؟ إذا مرّ بعض الدّبة أو الأسود الذين في جواربي من هنا وسمعوني أتكلّم على هذا النحو، فهذا يعني هلاكهم. اعقدي عزمك إذاً على المجيء معي دون أيّ هدف تضعينه نصب عينيك إلا قضاء أجل أيامك في خلوة منعزلة مع مسخ عديم الحظّ لكته لن يعود كذلك إذا امتلك قلبك.  
قالت له:

- يا ذيب، ليسَ لَدَيَّ حَتَّى الآنَ أيُّ سببٍ وجيهٍ لأحَبِّكَ. لولاكَ  
لَكَانَتْ أختايَ اللَّتانِ أَحَبَّهما كَثيراً على قِيدِ الحِياةِ. أمْهَلْنِي لِبعضِ  
الوقتِ، ليسَ سهلاً اتَّخَذَ قِرارَ هذهِ الخِطوةِ.  
قالَ لها:

- رَبِّما كُنْتَ تَريدِينَ أنْ أمْهَلَكَ لِكَيِّ يَتَسَنَّى لَكَ أنْ تَعْدِرِي بي.  
أجابَتْ:

- لستِ بِقادِرَةٍ على ذلكَ وأؤكِّدُ لَكَ منذَ الآنَ أنِّي لنْ أُخبرَ أحداً  
أنِّي رأيتُكَ.  
سأها:

- هلِ ستَعودِينَ إلى هنا؟  
أجابَتْ:

- لا تشكِّ بالأمرِ.

- لكنَّ أُمَّكَ ستُعَارِضُ مَجِيئَكَ إلى هنا. سوفَ يُخَبِّرونها أَنَّكَ التَّقِيَتْ  
ذاكَ الحيوانَ المُرْعَبِ. ولنْ تُجازِفَ بِتَعْرِيضِكَ لِأيِّ خَطرٍ إضافيٍّ. تعالِي  
إذاً يا مارتيزي، تعالِي معي.  
قالَتْ:

- إلى أيِّ مَكانٍ سوفَ تَصطَحِبُنِي؟  
أجابها:

- إلى كَهْفٍ عَميقٍ. هناكَ حيثَ يَجري جَدولٌ أشدَّ نِقاءً مِنَ البَلُورِ،  
تَكسو ضِفافَهُ الطَّحالبُ والعُشبُ النَّضْرُ، ويُرْجَعُ أصدااءُ الأصواتِ  
السَّاكِيةِ لِلرَّعاةِ العاشِقينَ الذينَ يُعامَلونَ بِجِفاءِ.  
أضافَتْ:

- وهناكَ سَنَعِيشُ معاً: وسيأتي لِزِيارَتِكَ أَحَدُ أصدقائِكَ المفضَّلينَ  
فيلتَهَمُنِي وينتهي أمرِي؛ أو أنْ والدَتِي سيُصِيبُها اليأسُ لِفقدانِي

وستجعلهم يبحثون عني في كل مكان وسيجدونني في نهاية المطاف لأن هذه الغابة مجاورة لمنزلها.

قال لها:

- سنذهب إلى حيث تشائين. ليس لدى ذيب مسكين الكثير ليُعده فما يحتاجه قليل جداً ويجهز بسرعة.

قالت:

- أوافقك الرأي ولكن في ما يخصني، عليّ الاستعداد ملياً. يلزمني ثياب لكل الفصول وشرائط وأحجار كريمة.

قال ذيب:

- يلزمك زينة سخيفة وأشياء لا نفع منها. عندما تمتلك فتاة مثلك الذكاء والعقل أفلا يمكنك أن تتعالى على هذه الصغائر؟ صدقيني يا مارتيزي، لن تزيد على جمالك شيئاً وأنا متأكد أنها سوف تكمد بريقه. لا شيء يجدد نظارة سحتك كماء الينابيع الصافية. شعرك ممتوج، رائع اللون، وأرق من الخيوط التي يحبس فيها العنكبوت الذبابة المسكينة؛ تزييني به. أسنانك أكثر انتظاماً وأنصح بياضاً من اللآلئ، اكتفي ببريقها، واتركي الحلويات السخيفة لأولئك اللواتي هن أقل جمالاً منك.

أجابت:

- أنا مسرورة جداً لما تقوله ولكنك لن تستطيع أن تُقنعني بأن أدفن نفسي في عمق إحدى المغاور حيث لا رقيق لي إلا السحالي والحلازين. أليس من الأفضل أن تأتي معي إلى أبيك الملك؟ أعدك أنهم إذا وافقوا على زواجنا فسأكون سعيدة. وإذا كنت تحبني أفلا تتمنى لي أن أكون سعيدة وأن أكون في مقام مجيد؟

أضاف:

- أَحَبُّكَ أَيُّهَا الْعَشِيقَةُ الْجَمِيلَةُ لَكِنَّكَ لَا تُحَبِّبِنِي. هَذِهِ الرَّغْبَةُ الْجَاحِمَةُ فِي نَيْلِ الشَّرَفِ وَالثَّرَاءِ هِيَ الَّتِي تَدْفَعُكَ لِتَقْبَلِي بِي كَزَوْجٍ. أَجَابَتْ مَارْتِيزِي:

- لَدَيْكَ اسْتِعْدَادٌ فَطْرِيٌّ لِتَحْكَمَ بِشَكْلِ سَيِّءٍ عَلَى جَنْسِنَا، وَلَكِنْ يَا سَيِّدَ ذَيْبٍ أَنَا أَعَاهِدُكَ عَلَى صَدَاقَةٍ مُتَفَانِيَّةٍ، هَذَا أَيْضاً شَيْءٌ مُهِمٌّ. فَكَّرَ فِي الْأَمْرِ، سَوْفَ تَرَانِي هُنَا فِي غَضُونِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

اسْتَأْذَنَ الْأَمِيرُ بِالْإِنْصِرَافِ وَانْسَحَبَ إِلَى كَهْفِهِ الْمَظْلَمِ وَهُوَ يَمَعْنُ التَّفَكِيرَ فِي كُلِّ مَا قَالَتْهُ لَهُ. إِنَّ انْعِدَامَ حَظْوَتِهِ يَجْعَلُهُ مَكْرُوهاً مِنْ كُلِّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَجِبُهُمْ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ يَمْتَدِّحْهُ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ لَطِيفَةٍ وَذَلِكَ مَا جَعَلَهُ أَكْثَرَ تَأَثُّراً بِكَلِمَاتِ مَارْتِيزِي. وَمِنْ ثَمَّ أَرَادَ أَنْ يُعِدَّ لَهَا مَادِبَةَ لَذِيذَةٍ، فَاصْطَادَ لَهَا بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ وَضَعَهَا فِي كَهْفِهِ مُنْتَظِراً اللَّحْظَةَ الَّتِي سَتَفِي فِيهَا مَارْتِيزِي بِكَلَامِهَا.

مِنْ جَهَّتِهَا لَمْ تَكُنْ قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَتَّخِذَ قَرَاراً حَاسِماً. لَوْ أَنَّ ذَيْبَ كَانَ جَمِيلاً بِقَدْرِ مَا هُوَ قَبِيحٌ، لَوْ أَنَّهَا يُجَبِّانِ أَحَدَهُمَا الْآخَرَ عَلَى غَرَارِ الْعَاشِقِينَ الْأَسْطُورِيِّينَ أُسْتَرِيهِ وَسِيْلَادُونَ، لَكَانَ كُلُّ مَا تَطْمَحُ إِلَيْهِ هُوَ أَنْ تُمَضِّيَ هَكَذَا أَجَلَ أَيَّامِهَا فِي تِلْكَ الْخُلُوةِ الْمُرْعَبَةِ. وَلَكِنْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ ذَيْبٍ وَسِيْلَادُونَ! وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهَا حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ مُتَعَلِّقاً أَوْ مُعْجَباً بِأَحَدٍ. اتَّخَذَتْ الْقَرَارَ بِأَنْ تَعِيشَ مَعَ الْأَمِيرِ إِذَا شَاءَ أَنْ يَتْرَكَ الْغَايَةَ.

وَهَرَبَتْ خِلْسَةً لِلذَّهَابِ لِلِقَائِهِ. وَجَدَتْهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي حُدِّدَ فِيهِ الْمَوْعِدُ: كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فِي الْيَوْمِ خَشِيَةً أَنْ تَفُوتَهُ اللَّحْظَةَ الَّتِي سَتَأْتِي فِيهَا. مَا إِنْ رَأَاهَا حَتَّى هُرِعَ لِمُؤَافَاتِهَا جَائِئياً عِنْدَ قَدَمَيْهَا وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الذَّنَابَ، حِينَ يَحْلُو لَهَا، تَعْرِفُ كَيْفَ تَلْقَى التَّحِيَّةَ بِلَطْفٍ وَتَفَانٍ.

ثم انعزلاً في إحدى الخلوات. نظر إليها ذيب بعينه الصغيرتين  
المليئتين بالحب والشغف.  
قال لها:

- هل يمكنكني أن أمل بعطفٍ ما منك نحوي؟  
أجابت:

- بإمكانك أن تأمل الكثير إذا اقتنعت بالعودة إلى القصر.  
أصارك القول إنني لا أشعر بالقدرة على تمضية بقية حياتي بعيدة  
عن المجتمع.  
قال لها:

- هكذا إذا! هذا لأنك لا تُحَيِّنِي. صحيح أنني لستُ جديراً  
بالحب، لكنني تعيس، وعليك أن تفعلني من أجلي، بدافع الشفقة أو  
السخاء، ما تستطيعين أن تفعليه لآخر بدافع الحب.  
أجابت:

- مهلاً! من قال لك إن هذه المشاعر غريبة عن هذه العاطفة  
التي أكنها لك. صدقني يا ذيب، إن أكبر برهانٍ عليها هو رغبتني  
بمرافقتك عند أبيك الملك.  
قال لها:

- تعالي إلى مغارتي. تعالي واحكمي بنفسك على ما تريدين أن  
أتحلّي عنه لأجلك.  
ترددت قليلاً حياءً هذا الاقتراح، كانت تخشى أن يشتبه فيها رغماً  
عنها. حدس ما كانت تفكر به.  
قال لها:

- لا تخشي شيئاً! لن أكون سعيداً أبداً إذا أكرهتك على فعل شيء!  
وثقت مارتيزي بكلامه. أنزلها إلى عمق الكهف وهناك وجدت

الحيوانات التي ذبحها لها لكي يعدّها لها مائدة شهية. أشعرتها تلك المذبحة بالغثيان فأشاحت بداية نظرها عنها وأرادت الخروج من هناك إلا أنّ ذيب اتخذ نبرة السيّد وهيئته وقال لها:

- مارتيزي الحبيبة، تعجيبيني كثيراً ويصعبُ عليّ أن أدع لك الحرية لكي تتركيني. تشهد السماء على أنّك ستكونين دوماً مالكة قلبي. ثمة أسباب قاهرة تمنعني من العودة إلى أبي الملك؛ لذا أقبلها هنا حبي وثقي بي. وليكن هذا الجدول المناسب وهذه الكرامة الخضراء أبداً وهذه الصخرة وهذه الغابات وجميع ساكنيها شهوداً على عهدنا المتبادل.

لم تكن لديها الرغبة مثله لأن تقطع على نفسها مثل هذا العهد. لكنّها كانت محتبسة في الكهف دون أن تستطيع الخروج. لماذا ذهبت إليه. ألم يكن يجدر بها أن تستبق ما حدث لها؟ أخذت بالبكاء وتوجّه اللوم لذيب.  
قالت له:

- كيف بإمكانني أن أثق بكلامك ما دُمتَ أخللت بأول وعدٍ قطعتَه لي؟

قال لها وهو يتبسّم على الطريقة الذئبية:

- يجب أن يكون هناك شيء من الرجولة يُخالط الذئب الذي فيّ. هذا الإخلال بالوعد الذي تعيبنه عليّ هو هذا المكر اللطيف الذي أرعى به مصالحِي. إنّ الرجل فيّ هو الذي يدفعني. وإذا صدقتك القول، فأنا أصارحك بأنّ الحيوانات لديها من الشرف فيما بينها أكثر ممّا بين البشر.

أجابته:

- يا للأسف! لديك أسوأ ما في الإثنين، لديك قلبُ إنسان وهيئة

عند رغبتك.

قال لها:

- ولكن يا مارتيزي الجميلة، هل تريدان أن تظلي معي دون أن تكوني زوجتي؟ كوني متأكدة: لن أسمع لك بالخروج من هنا أبداً. فتضاغف بكاؤها متوسلة إليه بالحاح، لكن ذلك لم يؤثر به. وبعد أن عارضت طويلاً زواجها به ارتضت أخيراً الأمر مؤكدة له أنها ستحبته كما لو كان أجمل أمير في العالم.

سحره لطفها. فقبل يديها ألف مرة وأكد لها بدوره أنها ربما لن تكون على التعاسة التي تصوورها. سألها فيما بعد إذا كانت ستأكل من الطرائد التي اصطادها لأجلها. قالت له:

- لا، لا أستسيغها. إذا استطعت أن تجلب لي فواكه فسأكون مسرورة.

خرج وأقل جيداً مدخل الكهف ما جعل هرب مارتيزي مستحيلاً. ولكنها لو استطاعت الهرب لما فعلت لأنها كانت اتخذت قرارها بالبقاء.

حمل ذيب ثلاثة قنافذ بشار البرتقال والليمون الحلو والحامض وفواكه أخرى غرزها في الأشواك التي تكسو جسم القنافذ ووصلت المؤونة من الفواكه بأمان حتى المغارة. دخل إليها وقدمها لمارتيزي لكي تأكل منها.

قال لها:

- هذه مأدبة عرس لا تشبه أبداً تلك التي أقيمت لسقيقتيك. لكنني أمل أن نتمتع بها أكثر، وإن تكن مظاهر الأبهة فيها أقل.

أجابت:

- هكذا شاءت السّماء!

ومن ثمَّ عَرَفَتْ مِنَ الْمَاءِ بِيَدِهَا وَشَرِبَتْ مَتَمِنَّةً دَوَامَ الصِّحَّةِ  
لِلذُّبِ فَسُرَّ لِذَلِكَ كَثِيرًا.

وكانت المأدبة قصيرة بقدر ما كانت بسيطة. ثمَّ جَمَعَتْ مارتيزي  
كُلَّ الْأَعْشَابِ وَالطَّحَالِبِ وَالْأَزْهَارِ الَّتِي أَحْضَرَهَا لَهَا ذَيْبٌ وَصَنَعَتْ  
مِنْهَا سَرِيرًا لَهَا وَلِلْأَمِيرِ فَرَقْدًا فَوْقَهُ. وَعُنِيَتْ بِأَنْ تَسْأَلَهُ مَا إِذَا كَانَ يُجَبِّدُ  
أَنْ تَكُونَ وَسَادَتَهُ عَالِيَةً أَمْ مَنْخَفِضَةً وَإِذَا كَانَ لَدَيْهِ مَتَسِّعٌ مِنَ الْمَكَانِ  
لِيَنَامَ مُرْتَاحًا وَفِي آيَةِ جِهَةٍ. شَكَرَهَا ذَيْبُ الطَّيِّبِ بَحْنَانَ وَكَانَ يَهْتَفُ  
مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ:

- لَنْ أَبْدَلَ حَيَاتِي هَذِهِ بِكُلِّ مَمَالِكِ الْأَرْضِ. لَقَدْ عَثَرْتُ أَخِيرًا عَلَى  
ضَالَّتِي. أَحَبَّ حَبِيبَتِي وَهِيَ مُحِبَّتِي.

وقال أشياء كثيرة جميلة ولم تتفاجأ منها، لأنَّه كَانَ مَفْعَمًا بِالذِّكَاءِ.  
لَكِنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَمْتَعُ مِثْلَهُ بِتِلْكَ الْخُلُوةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُ فِيهَا.  
وَاسْتَسَلِمًا لِلنَّوْمِ. أَفَاقَتْ مارتيزي لِأَنَّ سَرِيرَهَا بَدَأَ لَهَا أَفْضَلَ مِمَّا  
كَانَ عِنْدَمَا رَقَدَتْ فِيهِ. ثُمَّ لَمَسَتْ ذَيْبَ بَرْفِقٍ فَأَلْفَتَ رَأْسَهُ شَبِيهًا بِرَأْسِ  
الْإِنْسَانِ يَزِيئُهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ وَلَدَيْهِ ذِرَاعَانِ وَيَدَانِ. لَمْ تَنْ تَشْعُرْ بِالذَّهْشَةِ.  
خَلَدَتْ لِلنَّوْمِ مِنْ جَدِيدٍ وَعِنْدَمَا طَلَعَ النَّهَارُ، وَجَدَتْ زَوْجَهَا ذَيْبًا كَمَا  
هُوَ دَوْمًا.

أمضيا ذلك اليوم كسابقه. لم تُفصح مارتيزي لِزَوْجِهَا عَمَّا ارْتَابَتْ  
بِهِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ. ثُمَّ وَافَى وَقْتُ النَّوْمِ. لَمَسَتْ رَأْسَهُ فِيهَا كَانَ نَائِمًا،  
وَوَجَدَتْ الْفَارِقَ السَّابِقَ نَفْسَهُ. شَعَرَتْ بِالْعَذَابِ وَلَمْ تَعُدْ تَنَامُ إِطْلَاقًا  
لِأَنَّهَا شَعَرَتْ أَنَّهَا فِي قَلْقٍ مُتَوَاصِلٍ وَتَتَنَهَّدُ بِاسْتِمْرَارٍ. لَاحِظْ ذَيْبَ  
ذَلِكَ بِيَأْسٍ حَقِيقِيٍّ.



قال لها:

- يا عزيزتي مارتيزي أنتِ لا تُحِبِّينِي. أنا تعيس وهَيْتِي تنفركِ مني. سوف تتسببين بموتي.

أجابت:

- بل قُلْ أيُّها البربريَّ أنكِ ستسبب بموتي أنا. فإنَّ الخطأ الذي ترتكبه معي يمسنني بشكلٍ لا أستطيع تحمّله.

هتف:

- تقولين إنني أخطأت إليك وإني بربريَّ؟ إشرحي موقفك لأنني لم أخطئ إليك بشيءٍ وليس هنالك ما تلوميني عليه.

قالت له:

- وهل تظنّ أنني لا أعرف أنكِ تُخلي مكانك في كلّ ليلةٍ إلى رجلٍ؟

قال:

- إنَّ الذئاب، وخاصةً تلك التي تشبهني، ليست حسنة الطبع ولا تخطرَن على بالكِ فكرةً مهينةً جداً لكِ ولي يا عزيزتي مارتيزي، وفكري أنني سأكون غيوراً حتى من الملائكة. ولكن ربّما وأنتِ نائمةً اختلقتِ لنفسكِ هذا الوهم.

خجلت مارتيزي من حديثها عن أمرٍ ليس قابلاً للتصديق، فأجابت أنها تثق بكلامه مع أنها متأكّدة من أنها لم تكن نائمة عندما أحسّت بأنها تلمس ذراعين ويدين وشعراً، وأنها أرادت أن تدحض ظنّها، ولن تتحدّث عنه في المستقبل.

وبالفعل أبعّدت من ذهنها كلّ المواضيع التي قد تُثيرُ فيها شكوكاً. ومضت ستة أشهرٍ غير ممتعةٍ كثيراً بالنسبة لمارتيزي لأنها لم تكن تخرج من الكهفِ لثلاثٍ تلتقي بأمّها أو بخدّامها. منذ أن فقدت تلك الأمّ التعيسة ابنتها وهي لا تكفّ عن التحيب وعن مناداتها. كانت تسمع

أنيها يقرع جدار أذنيها كل يوم، فتألم خفية لأنها سبب كل ذلك الألم لوالدتها ولعجزها عن تغزيتها. لكن ذيب زجرها بقوة وكانت تهابه بقدر ما تحبه.

ولأنها كانت في غاية الرقة والعدوبة فما انفكت تُغديق على ذيب الكثير من الحنان وهو أيضاً كان يحبها بشغف كبير. وجدت نفسها حاملاً وشعرت بحزنٍ هائلٍ إذ تصوّرت أن التسلسل الذئبي سوف يستمر.

وذات ليلة فارق النوم عينيها وراحت تبكي بصمت. سمعت كلاماً قريباً منها وكأن أحداً يتحدث إليها بصوتٍ خافت، وأصغت إلى كل كلمة تقال لها. كان ذلك صوت الذئب الطيب الذي كان يتوسل إلى أحدهم أن يكون أقل قسوة معه وأن يوافق على أن يسمح له بالقيام بأمر طلبه منه منذ زمنٍ طويل. وكان الجواب دائماً: - لا، لا، لا أريد.

تعاطم قلق مارتيزي أكثر من أي وقت مضى وقالت في نفسها: - من ذا الذي يستطيع الدخول إلى هذه المغارة؟ لم يبح لي زوجي قط بهذا السر.

لم تشأ العودة إلى الثوم من جديد، كانت تتحرق لهفة لمعرفة ماذا يجري. وبعد أن خرج زائر الأمير من الكهف نام هذا الأخير في الحال مرسلأ شخيراً قوياً. وعندئذ نهضت هي وأرادت أن ترى ما إذا كان سهلاً زحزحة الصخرة التي تسد مدخل الكهف لكنها لم تستطع تحريكها. وبعد ما عادت بهدوء في الظلام، شعرت بشيء ما تحت قدميها: كان جلد ذئب. أخذته وخبأته. ثم ترقبت بصمت ما ستؤول إليه الأمور.

كان الفجر لا يكاد يطلع عندما نهض ذيب. سمعت جلسته وهو

يبحث في كلِّ جهة من المغارة. وفيها هو يتململُ منشغلَ البال، طلعَ  
النَّهار فرأته رائِعَ الجمالِ حَسَنَ التَّكوين. انذهلت للمفاجأة وغمرَ  
السُّرور قلبها بشكلٍ لا يوصف.

هتفت:

- آه يا لَفْرَحَتِي! لا تحجب عني هذه السَّعادة، أعرف سرَّها  
وأشعر به عميقاً في قلبي يا أميري العزيز! آية صدفةٍ سعيدة جعلتك  
أجملَ النَّاس جميعاً؟

فوجئَ بأنَّها اكتشفت أمره لكنَّه قال:

- يا مارتيزي العزيزة، كنت سأعلِّمك به لكنني أدينُ بهذا التحوُّلِ  
لكِ أنتِ.

«اعلمي أنَّ الملكة والدِّي كانت تَنامُ ذات يوم في ظلِّ بعض  
الأشجار، وعندئذٍ عبَّرت جنَّياتُ ثلاثِ الفِضاء وتعرَّفنَ إليها  
فتوقَّفن. منحَّتها الجنَّية الكبرى هبةً أن تُرزقَ بصبيٍّ ذكيٍّ وحسنِ  
التَّكوين. وزايدتُ الثَّانية عليها ومنحَّنتني مزايا حسنة كثيرة. لكنَّ  
الصَّغرى قالت وهي تنفجر ضاحكة: «يجب إدخال بعض التَّنوع إلى  
هذه المسألة، لن يكون الرِّبيع جميلاً إذا لم يسبقه الشَّتاء. ولكي يكون  
الأمير الذي ترغيبين في أن تُرزقي به أكثر سِحراً سأجعله ذئباً إلى أن  
يتزوَّج ثلاث نساء، وتعثر الأخيرة على جِلده». ما إن قالت الجنَّيات  
الثلاث هذه الكلمات حتَّى توارَيْنَ عن الأنظار. سمِعَت الملكة ما  
قالته الجنَّيتان الكبرى والوسطى بوضوح ولكنَّها لم تفهم ما قالته  
الجنَّية الشريرة لأنَّ ضحككتها كانت عالية، ومنعَّتها من تبيِّن قولها.

«لم أعرف أنا نفسي كلَّ ما أخبرتُك به إلا يوم زواجنا. عندما  
ذهبتُ لأوافيك والشغف الجارف يتملِّكني، توقَّفتُ لكي أرتوي  
من جدولٍ يسيل قريباً من كهفي. إمَّا لأنَّ الجدولَ كانَ أصفى من

ذي قبل، أو لآتني نظرتُ إليه بانتباه أكثر من المعتاد، وجدّثني مُرعباً وشعرتُ باليأس التّام: لن أستطيع أبداً أن أروق لك، أيقنتُ من ذلك ورحتُ أبكي بكاءً مرّاً. ومن دونِ مبالغة، ذرُفتُ من الدّموع ما يستطيع رُفد الجدول، وأنا أفكّر أنّ من المستحيل أن أقدرَ على إثارة إعجابك!

«ثبّطت هذه الفكرة عزيّمتي واتّخذت القرارَ بعدَم المُضيّ في هذه العَلاقة. قلت: «لا أستطيع أن أكون سعيداً إذا لم أكن محبوباً، ولا يمكن لأية فتاةٍ عاقلة أن تُحبّني». تمتتُ بهذه الكلمات وبعدئذٍ لمُحِثُ سيّدة تقرب مِنّي بجرأة. فاجأتني جرأتها لأنّ مَظَهري كان يُثير الخوف في من يراني لأول مرّة. قالت لي: يا ذيب، إنّ زَمَن سعادتك يقترب شرط أن تقترن بهارتيزي وتحبّك كما أنت. وكن واثقاً أنّه لن يمضي وقت قليل على تحقّق هذا الشرط حتّى تعودَ إنساناً. وابتداءً من الليلة الأولى لِزِفافك ستترك جلدَ الحيوانِ هذا الذي يسيئك النّظر إليه ولكنك ستستعيده قبل طلوع النّهار. ولا تتحدّث عن الموضوع إلى زوجتك ولا تدعها تلاحظَ تحوّلَكَ حتّى اليوم الذي سينكشف فيه شكلك النّهائي».

وأضاف:

- أخبرتني الجنيّة كلّ ما سبقَ أن أخبرتكَ إياه عن الملكة والدّي. شكرتها بكلّ تواضع وامتنان لما وعدتني به. وذهبتُ لِلقائِكِ بِفرحٍ ممزوج بِرِجاءٍ لم أستشعره من قبل. وعندما أسعدتُ بتلقّي بوادِرِ الصّدّاقَة منك، ازدادَ سروري كثيراً وأردتُ بلهفة حارقة أن أبوح لك بسرّي. لكنّ الجنيّة كانت غير غافلة عن ذلك وجاءت تُهدّدني أثناء الليل قائلة بأنّها ستُنزِلُ بي أشدّ أنواع العِقابِ إذا لم أسكت. قلت لها: «آه يا سيّدي يبدو أنّك لم تحبّي من قبل لأنك ترغميني على

التسّر على أجهل شيءٍ يمكن لي أن أتقاسمه مع أكثر شخص أحبّه في هذا العالم». كانت تضحك من ألمي ومخّط عليّ أن أحزن لأنّ كلّ شيءٍ سيُصبح مؤثيّاً لي».

ثمّ أضاف:

- ولكن أعيدي لي جلد الذئب، يجب أن أضعه من جديد خوفاً من أن أغيب الجنّيات.

قالت له مارتيزي:

- يا أميري العزيز، أيّاً يكن شكلك فلن أتغيّر حيالك أبداً، وسوف أحتفظ بذكرى تحوّلك السّاحر.

قال:

- أنا متيقّن من أنّ الجنّيات لا يُردنّ أن يتسببن لنا بالعذاب طويلاً. وسيوليننا اهتمامهن. هذا السرير الذي يبدو لك من الطّحالب والأعشاب هو من الرّيش الممتاز والصّوف النّاعم، وهنّ اللواتي وضعن عند مدخل المغارة جميع الفواكه الرّائعة التي تناولتها.

لم تتوان مارتيزي عن أن تشكر الجنّيات على كلّ تلك النّعم.

وفيا كانت تتوجّه إليهنّ بأحرّ عبارات الشكر، كان ذيب يبذل جهداً كبيراً ليضع جلد الذئب من جديد لكنّه ضاق كثيراً عليه ولم يعد باستطاعته أن يغطّي له ساقاً واحدة. جذبّه طولاً وعرضاً بأسنانه ويديه فلم يُفلق. أصابه حزن قاتل وتحسّر على مصيره لأنّه خشي، وبحقّ، أن تبادر الجنّيّة التي جعلته ذنباً حقيقيّاً لأنّ تعيد له هيئته الأولى ولزمن طويل.

كان يقول:

- يا لحسرتي! لماذا أخفيت يا مارتيزي العريزة هذا الجلد المشؤوم؟

ربّما كان الهدف معاقبتنا! أريد، كما رأيت، استخدامه كما كنت أفعل

من قبل ولا أستطيع. إذا كانت الجئيات غاضبات فكيف سنهدئ  
من روعهن؟

كانت مارتيزي تبكي من جهتها وكان بُكاؤها غريباً لا سيما أنّ  
السبب هو أنّ ذيب لا يستطيع العودة إلى ما كان عليه.

وفي تلك اللحظة اهتزت المغارة، ثمّ فُتِحَت القبة ورأيا ستّة مغازل  
محمّلة بالحريز، ثلاثة منها بيضاء وثلاثة أخرى سوداء، وكانت ترقص  
معاً. خرج صوت من إحداها قائلاً:

- إذا حزرَ ذيب ومارتيزي ماذا تعني هذه المغازل البيضاء  
والسوداء فسيكونان سعيدين.

سرح الأمير قليلاً ثمّ قال:

- أظنّ أنّ المغازل البيضاء الثلاثة تزُمز إلى الجئيات الثلاث اللواتي  
منحّنتني المزايلا لدى ولادتي.

هتفت مارتيزي:

- وبالنسبة لي، أفترض أنّ المغازل السوداء الثلاثة هي شقيقتاي  
وكوريدون.

وفي الحال ظهرت الجئيات مكان المغازل البيضاء. وأيضاً ظهرَ  
كلُّ من إيسمان وزيلونيد وكوريدون. لم يكن هناك شيء أكثر رعباً  
من رؤية هؤلاء عائدين من العالم الآخر.

قالوا لمارتيزي:

- لا تظني أنّنا أتينا من مكان بعيد كهذا الذي تتصوّرينه. تكرّمت  
الجئيات الصالحات علينا فأنجّدننا. وفيما كنتم تبكون علينا، كنّ  
يصطحبننا في مركب ولم يكن ينقصنا سوى رؤيتكم.

قال ذيب:

- ماذا! ألم أر بأمّ عيني إيسمان وحبیبها هامدين بلا حراك، ألم

أقتل زيلونيد بنفسى؟

قالت الجنّيات:

- لا، رأيتِ خِذعاً صَوْرَناها لك. وفي كلِّ يومِ نقومُ بهذه الحِيلِ الغريبة. ذاكِ يظنُّ زوجته في الحفلِ الرَّاقصِ فيها هيَّ نائِمةٌ في سَريرِها. وذاكِ يظنُّ أنَّه حَظِيٌّ بِخَلِيلَةٍ جَمِيلَةٍ فيها هيَّ قَرْدَةٌ، وذاكِ يظنُّ أنَّه قَتَلَ عَدُوّه، فيما عَدُوّه يَتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ في بَلَدٍ آخَرَ.

قال الأمير:

- سوف تزرعَن في نَفْسي شُكوكاً غريبةً. يبدو لي لدى سَماعِكُنَّ أنَّه يجبُ ألاَّ نصدِّقَ ما نراه حتَّى...

أجابت الجنّيات:

- ليست هذه قاعدةٌ عامَّة. ولكن من المؤكَّد أنَّه يجبُ أن نراجعَ أَحكامَنا بشأنِ أمورٍ كثيرةٍ لأنَّ هناكِ دوماً مقداراً من السِّحرِ في كلِّ ما يبدو لنا يقيناً تاماً.

شَكَرَ الأميرُ وزوجته الجنّيات لأنهنَّ حافظن على حياة أحبَّاهما، وأوضحن لهما أشياء كانت خافية عليهما.

ثمَّ أضافت مارتيزي وهي تترتمي عند أقدامهن:

- ولكن هل أستطيع التأكُّد من أنَّكُنَّ لن تُعِدَّنَ جلدَ الذِّئبِ لأميري الوفيِّ؟

قلن لها:

- جئنا نؤكِّد لكما ذلك لأنَّ الوقت حان للعودة إلى القصر.

وللحال تحوَّلت الصَّخْرَةُ إلى خيِّمةٍ رائعةٍ حيث وَجَدَ الأميرُ خِداماً عديدين يُساعِدونه على ارتداءِ ثيابِ بديعةٍ. وكذلك وَجَدَتْ مارتيزي نَفْسَها مُحاطَةً بِسَيِّداتٍ وبأدواتٍ زينةٍ كاملةٍ لِتَسْرِيحِ الشَّعْرِ واللَّوْازِمِ الأخرى. ثمَّ أقامت لهما الجنّيات وليمَةً فخمةً. وهذا كافٍ

لإعطاء فكرة عن مدى اهتمام الجنيات بهما.

لم يكن للفرحة التي عمّت المكان مثيل. كل ما عاناه ذيب من عذاب انمحي أمام متعة أن يرى نفسه رجلاً، لا بل إنه أصبح رجلاً رائع الجمال. وبعد انتهاء الوليمة، شوهدت أجمل أحصنة في العالم تعدو مسرعة جداً وقد أوثقت إلى عربات بديعة. صعد الزوجان إلى عربتهما ولحق بهما الموكب الصغير. ومشى حراس أمام العربات وخلفها. وهكذا ذهب ذيب إلى القصر.

لم يكن أحد في القصر يعرف من أين أتى ذلك الموكب الفخم ولا من كان بداخله. وعندئذ نادى البشير بصوت عالٍ على إيقاع الأبواق والصنوج، وهرع الشعب كله ليرى الأمير وفُتِنَ الجميع به، ولم يشأ أحد الارتياح في صحة الأخبار التي يسمعونها على الرغم من غرابتها. ووصلت الأخبار للملك والملكة فنزلا على وجه السرعة إلى باحة القصر. كان الأمير يشبه والده كثيراً بشكل لا يرقى إليه الشك. وعمّت الفرحة الناس وبعد بضعة أشهر زادت الفرحة بولادة ابن لم يكن لديه قط لا هيئة الذئب ولا طباعه.

حين نخفي عن الحبيب

كل ما يُلزِمنا به الواجب:

تلك هي الشجاعة الحقيقية،

وبفضلها استحقّ ذيب

هذه العودة الظافرة إلى قصر مجيد.

أن يُلام على تهاونه في الحب، أو افق،

ولكن أحرى بالإنسان أن يُجَلَّ بالحب

من أن يُجَلَّ بالحكمة.





## «العصفور الأزرق» وحكايات أخرى

ساهمت ماري-كاترين دونوا إلى جانب شارل بيرو وعدد من الكاتبات والكتّاب الفرنسيين في إرساء قواعد أدب الناشئة وبخاصة ما يدعى حكايا الجنّيات. وكأغلب كتّاب هذا الجنس الأدبي، لطالما عملت دونوا على استلهام حكايات آتية من مصادر وثقافات شتى، تعمل على تطويرها والإضافة إليها وقلب مساراتها. جامعةً فيها كلاً من الخرافيّ والعجائبيّ والتاريخيّ والواقعيّ. وبذا قرّبت الحكاية الخرافيّة من القصّة الطويلة أو الرواية القصيرة فكانت من الممهدين لكتابة الحدائث.

من سمات حدائث حكايات دونوا توفّر نصوصها على قدر من الدعابة والسخرية. فتبالغ في وصف قبح بعض الشّخص أو جمالها، وتنسّي أحياناً بوصف سذاجة بعض العشق أو الأبطال. مستهدفةً بالتّمذ بعض العناصر الشائعة في حكايات الفروسيّة والعشوق.

ومراراً تخرج على بعض قواعد هذا الجنس الأدبيّ. فلا تلتمز مثلاً بمبدأ النهاية السعيدة في جميع الحكايات. هكذا جد لديها نهايات غير مألوفة ولا متوقعة. لا بل حتّى نهايات مأساوية. وفي هذا الخرق لقاعدة يفرضها الكتّاب على أغلب حكايا الجنّيات وقصص الناشئة تُقرّب الكاتبة الأدب من الواقع ولا تتخفى بربّاء على ما في التجربة الملموسة أحياناً من مآسٍ ومصاعب وخسارات.

المعارف العامة  
التشقة وعلم النفس  
الديانات  
العلوم الاجتماعية  
اللغات  
العلوم الطبيعية والتقنية / التطبيقية  
الفنون والألعاب الرياضية  
الأدب  
التاريخ والجغرافيا وكتب المسرد  
المنهاج و مناهج

